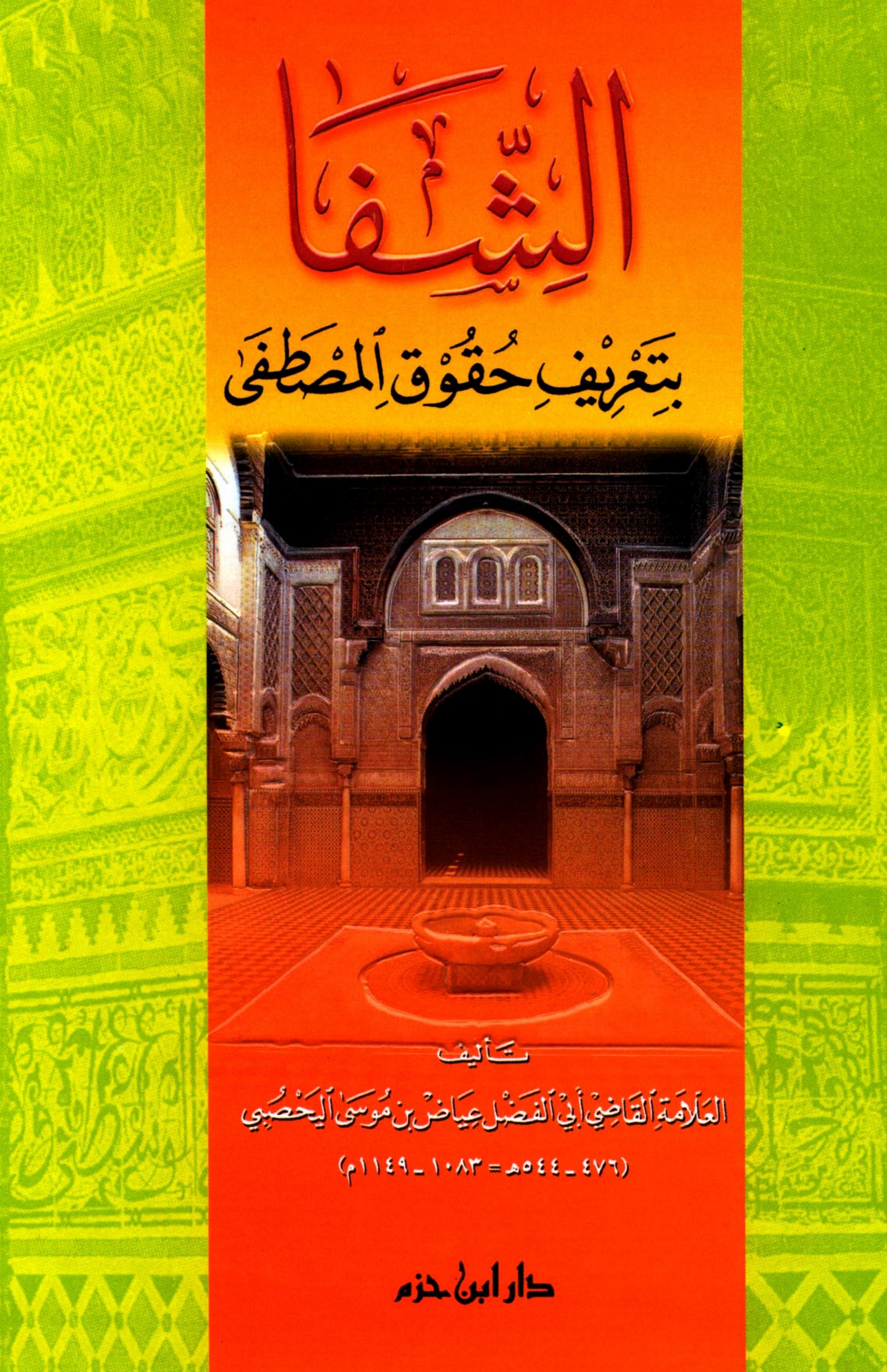


الشفا
بتعريف حقوق المصطفى
تأليف
العلامة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي
(٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ = ١٠٨٣ ـ ١١٤٩م)
دار ابن حزم

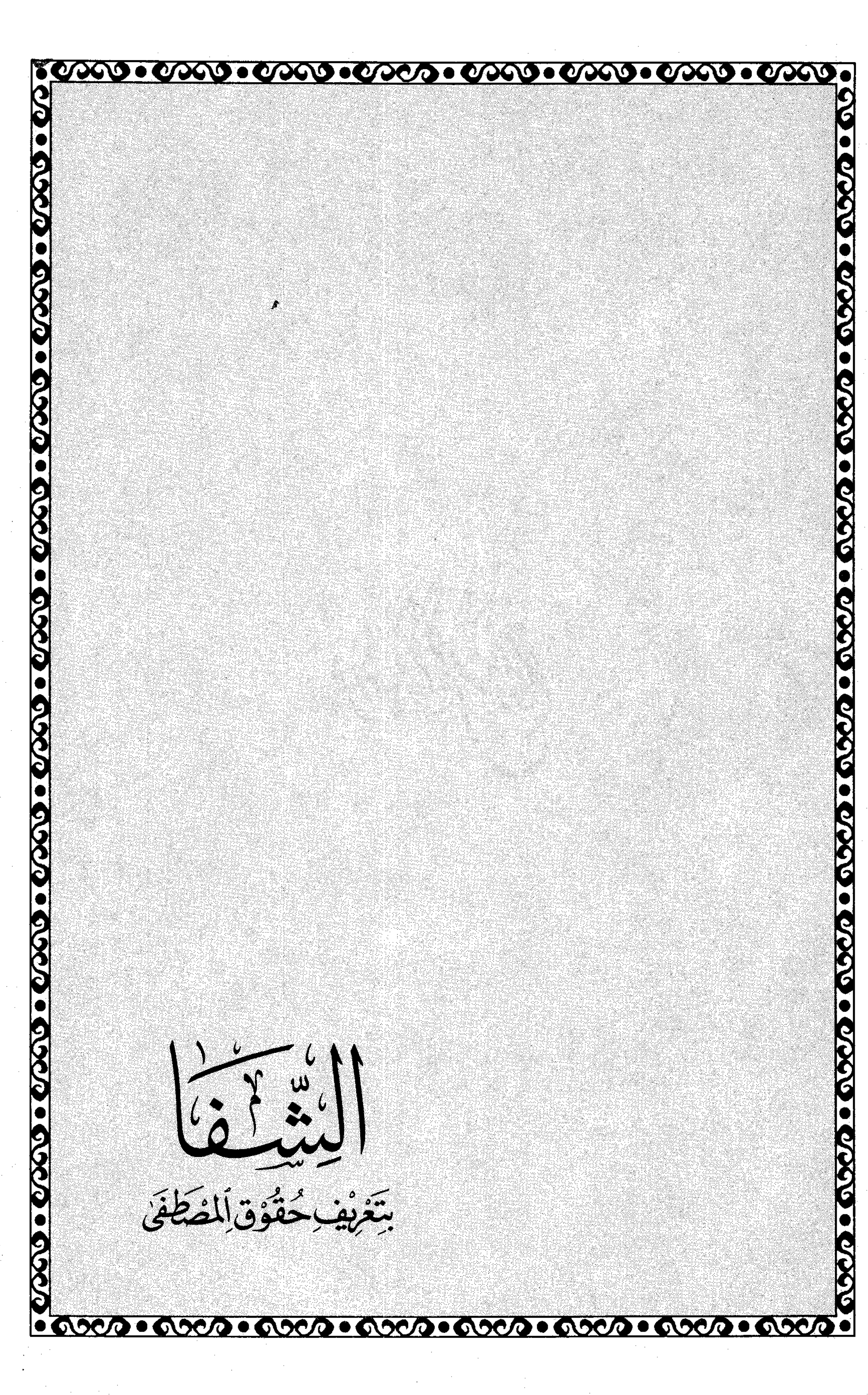
الطّبْعَة الأولى

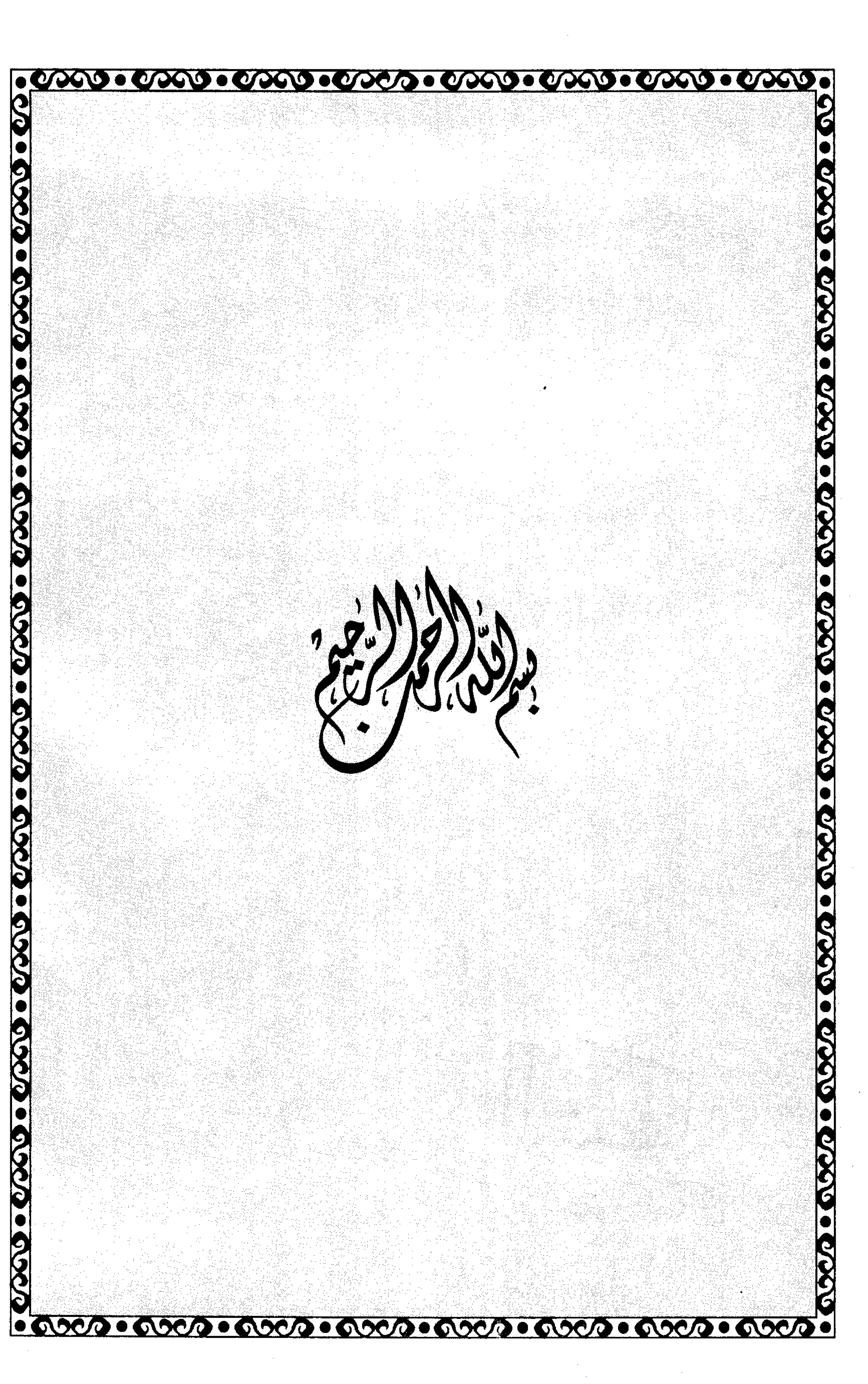
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤


الشفا
بتعريف حقوق المصطفى


بسم الله الرحمن الرحيم



ترجمة المؤلف

هو عِيَاض بن موسى بن عِيَاض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته.

ولد في مدينة سبتة بالأندلس سنة ٤٧٦هـ. وتربى في أحضان أسرة عربيةٍ أصيلة، فنشأ على الصلاح والتقوى، معرضاً عن اللهو، شغوفاً بالعلم، محباً للجهاد، حافظاً لكتاب الله تعالى مكثراً من تلاوته.

وكان أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي القضاء بسبتة، ثم قضاء غرناطة فكان قاضياً عادلاً، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكان إماماً بارعاً، متفنناً في علم الحديث، والفقه، واللغة والنحو، وعاصر دولتي: المرابطين والموحدين.

من تصانيفه:

- «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ـ وهو كتابنا هذا ـ.
- «الغُنية» وهو في ذكر مشيخته.
- «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك.
- «شرح صحيح مسلم».
- «مشارق الأنوار»، وهو في الحديث.
- «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» وهو في مصطلح الحديث.
- وكتاب في «التاريخ».

- «العقيدة».
- «مطامح الأفهام في شرح الأحكام». وغيرهم كثير.

توفي رحمه الله بمراكش سنة ٥٤٤هـ مسموماً؛ قيل: سمّه يهودي.





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه أتوكل

قال الفقيه القاضي الإمَامُ الحافظُ أبو الفضل: عِيَاضُ بنُ موسىٰ بنِ عِيَاضٍ اليَحْصُبي رضِي الله عنه وأرضاه: الحمْدُ لله المُتَفَرِّدِ باسْمِه الأَسْمَى، المختصِّ بالمُلْكِ الأعزِّ الأحمىٰ، الذي ليس دُونَه مُنتهىً، ولا وراءه مَرْمَى، الظاهرِ لا تخيُّلاً وَوَهْماً، والباطنِ تَقَدُّساً لا عُدْماً، وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعِلْماً، وأسبغَ علىٰ أوْليائه نِعَماً عُمًّا، وبعث فيهم رسولاً من أَنْفُسِهِمْ، أَنْفَسَهُمْ عُرْباً وَعُجْماً، وأزْكَاهم مَحْتِداً ومَنْمىً، وأرجَحَهُم عَقلاً وحِلْماً، وأوفرَهم عِلْماً وفَهْماً، وأقواهم يقيناً وعَزْماً، وأشدَّهم بهم رأفةً ورُحمىً، وزكَّاه رُوحاً وجسماً، وحاشَاهُ عَيْباً ووَصْماً؛ وآتاه حِكمةً وحُكْماً، وفتح به أعيناً عُمياً، وقلوباً غُلفاً، وآذاناً صُمّاً؛ فآمن به وعزَّره، ونصره مَنْ جعل اللَّهُ له في مَغْنَم السعادة قِسْماً، وكذَّب به وصدَفَ عن آياته مَنْ كتب اللَّهُ عليه الشَّقَاءَ حَتْماً ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] صلى الله عليه وسلَّم صلاةً تَنمو وتُنْمَىٰ، وعلىٰ آله وسلَّم تسليماً.

أما بَعْدُ: أشرقَ اللَّهُ قَلْبِي وقَلْبَك بأَنْوارِ اليقين، ولطفَ لي ولكَ بما لطفَ به لأوليائه المتَّقين، الذين شرَّفهم الله بِنُزُلِ قُدْسِه، وأوحشهم من الخليقة بِأُنْسِهِ، وخصهم من معرفته ومشاهدةِ عجائب ملكوتِه، وآثار قُدْرتِه بما ملأ قلوبَهم حَبْرَةً، وَوَلَّهَ عقولَهم في عَظَمَتِه حَيْرَةً؛ فجعلوا همَّهم به واحداً، ولم يروا في الدارَيْن غَيْرَه مُشَاهَداً؛ فهم بمشاهدة جَمَالِه وجلالِه يتنعَّمون، وبين آثار قُدْرتِه وعجائب عظَمته يتردَّدون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعزَّزُون، لَهِجِيْنَ بصادقِ قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فإنكَ كرَّرت عليَّ السؤال في مجموعٍ يتضمّن التعريفَ بقَدْر المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، وما يجبُ له من توقيرٍ وإكرام، وما حُكْمُ مَنْ لم يُوَفِّ واجبَ عظيم ذلك القَدْر، أو قصَّر في حق مَنْصبه الجليل قُلامةَ ظُفر؛ وأن أجمعَ لكَ ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مَقَالٍ، وأُبيِّنَهُ بتنزيل صُوَر وأمثال.

فاعلم ـ رحمكَ الله ـ أنك حمَّلتني من ذلك أمراً إِمْراً، وأرهقتني فيما ندبْتني إليه عُسْراً، وأرقيتني بما كلفتني مُرْتقًى صَعْباً، مَلأَ قلبي رُعباً؛ فإنَّ الكلامَ في ذلك يستدعي تقريرَ أصولٍ، وتحريرَ فصولٍ، والكشفَ عن غوامِضَ ودقائقَ من عِلْم الحقائق، مما يَجِبُ للنبيِّ ﷺ ويضافُ إليه، أو يمتنعُ، أو يجوز عليه، ومعرفة النبيِّ والرسول، والرِّسالة والنبوَّة، والمحبَّةِ والخُلَّة، وخصائص هذهِ الدرجة العليّة، وها هنا مَهامِهُ فِيحٌ تحارُ فيها القَطَا، وتَقْصُر بها الخُطا؛ ومَجَاهِلُ تَضِلّ فِيها الأحلام ـ إن لم تَهْتدِ بعَلَم عِلْم، ونَظرٍ سدِيد ـ ومَدَاحِضُ تزِلّ بها الأقدام، إن لم تعتمدْ علىٰ توفيق من الله وتأْييد.

لكني لمَا رَجوتُه لي ولكَ في هذا السؤالِ والجوابِ من نَوَالٍ وثوابٍ، بتعريف قَدْره الجسيم، وخُلُقِه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبلُ في مخلوق، وما يُدانُ اللّهُ تعالىٰ به من حقِّه الذي هو أرفعُ الحقوقِ ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ [المدثر: ٣١] المدثر ولمَا أخذَ اللّهُ تعالىٰ على الذين أُوتُوا الكتاب لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يَكتمونه.

١ ـ ولِمَا حدثنا به أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه ـ رحمه الله ـ بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا الحُسَين بن محمد، حدثنا أبو عُمرَ النَّمَرِيُّ، حدثنا أبو محمد بن عبدالمؤمن، حدثنا أبو بكر: محمد بن بكر، حدثنا سليمان بن الأشعث، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، أخبرنا عليّ بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَام مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيامة»** [أبو داود (٣٦٥٨)، الترمذي (٢٦٤٩)، ابن ماجه (٢٦١)].

فَبادَرْتُ إلى نُكَتٍ مُسْفِرة عن وَجْهِ الغَرض، مُؤدِّياً مِنْ ذلك الحقَّ المُفْتَرَض، اخْتَلَسْتُها على استعجالٍ، لما المرءُ بصَدَدِه من شُغْلِ البَدَن والبَال، بما طُوِّقَهُ الإنسان مِنْ مَقَاليد المِحْنة التي ابتُلي بها، فكادت تَشْغَل عن كلِّ فَرْضٍ ونَفْلٍ، وترد بعد حِضْنِ التقويم إلى أَسْفَلِ سُفْل؛ ولو أراد الله بالإنسان خيراً لجعلَ شُغْلَه وهَمَّه كلَّه، فيما يُحْمَد غداً أو يُذَمّ مَحَلُّهُ؛ فليس ثَمَّ سِوى حَضْرة النَّعيم، أو

عذابِ الجحيم، ولكان عليه بِخُوَيْصَّتِهِ، واسْتنْقَاذِ مُهْجَته، وعَملٍ صالحٍ يستزيدُه، وعِلْمٍ نافع يفيده، أو يستفيدُه.

جَبر الله صَدع قُلوبنا، وغَفرَ عظيمَ ذُنوبنا، وجعل جميع استعدادنا لِمَعَادِنا، وتوفُّرَ دَواعِينا فيما يُنجِينَا، ويُقَرِّبُنا إليه تعالىٰ زُلْفىٰ، ويُحْظينا بمَنّه وكرمِهِ ورحمته.

ولما نويتُ تَقْرِيبهُ، ودرَّجتُ تَبْويبهُ، ومهّدتُ تَأْصِيلهُ، وخلَّصتُ تفصيله، وانْتَحَيْتُ حَصْره وتحصيله، ترجَمْتُه بـ (**الشِّفَا بتعريف حقُوقِ المصطفىٰ**) وحصرتُ الكلام فيهِ في أقسام أربعة:

القسم الأول: في تعظيم العليّ الأعلىٰ لقَدْرِ هذا النبيِّ ﷺ قولاً وفِعْلاً، وتَوجَّهَ الكلامُ فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في ثنائه تعالىٰ عليه، وإظهارِهِ عظيمَ قَدْرِه لديه؛ وفيه عَشَرةُ فصول.

الباب الثاني: في تكميله تعالىٰ لَهُ المحاسِنَ، خَلْقاً وخُلُقاً، وَقِرَانِه جميعَ الفضائل الدينية والدُّنيوية فيه نَسَقاً؛ وفيه سبعةٌ وعشرون فصلاً.

الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظِيم قَدْرِه عند ربه ومَنْزِلته، ومَا خَصَّه به في الدارين مِنْ كَرَامته؛ وفيه اثنا عشَرَ فَصْلاً.

الباب الرابع: فيما أظهره الله تعالىٰ علىٰ يديه من الآيات والمُعْجزات، وشرّفه به من الخصائص والكرامات؛ وفيه ثلاثون فَصْلاً.

القسم الثاني: فيما يجب علىٰ الأنام من حقوقه عليه السلام، ويترتَّبُ القولُ فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في فَرْضِ الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سُنَّتِهِ؛ وفيه خمسة فصول.

الباب الثاني: في لزوم محبته ومُنَاصحته؛ وفيه ستة فصول.

الباب الثالث: في تعظيم أمره ولزومِ توقيره وبره؛ وفيه سبعة فصول.

الباب الرابع: في حكم الصلاة عليه والتسليم، وفرض ذلك، وفضيلته؛ وفيه عشرة فصول.

القسم الثالث: فيما يستحيل في حقه، وما يجوزُ عليه شرعاً، وما يمتنع وَيَصِحُّ من الأمور البَشَرية أَنْ يضاف إليه.

وهذا القسم ـ أكرمكَ الله ـ هو سِرُّ الكِتاب، ولُبَابُ ثمرةِ هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد، والتمهيدات والدلائل علىٰ ما نُورِده فيه من النُّكت البيِّنات، وهو

الحاكم علىٰ ما بعده، والمُنجزُ مِنْ غَرض هذا التأليف وَعْدَه، وعند التقصّي لموعدته، والتفصّي عن عهدته، يَشْرَقُ صَدْرُ العدوّ اللَّعينِ، ويُشرِقُ قلبُ المؤمنِ باليَقِين، وتملأُ أنوارُه جوانحَ صَدره، ويقدرُ العاقلُ النبيَّ حقَّ قدره. ويتحرَّر الكلامُ فيه في بابين:

الباب الأول: فيما يختصُّ بالأمور الدينية، ويتشبَّث به القولُ في العصمةِ وفيه ستةَ عشرَ فَصْلاً.

الباب الثاني: في أحواله الدنيويَّة، وما يجوز طُرُوؤُهُ عليه من الأعراض البشريَّة؛ وفيه تسعةُ فصول.

القسم الرابع: في تصرُّف وُجوهِ الأحكام علىٰ مَن تنقَّصهُ أو سبَّهُ عليه السلام، وينقسم الكلام فيه في بابين:

الباب الأول: في بيان ما هو في حقِّه سَبٌّ ونَقْص؛ من تعريض، أو نَصّ؛ وفيه عَشَرةُ فصول.

الباب الثاني: في حكم شانئه ومُؤْذِيه وَمُنْتَقِصِهِ، وعقوبتِهِ، وذِكْرِ اسِتتابَته، والصلاة عليه، ووِراثتِهِ؛ وفيه عَشَرةُ فصول.

وختمناهُ بباب ثالث جعلناه تكملةً لهذه المسألة ووُصْلةً للبابين اللذينِ قَبْله في حُكم مَنْ سَبَّ الله تعالىٰ ورُسلَه وملائكته وكتُبه؛ وآل النبي ﷺ وصحبه.

وأختصر الكلام فيه في خمسة فصول، وبتمامها يَنْتجزُ الكتابُ، وتتمُّ الأقسام والأبواب، ويلُوح في غُرَّةِ الإيمان لُمعةً منيرةً، وفي تاج التراجم دُرَّةً خطيرةً، تُزيح كل لَبْس، وتوضحُ كل تخمين وحَدْس، ويشفي صُدورَ قومٍ مؤمنين، ويَصْدعُ بالحق، ويعرض عن الجاهلين؛ وبالله تعالىٰ ـ لا إله سِوَاه ـ أستَعين.



القسم الأول

فِيْ تَعْظِيْمِ الْعَلِيِّ الأَعْلىٰ لِقَدْر هذا النَّبِيِّ المُصْطَفىٰ قَوْلاً وَفِعْلاً

قال الفقيه القاضي الإمام أبو الفَضل رحمهُ الله:

لا خفاء علىٰ مَنْ مارس شَيْئاً من العِلْم، أو خُصَّ بأدْنَىٰ لمحة مِنْ فَهم، بتعظيم الله تعالىٰ قَدْرَ نبينا عليه الصلاة والسلام، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقبَ لا تنضبط لزمام، وتنويهه مِنْ عظِيم قَدْرِه بما تَكِلُّ عنه الألسِنةُ والأقلام.

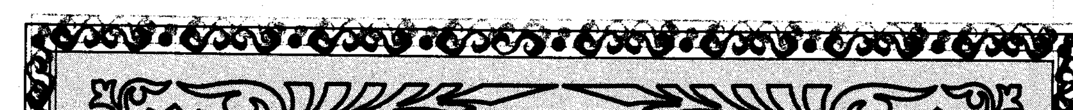
فمنها: ما صَرَّح به تعالىٰ في كتابه، ونَبَّه به علىٰ جَلِيل نصابه، وأثنىٰ به عليه من أَخلاقه وآدابه، وحضَّ العبادَ علىٰ التزامِه، وتَقَلُّدِ إيجابه؛ فكانَ ـ جلَّ جلالهُ ـ هو الذي تفضّل وأَوْلىٰ، ثم طَهَّر وزَكَّىٰ، ثم مدَحَ بذلك وأَثنىٰ، ثم أَثَاب عليه الجزاءَ الأَوْفىٰ، فله الفَضْلُ بَدْءاً وعَوْداً، وله الحمد أُولَىٰ وأُخرىٰ.

ومنها: ما أبرزَه للعِيان مِنْ خَلْقِهِ علىٰ أتمِّ وجوهِ الكمال والجلال، وَتَخصِيْصِهِ بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة؛ وتأييدِهِ بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البيِّنَة التي شَاهَدَها مَنْ عاصَره، ورآها من أَدْرَكه، وعَلِمَهَا عِلْمَ يَقِين من جاءَ بعده، حتى انتهىٰ عِلمُ حقيقة ذلك إلينا، وفاضتْ أنواره علينا، ﷺ كثيراً.

٢ ـ حدثنا القاضي الشهيد أبو علي: الحُسين بن محمد الحافظ ـ رحمه الله ـ قراءةً مِنّي عليه؛ قال: حدثنا أبو الحسين: المبَارك بن عبدالجبَّار، وأبو الفَضل: أحمد بن خَيْرُون؛ قالا: حدَّثنا أبو يَعْلىٰ البغدادي؛ قال: حدثنا أبو علي السِّنْجِي؛ قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب؛ قال: حدثنا أبو عِيسى بنُ سَوْرَةَ

الحافظ؛ قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبدالرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قَتَادَةَ، عن أَنسٍ، أن النبي ﷺ أُتِي بالبُرَاق ليلَة أُسْرِي به، مُلْجَماً مُسْرَجاً، فاستَصْعَبَ عليه؛ فقال له جبريلُ: أَبِمُحَمَّدٍ تَفْعلُ هذا؟ فما رَكِبَكَ أحدٌ أكرمُ على الله تعالىٰ منه. قال: فارْفَضَّ عَرَقاً. [الترمذي (٣١٣١)، أحمد (١٦٤/٣)].





البابُ الأَوَّلُ

فِي ثَناءِ اللَّهِ تَعَالىٰ عَلَيْهِ وَإِظْهَارِهِ عَظِيْمَ قَدْرِه لَدَيْهِ

اعلم أن في كتاب الله العزيز آياتٍ كثيرةً مفصحةً بجميل ذِكْر المصطفىٰ، وعَدِّ محَاسِنه، وتعظيم أمره، وتنويه قَدْره، اعتمدنا منها علىٰ ما ظهر معناه، وبانَ فَحْواه، وجمعنا ذلك في عشرة فصول.

الفصلُ الأوَّلُ

فيما جاء من ذلك مَجيءَ المَدح والثناء وتَعداد المحاسن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال السَّمَرْقَنديُّ: وقرأ بعضهم: ﴿مِّنْ أَنفَسِكم﴾ ـ بفتح الفاء. وقراءةُ الجمهور بالضم.

قال القاضي الإمام أبو الفضل ـ رحمه الله ـ: أعلَمَ اللَّهُ تعالىٰ المؤمنين، أو العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس، علىٰ اختلاف المفسرين: مَن المواجَهُ بهذا الخطاب أنه بَعَث فيهم رسولاً من أنفُسهم يعرفونه، ويتحقَّقون مكانه، ويَعلمون صدقَه وأمانته؛ فلا يتهمونه بالكذب، وترْكَ النصيحة لهم، لكونه منهم، وأنه لم يكن في العرب قبيلة إلاَّ ولها علىٰ رسول الله ﷺ ولادة أو قَرابة.

٣ ـ وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] [البخاري (٤٨١٨)، الترمذي (٣٢٥١)] وكَوْنِهِ من أَشرَفِهم، وأَرْفَعِهم،

وأَفضلهم، علىٰ قراءة الفتح؛ وهذه نهاية المدح؛ ثم وصفه بعدُ بأَوصاف حَمِيدة، وأثنىٰ عليه بمَحامد كثيرة؛ من حِرْصه على هدايتهم، ورُشدهم، وإسلامهم، وشدة ما يُعنِتُهم، ويضُرُّ بهم في دُنياهم وأُخْراهم، وعزَّته عليه ورأفته ورحمته بمؤمنيهم.

قال بعضُهُم: أَعطاهُ اسْمَيْنِ من أسمائه: رؤوفٌ، رَحيمٌ.

ومثلُه في الآية الأخرىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١].

٤ ـ ورُوي عن عليّ بن أبي طالب، عنه ـ صلوات الله عليه ـ في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: **«نسباً وصهراً وحسَباً؛ ليس في آبائي من لَدُن آدم سِفَاح، كُلُّنا نِكاح»**.

قال ابنُ الكلبي: كَتبتُ للنبي ﷺ خَمْس مئة أُمّ، فما وجَدْتُ فيهن سِفَاحاً ولا شيئاً مما كان عليه الجاهلية.

٥ ـ وعن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: مِنْ نَبيّ إلىٰ نَبيّ، حتَّى أخرجَكَ نبياً.

وقال جَعْفر بن محمد: عَلِم اللَّهُ عجزَ خَلْقِه عن طاعتِه، فعرَّفَهم ذلك؛ لكي يَعلَمُوا أَنَّهم لا ينالون الصفو من خدمته؛ فأقام بينهم وبينه مخلوقاً من جنسهم في الصُورة، وألبسه من نَعْتِه الرأفةَ والرحمة، وأخرجَهُ إلىٰ الخَلْقِ سفيراً صادقاً، وجعل طاعته طاعتَهُ، وموافقته موافقَتَه؛ فقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال أبو بكر بن طاهر: زَيَّنَ اللَّهُ تعالىٰ محمداً ﷺ بزينة الرحمة؛ فكان كونُهُ رحمة، وجميع شمائله وصفاتِه رحمةً على الخَلْقِ؛ فمن أَصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدَّارَيْنِ من كلِّ مكروه، والواصلُ فيهما إلىٰ كل محبوب؛ ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ يقولُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فكانت حياتُه رحمةً، ومماتُهُ رحمةً.

٦ ـ كما قال عليه السلام: «**حَيَاتي خيرٌ لكم ومَوْتي خيرٌ لكم**».

٧ ـ وكما قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا أراد اللّهُ رحمةَ بأُمَّةٍ قَبض نبيَّها قَبْلها فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً**» [مسلم (٢٢٨٨)]. وقال السَّمَرْقَنْدِي رحمه الله: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: يعني للإنس والجنّ.

وقيل: لجميع الخَلق؛ للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمةٌ للمنافق بالأمانِ من القَتْلِ، ورحمةٌ للكافر بتأخير العذاب.

قال ابنُ عباس رضيَ الله عنهما: هو رحمةٌ للمؤمنينَ وللكافرين؛ إذ عُوفُوا مما أصابَ غَيْرهم من الأمم المكذِّبة.

٨ ـ وحُكي أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «**هل أصابكَ من هذه الرحمة شيءٌ؟**» قال: «**نعم؛ كنتُ أخشَىٰ العاقبة فأمِنْتُ لِثَناءِ الله عزَّ وجلَّ عليَّ بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾**» [التكوير: ٢٠، ٢١].

ورُوِي عن جَعْفر بن محمد الصادق في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٩١] أي بكَ؛ إنما وَقعَتْ سلامتُهم مِنْ أجل كرامة محمد ﷺ.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

قال كعبٌ، وابن جُبَير: المراد بالنور الثاني ـ هنا ـ محمدٌ عليه السلام. وقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نور محمدٍ ﷺ.

وقال سَهْلُ بنُ عبدِاللّهِ: المعنى: اللّهُ هادِي أهل السموات والأرض؛ ثم قال: مَثَل نورِ محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كَمِشكَاة صفتها كذا؛ وأراد بالمصباح: قلبَه، وبالزجاجة صدره؛ أي كأنه كوكبٌ دُرِّيٌّ لما فيه من الإيمان والحِكمة ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: من نور إبراهيم. وضرب المَثَل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ أي: تكاد نبوّة محمد ﷺ تبينُ للناس قَبْل كلامه كهذا الزيت.

وقد قيل في هذه الآية غيرُ هذا. والله أعلم.

وقد سماه تعالىٰ في القرآن في غير هذا الموضع نوراً، وسراجاً منيراً؛ فقال

تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

ومن هذا قولُه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح].

شَرَحَ: وَسَّع. والمراد بالصَّدْر هنا: القَلْب. قال ابنُ عباس: شرحه بالإسلام.

وقال سَهْلٌ: بنورِ الرسالة.

وقال الحسن: مَلأَه حُكْماً وعِلْماً.

وقيل: معناه ألم نُطَهر قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس؟

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ قيل: ما سلف من ذَنْبِك، يعني: قبل النبوَّة.

وقيل: أراد ثِقَلَ أيام الجاهلية.

وقيل: أراد ما أثقل ظَهْرَه من الرسالة حتى بلَّغها. حكاه الماوَرْدِيُّ والسُّلَمِيُّ.

وقيل: عَصَمْنَاك، ولولا ذلك لأثقلتِ الذنوبُ ظهرك؛ حكاه السَّمَرْقَنْدي.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ قال يحيىٰ بن آدم: بالنبوة وقيل: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي، قَوْلَ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقيل: في الأذان.

قال الفقيه القاضي أبو الفَضْل رحمه الله: هذا تقريرٌ مِنَ الله جلَّ اسْمُه لنبيِّه عليه السلام علىٰ عَظِيم نعمه لَدَيْه، وشَرِيف مَنْزِلَته عِنْدَه، وكرامتِهِ عليه؛ بأَنْ شرحَ قَلْبه للإيمان والهداية، وَوَسَّعَهُ لِوَعْيِ العِلْم، وَحملِ الحِكْمة، ورفَعَ عنه ثِقلَ أُمورِ الجاهلية عليه، وبغَّضَهُ لِسِيَرِها، وما كانَتْ عليه بظهور دِيْنِهِ علىٰ الدِّين كُلِّه، وحَطَّ عنه عُهدةَ أعباءِ الرسالة والنبوَّة لتبليغه للناس ما نُزِّل إليهم، وتنويهه بعظيم مَكانه، وجَليل رُتْبَته، ورفعه ذِكْرَه، وقِرانِه مع اسمِهِ اسْمَه.

قال قَتَادةُ: رفع اللَّهُ ذِكْرَهُ في الدُّنيا والآخِرة فليس خطيبٌ ولا متشهِّدٌ ولا صاحبُ صلاةٍ إلاَّ يقول: أَشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسولُ الله.

٩ ـ وروىٰ أبو سَعيد الخُدْري أن النبيَّ ﷺ قال: «**أتاني جبريلُ عليه**

السلام، فقال: إن ربِّي وربَّك يقولُ: تَدْرِي كيف رفعتُ ذِكْرك؟ قلتُ: الله ورسوله أَعْلَم. قال: إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي».

قال ابنُ عَطاء: جعلتُ تَمام الإيمان بذِكْري معك.

وقال أيضاً: جعلتُكَ ذكراً من ذِكْري، فمَنْ ذَكَرك ذَكَرني.

وقال جَعْفَرُ بنُ محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلاَّ ذكرني بالربوبيّة.

وأشار بعضهم في ذلك إلىٰ الشفاعة.

وَمِنْ ذِكْره معه تعالىٰ أن قَرَن طاعتَه بطاعته واسْمَه باسْمِهِ؛ فقال تعالىٰ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. و ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٧]؛ فجمع بينهما بواو العطف المُشَرِّكة.

ولا يجوز جَمعُ هذا الكلام في غير حقّه عليه السلام.

١٠ ـ حدثنا الشيخ أبو علي: الحُسين بنُ محمد الجيّاني الحافظ فيما أجازَنيه، وقرأتهُ على الثِّقة عنه؛ قال: حدثنا أبو عُمَرَ النَّمَرِيُّ؛ قال: حدثنا أبو محمد بن عبدالمؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسةَ، حدثنا أبو داود السِّجْزِيُّ، حدثنا أبو الوليد الطَّيالِسِيُّ، حدثنا شُعبة، عن منصور، عن عبداللّهِ بن يَسَار، عن حُذَيفَةَ، عن النبي ﷺ: قال: **«لا يَقُولَنَّ أحدُكم ما شاءَ الله وشاءَ فُلانٌ، ولكن ما شاءَ اللَّهُ، ثم شاءَ فلان»** [أبو داود (٤٩٨٠)، أحمد (٣٨٤/٥)].

قال الخطَّابي. أرشدهم ﷺ إلىٰ الأدب في تقديم مشيئة الله تعالىٰ على مشيئة مَنْ سِواه، واختارها بـ «ثم» التي هي للنَّسَق والتراخِي، بخلاف «الواو» التي هي للاشتراك.

١١ ـ ومثله الحديثُ الآخر: إن خطيباً خطب عند النبي ﷺ، فقال: مَنْ يُطِع اللَّهَ ورَسُوله فقد رَشَد، وَمَنْ يَعْصِهما. فقال له النبيُّ ﷺ: **«بئسَ خطيبُ القوم أنتَ! قُمْ»** أو قال: **«اذهَب»** [أبو داود (٤٩٨١)، النسائي (٩٠/٦)]. قال أبو سليمانَ: كَرِهَ منه الجَمْعَ بين الاسمين بحَرْفِ الكناية لما فيه من التسويةِ.

وذهب غَيْرُه إلىٰ أنه إنما كَرِه له الوقوفَ علىٰ **«يَعْصِهما»**.

١٢ ـ وقولُ أبي سليمان أَصَحُّ؛ لما رُوِي في الحديث الصحيح أنه قال: **«ومَنْ يَعْصِهما فقد غَوىٰ»** [مسلم (٨٧٠)]، ولم يذكر الوقوف علىٰ **«يعصِهما»**.

وقد اختلف المفسِّرون وأصحابُ المعاني في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؛ هل ﴿يُصَلُّونَ﴾ راجعة علىٰ الله تعالىٰ والملائكةِ أم لا؟

فأجازهُ بعضُهم، ومَنَعَهُ آخرون، لِعِلَّة التشريك، وخَصُّوا الضمير بالملائكة؛ وقَدَّرُوا الآية: إنَّ اللَّهَ يصلِّي، وملائكته يُصَلُّون.

١٣ ـ وقد روي عن عُمر رضي الله عنه أنه قال: مِنْ فَضيلتك عند الله أنْ جعل طاعتَك طاعَتَهُ؛ فقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

١٤ ـ ورُوي أنه لما نزلت هذه الآيةُ قالوا: إنَّ محمداً يريد أن نَتَّخِذَه حَناناً كما اتخذت النصارى عيسىٰ، فأنزلَ اللَّهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] فَقَرَنَ طاعته بطاعته رغماً لهم.

١٤م ـ وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالىٰ في أمِّ الكتاب: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فقال أبو العالية، والحسن البصري: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو رسول الله ﷺ، وخِيار أهل بيته، وأصحابه؛ حكاه عنهما أبو الحسن الماوَرْدِيُّ، وحكى مكيٌّ عنهما نحوه؛ وقال: هو رسول الله ﷺ وصاحِباه: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وحكىٰ أبو اللَّيث السَّمَرْقَندي مثلَه، عن أبي العالية، في قوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ قال: فبلغَ ذلك الحَسَنَ؛ فقال: صدقَ واللَّهِ! ونَصَح.

وحكىٰ المَاوَرْدي ذلك في تفسير: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، عن عبدالرحمن بن زَيْد.

وحكىٰ أبو عَبْدِالرحمن السُّلَميّ، عن بعضهم، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أنه محمد عليه السلام.

وقيل: الإسلام.

وقيل: شهادة التوحيد.

وقال سَهلٌ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] قال: نعمتُه بمحمد عليه السلام.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤].

أكثَرُ المفسرين علىٰ أن الذي جاء بالصِّدْق هو محمد ﷺ.

وقال بعضُهم: وهو الذي صدَّق به.

وقرىء: صَدَق، بالتخفيف.

وقال غيرهم: الذي صدَّق به المؤمنون.

وقيل: أبو بكرٍ. وقيل: عليٌّ. وقيل غير هذا من الأقوال.

١٥ ـ وعن مُجَاهِدٍ في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: بمحمد ﷺ وأصحابه.

الفصل الثاني
في وصفِهِ لَهُ تعالىٰ بالشَّهادَةِ
وما يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الثَّنَاءِ والكَرَامَةِ

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

جمع الله تعالىٰ في هذه الآية ضُروباً من رُتَب الأَثْرَةِ، وجُمْلَةَ أوصاف من المِدْحة؛ فجعله شاهِداً علىٰ أُمَّته لِنَفْسِهِ بإبلاغهم الرِّسالة؛ وهي من خصائصه عليه السلام ومُبَشراً لأهلِ طاعته؛ ونذِيراً لأهل معصيته، وداعِياً إلىٰ توحيده وعبادته؛ وسِرَاجاً مُنيراً يُهْتَدىٰ به لِلْحَقّ.

١٦ ـ حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتّاب رحمه الله قال: حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابِسيُّ، حدثنا أبو زَيدٍ المَرْوزيُّ، حدثنا أبو عَبْدِاللَّهِ: محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سِنَان، حدثنا فُلَيْح، حدثنا هلال، عن عطاء بن يَسَار، قال: لَقِيتُ عَبْدَاللَّهِ بن عمرٍو بن العاص، قلتُ: أَخبِرْني عن صِفَةِ رسولِ الله ﷺ؟ قال: أَجَل، واللَّهِ! إنه لموصوفٌ في التَّوْراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحِرزاً لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي ورسولي، سمَّيْتُك المتوكِّلَ، ليس بفَظّ، ولا غليظ، ولا صَخَّاب في الأسواق، ولا يدفَعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يَعفُو ويَغفِر، ولن يَقْبِضَهُ اللَّهُ حتى يُقيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوجَاء، بأنْ يقولوا: لا إله إلاَّ اللَّهُ، ويَفْتَحَ به أعيُناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً. [البخاري (٢١٢٥)].

١٧ ـ وذُكِر مثله عن عبداللَّهِ بن سَلاَم [البخاري (٢١٢٥)].

١٨ ـ وكَعْبِ الأحبار [أحمد (١٧٤/٢)].

١٩ ـ وفي بعضِ طُرُقِهِ عن ابن إسحاق: ولا صَخِبٍ في الأسواق، ولا مُتَزَيِّنٍ بالفُحْش، ولا قوَّال للخَنَا؛ أُسدِّدُه لكل جميل، وأَهَبُ له كلَّ خلق كريم، وأجعلُ السكينةَ لباسَه، والبرَّ شِعَارَه، والتَّقوىٰ ضميرَه، والحكمةَ مَعْقولَهُ، والصدقَ والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقَه، والعَدْلَ سيرتَه، والحقَّ شريعتَهُ، والهدَىٰ إمامَهُ، والإسلامَ مِلَّتَه، وأحْمَد اسْمَه، أهدي به بعد الضلالةِ، وأُعلِّم به بعد الجهالة، وأرفعُ به بعد الخَمالَةِ، وأُسمِّي به بعد النُّكرة، وأُكثِّرُ به بعد القِلَّة، وأُغني به بعد العَيْلَةِ، وأجمعُ به بعد الفُرْقة، وأُؤلِّف به بينَ قلوبٍ مختلفةٍ، وأهواءٍ متشتِّتةٍ، وأُممٍ مُتَفَرِّقة، وأجعلُ أُمَّتَه خيْرَ أُمةٍ أُخْرِجَتْ للناس.

٢٠ ـ وفي حديث آخر: أخبرنا رسولُ الله ﷺ عن صِفته في التَّوْراة: **«عَبْدِي أَحْمدُ المختارُ، مَوْلدهُ بمكةَ، ومُهاجَرُه بالمدينة ـ** أو قال: **طَيبة ـ أُمَّتُهُ الحَمَّادون لله علىٰ كلِّ حال».**

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨].

وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال السَّمَرْقَنْديُّ: ذَكَّرهم اللَّهُ مِنَّتَهُ أنه جعل رسوله رحيماً بالمؤمنين، رؤوفاً ليِّن الجانبِ، ولو كان فظّاً خَشِناً في القول لتفرَّقُوا من حوله، ولكن جعله الله تعالىٰ سَمْحاً، سَهْلاً طَلْقاً بَرّاً لطيفاً.

هكذا قاله الضَّحَّاكُ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال أبو الحسَنِ القابسي: أبَانَ اللَّهُ تعالىٰ فَضْلَ نبينا ﷺ، وفضلَ أُمتِهِ بهذه

الآية، وفي قوله في الآية الأخرىٰ: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

وقوله تعالىٰ: وَسَطاً: أي عَدْلاً خِياراً.

ومعنى هذه الآية: وكما هدَيْنَاكُم فكذَلكَ خصَصْنَاكُم وَفَضَّلْناكم بأَنْ جعَلْناكم أمةً خِياراً عدولاً؛ لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام علىٰ أُمَمِهم، ويشهدَ لكم الرسولُ بالصِّدْق.

٢١ ـ وقيل: إنّ اللّهَ جلَّ جلالهُ إذا سأل الأنبياءَ: هل بلَّغْتُم؟ فيقولون: نَعَمْ. فتقول أُمَمُهُم: ما جاءنا مِنْ بشيرٍ ولا نَذيرٍ؛ فتشهد أمّةُ محمدٍ ﷺ للأنبياء؛ ويُزكّيهم النبيُّ ﷺ [البخاري (٣٣٣٩)].

وقيل: معنى الآية: إنكم حُجَّةٌ علىٰ كلِّ مَنْ خالفكم، والرسولُ حجّةٌ عليكم. حكاه السَّمَرْقندي.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

قال قَتادة، والحسَن، وزَيْد بن أسلم: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: هو محمدٌ ﷺ، يشفَعُ لهم.

وعن الحسَن أيضاً قال: هي مصيبتُهم بنبيِّهم.

وعن أبي سَعِيد الخُدْري رضي الله عنه: هي شفاعةُ نبيِّهم محمدٍ ﷺ، هو شفيعُ صِدْقٍ عندَ ربهم.

وقال سَهْلُ بن عبدِاللّهِ التُّسْتَرِيُّ: هي سابقةُ رحمةٍ أودعها الله في محمد ﷺ.

وقال محمد بن علي التِّرْمِذِيُّ: هو إمامُ الصادقين والصِّدِّيقين، الشفيعُ المُطَاع، والسائلُ المُجابُ، محمدٌ ﷺ، حكاه عنه السُّلَمِيُّ.

الفصل الثالث

فِيمَا وَرَدَ فِي خِطَابِهِ إِيَّاهُ مَوْرِدَ المُلاَطَفَةِ والمَبَرَّةِ

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال أبو محمد: مَكِّيٌّ: قيل: هذا افتتاحُ كلامٍ بمنزلة: أصلحكَ الله، وأعزَّكَ الله. وقال عَون بن عبداللّه: أخبره بالعَفو قبل أنْ يُخبِره بالذَّنْب.

وحكىٰ السَّمَرْقَنْدِي عن بعضهم أنَّ معناه: عافاكَ اللَّهُ، يا سليم القلبِ! لِمَ أذِنْتَ لهم؟

قال: ولو بدأ النبيَّ ﷺ بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لخِيفَ عليه أنْ يَنشقَّ قلبهُ من هيبةِ هذا الكلام، لكنَّ الله تعالىٰ برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قَلْبُه، ثم قال له: لم أَذِنْتَ لهم بالتخلف حتى يتبيَّنَ لك الصادقُ في عُذْرِه من الكاذب؟

وفي هذا منْ عظِيم منزلته عند الله ما لا يَخْفىٰ على ذي لُبٍّ.

ومن إكرامه إياه وبرِّه به ما ينقطِعُ ـ دون معرفَةِ غايتِهِ ـ نِيَاطُ القَلْبِ. قال نِفطَوَيْه: ذهب ناسٌ إلىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ مُعَاتَبٌ بهذه الآية، وحاشَاهُ من ذلك، بل كان مُخَيَّراً فلما أذِنَ لهم أعلمه اللَّهُ تعالىٰ أنه لو لَمْ يَأْذَنْ لهم لقَعَدُوا لِنفاقِهم، وأنه لا حَرَجَ عليه في الإذْنِ لهم.

قال القاضي أبو الفضل ـ رحمه الله ـ: يجبُ علىٰ المسلم المجاهِدِ نَفْسَهُ، الرائضِ بزِمام الشريعةِ خُلُقَه، أن يتأدَّبَ بأَدَبِ القرآن في قوله وفعْله، ومُعاطاتِه ومُحَاوراته، فهو عُنصُرُ المعارف الحقيقية، وروضةُ الآداب الدينية والدُّنْيَوية، ولْيتأمَّل هذه الملاطفة العجيبةَ في السؤال من رَبِّ الأرباب، المُنْعِم على الكلِّ، المُسْتَغْني عن الجميع، ويَسْتثيرُ ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرامِ قبل العَتْبِ، وآنسَ بالعفو قبل ذكْرِ الذنب، إنْ كان ثَمَّ ذَنْبٌ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤].

قال بعضُ المتكلمين: عاتَب اللَّهُ تعالىٰ الأنبياءَ عليهم السلام بَعْد الزَّلأت، وعاتب نبيَّنا عليه السلام قبل وُقُوعِه، ليكونَ بذلك أشدَّ انتهاءً ومحافظةً لشرائطِ المَحبَّةِ، وهذه غايةُ العِناية.

ثم انظُر كيف بدأ بثَباتِه وسلامتِهِ قبل ذِكْرِ ما عَتَبه عليه وخِيف أنْ يَرْكنَ إليه، ففي أثناءِ عَتْبِه براءتُه، وفي طيِّ تَخْوِيفِهِ تأمينُهُ وكرامتُهُ.

ومثله قولُه تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

٢٢ ـ قال عليّ رضيَ اللَّهُ عنهُ: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنَّا لا نُكذِّبُكَ ولكن نُكذِّبُ ما جِئْتَ به، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] [الترمذي (٣٠٦٤)].

٢٣ ـ ورُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ لما كذّبه قومُه حَزِن، فجاءه جبريلُ عليه السلام

فقال: ما يُحزِنُك؟ قال: «كذَّبني قَومِي» فقال: إنهم يَعلمونَ أنكَ صادِق، فأنزل الله تعالىٰ الآية.

ففي هذه الآيةِ مَنزَعٌ لطيفُ المأخذ، مِنْ تَسْليتِه تعالىٰ له عليه السلام، وإلطافه به في القَوْلِ، بأَنْ قَرَّرَ عنده أنه صادقٌ عندهم، وأنَّهم غَيْرُ مكذِّبين له، مُعْتَرِفون بصِدْقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يُسَمُّونه ـ قَبل النبوَّة ـ الأمينَ، فدَفع بهذا التقرير ارْتِمَاضَ نَفْسِه بِسِمَةِ الكذب، ثم جعل الذَّمَّ لهم بتسْمِيتهم جاحِدِينَ ظالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فحاشاه من الوَصْم، وطوَّقَهم بالمعاندة بتكذيب الآياتِ حقيقةَ الظُّلْم، إذ الجَحْدُ إنما يكون ممَّن علِمَ الشيء ثم أنكره، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثـم عَـزَّاه وآنسه بما ذكره عمَّنْ قَبْله، ووعده النصْرَ بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

فمَنْ قرأ ﴿لا يُكْذِبُونَكَ﴾ بالتخفيف، فمعناه: لا يَجِدونكَ كاذباً. وقال الفَرَّاءُ، والكِسَائي: لا يقولونَ إنكَ كاذب.

وقيل: لا يَحتَجُّون على كَذِبك، ولا يُثْبِتُونه.

ومن قرأ بالتشديد فمعناهُ: لا يَنسُبُونَك إلى الكذب. وقيل: لا يعتقدون كذبَكَ.

ومما ذُكِر من خصائصه، وبِرِّ الله تعالىٰ به، أنَّ الله تعالىٰ خاطبَ جميعَ الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالىٰ: يا آدم! يا نوح! يا إبراهيم! يا موسى! يا داود! يا عيسى! يا زكريا! يا يحيىٰ! ولم يخاطَبْ هو إلاَّ: يا أيُّها الرسولُ! يا أيها النبيُّ! يا أيُّها المُزَّمِّل! يا أيها المُدَّثِّر!

الفصل الرابع
فِي قَسَمِهِ تَعَالىٰ بِعَظِيمِ قَدْرِهِ

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

اتَّفَق أهْلُ التفسير في هذا أنه قَسَمٌ من الله ـ جلَّ جلالهُ ـ بمُدَّةِ حياةِ محمد ﷺ، وأصْلُه ضَمُّ العين، مِن العُمُرِ، ولكنها فُتحت لكثرة الاستعمالِ. ومعناه: وبقائكَ! يا محمد! وقيل: وعَيْشِكَ! وقيل: وحَيَاتِكَ!

وهذه نِهَايَةُ التعظيم، وغايةُ البِرِّ والتشريف. قال ابنُ عباس رضي الله

عنهما: ما خلقَ الله تعالىٰ، وما ذَرَأَ، وما بَرَأَ نفساً ـ أكرمَ عليه مِنْ محمد ﷺ، وما سمعتُ الله تعالىٰ أقسم بحياةِ أحدٍ غَيْرِه.

وقال أبو الجَوْزَاء: ما أَقْسَمَ الله تعالىٰ بحياةِ أحَدٍ غَيْرِ محمدٍ ﷺ، لأنه أكْرَمُ البريَّةِ عنده.

وقال تعالىٰ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢...﴾ الآيات [يس: ١، ٢].

اختلف المُفَسِّرون في معنىٰ ﴿يسٓ ۝١﴾ علىٰ أقوال:

٢٤ ـ فحكىٰ أبو محمد، مَكِّيٌّ: أنه رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«لي عند رَبِّي عَشَرَةُ أسماءٍ»** ذكر أنَّ منها: ﴿طه﴾ و ﴿يسٓ﴾، اسمانِ له.

وحكىٰ أبو عبدالرحمن السُّلَمِيُّ، عن جَعْفرِ الصادق ـ رحمه الله تعالىٰ ـ أنه أراد: يا سيِّدُ! مخاطبةً لنبيه ﷺ.

وعن ابن عباس ﴿يسٓ ۝١﴾ يا إنْسان! أرادَ محمداً ﷺ.

وقال: هو قَسَمٌ، وهو من أسْماء الله تعالىٰ.

وقال الزجَّاج: قيلَ: معناه يا محمد! وقيل: يا رَجُل! وقيل: يا إنسان!

وعن ابْنِ الحنَفِية: ﴿يسٓ ۝١﴾: يا محمد!

وعن كَعْب: ﴿يسٓ ۝١﴾ قَسَمٌ أقسم اللَّهُ تعالىٰ به قَبْلَ أَنْ يَخلُقَ السماءَ والأرضَ بألفَيْ عام: يا محمَّدُ! إنكَ لمنَ المرسلين. ثم قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ [يس: ٢، ٣].

فإنْ قُدِّرَ أنه من أسمائه ﷺ، وصَحَّ فيه أنه قسَمٌ، كان فيه من التعظيم ما تقدَّمَ، ويُؤكِّدُ فيه القَسَم عطفُ القَسَمِ الآخَرِ عليه، وإنْ كان بمعنى النداء فقد جاء قَسَمٌ آخر بعْدَه لتحقيقِ رِسالته، والشهادةِ بهدايته. أقسم الله تعالىٰ باسْمِه وكتابِهِ إنه لَمِنَ المُرْسَلِين بوَحْيه إلىٰ عِبادِه، وعلىٰ صراطٍ مستقيم من إيمانِه، أي طريقٌ لا اعْوِجاجَ فيه، ولا عُدولَ عن الحق.

قال النَّقاشُ: لم يُقْسِم الله تعالىٰ لأحَدٍ من أنبيائه بالرسالة في كتاب إلاَّ له، وفيه مِنْ ـ تَعظيمه وتَمجيدِه ـ علىٰ تأويل مَنْ قال: أنه يا سيِّد! ما فيه.

٢٥ ـ وقد قال عليه السلامُ: **«أنا سيِّدُ ولَدِ آدمَ ولا فخر»** [مسلم (٢٢٧٨)].

وقال تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد: ١، ٢].

قيل: لا أُقْسِمُ به إذا لم تكُنْ فيه بعد خُروجِكَ منه، حكاه مَكِّيٌّ.

وقيل: (لا) زائدة؛ أي أُقسم به وأنْتَ به يا محمد! حَلاَلٌ. أو حِلٌّ لكَ ما فَعَلْتَ فيه علىٰ التفسيرين.

والمرادُ بالبلد عند هؤلاء: مكّة.

وقال الوَاسِطِيُّ: أي نَحْلِف لك بهذا البلدِ الذي شَرَّفْتَه بمكانك فيه حياً، وبركتك مَيْتاً، يَعْني: المدينة.

والأولُ أصحُّ؛ لأنَّ السورةَ مكية، وما بعده يُصَحِّحهُ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد: ٢].

ونَحْوُه قولُ ابن عطاء في تفسير قولِه تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] قال: آمنها الله تعالىٰ بمُقامهِ فيها وكَوْنِه بها، فإنَّ كَوْنَه أَمَانٌ حيثُ كان.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البلد: ٣] ومن قال: أراد آدم فهو عامّ؛ ومَنْ قال: هو إبراهيم وما وَلد فهي - إن شاءَ اللَّهُ - إشارةٌ إلىٰ محمد ﷺ، فتتضمَّنُ السورةُ القَسَم به - عليه السلام - في موضِعين.

قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢].

قال ابنُ عباس: هذه الحروفُ أقسَامٌ، أقسم الله تعالىٰ بها. وعنه وعن غَيْرِه فيها غَيْرُ ذلك.

وقال سَهْلُ بن عَبْداللَّهِ التُّسْتَريُّ: الألف: هو الله تعالىٰ. واللام: جبريل. والميم: محمد عليهما السلام.

وحكىٰ هذا القولَ السَّمَرْقَنْدِيُّ، ولم ينسبه إلىٰ سَهْل، وجعل معناه: اللَّهُ أنزل جبريل علىٰ محمد بهذا القرآنِ لا رَيْبَ فيه، وعلى الوَجْه الأول يحتمل القَسَمُ أنَّ هذا الكتابَ حقٌّ لا رَيْبَ فيه، ثُمَّ فيه مِنْ فَضِيلته قِرَانُ اسْمِه باسمه نحو ما تَقَدَّم.

وقال ابنُ عطاء في قوله تعالىٰ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [قٓ: ١]: أقسم بقُوَّةِ قَلْب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخِطَابَ والمشاهدةَ ولم يؤثر ذلك فيه لعُلُوِّ حاله.

وقيل: هو اسْمٌ للقرآن. وقيل: هو اسْمٌ لِلَّهِ تعالىٰ. وقيل: جَبَلٌ مُحِيط بالأرض. وقيل غير هذا.

وقال جَعْفَر بن محمد في تَفْسير: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١]: إنه محمدٌ ﷺ، وقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾: قَلْبُ محمد ﷺ، ﴿هَوَىٰ﴾: انشرح من الأنوار.

وقال: انقطع عن غير الله.

وقال ابنُ عَطاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١، ٢] الفَجْر: محمد ﷺ لأنَّ منه تفجّر الإيمانُ.

الفصل الخامس

في قَسَمِهِ ـ تعالىٰ جَدُّهُ ـ له، لِيُحقِّقَ مَكَانَتَهُ عِنْدَهُ

قال جلَّ اسمُه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: ١ ـ ١١] اختلف في سببِ نزول هذه السورة.

٢٦ ـ فقيل: كان تَرْكُ النبيِّ ﷺ قيامَ الليل لعُذْرٍ نزل به، فتكلمتْ امرأةٌ في ذلك بكلام [البخاري (١١٢٥)، مسلم (١٧٩٧/١١٥)].

٢٧ ـ وقيل: بَلْ تكلَّمَ به المشركون عند فَتْرَة الوحي، فنزلت هذه السورة [الترمذي (٣٣٤٥)، البخاري (٢٨٠٢)].

قال القاضي الإمام أبو الفَضل رحمه الله: تضمَّنَتْ هذه السورةُ من كرامةِ الله تعالىٰ له، وتَنويهه به، وتعظِيمه إياه ستَّةَ وجوه:

الأول: القَسَم له عما أخبره به مِنْ حاله بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾. أي وربِّ الضحىٰ، وهذا مِنْ أعظم درجات المَبرَّة.

الثاني: بَيَانُ مكانتِه عنده وحُظْوَته لدَيْه بقوله تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: ما ترككَ وما أبْغضك. وقيل: ما أهْملَك بعد أن اصْطَفاك.

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾؛ قال ابن إسحاق: أي مَآلَكَ في مَرْجِعِكَ عند الله أعظَمُ ممّا أعطاكَ من كرامةِ الدُّنيا.

وقال سَهْلٌ: أي ما ادَّخَرْتُ لكَ من الشفاعة والمَقَام المحمود خَيْرٌ لكَ مما أعطيتُكَ في الدنيا.

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.

وهذه آيةٌ جامعةٌ لوجوهِ الكرامة، وأنواعِ السعادة، وشَتَاتِ الإنْعَام في الدَّارين، والزيادةِ.

قال ابن إسحاق: يُرْضِيه بالفُلْج في الدنيا، والثوابِ في الآخرة.

وقيل: يُعْطيه الحَوْضَ والشفاعة.

٢٨ ـ ورُوي عن بعض آلِ النبي ﷺ أنه قال: ليس آيةٌ في القرآن أَرْجَىٰ منها، ولا يَرْضَىٰ رسولُ الله ﷺ أَنْ يَدْخُلَ أحدٌ من أُمته النارَ.

الخامس: ما عدَّهُ تعالىٰ عليه من نِعَمِهِ، وقرَّره من آلائه قِبَلَه في بقية السورة؛ من هدايته إلىٰ ما هداهُ له، أو هدايَةِ الناس به علىٰ اختلاف التفاسير، ولا مالَ له؛ فأغناه الله بما آتاه، أو بما جعلَه في قَلْبِه من القناعةِ والغنى، ويتيماً فَحَدِبَ عليه عمُّه، وآواه إليه.

وقيل: آواه إلىٰ الله. وقيل: يتيماً: لا مِثالَ لك فآواكَ إليه.

وقيل: المعنى: ألم يَجدكَ فهدَىٰ بكَ ضالاً، وأغنى بكَ عائلاً، وآوى بكَ يتيماً، ذَكَّرَهُ بهذه المِنَن، وأنه ـ علىٰ المعلوم من التفسير ـ لم يُهْمِلْه في حال صغره، وعَيْلَتِه، ويُتْمه، وقَبْلَ معرفته به، ولا ودَّعه، ولا قَلاَه، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه!

السادس: أَمْرُه بإظهار نعمته عليه، وشُكْرِه ما شرَّفَه به، بنَشْرِهِ، وإشادةِ ذِكْره بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]؛ فإنَّ مِنْ شُكْرِ النعمة الحديثَ بها؛ وهذا خاصٌ له، عامٌ لأمته.

وقال تعالىٰ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

اختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بأقاويلَ معروفة، منها النَّجم علىٰ ظاهره، ومنها القرآن.

وعن جعفر بن محمد؛ أنه محمدٌ عليه السلام؛ وقال: هو قَلْبُ محمَّدٍ.

وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: ١ ـ ٣] إن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ؛ حكاه السُّلَميّ.

تضمَّنت هذه الآياتُ من فَضْله وشرفِهِ العِدِّ ما يقف دونه العَدُّ، وأقسم جلَّ اسمهُ علىٰ هدايةِ المصطفىٰ، وتَنْزيهه عن الهوىٰ، وصِدْقِه فيما تَلاَ، وأنَّه وَحْي يُوحى أَوْصَلَه إليه ـ عن الله ـ جبريل عليه السلام وهو الشديد القُوىٰ.

ثم أَخبر تعالىٰ عن فضيلته بقصة الإسراءِ، وانتهائه إلىٰ سِدْرَةِ المُنتَهى، وتصديقِ بَصَرِهِ فيما رأىٰ، وأنه رأىٰ من آيات رَبِّه الكبرىٰ. وقد نَبَّه علىٰ مثل هذا تعالىٰ في أول سورة الإسراء.

ولما كان ما كاشفَهُ ـ عليه السلام ـ من ذلك الجَبَرُوتِ، وشاهَدَهُ من عجائب المَلَكُوت لا تُحِيطُ به العبارات، ولا تستقِلُّ بحَمْل سَمَاع أدناه العقولُ، رَمَزَ عنه تعالىٰ بالإيماء والكناية الدالَّة على التعظيم؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

وهذا النوعُ من الكلام يُسمِّيه أهلُ النقد والبلاغة بالوَحْي والإشارة، وهو عندهم أبْلَغُ أبوابِ الإيجاز.

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ انحسرت الأفهامُ عن تفصيل ما أوْحىٰ، وتاهَت الأحلامُ في تعيين تلكَ الآياتِ الكبرىٰ.

قال القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله: اشتملت هذه الآياتُ علىٰ إعلامِ اللَّهِ تعالىٰ بِتَزْكِيَةِ جُمْلته عليه السلام، وعِصْمَتِها من الآفاتِ في هذا المَسْرَىٰ، فزَكَّىٰ فؤادَه ولسانَه وجَوَارِحَه:

فزكّىٰ قَلْبه بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾. ولسانه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾. وبَصَره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٥].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: أي أُقسم. ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أي كريم عند مرسله. ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾: علىٰ تبليغ ما حمله من الوَحْي، ﴿مَكِينٍ﴾: أي متمكِّنُ المنزلة من ربِّه، رَفِيع المَحَلِّ عنده، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾: أي في السماء. ﴿أَمِينٍ﴾: علىٰ الوَحْي.

قال علي بن عيسىٰ وغيره: الرسولُ الكريمُ ـ هنا ـ محمدٌ ﷺ. فجميعُ الأوصافِ بَعْدُ علىٰ هذا له.

وقال غيره: هو جبريل عليه السلام، فترجع الأوصافُ إليه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾: يعني محمّداً. قيل: رأىٰ ربَّه. وقيل: رأىٰ جبريلَ في صورته.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾، أي: بِمُتَّهَم. ومن قرأهُ بالضاد فمعناه: ما هو ببخيل بالدعاء به، والتذكير بحكمِه وبعلمه، وهذه لمحمد عليه السلام باتفاق.

وقال تعالىٰ: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ

لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١ ـ ١٦].

أقسم اللَّهُ تعالىٰ بما أقسم به مِنْ عظيم قَسَمِه علىٰ تنزيه المصطفىٰ مِمَّا غَمَصَته الكفرةُ به، وتكذيبهم له، وآنسه، وبسط أَمَلَهُ بقوله ـ محسناً خطابه ـ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢].

وهذه نهايةُ المَبَرَّةِ في المخاطبة، وأعلىٰ درجاتِ الآدابِ في المُحَاورة؛ ثم أَعْلَمَهُ بِمَا لَهُ عنده مِن نعيم دائم، وثَوَاب غَيْرِ منقطع، لا يأخذه عَدٌّ، ولا يُمْتَنُّ به عليه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم: ٣].

ثم أثنى عليه بما منحه من هِبَاته، وهدَاهُ إليه، وأكَّد ذلك تتميماً للتمجيد، بحَرْفَي التأكيد؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]. قيل: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: الطَّبْعُ الكريم. وقيل: ليس لك هِمَّة إلا الله.

قال الواسطي: أثنىٰ عليه بِحُسْنِ قَبوله لما أَسْدَاهُ إليه من نِعَمه، وفضَّله بذلك علىٰ غيره؛ لأنه جَبَلَهُ علىٰ ذلك الخُلق فسبحان اللطيف الكريم، المحسنِ الجواد الحميد، الذي يَسَّر للخير وهدَى إليه، ثم أثنى علىٰ فاعله؛ وجازاه عليه؛ سُبْحانه، ما أغمَر نَواله! وأَوسعَ إفضاله! ثم سلاَّه عن قولهم بعد هذا بما وَعده به من عِقابهم، وتوعَّدهم بقوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ [القلم: ٥ ـ ٧].

ثم عطف بعد مَدْحِه على ذَمِّ عدُوِّه، وذِكْر سوء خُلقه، وعَدِّ معايبه، متولِّياً ذلك بفضله، ومُنْتَصراً لنبيه؛ فذكر بِضْعَ عَشْرَةَ خَصْلةً مِنْ خِصَالِ الذَّمِّ فيه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ٨ ـ ١٥].

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادقِ لتمام شقائه، وخاتمةِ بَوارِه بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]. فكانت نُصْرةُ الله له أَتمَّ من نصرته لنفسه، وردُّه تعالىٰ على عدوه أبلغ من ردِّه، وأثبت في دِيوان مَجْدِه.

الفصل السادس

فِي ما وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تعالىٰ فِي جِهَتِهِ عَلَيهِ السَّلامُ مَوْرِدَ الشَّفَقَةِ والإِكْرَامِ

قال تعالىٰ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١، ٢].

قيل: ﴿طه﴾: اسم من أسمائه عليه السلام، وقيل: هو اسمٌ لله، وقيل: معناه يا رَجُل! وقيل: يا إنسان! وقيل: هي حروفٌ مُقَطَّعَةٌ لِمَعَانٍ.

وقال الواسطيُّ: أراد: يا طاهر! يا هادي! وقيل: هو أمرٌ من الوطء. والهاءُ كناية عن الأرض. أي: اعتمد علىٰ الأرض بقدميك، ولا تُتعِبْ نَفْسك بالاعتماد علىٰ قدم واحدة، وهو قولهُ تعالىٰ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

نزلت الآية فيما كان النَّبيُّ ﷺ يتكلَّفُه من السَّهر والتعب وقيام الليل.

٢٩ ـ أخبرنا القاضي أبو عبدالله: محمد بن عبدالرحمن، وغَيْرُ واحد، عن القاضي أبي الوليد الباجي إجازة، ومن أَصْله نقلتُ؛ قال: حدثنا أبو ذَرّ الحافظ، قال: حدثنا أبو محمد الحَمُّوِيُّ، حدثنا إبراهيم بن خُزَيم الشَاشي قال: حدثنا عَبْدُ بن حُمَيد، حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الرَّبيع بن أنس؛ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّىٰ قام علىٰ رِجْل واحدة ورفع الأخرىٰ؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿طه﴾ يعني: طَأ الأرضَ، يا محمد! ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ [طه: ٢ ـ ٤].

ولا خفاءَ بما في هذا كلِّه من الإكرام وحُسْنِ المعاملة.

وإن جعلنا ﴿طه﴾ من أسمائه عليه السلام كما قِيل، أو جُعِلت قَسماً لَحِقَ الفَصْلُ بما قبله.

ومثلُ هذا من نَمَطِ الشفقةِ والمَبَرَّة قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] أي: قاتلٌ نفسَكَ لذلك غَضَباً، أو غيظاً، أو جَزعاً.

ومِثْلُه قولُه تعالىٰ أيضاً: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣].

ثم قال: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: ٤].

ومِنْ هذا الباب قولُه تعالىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

قال مَكِّيٌّ: سلَّاه الله تعالىٰ بما ذكر، وهوَّن عليه ما يَلقَىٰ من المشركين، وأعلمه أنَّ مَنْ تَمَادَىٰ على ذلك يَحُلُّ به ما حلَّ بمَنْ قبْله.

ومثلُ هذه التسلية قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤].

ومِنْ هذا قولهُ تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

عزَّاه الله تعالىٰ بما أَخبَره به عن الأمَمِ السالفة ومقالِها لأنبيائهم قَبْله، ومِحْنَتهم بهم؛ وسلَّاه بذلك عن محنَته بمثله من كفَّار مكة، وأنه ليس أوَّلَ مَنْ لقي ذلك، ثم طيَّبَ نفسه، وأبانَ عُذْرَه بقوله تعالىٰ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات: ٥٤] أي: أَعْرِض عنهم؛ ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]؛ أي: في أداءِ ما بلَّغْتَ وإبلاغ ما حُمِّلْت.

ومِثله قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: اصْبِرْ علىٰ أذاهم، فإنكَ بحيث نَرَاكَ ونحفظك.

سلَّاه الله تعالىٰ بهذا في آيٍ كثيرة من هذا المعنىٰ.

الفَصلُ السّابع

في ما أَخبَرَ اللَّهُ تعالىٰ بهِ في كتابهِ العَزيزِ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ وشَرِيفِ مَنزِلَتِهِ علىٰ الأنبياءِ وَحُظْوَةِ رُتْبَتِهِ

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال أبو الحسن القابِسي: استخصَّ الله تعالىٰ محمداً ﷺ بفضلٍ لم يُؤتِه غيرَهُ، أَبانَهُ به، وهو ما ذكره في هذه الآية؛ قال المفسرون: أَخَذَ اللَّهُ المِيثاقَ بالوَحْي، فلم يَبْعَثْ نبياً إلا ذكر له محمداً ونَعْتَهُ وأخذَ عليه ميثاقه إنْ أدركه ليؤمِنَنَّ به.

وقيل: أنْ يُبيِّنَهُ لقومه، ويأخذَ ميثاقَهم أن يُبيِّنوه لمَنْ بعدهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾: الخطابُ لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ.

٣٠ ـ قال عليّ بن أبي طالب رضي اللَّهُ عنه: لم يبعث الله نبياً من آدمَ فمَنْ بَعْده إلا أَخَذَ عليه العَهْدَ في محمد ﷺ، لَئِنْ بُعِثَ ـ وهو حيٌّ ـ ليؤمِنَنَّ به ولينصُرَنَّه، ويأخذَ العَهْدَ بذلك على قومه.

ونحوه عن السُّدِّي وقَتَادةَ، في آيٍ تضمنت فَضْلَه من غير وَجْه واحد.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٦].

٣١ ـ ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بَكَىٰ به النبيَّ ﷺ، فقال: بأبي أنتَ وأمي، يا رسول الله! لقد بلغ من فَضِيلتك عند الله أن بعثك آخِرَ الأنبياء، وذَكَرك في أولهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أنَّ أهل النار يودُّون أن يكونوا أطاعُوكَ وهم بين أَطْباقها يعذَّبون يقولون: ﴿يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣٢ ـ قال قَتَادة: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كنتُ أَوَّلَ الأنبياءِ في الخَلْق، وآخرَهم في البَعْثِ**»، فلذلك وقع ذِكْرُهُ مقدماً هنا قبل نوح وغيره.

قال السَّمَرْقَنْدِي: في هذا تفضيلُ نبينا ـ عليه السلام ـ لتخصيصه في الذِّكر قبلَهم، وهو آخرُهم.

المعنى: أخذ اللَّهُ تعالىٰ عليه الميثاقَ، إذ أخرجهم من ظَهْرِ آدم كالذَّرِّ.

وقال تعالىٰ: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

﴿اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال أهلُ التفسير: أراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] محمداً ﷺ؛ لأنه بُعِثَ إلىٰ الأحمر والأسود، وأُحِلَّت له الغنائمُ، وظهرت علىٰ يديه المعجزاتُ، وليس أحدٌ من الأنبياء أُعطي فضيلةً أو كرامةً إلا وقد أُعْطِي محمدٌ ﷺ مِثْلَها.

قال بعضهم: ومن فضله أنَّ اللَّهَ تعالىٰ خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوّة والرسالةِ في كتابه، فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

وحكىٰ السَّمَرْقَنديُّ عن الكَلْبي ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)﴾ [الصافات: ٨٣] ـ أن الهاءَ عائدةٌ علىٰ محمد؛ أي إنَّ من شِيعَةِ محمد لإبراهيم؛ أي علىٰ دِينه ومِنْهَاجه. وأجازه الفرَّاء، وحكاه عنه مَكِّيٌّ. وقيل: المرادُ منه نوح عليه السلام.

الفَصْلُ الثامِن
فِي إعْلامِ اللَّهِ تعالىٰ خَلْقَه بِصَلاتِهِ عَلَيْه
ووِلايَتِهِ لَهُ ورَفْعِهِ العَذابَ بِسَبَبِه

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ أي: ما كُنْتَ بمكة. فلما خرج النبيُّ ﷺ من مكة، وبَقِيَ فيها مَنْ بقي من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وهذا مِثْلُ قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥] فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وهذا من أَبْيَنِ ما يُظْهِرُ مكانته ﷺ.

وَدَرَأَ به العذابَ عن أهل مكة بسبب كَوْنِه، ثم كَوْنِ أصحابه بعده بين أَظْهُرِهم، فلما خلَتْ مكةُ منهم عذّبهم اللَّهُ بتسليطِ المؤمنين عليهم، وغَلبتهم إياهم، وحَكَّمَ فيهم سيوفَهم، وأورثهم أرْضَهم وديارهم وأموالَهم.

وفي الآية أيضاً تأويلٌ آخر.

٣٣ ـ حدثنا القاضي الشهيد أبو علي ـ رحمه الله ـ بقراءتي عليه، قال:

حدثنا أبو الفضل بن خَيْرون، وأبو الحُسين الصَّيْرفي، قالاَ: حدثنا أبو يَعْلىٰ ابن زَوْج الحُرَّة، حدثنا أبو علي السِّنْجي، حدثنا محمد بن محبوب المَرْوَزي، حدثنا أبو عيسىٰ الحافظ، حدثنا سفيان بن وَكيع، حدثنا ابن نُمَير، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مُهاجر، عن عبّاد بن يوسف، عن أبي بُرْدةَ بن أبي موسىٰ، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنزلَ اللّهُ عليَّ أمانَين لأمتي:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] **فإذا مضيت تركتُ فيهم الاستغفارَ»** [الترمذي (٣٠٨٢)].

ونحوٌ منه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٣٤ ـ وقال عليه السلام: **«أنا أمانٌ لأصحابي»** [مسلم (٢٥٣١)]. قيل: من البِدَع.

وقيل: من الاختلاف والفِتَن.

قال بعضُهم: الرسولُ ﷺ هو الأمانُ الأعظم ما عاشَ، وما دامت سُنَّتُه باقيةً فهو باقٍ، فإذا أُميتَت سنّتُهُ فانتظِروا البلاء والفِتَن.

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] أبانَ الله تعالىٰ فَضْلَ نبيِّه ﷺ بصلاته عليه، ثم بصلاةِ ملائكتهِ، وأَمَرَ عباده بالصلاة والتسليم عليه.

٣٥ ـ وقد حكىٰ أبو بكر بن فُورَك أن بعضَ العلماء تأوّل قولَه عليه السلام: **«وجُعِلتْ قُرَّةُ عَيني في الصلاة»** [النسائي (٦١/٧)، أحمد (١٢٨/٣)] على هذا؛ أي في صلاةِ الله تعالىٰ عليّ وملائكتهِ وأمْرِه الأمةَ بذلك إلىٰ يوم القيامة والصلاةُ من الملائكة ومنّا له دعاءٌ، ومن الله عزَّ وجلَّ رحمةٌ.

وقيل: يُصَلُّون: يُباركون.

وقد فرّقَ النبيُّ ﷺ ـ حين علَّم الصلاةَ عليه ـ بين لفظِ الصلاة والبركة.

وسنذكر حكم الصلاة عليه.

وذكر بعضُ المتكلمين في تفسير حروف ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ [مريم: ١] أن الكافَ من (كافٍ)، أي كفاية الله تعالىٰ لنبيه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. والهاء: هدايته له، قال: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] والياء: تأييده له، قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]. والعين: عِصْمَتُهُ له قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]. والصاد: صلاته عليه؛ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: وليه. ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ قيل: الأنبياء. وقيل: الملائكة. وقيل: أبو بكر، وعمر.

وقيل: عليّ. وقيل: المؤمنون على ظاهره.

الفَصلُ التَّاسع

فِي مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ الفَتحِ مِنْ كَراماتِهِ ﷺ

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١ ـ ١٠].

تضمّنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه، وكريم منزلته عند الله تعالىٰ، ونِعمَتِه لديه، ما يقصُر الوصْفُ عن الانتهاءِ إليه؛ فابتدأ ـ جلَّ جلالهُ ـ بإعلامه بما قَضاهُ له من القضاءِ البيِّن بظهوره، وغلبته على عدوه وعُلُوِّ كلمتِهِ وشريعته، وأنه مغفورٌ له، غَيْرُ مُؤاخذٍ بما كان وما يكون.

قال بعضُهم: أراد غُفران ما وقع وما لم يَقعْ، أي: إنك مغفور لك.

وقال مَكّيٌّ: جعل اللَّهُ المِنَّةَ سبباً للمغفرة، وكلٌّ مِنْ عنده، لا إله غيره، مِنَّةً بعد مِنَّةٍ، وفضلاً بعد فَضْل.

ثم قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [الفتح: ٢] قيل: بخضوع مَنْ تكبّر عليك.

وقيل: بفَتْح مكةَ والطائف.

وقيل: يرفَع ذِكْرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوِّه له، وفَتْح أهمِّ البلاد عليه وأحبها له، ورفْع ذكره، وهدايتِهِ الصراطَ المستقيم المبلِّغ الجنةَ والسعادةَ، ونَصْرِه النصرَ العزيز، ومِنَّته على أُمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبِشَارَتِهم بما لَهُمْ بَعْدُ،

وفوزِهم العظيم، والعَفْوِ عنهم، والسترِ لذنوبهم، وهلاكِ عدوِّه في الدنيا والآخرةِ، ولَعْنِهم ويُبْعِدِهم من رحمته، وسوء مُنْقَلبهم.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٨، ٩] فَعَدَّ محاسنه وخصائصه من شهادتِه علىٰ أمته لنفسه، بِتَبْلِيْغِهِ الرسالةَ لهم.

وقيل: شاهِداً لهم بالتوحيد، ومُبَشِّراً لأُمّتِهِ بالثواب. وقيل: بالمغفرة. ومُنْذِراً عدوَّه بالعذاب.

وقيل: مُحَذِّراً من الضلالات ليُؤْمِن بالله، ثم به ﷺ مَنْ سبقت له من الله الحُسْنى. ويُعَزِّرُوه؛ أي يُجِلُّونه. وقيل: ينصرونه. وقيل: يبالغون في تَعْظيمه. ويُوَقِّرُوهُ؛ أَيْ يعظموهُ.

وقرأ بعضُهم: ﴿وَتُعَزِّزُوهُ﴾ بزايين: من العِزّ، والأكثر والأظهرُ أنّ هذا في حقّ محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ فهذا راجعٌ إلىٰ الله تعالىٰ.

قال ابنُ عطاء: جُمِع للنبي ﷺ في هذه السورة نِعَمٌ مختلفةٌ؛ من الفَتْح المُبين، وهو من أعلام الإجابة، والمَغْفِرة، وهي من أعلام المحبّة، وتمام النعمة، وهي من أعلام الاختصاصِ، والهداية، وهي من أعلام الولاية، فالمغفرةُ: تبرئةٌ من العيوب، وتمامُ النعمةِ: إبلاغُ الدرجةِ الكاملة، والهدايةُ: وهي الدعوةُ إلىٰ المشاهدة.

وقال جعفر بن محمد: من تمام نعمته عليه أنْ جعله حَبِيبَه، وأقسم بحياته، ونَسَخَ به شرائعَ غيره، وعَرَج به إلىٰ المَحلّ الأعلىٰ، وحفِظَه في المعراج حتى ما زاغَ البَصَرُ وما طَغَىٰ، وبعثه إلىٰ الأسود والأحمر، وأحلَّ له ولأمته الغنائمَ، وجعله شَفِيعاً مُشفَّعاً، وسيِّدَ وَلدِ آدم، وقَرَن ذِكْرَه بذكره، ورِضاهُ برضاهُ، وجعله أحدَ رُكْنَي التوحيد.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: بيعة الرضوان؛ أي إنما يبايعون اللّهَ بِبَيْعَتِهِمْ إياكَ.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد: عند البَيْعَة. قيل: قوة الله، وقيل: ثَوابه. وقيل: مِنّته. وقيل: عَقْده، وهذه استعارةٌ، وتجنيس في الكلام، وتأكيد لعَقْد بَيْعتهم إياه. وعِظَم شَأْنِ المُبايَع ﷺ.

وقد يكون مِنْ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ

إذ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]؛ وإنْ كان الأول في باب المجاز، وهذا في باب الحقيقة، لأنَّ القاتل والرامي بالحقيقة هو الله، وهو خالقُ فِعْله وَرَمْيِهِ، وقُدْرَتِه عليه ومسبِّبُه، ولأنه ليس في قدرة البشر توصيلُ تلك الرَّميةِ حيثُ وصلَتْ، حتى لم يَبْقَ منهم مَنْ لم تملأ عَيْنيه، وكذلك قَتْلُ الملائكة لهم حقيقة.

وقد قيل في هذه الآية الأخرىٰ: إنها علىٰ المجاز العربيّ، ومقابلةِ اللفظ ومناسبتهِ؛ أي: ما قتلتموهم، وما رَمَيْتَهمْ أنتَ إذ رميت وجوهَهم بالحَصْباء والتراب، ولكنَّ الله رمىٰ قلوبَهم بالجزَع، أي إنَّ منفعةَ الرَّمْي كانت من فِعْلِ الله؛ فهو القاتلُ والرامي بالمعنى وأنتَ بالاسم.

الفصل العاشر

فِي مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تعالىٰ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ مِنْ كَرامَتِهِ عَلَيْهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ وما خصَّهُ الله بِهِ مِنْ ذلكَ سِوَىٰ ما انْتَظَمَ فيما ذكرناهُ قَبْلُ

من ذلك ما نَصَّهُ تعالىٰ من قصة الإسراء في سورة: ﴿سبحان﴾ و ﴿النَّجم﴾ وما انطوت عليه القصةُ من عظيم منزلته وقُرْبه ومشاهدته ما شاهَدَ من العجائب.

ومن ذلك عِصْمتهُ من الناس بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]. وما دفع اللَّهُ به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحزُّبهم لهُلْكه وخلوصِهم نَجِياً في أمره، والأخذِ علىٰ أبصارهم عند خروجه عليهم، وذهولِهم عن طلبه في الغار، وما ظهر في ذلك من الآيات، ونزول السكينة عليه.

٣٦ ـ وَقِصَّةَ سُرَاقَةَ بن مالك [البخاري (٣٩٠٦، ٣٩٠٨، ٣٩١١)، مسلم (٢٠٠٩/٩١)]، حسبَ ما ذكره أهلُ الحديث والسِّير.

٣٧ ـ في قصة الغار [البخاري (٣٩٢٢)، مسلم (٢٣٨١)].

٣٨ ـ وحديثِ الهجرة [البخاري: (٣٩٠٥، ٣٩١١) مسلم (٢٠٠٩)].

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣].

أعلمه اللَّهُ عز وجلَّ بما أعطاه. و ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: حَوْضُه. وقيل: نهر في الجنة. وقيل: الخير الكثير. وقيل: الشفاعة. وقيل: المعجزات الكثيرة. وقيل: النبوة. وقيل: المعرفة.

ثم أجابَ عنه عدوَّه، وردّ عليه قوله، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾؛ أي عدُوَّك ومُبْغِضَكَ. و ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾: الحقير الذليل، أو المفرد الوحيد، أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحِجر: ٨٧].

قيل: السبع المَثاني: السُورُ الطُوالُ الأُوَلُ. ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾: أم القرآن. وقيل: السبع المثاني: أمُّ القرآن. والقرآن العظيم: سائره. وقيل: السبع المثاني: ما في القرآن، من أَمْر، ونهي، وبُشْرىٰ، وإنذار، وضَرْب مثَل، وإعداد نِعَم، وآتيناكَ نبأ القرآن العظيم.

وقيل: سميت أُمُّ القرآن مَثاني لأنها تُثنَّىٰ في كل ركعة. وقيل: بل اللَّهُ تعالىٰ استثناها لمحمد ﷺ، وادخَرها له دون سائِر الأنبياء.

وسُمّي القرآنُ مثاني: لأن القِصَصَ تثنَّىٰ فيه.

وقيل: السبع المثاني: أكرمناك بِسَبْع كرامات: الهدىٰ، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] قال الفقيه القاضي ـ رحمه الله ـ: فهذه من خصائصه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤] فخصَّهم بقومهم، وبعث محمداً ﷺ إلىٰ الخَلْق كافَّة.

٣٩ ـ كما قال عليه السلام: «بُعِثْتُ إلىٰ الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ» [مسلم (٥٢١)، البخاري (٣٣٥)].

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال أهل التفسير: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ أي: ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماضٍ عليهم كما يَمْضي حكم السيد علىٰ عبده.

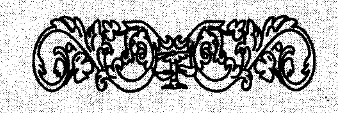
وقيل: اتباع أمره أوْلَىٰ من اتباع رأي النَّفْس.

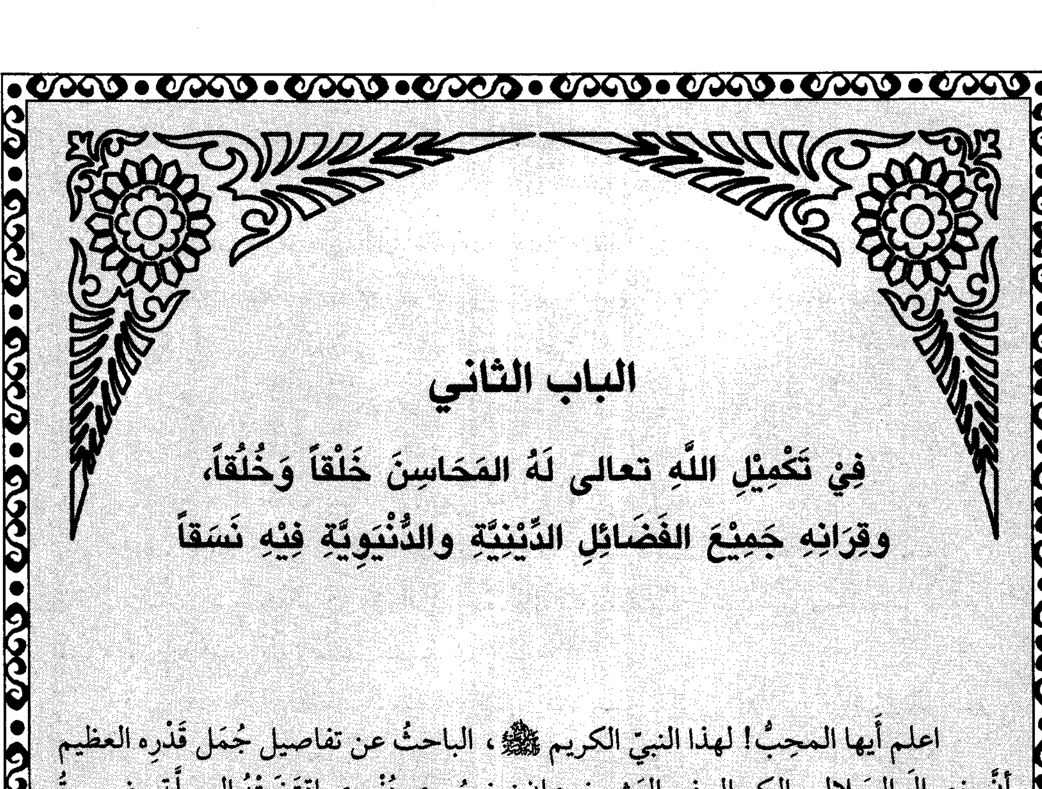
﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ أي: هنَّ في الحرمة كالأمهات؛ حرَّمَ نكاحهنَّ عليهم بَعْدَهُ؛ تكْرِمة له وخُصوصية، ولأنهن له أزواجٌ في الآخرة.

٤٠ ـ وقد قرىء: وهو أبٌ لهم. ولا يُقرأ به الآن لمخالفته المصحف.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

قيل: فَضْلُه العظيم بالنبوة. وقيل: بما سبق له في الأزَل. وأشار الواسطيّ إلىٰ أنها إشارةٌ إلىٰ احتمال الرؤية التي لم يحتملْها موسىٰ، صلىٰ الله عليهما.





الباب الثاني

فِيْ تَكْمِيْلِ اللَّهِ تعالى لَهُ المَحَاسِنَ خَلْقاً وَخُلُقاً، وقِرَانِهِ جَمِيْعَ الفَضَائِلِ الدِّيْنِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ فِيْهِ نَسَقاً

اعلم أَيها المحِبُّ! لهذا النبيِّ الكريم ﷺ، الباحثُ عن تفاصيل جُمَل قَدْرِه العظيم أَنَّ خصالَ الجَلالِ والكمال في البَشر نوعان: ضرُورِي دُنيوي اقتضَتْهُ الجِبِلَّة وضرورةُ الحياةِ الدنيا؛ ومُكْتَسَب دِيني؛ وهو ما يُحْمَد فاعلُه، ويقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ زُلْفى.

ثم هي علىٰ فَنَّيْن أيضاً: منها يتخلَّصُ لأَحد الوصفين. ومنها ما يتمازَجُ ويتداخل.

فأَما الضروريّ المَحْض: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مِثْلُ ما كان في جِبِلَّته: من كمال خِلْقَته، وجمالِ صورته، وقوةِ عقله، وصِحّةِ فهمه، وفصاحة لسانه، وقوةِ حواسّه وأعضائه، واعتدالِ حركاته، وشَرفِ نسبه، وعزَّة قومه، وكَرمِ أرضه؛ ويلحَقُ به ما تدعوه ضرورةُ حياتِه إليه، من غذَائه ونومه، وملبسه ومسكَنه، ومَنْكَحِه، ومالِه وجاهِهِ.

وقد تلحَقُ هذه الخِصَالُ الآخرة بالأُخْرَوية إذا قصد بها التقوىٰ ومَعُونةَ البدن علىٰ سلوك طريقها، وكانت علىٰ حدودِ الضرورةِ، وقوانين الشريعة.

وأما المُكْتَسَبةُ الأُخرَوية: فسائرُ الأخلاقِ العَلِيّة، والآداب الشرعية: من الدِّين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزُّهد، والتواضع، والعَفو، والعِفّة، والجُود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصَّمْتِ، والتُّؤَدة، والوقار، والرحمة، وحُسْن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي جِمَاعُها حُسْنُ الخُلقِ.

وقد يكونُ من هذه الأخلاقِ ما هو في الغَرِيزة، وأَصْلِ الجِبِلَّة لبعض الناس. وبعضُهم لا تكون فيه، فيكتَسِبها، ولكنه لا بدَّ أن يكونَ فيه من أصولها في أصل الجِبِلَّة شعبة كما سَنُبيِّنُهُ إن شاء الله تعالىٰ.

وتكون هذه الأخلاقُ دُنيوية إذا لم يُرَدْ بها وجْهُ الله تعالىٰ، والدارُ الآخرة؛ ولكنها كلُّها محاسنُ وفضائل باتِّفاق أصحابِ العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حُسْنِها وتفضيلها.

فصل
فِي اجتِمَاعِ خِصَالِ الجَلالِ والكَمَالِ فِي نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

إذا كانت خصالُ الكمال والجلال ما ذكرناه، ووجدنا الواحدَ منَّا يَشْرُفُ بواحدة منها أو اثنتين ـ إن اتفقت له في كلِّ عصر ـ إمّا من نَسَب، أو جمال، أو قوة، أو عِلْم، أو حِلْم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظُمَ قَدْره، ويُضْرَبَ باسمه الأمثال، ويتقَرَّر له بالوصف بذلك في القلوب أَثَرَةٌ وعظمة، وهو منذ عصورٍ خَوَالٍ، رَمَمٌ بَوَال، فما ظنُّك بعظيم قَدْرِ من اجتمعت فيه كلُّ هذه الخصال إلىٰ ما لا يأخذه عَدٌّ، ولا يعبِّرُ عنه مَقَال، ولا يُنَال بكَسْب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، مِنْ فضيلةِ النبوة والرسالة، والخُلَّة والمحبة، والاصطفاء والإسراء والرؤية، والقُرْب، والدنوّ، والوحي، والشفاعة، والوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبُرَاق، والمعراج، والبعث إلىٰ الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادةِ ولدِ آدم، ولواءِ الحَمْد، والبشارة، والنِّذَارة، والمكانة عند ذي العَرْش، والطاعة ثَمَّ، والأمانة والهداية، ورحمة للعالمين، وإعطاء الرضا والسُّؤْل، والكَوْثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدّم وتأخر، وشَرْح الصَّدْرِ، ووضع الوِزْر، ورَفْع الذكر، وعزَّة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الحِكْمة، والكتاب، والسَّبْع المثاني، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة، والدعاء إلىٰ الله، وصَلاة الله تعالىٰ والملائكة، والحُكم بين الناس بما أَرَاهُ الله، ووَضْع الإصْرِ والأغلال عنهم، والقَسَم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجَمادات، والعُجْم، وإحياء الموتىٰ، وإسماع الصُّمِّ، ونَبْع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورَدّ الشمس، وقلْب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع علىٰ

الغيب، وظلّ الغَمام، وتسبيح الحَصا، وإبراء الآلام، والعِصْمة من الناس، إلىٰ ما لا يَحْويه مُحْتَفِلٌ، ولا يحيط بعلمه إلا مانِحُه ذلك ومفضِّلهُ به، لا إله غيره، إلىٰ ما أَعَدّ له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القُدْس، ومراتب السعادة، والحُسْنىٰ، والزيادة التي تَقِفُ دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم.

فصل
فِي صِفَاتِهِ الخِلقِيّةِ ﷺ

إنْ قُلْتَ ـ أكرمكَ الله ـ: لا خفاءَ علىٰ القَطْع بالجُمْلة أَنه ﷺ أعلىٰ الناسِ قَدْراً، وأعظَمُهم محَلاًّ، وأكرمهم وأكملهم محاسِنَ وفضلاً، وقد ذهبتَ في تفاصيل خِصَالِ الكمال مذهباً جميلاً، شوّقني إلىٰ أنْ أقِفَ عليها من أوصافه ﷺ تفصيلاً.

فاعلم ـ نوَّرَ الله قلبي وقلبَك، وضاعفَ في هذا النبيّ الكريم حُبِّي وحبَّكَ ـ أنَّكَ إذا نظرتَ إلىٰ خصَال الكمالِ، التي هي غَيْر مُكْتَسبة، وفي جِبِلَّة الخِلْقَة وجَدْته حائزاً لِجميعها، مُحيطاً بشَتَات محاسنها دونَ خلافٍ بين نَقَلَة الأخبار لذلك؛ بل قد بلغ بعضُها مَبْلَغ القَطْع.

أما الصورةُ وجمالُها، وتناسُبُ أعضائه في حُسْنِها، فقد جاءت الآثارُ الصحيحةُ والمشهورةُ الكثيرةُ بذلك.

٤١ ـ من حديثِ علي [الترمذي (٣٦٣٧، ٣٦٣٨)، أحمد (١/٨٩، ١٠١)].

٤٢ ـ وأنس بن مالك [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].

٤٣ ـ وأبي هُريرة [الترمذي (٣٦٤٨)، أحمد (٢/٣٥٠)].

٤٤ ـ والبَرَاء بن عازب [البخاري (٣٥٤٩، ٣٥٥١)، مسلم (٢٣٣٧)].

٤٥ ـ وعائشة أُم المؤمنين [أبو داود (٤١٨٧)، الترمذي (١٧٥٥)، ابن ماجه (٣٦٣٥)].

٤٦ ـ وابن أَبي هَالَةَ [الترمذي (٧، ٣٢٩، ٣٤٤)].

٤٧ ـ وأبي جُحَيْفَةَ [البخاري (٣٥٤٤)، مسلم (٢٣٤٣)].

٤٨ ـ وجابر بن سَمُرَةَ [مسلم (٢٣٣٩)، الترمذي (٣٦٤٧)].

٤٩ ـ وأُمّ مَعْبَد.

٥٠ ـ وابن عباس [الترمذي (١٤)].

٥١ ـ ومُعَرِّضِ بن مُعَيْقِيب.

٥٢ ـ وأبي الطُّفَيْل [مسلم (٢٣٤٠)].

٥٣ ـ والعَدَّاء بن خالد.

٥٤ ـ وخُرَيْم بن فاتِك.

٥٥ ـ وحَكِيم بن حِزَام وغَيْرهم، من أنه ﷺ كان أَزْهَرَ اللَّونِ، أَدْعَجَ، أَنْجَلَ، أَشْكلَ أَهْدَبَ الأشفار، أَبْلَجَ، أَزَجَّ، أَقْنَىٰ، أَفْلَجَ، مُدَوَّرَ الوجه، واسعَ الجَبِين، كَثَّ اللحيةِ، تملأ صدْرَه، سَوَاءَ البطْنِ والصَدْرِ، واسعَ الصَّدْر، عظيم المَنكِبين، ضَخْمَ العِظَام، عَبْلَ العَضُدَين والذراعين، والأسافِل، رَحْبَ الكَفَّين والقَدَمين، سائلَ الأطراف، أَنْوَرَ المُتَجَرَّد، دَقِيقَ المَسْرُبةِ، رَبْعَةَ القَدِّ، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المترَدِّدِ، ومع ذلك فلم يكن يمَاشِيه أَحَدٌ يُنْسَبُ إلىٰ الطول إلا طَالَهُ ﷺ، رَجِلَ الشَّعْر، إذا افْتَرَّ ضَاحكاً افْتَرَّ عن مِثْلِ سنَا البَرْقِ، وعن مِثْلِ حَبِّ الغَمَام، إذا تكلَّم رُئي كالنور يخرجُ من ثَنَاياه، أَحسَنَ الناسِ عُنُقاً، ليس بِمُطَهَّمٍ ولا مُكَلْثَم متماسِكَ البَدَن، ضَرْبَ اللَّحْم.

٥٦ ـ قال البَرَاءُ بن عازب: ما رأيتُ من ذِي لِمَّة في حُلَّة حمراءَ أحسنَ من رسولِ اللَّهِ ﷺ [البخاري (٥٩٠١)، مسلم (٢٣٣٧)].

٥٧ ـ وقال أبو هُريرة رضي الله عنه: ما رأيتُ شيئاً أحسن من رسول اللَّهِ ﷺ، كأن الشمسَ تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجُدُرِ [الترمذي (٣٦٤٨) أحمد (٢/٣٥٠)].

٥٨ ـ وقال جابر بن سَمُرَةَ ـ وقال له رجل ـ: كان وجْهه ﷺ مِثْلَ السَّيْف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقَمَر. وكان مستديراً [مسلم (٢٣٤٤/١٠٩)].

٥٩ ـ وقالتْ أُمُّ مَعْبدٍ ـ في بعض ما وصفته به ـ: أجملُ الناسِ من بَعِيد، وأَحْلاهُ وأحسنُه من قريب صلى الله عليه وسلم تسليماً كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

٦٠ ـ وفي حديث ابْنِ أبي هَالَةَ: يَتلألأُ وجْهُهُ تَلألُؤَ القمر ليلةَ البَدْرِ.

٦١ ـ وقال عليّ رضي الله عنه في آخر وصْفه لهُ: مَن رآه بدِيهَةً هابَهُ، ومَنْ خالطه معرفةً أحبَّه، يقول ناعِتُه: لم أرَ قبله ولا بعده مِثْلَه ﷺ.

والأحاديثُ في بَسْطِ صفتِه مشهورةٌ كثيرة، فلا نُطَوِّلُ بسَرْدِها.

وقد اختصرنا في وصْفِه نُكَتَ ما جاءَ فيها، وجُمْلَةً مما فيه الكفايةُ في القَصْدِ إلىٰ المطلوب، وختمنا هذه الفصول بحديثٍ جامع لذلك تَقِفُ عليه هنالك إن شاء الله تعالىٰ.

فصل
فِي نَظَافَتِهِ ﷺ وَطِيبِ رِيحِهِ وَعَرَقِهِ وَدَمِهِ

وأما نظافةُ جسمه، وطِيبُ رِيحِه وَعَرَقِهِ، ونزاهَته عن الأقذار وعَوْرَاتِ الجَسد فكان قد خصَّه اللَّهُ في ذلك بخصائصَ لم توجَدْ في غيره، ثم تمَّمَها بنظافة الشَّرْعِ، وخِصَال الفِطْرَةِ العَشْرِ [مسلم (٢٦١)].

٦٢ ـ وقال: «**بُنِيَ الدِّينُ علىٰ النظافة**».

٦٣ ـ حدثنا سُفيان بن العاصي، وغيرُ واحد، قالوا: حدثنا أحمد بن عُمر. حدثنا أبو العباس الرازيّ، حدثنا أبو أحمد الجُلُودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، قال: حدثنا قُتيبة، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، قال: ما شَمَمْتُ عَنْبَراً قَطُّ، ولا مِسْكاً، ولا شيئاً أَطْيَبَ من رِيح رسولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم (٢٣٣٠)، البخاري (١٩٧٣)].

٦٤ ـ وعن جابر بن سَمُرَةَ: أنه ﷺ مسح خدَّه؛ قال: فوجدتُ لِيَدِه بَرْداً وريحاً، كأنما أَخرجها مِنْ جُونَةِ عَطَّار [مسلم (٢٣٢٩)].

قال غيره: مسَّها بطِيب أو لم يمسَّها، يُصافِحُ المُصَافِحَ فيظلُّ يومَه يجِدُ رِيحَها؛ ويَضَعُ يده علىٰ رأس الصبيّ فيُعْرَف من بين الصبيان بريحها.

٦٥ ـ ونام رسولُ الله ﷺ في دار أنس علىٰ نِطْعٍ فعَرِق، فجاءت أمُّه بقَارورَة تجمَعُ فيها عَرَقَه، فسألها رسولُ الله ﷺ عن ذلكَ؟ فقالت: نجعلهُ في طِيبنا، وهو مِنْ أطيبِ الطيب [مسلم (٢٣٣١)، البخاري (٦٢٨١)].

٦٦ ـ وذكر البخاري في تاريخِهِ الكبير، عن جابر: لم يكن النبيُّ ﷺ يمرُّ في طريقٍ فيَتْبَعه أحد إلا عُرِف أنه سلكه من طِيبه.

وذكر إسحاقُ بن رَاهَوَيْه أنَّ تلك كانت رائحته بلا طيب، ﷺ.

٦٧ ـ وروىٰ المُزَنِيُّ، عن جابر: أَرْدَفني النبيُّ ﷺ خَلْفه، فالتقَمْتُ خاتَم النبوة بفَمِي، فكان يَشُجُّ عليَّ مِسْكاً.

٦٧م ـ وقد حكَىٰ بعضُ المُعْتَنِين بأخباره وشمائله ﷺ: أنه كان إذا أراد أنْ يتغَوَّطَ انشقَّت الأرضُ فابتلعت غائطَه وبَوْلَه، وفاحت لذلك رائحة طيبة ﷺ.

٦٨ ـ وأسند محمدُ بن سعد ـ كاتِبُ الواقِدي ـ في هذا خبراً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: إنكَ تأتي الخَلاَءَ فلا يُرىٰ منكَ شيءٌ من

الأذى! فقال: «**يا عائشةُ! أو ما علِمتِ أنَّ الأرض تبتلعُ ما يخرج من الأنبياء، فلا يُرى منه شيء؟**».

وهذا الخَبَرُ، وإنْ لم يكن مشهوراً، فقد قال قومٌ من أهل العلم بطهارة الحدَثَينِ منه ﷺ. وهو قولُ بعضِ أصحابِ الشافعيِّ حكاه الإمام أبو نصر بن الصَّبَّاغ في «شامِلِهِ».

وقد حكىٰ القولين عن العلماء في ذلك أبو بكر بن سابق المالكي في كتابه: «البديع في فروع المالكية، وتخريج ما لم يقَعْ لهم منها علىٰ مذهبهم من تَفَاريع الشافعية».

وشاهدُ هذا أنه ﷺ لم يكن منه شيء يُكْرَه، ولا غَيْرُ طيب.

٦٩ ـ ومنه حديث علي رضي الله عنه: غسلْتُ النبيَّ ﷺ، فذهبتُ أنظُرُ ما يكونُ من الميت فلم أجدْ شيئاً؛ فقلت: طِبْتَ حياً وميّتاً [ابن ماجه (١٤٦٧)] قال: وسطعت منه ريحٌ طيِّبة لم نَجِدْ مثلَها قطّ.

٧٠ ـ ومثلُه قال أبو بكر رضي الله عنه حينَ قبَّلَ النبيَّ ﷺ بعد موته [البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣)].

٧١ ـ ومنه شُرْبُ مالك بن سنان دمَه يوم أُحُد، ومَصُّه إياه، وتسويغُه ﷺ ذلك له، وقوله: «**لن تُصِيبَه النارُ**».

٧٢ ـ ومثلُه شُرْبُ عَبدِاللَّهِ بن الزُّبير دمَ حِجَامته؛ فقال له عليه السلام: «**وَيلٌ لك من الناس! ووَيلٌ لهم منك!**» ولم ينكره عليه.

٧٣ ـ وقد رُوي نحوٌ من هذا عنه في امرأة شربَتْ بَوْله، فقال لها: «**لن تشتكي وَجَع بَطنِك أبداً**» [أبو داود (٢٤)، النسائي (٣١/١)]. ولم يأمر واحداً منهم بغَسْلِ فَمٍ، ولا نهاه عن عَوْدةٍ.

وحديث هذه المرأةِ التي شَرِبَتْ بَوْلَه صحيح ألزم الدارَقُطْني مسلماً والبخاري إخراجه في الصحيح، واسم هذي المرأة بَرَكَة. واختلف في نسبها.

وقيل: هي أمُّ أيمن: وكانت تَخدُم النبيَّ ﷺ؛ قالت: وكان لرسول الله ﷺ قَدَحٌ من عَيْدَانٍ يوضع تحت سريره يَبُولُ فيه من الليل، فبال فيه ليلةً، ثم افتقده، فلم يجد فيه شيئاً. فسأل بَرَكَةَ عنه؛ فقالت: قمْتُ وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم.

روَى حديثَها ابنُ جُرَيج وغيرُه.

٧٤ ـ وكان ﷺ قد وُلِدَ مَخْتُوناً مقطوعَ السُّرَّة.

٧٥ ـ ورُوي عن أُمِّهِ آمنة، أنها قالت: قد ولدتُه نظيفاً ما به قَذَر.

٧٦ ـ وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ فَرْجَ رسولِ اللّٰهِ ﷺ قطُّ [الترمذي (٣٥٢)، ابن ماجه (١٩٢٢)، أحمد (٦/٦٣)].

٧٧ ـ وعن علي رضي الله عنه: أوصاني النبيُّ ﷺ لا يغسله غيري؛ فإنه «لا يرىٰ أحدٌ عَوْرتي إلا طُمِسَتْ عيناه».

٧٨ ـ وفي حديث عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس رضِيَ الله عنه: أنه ﷺ نامَ حتى سُمِعَ له غَطِيطٌ، فقام فصلَّىٰ ولم يتوضأ [أحمد (١/٢٤٤)، البخاري (١١٧)، مسلم (٧٦٣/١٨٤)]، قال عِكْرِمَةُ: لأنه كان ـ ﷺ ـ محفوظاً.

فصل
فِي وُفُورِ عَقْلِهِ، وَذَكَاءِ لُبِّهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِّهِ، وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ ﷺ

وأما وفُورُ عَقْله، وذكاءُ لُبِّه، وقوةُ حواسِّه، وفصاحةُ لسانه، واعتدالُ حركاته، وحُسْن شمائله فلا مِرْيَة أنه كان أعقلَ الناسِ وأذكاهم.

ومَنْ تأمّل تدبيره أَمْرَ بواطنِ الخَلْقِ وظواهرهم، وسياسةَ العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سِيرِهِ، فَضْلاً عما أفاضه من العلم، وقرَّره من الشرع دونَ تعلُّم سبقَ، ولا مُمارسة تقدمت، ولا مُطالعةٍ للكتب منه، لم يَمْتَرِ في رُجْحان عَقله، وثُقُوبِ فهمه لأول بَدِيهة؛ وهذا ما لا يحتاج إلىٰ تقريره لتحقيقه.

وقد قال وَهْب بن مُنَبِّه: قرأتُ في أحد وسبعين كتاباً، فوجدتُ في جميعها أن النبيَّ ﷺ أرجحُ الناسِ عقلاً، وأفضلُهم رأياً.

وفي رواية أخرىٰ: فوجدتُ في جميعها أنّ الله تعالىٰ لم يُعْطِ جميعَ الناس من بَدْءِ الدنيا إلىٰ انقضائها من العقل في جَنْبِ عقله ﷺ إلا كحبة رَمْل بين رمال الدنيا.

٧٩ ـ وقال مجاهد: كان رسولُ اللّٰهِ إذا قام في الصلاة يَرىٰ مَنْ خَلْفَهُ كما يرى مَنْ بَيْنَ يديه. وبه فُسِّرَ قولهُ تعالىٰ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشعراء: ٢١٩].

٨١ ـ وفي المُوَطّأ عنه عليه السلام: «إني لأراكم من وَراءِ ظَهري» [البخاري (٤١٨)، مسلم (٤٢٤)].

٨٢ ـ ونحوه عن أنس بن مالك في الصحيحين [البخاري (٧٤٢)، مسلم (٤٢٥)].

٨٣ ـ وعن عائشة مثله؛ قالت: زيادةٌ زاده الله إياها في حُجَّته.

٨٤ ـ وفي بعض الروايات: «إني لأنظُرُ مَنْ ورائي كما أنظَر إلىٰ مَنْ بَيْنَ يديَّ».

٨٥ ـ وفي أخرىٰ: «إني لأُبصِرُ من قَفَايَ كما أبصر مَنْ بين يديَّ» [مسلم (٤٢٣)].

٨٦ ـ وحكى بَقِيُّ بنُ مَخْلَدٍ، عن عائشة قالت: كان النبيُّ ﷺ يرىٰ في الظُّلْمَة كما يَرىٰ في الضوء.

٨٧ ـ والأخبارُ كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكة والشياطين [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١، ٥٤٢)].

٨٨ ـ ورُفِع النجاشيُّ له حتى صلَّىٰ عليه [البخاري (١٣١٧)، مسلم (٩٥٢، ٩٥٣)].

٨٩ ـ وبيتُ المقدسِ حين وصفَه لقُريش.

٩٠ ـ والكعبة حين بنى مسجده.

٩١ ـ وقد حُكي عنه ﷺ أنه كان يرىٰ في الثُّرَيّا أحدَ عشر نَجماً.

وهذه كلُّها محمولةٌ علىٰ رؤية العين، وهو قولُ أحمد بن حنبل وغيره.

وذهب بعضُهم إلىٰ ردِّها إلىٰ العِلْم، والظواهرُ تُخالِفُه، ولا إحَالَة في ذلك، وهي من خواصّ الأنبياء وخِصَالِهِم.

٩٢ ـ كما أخبرنا أبو محمد: عَبْدُاللّه بن أحمد العَدْل من كتابه؛ حدثنا أبو الحسن المقري الفرغاني حدثَتْنا أُمُّ القاسمِ بنتُ أبي بكرٍ، عن أبيها، حدثنا الشريفُ أبو الحسن: علي بن محمد الحسني، حدثنا محمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، حدثنا محمد بن محمد مرزوق، حدثنا همّام قال: حدثنا الحَسَن، عن قَتَادةَ، عن يحيىٰ بن وَثّاب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «لما تَجلَّىٰ اللّهُ لموسىٰ ـ عليه السلام ـ كان يُبْصِرُ النملةَ على الصَّفَا، في الليلة الظلماءِ، مَسِيرةَ عَشَرةِ فراسخ». ولا يبعدُ على هذا أن يختصَّ نبيُّنا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظْوَة بما رأىٰ من آيات ربّه الكبرىٰ.

٩٣ ـ وقد جاءت الأخبار بأنه صرع رُكَانَةَ [أبو داود (٤٠٧٨)، الترمذي (١٧٨٤)]، أَشدَّ أهلِ وقته، وكان دعاه إلىٰ الإسلام.

٩٣م ـ وصارَعَ أَبَا رُكَانة في الجاهلية، وكان شديداً، وعاوَده ثلاثَ مرات، كلَّ ذلك يصرعُهُ رسولُ الله ﷺ.

٩٤ ـ وقال أبو هريرة: ما رأيتُ أحداً أسرعَ مِنْ رسول الله ﷺ في مَشْيه، كأنما الأرضُ تُطوىٰ له، إنا لنُجْهِدُ أنفسنا وهو غيرُ مُكْتَرِثٍ.

٩٥ ـ وفي صفته: أنَّ ضَحِكَهُ كانَ تَبَسُّماً، إذا التفتَ التفتَ معاً، وإذا مشىٰ مَشَىٰ تَقَلُّعاً، كأنما يَنْحَطُّ من صَبَبٍ.

فصل
في فَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَبَلاغَةِ قَوْلِهِ ﷺ

وأما فصاحةُ اللسانِ، وبلاغةُ القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلِّ الأفضل والموضع الذي لا يُجْهَل، سلاسةَ طَبْعٍ، وبَرَاعةَ مَنْزَعٍ، وإيجازَ مَقْطَعٍ، ونَصَاعَةَ لَفظٍ، وجزالَةَ قولٍ، وصحَّةَ مَعَانٍ، وقلَّةَ تكلُّفٍ، أُوتِيَ جوامعَ الكَلِمِ، وخُصَّ ببدائع الحِكَمِ، وعُلِّمَ ألسنةَ العرب، يخاطِبُ كلَّ أمة منها بلسانها، ويُحَاوِرُها بِلُغتها، ويباريها في مَنْزَعِ بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير مَوْطِنٍ، عن شَرْحِ كلامِهِ، وتفسير قولِهِ.

ومَنْ تأمَّل حديثَه وسِيرَه عَلِم ذلك وتحقَّقه؛ وليس كلامُهُ مع قريش والأنصارِ، وأهلِ الحجازِ، ونَجْد، ككلامِهِ مع ذي المِشْعَار الهَمْدَاني، وطِهْفَةَ النَّهْدي، وقَطَن بن حارثة العُلَيْمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حُجْر الكِنْدي، وغيرهم من أَقْيَالِ حَضْرَمَوتَ، وملوكِ اليمن.

٩٦ ـ وانظر كتابَه إلىٰ هَمْدَانَ: **«إن لكم فِرَاعَها، ووِهَاطَها، وعَزَازَها، تأكلون عِلافَها وتَرْعَوْن عَفَاءَها، لنا مِنْ دِفْئهم وصِرَامِهم ما سلَّموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصَّدَقة: الثِّلْبُ، والنابُ، والفَصِيل، والفارِضُ والدَّاجِن، والكَبْشُ الحَوَرِيُّ، وعليهم فيها الصالغ، والقارح»**.

٩٧ ـ وقوله ﷺ لِنَهْدٍ: **«اللهم! بارِكْ لهم في مَحْضِها ومَخْضِها، ومَذْقِها، وابعث راعِيَها في الدَّثْر، وافجُرْ له الثَّمَدَ، وبارِكْ له في المال والولد، مَنْ أقامَ الصلاةَ كان مُسْلماً، ومَنْ آتىٰ الزكاةَ كان مُحْسناً، ومن شَهِدَ أن لا إله إلا اللّٰهُ كان مُخْلِصاً، لكم يا بني نهدٍ! ودائعُ الشِّرْكِ، ووَضَائعُ المِلْكِ، لا تُلْطِطْ في الزكاة، ولا تُلْحِد في الحياة، ولا تتثاقَلْ عن الصلوات»**.

وكتب لهم: **«في الوَظِيفةِ الفَرِيضةُ، ولكم العَارِضُ، والفَرِيشُ، وذُو العِنَانِ الرَّكُوبُ، والفَلُوُّ الضَّبِيسُ، لا يُمْنَعُ سَرْحُكُم، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكُمْ، ولا يُحْبَسُ**

دَرُّكُم، ما لم تُضمِروا الرِّمَاقَ، وتأكلوا الرِّبَاق، مَنْ أَقَرَّ فله الوفاء بالعهد والذِّمَّةِ، ومَنْ أبىٰ فعليه الرِّبْوَة».

٩٨ ـ ومن كتابه لوائل بن حُجْرٍ:

«إلىٰ الأَقْيـال العَبَاهِلة، والأَرْوَاع المَشَابِيب».

وفيه: «في التِّيعَةِ شاةٌ، لا مُقَوَّرَةُ الأَلْيَاطِ، ولا ضِنَاكٌ، وأَنْطُوا الثَّبَجَةَ، وفي السُّيُوبِ الخُمُسُ. ومن زَنَى مِمْ بِكْرٍ فاصْقَعُوهُ مِئَةً، واستَوْفِضُوه عاماً، ومَن زنى مِمْ ثَيِّبٍ فَضَرِّجُوه بالأَضَامِيم، ولا تَوْصِيمَ في الدِّين، ولا غُمَّةَ في فرائض الله، وكلُّ مُسْكِرٍ حرام». ووائلُ بن حُجْرٍ يَتَرَفَّلُ علىٰ الأقيال.

٩٩ ـ أينَ هذا من كتابه لأنس، في الصدقة المشهور؟ [البخاري (١٤٥٤)] لمَّا كان كلامُ هؤلاء علىٰ هذا الحدّ، وبلاغَتُهم علىٰ هذا النَّمَطِ، وأكثَرُ استعمالِهم هذه الألفاظ استعملها معهم، لِيُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم، وليحدِّثَ الناس بما يعلمون.

١٠٠ ـ وكقوله في حديث عَطِيَّةَ السَّعْدِي: «فإنَّ اليدَ العليا هي المُنْطِيَةُ، واليد السُّفلىٰ هي المُنْطَاة». قالَ: فكلَّمَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ بلُغتِنا.

١٠١ ـ وقوله في حديث العامريّ حين سأله، فقال له النبي ﷺ: «سَلْ عنك».

أي: سَلْ عمَّا شئتَ، وهي لغةُ بني عامر.

وأما كلامُه المعتاد، وفصاحتُه المعلومة، وجوامِعُ كَلِمِه، وحِكَمُهُ المأثورة فقد أَلَّفَ الناسُ فيها الدواوين وجُمِعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يُوَازَىٰ فصاحةً، ولا يُبَارَىٰ بلاغةً.

١٠٢ ـ كقوله: «المسلمون تتكافأُ دِمَاؤهم، ويَسْعَىٰ بِذِمَّتِهِم أدناهم، وهم يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهم» [أبو داود (٤٥٣٠، ٤٥٣١)، النسائي (١٩/٨، ٢٠)].

١٠٣ ـ وقوله: «الناسُ كأسنان المُشْط».

١٠٤ ـ و «المَرْءُ مع مَنْ أَحبَّ» [البخاري (٦١٦٨، ٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤٠، ٢٦٤١)].

١٠٥ ـ و «لا خير في صُحبة مَنْ لا يرى لكَ ما ترىٰ له».

١٠٦ ـ و «الناسُ مَعَادِنُ» [البخاري (٣٤٩٦)، مسلم (١٦٠/٢٦٣٨)].

١٠٧ ـ و «ما هَلَكَ امرؤٌ عرف قَدْرَه».

١٠٨ ـ و «المستشار مُؤْتَمَنٌ، وهو بالخيارِ ما لم يتكلَّمْ».

١٠٩ ـ و «رحِمَ اللَّهُ عبداً قال خيراً فَغَنِم، أو سكت، فَسَلِم».

١١٠ ـ وقوله: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتين» [البخاري (٢٩٤١)، مسلم (١٧٧٣)].

١١١ ـ و «إنَّ أَحبَّكم إليّ وأقربَكم مني مجالسَ يوم القيامة، أحاسِنُكم أخلاقاً، المُوَطَّؤونَ أَكْنَافاً، الذين يَأْلَفون ويُؤْلَفون» [الترمذي (٢٠١٨)].

١١٢ ـ وقوله: «لعلَّه كان يتكلمُ بما لا يَعْنِيه، ويبخَلُ بما لا يُغْنيه» [الترمذي (٢٣١٦)].

١١٣ ـ وقوله: «ذو الوَجْهَين لا يكون عند الله وَجِيهاً» [أبو داود (٤٨٧٣)، البخاري (٧١٧٩)، مسلم (٢٥٢٦)].

١١٤ ـ ونَهْيه عن «قِيلَ وقالَ، وكثرةِ السؤال، وإضاعةِ المال، ومَنْعٍ وهاتِ، وعقوق الأمهات، ووَأْد البنات» [البخاري (٥٩٧٥)، مسلم (٥٩٣/١٢)].

١١٥ ـ وقوله: «اتَّقِ اللَّهَ حيثُما كُنْت، وأَتْبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالقِ الناسَ بخُلق حَسَن» [الترمذي (١٩٨٧)].

١١٦ ـ وقوله: «خَيرُ الأمور أوساطها».

١١٧ ـ وقوله: «أَحْبِبْ حبيبَكَ هَوْناً ما، عسىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَك يوماً ما» [الترمذي (١٩٩٧)].

١١٨ ـ وقوله: «الظُّلْمُ ظُلماتٌ يومَ القيامةِ» [البخاري (٢٤٤٧)، مسلم (٢٥٧٩)].

١١٩ ـ وقوله في بعض دُعائه: «اللَّهم! إنِّي أسألُك رحمةً من عندَك تَهدِي بها قَلْبي، وتجمَعُ بها أَمْري، وتلُمُّ بها شَعَثي، وتُصلِحُ بها غائبي، وتَرْفع بها شَاهِدي، وتزكِّي بها عَمَلي، وتُلهِمني بها رُشْدي، وتردُّ بها أُلفتي، وتَعْصِمني بها من كلِّ سوء. اللهم! إني أسأَلُك الفَوْزَ في القضاء، ونُزُلَ الشهداء، وعَيْشَ السُّعداء، والنَّصْرَ علىٰ الأعداء» [الترمذي (٣٤١٩)].

إلىٰ ما رَوَتْه الكافَّةُ عن الكافة من مَقاماته، ومُحاضراتِه، وخُطَبه، وأَدْعِيته، ومخاطباته، وعهودِه، مِمَّا لا خلافَ أنه نزل من ذلك مَرْقَبَةً لا يُقاس بها غَيْرُه، وحاز فيها سَبَقاً لا يُقْدَر قَدْرُه.

وقد جمعْتُ من كلماته التي لم يُسْبَق إليها، ولا قَدَر أَحدٌ أن يُفْرغ في قالبه عليها.

١٢٠ ـ كقوله: «حَمِيَ الوَطِيسُ» [مسلم (١٧٧٥)].

١٢١ ـ و «مات حَتْفَ أَنْفِه».

١٢٢ ـ و «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين» [البخاري (٦١٣٣)، مسلم (٢٩٩٨)].

١٢٣ ـ و «السعيد مَنْ وُعِظَ بغيرِه» [مسلم (٢٦٤٥)، ابن ماجه (٤٦)]. في أخواتها ما يُدرِكُ الناظرَ العجبُ في مُضَمَّنِها، ويذهبُ به الفِكْرُ في أداني حِكَمِها.

١٢٤ ـ وقد قال له أصحابُه: ما رأينا الذي هو أفصحُ منك! فقال: «وما يمنعُني؟ وإنما أُنزِلَ القرآنُ بلساني، لسانٍ عَربيٍّ مُبين».

١٢٥ ـ وقال مرة أخرىٰ: «أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش، ونشأْتُ في بني سَعْد».

فجُمِع له بذلك ﷺ قوةُ عارِضَةِ البادية وجَزالَتِها، ونَصاعةُ ألفاظِ الحاضرة، ورَوْنَقُ كلامها، إلىٰ التأييد الإلهِيّ الذي مَدَدُه الوَحْيُ الذي لا يُحيط بعلمه بَشَرِي.

١٢٦ ـ وقالت أمُّ مَعْبدٍ في وصْفِها له: حُلْوُ المنطق، فَصْلٌ، لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ، كأنَّ منطقَه خَرَزاتُ نُظِمْن.

وكان جَهيرَ الصوت، حَسَنَ النَّغمة ﷺ.

فصل

فِي شَرَفِ نَسَبِهِ ﷺ وَكَرَمِ بَلَدِهِ وَمَنْشَئِهِ

وأما شَرَفُ نسبِهِ ﷺ وكَرَمُ بلده ومَنْشَئه فممّا لا يحتاجُ إلىٰ إقامة دليل عليه، ولا بَيانِ مُشْكلٍ، ولا خَفِيّ منه؛ فإنه نُخبَةُ بني هاشم، وسُلالة قريش وصَمِيمُها، وأشرف العرب، وأعزهم نَفَراً من قِبَلِ أبيه وأمه، ومن أهل مكةَ، مِن أكرم بلادِ الله، علىٰ الله، وعلىٰ عباده.

١٢٧ ـ حدثنا قاضِي القُضاة: حُسَيْن بن محمد الصَّدَفي رحمه الله، قال: حدثنا القاضي أبو الوليد: سليمانُ بن خلف، حدثنا أبو ذَرّ: عبدُ بن أحمد، حدثنا أبو محمد السَّرَخْسِي، وأبو إسحاق وأبو الهيثم قالوا: حدثنا محمد بن يوسفَ قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، قال: حدثنا قُتَيبة بن سَعِيد قال: حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن، عن عَمْرو، عن سَعِيد المَقْبُري، عن أبي هريرة، أن رسولَ الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خير قُرونِ بني آدم قَرْناً فقَرْناً، حتى كنْتُ من القَرْن الذي كُنتُ مِنه» [البخاري (٣٥٥٧)].

١٢٨ ـ وعن العباس، قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالىٰ خلق الخَلْق فجعلني مِن خيرهم، مِنْ خير قَرْنِهم، ثم تخيَّر القبائلَ فجعلني من خير قَبيلةٍ ثم تخيَّر البيوتَ فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خَيرُهم نَفْساً، وخيرُهم بيتاً» [الترمذي (٣٦٠٧)].

١٢٩ ـ وعن واثِلَةَ بن الأَسْقَع، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله اصطفىٰ من وَلد إبراهيم إسماعيلَ، واصْطَفَى من وَلَدِ إسماعيل بني كِنَانة، واصطفىٰ من بني كِنَانة قريشاً، واصطفىٰ من قُريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»** [مسلم (٢٢٧٦)، الترمذي (٣٦٠٥)].

قال الترمذي: وهذا حديث حَسَنٌ صحيح.

١٣٠ ـ وفي حديثٍ عن ابن عُمر، رواه الطبري أنه ﷺ قال: **«إنَّ اللَّهَ اختار خَلْقَه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم، فاختار منهم العربَ، ثم اختار العربَ، فاختار منهم قريشاً، ثم اختار قريشاً، فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم فلم أَزَلْ خِيَاراً من خِيَار، ألاَ مَنْ أَحبَّ العربَ فبِحُبِّي أَحبَّهم، ومن أبغض العرب فبِبُغْضي أبغضهم»**.

١٣١ ـ وعن ابن عباس: أَنَّ النبي ﷺ كانت رُوحُهُ نوراً بين يدي الله تعالىٰ قبل أَنْ يَخلق آدم بألفي عام، يُسبِّح ذلك النورُ، وتسبِّحُ الملائكةُ بتسبيحه، فلما خلق الله آدمَ أَلْقَىٰ ذلك النورَ في صُلْبه، فقال رسول الله ﷺ: **«فأهبطني اللَّهُ إلىٰ الأرضِ في صُلْب آدم، وجعلني في صُلْب نوح، وقذف بي في صُلب إبراهيم، ثم لم يَزَلْ الله تعالىٰ يَنقُلني من الأصلاب الكريمةِ والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني بين أبوَيَّ لم يَلتقِيا علىٰ سِفَاح قطُّ»**.

١٣١م ـ ويشهدُ لصحةِ هذا الخبر شِعْرُ العباس في مَدْح النبي ﷺ المشهور.

فصل
فِيمَا كَانَ التَّمَدُّحُ وَالْكَمَالُ بِقِلَّتِهِ

وأما ما تَدْعُو ضرورةُ الحياةِ إليه مما فصلناه فعلىٰ ثلاثةِ ضُروب: ضَرْبٌ الفَضْلُ في قِلَّته، وضَرْبٌ الفضلُ في كَثْرته، وضَرْبٌ تختلف الأحوالُ فيه.

فأما ما التمدُّحُ والكمالُ بقلَّته اتفاقاً، وعلىٰ كل حال، عادةً وشريعةً، كالغذاء والنوم، ولم تَزَلِ العَربُ والحكماءُ تتمادح بِقِلَّتِهما، وتَذُمُّ بكثرتهما؛ لأنَّ كثرة الأكل والشرب دليلٌ علىٰ النَّهم والحِرْصِ، والشَّرَهِ، وغَلبةِ الشهوةِ، مُسبِّبٌ لِمَضارِّ الدنيا والآخرة، جالبٌ لأَدْواء الجَسَدِ، وخَثَارَةِ النفس، وامتلاءِ الدِّماغ.

وقِلَّتُهُ دليلٌ علىٰ القناعة، ومِلْك النفس؛ وقَمْع الشهوة، مسبِّبٌ للصِّحةِ، وصفاءِ الخاطر، وحِدَّةِ الذِّهْنِ، كما أنَّ كثرَةَ النوم دليل علىٰ الفُسولَةِ والضعف؛

وعدمِ الذكاءِ، والفِطْنةِ، مسبّبٌ للكَسل، وعادةِ العجز، وتضييع العُمُرِ في غير نَفْعٍ، وقَساوةِ القلب، وغَفْلته، ومَوْته.

والشاهدُ علىٰ هذا ما يُعْلم ضرورةً، ويوجد مشاهدةً، ويُنْقَل متواتِراً من كلام الأُمم المتقدمة، والحكماء السَّالِفِينَ، وأشعار العربِ وأخبارِها، وصحيح الحديثِ، وآثارِ مَنْ سَلَف وخلَف، مما لا يُحتاج إلىٰ الاستشهاد عليه وإنما تركنا ذكره هنا اختصاراً واقتصاراً علىٰ اشتهار العِلْمِ به.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفنَّيْنِ بالأقلِّ.

هذا ما لا يُدْفَعُ من سيرته، وهو الذي أمر به، وحَضَّ عليه، لا سيما بارتباط أحدِهما بالآخر.

١٣٢ ـ حدثنا أبو علي الصَّدَفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفَضْل الأصبهاني، حدثنا أبو نُعيم الحافظ، حدثنا سُليمان بن أحمد، حدثنا بكر بن سَهْل، حدثنا عَبْدُاللّهِ بن صالح، حدثني معاويةُ بن صالح أنَّ يحيىٰ بن جابر حدَّثَه عن المِقْدَام بن مَعْدِيْ كَرِبَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: **«ما مَلأَ ابنُ آدمَ وعاءً شرّاً من بطنه، حَسْب ابنِ آدمَ أُكُلات يُقِمْنَ صُلْبَه، فإنْ كان لا محالةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفَسه»** [الترمذي (٢٣٨٠)، ابن ماجه (٣٣٤٩)].

ولأَنَّ كثرةَ النومِ مِنْ كثرة الشرب والأكل.

قال سفيان الثَّوْري: بِقِلَّة الطعام يُمْلَكُ سهرُ الليل.

وقال بعضُ السَّلَف: لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فَتَرْقُدوا كثيراً، فَتَخْسَرُوا كثيراً.

١٣٣ ـ وقد رُوي عنه ﷺ أنه كان أَحبَّ الطعام إليه ما كان علىٰ ضَفَفٍ [الترمذي (١٣٨)]؛ أي كثرة الأَيْدي.

١٣٤ ـ وعن عائشة رضي الله عنها: لم يمتَلِىءْ جوفُ النبي ﷺ شِبَعاً قطُّ، وأنه كان في أهله لا يسأَلُهم طعاماً ولا يَتَشَهَّاه، إنْ أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِلَ، وما سَقَوْه شرِب.

١٣٥ ـ ولا يُعْتَرَضُ علىٰ هذا بحديث بَرِيْرَةَ، وقوله: **«أَلَمْ أَرَ البُرْمَةَ فيها لحمٌ؟»** [البخاري (٥٠٩٧)، مسلم (١٤/١٥٠٤)] إذ لعلَّ سببَ سؤالِهِ ظَنُّه ﷺ اعتقادهم أنه لا يحِلُّ لهُ؛ فأراد بيانَ سُنَّتِه، إذْ رآهم لم يُقَدِّموه إليه، مع عِلْمِه أنهم لا يستأْثِرُون عليه به، فصدَق عليهم ظَنُّه، وبيَّنَ لهم ما جَهِلوه من أَمْرِه بقوله: **«هو لها صدَقةٌ ولنا هَدِيَّةٌ»**.

وفي حِكمةِ لُقمان: يا بُنيَّ! إذا امتلأت المَعِدَةُ نامت الفِكْرةُ، وخَرِست الحكمةُ، وقعدت الأعضاءُ عن العبادة.

وقال سُحْنُون: لا يَصْلح العِلْمُ لمَنْ يأكلُ حتى يَشْبَع.

١٣٦ ـ وفي صحيح الحديث قولُه ﷺ: **«أمَّا أنا فلا آكلُ مُتَّكِئاً»** [البخاري (٥٣٩٨)، الترمذي (١٨٣٠)].

والاتّكاءُ: هو التَّمكّن للأكل، والتَّقَعْدُدُ في الجلوس له كالمتربّع، وشِبْهه مِنْ تمكُّن الجلسات التي يعتمدُ فيها الجالسُ علىٰ ما تَحْتَه، والجالسُ علىٰ هذه الهيئة يستدعي الأكْلَ ويستَكْثِرُ منه.

١٣٧ ـ والنبيُّ ﷺ إنما كان جلوسُه للأكل جلوس المُسْتَوْفِزِ مُقْعِياً [مسلم (٢٠٤٤)].

١٣٨ ـ ويقول: **«إنما أنا عبْدٌ، آكُلُ كما يأكل العَبْد، وأجلس كما يجلسُ العبدُ»**.

وليس معنى الحديث في الاتّكاء الميلُ علىٰ شِقّ عند المحققين.

وكذلك نَوْمُه ﷺ كان قليلاً، شَهِدت بذلك الآثارُ الصحيحةُ.

١٣٩ ـ ومع ذلك فقد قال ﷺ: **«إنَّ عينيَّ تنامان ولا ينامُ قَلْبي»** [البخاري (١١٤٧)، مسلم (٧٣٨)].

١٤٠ ـ وكان نومُه علىٰ جانبه الأيمنِ [الترمذي (٣٣٩٩)، النسائي (٧٨٥)] استظهاراً علىٰ قلَّةِ النوم؛ لأنه علىٰ الجانب الأيسر أهْنأ، لهُدُوِّ القلبِ وما يتعلَّقُ به من الأعضاء الباطنة حينئذٍ، لمَيْلِها إلىٰ الجانب الأيسر؛ فيستدعي ذلكَ الاستثقالَ فيه والطُّولَ.

وإذا نام النائمُ علىٰ الأيمن تعلَّقَ القلب وقَلِق، فأسرع الإفاقة ولم يَغْمرْهُ الاستغراق.

فصل
فيمَا التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ

والضَّرْبُ الثاني: هو ما يتَّفِقُ التَّمَدُّحُ بكثرته، والفَخْر بوفوره، كالنكاح والجاهِ. فأمَّا النكاحُ: فمتَّفَق فيه شَرْعاً وعادةً؛ فإنه دليلُ الكمالِ، وصحةِ الذُّكورية، ولم يَزَل التفاخرُ بكثرته عادةً معروفة، والتمادحُ به سيرة ماضية.

١٤١ ـ وأما في الشَّرع فسُنّةٌ مأثورة؛ وقد قال ابنُ عباس: أفضلُ هذه الأمةِ أكثرُها نِساءً [البخاري (٥٠٦٩)]. مُشيراً إليه ﷺ.

١٤٢ ـ وقد قال عليه السلام: «**تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا، فإني مُبَاهٍ بكم الأُمَمَ يوم القيامة**».

١٤٣ ـ ونهَىٰ عن التَّبَتُّلِ [البخاري (٥٠٧٣)، مسلم (١٤٠٢)] مع ما فيه من قَمْع الشَّهوة، وغَضِّ البصر اللَّذَيْن نبَّهَ عليهما ﷺ بقوله:

١٤٤ ـ «**مَنْ كان ذا طَوْلٍ فليتزوَّجْ؛ فإنه أَغَضُّ للبصر، وأَحْصَنُ للفرج**» [البخاري (٥٠٦٦)، مسلم (١٤٠٠)] حتى لم يره العلماءُ مما يَقْدَحُ في الزهد.

قال سَهْلُ بن عبدالله: قد حُبِّبْنَ إلىٰ سيد المرسلين، فكيف يُزْهَد فيهنَّ؟ ونحوهُ لابن عُيَيْنَةَ.

وقد كان زُهَّادُ الصحابة كثيري الزوجات والسَّرارِي، كثيري النكاح.

وحُكي في ذلك عن عليّ، والحسن، وابن عُمر، وغيرهم غَيْرُ شيء.

وقد كرِه غير واحد أنْ يَلْقَى الله عزباً.

فإن قُلْتَ: كيف يكون النكاحُ وكثرتهُ من الفضائل، وهذا يَحيىٰ بن زكريا عليه السلام قد أَثنىٰ الله تعالىٰ عليه أنه كان حَصُوراً؛ فكيف يُثْني الله بالعَجْز عما تَعُدُّه فضيلةً؟

وهذا عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ تبتَّل من النساء، ولو كان كما قرَّرْتَهُ لَنَكَح؟

فاعلم أنَّ ثناء الله تعالىٰ على يحيىٰ ـ عليه السلام ـ بأنه حَصُورٌ ليس كما قال بعضُهم:

إنه كان هَيُوباً، أو لا ذَكَرَ له؛ بل قد أنكر هذا حذَّاقُ المفسرين ونقَّادُ العلماء، وقالوا: هذه نَقِيصَةٌ وعَيبٌ، ولا تَلِيقُ بالأنبياء.

وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب: أي لا يأتيها، كأنه حُصِر عنها.

وقيل: مانعاً نفسه من الشَّهوات.

وقيل: ليسَتْ له شهوةٌ في النساء.

فقد بان لك من هذا أنَّ عدمَ القدرة على النكاح نَقْصٌ، وإنما الفَضْلُ في كونها موجودة، ثم قَمْعُها؛ إمّا بمجاهدةٍ، كعيسىٰ ـ عليه السلام ـ أو بِكِفَايةٍ من الله تعالىٰ، كيحيىٰ ـ عليه السلام ـ فضيلةٌ زائدةٌ لكونها شاغِلةً في كثير من الأوقات، حاطَّةً إلىٰ الدنيا.

ثُمَّ هي في حقّ مَنْ أُقْدِر عليها ومُلِّكَها وقام بالواجب فيها، ولم تَشْغَلْه عن ربِّه درجةٌ عُلْيا، وهي درجةُ نبينا محمد ﷺ الذي لم تشْغَلْه كثرتُهنّ عن عبادة

ربّه؛ بلْ زادَهُ ذلك عبادةً، لِتَحْصِينِهِنَّ، وقيامِهِ بحقوقهنَّ، واكتِسَابِه لهُنَّ، وهدايته إياهنَّ؛ بلْ صرَّحَ أنها ليست من حظُوظِ دُنْياه هو، وإنْ كانَتْ من حظوظِ دُنْيا غيره.

١٤٥ ـ فقال: **«حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنياكم»**. فدلَّ علىٰ أنَّ حُبَّه لِمَا ذَكَرَ من النساءِ والطِّيب اللَّذَين هما من أمر دُنيا غيره، واستعماله لذلك ليس لدُنْياهُ، بل لآخِرَتِهِ؛ للفوائد التي ذكرناها في التزويج، وللقاءِ الملائكةِ في الطِّيب؛ ولأنه أيضاً مما يَحُضُّ علىٰ الجماع، ويُعِين عليه، ويحرِّكُ أسبابَه.

وكان حبُّه لهاتين الخَصْلتين لأجْل غيره، وقَمْع شَهْوتِهِ؛ وكان حبُّه الحقيقيُّ المختصّ بذاته في مشاهدة جَبَرُوت مَولاه ومناجاته؛ ولذلك ميَّزَ بَيْن الحُبَّيْن، وفَصَلَ بين الحالَيْن.

١٤٦ ـ فقال: **«وجُعِلتْ قُرَّة عَيْني في الصلاة»**؛ فقد ساوى يحيىٰ وعِيسىٰ في كفايةِ فتنتهنَّ، وزادَ فضيلةً بالقيام بهنَّ.

وكان ﷺ ممن أُقْدِرَ علىٰ القوة في هذا، وأُعْطِيَ الكثيرَ منه؛ ولهذا أُبيح له من عَدَدِ الحَرائر ما لم يُبَحْ لغيرِهِ.

١٤٧ ـ وقد رَوَيْنَا عن أنس: أنه ﷺ كان يَدُورُ علىٰ نسائه في الساعة من الليل والنهار، وهنَّ إحدىٰ عَشرةَ. قال أنس: وكنا نتحدث أنه أُعطي قوة ثلاثين رجلاً [البخاري (٢٦٨، ٢٨٤)، مسلم (٣٠٩)، النسائي (٦/٥٣، ٥٤)].

١٤٨ ـ وروي نحوه عن أبي رافع [أبو داود (٢١٩)، ابن ماجه (٥٩٠)].

وعن طاوُوس: أُعْطِيَ عليه السلام قوةَ أربعين رجلاً في الجِمَاع.

ومثله عن صَفْوَانَ بن سُلَيم.

١٤٩ ـ وقالت سَلْمى مولاتُه: طاف النبيّ ﷺ ليلةً علىٰ نسائه التسع، وتطَهَّر من كل واحدة قبل أن يأتي الأخرىٰ؛ وقال: **«هذا أطيب وأطْهر»**.

١٥٠ ـ وقد قال سليمان ـ عليه السلام ـ: لأطوفنَّ الليلةَ علىٰ مئة امرأة أو تسع وتسعين [البخاري (٢٨١٩)، مسلم (١٦٥٤)]. وأنه فَعَلَ ذلك.

١٥١ ـ قال ابنُ عباس: كان في ظَهْر سُليمان ماءُ مئة رجل أو تسع وتسعين، وكانت له ثلاث مئة امرأة، وثلاث مئة سُرِّيَّة.

١٥١م ـ وحكىٰ النقّاش وغَيْرُه: سبع مئة امرأة، وثلاث مئة سُرِّيَّة.

١٥١م١ ـ وقد كان لداود عليه السلام ـ علىٰ زُهْده، وأَكْلِه من عَمَلِ يده ـ تِسع وتسعون امرأةً، وتَمَّت بزوج أُوريا مئةً.

وقد نبَّهَ علىٰ ذلك في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ [صٓ: ٢٣].

١٥٢ ـ وفي حديث أنس عنه، عليه السلام: «**فُضِّلْتُ علىٰ الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعةِ، وكثرةِ الجماع، وقُوَّةِ البَطْش**».

وأما الجاهُ فمحمودٌ عند العقلاءِ عادةً، وبقَدْرِ جاهِه عِظَمُهُ في القلوب.

وقد قال الله تعالىٰ في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأَخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] لكن آفاتُهُ كثيرة؛ فهو مضِرٌّ ببعض الناس لعُقْبَى الآخرة، فلذلكَ ذمَّه مَنْ ذمَّه، ومدح ضِدَّه.

ووردَ في الشَّرْعِ مدحُ الخمول، وذَمُّ العلُوِّ في الأرض.

وكان ﷺ قد رُزِقَ من الحِشْمَة، والمكانةِ في القلوب، والعظمةِ قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذِّبونه ويُؤذون أصحابَه، ويَقْصِدون أَذاه في نفسه خُفْيَةً حتى إذا واجَهَهم أَعْظَموا أَمْرَه، وقضَوْا حاجَته.

وأخباره في ذلك معروفة سيأتي بعضها.

وقد كان يَبْهَتُ وَيَفْرَقُ من رؤيته من لم يره.

١٥٣ ـ كما رُوِي عن قَيْلَةَ أنها لما رأته أُرْعِدَتْ من الفَرَق؛ فقال: «**يا مسكينةُ! عليكِ السكينةَ**» [البخاري (١١٨٣)، أبو داود (٤٨٤٧)، الترمذي (١١٩)].

١٥٤ ـ وفي حديث أبي مَسْعودٍ أنّ رجلاً قام بين يديه فأُرْعِدَ؛ فقال له ﷺ: «**هَوِّنْ عليكَ فإني لستُ بمَلِك**...» الحديث [ابن ماجه (٣٣١٢)].

فأما عَظِيمُ قَدْرِه بالنبوة، وشريفُ منزلته بالرسالة، وإنافَةُ رُتْبته بالاصطفاء والكرامةِ في الدنيا، فأمْرٌ هو مبلَغُ النهاية، ثمَّ هو في الآخرة سَيِّدُ وَلَدِ آدم.

وعلىٰ معنى هذا الفصل نظمنا هذا القسم بأسره.

فصل
فِيمَا تَختَلِفُ الحَالاَتُ فِي التَّمَدُّح بِهِ وَالتَّفَاخُرِ بِسَبَبِهِ

وأما الضَرْبُ الثالث: فهو ما تختلفُ الحالاتُ في التَّمَدُّح به والتفاخر بسببه، والتفضيل لأجْله، ككَثْرَةِ المال. فصاحبُه علىٰ الجملة مُعَظَّم عند العامة، لاعتقادِها توصُّلَه به إلىٰ حاجاته، وتمكنَ أغراضه بسببه، وإلاّ فليس فَضِيلَةً في نفسه، فمتىٰ كان المالُ بهذه الصورةِ، وصاحبُه مُنْفِقاً له في مهمّاته ومهمات من

اعتراه، وأمَّلَهُ؛ وتصريفه في مواضعه، مُشترياً به المَعَالي والثناء الحسن، والمنزلةَ من القلوب، كان فضيلةً في صاحبه عند أهل الدنيا.

وإذا صرفه في وجوهِ البر، وأنفقه في سبيل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلةً عند الكلِّ بكل حال، ومتى كان صاحبُه مُمْسِكاً له غير موجِّهه وجوهَه، حريصاً علىٰ جَمْعه، عاد كُثْرُه كالعَدَم، وكان مَنْقَصة في صاحبه، ولم يقِفْ به علىٰ جَدَد السلامة؛ بل أوقعه في هُوَّةِ رذيلةِ البُخل، ومذَمَّةِ النَّذَالة؛ فإذاً التمدُّح بالمال وفضيلتهُ عند مُفَضِّلِيْهِ ليست لنفسه، وإنما هو للتوصُّل به إلىٰ غيره، وتصريفه في مُتَصَرّفاته، فجامعهُ إذا لم يضَعْه مواضِعَه، ولا وجَّهَهُ وجوهَه غَيْرُ مَلِيءٍ بالحقيقة، ولا غَني بالمعنى، ولا مُمْتَدحٍ عند أحدٍ من العقلاء؛ بل هو فقير أبداً، غَيْرُ واصلٍ إلىٰ غَرض من أغراضه؛ إذْ ما بِيَدِهِ من المال الموصِّل لها لم يُسَلَّطْ عليه، فأشْبه خازنَ مالِ غيره، ولا مالَ له؛ فكأنه ليس في يده منه شيء.

والمنفِق مَلِيءٌ وغنيٌّ بتحصيله فوائدَ المالِ، وإنْ لم يَبْق في يده من المال شيء.

فانظُرْ سيرةَ نبينا ﷺ وخُلُقَه في المالِ تجِدْه قد أُوتي خزائنَ الأرض، ومفاتيح البلادِ، وأُحلَّت له الغنائم، ولم تحلَّ لنبيّ قبله، وفُتح عليه في حياته ﷺ بلادُ الحجاز واليمن، وجميعُ جزيرة العرب، وما دَانَىٰ ذلك من الشام والعراق، وجُلِبَتْ إليه من أَخماسها وجِزيتها وصدقاتها ما لا يُجْبَىٰ للملوك إلا بعضُه، وهَادَتْه جماعةٌ من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه، ولا أمسكَ منه درهماً؛ بل صرَّفه مصارِفه، وأغنىٰ به غَيْرَه، وقوَّىٰ به المسلمين.

١٥٥ ـ وقال: **«ما يسرُّني أنَّ لي أُحُداً ذهباً يبيتُ عندي منه دِينار، إلا ديناراً أرْصِدُهُ لدَيْني»** [البخاري (٦٤٤٤، ٦٤٤٥)، مسلم (٣٢/٩٤، ٩٩١)].

١٥٦ ـ وأتته دنانير مرةً فقسَّمها، وبقيتْ منها سِتَّة؛ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: **«الآن اسْتَرَحْتُ»**.

١٥٧ ـ ومات ودرعُه مرهونةٌ في نَفَقَةِ عِيَاله [البخاري (٤٤٦٧)، مسلم (١٦٠٣)].

واقتصر من نَفَقتِهِ ومَلْبَسه ومسكنه علىٰ ما تدْعُوهُ ضرورَتُه إليه.

وزَهِد فيما سِوَاه، فكان يَلْبس ما وجده؛ فيَلْبَس في الغالب الشَّمْلَة، والكساءَ الخَشِن، والبُرْدَ الغليظ، ويَقْسِم علىٰ مَنْ حضره أَقْبِيَةَ الديباج المُخَوَّصة بالذهب، ويرفَعُ لِمَنْ لم يحضره؛ إذ المُبَاهاة في الملابس والتزينُ بها ليست من

خصال الشرف والجَلالَة، وهي من سِمَات النساء.

والمحمودُ منها نَقَاوَة الثوب، والتوسُّط في جِنسه، وكونُه لُبْسَ مِثْلِه، غير مُسْقِطٍ لمروءة جِنْسِه، ممّا لا يُؤَدِّي إلىٰ الشُّهرَة في الطَّرَفَيْن.

وقد ذَمَّ الشرعُ ذلك؛ وغايةُ الفَخْر فيه في العادة عند الناس إنما يعودُ إلىٰ الفخر بكثرةِ الموجود، ووُفُور الحال.

وكذلك التَّباهِي بجَوْدَة المسكن، وسعَةِ المنزل، وتكثير آلاته وخَدَمه ومركوباته.

ومَنْ مَلَكَ الأرضَ، وجُبِيَ إليه ما فيها، فترك ذلك زُهْداً وتنزُّهاً، فهو حائز لفضيلة الماليّة، ومالكٌ للفخر بهذه الخَصلة - إنْ كانت فضيلةً - زائد عليها في الفخر، ومُغْرِقٌ في المدح بإضْرَابِه عنها، وزُهْدِهِ في فانيها، وبَذْلِها في مظانّها.

فصل
في حُسْنِ خُلُقِهِ ﷺ

وأما الخصالُ المكتسبة من الأخلاقِ الحميدة والآدابِ الشريفة التي اتَّفق جميعُ العقلاءِ علىٰ تفضيل صاحبِها، وتعظيم المتَّصِف بالخُلُق الواحدِ منها، فَضْلاً عما فوقه، وأثنىٰ الشرعُ علىٰ جميعها، وأمَر بها، ووَعَد السعادةَ الدائمة للمُتَخلِّق بها، ووصف بعضَها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المُسمَّاة بحُسْن الخُلق؛ وهو الاعتدالُ في قُوَىٰ النفس وأوصافها، والتوسُّط فيها دون المَيْل إلىٰ مُنْحَرِف أطرافها؛ فجَمِيعُها قد كانت خُلُقَ نبينا محمد ﷺ علىٰ الانتهاءِ في كمالها، والاعتدالِ إلىٰ غايَتِها، حتى أثْنَىٰ اللّهُ تعالىٰ عليه بذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

١٥٨ - قالت عائشةُ - رضي الله عنها -: كان خُلُقُهُ - ﷺ - القرآن، يَرْضَىٰ برِضاه، ويَسْخَط بسَخَطِه.

١٥٩ - وقال ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق**» [أحمد (٢/٣٨١)].

١٦٠ - قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقاً [البخاري (٦٢٠٣)، مسلم (٢١٥٠)].

١٦١ - وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مِثْلُه.

وكان فيما ذكره المحققون مَجْبُولاً عليها في أَصْل خِلْقَته وأوَّل فِطْرته، لم

تحصُلُ له باكتسابٍ ولا رِياضة إلا بجُودٍ إلٰهيٍّ، وخصوصيةٍ رَبّانية.

وهكذا لسائر الأنبياء والمرسلين، ومن طالعَ سِيَرَهم منذُ صِبَاهم إلىٰ مَبْعَثهم حقَّق ذلك، كما عُرِف من حال عيسى، وموسىٰ، ويحيىٰ، وسليمان، وغيرهم، عليهم السلام.

بل غُرِزَتْ فيهم هذه الأخلاقُ في الجبِلَّة، وأُودِعُوا العِلْمَ والحِكْمة في الفِطْرة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

قال المفَسِّرون: أُعْطِيَ يحيىٰ العِلْمَ بكتاب الله تعالىٰ في حال صباه.

١٦٢ ـ وقال مَعْمَر: كان يحيى ابنَ سنتين أو ثلاث، فقال له الصِّبْيان: لِمَ لا تلعبُ؟ فقال: أَلِلَّعبِ خُلِقْتُ؟

وقيلَ في قوله تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صَدّق يحيى بعيسىٰ؛ وهو ابنُ ثلاث سنين، فشَهِدَ له أنه كَلِمةُ اللّهِ ورُوحه.

وقيل: صدَّقه وهو في بَطْنِ أمه؛ فكانت أُمُّ يحيىٰ تقولُ لمريم: إنّي أجد ما في بطني يسجُدُ لما في بطنك؛ تَحِيَّةً له.

وقد نصَّ اللّهُ تعالىٰ علىٰ كلامِ عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ [مريم: ٢٤] على قراءة من قرأ: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريم: ٢٤] وعلى قول مَنْ قال: إن المنادِي عيسى عليه السلام.

ونَصَّ على كلامه في مَهْدِه، فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

١٦٣ ـ وقد ذُكِر من حِكَم سليمانَ وهو صبي يَلعَبُ في قصة المَرْجُومة.

١٦٤ ـ وفي قصة الصبيِّ [البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠)] ما اقتدىٰ به داودُ أبُوه.

وحكىٰ الطبري أنَّ عُمُرَهُ كان حِينَ أُوتي المُلْكَ اثني عشر عاماً.

وكذلك قصةُ موسىٰ مع فرعون وأَخْذُه بِلِحْيَته وهو طِفْل.

وقال المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]؛ أي هَدَيْناه صغيراً؛ قاله مُجاهد وغيره.

وقال ابنُ عطاء: اصطفاه قبل إبداءِ خَلْقه.

وقال بعضهم: لَمّا وُلِد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعثَ اللّهُ تعالىٰ إليه مَلَكاً يأمرهُ عن الله أَنْ يَعْرِفَه بِقَلْبه، ويَذْكُره بلسانه؛ فقال: قد فعَلْتُ، ولم يَقُلْ: أفعل؛ فذلك رُشْده.

وقيل: إن إلقاءَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ في النارِ ومِحْنته كانت وهو ابنُ ستَّ عشرة سنةً، وإنَّ ابتلاء إسحاق بالذَّبح كان وهو ابنُ سبع سنين؛ وإن استدلالَ إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابنُ خمسة عشر شهراً.

وقيل: أُوحِيَ إلىٰ يوسف وهو صبيّ عندما هَمَّ إخوتهُ بإلقائه في الجُبّ، يقول اللَّهُ تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

إلى غير ذلك مما ذكر من أخبارهم.

١٦٤م ـ وقد حكى أهلُ السِّيَر أنّ آمنةَ بنتَ وَهْبٍ أخبرت أَنَّ نبيَّنا محمداً ﷺ وُلد حين وُلد باسطاً يديه إلىٰ الأرض، رافعاً رأسه إلىٰ السماء.

١٦٥ ـ وقال في حديثه ﷺ: **«لمّا نشأتُ بُغِّضَتْ إليَّ الأوثانُ. وبُغِّضَ إليَّ الشِّعْرُ»**.

١٦٦ ـ و **«لم أهُمَّ بشيء مما كانت الجاهليةُ تَفْعَله إلا مرتين، فعصمني اللَّهُ منهما، ثم لم أعُدْ»**.

ثم يَتَمكَّنُ الأمْرُ لهم، وتَترادَفُ نفحاتُ اللَّهِ عليهم، وتُشْرِقُ أنوارُ المعارِفِ في قلوبهم، حتى يَصِلوا الغايةَ، وَيَبْلُغوا ـ باصطفاءِ اللَّهِ تعالىٰ لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخِصَالِ الشريفة ـ النهايةَ دُونَ مُمَارسة ولا رِياضة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وقد نجِدُ غيرهم يُطْبع علىٰ بعض هذه الأخلاق دونَ جميعها، ويُولَد عليها، فيسهلُ عليه اكتسابُ تَمَامِها عنايةً من الله تعالىٰ، كما نشاهِدُ من خَلْقِهِ بعضَ الصبيان علىٰ حُسْنِ السَّمْت، أو الشهامة، أو صِدْق اللسان، أو السَّمَاحة؛ وكما نَجِدُ بعضهم علىٰ ضِدِّها؛ فبالاكتساب يكمُل ناقِصُها، وبالرياضة والمجاهدة يُستَجْلَبُ معدومُها، ويعتدلُ مُنْحَرِفُها، وباختلاف هذين الحالين يتفاوتُ الناس فيها.

١٦٦م ـ و **«كلٌّ مُيسَّر لما خُلِق له»** [البخاري (٤٩٤٥)، مسلم (٧/٢٦٤٦)]. ولهذا ما قد اختلف السلفُ فيها: هل هذا الخُلق جِبِلَّة أو مُكْتسبة؟

فحكىٰ الطبريّ عن بعض السَّلف أنَّ الخُلقَ الحسن جِبِلَّةٌ وغريزة في العَبْد، وحكاه عن عَبْدِاللَّهِ بن مسعود، والحَسَن، وبه قال هو.

والصواب ما أَصَّلْناه.

١٦٧ ـ وقد رَوىٰ سعدٌ عن النبي ﷺ، قال: «كلُّ الخِلال يُطبَع عليها المؤمنُ إلا الخيانةَ والكذبَ».

١٦٨ ـ وقال عُمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه: والجُرأةُ، والجُبْنُ غرائزُ يَضَعُها اللّٰهُ حيث يشاء.

وهذه الأخلاقُ المحمودة والخِصَال الجميلة كثيرةٌ، ولكنا نذكر أُصولها، ونُشير إلى جميعها، ونحقّقُ وَصْفَه ﷺ بها إن شاء الله تعالىٰ.

فصل
في نَباهَةِ عقْلِه ﷺ

أمّا أَصلُ فروعها، وعُنْصُر ينابيعها، ونُقْطة دائرتها فالعقلُ الذي منه ينبعثُ العِلْمُ والمعرفةُ، ويتفرّع عن هذا ثقُوب الرأي، وجُوْدةُ الفِطْنة، والإصابةُ، وصِدْقُ الظنّ، والنظرُ للعواقب ومصالح النفس، ومجاهدةُ الشهوة، وحسنُ السياسةِ والتدبير، واقتناءُ الفضائل، وتجنب الرذائل.

وقد أشرنا إلى مكانه منه ﷺ، وبلوغهِ منه، ومن العلمِ الغايةَ التي لم يبلغها بَشرٌ سواه.

وإذ جلالةُ محلّه من ذلك، ومما تفرّع منه متحقّقٌ عند من تتبّع مجارِيَ أحوالِه، واطِّرادَ سِيَره، وطالعَ جوامع كلامِهِ، وحسْنَ شمائله، وبدائعَ سِيره، وحِكَم حديثه، وعِلْمَه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزَّلة، وحِكَم الحكماء، وسِيَرِ الأمم الخالية، وأيامها، وضَرْبِ الأمثال، وسياسات الأنام، وتقريرِ الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة، والشِّيم الحميدة، إلىٰ فنون العلوم التي اتخذ أهلُها كلامَه ـ عليه السلام ـ فيها قدوةً، وإشاراتهِ حُجَّةً؛ كالعِبارة، والطبّ، والحساب، والفرائض، والنَّسَب، وغير ذلك مما سنُبَيِّنُه في معجزاته ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ دون تعليم، ولا مُدارسة، ولا مطالعةِ كُتبِ مَنْ تقدّم، ولا الجلوس إلىٰ علمائهم؛ بل نَبِيٌّ أُمِّيٌّ لم يُعْرَف بشيء من ذلك، حتى شرح اللّٰهُ صدْرَه، وأبَان أمْرَه، وعلَّمه، وأقرأه، يُعلَمُ ذلكَ بالمطالعة والبحث: من حاله ضرورةً، وبالبرهان القاطع علىٰ نبوته نظراً؛ فلا نُطَوِّلُ بِسَرْدِ الأقاصيص، وآحادِ القضايا؛ إذ مجموعُها ما لا يأخذه حَصْرٌ، ولا يُحيط به حِفْظُ جامع، وبحسبِ عَقْله كانت معارفه ﷺ إلىٰ سائر ما علّمه اللّٰهُ تعالىٰ وَأَطْلَعه عليه مِنْ عِلْم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته، وعظيم ملكُوتِه، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

حارت العقولُ في تقدير فَضْله عليه، وخَرِسَت الألسن دونَ وصْفٍ يحيط بذلك أو ينتهي إليه.

فصل
في حِلْمِهِ وَاحتِمَالِهِ وَعَفوِهِ وَصَبْرِهِ ﷺ

وأما الحِلْم والاحتمالُ، والعفوُ مع القدرة، والصبرُ علىٰ ما يُكرَه؛ وبَيْنَ هذه الألقابِ فرقٌ، فإنَّ الحلْم: حالةُ توقُّر وثباتٍ عند الأسباب المحرِّكات. والاحتمالُ: حبْسُ النفس عند الآلام والمؤذيات. ومثْلُها الصبر، ومعانيها متقاربةٌ.

وأما العفوُ: فهو تَرْكُ المؤاخذة.

وهذا كلُّه مما أدّب اللّهُ تعالىٰ به نبيّه ﷺ، فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

١٦٩ ـ رُوِيَ أنّ النبيَّ ﷺ لما نزلت عليه هذه الآيةُ سأل جبريل ـ عليه السلام ـ عن تأويلها، فقال له: حتىٰ أسْأَل العالِمَ.

ثم ذهب فأتاه، فقال: «يا محمدُ! إنّ اللّهَ يأمرك أن تَصِلَ مَنْ قطعكَ، وتُعْطِيَ مَنْ حرمك، وتعْفُوَ عمَّنْ ظلمك».

وقال له: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

ولا خفاءَ بما يُؤْثَر من حِلْمِه واحتماله، وأنّ كلَّ حليم قد عُرِفَتْ منه زَلَّة، وحُفِظَتْ عنه هَفوة، وهو ﷺ لا يزيدُ مع كَثْرة الأذى إلا صَبْراً، وعلىٰ إسراف الجاهِلِ إلا حِلْماً.

١٧٠ ـ حدثنا القاضي أبو عبداللّه: محمد بن علي التَّغْلبي وغيره، قالوا: حدثنا محمد بن عتّاب، حدثنا أبو بكر بن وافد القاضي وغيره، حدثنا أبو عيسىٰ، حدثنا عُبيد اللّه قال: حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن عُرْوَة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ في أمرين قطُّ إلا اختار أيْسَرَهُما ما لم يكن إثْماً، فإن كان إثْماً كان أبعدَ الناسِ منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه إلا أنْ تُنْتَهكَ حُرْمةُ اللّهِ تعالىٰ، فينتقم لِلّهِ بها [البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧)].

١٧١ ـ ورُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لما كُسِرَت رَبَاعِيَتُهُ وشُجَّ وَجهُهُ يوم أُحُد شَقَّ ذلك علىٰ أصحابه شقّاً شديداً، وقالوا: لو دعَوْتَ عليهم! فقال: **«إني لم أُبْعَث لعَّاناً، ولكني بُعِثْت داعياً ورحمة. اللَّهُمَّ! اهْدِ قومي فإنهم لا يَعْلَمُون»** [البخاري (٢٩٠٣)، مسلم (١٧٩٠)].

١٧٢ ـ ورُوي عن عُمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في بعض كلامه: بِأَبي أنتَ وأُمِّي يا رسولَ الله! لقد دعا نوحٌ علىٰ قومه، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ولو دعوتَ علينا مثلَها لهلَكْنا من عند آخرنا، فلقد وُطِىءَ ظَهرُك، وَأُدْمِيَ وَجْهُك، وكُسرت رَبَاعِيَتُك، فأبيتَ أَنْ تقولَ إلاَّ خيراً، فقلتَ: **«اللَّهُمَّ! اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»**.

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: انْظُرْ ما في هذا القول من جِمَاع الفضل، ودرجاتِ الإحسان، وحُسْنِ الخلق، وكَرم النفس، وغايةِ الصبر والحِلْم، إذْ لم يقتصِرْ ﷺ علىٰ السكوت عنهم حتى عَفَا عنهم، ثم أَشْفَق عليهِمْ، ورَحِمهم، ودعا وشفَع لهم، فقال: **«اللَّهُمَّ! اغفِرْ»** أو **«اهْدِ»** ثم أظهر سبَبَ الشفقةِ والرحمة بقوله: **«لقَوْمي»** ثم اعتذر عنهم بجَهْلهم، فقال: **«فإنهم لا يَعْلَمون»**.

١٧٣ ـ ولما قال له الرجلُ: اعْدِلْ، فإنَّ هذه قِسْمةٌ ما أُرِيد بها وَجْهُ الله، لم يزِدْهُ في جوابه أن بَيَّنَ له ما جَهِلَه.

ووعظ نَفْسه، وذكَّرها بما قال له، فقال: **«وَيْحكَ! فمن يَعْدِلُ إن لم أعدل؟! خِبْتُ وخَسِرتُ إن لم أعدِلْ!»** [البخاري (٣١٣٨)، مسلم (١٠٦٣)] ونهى مَنْ أراد من أصحابه قَتْلَه.

١٧٤ ـ ولمّا تصَدَّىٰ له غُورَث بن الحارث ليَفْتِك به، ورسولُ الله ﷺ مُنْتَبِذٌ تحت شجرةٍ وحْدَه قائلاً، والناسُ قائلون، في غَزَاةٍ، فلم يَنْتَبِهْ رسولُ الله ﷺ إلا وهو قائم، والسيف صَلْتاً في يده، فقال: مَنْ يَمْنَعُك مني؟ فقال: **«الله»** فسقَط السيفُ مِنْ يده، فأخذه النبيّ ﷺ، وقال: **«من يَمْنَعُكَ مني؟»** قال: كُنْ خَيْرَ آخذٍ، فتركه وعفَا عنه. فجاء إلىٰ قومه فقال: جئتُكم مِنْ عند خَيْرِ الناسِ [البخاري (٢٩١٠)، مسلم (٨٤٣)].

١٧٥ ـ ومِنْ عظيم خَبَرِه في العَفْوِ عَفْوُه عن اليهودية التي سمَّتْه في الشاة بعد اعترافها [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)]، علىٰ الصحيح من الرواية.

١٧٦ ـ وأنه لم يؤاخِذْ لَبِيدَ بن الأَعْصَم إذ سحره، وقد أُعلم به وأُوحي إليه بشَرْح أمره، ولا عتب عليه فضلاً عن معاقبته [البخاري (٣٢٦٨)، مسلم (٢١٨٩)].

١٧٧ ـ وكذلك لم يؤاخِذ عبدَاللَّهِ بن أُبَيٍّ، وأشباهَه من المنافقين، بعظيم ما نُقل عنهم في جهته قولاً وفعلاً؛ بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «**لا يُتحدَّثُ أن محمداً يقتل أصحابه**» [البخاري (٤٩٠٥)، مسلم (٢٥٨٤/٦٣)].

١٧٨ ـ وعن أنس رضي الله عنه: كنتُ مع النبي ﷺ، وعليه بُرْدٌ غليظ الحاشية، فَجَبَذَه الأعرابي بردائه جَبْذَةً شديدة حتى أَثَّرت حاشيةُ البُرْدِ في صفحة عاتِقِه، ثم قال: يا محمد! احْمِلْ لي علىٰ بعيريَّ هٰذين مِنْ مالِ اللَّهِ الذي عندك، فإنك لا تحمِلُ لي من مالكَ ولا من مالِ أبيك.

فسكت النبيُّ ﷺ، ثم قال: «**المالُ مالُ الله، وأنا عَبْدُه**».

ثم قال: «**ويُقَادُ منكَ، يا أعرابي! ما فعلتَ بي**».

قال: لا.

قال: «**لِمَ؟**» قال: لأنكَ لا تُكافِىءُ بالسيِّئةِ السيِّئة [البخاري (٣١٤٩)، مسلم (١٠٥٧)].

فضحك النبيّ ﷺ؛ ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعيرٌ، وعلىٰ الآخر تَمْرٌ.

١٧٩ ـ قالت عائشةُ رضي الله عنها: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ منتصراً من مَظْلِمة ظُلِمها قطُّ، ما لم تكن حُرْمةً من محارمِ الله. وما ضرب بيده شيئاً قطُّ إلا أن يجاهِدَ في سبيل الله. وما ضرب خادماً قَطُّ ولا امرأةً [البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧، ٣٢٢٨) الترمذي (٣٤٢)].

١٨٠ ـ وجيء إليه برجل، فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷺ: «**لن تُرَاعَ، لن تُرَاعَ، ولو أردتَ ذلك لم تُسَلَّطْ عليّ**» [أحمد (٤٧١/٣)].

١٨١ ـ وجاءَه زيد بن سَعْنَةَ قبل إسلامه يَتَقَاضَاهُ دَيناً عليه، فجَبَذَ ثوبَه عن مَنْكِبه، وأخذ بمجامع ثيابِهِ، وأغلظ له، ثم قال: إنكم، يا بني عبدالمطلب! مُطْلٌ، فانتهره عُمر، وشدَّد له في القول، والنبيُّ ﷺ يَتَبَسَّمُ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**أنا، وهُوَ، كُنا إلىٰ غير هذا منك أحوج، يا عمر! تأمرني بحُسْنِ القضاء، وتأمره بحُسْن التقاضي**».

ثم قال: «**لقد بقِيَ من أجَلِهِ ثلاثٌ**» وأمر عُمر يَقْضِيه مالَه ويزيده عشرين صاعاً لِمَا رَوَّعَه؛ فكان سببَ إسلامه.

وذلك أنه كان يقول: ما بَقِيَ من علامات النبوة شيء إلا وقد عرَفْتُها في محمد إلاَّ اثنتين لم أَخْبُرْهما: يسبقُ حِلمُه جَهْلَهُ، ولا يزيده شدَّةُ الجهل إلا حِلْماً. فاختبره بهذا، فوجده كما وُصِف.

والحديثُ عن حِلْمه عليه السلام وصَبْرِه وعَفْوِهِ عند المقدرة أكثَرُ من أن نَأتيَ عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح والمصنَّفات الثابتة، إلىٰ ما بلغ متواتِراً مبْلَغَ اليقين: مِنْ صبره علىٰ مُقَاسَاة قريش، وأذَىٰ الجاهلية، ومُصَابرته الشدائدَ الصعبةَ معهم إلىٰ أن أظْفره اللّهُ عليهم، وحكَّمه فيهم، وهم لا يشكُّون في استئصال شأفتهم، وإبادة خَضْرائهم؛ فما زاد علىٰ أنْ عفا وصفح.

١٨٢ ـ وقال: «**ما تقولون أنّي فاعلٌ بكم؟**» قالوا: خيْراً، أخٌ كريم، وابنُ أخ كريم، فقال: «**أقولُ كما قال أخي يوسف:** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء**» [النسائي (١٠/١٣٤)].

١٨٣ ـ وقال أَنس: هبط ثمانون رجلاً من التَّنْعِيم صلاةَ الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ، فأُخِذوا، فأعتقهم رسولُ الله ﷺ؛ فأنزل اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٨)].

١٨٤ ـ وقال لأبي سُفيان ـ وقد سِيْقَ إليه بعد أن جلَب إليه الأحزابَ، وقتل عمَّه وأصحابَه ومَثَّلَ بهم، فعفا عنه، ولاطَفَه في القول ـ: «**وَيحَك! يا أبا سفيانَ! ألَم يَأنِ لك أنْ تعلَم أن لا إله إلا اللّهُ؟**» فقال: بِأَبِي أنتَ وأمّي، ما أحْلَمَكَ وأَوْصلك وأكرمكَ!.

وكان رسولُ الله ﷺ أبعدَ الناسِ غضَباً، وأسْرعهم رِضاً، ﷺ.

فصل
فِي جُوْدِهِ وَكَرَمِهِ وَسَخَائِهِ وَسَمَاحَتِهِ ﷺ

وأما الجودُ والكرمُ، والسخَاءُ والسَّمَاحةُ، ومعانيها متقاربة؛ وقد فرَّق بعضُهم بينها بفروق؛ فجعلوا الكَرَم: الإنفاقَ بطيبِ النفس فيما يعظُم خَطَرُهُ ونَفْعُه، وسمَّوهُ أيضاً حُرِّيَة، وهو ضدُّ النَّذَالَة.

والسماحةُ: التَّجَافي عما يستحقُّه المرءُ عند غيره بطيب نَفْس، وهو ضدُّ الشَّكَاسَة.

والسخاءُ: سهولةُ الإنفاق، وتَجَنُّبُ اكتسابِ ما لا يُحْمَد، وهو الجود، وهو ضدُّ التَّقتِير.

وكان ﷺ لا يُوَازَىٰ في هذه الأخلاقِ الكريمةِ، ولا يُبَارى، بهذا وصفَهُ كلُّ مَنْ عَرفه.

١٨٥ ـ حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الصَّدَفِي رحمه الله، حدثنا القاضي أبو الوليد الباجِيُّ، حدثنا أبو ذرّ الهَرَوِي، حدثنا أبو الهيثم الكُشْمِيْهَنِي، وأبو محمد السَّرْخَسِي، وأبو إسحاق البَلْخِي؛ قالوا: حدثنا أبو عبدالله الفَرَبْرِي؛ حدثنا البُخاري، قال حدثنا محمد بن كَثِير، حدثنا سفيان، عن ابن المُنْكَدِر، سمعتُ جابر بن عبدالله يقول: ما سُئِل النبيُّ ﷺ عن شيء فقال: لا. [البخاري (٦٠٣٤)، مسلم (٢٣١١)].

١٨٦، ١٨٧ ـ وعن أنس وسَهْل بن سعد مثلُه [مسلم (٢٣١٢)].

١٨٨ ـ وقال ابنُ عباس: كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس بالخير، وأجود ما كان في شَهْرِ رمضان، وكان إذا لَقِيَه جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخير من الرِّيح المُرْسَلة [البخاري (٦)، مسلم (٢٣٠٨)].

١٨٩ ـ وعن أنس أنَّ رجلاً سأله فأعطاه غَنَماً بين جَبَلَيْن، فرجع إلىٰ بلده، وقال: أَسْلِموا؛ فإنَّ محمداً يُعْطِي عطاءَ مَنْ لا يَخْشَىٰ فاقةً [مسلم (٢٣١٢)].

وأعطى غَيْرَ واحد مئةً من الإبل.

١٩٠ ـ وأعطىٰ صفوانَ مئةً، ثم مئةً، ثم مئةً [مسلم (٢٣١٣)]. وهذه كانت حالهُ ﷺ قبل أنْ يُبعث.

١٩١ ـ وقد قال له وَرَقَةُ بن نَوْفل: إنك تحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١٩٢ ـ وردَّ علىٰ هَوَازِنَ سَبَايَاها، وكانوا ستةَ آلاف [البخاري (٢٣٠٧، ٢٣٠٨)].

١٩٣ ـ وأعطىٰ العباسَ من الذهب ما لم يُطِقْ حَمْلَه [البخاري (٤٢١)].

١٩٤ ـ وحُمِلَ إليه تسعون ألفَ درهم، فوُضِعت علىٰ حصير، ثم قام إليها يَقْسِمُها، فما رَدَّ سائلاً حتى فرغَ منها.

١٩٥ ـ وجاءه رجلٌ، فسأله، فقال: **«ما عندي شيء، ولكن ابْتَع عليَّ، فإذا جاءنا شيء قَضَيْناه.»**.

فقال له عُمر: ما كَلَّفَكَ اللّهُ ما لا تَقْدر عليه.

فكرِهَ النبيُّ ﷺ ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسولَ الله! أنفِقْ ولا تخَفْ من ذِي العرش إقلالاً.

فتبسم ﷺ وعُرف البِشْرُ في وجهه، وقال: **«بهذا أُمرتُ»** [الترمذي (٣٤٨)]. ذكره الترمذي.

١٩٦ ـ وَذُكِرَ عن مُعَوِّذ بن عَفْرَاءَ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ بقِنَاع من رُطب

ـ يريد: طَبَقاً ـ وأجْرِ زُغْبٍ ـ يريد: قِثّاءَ ـ فأعطاني مِلْءَ كفِّه حُلِيّاً وذَهباً [أحمد (٣٥٩/٦)، الترمذي (٢٠٣، ٢٠٤، ٣٤٩)].

١٩٧ ـ وقال أنس: كان النبيُّ ﷺ لا يدَّخِرُ شيئاً لغَدٍ [الترمذي (٢٣٦٢)].

والخَبَرُ بجوده وكرمه ـ ﷺ ـ كثير.

١٩٨ ـ وعن أبي هُريرة: أتىٰ رجلٌ النبيَّ ﷺ يسألُه، فاستَسْلفَ له رسولُ اللَّهِ ﷺ نِصْفَ وَسْقٍ، فجاءَ الرجلُ يتقاضاه، فأعطاه وَسْقاً وقال: **«نِصْفُه قَضاءٌ، ونِصْفُه نائِلٌ»**.

فصل
فِي شَجَاعَتِهِ وَنَجدَتِهِ ﷺ

وأما الشجاعةُ والنجدةُ، فالشجاعةُ: فضيلةُ قوةِ الغضبِ وانقيادِها للعَقْل، والنَّجْدَةُ: ثقةُ النفسِ عند استرسالها إلىٰ الموت حيث يُحْمَدُ فعلُها دونَ خوف.

فكان النبي ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجْهل؛ قد حضر المواقِفَ الصعبةَ، وفرَّ الكُماةُ والأبطالُ عنه غَيْرَ مرّة، وهو ثابتٌ لا يَبْرَح، ومُقْبِل لا يُدْبِر ولا يتزحزح. وما شجاعٌ إلاَّ وقد أُحْصِيت له فَرَّةٌ، وحُفِظَت عنه جَوْلَةٌ، سِواهُ.

١٩٩ ـ حدثنا أبو علي الجَيَّاني في ما كتب لي؛ قال: حدثنا القاضي سِراج، حدثنا أبو محمد الأَصِيلي، قال: حدثنا أبو زَيْدٍ الفقيه، حدثنا محمدُ بن يوسف، حدثنا محمدُ بن إسماعيل، حدثنا ابن بشّار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شُعْبة، عن أبي إسحاق: سَمِعَ البَراءَ ـ وسأله رجلٌ: أفرَرْتُم يوم حُنَين عن رسولِ الله ﷺ؟ ـ قال: لكنْ رسولُ الله ﷺ لم يَفِرَّ.

ثم قال: لقد رأيتُه علىٰ بَغْلته البيضاء وأبو سفيان آخِذٌ بلجامها، والنبيُّ ﷺ يقول: **«أنا النبيُّ لا كَذِبْ»** وزاد غيره: **«أنا ابنُ عبدالمُطَّلبْ»** [البخاري (٤٣١٧)، مسلم (١٧٧٦/٨٠)].

قيل: فما رُئي يومئذٍ أحَدٌ كان أشدَّ منه.

وقال غَيْرُه [البخاري (٤٣١٧)]: نزل النبيُّ ﷺ عن بغلته.

٢٠٠ ـ وذكر مُسْلِمٌ، عن العباس، قال: فلما الْتَقَى المسلمون والكفّار وَلَّى المسلمون مُدْبِرين، فطفِقَ رسولُ الله ﷺ يُرْكِضُ بَغْلَته نحو الكُفار، وأنا آخِذٌ بلجامها أَكُفُّها إرادةَ ألاَّ تُسْرِع، وأبو سفيانَ آخِذٌ بركابه، ثم نادىٰ: يا لَلْمُسْلمين. . . الحديث [مسلم (١٧٧٥)].

٢٠١ ـ وقيل: وكان رسولُ الله ﷺ إذا غضِب ـ ولا يَغْضَبُ إلا لله ـ لم يَقُم لغَضَبه شيء.

٢٠٢ ـ وقال ابنُ عمر: ما رأيتُ أَشْجع، ولا أَنْجد، ولا أَجْود، ولا أَرْضى ولا أفضل مِنْ رسول الله ﷺ.

٢٠٣ ـ وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّا كنَّا إذا حَمِي البأْس ـ ويروى: اشتدَّ البأس ـ واحمرَّت الحَدَقُ اتَّقينا برسول الله ﷺ؛ فما يكون أحَدٌ أقْربَ إلىٰ العدوِّ منه ولقد رأيتُني يومِ بَدْرٍ ونحن نَلُوذُ بالنبيِّ ﷺ، وهو أَقْرَبُنا إلىٰ العدو، وكان من أشدّ الناسِ يومئذٍ بَأْساً [أحمد (٨٦/١)، مسلم (١٧٧٦)].

٢٠٤ ـ وقيل: كان الشجاعُ هُو الذي يَقْرُبُ منه ﷺ إذا دَنا العدوُّ، لِقُرْبه منه.

٢٠٥ ـ وعن أنس: كان النبيّ ﷺ أحسنَ الناسِ، وأجودَ الناسِ، وأشجعَ الناسِ؛ لقد فزِعَ أهلُ المدينة ليلةً، فانطلق ناسٌ قِبَلَ الصوت، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجعاً، قد سبقهم إلىٰ الصوتِ، واستبرأ الخَبَر علىٰ فَرَسٍ لأبي طَلحةَ عُرْيٍ، والسيفُ في عُنُقه، وهو يقول: «لن تُرَاعُوا» [البخاري (٢٩٠٨)، مسلم (٢٣٠٧)].

٢٠٦ ـ وقال عِمْران بن حُصَيْنٍ: ما لَقِي رسولُ الله ﷺ كَتيبةً إلاَّ كان أولَ من يَضْرِب.

٢٠٧ ـ ولما رآه أُبَيُّ بن خَلَف يوم أحد وهو يقول: أين محمدٌ؟ لا نَجوْتُ إن نَجا!

وقد كان يقولُ للنبيّ ﷺ ـ حين افْتَدىٰ يَوْمَ بَدْر ـ: عندي فرسٌ أَعلِفُها كلَّ يوم فَرَقاً من ذُرَةٍ أَقْتُلكَ عليها.

فقال له النبيُّ ﷺ: «أنا أقتلكَ إن شاء الله».

فلما رآه يوم أُحُد شدَّ أُبَيٌّ علىٰ فرسه علىٰ رسول الله ﷺ، فاعترضه رجالٌ من المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: «هكذا» أي: خَلُّوا طريقه، وتناول الحَرْبَة من الحارثِ بن الصِّمَّة، فانتفض بها انتفاضةً، تطايَرُوا عنه تطايُرَ الشَّعْرَاءِ عن ظَهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبيّ ﷺ، فطعنه في عُنقه طعنةً تَدَأْدَأَ منها عن فَرَسِهِ مِراراً.

وقيل: بل كَسَر ضِلَعاً من أضلاعه، فرجع إلىٰ قريش يقول: قتلني محمد! وهم يقولون: لا بَأْسَ بِكَ. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: «أنا أقتلكَ»؟ والله! لو بَصَقَ عليّ زلقتلني. فمات بِسَرِف في قفولهم إلىٰ مكّة.

فصل

فِي حَيَائِهِ وَإِغْضَائِهِ ﷺ

وأما الحَياء والإغْضاءُ: فالحياءُ رِقَّةٌ تَعْتَري وجْهَ الإنسان عند فِعْل ما يُتَوَقَّعُ كراهتُهُ، أو ما يكونُ تَرْكُهُ خيراً من فِعْله.

والإغْضاءُ: التغافلُ عما يَكرَه الإنسانُ بطبيعته.

وكان النبيُّ ﷺ أشدَّ الناسِ حياءً، وأكثرهم عن العَوْرَاتِ إغضاء؛ قال اللّهُ سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٢٠٨ ـ وحدثنا أبو محمد بن عتّاب ـ رحمه الله ـ بقراءَتي عليه؛ حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسَن القابسيُّ، حدثنا أبو زيدِ المَرْوَزيُّ، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عَبْدان، أخبرنا عَبْدُاللّه، أخبرنا شُعبة، عن قَتَادةَ، سمعتُ عَبْدُاللّهِ: مولىٰ أَنس، يحدِّثُ عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراء في خِدْرِها. وكان إذا كَرِه شيئاً عرَفْناهُ في وَجْهه [البخاري (٦١٠٢)].

وكان ﷺ لطيفَ البَشَرة، رقيقَ الظاهر، لا يشافِهُ أحداً بما يكرهُه حياءً وكَرم نَفْس.

٢٠٩ ـ وعن عائشة رضي الله عنها: كان النبيُّ ﷺ إذا بلغه عن أَحَدٍ ما يكرهُه لم يقُلْ: ما بالُ فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «ما بالُ أقوام يصنعون، أو يقولون كذا؟» [أبو داود (٤٧٨٨)] يَنْهَى عنه، ولا يُسمّي فاعِلَه.

٢١٠ ـ وروَى أَنس أنه دخل عليه رَجُلٌ به أَثَر صُفْرة، فلم يَقُلْ له شيئاً ـ وكان لا يُواجِهُ أحداً بما يكره ـ فلما خرج قال: **«لو قلتُم له: يَغسِلُ هذا؟»** ويُروى: **«يَنْزِعُهَا»** [أبو داود (٤١٨٢، ٤٧٨٩)، الترمذي (٣٣٩)].

٢١١ ـ قالت عائشة في الصحيح: لم يكن النبيُّ ﷺ فاحشاً ولا مُتفحِّشاً ولا سَخَّاباً بالأسواق، ولا يَجْزِي بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويصفحُ [الترمذي (٢٠١٦)، أحمد (١٧٤/٦)].

٢١٢، ٢١٣ ـ وقد حُكِيَ مثلُ هذا الكلام عن التوراة، مِنْ رواية عبداللّه بن سَلام وعبداللّه بن عَمْرو بن العاص.

٢١٤ ـ ورُوي عنه أنه كان مِنْ حَيَائه لا يُثْبِتُ بصرَه في وَجْهِ أحدٍ.

٢١٤م ـ وأنه كان يَكْنِي عما اضطره الكلامُ إليه مما يُكرَه.

٢١٥ ـ وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ فَرْجَ رسولِ الله ﷺ قطُّ.

فصل
فِي حُسْنِ عِشرَتِهِ وَأَدَبِهِ وَبَسطِ خُلقِهِ ﷺ مَعَ أَصْنَافِ الْخَلقِ

وأما حُسنُ عِشْرَتِهِ، وأدبُه، وبَسْطُ خُلُقِه ـ ﷺ ـ مع أصناف الخَلْقِ فَبِحَيْثُ انتشرت به الأخبارُ الصحيحةُ.

٢١٦ ـ قال عليّ رضي الله عنه في وَصْفِه ﷺ: كان أوسعَ الناسِ صَدْراً، وأَصدقَ الناسِ لَهْجَةً، وأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وأكرمهم عِشْرَةً.

٢١٧ ـ حدثنا أبو الحَسن: علي بن مُشَرَّف الأنماطي فيما أَجَازَنِيه، وقرأته على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الحبَّال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابنُ الأعرابي، حدثنا أبو دَاود، حدثنا هشام: أبو مَرْوَان، ومحمد بن المثنَّىٰ قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزَاعي، سمعت يحيىٰ بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبدالرحمن بن أَسْعد بن زُرَارَة، عن قَيْس بن سعد، قال: زَارَنَا رسولُ الله ﷺ ـ وذكر قصةً في آخرها: فلما أراد الانصرافَ قَرَّبَ له سعدٌ حماراً، ووَطَّأَ عليه بقَطِيفَةٍ، فركب رسولُ الله ﷺ، ثم قال سَعْد: يا قيس! اصحَبْ رسولَ الله ﷺ.

قال قيس: فقال رسولُ الله ﷺ: **«اركَبْ»** فأَبَيْتُ. فقال: **«إمَّا أَنْ تركبَ وإمَّا أَنْ تنصرفَ»**، فانصرفتُ [أبو داود (٥١٨٥)، أحمد (٤٢١/٣)، النسائي (٣٢٤، ٣٢٥)، ابن ماجه (٤٦٦)].

وفي رواية أخرىٰ: **«اركَبْ أَمامي، فصاحِبُ الدَّابَّةِ أَوْلَىٰ بِمُقَدَّمِها»**.

٢١٨ ـ وكان رسول الله ﷺ يؤَلِّفُهم، ولا يُنَفِّرُهم، ويُكرِم كريمَ كلِّ قوم ويُوَلِّيه عليهم، ويُحَذِّرُ الناسَ، ويحترسُ منهم، من غير أَن يطْوِيَ عن أحدٍ منهم بِشْرَه، ولا خُلُقَه؛ يتفقَّدُ أصحابَه، ويُعطي كلَّ جلسائه نَصِيبَه، لا يَحْسَبُ جليسُه أَنَّ أَحداً أكرمُ عليه منه. مَنْ جالسه أو قاربه لحاجةٍ صابَرَه حتى يكون هو المنصرف عنه، ومَنْ سأله حاجةً لم يَرُدّه إلا بها، أو بِمَيْسورٍ من القول؛ قد وسِعَ الناسَ بَسْطُه وخُلُقُهُ، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواءً. بهذا وصفه ابن أبي هالة، قال: وكان دائمَ البِشر، سَهْلَ الخُلُق، لَيِّنَ الجانب، ليس بفَظٍّ ولا

غَلِيظٍ، ولا سَخَّاب، ولا فَحَّاش ولا عَيَّابٍ، ولا مدَّاح، يتغافَلُ عمّا لا يشتهي ولا يُؤيِسُ منه.

وقال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦].

٢١٩ ـ وكان يُجِيب مَنْ دَعاه.

٢٢٠ ـ ويقبلُ الهديّة ولو كانت كُرَاعاً ويُكافىءُ عليها [البخاري (٢٥٨٥، ٢٥٦٨)].

٢٢١ ـ قال أنس: خَدَمْتُ رسولَ الله ﷺ عَشر سنين، فما قال لي أُفٍّ قَطُّ، وما قال لشيء صنَعْتُه: لم صَنَعْتَه؟ ولا لشيء تركتُه: لم تركْتَه؟ [البخاري (٢٧٦٨)، مسلم (٢٣٠٩)].

٢٢٢ ـ وعن عائشة رضي الله عنها: ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا أهلِ بيته إلاَّ قال: «لَبَّيكَ».

٢٢٣ ـ وقال جَرير بن عبدالله: ما حجبني رسولُ الله منذُ أسلمتُ، ولا رآني إلاَّ تبسَّم [البخاري (٣٠٣٥)، مسلم (٢٤٧٥)].

وكان يُمازِحُ أَصحابَه، ويُخالِطُهم ويُحادثهم، ويُداعِبُ صِبْيَانهم، ويُجْلِسهم في حِجْرِه، ويُجيب دعوةَ الحرِّ والعبد، والأَمَةِ والمسكين، ويعودُ المرضىٰ في أقصىٰ المدينة، ويقبلُ عُذرَ المعتذر.

٢٢٤ ـ قال أنس: ما الْتَقَمَ أحدٌ أُذُنَ النبيِّ ﷺ فَيُنَحِّي رأسَه حتى يكون الرجلُ هو الذي يُنَحِّي رأسَه، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسِل يده حتى يُرْسِلَها الآخر؛ ولم يُرَ مُقَدِّماً رُكْبَتَيه بين يَدَيْ جَلِيسٍ له [أبو داود (٤٧٩٤)، الترمذي (٢٤٩٠)، ابن ماجه (٣٧١٦)].

وكان يبدأ مَنْ لَقِيَه بالسلام، ويبدأ أصحابَه بالمُصافحة، ولم يُرَ قَطُّ مادّاً رجليه بين أصحابه حتى يُضَيِّقَ بهما على أحد. يكرم من دخلَ عليه، وربما بَسَطَ له ثَوبَه، ويُؤْثِرُه بالوسادة التي تحته، ويَعْزِمُ عليه في الجلوس عليها إنْ أَبىٰ، ويُكنِّي أصحابَه، ويدعوهم بأَحَبِّ أسمائهم تكرمةً لهم، ولا يقطَعُ على أحد حديثه حتى يتجوَّز فيقطعه بنَهْيٍ أو قيام. ويُروىٰ: بانتهاءٍ أو قيام.

٢٢٥ ـ وروي أنه كان لا يجلسُ إليه أحدٌ وهو يُصلِّي إلاَّ خففَ صلاتَه، وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته.

وكان أَكْثَرَ الناسِ تبسُّماً، وأَطْيَبهم نَفْساً، ما لم ينزل عليه قرآنٌ، أو يَعِظْ، أو يخطب.

٢٢٦ ـ قال عَبْدُالله بن الحارث: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله ﷺ [الترمذي (٣٦٤١)، أحمد (١٩٠/٤)].

٢٢٧ ـ وعن أنس: كان خَدَمُ المدينةِ يأتون النَّبيَّ ﷺ إذا صَلَّى الغَدَاةَ بآنيتهم فيها الماءُ، فما يُؤْتَىٰ بآنيةٍ إلاَّ غَمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغَدَاة الباردة [مسلم (٢٣٢٤)] يريدون به التَّبرُّك.

فصل
فِي شَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﷺ وَرَأْفَتِهِ لِجَمِيعِ الخَلْقِ

وأما الشفقةُ والرأفةُ والرحمةُ لجميع الخَلْق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال بعضُهم: من فَضْله عليه السلام أنَّ الله تعالى أعطاه اسْمَيْن من أسمائه، فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وحكى نحوه الإمام أبو بكر بنُ فُورَك.

٢٢٨ ـ حدثنا الفقيه أبو محمد: عبدالله بن محمد الخُشَنِي بقراءتي عليه، حدثنا إمام الحَرَمَيْنِ: أبو علي الطَّبَري، حدثنا عَبْدُالغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجُلُودي، حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وَهْبٍ، أخبرنا يونس، عن ابن شِهَاب، قال: غَزا رسولُ الله ﷺ غزوةً، وذكر حُنَيْناً، قال: فأعطى رسولُ الله ﷺ صَفْوَانَ بن أمية مِئةً من النَّعَم؛ ثم مِئة، ثم مِئة.

قال ابنُ شهاب: حدثنا سعيد بن المُسَيِّب أنَّ صفوانَ قال: والله! لقد أعطاني ما أَعطاني وإنه لأَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَيَّ، فما زال يُعْطِيني حتى إنه لأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ [مسلم (٥٩/٢٣١٣)].

٢٢٩ ـ ورُوي أنَّ أعرابياً جاءهُ يطلبُ منه شيئاً، فأعطاه؛ ثم قال: «**أحسنْتُ إليكَ؟**». قال الأعرابي: لا، ولا أَجْمَلْتَ.

فغَضِبَ المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم: أن كُفُّوا، ثم قام ودخل منزلَه،

وأرسل إليه، وزادَه شيئاً، ثم قال: «**أحسنْتُ إليك؟**» قال: نعم، فجزاكَ الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال له النبيُّ ﷺ: «**إنكَ قلتَ ما قُلْتَ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أَحْبَبْتَ فقلْ بين أيديهم ما قُلْتَ بين يديّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك**».

قال: نعم. فلما كان الغَدُ ـ أو العَشِيّ ـ جاء، فقال ﷺ: «**إنَّ هذا الأعرابيّ قال ما قال، فزِدْناهُ فزعم أنه رَضِيَ، أكذلكَ؟**» قال: نعم، فجزاكَ الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال ﷺ: «**مَثَلي ومَثَل هذا، مَثَلُ رجلٍ، له ناقةٌ شَرَدَتْ عليه، فاتَّبعها الناسُ فلم يزيدوها إلاَّ نُفوراً، فناداهم صاحبها: خَلُّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرْفَقُ بها منكم وأعلم، فتوجَّه لها بين يديها، فأخذَ لها من قُمَامِ الأرضِ، فردَّها حتى جاءت واستناخت، وشَدَّ عليها رَحْلها، واستوىٰ عليها، وإنّي لو تركتُكم حيثُ قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار**».

٢٣٠ ـ ورُوي عنه أنه ﷺ قال: «**لا يُبَلِّغني أحدٌ منكم عن أحدٍ من أصحابي شيئاً، فإني أُحِبُّ أنْ أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر**» [أبو داود (٤٨٦٠)، الترمذي (٣٨٩٦، ٣٩٩٧)].

٢٣١ ـ ومن شفقته على أمته ﷺ تَخْفِيفُه وتسهيله عليهم، وكراهتُه أشياءَ مخافَةَ أنْ تُفْرَضَ عليهم، كقوله: «**لولا أنْ أَشُقَّ على أُمَّتي لأَمَرْتُهم بالسِّواكِ مع كل وُضوء**» [أحمد (٢/٢٥٠)].

٢٣٢ ـ وَخَبَرُ صلاةِ الليل [البخاري (١١٢٩)، مسلم (٧٦١)].

٢٣٣ ـ ونَهيهم عن الوِصَال.

٢٣٤ ـ وكراهَته دخولَ الكعبةِ لئلَّا يُعْنِتَ أُمَّته [أبو داود (٢٠٢٩)، الترمذي (٨٧٣)، ابن ماجه (٣٠٦٤)].

٢٣٥ ـ ورغبته لربه أنْ يجعلَ سبَّه ولَعْنَهُ لهم رحمةً بهم.

٢٣٦ ـ وأنه كان يسمعُ بكاءَ الصبي فيتجوَّز في صلاته [البخاري (٧٠٧، ٧٠٩)، مسلم (٤٧٠)].

٢٣٧ ـ ومن شفقته ﷺ أنْ دَعَا ربَّه وعاهده، فقال: «**أيُّما رجلٍ سَبَبْتُهُ ـ أو لعنتُه ـ فاجعَلْ ذلك له زكاةً ورحمةً، وصلاةً وطَهُوراً، وقُرْبَةً تقرِّبُه بها إليك يوم القيامة**» [البخاري (٦٣٦١)، مسلم (٢٦٠١)].

٢٣٨ ـ ولما كذَّبه قومُه أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: إنَّ الله تعالى قد سمع قولَ قومِكَ لكَ، وما ردُّوا عليكَ، وقد أمر مَلَكَ الجبال لتأمُرَه بما شئتَ فيهم، فناداه مَلَكُ الجبالِ وسلَّمَ عليه، وقال: مُرْنِي بما شئتَ، وإنْ شِئتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ.

قال النبيّ ﷺ: «**بل، أرجو أنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهم، من يَعْبُدُ الله وحده، ولا يُشرك به شيئاً**» [البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥)].

٢٣٩ ـ وَرَوَى ابْنُ المُنْكَدِرِ أَنَّ جبريلَ ـ عليه السلام ـ قال للنبي ﷺ: إنَّ الله تعالى أمرَ السماءَ والأرضَ والجبالَ أنْ تُطيعك. فقال: «**أُؤَخِّر عن أُمَّتي لعلَّ الله أَنْ يتوبَ عليهم**».

٢٤٠ ـ قالت عائشة: ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلاَّ اختارَ أَيْسَرَهُما.

٢٤١ ـ وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ يتخَوَّلُنا بالموعظة مخافةَ السآمةِ علينا [البخاري (٦٨)، مسلم (٢٨٢١)].

٢٤٢ ـ وعن عائشة: أنها ركبَتْ بعيراً وفيه صُعوبةٌ، فجعلت تردِّدُه، فقال رسولُ الله ﷺ: «**عليكِ بالرِّفْقِ**» [مسلم (٢٥٩٤/٧٩)].

فصل
فِي خُلقِهِ ﷺ فِي الوَفَاءِ وَحُسْنِ العَهْدِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ

٢٤٣ ـ وأما خُلُقه ﷺ في الوفاء، وحُسْنِ العَهْدِ، وصِلَةِ الرحم ـ فحدَّثنا القاضي أبو عامرٍ محمد بن إسماعيل بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا أبو بكر محمد بن محمد، حدثنا أبو إسحاق الحَبَّال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابن الأعرابي قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا محمد بن يحيىٰ قال: حدثنا محمد بن سِنَان قال: حدثنا إبراهيم بن طَهْمَانُ، عن بُدَيل، عن عبدالكريم بن عبداللَّه بن شَقِيق، عن أبيه، عن عبداللَّه بن أبي الحَمْساء، قال: بايَعْتُ النبيَّ ﷺ بِبَيْعٍ قبل أنْ يُبْعَث، وبقِيَتْ له بقيةٌ، فوعدتُه أنْ آتِيَهُ بها في مكانه، فَنَسيتُ، ثم ذَكَرْتُ بعد ثلاث، فجئتُ فإذا هو في مكانه، فقال: «**يا فتى! لقد شَقَقْتَ عليّ، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظِرُكَ**» [أبو داود (٤٩٩٦)].

٢٤٤ ـ وعن أنس: كان النبي ﷺ إذا أُتِيَ بهديةٍ قال: «**اذهبوا بها إلى بَيْتِ فُلانة؛ فإنها كانت صديقةً لخديجة، إنها كانت تُحِبُّ خديجة**».

٢٤٥ ـ وعن عائشة قالت: ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة، لِمَا كُنْتُ أسمعه يَذْكُرها، وَإِنْ كان لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُهديها إلى خَلائِلِها [البخاري (٦٠٠٤)، مسلم (٧٥/٢٤٣٥)].

٢٤٦ ـ واستأذنَتْ عليه أختُها فارتاحَ إليها [البخاري (٣٨٢١)، مسلم (٢٤٣٧)].

٢٤٧ ـ ودخلت عليه امرأةٌ، فهشَّ لها، وأحسنَ السؤالَ عنها، فلما خرجت قال: «**إنها كانت تأتينا أيامَ خديجة، وإنَّ حُسْنَ العَهْدِ من الإيمان**».

ووصفه بعضُهم، فقال: كان يَصِلُ ذَوِي رَحمه من غير أنْ يُؤْثِرهم على مَنْ هو أفضلُ منهم.

٢٤٨ ـ وقال ﷺ: «**إنَّ آلَ أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أَنَّ لهم رَحِماً سأَبُلُّها بِبَلالِها**» [البخاري (٥٩٩٠)، مسلم (٢١٥)].

٢٤٩ ـ وقد صلَّى ـ عليه السلام ـ بأُمَامة ابنةِ ابنته زينب ـ رضي الله عنها ـ يَحْمِلُها على عاتقه، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملَها [البخاري (٥١٦)، مسلم (٥٤٣)].

٢٥٠ ـ وعن أبي قَتادةَ قال: وَفَدَ وفدٌ للنجاشي، فقام النبيُّ ﷺ يَخْدُمهم، فقال له أصحابُه: نَكْفِيك. فقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مُكْرِمين، وإني أُحِبُّ أنْ أُكَافِئهم**».

٢٥١ ـ ولما جِيء بِأُخته من الرضاعة: الشَّيْمَاءِ، في سَبايا هَوَازِنَ، وتَعَرَّفَتْ له، بسط لها رِدَاءَه، وقال لها: «**إنْ أحبَبْتِ أَقَمْتِ عندي مُكَرَّمةً مُحبَّةً، أو مَتَّعْتُكِ ورجعتِ إلى قومك؟**» فاختارَتْ قومَها فمتَّعها.

٢٥٢ ـ وقال أبو الطُّفَيْل: رَأَيتُ النبي ﷺ ـ وأنا غلام ـ إذ أَقْبَلَت امرأةٌ حتى دَنَتْ منه، فبسط لها رداءَهُ، فجلَسَت عليه، فَقُلْتُ: مَنْ هذه؟ قالوا: أُمُّهُ التي أرضعته [أبو داود (٥١٤٤)].

٢٥٣ ـ وعن عُمر بن السائب، أنَّ رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً، فأقبل أبوه من الرَّضاعة، فوضع له بَعْضَ ثوبِه، فقعد عليه؛ ثم أقبلت أُمُّه فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسولُ الله ﷺ فأجلسه بين يديه [أبو داود (٥١٤٥)].

٢٥٤ ـ وكان يبعثُ إلى ثُوَيْبَةَ ـ مولاةِ أبي لَهَب ـ مُرْضِعَتِهِ بِصِلَة وكسوة، فلما ماتت سأل: «**مَنْ بقي من قرابتها؟**» فقيل: لا أحد.

٢٥٥ ـ وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له ﷺ: أَبْشِرْ، فوالله

لا يُخزِيكَ الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعين على نوائبِ الحقِّ [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

فصل
فِي تَوَاضُعِهِ ﷺ

وأما تواضعُه ﷺ، على علُوِّ مَنْصِبه ورفعة رُتْبَتِهِ فكان أَشَدَّ الناس تواضُعاً، وأَقلَّهم كِبْراً.

٢٥٦ ـ وَحسْبُك أنه خُيِّر بين أن يكون نبياً مَلِكاً أو نبياً عَبْداً فاختار أن يكون نبيًّا عَبْداً [أحمد (٢/٢٣١)]، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإنَّ الله قد أعطاكَ بما تواضعْتَ له أنك سيِّدُ ولدِ آدم يوم القيامة، وأولُ مَنْ تنشقُّ عنه الأرضُ، وأول شافع.

٢٥٧ ـ حدثنا أبو الوليد بن العَوَّاد الفقيه ـ رضي الله عنه ـ بقراءتي عليه في منزله بقُرْطبة سنةَ سبعٍ وخَمْسِ مئة قال: حدثنا أبو علي الحافظ، حدثنا أبو عُمَرَ، حدثنا ابن عبدالمؤمن، حدثنا ابنُ دَاسَة، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عَبْدُاللَّه بن نُمَير، عن مِسْعَر، عن أبي العَنْبس، عن أبي العَدَبَّس، عن أبي مرزوق، عن أبي غالب، عن أبي أُمامة، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ متوكئاً على عصا؛ فقمنا له. فقال: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجمُ، يُعَظِّمُ بعضها بعضاً**» [مسلم (٤١٣)، أبو داود (٥٢٣٠)، ابن ماجه (٣٨٣٦)].

٢٥٨ ـ وقال: «**إنما أنا عَبْدٌ آكُلُ كما يأْكُلُ العبد، وأَجْلِسُ كما يجلِسُ العبد**».

وكان يركب الحِمار، ويُرْدِفُ خَلْفَه، ويَعُودُ المساكينَ، ويُجالِسُ الفقراءَ، ويُجِيبُ دَعْوَةَ العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم. حيثما انتهىٰ به المجلسُ جلس.

٢٥٩ ـ وفي حديث عُمَر عنه: «**لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النصارىٰ ابنَ مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عَبْدُاللَّه ورسوله**» [البخاري (٣٤٤٥)].

٢٦٠ ـ وعن أنس أن امرأةً كان في عَقْلِها شيء جاءته، فقالت: إنَّ لي إليك حاجةً. قال: «**اجلسي، يا أمَّ فلان! في أيِّ طُرقِ المدينة شِئْتِ أجلس إليك حتى أَقْضِي حاجَتَكِ**».

قال: فجلست، فجلس النبيُّ ﷺ إليها حتى فرغَتْ من حاجتها [مسلم (٢٣٢٦)].

٢٦١ ـ قال أَنسٌ: كان رسولُ الله يركَبُ الحمار، ويُجيب دعوةَ العبد، وكان يوم بني قُرَيْظَة على حِمَار مخطوم بحَبْلٍ من ليفٍ، عليه إكافٌ [الترمذي (١٠١٧)، ابن ماجه (٤١٧٨)].

٢٦٢ ـ قال: وكان يُدْعَى إلى خُبْزِ الشعير، والإهَالَة السَّنِخَة فيُجيب [البخاري (٢٠٦٩)].

٢٦٣ ـ قال: وحجَّ ﷺ على رَحْل رَثٍّ، وعليه قَطِيفَةٌ ما تُساوي أربعة دراهم؛ فقال: **«اللهم! اجعله حَجًّا لا رِيَاءَ فيه ولا سُمْعَة»** [ابن ماجه (٢٨٩٠)].

٢٦٤ ـ هذا، وقد فُتِحَت عليه الأرضُ، وأَهْدَىٰ في حَجِّه ذلك مِئَةَ بَدَنَةٍ [مسلم (١٢١٨)].

٢٦٥ ـ ولما فُتِحَتْ عليه مكَّةُ، ودخلها بجيوش المسلمين، طَأْطَأَ على رَحْلِه رَأْسَه حتى كاد يَمَسُّ قَادِمَتَه تواضُعاً لله تعالى.

٢٦٦ ـ ومِنْ تواضُعه ﷺ قَوْلُه: **«لا تُفضلوني على يونُسَ بن مَتَّى»**.

٢٦٧ ـ و **«لا تُفَضِّلوا بَيْنَ الأنبياء»** [البخاري (٣٤١٤)، مسلم (١٥٩/٢٣٧٣)].

٢٦٨ ـ و **«لا تُخَيِّروني على موسى»** [البخاري (٢٤١١)، مسلم (١٦٠/٢٣٧٣)].

٢٦٩ ـ و **«نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم، ولو لبثْتُ ما لَبِثَ يوسف في السجن لأجَبْتُ الدَّاعي»** [البخاري (٣٣٧٢)، مسلم (١٥١)].

٢٧٠ ـ وقال ـ للذي قال له: يا خَيْرَ البَرِيَّةِ ـ: **«ذلكَ إبراهيم»** [مسلم (٢٣٦٩)].

وسيأتي الكلامُ على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله.

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣ ـ وعن عائشة، والحَسن، وأبي سعيد، وغيرهم في صفة النبي ﷺ، وبعضُهم يزيدُ على بعض: كان في بيته في مِهْنَةِ أهلهِ: يَفْلِي ثَوْبَهُ، ويَحْلُب شاتَه، ويَرْقَعُ ثَوْبَه، ويَخْصِفُ نَعْلَهُ، ويَخْدُمُ نَفْسَهُ، ويعلف ناضِحَهُ، ويَقُمُّ البيتَ، ويَعْقِلُ البعير، ويأكلُ مع الخادم، ويَعْجِنُ معها، ويحملُ بضاعته من السوق [البخاري (٦٧٦)].

٢٧٤ ـ وعن أنس: إنْ كانت الأَمَةُ من إماءِ أهلِ المدينة لتأخذُ بيَدِ النَّبيِّ ﷺ فتنطلق به حيث شاءت حتى يَقْضِيَ حاجَتَها [البخاري (٦٠٧٢)، أحمد (٩٨/٣)].

٢٧٥ ـ ودخل عليه رجلٌ فأصابته من هَيْبَتِهِ رِعْدَةٌ، فقال له: **«هَوِّنْ عليكَ، فإني لستُ بِمَلِكٍ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش تأكلُ القَدِيدَ»**.

٢٧٦ ـ وعن أبي هُريرة: دخلتُ السوقَ مع النبي ﷺ، فاشترىٰ سَرَاويلَ وقال للوزَّان: «**زِنْ وَأَرْجِح**» وذكر القصةَ، قال: فوثب إلى يَدِ النبي ﷺ يُقَبِّلها، فجذَبَ يَده، وقال: «**هذا تفعله الأعاجمُ بملوكها؛ ولستُ بِمَلِكٍ، إنما أنا رجلٌ منكم**». ثم أخذ السَّراويلَ، فذهبْتُ لأَحْمِلَه، فقال: «**صاحِبُ الشيء أحقُّ بِشيئِهِ أَنْ يحمِلَه**».

فصل
فِي عَدْلِهِ ﷺ وَأَمَانَتِهِ وَعِفَّتِهِ وَصِدقِ لَهجَتِهِ

وأما عَدْلُه ﷺ وأمانَتُه وعِفَّتُهُ، وصِدْقُ لَهجَتِهِ ـ فكانَ ﷺ آمَنَ الناس، وأعدلَ الناس، وأعفَّ الناس، وأصدقَهم لَهْجَةً منذ كان، اعترف له بذلك مُحَادُّوهُ وعِدَاهُ.

وكان يُسَمَّىٰ قبل نبوّته الأَمين.

قال ابن إسحاق: كان يُسمَّىٰ الأمِينَ بما جمَعَ الله فيه من الأخلاق الصالحة.

وقال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢١] أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ.

٢٧٧ ـ ولما اختلفت قريشٌ وتحازبتْ عند بناء الكعبة فيمَنْ يضَعُ الحَجَرَ حكَّموا أول داخلٍ عليهم، فإذا بالنَّبيِّ ﷺ داخل، وذلك قَبْلَ نبوته؛ فقالوا: هذا محمد، هذا الأمين قد رَضِينا به [أحمد (٣/٤٢٥)].

٢٧٨ ـ وعن الرَّبِيعِ بن خُثَيم: كان يُتحاكَمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام.

٢٧٩ ـ وقال ﷺ: «**والله! إني لأمينٌ في السماء أَمِينٌ في الأرض**».

٢٨٠ ـ حدثنا أبو علي الصَّدَفِي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، حدثنا أبو يَعْلَىٰ بن زَوْج الحُرَّة، حدثنا أبو علي السِّنجِيُّ، حدثنا محمد بن محبوب المَرْوَزِي، حدثنا أبو عيسىٰ الحافظ، حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجِيةَ بن كعب، عن عليٍّ، أن أبا جَهْلٍ قال للنبيِّ ﷺ: إنا لا نُكذِّبُكَ، ولكن نُكذِّبُ بما جِئْتَ به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ورَوَى غيره: لا نُكذِّبُكَ وما أَنْتَ فينا بمُكذَّب.

٢٨١ ـ وقيل: إنَّ الأَخْنَسَ بن شَرِيق لقِيَ أبا جهل يوم بَدْرٍ، فقال له: يا أبا

الحَكَم! ليس هنا غيري وغَيْرُكَ يسمَعُ كلامنا، تخبرني عن محمد؛ صادق هو أَمْ كاذب؟ فقال أبو جهل: والله! إنَّ محمداً لصادق، وما كَذَب محمدٌ قَطُّ.

٢٨٢ ـ وسأل هِرَقْلُ عنه أبا سفيانَ، فقال: هل كنتم تَتَّهِمونه بالكذب قبل أَنْ يقولَ ما قال؟ قال: لا [البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣)].

٢٨٣ ـ وقال النَّضْرُ بنِ الحارث لقُريشٍ: قد كان محمد فيكم غلاماً حدَثاً، أرْضاكُم فيكم، وأَصْدقَكم حديثاً، وأَعْظَمَكم أمانةً حتىٰ إذا رأيتُم في صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ، وجاءكم بما جاءكم به قلتُم: ساحِر. لا، والله! ما هو بساحِرٍ.

٢٨٤ ـ وفي الحديث عنه: ما لَمَسَتْ يَدُه يَدَ امرأةٍ قَطُّ لا يملكُ رِقَّها [البخاري (٧٢١٤)، مسلم (١٨٦٦)].

٢٨٥ ـ وفي حديث عليّ، في وصفه ﷺ: أصدقُ الناس لَهْجَةً.

٢٨٦ ـ وقال في الصحيح: **«وَيْحَكَ! فَمَنْ يعدلُ إنْ لم أَعْدِلْ؟ خِبْتُ وخَسِرْتُ إنْ لم أَعْدِلْ!»**.

٢٨٧ ـ قالت عائشة: ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسَرَهُما ما لم يكن إثماً، فإنْ كان آثماً كان أَبْعَدَ الناس منه.

قال أبو العباس المبرِّد: قَسَم كِسرىٰ أيامَه؛ فقال: يصلحُ يَوْمُ الريح لِلنَّومِ، ويومُ الغَيْمِ للصيد، ويومُ المطر للشُّرْبِ واللَّهو، ويومُ الشمس للحوائج.

قال ابنُ خَالَوَيْهِ: ما كان أعرفهم بسياسة دُنْيَاهم! ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

٢٨٨ ـ ولكن نبيَّنا ﷺ جزَّأَ نهارَه ثلاثة أجزاء، جزءاً لله، وجُزْءاً لأهله، وجُزْءاً لنفسه، ثم جزَّأ جُزْأهُ بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: **«أَبلِغُوا حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغي؛ فإنه مَنْ أَبْلَغَ حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغَها آمنَهُ الله يومَ الفزع الأكبر»**.

٢٨٩ ـ وعن الحَسَن: كان رسولُ الله ﷺ لا يأْخُذ أحداً بِقَرْفِ أحد، ولا يُصَدِّقُ أحداً على أحد.

٢٩٠ ـ وذكر أبو جعفر الطَّبَري عن عليّ، عنه ﷺ: **«ما هَمَمْتُ بشيءٍ مما كان أَهْلُ الجاهلية يعملون به غيرَ مَرَّتين، كلُّ ذلك يحولُ الله بيني وبين ما أُريدُ من ذلك، ثم ما هَمَمْتُ بسوء حتى أكرمني الله برسالته؛ قلت ليلةً لغلامٍ كانَ يَرْعَىٰ معي: لو أبصرتَ لي غَنَمي حتى أدخُلَ مكة فأَسْمُرَ بها كما يَسْمُرُ الشبابُ.**

فخرجتُ كذلكَ حتى جئتُ أَوَّل دارٍ من مكة سمعتُ عَزْفاً بالدُّفُوفِ والمَزامِيرِ

لغُرْسِ بعضهم. فجلستُ أنظرُ، فضُرب على أُذُني فنِمْتُ، فما أيقظني إلاَّ مَسُّ الشمس، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً. ثم عَرَاني مرةً أخرىٰ مثلُ ذلك، ثم لم أَهُمَّ بعد ذلك بسوء».

فصل

فِي وَقَارِهِ ﷺ وَصَمْتِهِ وَتُؤَدَتِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَحُسْنِ هَدْيِهِ

٢٩١ ـ وأما وَقَارُه ﷺ وصَمْتُه وتُؤَدَتُه ومروءته وحسْنُ هَدْيه فحدثنا؛ أبو علي الجيَّاني الحافظ إجازةً، وعارضْتُ بِكِتَابه؛ قال: حدثنا أبو العباس الدّلائي، أخبرنا أبو ذَر الهَرَوي، أخبرنا أبو عبداللَّه الورَّاق، حدثنا اللؤلؤيُّ، حدثنا أبو داود، حدثنا عَبْدُالرحمن بن سلام، حدثنا حجاج بن محمد، عن عبدالرحمن بن أبي الزِّنَادِ، عن عُمَر بن عبدالعزيز بن وُهَيب، سمعتُ خارجَةَ بن زَيْد يقول: كان النبي ﷺ أوْقَر الناس في مجلسه، لا يكادُ يُخْرِجُ شيئاً من أطرافه.

٢٩٢ ـ ورَوَى أبو سَعيد الخُدْرِي: كان رسولُ الله ﷺ إذا جلس في المجلس احْتَبىٰ بيديه، وكذلك كان أَكْثَرُ جلوسِه ﷺ مُحْتَبِياً [أبو داود (٤٨٤٦)].

٢٩٣ ـ وعن جابر بن سَمُرَةَ أنه تَرَبَّع [أبو داود (٤٨٥٠)].

٢٩٤ ـ وربَّما جلس القُرْفُصَاءَ، وهو في حديث قَيْلَةَ.

٢٩٥ ـ وكان كثيرَ السكوتِ لا يتكلم في غير حاجةٍ، يُعْرِضُ عمن تكلَّم بغير جميل، وكان ضَحِكُهُ تَبَسُّماً، وكلامُه فَصْلاً، لا فُضُولَ ولا تقصيرَ، وكان ضحكُ أصحابه عنده التَّبسُّم؛ توقيراً له، واقتداءً به. مجلسُه مجلسُ حِلْم وحياءٍ، وخيرٍ وأمانَةٍ، لا تُرْفَعُ فيه الأصواتُ، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ، إذا تكلَّمَ أطْرَقَ جلساؤه كأنَّما على رؤوسهم الطَّيْرُ.

٢٩٦ ـ وفي صفته: يَخطو تكفُّؤاً، ويَمْشِي هَوْناً، كأنما يَنْحطُّ مِنْ صَبَبٍ.

٢٩٧ ـ وفي الحديث الآخر: إذا مشىٰ مَشَىٰ مجتمعاً، يُعْرَفُ في مِشْيته أنه غَيْرُ غَرِضٍ ولا وَكِلٍ. أي: غير ضَجِرٍ ولا كَسْلاَنَ.

٢٩٨ ـ وقال عبداللَّه بن مسعود: إنَّ أَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمد ﷺ [البخاري (٦٠٩٨)].

٢٩٩ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: كان في كلام رسول الله ﷺ تَرْتِيلٌ أو تَرْسِيل [أبو داود (٤٨٣٨)].

٣٠٠ ـ قال ابنُ أَبي هَالَة: كان سكوتُه على أربع: على الْحِلْمِ، والحَذَرِ، والتقديرِ، والتفكّر.

٣٠١ ـ قالت عائشة: كان رسولُ الله ﷺ يحدِّث حديثاً لو عدَّهُ العادُّ أَحصاهُ [البخاري (٣٥٦٧)، مسلم (٢٤٩٣/٧١)].

وكان ﷺ يُحبُّ الطِّيبَ والرائحةَ الحسنة، ويستعملهما كثيراً، ويحضّ عليهما.

٣٠٢ ـ ويقول: **«حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم: النساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»**.

٣٠٣ ـ ومن مروءته ـ ﷺ ـ: نَهْيُهُ عن النَّفْخ في الطعام والشَّرَاب [أبو داود (٣٧٢٨)، الترمذي (١٨٨٨)، ابن ماجه (٣٤٢٨)].

٣٠٤ ـ والأَمْرُ بالأَكْلِ مِمّا يَلي [البخاري (٥٣٧٦)، مسلم (٢٠٢٢)].

٣٠٥ ـ والأَمْرُ بالسِّواك.

٣٠٦ ـ وإنْقَاء البَرَاجِم والرَّوَاجِب، واستعمال خِصَال الفِطْرَةِ [مسلم (٢٦١)].

فصل
فِي زُهدِهِ ﷺ فِي الدُّنيا

٣٠٧ ـ وأما زُهْدُه في الدنيا فقد تقدَّم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي. وحَسْبُك من تَقَلُّلِه منها، وإعراضه عن زهرَتِها؛ وقد سِيقَتْ إليه بِحَذَافِيرِها، وترادَفَت عليه فتوحُها إلى أن تُوفِّي ﷺ ودِرْعُه مرهونَةٌ عند يهوديّ في نفَقَةِ عِياله [البخاري (٢٩١٦)، مسلم (١٦٠٣)].

٣٠٨ ـ وهو يدعو ويقول: **«اللهم! اجعل رِزْقَ آلِ محمدٍ قُوتاً»** [البخاري (٦٤٦٠)، مسلم (١٠٥٥)].

٣٠٩ ـ حدثنا سفيانُ بن العاصي، والحُسين بن محمد الحافظ، والقاضي أبو عَبْدُاللَّه التميمي، قالوا: حدثنا أحمد بن عُمر، قال: حدثنا أبو العباس الرازي، قال: حدثنا أبو أحمد الجُلُودي، حدثنا ابنِ سفيان، حدثنا أبو الحسين: مسلم بن الحجَّاج، حدثنا أبو بكر بن أَبِي شَيْبَة، حدثنا أبو معاوية، عن الأَعْمَش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة؛ قالت: ما شَبِعَ رسولُ الله ﷺ ثلاثة أيامٍ تِبَاعاً من خُبْزِ بُرٍّ حتى مضَى لسبيله [مسلم (٢٩٧٠/٢١)].

٣١٠ ـ وفي رواية أخرىٰ: من خُبْزِ شعير يومين مُتواليين، ولو شاء لأعطاهُ الله ما لا يَخْطُر بِبَالٍ [مسلم (٢٢/٢٩٧٠)].

٣١١ ـ وفي رواية أخرىٰ: ما شَبع آلُ رسولِ الله ﷺ من خُبْزِ بُرٍّ حتى لقِيَ الله تعالى [البخاري (٦٤٥٤)، مسلم (٢٠/٢٩٧٠)].

٣١٢ ـ وقالت عائشة: ما ترك رسولُ الله ﷺ دِيناراً ولا دِرْهَماً ولا شاةً، ولا بعيراً [مسلم (١٦٣٥)].

٣١٣ ـ وفي حديث عَمْرِو بن الحارث: ما ترك إلاَّ سِلاَحه، وَبَغْلَته، وأرضاً جعلها صَدَقَةً [البخاري (٣٠٩٨)].

٣١٤ ـ قالت عائشة: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكلُه ذُو كَبِدٍ إلاَّ شطر شَعِيرٍ في رَفٍّ لي [البخاري (٣٠٩٧)، مسلم (٢٩٧٣)].

٣١٥ ـ وقال لي: «**إني عُرِضَ عليَّ أن تُجْعَلَ لي بَطْحاءُ مكة ذهباً. فقلتُ: لا، يا ربِّ! أجوعُ يوماً وأَشْبَعُ يوماً، فأمَّا اليومَ الذي أجوعُ فيه فأتضرَّعُ إليك وأَدعوك، وأما اليومُ الذي أَشْبَعُ فيه فأَحْمَدك وأُثْنِي عليك**» [الترمذي (٢٣٤٧)، أحمد (٥/٢٥٤)].

٣١٦ ـ وفي حديث آخر: إنَّ جبريل ـ عليه السلام ـ نزل عليه، فقال له: إنَّ الله تعالى يُقْرِئك السلامَ، ويقول لك: أَتُحِب أنْ أَجْعَلَ هذه الجبال ذهباً، وتكونُ معك حيثما كُنْتَ؟ فأطرق ساعةً، ثم قال: «**يا جبريلُ! إنَّ الدنيا دارُ من لا دارَ له، ومالُ مَنْ لا مالَ له، قد يجمَعُها مَنْ لا عَقْلَ له**» فقال له جبريل: ثَبَّتَكَ الله يا محمدُ! بالقول الثابت.

٣١٧ ـ وعن عائشة قالت: إنْ كنَّا آلَ محمد لَنَمْكُثُ شهراً ما نستَوْقِدُ ناراً؛ إنْ هو إلا التَّمرُ والماء [البخاري (٦٤٥٨)، مسلم (٢٩٧٢)].

٣١٨ ـ وعن عبدالرحمن بن عوف: هلك رسولُ الله ﷺ، ولم يشْبَعْ هو وأهلُ بيته من خُبْزِ الشَّعِير.

٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١ ـ وعن عائشة، وأبي أُمَامَةَ، وابن عباس نحوه [الترمذي (٢٣٥٩)، أحمد (٥/٢٥٣)].

٣٢٢ ـ قال ابنُ عباس: كان ﷺ يَبِيتُ هو وأهلُه الليالِيَ المتابعةَ طاوياً لا يجدون عَشاءً.

٣٢٣ ـ وعن أنس: ما أكلَ رسولُ الله ﷺ على خِوَانٍ ولا في سُكُرُّجَةٍ، ولا خُبِزَ له مُرَقَّقٌ، ولا رَأَى شاةً سَمِيطاً قَطُّ.

٣٢٤ ـ وعن عائشة بنت أبي بكر: إنما كان فِرَاشُ رسول الله ـ ﷺ ـ الذي ينامُ عليه أَدَماً حَشْوُهُ لِيفٌ [البخاري (٦٤٥٦)، مسلم (٢٠٨٢)].

٣٢٥ ـ وعن حَفْصةَ قالت: كان فِرَاشُ رسولِ الله ﷺ في بيتي مِسْحاً نَثْنِيهِ ثِنْيَتَيْنِ، فينام عليه، فَثَنَيْنَاهُ ليلةً بأربع، فلما أصبح قال: «ما فَرَشْتُمُولي الليلة؟» فذكَرْنَا ذلكَ له، فقال: «رُدُّوه بحاله، فإن وَطَاءَتَهُ مَنَعَتْنِي الليلةَ صلاتي».

٣٢٦ ـ وكان ﷺ ينامُ أحياناً على سَرِير مَرْمُولٍ بِشَرِيط حتى يُؤثِّرَ في جَنْبِهِ [البخاري (٥١٩١)].

٣٢٧ ـ وعن عائشةَ قالت: لم يمتلىءْ جَوْفُ النبيِّ ﷺ شِبَعاً قطُّ، ولم يَبُثَّ شكوىٰ إلى أَحَدٍ، وكانت الفاقةُ أحبَّ إليه من الغِنَىٰ، وإن كان ليظلُّ جائعاً يَلْتَوِي طولَ ليلته من الجوع فلاَ يَمْنَعُه صيامَ يومه، ولو شاء سأل ربه جميعَ كنوزِ الأرضِ وثمارها ورَغَد عيشها، ولقد كنتُ أبكي رحمةً له ممّا أرَىٰ به، وأَمْسَحُ بيدي على بطنه ممّا به من الجُوعِ، وأقولُ: نَفْسِي لك الفِداءُ؛ لو تبلّغْتَ من الدنيا بما يَقُوتُكَ؟ فيقول: «يا عائشةُ! ما لي وللدُّنيا، إخواني من أُولِي العَزْمِ من الرُّسُلِ صَبَرُوا على ما هو أَشَدُّ مِنْ هذا، فمضَوْا على حالِهِم، فقدِموا على رَبِّهِم، فأَكْرَمَ مَآبَهُمْ، وأَجْزَلَ ثوابهم، فَأَجِدُنِي أَسْتَحيي إِنْ ترفَّهْتُ في معيشتي أنْ يُقَصَّرَ بي غداً دونَهُم، وما مِنْ شيءٍ هو أَحَبُّ إليَّ من اللُّحُوق بإخوانِي وأخِلاَّئي».

قالت: فما أقام بعْدُ إلا شهراً حتى تُوفِّيَ ﷺ.

فصل

فِي خَوْفِهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ، وَطَاعَتِهِ لَهُ، وَشِدَّةِ عِبادَتِهِ

٣٢٨ ـ وأما خَوْفُه ربَّه، وطاعتُه له؛ وشِدَّةُ عبادته، فعلىٰ قَدْرِ عِلْمِه بربِّه، ولذلك قال فيما حدثناه أبو محمد بن عتَّاب قراءةً مني عليه. قال: حدثنا أبو القاسم الطَّرَابُلسيّ، حدثنا أبو الحَسن القابِسيّ، حدثنا أبو زيد المَرْوَزِيُّ، حدثنا أبو عَبْدُاللّه الفَرَبْرِيُّ، حدثنا محمدُ بن إسماعيل، حدثنا يحيىٰ بن بُكَيْر، عن الليث، عن عُقَيْلٍ، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيِّب، أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه كان يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ: «لو تعلمون ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قليلاً وَلَبَكَيْتُمْ كثيراً» [البخاري (٦٤٨٥)].

٣٢٩ ـ زاد في روايتنا، عن ـ أبي عِيسىٰ التِّرمذي ـ رَفَعَه إلى أبي ذَرٍّ: «إِنِّي

أرى ما لاَ تَرَوْنَ، وأَسْمَعُ ما لا تسمعون، أَطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ، ما فيها موضِعُ أربعِ أصابعَ إلاَّ ومَلَكٌ واضِعٌ جبهته ساجداً لله، والله! لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكْتُمْ قليلاً، ولَبَكَيْتُمْ كثيراً، وما تلذَّذْتُمْ بالنساء على الفُرُشِ، ولَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعُداتِ تَجْأَرُونَ إلى الله، لَوَدِدْتُ أَنِّي شجرةٌ تُعْضَدُ» [الترمذي (٢٣١٢)، ابن ماجه (٤١٩٠)، أحمد (١٧٣/٥)].

رُوِيَ هذا الكلامُ: «ودِدْتُ أني شجرةٌ تُعْضَدُ» من قول أبي ذرٍّ نَفْسِه وهو أصحُّ.

٣٣٠ ـ وفي حديث المغيرة: صلّى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قَدَماه [مسلم (٢٨١٩)].

٣٣١ ـ وفي روايةٍ: كان يُصلِّي حتى تَرِمَ قَدَمَاهُ؛ فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا وقد غُفِرَ لكَ ما تقدَّم من ذنبك وما تأَخَّرَ؟ قال: «أفلا أكونُ عَبْداً شكوراً؟» [البخاري (٤٨٣٧، ٦٣٧١)، مسلم (٢٨١٩، ٢٨٢٠/٨٠)].

٣٣٢، ٣٣٣ ـ ونحوه عن أبي سَلَمَة، وأبي هريرة [الترمذي (٢٦٠)، ابن ماجه (١٤٢٠)].

٣٣٤ ـ وقالت عائشة: كان عَمَلُ رسولِ الله ﷺ دِيمَةً، وأَيُّكم يُطِيق ما كان يُطِيق؟! [البخاري (١٩٨٧)،مسلم (٧٨٣)].

٣٣٥ ـ وقالت: كان يَصُومُ حتى نقولَ: لا يُفْطِر. ويُفْطِر حتى نقول: لا يَصُوم [مسلم (١١٥٦/١٧٥)].

٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨ ـ ونحوهُ عن ابن عباسٍ، وأم سَلَمَةَ، وأنسٍ [البخاري (١٩٧١)، مسلم (١١٥٧/١٧٩)، الترمذي (٧٣٦)، أبو داود (٢٣٣٦)، النسائي (٢٠٠/٤)].

٣٣٩ ـ وقال: كُنتَ لا تشاءُ أنْ تَرَاهُ من الليل مُصلِّياً إلا رأيته مُصلياً، ولا نائماً إلا رأيته نائماً [البخاري (١٩٧٢)].

٣٤٠ ـ وقال عَوْف بن مالك: كنْت مع رسول الله ﷺ ليلةً فاستَاكَ ثم توضأ، ثم قام يُصَلِّي، فقُمْتُ معه، فبدأ فاستفتح البقرةَ، فلا يَمُرُّ بآيةِ رَحْمةٍ إلا وقف فسأل، ولا يَمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلاَّ وقف فتعوَّذَ، ثم ركع، فمكث بقَدْرِ قِيامِه، يقول: «سبحانَ ذِي الجَبَرُوت والملكوت والعظمةِ» ثم سَجَد وقال مِثْلَ ذلك؛ ثم قرأ آلَ عمران، ثم سورةً سورةً، يفعلُ مِثْلَ ذلكَ [أبو داود (٨٧٣)، النسائي (١٩١/٢)].

٣٤١ ـ وعن حُذَيْفَة مثلُه، وقال: سَجد نحواً من قِيامه، وجلس بين

السجْدَتَينِ نحواً منه، وقال: حتى قرأ البَقَرةَ، وآل عِمْرانَ، والنساء، والمائدةَ [أبو داود (٨٧٤)].

٣٤٢ ـ وعن عائشة: قام رسولُ الله ﷺ بآيةٍ من القرآن ليلةً [الترمذي (٤٤٨)].

٣٤٣ ـ وعن عَبْدالله بن الشِّخِّيرِ: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي، ولجَوْفِه أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل [أبو داود (٩٠٤)، النسائي (١٣/٣)].

٣٤٤ ـ وقال ابنُ أبِي هَالَةَ: كان رسولُ الله ﷺ مُتواصِلَ الأحزان، دائِمَ الفِكْرَة، ليست له راحَةٌ.

٣٤٥ ـ وقال ﷺ: **«إني لأَستَغفِرُ اللَّهَ في اليوم مئةَ مرة»** [مسلم (٢٧٠٢)].

٣٤٦ ـ ورُوي: **«سبعين مرة»**.

٣٤٧ ـ وعن عليّ رَضي اللَّهُ عنه، قال: سألْتُ رسولَ الله ﷺ عن سُنَّتِه، فقال: **«المعرفةُ رأسُ مَالِي، والعَقْلُ أصلُ ديني، والحبُّ أساسي، والشوقُ مَرْكَبي، وذِكْرُ اللَّهِ أَنيسي، والثقةُ كَنْزِي، والحُزْنُ رفيقي، والعِلْمُ سِلاَحي، والصَّبْرُ رِدائي، والرضا غَنِيمتي، والفقر فَخْري، والزُّهْدُ حِرْفَتي، واليقينُ قُوَّتي، والصِّدْقُ شَفِيعي، والطاعةُ حَسْبِي، والجِهادُ خُلقي، وقُرَّةُ عيني في الصلاة»**.

٣٤٨ ـ وفي حديث آخر: **«وثَمرةُ فؤادي في ذِكْره، وغَمِّي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربّي»**.

فصل
فِي صِفَاتِ الأَنْبِيَاء وَالرُّسُلِ مِنْ كَمَالِ الخَلْقِ وَحُسْنِ الْخُلُق وَشَرَفِ النسب

قال المؤلف رحمه الله:

اعلم، وفّقنا اللَّهُ وإيّاك! أنَّ صفاتِ جميع الأنبياءِ والرسل ـ صلواتُ الله عليهم ـ من كمال الخَلْقِ، وحُسْنِ الصُّورة، وشَرفِ النسب، وحُسنِ الخُلُق، وجميع المحاسِن، هي هذه الصفة؛ لأنها صفاتُ الكمالِ، والكمالُ والتمامُ البَشرِيّ والفَضل الجميعُ لهم، صلواتُ الله عليهم؛ إذ رُتْبَتُهم أشرفُ الرتَب، ودرجاتُهم أرفعُ الدرجات، ولكِنْ فَضلَ اللَّهُ بعضَهم على بعض؛ قال اللَّهُ تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢].

٣٤٩ ـ وقد قال ﷺ: «**إنَّ أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صُورة القمر ليلةَ البدْر**». قال آخِرَ الحديث: «**على خَلْقِ رجلٍ واحد، على صُورة أبيهم آدم ﷺ، طولُه ستون ذِراعاً في السماء**» [البخاري (٣٣٢٧)، مسلم (١٥/٢٨٣٤)].

٣٥٠ ـ وفي حديث أبي هُريرة: «**رأيتُ موسىٰ فإذا هو رجُلٌ ضَرْبٌ، رَجِلٌ، أقنىٰ، كأنه مِنْ رجال شَنُوءَة. ورأيتُ عيسى فإذا هو رجلٌ رَبْعَةٌ، كثيرُ خِيلانِ الوجه، أحمرُ، كأنما خَرج مِنْ دِيمَاس**» [البخاري (٣٣٩٤)، مسلم (١٦٨)].

٣٥١ ـ وفي حديث آخر: «**مُبَطَّنٌ مِثْلُ السيف**» [أحمد (٣٧٤/١)].

٣٥٢ ـ قال: «**وأنا أشْبَهُ وَلَدِ إبراهيم به**».

٣٥٣ ـ وقال في حديثٍ آخر في صِفة موسى: «**كأَحسنِ ما أنتَ راءٍ من أُدْمِ الرِّجال**» [البخاري (٥٩٠٢)، مسلم (١٦٩)].

٣٥٤ ـ وفي حديث أبي هُريرة، عنه ﷺ: «**ما بعث اللّهُ تعالى من بَعْدِ لوطٍ نبياً إلا في ذُرْوَةٍ من قومه**» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٥٣٣/٢)].

٣٥٥ ـ ويروى: «**في ثَرْوَةٍ**» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٣٣٢/٢)] أي: كَثْرةٍ وَمَنَعةٍ.

٣٥٦، ٣٥٧ ـ وحكى الترمذي، عن قتادة. ورواه الدّارَقُطْني من حديث قَتادة عن أنس: ما بعث اللّهُ نبيّاً إلا حسنَ الوَجْهِ، حسنَ الصوت، وكان نبيُّكم ﷺ أَحْسَنَهُمْ وَجْهاً، وأحسنَهم صوتاً.

٣٥٨ ـ وفي حديث هِرَقْل: وسألتُكَ عن نَسَبِه، فذكرْتَ أنه فيكم ذو نَسبٍ، وكذلك الرسلُ تُبْعَثُ في أنساب قومها.

وقال تعالى ـ في أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥].

وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وقال ـ في نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ

ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

وقـــال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

وقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

٣٥٩ ـ وقال النبيّ ﷺ: «**كانَ موسى رجُلاً حَيِيّاً، سَتِيراً، ما يُرى مِنْ جَسده شيءٌ استحياءً**» الحديث. [البخاري (٣٤٠٤)، مسلم (٣٣٩/١٥٦)].

وقال تعالى ـ عنه: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقال في وَصْفِ جماعةٍ منهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧].

وقال: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠].

فوصفَهم بأوصافٍ جَمّةٍ من الصَّلاح والهُدَى والاجتباء والحُكْم والنبوّة.

وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] عليم، وحليم.

وقـــال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان: ١٧، ١٨].

وقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وقـال ـ فـي إسـمـاعـيـل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال ـ في موسى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١].

وفي سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقـــال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

وفي داود: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

ثم قال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

وقال ـ عن يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

وفي موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وقال تعالى ـ عن شُعَيب عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

وقـــال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال سفيان: هو الحُزنُ الدائم.

في آيٍ كثيرة، ذكر فيها مِنْ خِصالهم ومَحاسِن أخلاقهم الدَّالةِ على كَمالهم.

٣٦٠ ـ وجاء مِنْ ذلك في الأحاديث كثير، كقوله: «**إنما الكريمُ ابنُ الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نَبِيٌّ ابن نبيٍّ ابن نبيٍّ ابن نَبِيٍّ**» [البخاري (٣٣٩٠)، الترمذي (٣١١٦)].

٣٦١ ـ وفي حديث أنس: «**وكذلك الأنبياءُ تنامُ أعْيُنهم ولا تنام قلوبُهم**» [البخاري (٣٥٧٠)، مسلم (١٦٢/٢٦٢)].

٣٦٢ ـ ورُوي أنَّ سليمان كان ـ مع ما أُعْطِيَ من المُلْك ـ لا يرفعُ بصره إلى السماء تخشُّعاً وتواضُعاً لله تعالى.

٣٦٢م ـ وكان يُطْعِمُ الناسَ لذائذَ الأطعمةِ ويأكل خُبْزَ الشَّعِير.

وأَوْحى اللَّهُ إليه: يا رَأسَ العابِدِين! وابْنَ مَحَجَّة الزاهدين.

وكانت العجوزُ تَعْترِضُه ـ وهو على الرِّيحِ في جنوده ـ فيأمر الريحَ فتقِفُ فينظر في حاجتها ويَمْضِي.

وقيل ليوسفَ: ما لكَ تجُوعُ وأنتَ على خزائنِ الأَرْضِ؟ قال: أخاف أَنْ أَشْبَع فأَنْسَى الجائع.

٣٦٣ ـ وروى أبو هريرة عنه ﷺ: «**خُفِّفَ على داوُدَ القرآنُ، فكانَ يَأْمُرُ**

بدوابّه، فتُسْرَج، فيقرأ القُرآنَ قبل أَنْ تُسرَج، ولا يأكل إلا مِنْ عَمَل يدِه» [البخاري (٣٤١٧)].

قال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وكان سأل رَبَّه أَنْ يَرْزُقَهُ عَمَلاً بيدِهِ يُغْنِيه عن بَيْتِ المالِ.

٣٦٤ ـ وقال ﷺ: **«أَحَبُّ الصلاةِ إلى اللَّهِ صلاةُ داود، وأَحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود: كانَ ينامُ نِصْفَ الليل، ويقوم ثُلُثَهُ، وينامُ سُدُسَهُ، ويصومُ يوماً ويفطرُ يوماً»** [البخاري (١١٣١)، مسلم (١١٥٩/١٨٩)].

٣٦٥ ـ وكان يلْبَسُ الصوفَ، ويفترشُ الشَّعَر، ويأكل خُبْزَ الشعير بالمِلْح والرماد، ويَمْزُجُ شرابَه بالدموع، ولم يُرَ ضاحكاً بَعْدَ الخَطِيئة.

٣٦٥م ـ ولا شاخِصاً ببصره إلى السماء، حَيَاءً من رَبّه، ولم يزل باكياً حياتَه كلها.

٣٦٦ ـ وقيل: بَكَى حتى نبت العُشْبُ من دموعه، وحتى اتخذت الدموعُ في خَدِّه أُخْدُوداً.

وقيل: كان يخرجُ متنكِّراً يتعرَّفُ سيرتَه، فيستمع الثناء عليه، فيزداد تواضُعاً.

٣٦٧ ـ وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذْتَ حِمَاراً؟ قال: أنا أكرمُ على اللَّهِ مِنْ أن يشغلني بحِمَار.

٣٦٨ ـ وكان يلبس الشَّعر، ويأكل الشَّجَر، ولم يكن له بيت، أينما أدركه النومُ نام.

٣٦٩ ـ وكان أَحَبُّ الأسماءِ إليه أنْ يُقال له: مِسْكِين.

٣٧٠ ـ وقيل: إنّ موسى ـ عليه السلام ـ لما وردَ ماء مَدْيَنَ كانت تُرَى خُضْرَةُ البَقْلِ في بطنه من الهُزَال.

٣٧١ ـ وقال ﷺ: **«لقد كان الأنبياءُ قبلي يُبْتَلى أحدُهم بالفقر والقَمْلِ، وكان ذلك أَحَبَّ إليهم من العطاء إليكم»**.

وقال عيسى عليه السلام ـ لِخنزِير لَقِيه: اذهب بسلام. فقيل له في ذلك فقال: أَكْرَهُ أنْ أُعَوِّدَ لساني المنطقَ بسوء.

٣٧٢ ـ وقال مجاهد: كانَ طعامُ يحيى العُشْبَ.

وكان يَبْكي من خشية اللَّهِ تعالى حتى اتخذ الدمعُ مَجْرى في خدّه.

٣٧٣ ـ وكان يأكلُ مع الوَحْشِ لئلا يُخَالِطَ النَّاسَ.

وحكى الطبريُّ، عن وَهْبٍ، أنَّ موسى كان يستظلُّ بعَرِيشٍ، ويأكل في نُقْرَةٍ من حَجَر، ويَكْرَعُ فيها إذا أراد أن يشرب كما تَكْرَع الدابّةُ، تواضعاً لله بما أكرمه اللّهُ به من كلامِه.

وأخبارُهم في هذا كلِّه مسطورةٌ، وصفاتُهم في الكمالِ وجميل الأخلاق، وحسْنِ الصُوَر والشمائلِ معروفةٌ مشهورةٌ؛ فلا نُطَوِّلُ بها، ولا نَلْتَفتُ إلى ما نجدُه في كتُب بعضِ جهلةِ المؤرخين والمُفسِّرينَ مما يخالِفُ هذا.

فصل
فِي حَدِيثِ هِندِ بنِ أَبِي هَالَةَ وَعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ فِي شَمَائِلِهِ ﷺ

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ:

قد أتيناك ـ أكرمك الله ـ من ذِكْرِ الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصالِ الكمالِ العديدة، وأَرَيناكَ صحَّتها له ﷺ، وجَلبنا من الآثار ما فيه مَقْنَع، والأمرُ أوسع؛ فمجَالُ هذا الباب في حقّه ﷺ مُمْتَدٌّ، تَنْقَطِعُ دون نَفَادِهِ الأَدِلاَّءُ، وبَحْر عِلْمِ خصائصهِ زاخِرٌ لا تُكَدِّرُه الدِّلاَءُ، ولكنا أتينا فيه بالمعروف، مما أكْثَره في الصحيح والمشهورِ من المصنَّفات؛ واقتصرنا في ذلك بِقُلٍّ من كُلٍّ، وغَيْضٍ من فَيضٍ، ورأينا أَنْ نَخْتِمَ هذه الفصول بحديثِ الحسن، عن ابن أبي هَالَةَ، لجَمْعِه من شمائله وأوصافِه كثيراً، وإدماجِه جُمْلةً كافيةً من سِيَره وفضائله، ونَصِلُه بتنبيهٍ لطيفٍ على غَرِيبه ومُشْكله.

٣٧٤ ـ حدثنا القاضي أبو علي: الحُسَين بن محمد الحافظ ـ رحمه الله ـ بقراءتي عليه سنةَ ثمانٍ وخمسِ مئةٍ، قال: حدثنا الإمامُ أبو القاسم: عبداللّه بن طاهر التميميُّ، قرأتُ عليه: أَخبركم الفقيهُ الأديبُ أبو بكر: محمد بن عبداللّه بن الحسن النيسابوري، والشيخُ الفقيهُ أبو عبداللّه: محمد بن أحمد بن الحَسن المُحمَّدي، والقاضي أبو علي: الحسَنُ بن علي بن جعفر الوَخْشِيّ؛ قالوا: حدثنا أبو القاسم: عليّ بن أحمد بن محمد بن الحسن الخُزَاعي، قال: أخبرنا أبو سعيد: الهَيْثم بن كُليب الشاشي، قال: أخبرنا أبو عيسىٰ: محمد بن سَوْرَة الحافظ؛ قال: حدثنا سُفْيَان بن وَكِيع، حدثنا جُميع بن عُمَيْرِ بنِ عبدالرحمن العِجْلي إملاءً من كتابه؛ قال: حدثني رجل من بني تميم من وَلَدِ أبي هالَةَ: زَوجِ خديجةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبداللّه، عن ابنٍ لأبي هَالَةَ، عن

الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال: سألتُ خاليَ هِندَ بن أبي هالةَ.

١/٣٧٤ ـ قال القاضي أبو علي ـ رحِمَه الله ـ: وقرأتُ على الشيخ أبي الطاهر: أحمد بن الحسن بن أحمد بن خُذَاداذ الكَرجِيِّ الباقِلاّني؛ قال: وأجاز لنا الشيخ الأجلّ أبو الفضل: أحمد بن الحسين بن خَيْرُون؛ قالا: أخبرنا أبو علي: الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بنِ شاذَان بن حَرْب بن مِهْرَان الفارسي قراءةً عليه، فأقَرّ به، قال: أخبرنا أبو محمد: الحسنُ بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جَعْفر بن عبيدالله بن الحُسَين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العَلَوي، قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: حدثني عليّ بن جعفر بن محمد بن علي بن الحُسين، عن أخيه موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: محمد بن علي، عن علي بن الحُسين، قال: قال الحسن بن عليّ ـ واللفظ لهذا السَّنَد ـ سألتُ خالي هِنْدَ بن أبي هالةَ عن حِلْيَة رسول الله ﷺ ـ وكان وصَّافاً ـ وأنا أَرْجُو أنْ يصِف لي منها شيئاً أتعلَّقُ به، قال:

كان رسولُ الله ﷺ فَخماً مُفَخَّماً، يتلألأ وجْهُه تلألُؤ القمر ليلَة البَدْر، أطولَ من المَرْبُوع، وأقصرَ من المشذَّب، عظيم الهامةِ، رَجِلَ الشَّعْرِ؛ إن انفرقَتْ عَقِيقتُه فَرَق، وإلاّ فلا يجاوزُ شَعره شَحْمَة أذُنَيه، إذا هو وفَّرَه، أزْهَرَ اللون، واسعَ الجَبينِ، أزَجَّ الحواجب، سوابغَ، من غير قَرَنٍ، بينهما عِرْقٌ يُدِرُّه الغَضَبُ، أقْنَى العِرْنِيْنِ، له نُورٌ يَعْلُوه، ويَحْسِبه مَنْ لم يتأمَّلْه أشَمَّ، كَثَّ اللِّحية، أدْعَجَ، سَهْلَ الخدَّين، ضَلِيعَ الفم، أشْنَبَ، مُفَلَّجَ الأسْنَان، دَقِيقَ المَسْرُبة، كأنَّ عُنقه جِيدُ دُمْية، في صفاءِ الفِضّة، مُعْتَدِلَ الخَلْقِ، بادِناً، مُتَمَاسكاً، سَواءَ البَطْنِ والصَّدْرِ، مُشِيحَ الصَّدْر، بَعِيدَ ما بين المَنكِبَيْن، ضَخْمَ الكَرَادِيس، أنْوَرَ المُتَجرَّدِ، موصولَ ما بين اللَّبَّةِ والسُّرَّة بشَعرٍ يَجْري كالخطِّ، عَارِيَ الثديَيْنِ ما سِوَى ذلك، أشْعَرَ الذِّرَاعين والمَنكِبين وأعَالي الصدر، طويلَ الزَّنْدَيْن، رَحْبَ الراحةِ، شَثْنَ الكفَّيْنِ والقَدَمين، سائلَ الأطراف، سَبْطَ القَصَبِ، خُمْصَانَ الأخْمَصَيْن، مَسِيحَ القدَمين، يَنْبُو عنهما الماءُ، إذا زال زال تَقَلُّعاً، ويخطو تكفُّؤاً، ويمشي هَوْناً، ذَرِيعَ المِشْيَة، إذا مشى كأنما يَنْحَطُّ من صَبَبٍ، وإذا التفت التفت جميعاً، خافِضَ الطَّرْفِ، نَظَرُه إلى الأرض أطولُ مِنْ نظرِه إلى السماء، جُلُّ نظرِه الملاحظةُ، يسوقُ أصحابَه، ويبدأ مَنْ لقِيَهُ بالسلام.

قلت: صِفْ لي مَنْطِقَهُ.

قال: كانَ رسولُ الله ﷺ متواصلَ الأحزانِ، دائمَ الفِكْرَة، ليست له راحةٌ، ولا يتكلَّمُ في غير حاجةٍ، طويلَ السكوت، يفتتح الكلامَ ويختمه بأَشْدَاقِه، ويتكلَّم بجَوَامع الكلِم، فَصْلاً، لا فُضُولَ فيه ولا تَقْصيرَ، دَمِثاً، ليس بالجافي ولا المُهِين، يُعَظِّم النِّعمَةَ وإن دقَّتْ، لا يذمُّ شيئاً، ولم يكن يذمُّ ذَوَاقاً، ولا يمدَحُه، ولا يُقَامُ لغضَبه إذا تُعرِّضَ للحق بشيءٍ حتى ينْتَصِرَ له، ولا يغضَبُ لنفسه، ولا يَنْتَصِرُ لها، إذا أشار أشار بكفِّه كلِّها، وإذا تعجَّب قَلَبَها وإذا تحدَّثَ اتَّصَل بِها، فضرب بإبْهَامه اليمين راحتَه اليسرى، وإذا غضب أَعرضَ وأَشَاح، وإذا فرح غَضَّ طَرْفَهُ، جُلُّ ضحِكه التبسُّم، ويَفْتَرُّ عن مِثْلِ حَبِّ الغَمَام.

قال الحَسَن: فكتَمْتُها الحُسَين بن علي زماناً، ثم حدَّثْتُه فوجدْتُه قد سبقني إليه، فسأل أَباه عن مَدْخل رسولِ الله ﷺ ومَخْرجه ومَجْلسه وشَكْله، فلم يَدَعْ منه شيئاً.

قال الحسين: سألتُ أبي عن دخولِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال:

كان دخولُه لنفسه، مأذوناً له في ذلك، فكان إذا أَوَى إلى منزله جزَّأَ دخوله ثلاثةَ أجزاء: جُزءاً لله تعالىٰ، وجُزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزَّأَ جُزْأَهُ بينه وبين الناس، فيردُّ ذلك على العامَّةِ بالخاصة، ولا يدَّخِرُ عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جُزْءِ الأمَّة إيثارُ أهلِ الفَضْل بإذْنِه وَقسمِهِ على قَدْرِ فَضْلهم في الدِّين؛ منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجَتَيْنِ، ومنهم ذو الحَوَائج، فيتشاغل بهم، ويَشْغَلُهم فيما أصلحهم والأُمَّةَ، مِنْ مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم؛ ويقول: **«لِيُبَلِّغِ الشاهدُ منكم الغائب، وأَبْلغوني حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ إبلاغي حاجتَه، فإنه مَنْ أبلَغ سلطاناً حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغها ثبَّت اللّهُ قدميه يوم القيامة»**. لا يُذْكر عنده إلا ذلك، ولا يَقْبَلُ مِنْ أحد غيره.

وقال ـ في حديث سُفْيان بن وَكِيع ـ: يدخلون رُوَّاداً، ولا يتفرَّقُون إلاَّ عن ذَوَاق، ويخرجون أدِلَّة، يعني: فقهاء.

قلتُ: فأخبرني عن مَخْرَجه، كيف كان يصنَعُ فيه؟

قال: كان رسولُ الله ﷺ يَخْزُنُ لسانه إلاَّ فيمَا يَعْنِيهم، ويُؤلِّفُهم ولا يُفَرِّقهم؛ يُكرِم كريمَ كلِّ قوم، ويُوليِّه عليهم، ويُحَذِّرُ الناسَ، ويحترس منهم، من غير أَنْ يَطْويَ عن أحد بِشْرَهُ وخُلُقه، ويتفقَّدُ أصحابَه، ويسأل الناسَ عمَّا في الناس، ويحسِّنُ الحسَنَ ويُصَوِّبه، ويقَبِّحُ القبيحَ ويُوهِّنُه، معتدلَ الأمرِ غير

مختلف، لا يَغْفُل مخافة أَنْ يغفلوا أو يَملُّوا، لكل حالٍ عنده عَتاد، لا يُقَصِّرُ عن الحق، ولا يجاوزُه إلى غيره، الذين يَلُونَهُ من الناس خِيَارُهم، وأفضلُهم عندهُ أَعمُّهم نصيحةً؛ وأعظمُهم عنده منزلةً أحسنُهم مواساةً وموازرةً.

فسألتُه عن مَجْلِسه: عَمّا كان يَصْنَعُ فيه؟

فقال: كان رسولُ الله ﷺ لا يجلس ولا يَقُومُ إلاَّ على ذِكْر، ولا يُوطِنُ الأماكنَ، ويَنْهَى عن إِيطَانِها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيثُ يَنْتَهِي به المجلسُ، ويَأْمُرُ بذلك، ويُعطِي كلَّ جُلسَائه نَصِيبَهُ حتى لا يَحْسَبَ جَلِيسُه أَنَّ أحداً أَكْرَمُ عليه منه، مَنْ جالسه، أو قَاوَمَهُ لحاجةٍ، صابَرَهُ حتى يكونَ هو المُنْصَرِفَ عنه.

مَنْ سأله حاجةً لم يردّه إلا بها، أو بمَيْسُورٍ من القول. قد وسِعَ الناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُهُ؛ فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواءً متقارِبين متفاضلين فيه بالتقوى.

وفي الرواية الأُخرى: صاروا عنده في الحقّ سواءً، مَجْلِسُه مجلسُ حِلْم وحياءٍ، وصَبْرٍ وأمانة؛ لا تُرْفَعُ فيه الأصواتُ، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَم، ولا تُنْثَىَ فَلَتاتُه، وهذه الكلمة، من غير الروايتين.

يتعاطفون فيه بالتقوى، مُتَواضعين، يُوَقِّرونَ فيه الكبير، ويرحمون الصغير، وَيَرْفِدون ذا الحاجةِ، ويرحمون الغريب.

فسألتُه عن سيرته ﷺ في جلسائه؟

فقال: كان رسولُ الله ﷺ دائِمَ البِشر، سَهلَ الخُلُق، ليِّنَ الجانب، ليس بِفَظٍّ ولا غَلِيظ، ولا سَخَّاب، ولا فَحّاش، ولا عَيّاب ولا مَدَّاح، يتغافَلُ عما لا يَشْتَهِي، ولا يُؤيِس منه، قد ترك نَفْسَه مِنْ ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يَعْنِيه؛ وَتَرَكَ الناسَ من ثلاث: كان لا يذُمُّ أحداً، ولا يُعَيِّرُه، ولا يطلب عَوْرَته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابَه، إذا تكلَّم أطرقَ جلساؤه كأنما على رُؤُوسِهِم الطَّيْر، وإذا سكت تكلَّموا، ولا يتنازَعُون عنده الحديث. مَنْ تكلَّم عنده أَنْصَتُوا له حتى يَفْرُغ، حديثُهم حديثُ أَوَّلهم، يضحكُ مِمّا يَضْحكون منه، ويعجبُ مما يتعجّبون منه، ويصبِرُ للغريب على الجَفْوَة في المنطق، ويقول: «**إذا رأيْتُم صاحب الحاجة يطلبها فأَرْفِدُوه**» ولا يطلب الثناءَ إلاّ مِنْ مُكَافىء، ولا يقطعُ على أحد حديثَه حتى يتجوَّزَهُ فيقطعُه بانتهاءٍ أو قِيام.

هنا انتهى حديثُ سفيان بن وكيع.

وزاد الآخر: قلتُ: كيف كان سكوتُه ﷺ؟

قال: كان سكوته على أربع: على الحِلْم، والحذَر، والتقدير، والتفكر، فأما تقديرُه ففي تَسْوية النظَرِ والاستماع من الناسِ، وأمَّا تفكُّره ففيما يَبْقى ويَفْنَى.

وجُمِعَ له الحِلْمُ ﷺ في الصبر، فكان لا يُغضِبُه شيء يستفزُّه، وجُمِعَ له في الحذَرِ أربعٌ: أَخْذُه بالحسَنِ ليُقْتَدى به، وتَرْكُه القَبِيحَ ليُنْتَهَى عنه، واجتهادُ الرَّأْيِ بما أصلح أمَّته، والقيامُ لهم بما جمع لهم من أمر الدنيا والآخرة.

انتهى الوصف بحَمْدِ اللّٰهِ وعَوْنه تعالى.

فصل

فِي تَفْسِيرِ غَرِيبِ هٰذا الحَدِيثِ وَمُشْكِلِهِ

قوله: **المُشَذَّب**: أي البائن الطُّول في نحافة.

٣٧٥ ـ وهو مثْلُ قوله في الحديث الآخر: «ليس بالطَّويلِ المُمَّغِط».

والشَّعْر الرَّجِل: الذي كأنه مُشِط فتكَسَّر قليلاً؛ ليس بسَبْطٍ ولا جَعْد.

والعَقِيقةُ: شعر الرأس، أراد: إن انفرقَتْ مِنْ ذاتِ نفسها فَرَقها، وإلاَّ تركها مَعْقُوصةً. ويُرْوَى: «عَقِيصَته».

وأزهر اللَّوْن: نَيِّره. وقيل: أزهر: حَسَن. ومنه زَهْرَة الحياةِ الدنيا، أي زينتُها.

٣٧٦ ـ وهذا كما قال في الحديث الآخر: ليس بالأبيض الأمْهَق، ولا بالآدَمِ [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].

والأَمْهَقُ: هو الناصع البياض. **والآدَم**: الأسمر اللّون.

٣٧٧ ـ ومثلُه في الحديث الآخر: أَبيض مُشْرَب. أي فيه حُمْرةٌ.

والحاجِبُ الأَزَجُّ: المقوَّس الطويل الوافِر الشعر.

والأَقْنَى: السائل الأَنْفِ، المرتفع وَسَطه.

والأَشَمُّ: الطويل قَصَبة الأنف.

والقَرَن: اتّصالُ شَعر الحاجِبين. وضدّه البَلَج.

٣٧٨ ـ ووقع في حديث أُمِّ مَعْبَدٍ وصْفُه بالقَرَن.

والأَدْعَجُ: الشديد سَوادِ الحَدَقة.

٣٧٩ ـ وفي الحديث الآخر: «أَشْكَل العَيْنِ» [مسلم (٢٣٣٩)] و«أَسْجَرَ العَيْنِ»، وهو الذي في بياضها حُمْرة.

والضَّلِيع: الوَاسِع.

والشَّنَبُ: رَوْنَقُ الأسنان، وماؤها.

وقيل: رِقَّتُها وتحزيزٌ فيها كما يُوجَدُ في أسنانِ الشبابِ.

والفَلَجُ: فَرْقٌ بين الثنايا.

ودَقِيقُ المَسْرُبَة: خيط الشعر الذي بين الصّدْرِ والسُّرَّة.

بادِن: ذو لَحْم.

ومُتَماسِكٌ: معتدل الخَلْقِ، يمسِكُ بعضُه بعضاً.

٣٨٠ ـ مثل قوله في الحديث الآخر: «لم يكن بالمُطَهَّم، ولا بالمُكَلْثَم» أي ليس بمسْتَرْخِي اللحم.

والمُكَلْثَم: القَصِير الذقن.

وسَوَاء البطن والصّدْرِ: أي مستويهما.

ومُشِيح الصَّدْرِ: إنْ صحت هذه اللفظةُ فتكون من الإقبال، وهو أحد معاني «أشاح»؛ أي أنه كان بادِيَ الصَّدْرِ، ولم يكن في صدره قَعَس، وهو تَطَامُنٌ فيه، وبه يتَّضِح قولُه قبل: **«سَوَاءَ البَطْن والصدر»** أي ليس بمُتقاعس الصَّدْرِ، ولا مُفَاضِ البَطْنِ.

ولعل اللفظة: مَسِيح ـ بالسين ـ وفتح الميم، بمعنى عَرِيض، كما وقع في الرواية الأخرى. وحكاهُ ابْنُ دُرَيد.

والكَرَادِيس: رؤوس العِظَام.

٣٨١ ـ وهو مثلُ قوله في الحديث الآخر: جَلِيل المُشَاش والْكَتَدِ.

والمُشَاش: رؤوس المناكب. والكَتَد: مجتمع الكتفين.

وشَثْنُ الكَفَّين والقدمين: لَحِيمُهُمَا.

والزَّنْدَان: عَظْما الذرَاعين.

وسائل الأطراف: أي طويل الأصابع.

وذكر ابْنُ الأنباري أنه رُوي: سائل الأطراف؛ وقال: ساين ـ بالنون؛ قال: وهُما بمعنًى، تُبْدَل اللام من النون، إنْ صحت الروايةُ لها.

وأما الرواية الأخرى: **«وسائر الأطراف»** فإشارة إلى فخامة جَوَارِحه، كما وقعت مُفَصَّلةً في الحديث.

ورَحْب الراحة: أي واسِعها. وقيل: كنًى به عن سعة العَطاء والجُود.

وخُمصَان الأَخْمَصَيْنِ: أي مُتَجافِي أَخْمص القَدَم؛ وهو الموضعُ الذي لا تنالُه الأرضُ من وسط القَدَم.

مَسِيح القَدَمين: أي أملسهما، ولهذا قال: يَنْبُو عنهما الماء.

٣٨٢ ـ وفي حديث أبي هُريرة خلافُ هذا؛ قال فيه: إذا وطِىءَ بقدمه وَطِىءَ بكُلِّها، ليس له أَخْمَص.

وهذا يوافِقُ معنى قوله: مَسِيح القَدَمين، وبه قالوا: سُمِّيَ المسيح عيسى ابن مريم، أي إنه لم يكن له أَخْمَص.

وقيل: مَسيح: لا لحم عليهما.

وهذا أيضاً يخالفُ قوله: شَثْنَ القَدَمين.

والتقلُّع: هو رَفْع الرِّجْلين بقُوَّة.

والتَكَفُّؤ: الميل إلى سَنَنِ المَشْي، وقَصْده.

والهَونُ: الرِّفْق والوَقَار.

والذَّرِيع: الواسع الخَطْو؛ أي: إنّ مَشْيَه كان يرفَعُ فيه رجليه بسرعة، ويمدّ خَطْوَه، خلاف مِشْيَةِ المُخْتال، ويقصِدُ سَمْتَه؛ وكل ذلك بِرفْقٍ وتثبُّت دون عَجَلة، كما قال: **«كأنما يَنحطُّ مِنْ صَبَبٍ»**.

وقوله: **يَفْتتح الكلام ويختمه بأشداقه**: أي لسعَةِ فَمِه. والعربُ تتمادحُ بهذا وتَذُمُّ بصِغَر الفم.

وأشاح: مال وانقبض.

وَحَبُّ الغَمَام: البَرَد.

وقوله: **فيردّ ذلك بالخاصة على العامة**؛ أي جعل من جُزْءِ نفسه ما يُوصِّل الخاصةَ إليه فتُوَصِّلُ عنه للعامّة.

وقيل: يجعل منه للخاصة، ثم يُبْدلها في جُزْءٍ آخر بالعامة.

ويدخلون رُوَّاداً: أي محتاجين إليه، وطالبين لما عنده.

ولا يتفرقون إلا عن ذَوَاق: قيل: عن عِلْمٍ يتعلمونه؛ ويُشْبِهُ أن يكونَ على ظاهره، أي في الغالب والأكثر.

والعَتَاد: العُدَّة، والشيء الحاضر المُعَدّ.

والمُوازرة: المعاونة.

وقوله: **لا يُوطِن الأماكن**: أي لا يتخذ لمُصَلاّه موضعاً معلوماً.

٣٨٣ ـ وقد وردَ نَهْيُهُ عن هذا مفسَّراً في غير هذا الحديث [أبو داود (٨٦٢)، النسائي (٢/٢١٤)، ابن ماجه (١٤٢٩)، أحمد (٥/٤٤٧)].

وصابَرَه: أي حبس نَفْسه على ما يريدُ صاحبُه.

ولا تُؤْبَن فيه الحُرَم: أي لا يُذْكَرْنَ فيه بسُوء.

ولا تُنثَى فَلَتاته: أي لا يُتَحدَّثُ بها؛ أي لم تكن فيه فَلْتَةٌ، وإن كان من أَحَدٍ سُتِرَتْ.

ويَرْفِدون: يُعِينون.

والسَّخَّاب: الكثير الصِّيَاح.

وقوله: **ولا يَقْبَلُ الثناءَ إلا من مُكَافِىء**. قيل: مقتصد في ثنائه ومَدْحِه.

وقيل: إلاَّ مِنْ مسلم.

وقيل: إلا من مُكافىء على يَدٍ سبقت من النبي ﷺ له.

ويستفِزُّه: يستخفُّه.

٣٨٤ ـ وفي حديث آخر في وصْفِه: «**مَنْهوسَ العَقِب**» [مسلم (٢٣٣٩)]؛ أي قليلُ لَحْمها.

٣٨٤م ـ وأَهْدَب الأشفار: أي طويل شَعرها. انتهى والله حسبنا.

الباب الثالث

فِيمَا وَرَدَ مِنْ صَحِيْحِ الأَخْبَارِ وَمَشْهُورِهَا بِعَظِيْمِ قَدْرِه عِنْدَ رَبِّهِ وَمَنْزِلَتِهِ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِيْ الدَّارَيْنِ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ

لا خلافَ أنه أكرَمُ البشر، وسيّدُ وَلَدِ آدم، وأفضلُ الخلق عند الله وأعلاهم دَرَجةً، وأقربهم زُلفى.

واعلم أنَّ الأحاديثَ الواردة في ذلك كثيرة جداً، وقد اقتصرنا منها على صَحِيحِها ومُنْتَشِرها، وحَصَرْنا معانِيَ ما ورد منها في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول

فِيمَا وَرَدَ بذِكْر مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالاصْطِفَاءِ، وَرِفْعَةِ الذِّكْرِ والتفضِيل وَسِيَادَةِ وَلَدِ آدمَ، وما خَصَّهُ بِهِ في الدُّنيا مِنْ مَزَايا الرُّتَب وبَرَكَةِ اسْمِهِ الطَّيِّبِ

٣٨٥ ـ أخبرنا الشيخ أبو محمد: عَبْداللَّه بن أحمد العَدْل إذْناً بلفظه؛ قال: حدثنا أبو الحَسَن الفَرْغاني، حدثتنا أُمُّ القاسم بنت أبي بكر بن يعقوب، عن أبيها قال: حدثنا حاتم، وهو: ابن عَقِيل، عن يحيى، هو: ابن إسماعيل، عن يحيى الحِمَّاني، حدثنا قيس، عن الأعمش، عن عَبَايَة بن رِبْعِيّ، عن ابن عباس؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ قسم الخَلقَ قِسْمَينِ، فجعلني مِنْ خيرهم قِسْماً؛ فذلك قولُه تعالى:** ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]. **فأنا من أصحابِ اليمين؛ وأنا خيرُ أصحابِ اليمين»**.

ثم جعل القسمين أثلاثاً؛ فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ٨ ـ ١٠]. فأنا مِن السابقين، وأنا خَيرُ السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائلَ؛ فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فأنا أتقى وَلدِ آدم، وأكرمُهم على الله، ولا فَخرَ.

ثم جعل القبائلَ بيوتاً، فجعلني في خَيرها بَيتاً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾» [الأحزاب: ٣٣].

٣٨٦ ـ وعن أبي سَلَمة، عن أبي هُريرة، قال: قالوا: يا رسولَ الله! متى وجبَتْ لكَ النبوّة؟ قال: «وآدمُ بين الرُّوح والجسد» [الترمذي (٣٦٠٩)].

٣٨٧ ـ وعن وَاثِلَة بن الأَسْقَع قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ اصطفى من ولَد إبراهيم إسماعيلَ. واصطفى من ولدِ إسماعيل بني كِنَانَة، واصطفى من بني كِنَانة قُرَيشاً، واصطفى من قُرَيش بني هاشم، واصطفاني مِنْ بني هاشم».

٣٨٨ ـ ومن حديث أَنَس: «أَنَا أَكْرَمُ ولدِ آدم على رَبّي، ولا فَخرَ».

٣٨٩ ـ وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه: «أنا أَكْرَمُ الأوّلين والآخِرين، ولا فَخرَ» [الترمذي (٣٦١٦)].

٣٩٠ ـ وعن عائشة، عنه عليه السلام: «أتاني جبريل، فقال: قلَّبْتُ مشارِقَ الأرض ومغارِبَها فلم أَرَ رجلاً أفضلَ من محمد، ولم أَرَ بني أَبٍ أفضلَ من بني هاشم».

٣٩١ ـ وعن أَنَس: أن النبيّ ﷺ أُتِيَ بالبُرَاقِ ليلةَ أُسْرِي به، فاستَصْعَبَ عليه، فقال له جِبْريل: بمُحَمَّدٍ تفعلُ هذا؟ فما رَكِبَكَ أحدٌ أكرمُ على الله منه، فارْفَضَّ عرَقاً.

٣٩٢ ـ وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «لمَّا خلق الله آدمَ أهبطني في صُلْبِه إلى الأرض، وجعلني في صُلْب نوح في السفينة، وقذَف بي في النار في صُلْبِ إبراهيم، ثم لم يزَلْ يَنقُلني في الأصلابِ الكريمة إلى الأرحام الطاهرةِ حتى أخرجني بين أبوَيّ لم يَلْتقِيا على سِفاح قطُّ».

٣٩٣ ـ وإلى هذا أشار العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه بقوله:

مِنْ قَبْلِها طِبْتَ في الظِّلالِ وفي ... مُسْتَوْدَعٍ حَيثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

ثُم هَبطْتَ البِلادَ لا بَشَرٌ أنـ ... ـتَ ولا مُضْغَةٌ ولا عَلَقُ

بَلْ نُطْفَةٌ تركبُ السَّفِينَ، وقَدْ أَلْـ ... ـجَمَ نَسْراً وأهْلَهُ الغَرَقُ

تُنْقَلُ مِنْ صالبٍ إلى رَحِمٍ ... إذا مضى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ

حتى احتوى بَيْتُكَ المُهَيْمِنُ مِنْ ... خِنْدِفَ عَلْيَاءَ تَحْتَها النُّطُقُ

وأنتَ لمّا وُلِدْتَ أشرقت الـ ... أرْضُ وضاءَت بِنُورِكَ الأُفُقُ

فنَحْنُ في ذلكَ الضياء وفي النّورِ وسُبْلِ الرَّشادِ نَخْتَرِقُ

في أبيات أُخَرَ.

٣٩٤ ـ ورَوَى عنه ﷺ أبو ذَرٍّ [أحمد (١٤٨/٥)، أبو داود (٤٨٩)].

٣٩٥ ـ وابن عُمر.

٣٩٦ ـ وابن عباس [أحمد (٣٠١/١)].

٣٩٧ ـ وأبو هُرَيرة [مسلم (٥٢٣)].

٣٩٨ ـ وجابر بن عبدالله ـ أنه قال: **«أُعطِيت خمساً ـ وفي بعضها: ستّاً ـ لم يُعطَهُنَّ نَبِيّ قبلي: نُصِرتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شَهرٍ، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهُوراً، وأيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاةُ فليصلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائمُ، ولم تحلّ لنبيّ قبلي، وبُعِثت إلى الناس كافَّةً، وأعطيت الشفاعة»** [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

٣٩٩ ـ وفي رواية بدل هذه الكلمة: **«وقيل لي: سَلْ تُعْطَهْ»**.

٤٠٠ ـ وفي رواية أخرى: **«وعُرِضَ عَلَيَّ أُمتي فلم يَخفَ عليَّ التابعُ مِن المتبوع»**.

٤٠١ ـ وفي رواية: **«بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود»**.

وقيل: السود: العرب؛ لأنَّ الغالبَ على ألوانهم الأُدْمَة؛ فهم من السُّودِ. والحُمر: العَجَم. وقيل: البيضُ والسود من الأمم. وقيل: الحُمر: الإنس. والسود: الجنُّ.

٤٠٢ ـ وفي الحديث الآخر، عن أبي هريرة: **«نُصِرتُ بالرُّعْبِ، وأُوتِيتُ جوامِعَ الكَلِمِ، وبَيْنَا أنا نائم إذ جِيءَ بمفاتيح خزائن الأرضِ فوُضِعت في يديَّ»** [البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٧/٥٢٣)].

٤٠٣ ـ وفي رواية عنه: **«وخُتِمَ بي النبيّون»** [مسلم (٥/٥٢٣)].

٤٠٤ ـ وعن عُقبةَ بن عامر أنه قال: قال ﷺ: **«إني فَرَطٌ لكم، وأنا شَهِيدٌ عليكم. وإني والله! لأَنْظُرُ إلى حَوضِي الآن، وإني قد أُعطِيت مفاتيح خزائن الأرض. وإني والله! ما أخافُ عليكم أن تُشرِكُوا بعدي، ولكني أخافُ عليكم أن تَنافَسُوا فيها»** [البخاري (١٣٤٤)، مسلم (٢٢٩٦)].

٤٠٥ ـ وعن عَبْدِاللَّه بن عمرو أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أنا محمدٌ، النبيُّ الأُميُّ، لاَ نَبيَّ بعدي، أُوتيت جوامِعَ الكلم وخواتِمَهُ، وعلمتُ خَزَنَة النار وحَمَلَة العَرْشِ» [أحمد (٢/١٧٢)].

٤٠٦ ـ وعن ابن عمر: «بُعِثْتُ بين يَدَي السَّاعَةِ» [أحمد (٢/٥٠)].

٤٠٧ ـ ومن رواية ابن وَهْب ـ أنه ﷺ ـ قال: «قال الله تعالى: سَلْ، يا محمد! فقلتُ: ما أسألُ؟ يا ربِّ! اتخذْتَ إبراهيمَ خليلاً، وكلّمْتَ موسى تكْلِيماً، واصطفيتَ نوحاً، وأعطيتَ سليمان مُلْكاً لا ينبغي لأحَدٍ من بعده، فقال اللَّهُ تعالى: ما أعطيتُك خيرٌ من ذلك؛ أعطيتُكَ الكَوْثَرَ، وجعلتُ اسْمَك مع اسمِي، يُنادَى به في جَوْف السماء، وجعلتُ الأرض طَهوراً لكَ ولأُمتك، وغَفَرْتُ لك ما تقدَّم مِنْ ذَنْبك وما تأَخَّر؛ فأَنْتَ تَمْشِي في الناس مغفوراً لك، ولم أَصْنَع ذلك لأحد قبلكَ، وجعلتُ قُلوبَ أمتك مَصاحِفَها، وخبأْتُ لكَ شفاعتك، ولم أَخْبأها لنبيّ غيرك».

٤٠٨ ـ وفي حديث آخر، رواه حُذيفة: «بَشَّرني ـ يعني: ربَّه ـ أَول من يدخُل الجنةَ معي مِنْ أُمتي سبعونَ ألفاً، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً ليس عليهم حسابٌ؛ وأعطاني ألاَّ تجوعَ أمتي ولا تُغْلَب، وأعطاني النصرَ، والعزَّةَ، والرُّعْبَ يسعى بين يَدَيْ أُمتي شهراً، وطيَّبَ لي ولأُمتي المغانِمَ، وأَحلَّ لنا كثيراً مما شدَّدَ على مَنْ قبلنا، ولم يجعل علينا في الدِّين مِن حَرَج» [أحمد (٥/٣٩٣)].

٤٠٩ ـ وعن أبي هريرة، عنه ﷺ: «ما مِنْ نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعطِيَ من الآيات ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ؛ وإنما كان الذي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحى اللَّهُ إليّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يَوْمَ القيامة» [البخاري (٤٩٨١)، مسلم (١٥٢)].

معنى هذا عند المحقّقين: بقاءُ معجزاتِه ما بَقِيت الدنيا، وسائرُ معجزاتِ الأنبياءِ ذهبت لِلْحِين، ولم يشاهدها إلا الحاضِرُ لها، ومعجزةُ القرآنِ يقِفُ عليها قَرْنٌ بعد قَرْن عِيَاناً لا خَبَراً إلى يوم القيامة.

وفيه كلامٌ يطولُ، هذا نُخْبَتُهُ. وقد بسطنا القولَ فيه، وفيما ذُكِرَ فيه سِوَى هذا آخِرَ باب المعجزات.

٤١٠ ـ وعن عليّ رضي الله عنه: كُلُّ نَبيّ أُعْطِيَ سبعةَ نُجباء من أمته، وأُعطي نَبِيُّكم ﷺ أربعة عشر نَجِيباً، منهم أبو بكر، وعمُر، وابن مسعود، وعمّار [أحمد (١/٨٨، ١٤٢، ١٤٩)، الترمذي (٣٧٨٥)].

٤١١ ـ وقال ﷺ: «إنَّ اللَّهَ قد حبَس عن مكَّةَ الفِيلَ، وسلَّطَ عليها رسولَه

والمؤمنين؛ وإنَّها لم تَحِلّ لأحدٍ بَعْدِي، وإنما أُحِلَّتْ لي ساعةً من نهار» [البخاري (١١٢)، مسلم (١٣٥٥)].

٤١٢ ـ وعن العِرْبَاضِ بن سارِيَة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عَبْدالله وخاتَمُ النبيين؛ وإنَّ آدمَ لمُنْجَدِلٌ في طِينَتِه، وعِدَةُ أبي: إبراهيم، وبِشارةُ عيسى ابن مريم» [أحمد (١٢٧/٤)].

٤١٣ ـ وعن ابن عباس: قال: إنَّ اللَّهَ فضَّلَ محمداً ﷺ على أهل السماء، وعلى الأنبياءِ صَلَوَاتُ الله عليهم؛ قالوا: فما فَضْلُه على أهل السماء؟ قال: إن اللَّهَ تعالى قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢].

قالوا: فما فَضْلُه على الأنبياء؟ قال: إنّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ. . .﴾ الآية [إبراهيم: ٤].

وقال لمحمد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ. . .﴾ [سبأ: ٢٨].

٤١٤ وحتى **٤١٧** ـ وعن خالد بن مَعْدَانَ: أنَّ نَفَراً من أصحابِ رسول الله ﷺ قالوا: يا رسولَ اللَّهِ! أخبِرْنا عن نفسك؟ ـ وقد رُوي نحوه عن أبي ذَرّ وشدّاد بنِ أوس، وأنسِ بن مالك ـ.

فقال: «نعم، أنا دَعْوةُ أبي إبراهيم ـ يعني قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] ـ وبُشْرَى عيسى. ورأتْ أُمّي حين حملَتْ بي أنه خرج منها نورٌ أضاءَ له قصورُ بُصْرَى من أرض الشام، واسْتُرْضِعْتُ في بني سَعْد بن بكر، فبينا أنا مع أخٍ لي، خَلْفَ بيوتنا، نَرْعَى بَهْماً لنا، إذ جاءني رجُلان عليهما ثيابٌ بيض».

٤١٨ ـ وفي حديث آخر: «ثلاثة رجال» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)] ـ «بِطَسْتٍ من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذاني فشقّا بطْنِي».

٤١٩ ـ قال في غير هذا الحديث: «من نَحْرِي إلى مَرَاقِّ بطني [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (٢٦٥/١٦٣)] ـ ثم استخرجا منه قلبي، فشقَّاه، فاستخرجا منه علقةً سَوْدَاء فطرحاها، ثم غسَلا قلبي وبَطْني بذلك الثلج حتى أنْقَيَاه».

٤٢٠ ـ قال في حديث آخر: «ثم تناول أحدُهما شيئاً فإذا بخاتم في يده من

نُور يحارُ الناظرُ دونه، فختم به قلبي، فامتلأ إيماناً وحكمةً، ثم أعاده مكانَه، وأَمَرَّ الآخَرُ يدَه على مَفْرِق صدري فالتأم».

٤٢١ ـ وفي رواية: «**إنَّ جبريل قال: قَلْبٌ وَكيع ـ أي شديد ـ فيه عينان تُبصِرَان، وأُذُنان تَسْمَعان**» ثم قال أحدُهما لصاحبه: «**زِنْهُ بعشَرة من أمته، فوزَنَني فرجَحْتُهم، ثم قال: زِنْهُ بمئة من أمته، فوزنني بهم فوزَنْتُهم؛ ثم قال: زِنْهُ بألفٍ من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم؛ ثم قال: دَعْهُ عنك، فلو وَزَنْتَه بأمته لوزَنها ﷺ**».

٤٢٢ ـ قال في الحديث الآخَر: «**ثم ضَمُّوني إلى صدورهم، وقَبَّلُوا رأسي، وما بين عينيَّ، ثم قالوا: يا حبيبُ! لم تُرَعْ، إنك لو تَدْرِي ما يُرَاد بكَ من الخير لقرَّتْ عيناكَ**».

٤٢٣ ـ وفي بقية هذا الحديث من قولهم: «**ما أكرمكَ على الله! إنَّ اللَّهَ معكَ وملائكتَه**».

٤٢٤ ـ قال في حديث أبي ذرّ: «**فما هو إلاَّ أنْ ولَّيا عني، فكأنما أرى الأمْرَ مُعَاينةً**».

٤٢٥ ـ وحكى أبو محمد: مَكّيٌّ، وأبو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ وغيرُهما ـ أنَّ آدَمَ عند مَعْصِيته قال: اللهم! بحقّ محمدٍ اغفر لي خطيئتي.

ويُرْوى: تقبَّلْ توبتي. فقال له اللَّهُ: مِنْ أين عرفْتَ محمداً؟ قال: رأيتُ في كل موضع من الجنة مكتوباً: لا إله إلا اللَّهُ، محمدٌ رسولُ الله ـ ويُرْوَى: محمدٌ عَبْدِي ورسولي ـ فعلمتُ أنه أكرمُ خَلْقك عليك، فتاب اللَّهُ عليه، وغفر له.

وهذا عند قائله تأويلُ قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

وفي روايةِ الآجُرّي قال: فقال آدم: لمّا خَلَقْتَني، رفعْتُ رأسي إلى عرشك فإذا مكتوب فيه: لا إله إلا اللَّهُ، محمد رسولُ الله؛ فعلمتُ أنه ليس أحدٌ أعظمَ قَدْراً عندك ممن جعلْت اسمه مع اسمك، فأوحى اللَّهُ إليه: وعِزَّتي وجلالي! إنه لآخِرُ النبيين من ذُرِّيتك ولَوْلاَه ما خلقتُكَ.

٤٢٦ ـ قال: وكان آدمُ يُكْنَى بَأبي محمد.

وقيل: بأَبي البشر.

ورُوي عن سُرَيجِ بن يونس أنه قال: إنَّ لِلَّهِ ملائكةً سَيَّاحين عِيَادتُها كلّ دارٍ فيها أحمد، أو محمد، إكراماً منهم لمحمد ﷺ.

٤٢٧ ـ وروَى ابنُ قانع القاضي، عن أبي الحَمْرَاءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«لمَّا أُسْرِيَ بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب: لا إله إلا اللَّهُ، محمد رسول الله، أَيَّدْتُه بِعليّ».

٤٢٨ ـ وفي التفسير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال: لَوْحٌ من ذهَب فيه مكتوب: عجبت لمن أَيْقَنَ بالقَدَر، كيف يَنْصَبُ؟ عجباً لمن أَيْقَن بالنار كيف يضحك؟ عجباً لِمَنْ يرى الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها؟ أنا الله، لا إله إلا أنا، محمد عَبْدِي ورسولي.

وعن ابن عباس: على باب الجنة مكتوب: إني أَنا الله، لا إله إلا أنا، محمد رسول الله، لا أعذِّب مَنْ قالها.

وذُكِرَ أنه وجد على الحِجَارة القَدِيمة مكتوب: محمد تَقِيٌّ مصلح، وسيدٌ أمين.

وذكر السِّمِنْطَارِي أنه شاهدَ في بعض بلاد خُراسان مولوداً وُلد على أحد جَنْبَيْه مكتوبٌ: لا إله إلا الله، وعلى الآخر مكتوبٌ: محمد رسول الله.

وذكر الإِخْبَارِيّون: أنَّ ببلاد الهند وَرْداً أحمر مكتوباً عليه بالأبيض: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ورُوِي عن جعفر بن محمد، عن أبيه: إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: أَلاَ لِيَقُمْ من اسْمُه محمد، فليدخل الجنةَ لكرامةِ اسْمِه عليه السلام.

وروَى ابنُ القاسم في سَمَاعه، وابنُ وَهْب في «جامعه» عن مالك قال: سمعتُ أَهْلَ مكة يقولونَ: ما مِنْ بيتٍ فيه اسْمُ محمد ﷺ إلاَّ نَما ورُزِقوا.

٤٢٩ ـ وعنه عليه السلام: **«ما ضَرَّ أحدَكم أن يكونَ في بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة»**.

٤٣٠ ـ وعن عَبْدِاللَّه بن مسعود: إنَّ اللَّهَ نظر إلى قلوب العباد، فاختار منها قَلْبَ محمد عليه السلام، فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته [أحمد (٣٧٩/١)].

٤٣١ ـ وحكى النقَّاش أنَّ النبيَّ ﷺ ـ لما نزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] ـ قام خطيباً، فقال: **«يا مَعْشَر أهلِ الإيمانِ! إنَّ الله تعالى فضَّلني عليكم تفضيلاً، وفضَّلَ نسائي على نسائكم تفضيلاً...»** الحديث.

فصل

فِي تَفضِيلِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَرَامَةُ الإسراءِ مِنَ المُنَاجَاةِ والرُّؤيَةِ وَإِمَامَةِ الأَنْبِيَاء والعُرُوج بِهِ إلى سِدرَةِ المُنتَهىٰ وما رَأَىٰ مِنْ آياتِ رَبِّه الكُبرىٰ

ومن خصائصه ﷺ قصةُ الإسراءِ وما انطوت عليه من درجاتِ الرِّفْعة ممّا نَبَّهَ عليه الكتابُ العزيزُ، وشرحته صِحَاحُ الأخبار؛ قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

فلا خِلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به ﷺ، إذ هو نَصُّ القرآنِ، وجاءت بتفصيله، وشرح عجائبه، وخَواصُّ نبينا محمد ﷺ، فيه أحاديثُ كثيرة منتشرة، رأينا أنْ نقدِّمَ أكمَلَها، ونُشِيرَ إلى زيادةٍ من غيره يجبُ ذِكْرُها.

٤٣٢ ـ حدثنا القاضي الشهيد: أبو علي، والفقيه أبو بَحْر بسماعي عليهما، والقاضي أبو عَبْدالله التميمي، وغيْرُ واحدٍ من شيوخنا؛ قالوا: حدثنا أبو العباس العُذْري، حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجُلُودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا شَيْبَان بن فَرُّوخ، حدثنا حمّاد بن سَلَمَةَ، حدثنا ثابت البُناني، عن أنس بن مالك رضي اللّهُ عنه أنَّ رسولَ الله قال: **«أُتِيتُ بالبُرَاق، وهو دابّة أبيضُ طويل، فوق الحِمَار، ودون البَغْلِ، يضَعُ حافِرَهُ عند منتهى طَرْفِه ـ قال: فركبْتُه حتى أتيتُ بيت المقدس، فربطتُه بالحَلْقةِ التي يَرْبِطُ بها الأنبياء، ثم دخلتُ المسجدَ فصلّيتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خَمْر وإناءٍ من لَبَن، فاخترتُ اللبنَ، فقال جبريل: اخترْتَ الفِطْرة.**

ثم عَرَج بنا إلى السماء، فاستَفْتح جبريلُ، فقيل: مَنْ أنتَ؟ قال: جبريل.

قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدَمَ ﷺ، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرج بنا إلى السماء الثانية، فاستَفْتَح جبريلُ، فقيل: مَنْ أنتَ: قال: جبريل. قيل: وَمَن معكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففُتِح لنا، فإذا أنا بِابْنَيِ الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما؛ فرحَّبَا بي، ودعَوَا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مِثل الأول، ففُتِح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعطِي شَطْرَ الحُسْنِ، فرحَّب بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مِثْلَه، فإذا أنا بإدريس، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة: فذكر مِثلَه، فإذا أنا بهارون، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فذكر مِثلَه، فإذا أنا بموسى، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة، فذكر مِثلَه، فإذا أنا بإبراهيم مُسْنِداً ظهْرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يَدْخُله كلَّ يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى، فإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلة، وإذا ثَمَرُها كالقِلالَ، قال: فلما غَشِيَها من أمر الله ما غَشِيَ تغيرت، فما أحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يستطيعُ أنْ يَنْعَتها من حُسْنها؛ فأوحى اللَّهُ إليَّ ما أَوْحَىٰ، ففرضَ عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلْتُ إلى موسى، فقال: ما فَرَضَ ربُّك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربِّكَ فاسأله التخفيفَ، فإنَّ أُمتك لا يُطِيقون ذلك، فإني قد بَلَوْتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهم.

قال: فرجعتُ إلى رَبِّي، فقلتُ: يا ربِّ! خفِّفْ عن أُمتي. فحَطَّ عني خمساً، فرجعتُ إلى موسى، فقلت: حَطَّ عني خمساً، قال: إنَّ أُمتك لا يُطِيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أَزَلْ أَرجعُ بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا مُحَمَّدُ! إنهنَّ خَمسُ صلواتٍ كلَّ يوم وليلةٍ، لكل صلاةٍ عَشْرٌ، فتلك خمسون صلاةً؛ ومن هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبت له حسنةً، فإن عملها كُتِبت له عَشراً. ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تُكْتَبْ شيئاً، فإنْ عملها كُتِبت سيئةً واحدة.

قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف».

قال رسولُ الله ﷺ: «فقلت: قد رجعتُ إلى ربي حتى استحْيَيْتُ منه».

قال المؤلِّف: جوَّدَ ثابتٌ ـ رحمه الله ـ هذا الحديثَ عن أنس ما شاء، ولم يَأْتِ أحدٌ عنه بأصوب من هذا.

٤٣٣ ـ وقد خلَّطَ فيه غيره عن أنس تخليطاً كثيراً، لا سِيَّما من رواية شَرِيك بن أبي نَمِرٍ [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)]؛ فقد ذكر في أوله مجيءَ الملك له، وشَقَّ بَطْنِه، وغَسلَه بماء زمزم؛ وهذا إنما كان وهو صبيّ، وقَبْل الوحي.

وقد قال شَريك في حديثه: وذلك «قبل أن يُوحَى إليه» وذكر قصةَ الإسراء. ولا خلاف أنها كانت بعد الوَحْي.

وقد قال غَيْرُ واحد: إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قَبْل هذا.

٤٣٤ ـ وقد رَوَى ثابت عن أنس ـ من رواية حمّاد بن سلَمة [مسلم (٢٦١/١٦٢)] ـ أيضاً مجيءَ جبريل إلى النبيّ ﷺ وهو يلْعَب مع الغِلْمان عند ظِئرِه، وشَقَّه قَلْبَه تلكَ القصة مفردة من حديث الإسْراءِ كما رواه الناسُ، فجَوَّدَ في القصتين، وفي أنَّ الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سِدْرَةِ المنتهى كان قصةً واحدة، وأنه وصل إلى بيت المَقْدِس، ثم عرج به من هناك، فأزاح كلَّ إشْكال أوهَمَهُ غيرُه.

٤٣٥ ـ وقد رَوَى يونس، عن ابن شهاب، عن أنس، قال: كان أبو ذرّ يحدِّثُ أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «**فُرِجَ سَقْفُ بيتي، وأنا بمكة فنزل جبريلُ، ففَرَج صَدْري، ثم غَسَلَهُ مِنْ ماءِ زمزم، ثم جاء بِطِسْتٍ من ذهَب ممتلىء حكمةً وإيماناً، فأفرغها في صَدْري، ثم أطْبَقه، ثم أخذ بيدي فعَرَج بنا إلى السماء. . .**» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)] فذكر القصة.

٤٣٦ ـ وروىٰ قَتَادة الحديثَ، بمثلِه، عن أَنس، عن مالك بن صَعْصَعة [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)]، وفيها تقديم وتأخير وزيادةٌ ونَقْصٌ، وخلافٌ في ترتيب الأنبياء في السموات.

وحديثُ ثابت، عن أنس، أتقن وأجْوَدُ.

وقد وقعَتْ في حديث الإسراء، زياداتٌ نَذْكر منها نُكَتاً مفيدة في غرضنا:

٤٣٧ ـ منها في حديث ابن شهاب، وفيه: قولُ كل نبيّ له: «**مرحباً بالنبي**

الصالح، والأخ الصالح» إلا آدم وإبراهيم فإنهما قالا له: «والابن الصالح».

٤٣٨ ـ وفيه، من طريق ابن عباس: **«ثم عَرَج بي حتى ظهَرْتُ لمستوًى أسمعُ فيه صرِيفَ الأقلام»** [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)].

٤٣٩ ـ وعن أنس: **«ثم انطلق بي حتى أتيتُ سِدْرة المُنْتَهى، فغَشِيهَا ألوانٌ لا أدري ما هي؟ قال: ثم أُدْخِلْتُ الجنةَ»** [البخاري (٣٤٩)، مسلم (٢٦٣/١٦٣)].

٤٤٠ ـ وفي حديث مالك بن صَعْصَعَةَ: **«فلما جاوَزْتُه ـ يعني: موسى ـ بكى، فنُودِيَ: ما يُبْكِيك؟ قال: ربِّ! هذا غلامٌ بعثْتَه بَعْدِي يَدْخلُ من أمته الجنةَ أكثرُ ممّا يدخلُ من أمتي»**.

٤٤١ ـ وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء، فحانت الصلاةُ، فأَمَمْتُهم، فقال قائل: يا مُحَمَّدُ! هذا مالكٌ خازِنُ النار، فسلِّمْ فالتفتُّ فبدأني بالسلام»** [مسلم (١٧٢)].

٤٤١م ـ وفي حديث أبي هُريرة: ثم سار حتى أتى إلىٰ بيت المقدس، فنزل فربط فرسَه إلى صخرةٍ، فصلّى مع الملائكة، فلما قُضِيت الصلاةُ قالوا: يا جبريلُ! مَنْ هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله، خاتَمُ النبيِّين. قالوا: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أخ وخليفةٍ، فنِعْمَ الأخُ ونعم الخليفةُ! ثم لَقُوا أرواحَ الأنبياءِ فأَثْنَوْا على ربِّهم، وذكر كلامَ كلِّ واحدٍ منهم، وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسُليمان.

ثم ذكر كلامَ النبي ﷺ، فقال: «وإنَّ محمداً ﷺ أثنى على ربِّه عزّ وجل فقال: **«كلكم أَثْنَىٰ على ربِّه، وأنا أُثني على ربِّي: الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين، وكافةً للناس بشيراً ونذِيراً، وأنزل عليَّ الفُرْقان فيه تِبْيَانُ كل شيء. وجعل أُمتي خيرَ أمة، وجعل أُمتي أمةً وَسَطاً، وجعل أمتي هم الأوّلون، وهم الآخِرون، وشرح لي صَدْري، ووضَعَ عني وِزْرِي، ورفع لي ذِكْري، وجعلني فاتحاً وخاتماً»**.

فقال إبراهيم: بهذا فَضَّلكم محمدٌ.

ثم ذكر أنه عَرَج به إلى السماء الدُّنْيا، ومن سماءٍ إلى سماءٍ، نحو ما تقدم.

٤٤٢ ـ وفي حديث ابن مسعود: **«وانْتُهي بي إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنْتَهي ما يُعْرَجُ به من الأرض فيُقْبَضُ منها، وإليها يَنْتَهي ما يَهْبِطُ من فوقها فيُقْبَضُ منها؛ قال:** ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [النجم: ١٦]. **قال: «فَرَاشٌ من ذَهَب»** [مسلم (١٧٣)].

٤٤٣ ـ وفي رواية أبي هريرة، من طريق الربيع بن أَنَس. «فقيل لي: هذه السِّدْرَةُ المُنْتَهى يَنْتَهي إليها كلُّ أحد من أُمَّتك خَلاَ على سبيلك، وهي السِّدْرَةُ المنتهى، يخرجُ من أصلها أنهارٌ من ماء غَيْرِ آسِنٍ، وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه، وأنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لذَّةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفّى، وهي شجرةٌ يسير الراكبُ في ظلِّها سبعين عاماً، وإنَّ ورَقةً منها مُظِلَّةُ الخَلْق، فغَشِيَها نور، وغشيتها الملائكةُ. قال: فهو قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٦].

فقال الله تبارك وتعالى له: سَلْ. فقال: إنكَ اتخذْتَ إبراهيمَ خليلاً، وأعطيته مُلْكاً عظيماً. وكلَّمْتَ موسى تكليماً، وأَعْطَيْتَ داود مُلْكاً عظيماً، وأَلَنْتَ له الحديدَ، وسخَّرتَ له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخَّرت له الجنَّ والإنس والشياطين والرِّياح، وأعطيته مُلكاً لا ينبغي لأحد مِنْ بَعْدِه، وعلَّمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلْته يُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، وأعَذْتَه وأمّه من الشيطان الرَّجيم، فلم يكن له عليهما سبيل.

فقال له ربُّه تعالى: قد اتَّخَذْتُكَ خليلاً. فهو مكتوبٌ في التوراة: محمد حبيب الرحمن، وأرسلتُك إلى الناس كافّةً، وجعلتُ أُمتكَ هم الأولون، وهم الآخرون، وجعلتُ أُمتك لا تجوزُ لهم خُطبة حتى يشهدوا أنكَ عبدي ورسولي، وجعلتُك أوّلَ النبيين خَلْقاً، وآخرهم بَعْثاً، وأعطيتُكَ سبعاً من المَثاني، ولم أُعْطها نبياً قبلكَ، وأعطيتُكَ خَوَاتِيمَ سورةِ البقرة مِنْ كَنْزٍ تحت عرشي لم أُعْطِها نبيّاً قبلك، وجعلتُك فاتحاً وخاتماً».

٤٤٤ ـ وفي الرواية الأخرى قال: فأُعْطِيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أُعطِيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعْطِيَ خَوَاتيم سورةِ البقرة، وغُفِرَ ـ لمَنْ لا يُشْرك بالله شيئاً من أمته ـ المُقْحِماتُ [مسلم (١٧٣)].

٤٤٥ ـ وقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم: ١١، ١٢]: رأى جبريل في صورته له سِتُّ مئةِ جَنَاحٍ [البخاري (٣٢٣٢)، مسلم (١٧٤)].

٤٤٦ ـ وفي حديث شَرِيكٍ: أنه رأى موسى في السابعة، قال: بتفضيل كلامِ الله.

قال: ثم عَلاَ به فَوْقَ ذلك بما لا يعلمه إلا اللّهُ؛ فقال موسى: لم أَظُنَّ أَنْ يُرْفَع عليّ أحد.

٤٤٧ ـ وقد رُوي عن أنس أنه ﷺ صلى بالأنبياء ببيت المقدس [البخاري (٢٠٨/٧)، مسلم (١٧٢)].

٤٤٨ ـ وعن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بينا أنا قاعد ذاتَ يوم إذْ دخل جبريل عليه السلام، فَوَكَزَ بين كَتِفَيّ، فقمْتُ إلى شجرة فيها مِثْلُ وَكْرَي الطائر، فقعد في واحدةٍ وقعدتُ في الأخرى، فنَمَتْ حتى سدَّت الخَافِقَيْنِ. ولو شئتُ لَمَسستُ السماء، وأنا أُقلِّبُ طَرْفي، ونظرتُ جبريلَ كأنه حِلْسٌ لاطىء، فعرفتُ فَضْلَ علمه بالله عليّ، وفُتِحَ لي بابُ السماء، ورأيتُ النورَ الأعظم، وإذا دوني الحِجَابُ، وفُرَجُهُ الدُّرُّ والياقوت، ثم أوحى اللَّهُ إليّ ما شاء أنْ يُوحِي**».

٤٤٩ ـ وذكر البَزَّار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أراد اللَّهُ تعالى أن يُعَلِّمَ رسولَه الأذان جاء جبريل بدابَّةٍ يقال لها البُرَاق، فذهب يركبُها، فاستصعبَتْ عليه، فقال لها جبريلُ: اسْكُني، فواللَّهِ! ما رَكبكِ عَبْدٌ أكرمُ على الله من محمد ﷺ؛ فركبها حتى أتى بها إلى الحِجَاب الذي يَلي الرحمنَ تعالى، فبينا هو كذلك إذ خرج ملَكٌ من الحجابِ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا جبريل! مَنْ هذا؟**».

قال: والذي بعثكَ بالحق! إني لأَقْرب الخَلْقِ مكاناً، وإن هذا المَلَكَ ما رأيتُه منذ خُلِقْتُ قبل ساعتي هذه. فقال المَلَكُ: الله أكبر .الله أكبر فقيل له مِنْ وراء الحجاب: صدَق عبدي، أنا أكبر. أنا أكبر.

ثم قال المَلك: أشهد أن لا إله إلا اللَّهُ. فقيل له مِنْ وراء الحجاب: صدق عَبْدي، أنَا الله لا إله إلا أنا.

وذكر مِثْلَ هذا في بقية الأذان، إلا أنه لم يذكر جواباً عن قوله: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح.

وقال: ثم أخذ المَلكُ بيد محمد، فقدَّمه، فأَمَّ أهلَ السماء، فيهم آدمُ ونوح.

قال أبو جعفر: محمد بن علي بن الحسين، راوِيه: أَكْمَلَ اللَّهُ تعالى لمحمد ﷺ الشرفَ على أهل السمواتِ والأرض.

قال المؤلف رحمه الله: ما في هذا الحديث من ذِكْرِ الحجاب فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق، فهم المحجوبون، والبارِي جلّ اسْمُه منزّه عما يَحْجبه، إذ الحجُب إنما تُحيطُ بمقدَّرٍ محسوس، ولكن حُجُبه على أبصار خَلْقه وبصائِرهم وإدراكاتهم بما شاء وكيف شاء، ومتى شاء، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

فقوله في هذا الحديث: «**الحجاب**»، و «**إذْ خرج مَلَكٌ من الحجاب**» يجب أنْ يقال: إنه حجابٌ حجَبَ به مَنْ وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سُلْطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجَبَروته.

ويدلُّ عليه من الحديث ـ قولُ جبريل ـ عن الملَك الذي خرج من ورائه: «**إنّ هذا الملَك ما رأيْته منذ خُلِقت قبل ساعتي هذه**».

فدلَّ على أنّ هذا الحجابَ لم يختصّ بالذات.

ويدلُّ عليه قولُ كعب في تفسير: «سِدْرَة المُنْتَهى» قال: إليها ينتهي عِلْمُ الملائكة، وعندها يجدون أَمْرَ اللَّهِ، لا يجاوزُها عِلْمُهم.

وأما قولُه: «**الذي يَلِي الرحمن**» فيُحْمَلُ على حَذْفِ المضاف، أي يَلِي عَرْشَ الرحمن، أو أَمْراً ما، من عظيم آياته، أو مبادىء حقائقِ معارفه، مما هو أعلمُ به، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أيْ: أَهْلَها.

وقوله: فقيل من وراء الحجاب «**صدق عَبْدِي، أنا أكبر**» فظاهِرُه أنه سمع في هذا الموطن كلامَ الله، ولكن مِنْ وراءِ حجاب، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]؛ أي: وهو لا يراه، حجَبَ بصرَه عن رُؤْيته.

فإن صَحّ القولُ بأنّ محمداً ﷺ رأى ربَّه عزّ وجلّ فيُحْتَمل أنه في غير هذا المَوْطِنِ. بعدَ هذا أو قَبْله، رُفِعَ الحجابُ عن بصره حتى رآه. والله أعلم.

فصل

فِي حَقِيقَةِ الإِسْرَاءِ، هَلْ كَانَ بِالرُّوحِ أَمْ بِالرُّوحِ وَالْجَسَدِ

ثم اختلف السلَفُ والعلماءُ: هل كان أُسري برُوحه أو جسده؟ على ثلاث مقالات: فذهبتْ طائفةٌ إلى أنه إسراء بالرُّوح، وأنه رُؤْيا منام، مع اتفاقهم أنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ ووَحْي، وإلى هذا ذهب معاويةُ.

وحُكي عن الحسن، والمشهور عنه خلافه، وإليه أشار محمد بن إسحاق، وحجتُهم قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

٤٥٠ ـ وما حَكَوْا عن عائشة أنها قالت: ما فقدْتُ جسدَ رسولِ الله ﷺ.

٤٥١ ـ وقوله: «**بينا أنا نائم**».

٤٥٢ ـ وقول أنس: وهو نائم في المسجد الحرام.. وذكر القصة، ثم قال في آخرها: «**فاستيقظتُ وأنا بالمسجد الحرام**» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (١٦٢/٢٦٢)].

وذهب مُعْظَمُ السَّلَف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة، وهذا هو الحقُّ، وهذا قولُ ابن عباس، وجابر، وأنس، وحُذَيفة، وعُمر، وأبي هريرة، ومالك بن صَعْصَعَةَ، وأبي حَبَّةَ البَدْري، وابن مسعود، والضحَّاك، وسعيد بن جُبير، وقَتَادة، وابن المسيِّب، وابن شهاب، وابن زَيْد، والحَسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعِكْرمة، وابن جُرَيج، وهو دليلُ قول عائشة، وهو قولُ الطبري، وابن حنبل، وجماعةٍ عظيمة من المسلمين، وهو قولُ أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين والمفسرين.

وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يَقظَةً إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالرُّوح، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، فجعل ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ غاية الإسراءِ الذي وقع التعجُّبُ فيه بعظيم القُدْرة، والتمدُّح بتشريف النبي محمد ﷺ به، وإظهار الكرامةِ له بالإسراء إليه.

قال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره؛ فيكون أبلغَ في المدح.

ثم اختلفت هذه الفرقتان: هل صلَّى ببيت المقدس، أم لا؟

٤٥٣ ـ ففي حديث أنس وغيره ما تقدم مِنْ صلاته فيه.

٤٥٤ ـ وأنكر ذلك حذيفةُ بن اليمان، وقال: واللَّهِ! ما زالا عن ظَهْرِ البُرَاقِ حتى رجعا [الترمذي (٣١٤٧)، أحمد (٥/٣٨٧)].

قال المؤلف: والحق من هذا والصحيح ـ إنْ شاء الله ـ أنه إسراءٌ بالجسد والرُّوح في القصة كلِّها، وعليه تدلُّ الآيةُ، وصحيح الأخبار، والاعتبار، ولا يُعْدَلُ عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحالِ يقظته استحالةٌ؛ إذ لو كان مَناماً لقال: برُوح عَبْدِه، ولم يَقُلْ: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم: ١٧]، ولو كان مناماً لَمَا كانت فيه آيةٌ ولا معجزةٌ، ولما استبعده الكفَّار، ولا كذَّبوه فيه، ولا ارتدَّ به ضُعفاء مَنْ أسلم، وافْتَتَنُوا به؛ إذ مثْلُ هذا من المنامات لا يُنْكَر؛ بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أنَّ خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذُكِر في الحديث من ذِكْرِ صلاتِه بالأنبياء ببيت المقدس في روايةِ أنس ـ أو في السماء على ما رَوَى غَيْرُه ـ وذِكْر مجيء جبريل له بالبُرَاق، وخَبَرِ المعراج، واستفتاح السماء؛ فيقال: مَنْ معك؟ فيقول: محمد، ولقائه الأنبياء

فيها، وخَبَرِهم معه، وتَرْحيبهم به، وشَأْنِه في فَرْضِ الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك.

٤٥٥ ـ وفي بعض هذه الأخبار: **«فأخذ ـ يعني جبريل ـ بيدي فعَرَجَ بي إلى السماء...»**.

٤٥٥م ـ إلى قوله: **«ثم عَرَج بي حتى ظهرتُ بمُسْتَوَى أسمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلام»** وأنه وصل إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى، وأنه دخل الجنةَ، ورأىٰ فيها ما ذَكره.

٤٥٦ ـ قال ابن عباس: هي رُؤْيا عَيْنٍ رآها النبيُّ ﷺ لا رُؤْيا مَنام [البخاري: ٣٨٨٨].

٤٥٧ ـ وعن الحسن فيه: **«بينا أنا نائم في الحِجْر إذ جاءني جبريل فهمزني بعَقِبه، فقمتُ فجلستُ فلم أرَ شيئاً، فعُدْت لمَضْجَعي»** ـ فذكر ذلك ثلاثاً ـ فقال في الثالثة: **«فأخذ بعَضُدِي فجرَّني إلى باب المسجد فإذا بِدَابَّة»**. وذكر خبر البراق.

٤٥٨ ـ وعن أمِّ هانىء: ما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، تلكَ الليلة صلى العِشَاء الآخِرة، ونام بيننا، فلما كان قُبيل الفجرِ أَهَبَّنا رسولُ الله ﷺ، فلما صلَّى الصبح وصلَّينا قال: **«يا أُمَّ هانىء! لقد صليتُ معكم العِشاءَ الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئتُ بَيْتَ المقدس فصلَّيتُ فيه، ثم صليت الغَدَاةَ معكم الآن كما تَرَوْن»**.

وهذا بَيِّنٌ في أنه بجسمه.

٤٥٩ ـ وعن أبي بكر ـ من رواية شدّاد بن أَوْس عنه ـ أنه قال للنبي ﷺ ليلَة أُسريَ به: طلبتُك يا رسولَ الله! البارحةَ في مكانك فلم أجِدْك. فأجابه: إن جبريلَ ـ عليه السلام ـ حمله إلى المسجد الأقصى.

٤٦٠ ـ وعن عُمر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«صلَّيتُ ليلةَ أُسري بي في مقدَّم المسجد، ثم دخلتُ الصخرة فإذا بِملَك قائم معه آنيةٌ ثلاث...»** وذكر الحديث.

وهذه التصريحاتُ ظاهرةٌ غَيْرُ مستحيلة، فتُحْمَلُ على ظاهرها.

٤٦١ ـ وعن أبي ذَرّ، عنه ﷺ: **«فُرِجَ سقفُ بيتي وأنا بمكةَ، فنزل جبريلُ، فشرح صَدْرِي، ثم غسله بماء زَمْزم...»** إلى آخر القصة **«ثم أخذ بيدي، فعَرج بي»**.

٤٦٢ ـ وعن أنس: «**أُتِيتُ فانطلقوا بي إلى زمزم، فشُرِحَ عن صدري**» [مسلم (١٦٢/٢٦٠)].

٤٦٣ ـ وعن أبي هُريرة: «**لقد رأيتُني في الحِجْرِ، وقريشٌ تسألني عن مَسْرَايَ، فسألتني عن أشياء لم أُثبِتْها، فكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبْتُ مثله قطُّ، فرفعه اللّهُ لي أنظرُ إليه**» [مسلم (١٧٢)].

٤٦٤ ـ ونحوه عن جابرٍ [البخاري (٣٨٨٦)، مسلم (١٧٠)].

٤٦٥ ـ وقد رَوَى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنه ﷺ أنه قال: «**ثم رجعتُ إلى خديجةَ وما تحوَّلَتْ عن جانبها**».

فصل
فِي إِبْطَالِ حُجَجِ مَنْ قَالَ: إِنَّها نَوْمٌ

احتجُوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، فسمَّاها رؤيا.

قلنا: قولُه سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] يردُّه؛ لأنه لا يُقَال في النوم: أَسْرَى.

وقوله: ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. يؤيِّدُ أنها رُؤيَا عَين، وإسراءُ شَخص؛ إذ ليس في الحُلْم فتنةٌ. ولا يكذِّبُ به أحد؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يرى مثْلَ ذلك في منامه من الكَوْنِ في ساعةٍ واحدة في أقطار متباينة.

على أنَّ المفسِّرين قد اختلفوا في هذه الآية؛ فذهب بعضُهم إلى أنها نزلت في قَضِيَّةِ الحُدَيْبِيَة، وما وقع في نفوسِ الناسِ من ذلك. وقيل غَيْرُ هذا.

وأما قولُهم: إنه قد سَمَّاها في الحديث مَناماً.

٤٦٦ ـ وقولُه في حديث آخر: «**بين النائم واليَقْظان**» [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)].

٤٦٧ ـ وقوله أيضاً: وهو نائم. وقوله: «**ثم استيقظْتُ**» فلا حجَّة فيه؛ إذ قد يحتملُ أنَّ أول وصولِ المَلك إليه كان وهو نائم، أو أن أول حَمْله والإسراءِ به وهو نائم، وليس في الحديث أنه كان نائماً في القَضِيَّةِ كلِّها إلا ما يدلُّ عليه قوله: «**ثم استيقظْتُ وأنا في المسجد الحرام**» فلعل قوله: «**استيقظْتُ**» بمعنى أَصْبَحْتُ، أو استيقظ من نَوْم آخر بعد وصوله بيته.

ويدل عليه أن مَسْرَاهُ لم يكن طولَ ليله، وإنما كان في بعضه.

وقد يكون قوله: «**استيقظتُ وأنا في المسجد الحرام**» لِمَا كان غَمَرَه من عجائب ما طالعَ مِنْ ملكوتِ السموات والأرض، وخامَرَ باطِنَه من مُشاهدةِ الملأ الأعْلى، وما رأى من آيات رَبِّه الكبرى، فلم يستَفِقْ ويرجع إلى حالِ البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام.

ووَجْهُ ثالث: أَنْ يكونَ نومُه واستيقاظُه حقيقةً على مقتضى لَفظِه، ولكنه أُسريَ بجسده وقلبُه حاضر، ورُؤيا الأنبياء حقٌّ، تنام أَعْيُنهم ولا تنام قُلوبهم.

وقد مالَ بعضُ أصحاب الإشارات إلى نَحْوٍ من هذا. قال: تَغْميضُ عينيه لئلاً يَشْغَلَه شيءٌ من المحسوسات عن الله تعالى.

ولا يصحُّ هذا أَنْ يكون في وقت صلاته بالأنبياء، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالاتٌ.

ووَجْهٌ رابع: وهو أَنْ يعبَّرَ بالنوم ها هنا عن هيئة النائم من الاضطجاع.

٤٦٨ ـ ويُقَوِّيهِ قوله في رواية عَبْد بن حُميد، عن هَمَّامٍ: «**بينا أنا نائم**» ورُبَّما قال: «**مُضطَجِع**».

٤٦٩ ـ وفي رواية هُدْبَة، عنه: «**بينا أنا نائم في الحَطِيم**» وربما قال: «**في الحِجْر مضطجعٌ**» [البخاري (٣٨٨٧)].

٤٧٠ ـ وقوله في الرواية الأخرى: «**بَيْنَ النائم واليقْظَان**».

فيكون سمَّى هيئتَه بالنوم لمَّا كانت هيئةَ النائم غالباً.

وذهب بعضُهم إلى أَنَّ هذه الزيادات: من النوم، وذِكْر شَقّ البطن، ودنُوّ الرب عزَّ وجل الواقعة في هذا الحديث، إنما هي من رواية شَرِيكٍ، عن أنس، فهي مُنْكَرَة من روايته؛ إِذ شَقُّ البَطْنِ في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صِغَره ﷺ وقبل النبوّة؛ ولأنه قال في الحديث: «**قبل أَنْ يُبْعَث**»، والإسراء بإجماع كان بعد المَبْعث؛ فهذا كلُّه يُوَهِّن ما وقع في رواية أَنس، مع أن أَنساً قد بَيَّن من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره، وأنه لم يسمَعْه من النبي ﷺ، فقال مرَّةً: عن مالك بن صَعْصَعة، وفي كتاب مسلم: لعلَّه عن مالك بن صَعْصَعة، على الشكّ. وقال مرةً: كان أبو ذَرٍّ يحدِّث.

٤٧١ ـ وأما قولُ عائشةَ: ما فُقِدَ جَسَدُه؛ فعائشةُ لم تحدِّث به عن مشاهدةٍ؛ لأنها لم تكن حينئذٍ زَوْجَه، ولا فِي سِنِّ من يَضْبِط، ولعلها لم تكن وُلِدت بعْدُ، على الخلاف في الإسراء متى كان؟ فإنَّ الإسراء كان في أول الإسلام على قول

الزُّهْرِي ومَنْ وافقه بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشةُ في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

وقد قيل: كانَ الإسراءُ لخَمْسٍ قبل الهجرة. وقيل: قبل الهجرة بعام. والأَشْبَهُ إنه لخَمْسٍ.

والحجةُ لذلك تَطُول، وليست مِنْ غَرضِنا، فإذا لم تشاهِدْ ذلك عائشةُ، دَلَّ على أنها حدَّثَتْ بذلك عن غيرها، فلم يُرجِّحْ خَبَرُها علىٰ خبر غيرها؛ وغَيْرُها يقول خلافَه مما وقع نصّاً في حديث أم هانىء وغيره.

وأيضاً فليس حديثُ عائشةَ رَضِيَ الله عنها بالثابت، والأحاديثُ الأُخر أَثْبَت، ولَسْنا نَعْنِي حديثَ أم هانىء، وَمَا ذُكِرَتْ فيه خديجة.

وأيضاً فقد رُوي في حديثِ عائشة: «ما فَقَدْتُ». ولم يدخُلْ بها النبيُّ ﷺ إلاّ بالمدينة.

وكُلُّ هذا يوهِّنُه؛ بل الذي يدلُّ عليه صحيحُ قولِها. أنه بجسده، لإنكارها أَنْ تكون رؤياه لربّه رُؤْيا عَيْنٍ. ولو كان عندها مَناماً لم تُنْكِرْه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ [النجم: ١١] فقد جعل ما رَآه للقَلْبِ، وهنا يدلُّ على أنه رُؤْيا نَوْم ووَحْي، لا مشاهدة عَيْنٍ وحِسٍّ.

قلنا: يقابِلُهُ قولُه تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰﴾ [النجم: ١٧] فقد أضاف الأَمْرَ للبَصَرِ.

وقد قال أهلُ التفسير في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ [النجم: ١١] أي لم يُوهِمِ القلبُ العَيْنَ غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها.

وقيل: ما أنكر قلبُه ما رأته عينُه.

فصل

فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاخْتِلَافِ السَّلَفِ فِيهَا

وأما رُؤْيته ﷺ ـ لربّه جلَّ وعزَّ ـ فاختلف السلفُ فيها؛ فأنكرته عائشة.

٤٧٢ ـ أخبرنا أبو الحُسين: سِرَاج بن عبدالملك الحافظُ بقراءتي عليه؛ قال: حدثني أبي، وأبو عبدالله بن عتّاب الفقيه؛ قالا: حدثنا القاضي يونس بن مُغيث، قال: حدثنا أبو الفضل الصقلّي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجدّه؛ قالا: حدثنا عَبْدُالله بن علي قال: حدثنا محمود بن آدم، حدثنا وَكِيع، عن ابن أبي خالد، عن عامر، عن مسروق، أنه قال لعائشة رضي الله عنها: يا أُمَّ

المؤمنين! هل رأى محمدٌ ربَّه؟ فقالت: لقد قَفَّ شَعْرِي مما قُلْتَ. ثلاث مَنْ حدَّثك بهنّ فقد كذب: من حدثكَ أَنَّ محمَّداً رأى ربَّه فقد كذب، ثم قرأَتْ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣] وذكر الحديث [البخاري (٧٣٨٠)، مسلم (٢٨٩/١٧٧)].

فقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها.

٤٧٣، ٤٧٤ ـ وهو المشهور عن ابن مسعود، ومثلُه عن أبي هريرة، أنه قال: إنما رأى جبريلَ [البخاري (٤٨٥٧)، مسلم (١٧٤)]. واختُلف عنه. وقال بإنكار هذا وامتناع رُؤْيته في الدنيا جماعةٌ من المحدِّثين، والفقهاء والمتكلمين.

٤٧٥ ـ وعن ابن عباس ـ رضِيَ الله عنهما ـ أنه رآه بِعَيْنِه [أحمد (٣٧٠/١)].

٤٧٦ ـ وروى عطاءٌ عنه: أنه رآه بقَلْبِه [مسلم (٢٨٤/١٧٦)].

٤٧٧ ـ وعن أبي العالِية، عنه: رآه بفُؤَادِه مرتين [مسلم (٢٨٥/١٧٦)].

٤٧٨ ـ وذكر ابنُ إسحاق أَنَّ ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رَضِيَ الله عنهما يسأله: هل رأَى محمدٌ ربَّهُ؟ فقال: نعم.

٤٧٩ ـ والأشهَرُ عنه أنه رأى ربَّه بعينيه، رُوِي ذلك عنه من طُرُقٍ، وقال: إنَّ الله تعالى اختصَّ موسى بالكلام، وإبراهيم بالخُلَّةِ، ومحمداً بالرؤية.

وحجَّتُه قولُه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١١ـ ١٣].

قال الماوَرْدِيُّ: قيل: إنَّ اللَّهَ تعالى قسم كلامَه ورؤيته بين موسى، ومحمد ﷺ فرآه محمدٌ مَرَّتَيْنِ، وكلَّمه موسى مَرَّتَيْن.

وحكى أبو الفتح الرازي، وأبو الليث السَّمَرْقَنْدِي الحكاية عن كَعْبٍ.

٤٨٠ ـ وروى عَبْدُاللَّه بن الحارث، قال: اجتمع ابْنُ عباس وكَعْبٌ؛ فقال ابنُ عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول: إنَّ محمداً قد رأى ربَّه مرَّتين؛ فكبَّر كَعْب حتى جاوبَتْهُ الجِبَال، وقال: إنّ الله قسمَ رُؤْيته وكلامه بين محمد وموسىٰ؛ فكلّمه موسى، ورآه محمد بقلبه [الترمذي (٣٢٧٨)].

٤٨١ ـ وروى شَرِيكٌ، عن أبي ذَرّ رضي الله عنه في تفسير الآية؛ قال: رأى النبيُّ ﷺ ربَّه.

٤٨٢ ـ وحكى السَّمَرْقَنْدِي، عن محمد بن كَعْبٍ القُرَظي، ورَبيع بن أَنس، أَنَّ النبيَّ ﷺ سئل: هل رأيْتَ ربَّك؟ قال: «رأيته بفُؤَادِي، ولم أَرَه بعيني».

٤٨٣ ـ وروى مالك بن يُخَامِر، عن مُعاذ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «رأَيتُ

رَبِّي.. وذكر كَلِمةً، **فقال: يا محمدُ! فيم يَخْتَصِم المَلأُ الأعْلى؟»** [أحمد (٢٤٣/٥)، الترمذي (٣٢٣٥)] الحديث.

وحكى عبدالرَّزاق أنَّ الحسن كان يحلِفُ بالله لقد رأى محمدٌ رَبَّه.

وحكاه أبو عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيُّ عن عِكْرمةَ.

وحكى بعضُ المتكلمين هذا المذهبَ عن ابن مسعود.

وحكى ابنُ إسحاق: أنَّ مروانَ سأل أبا هُريرة. هل رأى محمد ربَّه؟ فقال: نعم.

وحكى النقّاش، عن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقولُ بحديث ابن عباس بعينه رآه - حتى انقطع نَفَسُهُ، يعني: نَفَسَ أحمد.

وقال أبو عُمَرَ: قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وجَبُن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار.

وقال سَعِيد بن جُبَيْر: لا أقول: رآه، ولا لم يَرَهُ.

وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس، وعِكْرِمة، والحسن، وابن مسعود؛ فَحُكِي عن ابن عباس وعِكْرِمة: رآه بقلبه. وعن الحسن وابن مسعود: رأى جبريل.

وحَكَى عَبْدُاللّه بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، أنه قال: رآه.

وعن ابن عَطَاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الانشراح: ١] قال: شرح صَدْرَه للرؤية، وشرح صَدْرَ موسى للكلام.

وقال أبو الحسَنِ، علي بن إسماعيل الأشْعَري رضي الله عنه وجماعةٌ من أصحابه: إنه رأى اللّهَ تعالى ببصره وعيني رَأسِه، وقال: كلُّ آيةٍ أُوتِيَها نبيٌّ من الأنبياء عليهم السلام فقد أُوتي مِثْلَها نبيُّنا، وخُصَّ من بينهم بتفضيل الرُّؤْيَة.

ووقف بعضُ مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليلٌ واضح؛ ولكنه جائز أن يكون.

قال المؤلف: والحقُّ الذي لا امْتِرَاءَ فيه، أَنَّ رؤيته تعالى في الدنيا جائزةٌ عقلاً، وليس في العقل ما يُحِيلها.

والدليلُ على جَوَازها في الدنيا سؤالُ موسى - عليه السلام - لها. ومحالٌ أَنْ يجهلَ نَبِيٌّ ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه؛ بل لم يسأل إلا جائزاً غَيْرَ مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدتَه من الغَيْب الذي لا يَعْلَمُه إلا مَنْ علَّمه الله، فقال له الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ أي: لن تُطِيقَ، ولا تحتمل

رُؤْيَتي؛ ثم ضرب له مثالاً مِمَّا هو أقوى مِنْ بِنْيَةِ موسى وأثبت، وهو الجَبل.

وكلُّ هذا ليس فيه ما يُحِيل رؤْيَته في الدنيا؛ بل فيه جَوَازُها على الجملة؛ وليس في الشرع دليلٌ قاطع على استحالتها ولا امتناعها؛ إذْ كل موجود فرؤيته جائزةٌ غَيْرُ مستحيلة.

ولا حجةَ لمن استدلَّ على مَنْعها بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ لاختلاف التأويلات في الآية، وإذ ليس يقتضي قولُ مَنْ قال في الدنيا الاستحالةَ.

وقد استدلَّ بعضُهم بهذه الآية نفْسِها على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة.

وقد قيل: لا تدركه أبصارُ الكفّار. وقيل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تُحيط به، وهو قولُ ابن عباس. وقد قيل: لا تدركُه الأبصار، وإنما يدْرِكُه المُبْصِرون.

وكلُّ هذه التأويلات لا تقتضي مَنْعَ الرؤية ولا استحالَتها.

وكذلك لا حجَّة لهم بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. لِمَا قَدمناه؛ ولأنّها ليست على العموم؛ ولأنَّ من قال: معناها: لن تَرَانِي في الدنيا، إنما هو تأويل.

وأيضاً ليس فيه نَصُّ الامتناع، وإنما جاءت في حقّ موسى؛ وحيث تتطرَّقُ التأويلاتُ وتتسلَّط الاحتمالاتُ، فليس للقَطْع إليه سبيل.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾. أي: مِنْ سُؤَالي ما لم تُقَدِّرْهُ لي.

وقد قال أبو بكر الهُذَلي في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾: أي ليس لِبَشرٍ أنْ يُطِيقَ أن ينظرَ إليّ في الدنيا، وإنَّهُ منْ نظر إليّ مات.

وقد رأيتُ لبعض السلَف والمتأخرين ما معناه: إن رؤيتَه تعالى في الدنيا مُمْتَنِعة، لضَعْفِ تركيب أهل الدنيا، وقُواهم، وكونِها متغيرة غَرَضاً للآفات والفَنَاءِ، فلم يكُنْ لهم قوةٌ على الرؤية؛ فإذا كان في الآخرة ورُكِّبُوا تركيباً آخر، ورُزِقوا قُوًى ثابتةً باقيةً، وأتمَّ أنوار أبصارهم وقلوبهم قَووا بها على الرؤية.

وقد رأيتُ نحوَ هذا لمالك بن أنس رحمه الله؛ قال: لم يُرَ في الدنيا؛ لأنه باقٍ، ولا يُرَى الباقي بالفاني؛ فإِذا كان في الآخرة ورُزِقوا أبصاراً باقيةً رُئي الباقي بالباقي.

وهذا كلامٌ حسنٌ مَلِيح، وليس فيه دلِيل على الاستحالة إلاّ من حيثُ ضَعْفُ

القدرة؛ فإذا قوّى اللَّهُ تعالى مَنْ شاء مِنْ عباده، وأقْدَره على حَمْلِ أعباءِ الرؤية لم تَمْتَنع في حقّه.

وقد تقدّم ما ذُكر في قوة بَصرِ موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ونفوذِ إدراكهما بقوةٍ إلٰهيّة مُنِحَاها لإدراك ما أدْركاه، ورُؤْيَةِ ما رَأَياه. والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر ـ في أثناء أجوبَته عن الآيتين ـ ما معناه: إن موسى ـ عليه السلام ـ رأى اللَّهَ؛ فَلِذٰلِكَ خرّ صَعِقاً، وإن الجبلَ رأى ربَّه فصار دكًّا بإدراكٍ خَلَقَهُ الله له. واستنبط ذلك ـ واللَّهُ أعلم ـ من قوله: ﴿وَلَكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وتَجَلّيه للجبل هو ظهورُه له حتى رآه، على هذا القول.

وقال جعفر بن محمد: شَغَلَه بالجَبلِ حتى تجلّى، ولولا ذلك لمات صَعِقاً بلا إفَاقَة.

وقولُه هذا يدلُّ على أنَّ موسى رآه.

وقد وقع لبعض المفسِّرين في «الجَبَل» أنه رآه، وبرؤية الجبَلِ له استدلَّ مَنْ قال برؤية محمدٍ نبيّنا له؛ إذ جعله دليلاً على الجَواز.

ولا مِزيةَ في الجَواز؛ إذ ليس في الآيات نَصٌّ بالمَنْع.

وأما وجوبُه لنبينا ﷺ، والقولُ بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضاً ولا نَصّ؛ إذ المُعَوّلُ فيه على آيتي «النجم» والتنازعُ فيهما مأثور، والاحتمالُ لهما مُمْكن، ولا أَثَر قاطع مُتَوَاتِر عن النبي ﷺ بذلك.

٤٨٤ ـ وحديث ابن عباس خَبَرٌ عن اعتقادِه لم يُسْنِدْه إلى النبي ﷺ؛ فيجِبُ العملُ باعتقادِ مُضمَّنِهِ.

٤٨٥ ـ ومثله حديثُ أبي ذَرّ في تفسير الآية.

٤٨٦ ـ وحديثُ معاذ محتَمِلٌ للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمَتْن.

٤٨٧ ـ وحديثُ أبي ذَرّ الآخر مختلف محتَمِلٌ مُشْكِل. فرُوي: **«نورٌ أنّىٰ أراه؟»** [مسلم (١٧٨/٢٩١)].

وحكى بعضُ شيوخِنا أنه رُوي: **«نُورانيٌّ أراه»**.

٤٨٨ ـ وفي حديثه الآخر: سألتُه، فقال: **«رأيتُ نوراً»** [مسلم (١٧٨/٢٩٢)]، وليس يمكن الاحتجاجُ بواحدٍ منها على صحةِ الرؤية؛ فإن كان الصحيحُ: «رأيت

نوراً» فهو قد أخبر أنه لم يرَ الله؛ وإنما رأى نوراً منعه وحجَبه عن رُؤْية الله.

وإلى هذا يرجِعُ قولُه: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ؟» أي: كيف أراه مع حجابِ النُّور المُغَشِّي للبصر؟

٤٨٩ ـ وهذا مِثْلُ ما في الحديث الآخر: «**حجابُه النور**» [مسلم (١٧٩)].

٤٩٠ ـ وفي الحديث الآخر: «**لم أَره بعيني، وإنما رأيتُه بقلبي مرتين**» وتلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝﴾ [النجم: ٨]، واللَّهُ قادِرٌ على خَلْقِ الإدراك الذي في البَصَر في القلب، أو كيف شاء، لا إلَهَ غيره.

فإنْ وَرد حديثٌ نصٌّ بَيِّنٌ في الباب اعتُقِد ووجب المَصِيرُ إليه؛ إذ لا اسْتِحَالَة فيه، ولا مانع قطعيّ يردُّه، والله الموفق تعالى.

فصل

فِي مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ الإِسْرَاءِ مِنْ مُنَاجَاتِهِ ﷺ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَكَلاَمِهِ مَعَهُ

وأما ما وَرد في هذه القصة مِنْ مُناجاته لله تعالى وكلامِه معه بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] إلى ما تضمَّنَتْه الأحاديثُ، فأكثَرُ المفسرين على أَنَّ المُوحِي اللَّهُ عز وجلّ إلى جبريل، وجبريلُ إلى محمد ﷺ، إلا شُذوذاً منهم؛ فذُكِر عن جعفر بن محمد الصادق، قال: أَوْحَى إليه بلا واسطة، ونحوه عن الواسطي؛ وإلى هذا ذهب بعضُ المتكلمين، أَنَّ محمداً ﷺ كلَّم ربَّه في الإسراء.

وحُكي عن الأشعري، وحكَوْهُ عن ابن مسعود وابن عباس؛ وأنكره آخرون.

٤٩١ ـ وذكر النقَّاش، عن ابن عباس، في قصةِ الإسراء، عنه ﷺ في قوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]. قال: «**فَارَقَنِي جِبريلُ، وانقطعت الأصواتُ عني، فسمعتُ كلامَ ربي وهو يقولُ: لِيَهْدَأْ رَوْعُكَ يا محمدُ! ادْنُ، ادْنُ**».

٤٩٢ ـ وفي حديث أنس في الإسراء نحوٌ منه.

وقد احتجُوا في هذا بقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]؛ فقالوا: هي ثلاثةُ أقسام: من وراء حجابٍ كتَكْلِيم موسى؛ وبإرسال الملائكةِ كحالِ جميع الأنبياء وأكثرِ أحوال نبينا ﷺ. الثالث: قوله: ﴿وَحْيًا﴾ ولم يَبْقَ من تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة.

وقد قيل: الوَحْيُ - هنا - هو ما يُلْقِيه في قَلْبِ النبي دونَ واسطة.

٤٩٣ - وقد ذكر أبو بكر البَزَّارُ، عن عليّ في حديث الإسراء، ما هو أوضَحُ في سَمَاعِ النبي ﷺ لكلام اللّهِ من الآية: فذكر فيه: «**فقال الملَك: الله أكبر، الله أكبر، فقيل لي مِنْ وراءِ الحجاب: صدَق عَبْدِي، أنا أكبر، أنا أكبر**». وقال في سائر كلمات الأذان مِثْلَ ذلك.

ويجيءُ الكلام في مُشْكل هٰذين الحديثين في الفَصْل بعد هذا مع ما يُشْبِهه، وفي أوَّل فصلٍ من الباب منه.

وكلامُ الله تعالى لمحمد ﷺ، ومَن اختَصَّه من أنبيائه، جائزٌ غَيْرُ ممتنع عَقْلاً، ولا ورد في الشَّرْع قاطعٌ يمنعه، فإنْ صحَّ في ذلك خبر احتُمِل عليه، وكلامُه تعالى لموسى كائنٌ حَقٌّ مقطوعٌ به، نَصُّ ذلك في الكتاب، وأكَّدَه بالمصدر دَلالةً على الحقيقة.

٤٩٤ - ورَفَع مكانه على ما ورد في الحديث: في السماء السابعة بسبب كلامه. ورَفَع محمداً فوقَ هذا كلّه حتى بلغ مُستوًى، وسَمِعَ صَرِيف الأقلام؛ فكيف يستحيل في حقّ هذا أو يَبْعُدَ سماعُ الكلام؟ فسبحانَ من خَصَّ مَنْ شاء بما شاء، وجعل بعضَهم فوق بعضٍ درجات!.

فصل

فِي مَا وَرَدَ مِنَ الدُّنُوِّ وَالقُرْبِ لَيلَةَ الإِسْرَاءِ

وأما ما ورد في حديث الإسراء وظاهر الآية: من الدنُوّ والقُرْب من قوله تعالى: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨، ٩]. فأكْثَرُ المفسرين أنّ الدنُوَّ والتدلّي مُنْقسِم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام، أو مختصٌّ بأحدهما من الآخر، أو من سِدْرَةِ المُنْتهى.

قال الرازي: وقال ابن عباس: هو محمدٌ، دنا فتدلَّى مِنْ رَبّه.

وقيل: معنى دنا: قَرُبَ. وتدلّى: زاد في القرب. وقيل: هما بمعنى واحد. أي: قرب وحكى مكيٌّ والماوَرْدِيُّ، عن ابن عباس: هو الرَّبُّ دنا من محمد ﷺ، فتدلّى إليه؛ أي: أمْرُهُ وحُكْمُهُ.

وحكى النقَّاش عن الحَسَن، قال: ﴿دَنَا﴾ من عَبْدِه محمدٍ ﷺ، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فقَرُبَ منه، فأراه ما شاء أنْ يُرِيَه من قُدْرَته وعظمته.

٤٩٥ ـ قال: وقال ابنُ عباس: هو مقدّم ومؤخّر: تدلّى الرَّفرَفُ لمحمد ﷺ ليلةَ المِعْرَاج، فجلس عليه، ثم رُفِع فدَنَا من ربِّه.

قال: **«فارَقَنِي جبريلُ، وانقطعت عني الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربي عزّ وجل»**.

٤٩٦ ـ وعن أنس في الصحيح: **«عَرجَ بي جبريلُ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى ودَنَا الجبَّارُ رَبُّ العِزّة، فتدلّىٰ حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسينَ صلاة. . .»** وذكر حديث الإسراء.

وعن محمد بن كَعْب: هو محمدٌ، دَنَا من ربِّه، فكان قَابَ قَوْسين.

قال: وقال جعفر بن محمد: أَدْنَاه ربُّه منه حتى كان منه كقَاب قَوْسَين.

وقال جعفر بن محمد: والدنوُّ من الله لا حدَّ له، ومن العِبَاد بالحدود.

وقال أيضاً: انقطعت الكَيْفِيّة عن الدنو، أَلاَ ترى كيف حَجَبَ جبريل عن دنُوّه، ودَنَا محمد ﷺ إلى ما أودع قلبُه من المعرفة والإيمان، فتدلّى بسكونِ قَلْبه إلى ما أَدْناه، وزال عن قلبه الشكُّ والارتياب.

قال المؤلف رحمه الله: اعلم أنَّ ما وقع من إضافة الدنو والقُرْب ـ هنا ـ من الله، أو إلى الله، فليس بدنوّ مكان، ولا قُرْب مَدًى؛ بل كما ذكرناه عن جعفر الصادق: ليس بدنُوّ حَدّ، وإنما دنُوُّ النبيّ ﷺ من ربه وقُرْبه منه إبانةُ عظيمِ مَنْزلِته، وتشريفُ رُتْبته، وإشراقُ أنوار معرفته، ومشاهدةُ أسرار غَيْبِه وقدرته، ومن اللَّهِ تعالى له مَبَرَّةٌ وتأنيس، وبَسْطٌ، وإكرام.

٤٩٧ ـ ويُتَأَوَّل فيه ما يُتَأَوَّل في قوله: **«ينزلُ ربُّنا إلى سماء الدنيا»** [البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨)] على أحد الوجوه: نزول إفضالٍ وإجمال، وقبولٍ وإحسان.

قال الواسطي: مَنْ توهَّم أنه بنفسه دَنَا، جعل ثَمَّ مسافة، بَلْ كلما دنا بنفسه من الحق تدلَّى بُعْداً، يَعْنِي: عن دَرْك حقيقته؛ إذ لا دُنوَّ للحق ولا بُعْدَ.

وقوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فمَنْ جعل الضمير عائداً إلى الله تعالى، لا إلى جبريل على هذا كان عبارةً عن نهاية القُرْب، ولُطْفِ المحلّ، واتّضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاءِ المطالب، وإظهارِ التَّحَفِّي، وإنافةِ المنزل والمرتبة من الله له.

٤٩٨ ـ ويُتَأَوَّل فيه ما يُتَأَوَّل في قوله: **«مَنْ تَقرَّبَ مني شِبْراً تقربت منه ذِرَاعاً، ومَنْ أَتَاني يَمْشِي أتيتُه هَرْوَلَةً»** [البخاري (٧٤٠٥، ٧٥٣٦)، مسلم (٢٦٧٥، ٢٦٨٧)] قُرْبٌ بالإجابةِ والقَبُول، وإتيانٌ بالإحسان وتَعْجِيل المأمول.

فصل

فِي ذِكْرِ تَفْضِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخُصُوصِ الكَرَامَةِ

٤٩٩ ـ قال القاضي أبو علي: حدثنا أبو الفضل، وأبو الحُسَين؛ قالا: حدثنا أبو يَعْلَى، حدثنا السِّنْجِي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي، حدثنا عبدالسلام بن حرب، عن لَيْث، عن الربيع بن أَنس، عن أنس رضي الله عنه: قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«أنا أَوَّلُ الناسِ خروجاً إذا بُعثوا، وأنا خطيبُهم إذا وَفدوا، وَأَنا مبَشِّرُهُمْ إذا أَيِسوا؛ لواءُ الحَمْدِ بيدي، وأنا أكرمُ وَلدِ آدَمَ على رَبِّي ولا فَخْرَ»** [الترمذي (٣٦١٠)].

٥٠٠ ـ وفي رواية ابْن زَحْر، عن الربيع بن أنس، في لَفْظ هذا الحديث: **«أنا أَوَّلُ الناسِ خروجاً إذا بُعِثُوا، وأنا قائدُهم إذا وفَدوا، وأنا خطيبُهم إذا أَنْصتوا، وأنا شفيعُهم إذا حُبِسُوا، وأنا مُبَشِّرهم إذا أُبْلِسُوا؛ لواءُ الكَرَم بيدي، وأنا أكرمُ وَلدِ آدمَ على رَبِّي ولا فَخرَ؛ ويطوف عليَّ أَلفُ خادمٍ كأنهم لؤلؤ مكنونٌ»**.

٥٠١ ـ وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: **«وأُكْسَى حُلَّةً من حُلَلِ الجنَّةِ، ثم أقومُ عن يمين العَرْش ليس أَحدٌ من الخلائق يقومُ ذلك المَقام غيري»** [الترمذي (٣٦١١)].

٥٠٢ ـ وعن أَبي سعيد؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«أَنا سيِّدُ وَلدِ آدمَ يوم القيامة، وبيدي لواءُ الحمد ولا فَخْرَ، وما نبيّ يومئذٍ، آدمُ فَمَنْ سِوَاهُ، إلا تحت لوائي؛ وأَنا أَولُ مَنْ تَنشقُّ عنه الأَرْضُ ولا فَخرَ»** [الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، ابن ماجه (٤٣٠٨)].

٥٠٣ ـ وعن أَبي هريرة، عنه ﷺ: **«أنا سيِّدُ وَلدِ آدمَ يومَ القيامةِ، وأول مَنْ ينشقُّ عنه القَبْرُ، وأول شافعٍ، وأَول مُشَفَّع»** [مسلم (٢٢٧٨)].

٥٠٤ ـ وعن ابن عباس رضيَ اللَّهُ عنهما: **«أنا حاملُ لواءِ الحَمْد يوم القيامةِ ولا فَخر، وأَنا أَوَّلُ شافع، وأَوَّلُ مشَفَّع، ولا فَخر؛ وأنا أَولُ مَنْ يحرِّكُ حَلْقَةَ الجنةِ، فيُفتَح لي فيدخلُها معي فقراءُ المؤمنين، ولا فَخر؛ وأنا أَكرمُ الأَوّلين والآخِرين، ولا فَخرَ»**.

٥٠٥ ـ وعن أَنس: **«أنا أَوَّلُ الناسِ يشفع في الجنة، وأنا أَكثرُ الناسِ تَبعاً»** [مسلم (١٩٦)].

٥٠٦ ـ وعن أنس رضيَ الله عنه قال النبيُّ ﷺ: **«أنا سيِّدُ الناسِ يوم**

القيامة؛ وتَدْرُون بِمَ ذلك؟ يجمعُ اللَّهُ الأوَّلين والآخرين» [البخاري (٤٤٧٦، ٤٧١٢)، مسلم (١٩٣، ١٩٤)] وذَكَرَ حديثَ الشفاعة.

٥٠٧ ـ وعن أبي هُريرة رضِيَ اللَّهُ عنه أنه ﷺ قال: **«أَطْمَعُ أَنْ أكونَ أعظمَ الأنبياء أَجْراً يومَ القيامة»**.

٥٠٨ ـ وفي حديث آخر: **«أما تَرْضَوْن أَنْ يكونَ إبراهيمُ وعيسى فيكم يوم القيامة؟»** ثم قال: **«إنهما في أُمتي يوم القيامة؛ أَمَّا إبراهيم فيقول: أنتَ دَعْوتي وذُرِّيتي، فاجعلني من أمتك. وأَما عيسى فالأنبياءُ إخوةٌ بَنُو عَلاتٍ، أُمهاتُهم شتَّى؛ وإنَّ عيسى أَخِي ليس بيني وبينه نبي، وأنا أَوْلىٰ الناسِ به»** [البخاري (٣٤٤٣)، مسلم (٢٣٦٥)، أبو داود (٤٦٧٥)].

قوله: **«أنا سيِّدُ الناسِ يوم القيامة»**: هو سيِّدهم في الدنيا، ويوم القيامة. ولكن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسُّؤْدَدِ والشفاعة دونَ غيره؛ إذ لجأ إليه الناسُ في ذلك، فلم يجدوا سِوَاهُ.

والسيِّدُ: هو الذي يلجأ الناسُ إليه في حوائجهم؛ فكان حينئذٍ سيِّداً مُنفرداً بين البشر، لم يُزَاحِمْه أَحدٌ في ذلك، ولا ادَّعاه؛ كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والمُلْكُ له تعالى في الدنيا والآخرة، لكن في الآخرةِ انقَطَعَتْ دَعْوَى المدَّعِي لذَلك في الدنيا.

وكذلك لجأَ إلى محمدٍ ﷺ جميعُ الناسِ في الشفاعة؛ فكان سيِّدَهم في الأُخرى دُونَ دَعْوَى.

٥٠٩ ـ وعن أَنَس رضِيَ اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«آتي بابَ الجنةِ يوم القيامةِ، فأَستَفْتِحُ، فيقول الخازِنُ: مَنْ أَنتَ؟ فأقول: محمد. فيقول: بِكَ أُمِرْتُ لا أفتحُ لأَحدٍ قَبْلَك»** [مسلم (١٩٧)].

٥١٠ ـ وعن عَبْدُاللّه بن عَمْرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«حَوْضِي مسيرةُ شَهرٍ، وزَوَاياه سواءٌ، وماؤُهُ أبيضُ من الوَرِقِ، وريحُه أَطيبُ من المسكِ، وكِيزانُه كنجوم السماء؛ مَنْ شَرِب منه لم يَظْمَأْ أبداً»** [البخاري (٦٥٧٩)، مسلم (٢٢٩٢)].

٥١١ ـ وعن أبي ذَرّ نحوُه؛ وقال: **«طوله ما بين عُمَان إلى أَيْلَة، يَشْخُبُ فيه مِيزابانِ من الجنة»** [مسلم (٢٣٠٠)].

٥١٢ ـ وعن ثَوْبَانَ مثلُه؛ وقال: **«أَحدهما من ذَهَب، والآخَرُ من وَرِقٍ»** [مسلم (٢٣٠١)].

٥١٣ ـ وفي روايةِ حارثة بن وَهب: **«كما بين المدينة وصَنعاء»** [البخاري (٦٥٩١)، مسلم (٥١٣)].

٥١٤ ـ وعن أَنس: **«أَيلَة وصَنعاء»** [البخاري (٦٥٨٠)، مسلم (٢٣٠٣)].

٥١٥ ـ وعن ابن عُمر: **«كما بين الكوفة والحجَرِ الأَسود»** [البخاري (٦٥٧٧)، مسلم (٢٢٩٩)].

٥١٦ وحتى **٥٤٢** ـ وروى حديثَ الحَوْض أيضاً: أَنسٌ، وجابرٌ، وسَمُرةُ، وابنُ عُمَرَ، وعُقْبةُ بن عامرٍ، وحارثةُ بنُ وَهْبٍ الخُزاعي، والمستَوْرِدُ، وأَبو بَرْزَة الأَسلمي، وحُذَيفةُ بن اليمان، وأَبو أُمامةَ، وزيدُ بن أَرْقَمَ، وابنُ مسعود، وعبداللّه بن زَيد، وسَهلُ بن سعد، وسُوَيد بن جَبَلَةَ، وأَبو بكر، وعُمَرُ بن الخطّاب، وابنُ بُرَيْدَة، وأَبو سَعِيد الخُدْريّ، وعبداللّه الصُّنابِحِي، وأَبو هُريرة، والبراءُ، وجُنْدُب، وعائشة وأسماء ابنتا أَبي بكر، وأَبو بَكْرَةَ، وخَوْلَةُ بنت قَيسٍ، [مسلم (٢٣٠٥)، الترمذي (٢٤٤٣) البخاري (٦٥٩٠)] وغيرهم.

فصل
فِي تَفضِيلِهِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ

جاءت بذلك الأخبار الصحيحة، واختصّ ـ ﷺ ـ على أَلسنةِ المسلمين بحبيب الله.

٥٤٣ ـ أخبرنا أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره، عن كريمة بنت محمد، حدثنا أبو الهيثم (ح) وحدثنا حُسين بن محمد الحافظ سمَاعاً عليه، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا عَبْد بنُ أحمد، حدثنا أبو الهيثم، حدثنا أبو عَبْدُاللّه: محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبداللّه بن محمد، حدثنا أبو عامر، حدثنا فُلَيح، حدثنا أبو النَّضْر، عن بُسْر بن سَعِيد، عن أبي سَعِيد، عن النبي ﷺ، أنه قال: **«لو كنتُ متخِذاً خليلاً ـ غَيرَ رَبّي ـ لاتّخذْتُ أبا بكر»** [البخاري (٣٦٥٤)، مسلم (٢٣٨٢)].

٥٤٤ ـ وفي حديثٍ آخر: **«وإن صاحبَكم خليلُ الله»** [مسلم (٧/٢٣٨٣)، الترمذي (٣٦٥٩)].

٥٤٥ ـ ومِنْ طريقِ عبدِ اللّه بن مسعود: **«وقد اتخذ اللّهُ صاحبَكم خَليلاً»** [مسلم (٣/٢٣٨٣)].

٥٤٦ ـ وعن ابن عباس، قال: جلس ناسٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ

ينتظرونه؛ قال: فخرج حتى إذا دَنَا منهم سمعَهم يتذاكرون؛ فسمِعَ حَدِيثَهم، فقال بعضُهم: عجَباً! إنَّ الله اتخذَ إبراهيم من خلقه خليلاً.

وقال آخر: ماذا بأَعجبَ من كلام موسى كلّمه اللَّهُ تكليماً.

وقال آخر: فعِيسى كلمةُ اللَّهِ ورُوحُه.

وقال آخرُ: وآدمُ اصطفاهُ اللَّهُ.

فخرج عليهم فسلَّم، وقال: «**قَدْ سَمِعْتُ كلامَكم وعجَبَكم؛ أَنَّ اللَّهَ تعالى اتَّخذَ إبراهيم خليلاً، وهو كذلك؛ وموسى نَجِيُّ الله، وهو كذلك؛ وعيسى رُوحُ اللَّهِ، وهو كذلك؛ وآدم اصطفاهُ اللَّهُ، وهو كذلك؛ ألاَ وأنا حَبِيبُ اللَّهِ ولا فَخرَ؛ وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر؛ وأنا أولُ شافع وأولُ مشَفَّع ولا فَخرَ، وأنا أولُ مَنْ يحرِّكُ حَلَقَ الجنةِ فيَفْتَحُ اللَّهُ لي فَيُدْخِلنيها ومعي فُقراءُ المؤمنين، ولا فَخرَ؛ وأنا أكرمُ الأوَّلين والآخِرين، ولا فَخرَ**».

٥٤٧ ـ وفي حديث أبي هريرة ـ رضي اللَّهُ عنه ـ من قَوْلِ الله تعالى لنبيه ﷺ: «**إني اتّخذْتُك خليلاً، فهو مكتوبٌ في التوراة: أَنت حبيبُ الرحمن**».

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: اخْتُلف في تفسير الخُلّة، وأصلِ اشتقاقها؛ فقيل: الخليلُ: المنْقَطِعُ إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبتِه له اختلالٌ.

وقيل: الخليلُ: المختصّ، واختار هذا القولَ غَيْرُ واحد.

وقال بعضُهم: أصلُ الخُلّة الاستصفاء: وسُمِّي إبراهيم خليلَ الله؛ لأنه يُوالِي فيه ويُعادِي فيه؛ وخُلَّةُ اللَّهِ له: نصْرُهُ، وجَعْلُه إماماً لِمَنْ بَعْدَهُ.

وقيل: الخليل: أصلُه الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخَلّة وهي الحاجة؛ فسُمِّي بها إبراهيم، لأنه قصرَ حاجَته على ربّه، وانقطع إليه بِهَمِّهِ، ولم يجعله قِبلَ غيره.

٥٤٨ ـ إذ جاءه جبريلُ عليه السلام وهو في المَنْجَنِيق، ليُرْمَى به في النار، قال: ألكَ حاجة؟ فقال: أمّا إليكَ فلا.

وقال أبو بكر بن فُورَك: الخُلّة: صفاءُ المودّةِ التي توجِب الاختصاصَ بتخلُّل الأسرار.

وقال بعضهم: أصلُ الخُلَّة: المحبة؛ ومعناها: الإسعافُ والإلطاف، والترفيع، والتشفيع؛ وقد بيَّن ذلك تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن

يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

فأوجب للمحبوب ألاَّ يُؤاخَذ بذنوبه.

قال: هذا، والخُلَّة أقوى من البُنُوَّة؛ لأنّ البُنُوَّة قد يكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

ولا يصح أن تكونَ عداوةٌ مع خلّةٍ؛ فإذاً تسميةُ إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما السلام بالخُلَّة إمَّا بانقطاعهما إلى الله ووَقْفِ حوائجهما عليه، والانقطاعِ عمّن دونه، والإضراب عن الوسائط والأسباب؛ أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخَفِيّ أَلْطافِه عندهما، وما خالَلَ بواطنهما من أسرارِ إلٰهيته، ومكنون غُيوبه ومعرفتِه، أو لاستِصْفَائِه لهما، واستِصفاء قُلُوبهما عمَّن سوَاه، حتى لم يُخالِلْهما حبٌّ لغيره؛ ولهذا قال بعضهم: الخليل مَنْ لا يتَّسعُ قَلْبه لسواه.

٥٤٩ ـ وهو عندهم معنى قوله ﷺ: «**ولو كنتُ متَّخِذاً خليلاً لاتخذْتُ أبا بكر خليلاً؛ لكنْ أُخوَّةُ الإسلام**».

واختلف العلماء وأربابُ القلوب: أَيُّهما أرفعُ درجةً: الخُلَّة، أَو درجة المحبةِ؟ فجعلهما بعضُهم سواءً؛ فلا يكون الحبيبُ إلاّ خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خَصّ إبراهيمَ بالخُلَّة، ومحمداً بالمحبة.

٥٥٠ ـ وبعضهم قال: درجةُ الخُلَّة أَرفعُ؛ واحتج بقوله ﷺ: «**لو كنتُ متَّخِذاً خليلاً غيرَ ربِّي عزَّ وجلَّ**» فلم يتَّخِذْه.

وقد أطلقَ المحبَّة ﷺ لفاطمة، وابْنَيْها، وأُسامَةَ، وغيرِهم.

وأكثرُهم جعل المحبَّة أرفع من الخُلَّة؛ لأنَّ درجة الحبيبِ نبيِّنا أَرفعُ من درجة الخليل إبراهيم.

وأَصْلُ المحبةِ الميلُ إلى ما يوافِقُ المحِبَّ؛ ولكنْ هذا في حق مَنْ يَصِحُّ الميلُ منه والانتفاعُ بالوَفْق؛ وهي دَرَجةُ المخلوق؛ فأَما الخالق ـ جلَّ جلالهُ ـ فمنزَّهٌ عن الأغراض؛ فمحبتُه لعَبْدِه تمكينُه من سعادته، وعِصْمتُه وتوفيقُه وتهيئةُ أسباب القُرْب، وإفاضة رحمته عليه؛ وقصواها كَشْفُ الحُجب عن قَلبه حتى يراهُ بقَلْبه، وينظر إليه ببَصِيرته.

٥٥١ ـ فيكون كما قال في الحديث: «**فإذا أَحببتُه كنتُ سَمْعَه الذي يسمَعُ به، وبَصَرَه الذي يُبصر به، ولسانَهُ الذي ينطق به**» [البخاري (٦٥٠٢)].

ولا ينبغي أَنْ يُفهم مِنْ هذا سوى التَّجرُّدِ لِلَّهِ، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاءِ القَلْبِ لله، وإخلاصِ الحركات لله.

٥٥٢ ـ كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان خُلُقُه القرآن؛ برضاه يَرْضى، وبِسُخْطِه يسخَطُ؛ ومِنْ هذا عَبَّر بعضُهم عن الخُلَّة بقوله:

قد تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وبِذا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلا
فإذا مَا نطقْتُ كُنْتَ حَدِيثي ... وإذا ما سَكَتُّ كُنْتَ الغَلِيلا

فإذاً مزيّةُ الخُلَّةِ وخُصوصيةُ المحبّة حاصلة لنبينا ﷺ بما دلّت عليه الآثارُ الصحيحة المنتشرة، المتلَقَّاةُ بالقَبول من الأمة، وكفى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

حَكَى أَهْلُ التفسير أَنَّ هذه الآيَةَ لمّا نزلَتْ قال الكفّارُ: إنما يريدُ محمدٌ أَنْ نتخذَه حَناناً كما اتخذت النّصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله، غَيْظاً لهم، ورَغْماً على مَقَالتهم، هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فزاده شرفاً بأَمرِهم بطاعته، وقَرَنها بطاعته، ثم توعَّدهم على التَّولّي عنه بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقد نقل الإمامُ أبو بكر بن فُورَك عن بعض المتكلمين كلاماً في الفرق بين المحبة والخُلَّة يطولُ، جملةُ إشاراتِه إلى تفضيل مقام المحبة على الخُلة؛ ونحن نذكر منه طَرَفاً يهْدِي إلى ما بعده.

فمن ذلك قولهم: الخليلُ يَصِلُ بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥].

والحبيبُ يصِلُ إليه، من قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٩].

وقيل: الخليل: الذي تكون مغفِرَتُه في حدِّ الطمع، من قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢].

والحبيبُ الذي مَغفِرَتُه في حدِّ اليقين، من قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ٢].

والخليلُ قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء: ٨٧].

والحبيبُ قيل له: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: ٨]؛ فابْتُدِىءَ بالبِشارة قَبْلَ السؤال.

والخليلُ قال في المِحْنَة: حَسْبِيَ الله.

والحبيبُ قيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

والخليلُ قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤].

والحبيبُ قيل له: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الانشراح: ٤] أُعطِيَ بلا سؤال.

والخليلُ قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والحبيبُ قيل له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفيما ذكَرْناهُ تنبيهٌ على مَقْصِدِ أصحاب هذا المقال مِنْ تفضيل المقاماتِ والأحوال؛ و ﴿كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٤].

فصل
فِي تَفْضِيلِهِ بِالشَّفَاعَةِ والمَقَامِ المَحْمُودِ

قال اللَّهُ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

٥٥٣ ـ أخبرنا الشيخُ أبو عليّ الغَسَّاني الجيَّاني فيما كتب به إليّ بخطِّهِ، حدثنا سِرَاجُ بن عبداللّه القاضي، حدثنا أبو محمد الأصِيلي، حدثنا أبو زَيْد، وأبو أَحمد؛ قالا: حدثنا محمد بن يوسف؛ قال: حدثنا محمد بن إسماعيل؛ قال: حدثنا إسماعيل بن أَبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن عليّ؛ قال: سمعتُ ابْنَ عمر يقول: إنّ الناسَ يصيرون يوم القيامةِ جُثاً، كلُّ أُمةٍ تَتْبَع نبيَّها، يقولون: يا فلانُ! اشفَعْ لنا؛ يا فلانُ! اشفَعْ لنا، حتى تنتهي الشفاعةُ إلى النبيّ ﷺ، فذلكَ يوم يبعثُه اللّهُ المقامَ المحمود [البخاري (٤٧١٨)].

٥٥٤ ـ وعن أبي هريرة: سُئل عنها رسولُ الله ﷺ، يعني قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فقال: «**هي الشفاعة**» [الترمذي (٣١٣٧)، أحمد (٢/٤٤٤)].

٥٥٥ ـ وروى كعبُ بن مالك، عنه عليه السلام: «**يُحْشَرُ الناسُ يوم القيامةِ فأكون أنا وأُمتي على تَلٍّ، ويكسوني رَبِّي حُلَّةً خضراء، ثم يُؤْذَن لي فأقول ما شاءَ اللّهُ أن أقول؛ فذلك المَقَامُ المحمود**» [أحمد (٣/٤٥٦)].

٥٥٦ ـ وعن ابن عُمر رضي الله عنه ـ وذكر حديثَ الشفاعةِ ـ قال: فيَمْشِي حتى يأخذَ بِحلْقَةِ الجنَّة، فيومئذٍ يَبْعَثُه اللّهُ المقامَ المحمودَ الذي وَعَده.

٥٥٧ ـ وعن ابن مسعود، عنه عليه السلام: إنه قِيامُه عن يمين العَرْشِ مَقاماً لا يقومُه غَيْرُه، يغبِطه فيه الأَوَّلون والآخِرون.

ونَحوه عن كَعْبٍ، والحَسَنِ.

٥٥٨ ـ وفي رواية: **«هو المَقَامُ الذي أَشفَعُ لأُمَّتي فيه»** [أحمد (٢/٤٤١، ٥٢٨)].

٥٥٩ ـ وعن ابنِ مسعود، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إني لقائم المقامَ المحمودَ»** قيل: وما هو؟ قال: **«ذلكَ يومٌ ينزِلُ اللَّهُ تبارك وتعالى على كُرْسيّه...»** الحديث.

٥٦٠ ـ وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ عنه ﷺ: **«خُيِّرْتُ بين أن يدخُلَ نصفُ أمتي الجنةَ وبين الشفاعة فاختَرت الشفاعةَ؛ لأنها أعمّ؛ أَتَرَوْنَها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين الخطّائين»** [ابن ماجه (٤٣١١)].

٥٦١ ـ وعن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله! ماذا وَرَدَ عليكَ في الشفاعة؟ فقال: **«شفاعتي لمَنْ شَهِد أنْ لا إله إلا اللَّهُ مُخْلصاً، يصدِّقُ لسانَه قلبُه»** [أحمد (٢/٣٠٧)].

٥٦٢ ـ وعن أمّ حَبيبةَ، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أُريتُ ما تَلْقى أُمّتي من بَعْدي، وسَفْكَ بعضِهم دماءَ بَعْضٍ، وسبقَ لهم مِنَ الله ما سبقَ للأمم قَبْلَهم؛ فسألتُ اللَّهَ أن يؤتيني شفاعةً يوم القيامةِ فيهم، ففعل»** [أحمد (٦/ ٤٢٧ـ ٤٢٨)].

٥٦٣ ـ وقال حذيفةُ: يجمعُ اللَّهُ الناسَ، في صعيدٍ واحدٍ، حيث يُسْمِعهم الداعي، ويَنْفُذُهُم البصرُ، حُفَاةً عُراةً كما خُلِقوا، سُكوتاً لا تكلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بإذْنِه، فيُنَادَى: محمدُ! فيقول: لبَّيْكَ وسَعْدَيك، والخَيْرُ في يَدَيْكَ، والشرُّ ليس إليكَ، والمُهْتَدِي مَنْ هَدَيْت، وعَبْدُكَ بين يديكَ، ولكَ وإليكَ، لا مَلْجأَ ولا مَنجى مِنكَ إلا إليك، تباركْتَ وتعاليْت، سبحانَك رَبَّ البيتِ، قال: فذلكَ المقامُ المحمود الذي ذَكر الله [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٦٤ ـ وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما: إذا دخل أَهْلُ النارِ النارَ، وأَهلُ الجنّةِ الجنّةَ، فتبقَى آخِرُ زُمْرَةٍ من الجنةِ وآخِرُ زُمْرة من النار؛ فتقول زمرةُ النارِ لزُمْرَةِ الجنَّة: ما نَفَعَكُم إيمانُكم، فيَدْعُونَ رَبَّهم ويَضجُّون، فيسمعهم أَهلُ الجنةِ، فيسألونَ آدمَ وغيره بعدهُ في الشفاعة لهم؛ فكُلٌّ يعتذِرُ حتى يأْتُوا محمداً ﷺ، فيشفع لهم، فذلك المقامُ المحمود.

٥٦٥ ـ ونحوه عن ابن مسعود أيضاً، ومجاهد.

٥٦٦ ـ وذكره عليُّ بن الحسين عن النبي ﷺ.

٥٦٧ ـ وقال جابر بن عبدالله لِيَزِيْدَ الفقيرِ: سَمِعْتَ بمقام محمد؟ يعني الذي يبعثُه اللَّهُ فيه.

قال: نعم. قال: فإنه مَقامُ محمدٍ المحمودُ الذي يُخرِجُ اللَّهُ به مَنْ يُخرِج - يعني من النار - وذكر حديثَ الشفاعة في إخراج الجهنَّمِيِّين [مسلم (١٩١/٣٢٠)].

٥٦٨ - وعن أَنس نحوه [البخاري (٤٤)، مسلم (١٩٣)]، وقال: فهذا المقامُ المحمودُ الذي وُعِدَه [أحمد (٣/ ٢٤٤- ٢٤٥)].

٥٦٩ - وعن سَلْمانَ: المقامُ المحمودُ هو الشفاعةُ في أُمته يومَ القيامة.

٥٧٠ - ومثلُه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال قَتَادَةُ: كان أهلُ العلمِ يرَونَ المقام المحمودَ هو شفاعتُه يوم القيامة.

وعلى أن المقام المحمودَ مَقامُهُ - عليه الصلاة والسلامُ - للشفاعةِ مذاهبُ السلَفِ من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين. وبذلك جاءت الشفاعةُ مُفَسَّرةً في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاةُ والسلامُ. وجاءت مقالةٌ في تفسيرها شاذَّة عن بعض السلف، يجبُ ألاَّ تثبتَ، إذا لم يعضدها صحيحُ أثر، ولا سندُ نظر.

ولو صحَّتْ لكان لها تأويلٌ غيرُ مستَنْكَر؛ لكن ما فسّره النبيُّ ﷺ في صحيح الآثار يردُّه؛ فلا يجبُ أن يُلْتفتَ إليه، مع أنه لم يأتِ في كتابٍ ولا سُنّةٍ، ولا اتّفقَ على المقالِ أُمّةٌ؛ وفي إطلاق ظاهره مُنكرٌ من القول وشُنْعَة.

٥٧١ - وفي روايةِ أنسٍ وأبي هريرة وغيرهما - دخل حديثُ بعضهم على بعض - قال ﷺ: «**يجمعُ اللَّهُ الأوَّلين والآخِرين يوم القيامة فيَهتَمُّون - أو قال: فيُلْهَمُونَ - فيقولون: لو استَشْفَعْنا إلى ربِّنا**» [البخاري (٤٤) مسلم (١٩٣/٣٢٢)،].

٥٧٢ - ومن طريقٍ آخر عنه: «**ماج الناسُ بعضُهم في بعض**» [البخاري (٧٥١٠) مسلم (١٩٣/٣٢٦)].

٥٧٣ - وعن أبي هريرة: «**وتَدْنو الشمسُ، فيبلغُ الناسَ من الغَمّ ما لا يُطِيقون ولا يحتملون؛ فيقولُونَ: ألا تَنظرون مَنْ يشفَعُ لكم؟ فيأتون آدمَ فيقولون** - زاد بعضُهم -: **أنْتَ آدمُ أبو البَشَر، خلقك الله بيَده، ونفخَ فيك مِنْ رُوحِه، وأسكَنَكَ جنته، وأسْجَدَ لك ملائكَته، وعلَّمكَ أسماء كلِّ شيء. اشْفَعْ لنا عند ربّكَ حتى يُريحَنا مِنْ مكاننا؛ ألا تَرَى ما نحن فيه؟**

فيقول: إنَّ رَبِّي غَضِبَ اليومَ غَضباً لم يغضَبْ قبله مثلَه، ولا يغضب بعده مِثلَه، نهاني عن الشَّجَرةِ فعصَيْتُ؛ نَفسي، نَفْسي. اذهبُوا إلى غيري، اذهبوا إلى نُوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: أَنْتَ أولُ الرسُلِ إلى أهل الأرضِ، وسمَّاكَ اللَّهُ عَبْداً

شَكُوراً، أَلاَ تَرَى ما نحن فيه؟ أَلاَ تَرَى ما بلغَنَا؟ أَلاَ تَشْفَع لنا إلى ربِّك؟ فيقول: إنّ ربِّي غَضِبَ اليومَ غضباً لم يغضَبْ قبله مِثْلَه، ولا يغضبُ بعده مِثْلَه، نفسي، نَفْسي» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٤ ـ قال ـ في رواية أَنس: «ويذكُر خطيئتَه التي أصاب: سؤالَهُ ربَّهُ بغير علم» [البخاري (٧٤٤٠)، مسلم (١٩٣)].

٥٧٥ ـ وفي رواية أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه: «وقد كانت لي دعوةٌ دعوتُها على قَوْمي، اذهَبُوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليلُ اللَّهِ.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أَنْتَ نبيُّ اللَّهِ وخليلُه من أهل الأرض، اشْفَع لنا إلى ربِّكَ، أَلاَ تَرى ما نحْنُ فيه؟

فيقول: إنَّ ربي قَدْ غضِب اليومَ غضَباً ـ وذكر مِثْلَه ـ ويذكر ثلاثَ كلمات كَذَبَهُنّ، نَفْسِي، نَفْسي، لستُ لها، ولكِنْ عليكم بمُوسى؛ فإنه كَلِيمُ اللَّهِ» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٦ ـ وفي رواية: «فإنه عَبْدٌ آتاه اللَّهُ التوراةَ، وكلَّمَه وقرَّبه نَجِيّاً» [البخاري (٧٤٤٠)، أحمد (٢٤٤/٣)].

٥٧٧ ـ قال: «فيأْتُون موسى؛ فيقول: لستُ لها، ويذكر خطِيئته التي أَصاب، وقَتْلَه النفسَ، نفسي، نفسي، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه رُوحُ اللَّهِ وكلمَتُه.

فَيأْتُونَ عيسى؛ فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، عَبْدٍ غفر اللَّهُ له ما تقدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّر.

فأُوتَى، فأقول: أنا لها.

فأَنْطَلِقُ، فأستأذِنُ على ربّي، فيُؤْذَنُ لي، فإذا رأيتُه وقعْتُ ساجداً» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٧٨ ـ وفي روايةٍ: «فآتِي تحت العَرْشِ، فأَخِرُّ ساجداً» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٧٩ ـ وفي روايةٍ: «فأقوم بين يديه، فأحمدهُ بمحامِدَ لا أَقدر عليها إلاَّ أن يُلْهِمَنيها الله» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٠ ـ وفي روايةٍ: «فيفْتَح اللَّهُ عليّ مِنْ محامِدِهِ، وحُسْن الثناء عليه شيئاً لم يفتَحْه على أحدٍ قَبْلي».

قال ـ في رواية أبي هريرة ـ: «فيُقال: يا محمَّدُ! ارْفَعْ رأسَك، سَلْ تُعطَهْ،

واشفَعْ تشفَّعْ؛ فأَرفَعُ رَأسي، فأقول: يا ربِّ! أُمتي؛ يا ربِّ! أمتي. فيقول: أَدْخِلْ من أمتك مَنْ لا حِسابَ عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة؛ وهم شركاءُ الناسِ فيما سِوَى ذلك من الأبواب» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٨١ ـ ولم يذكُرْ في رواية أَنس هذا الفَضلَ، وقال مكانه: «ثم أَخِرُّ ساجداً؛ فيقال لِي: يا محمد! ارفَعْ رأسك، وقُلْ يُسْمَع لك، واشفَعْ تُشفَّعْ، وسَلْ تُعطَهْ. فأقول: يا ربِّ! أمتي، أُمتي. فيقال: انطلِقْ، فمَنْ كان في قلبه مِثْقال حبَّةٍ من بُرَّةٍ أو شَعِيرةٍ من إيمان فأَخرِجه، فأنطلِقُ فأَفعَلُ.

ثم أرجعُ إلى ربي، فأَحْمَدُه بتلك المحامِدِ. . .» وذكر مِثْلَ الأول؛ وقال فيه: «مثقال حبَّةٍ من خَرْدل. قال: فأفعل، ثم أَرجع. .» وذَكَر مِثْلَ ما تَقدم، وقال فيه: «مَنْ كان في قَلْبه أَدْنَى أدنى أدنَىٰ مِنْ مثقالِ حَبَّةٍ من خَرْدل؛ فأَفْعَلُ».

وذَكَر في المرة الرابعة: «فيُقال لي: ارْفَع رَأْسَك، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَع تُشفَّعْ، وسَلْ تُعْطَهْ».

فيقول: «يا ربِّ! ائذَنْ لي فيمن قال: لا إله إلا الله. قال: ليس ذلكَ إليك.

ولكن وعِزَّتي! وكبريائي! وعظَمَتي! وجِبْريائي! لأُخرِجَنَّ مِنَ النار مَنْ قال: لا إله إلا اللَّهُ» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٢ ـ وفي رواية قَتادةَ عنه؛ قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة: «فأقول: يا ربِّ! ما بَقِيَ في النار إلا مَنْ حبَسه القرآنُ» [البخاري (٤٤٧٦)، مسلم (٣٢٢/١٩٣)] أي وجب عليه الخلود.

٥٨٣ وحتى **٥٨٦** ـ وعن أبي بكر، وعُقبة بن عامر، وأَبي سَعِيد [الترمذي (٣١٤٨)]، وحُذَيْفَةَ مثله [مسلم (١٩٥)]؛ قال: «فيأتون محمداً فيُؤذَن له، وتأتي الأَمانةُ والرحِمُ فتقومان جَنَبَتَي الصراط».

وذكر في روايةِ أبي مالِك عن حذيفة: «فيأتون محمداً فيَشفَع؛ فيُضرَبُ الصراطُ، فيمرُّون: أولُهم كالبَرْقِ، ثم كالرِّيح، والطَّير، وشدّ الرِّجال، ونبيُّكم ﷺ على الصراط يقول: اللهمّ! سلِّمْ سلِّمْ، حتى يَجْتاز الناس. وذكر آخِرَهم جَوازاً. . .» الحديث.

٥٨٧ ـ وفي رواية أَبي هريرة: «فأكون أوّلَ من يُجيز» [البخاري (٨٠٦)، مسلم (١٨٢)].

٥٨٨ ـ وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «يوضَعُ للأنبياءِ مَنابرُ يجلسون عليها،

ويَبْقى مِنبَري لا أجلس عليه، قائماً بين يَدَي رَبي مُنتصباً، فيقول الله تبارك وتعالى: ما تُريدُ أنْ أصنعَ بأُمتِكَ؟ فأقول: يا ربِّ! عَجِّل حسابَهم، فيُدْعى بهم، فيُحاسَبُونَ.

فمنهم مَنْ يَدْخُلُ الجنة برحمَته، ومنهم مَنْ يدخلُ الجنةَ بشفاعتي، ولا أَزال أشفَعُ حتى أُعْطَى صِكَاكاً برجالٍ قد أُمِرَ بهم إلى النار، حتى إنّ خازنَ النارِ ليقول: يا محمدُ! ما تركْتَ لِغَضب رَبِّك في أمتك من نِقْمَة».

٥٨٩ ـ ومن طريق زِيَاد النُّمَيْرِي، عن أنس أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أنا أول مَنْ تَنفلِقُ الأرض عن جُمْجمته ولاَ فَخرَ، وأنا سيِّدُ الناس يوم القيامة ولا فَخر، ومعي لواءُ الحَمْد يوم القيامةِ، وأنا أَولُ مَنْ تُفْتَحُ له الجنةُ ولا فَخر، فآتي فآخذ بحلْقَةِ الجنةِ، فيقالُ: مَنْ هذا؟ فأقول: محمدٌ؛ فيُفتَحُ لي، فيستقبلُني الجبَّارُ تعالى، فأَخِرُّ له ساجداً..**» [أحمد (١٤٤/٣)] وذكر نحو ما تقدَّم.

٥٩٠ ـ ومن رواية أُنَيْسٍ، سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**لأَشْفَعَنَّ يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حَجر وشجَر**» [أحمد (٣٤٧/٥)].

فقد اجتمع من اختلافِ أَلفاظِ هذه الآثارِ أنّ شفاعَته ـ ﷺ ـ ومقامه المحمودَ من أولِ الشفاعات إلى آخِرها، من حين يجتمعُ الناسُ للْحَشْرِ، وتضِيق بهم الحناجِرُ، ويبلغُ منهم العَرَقُ والشمسُ والوقوفُ مَبْلَغَه، وذلك قبلَ الحساب، فيشفَعُ حينئذٍ لإراحةِ الناس من الموقف، ثم يُوضَعُ الصِّراطُ، ويحاسَبُ الناسُ ـ كما جاء في الحديث عن أبي هريرة وحُذيفَة ـ وهذا الحديثُ أَتْقَنُ. فيشفعُ في تعجيل مَنْ لا حسابَ عليه من أُمته إلى الجنة ـ كما جاء في الحديث ـ ثم يشفَعُ فيمن وجب عليه العذَابُ، ودخل النارَ منهم حَسْبَ ما تقتضيه الأحاديث الصحيحة، ثم فيمن قال: لا إله إلا الله. وليس هذا لسِوَاه ﷺ.

٥٩١ ـ وفي الحديثِ المُنْتَشر الصحيح: «**لكلّ نبيّ دَعوةٌ يدعُو بها، واختبأْتُ دَعْوتي شفاعةً لأُمّتي يوم القيامة**».

قال أهلُ العلم: معناه دعوةٌ أُعْلِمَ أنها تُستجابُ لهم، ويُبْلَغُ فيها مرغوبُهم، وإلا فكم لكلّ نبيّ منهم من دَعْوةٍ مستجابةٍ، ولنبيِّنا ﷺ منها ما لا يُعَدُّ؛ لكن حالهم عند الدعاءِ بها بَيْنَ الرجاءِ والخوفِ، وضُمِنَتْ لهم إجابةُ دعوةٍ فيمن شاؤوه، يَدْعونَ بها على يقينٍ مِن الإجابةِ.

٥٩٢ ـ وقد قال محمد بن زِيَاد، وأَبو صالح، عن أبي هُريرة في هذا الحديث: «**لكلّ نبيّ دعوةٌ مستجابة دَعا بها في أمته، فاستُجِيب له؛ وأنا أُريدُ أن**

أُؤَخِّرَ، دَعْوَتي شفاعة لأُمتي يوم القيامة» [مسلم (٣٤٠/١٩٩)، البخاري (٦٣٠٤، ٧٤٧٤)].

٥٩٣ ـ وفي رواية أبي صالح: «**لكل نبيّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجّلَ كلُّ نَبِيّ دعوتَه**» [مسلم (٣٣٨/١٩٩)].

٥٩٤ ـ ونحوه في روايةِ أبي زُرْعَةَ عن أبي هُريرة [مسلم (٣٣٩/١٩٩)].

٥٩٥ ـ وعن أَنس [البخاري (٦٣٠٥)، مسلم (٢٠٠)] مثْلُ رواية ابن زياد، عن أبي هريرة.

فتكون هذه الدعوةُ المذكورة مخصوصةً بالأمة؛ مضمونَة الإجابة؛ وإلاّ فقد أَخبر ﷺ أنه سأَل لأمته أشياء من أُمور الدين والدنيا أُعطي بعضها، ومُنِع بعضَها، وادّخر لهم هذه الدعوةَ ليوم الفاقةِ، وخاتمةِ المِحَن، وعظيمِ السؤالِ والرغبة.

جزاهُ الله أحسنَ ما جَزَى نبيًا عن أمته، وصلى الله عليه وسلم كثيراً.

فصل
فِي تَفضِيلِهِ فِي الجَنَّة بِالْوَسِيلَةِ وَالدَّرجةِ الرَّفِيعَةِ وَالْكَوثَرِ وَالفَضِيلَةِ

٥٩٦ ـ حدثنا القاضي أبو عَبْدُاللّه: محمد بن عيسى التميمي، والفقيه أبو الوليد: هشامُ بن أحمد، بقراءتي عليه؛ قالا: حدثنا أَبو عليّ الغَسّاني، حدثنا النَّمَريُّ، حدثنا ابنُ عبدالمُؤمن، حدثنا أبو بكر التَمّار، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن سلَمَة، حدثنا ابْنُ وَهْب، عن ابن لَهِيْعَةَ، وحَيْوَةَ، وسَعِيد بن أَبي أيوب، عن كعب بن علقمة، عن عبدالرحمن بن جُبَيْر، عن عبداللّه بن عمرو بن العاص، أَنه سمع النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: «**إذا سمعتُمُ المؤذِّن فقولوا مثْلَ ما يقول، ثم صلّوا عليّ؛ فإنه مَنْ صَلّى عَلَيَّ مرةً صلى اللّهُ عليه عشراً؛ ثُمَّ سَلُوا الله تعالى لي الوسيلة؛ فإنها منزلةٌ في الجنةِ لا تَنْبَغِي إلاَّ لعبدٍ مِنْ عِبادِ الله؛ وأَرجو أَن أكون أنا هو، فَمَنْ سأل الله لي الوسيلَة حلَّت عليه الشفاعةُ**» [مسلم (٣٨٤)، أبو داود (٥٢٣)].

٥٩٧ ـ وفي حديث آخر، عن أَبي هريرة: «**الوَسِيلةُ أعلىٰ درجةٍ في الجنةِ**» [الترمذي (٣٦١٢)].

٥٩٨ ـ وعن أَنس: قال رسولُ الله ﷺ: «**بينا أنا أَسِيرُ في الجنة إذ عَرَض لي نهرٌ حافَّتاه قِبَابُ اللؤلؤ.**

قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكَوْثَرُ الذي أَعطاكَهُ الله. قال: ثم ضرب

بيده إلى طِينهِ، فاستخرج مِسْكاً» [البخاري (٦٥٨١)، مسلم (٤٠٠)، الترمذي (٣٣٦٠)].

٥٩٩، ٦٠٠ ـ وعن عائشة [البخاري (٤٩٦٥)] وعبدالله بن عُمَرَ مثلُه. قال: «**ومَجْراهُ على الدُّرِّ والياقوت، وماؤه أحلى من العسَل، وأبيضُ من الثَّلج**» [الترمذي (٣٣٦١)، ابن ماجه (٤٣٣٤)، أحمد (١١٢/٢)].

٦٠١ ـ وفي رواية، عنه: «**فإذا هو يَجْري، ولم يَشُقَّ شقاً، عليه حَوْض تَرِدُ عليه أُمتي. . .**» [أحمد (٢٤٧/٣)]، وذكر حديثَ الحَوْضِ.

٦٠٢ ـ ونحوه عَنِ ابْنِ عباس.

٦٠٣ ـ وعن ابن عباس أيضاً، قال: الكوثَرُ: الخير الذي أَعطاه اللَّهُ إيَّاه [البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٤ ـ وقال سَعِيد بن جُبَير: والنهرُ الذي في الجنةِ من الخير الذي أعطاهُ اللَّهُ [البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٥ ـ وعن حُذَيفَةَ، فيما ذَكَره ـ عليه السلام ـ عن رَبّه: «**وأعطاني الكوثَرَ، وهو نهر من الجنة، يَسيلُ في حَوْضي**».

٦٠٦ ـ وعن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]؛ قال: أَلْفُ قصرٍ من لُؤْلُؤ، تُرَابُهنَّ المِسْكُ، وفيه ما يُصْلحهنّ. وفي روايةٍ أُخرى: وفيه ما ينبغي له من الأَزْواج والخَدَم.

فصل

فِيَ مَعْنَى الأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِنَهْيِهِ ﷺ عَنْ تَفْضِيلِهِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ

٦٠٧ ـ فإن قُلْتَ: إِذَا تقرَّر مِنْ دليلِ القرآن، وصحيحِ الأَثَر، وإجماع الأمة ـ كونُه أكرمَ البشَر، وأفضلَ الأَنبياء ـ فما معنى الأحاديث الواردةِ بِنَهْيِهِ عن التفضيل؟ كقوله ـ فيما حدثنا الأَسَديُّ ـ قال: حدثنا السَّمَرْقَنْدي، حدثنا الفارسيّ، حدثنا الجُلُوديّ، حدثنا ابْنُ سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا ابْنُ مُثَنَّى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبة، عن قَتَادة: سمعت أَبا العالية يقول: حدثني ابنُ عَمّ نبيِّكم ﷺ ـ يعني ابنَ عباس ـ عن النبيّ ﷺ؛ قال: «**ما ينبغي لعَبْدٍ أَنْ يقول: أَنا خيرٌ من يونُس بن مَتّى**» [مسلم (٢٣٧٧)، البخاري (٣٤١٣)].

٦٠٨ ـ وفي غير هذا الطريق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ـ يعني اللَّهَ ـ: «ما ينبغي لعبدٍ. . .» الحديث [مسلم (٢٣٧٦)، البخاري (٣٤١٦)].

٦٠٩ - وفي حديث أبي هريرة، في اليهوديّ الذي قال: والذي اصطفى موسى على البَشَرِ! فلطمهُ رجلٌ من الأنصار، وقال: تقولُ ذلك ورسولُ الله ﷺ بين أَظْهُرِنا؟!

فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: **«لا تفضّلُوا بين الأَنبياء»**.

٦١٠ - وفي رواية: **«لا تخيّروني على موسى»** فذكر الحديث.

٦١١ - وفيه: **«ولا أقولُ: إن أَحداً أفضَلُ من يونس بن مَتَّى»** [البخاري (٣٤١٥)، مسلم (٢٣٧٣/١٥٩)].

٦١٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: **«مَنْ قال: أَنا خيرٌ من يونس بن متّى فقد كذب»** [البخاري (٤٦٠٤، ٤٨٠٥)].

٦١٣ - وعن ابنِ مسعود: **«لا يقولَنَّ أَحدُكم أنا خيرٌ من يونس بن متّى»** [البخاري (٣٤١٢)].

٦١٤ - وفي حديثه الآخر: فجاءه ﷺ رجلٌ، فقال له: يا خَيْرَ البَرِيّة! فقال: **«ذاك إبراهيم»** [مسلم (٢٣٦٩)].

فاعلَمْ أنَّ للعلماء في هذه الأحاديثِ تأويلاتٍ:

أحدها: أَنَّ نَهْيَه عن التفضيلِ كان قَبلَ أَنْ يعلمَ أنه سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ؛ فنهى عن التفضيل؛ إذ يحتاج إلى توقيف؛ وأَنَّ مَنْ فضَّل بلا عِلْم فقد كذَب.

٦١٥ - وكذلك قوله: **«لا أقولُ إنَّ أَحداً أفضلُ منه»** لا يقتضي تفضيلَه هو؛ وإنما هو في الظاهر كفٌّ عن التفضيل.

الوجه الثاني: أنه قاله ﷺ على طريقِ التواضُع، ونَفْيِ التكبُّر والعُجْب. وهذا لا يَسْلَم من الاعتراض.

الوجه الثالث: أَلاَّ يُفَضّل بينهم تفضيلاً يُؤَدّي إلى تنقُّصِ بعضهم، أو الغضّ منه، لا سيّما في جهةِ يونس عليه السلام؛ إذ أخبر اللَّهُ عنه بما أخبر لئلا يقَعَ في نَفْس مَنْ لا يَعْلَمُ منهُ بذلك غَضَاضَةٌ وانحطاطٌ من رُتْبته الرفيعة؛ إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٤٠]، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فربما يُخَيَّل لمَنْ لا عِلْمَ عنده حَطيطَتُه، بذلك.

الوجه الرابع: مَنْعُ التفضيل في حقّ النبوّة والرسالة؛ فإن الأنبياء فيها على حدٍّ واحدٍ؛ إذ هي شيءٌ واحدٌ لا يَتَفَاضَل؛ وإنما التفاضُل في زيادةِ الأحوالِ والخصوص، والكرامات، والرُّتَب، والأَلطافِ؛ وأما النبوةُ في نفسها فلا تتفاضَلُ؛ وإنما التفاضلُ بأمور أُخَر زائدة عليها؛ ولذلكَ منهم رسلٌ، ومنهم أُولو عَزْمٍ من

الرسل؛ ومنهم مَنْ رُفِعَ مكاناً علياً؛ ومنهم مَنْ أُوتِيَ الحُكم صَبِياً؛ وأُوتِيَ بعضُهم الزُّبُرَ، وبعضُهم البيّناتِ، ومنهم مَنْ كلَّمَ اللَّهُ؛ ورفع بعضَهم فوق بعض درجاتٍ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

قال بعضُ أهلِ العِلْمِ: والتفضيل المرادُ لهم هنا في الدنيا؛ وذلك بثلاثة أحوال: أن تكونَ آياتُه ومعجزاتُه أَبهر، وأَشهر؛ أو تكونَ أُمتُه أزكَى وأكثر؛ أو يكون في ذاته أفضلَ وأَظْهر، وفضْلُه في ذاته راجعٌ إلى ما خصّه اللَّهُ به من كرامتِهِ، واختصاصِهِ من كلامٍ، أو خُلَّةٍ، أو رُؤْيةٍ، أو ما شاء اللَّهُ من ألطافِهِ، وتُحَفِ ولايته، واختصاصِه.

٦١٦ ـ وقد رُوي أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنّ للنبوّة أثقالاً؛ وإنَّ يونس تَفَسَّخَ منها تفسُّخَ الرُّبَع**» فحفِظَ رسولُ الله ﷺ مَوْضعَ الفِتْنةِ، مِنْ أوهام مَنْ يسبقُ إليه بسببها جَرْحٌ في نُبوَّته، أو قَدْحٌ في اصْطِفائه، وحَطٌّ من رُتْبته، ووهْنٌ في عصمته، شفقةً منه ـ ﷺ ـ على أُمّته.

وقد يتوجّهُ ـ على هذا الترتيب ـ وجْهٌ خامس؛ وهو أن يكون «**أنا**» راجعاً إلى القائل نَفْسِه؛ أي لا يظنُّ أحدٌ ـ وإن بلغ من الذَّكاء والعِصْمَةِ والطهارة، ما بلغ ـ أنه خَيْرٌ من يونس، لأجل ما حَكَى اللَّهُ عنه، فإنّ درجةَ النبوّةِ أفضلُ وأَعْلَى، وإنَّ تلك الأقدارَ لم تحطّه، عنها حبّةَ خَرْدَل ولا أدْنَى.

وسنزيد في القسم الثالث من هذا بياناً. إن شاء اللَّهُ تعالى.

فقد بان لكَ الغَرَضُ، وسقط بما حرّرْناه شُبْهةُ المُعْتَرِض وبالله التوفيق، وهو المستعانُ، لا إله إلا هو.

فصل

فِي أَسمائِهِ عَلَيهِ السَّلامُ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِن تَفضِيلِهِ

٦١٧ ـ حدثنا أبو عِمْران: موسى بن أبي تَلِيد الفقيه؛ قال: حدثنا أبو عُمَرَ الحافظ، حدثنا سَعِيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أَصْبَغَ، حدثنا محمد بن وَضّاح، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن محمد بن جُبير بن مُطْعِم، عن أبيه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يَمْحُو اللَّهُ بي الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدَمِي، وأنا العاقِبُ**» [البخاري (٣٥٣٢)، مسلم (٢٣٥٤/١٢٥)].

وقد سماه اللَّهُ تعالى في كتابه محمداً، وأَحمدَ.

فمن خصائصه تعالى له أنْ ضمَّنَ أسماءه ثناءَه؛ وطَوَى أثناء ذِكْرِه عظيم شُكْره.

فأما اسْمُه أحمد: فَأَفْعَلُ، مبالغةٌ مِنْ صِفَة الحَمْد.

ومحمد: مُفَعَّلٌ، مبالغة من كَثْرَة الحَمْد؛ فهو ـ ﷺ ـ أجلُّ مَنْ حَمِدَ وأَفضل مَنْ حُمِد، وأكثرُ الناس حَمْداً؛ فهو أَحْمَدُ المحمودين، وأَحْمَدُ الحامِدِين، ومعه لِواءُ الحَمْدِ يَوْمَ القيامة ليَتمَّ له كمالُ الحمدِ، ويَتَشَهَّر في تلك العَرَصَاتِ بصفةِ الحمد، ويبعثُه ربُّه هناك مقاماً محموداً كما وعده؛ يَحْمَدُهُ فيه الأوّلون والآخرون بشفاعتِه لهم.

٦١٨ ـ ويُفتَح عليه فيه من المحامد ـ كما قال ﷺ ـ ما لم يُعْطَ غيرُهُ.

٦١٨م ـ وسَمَّى أُمَّتَه في كُتب أنبيائه بالحمّادين؛ فحقيقٌ أن يسمَّى محمداً وأحمدَ.

ثم في هذه الاسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته ـ فنٌّ آخر؛ وهو أَنَّ اللَّهَ جلّ اسمُه حمى أن يسمَّى بهما أَحَدٌ قبل زَمانه.

وأمّا أحمدُ الذي أَتى في الكُتب وبَشرت به الأنبياءُ فمنع اللَّهُ تعالى بحكمته أَنْ يُسمَّى به أحدٌ غيره، ولا يُدْعَى به مَدْعوٌ قَبْلَه حتى لا يدخلَ لَبْسٌ على ضَعِيفِ القَلْب أو شَكٌ.

وكذلك محمد أيضاً لم يُسَمَّ به أَحدٌ من العَرَب، ولا غيرهم، إلى أَنْ شاعَ قُبَيلَ وجودِه ـ ﷺ ـ وميلاده أَنَّ نَبِيّاً يُبْعثُ اسمُه محمد؛ فسمَّى قومٌ قليلٌ من العرب أبناءَهم بذلك؛ رجاءَ أن يكونَ أحدَهم هو. والله أَعلمُ حيثُ يجعلُ رِسالاتِه؛ وهم: محمد بن أُحَيْحَةَ بن الجُلاح الأَوْسي، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصاريّ، ومحمد بن بَرَاءٍ البكريّ، ومحمد بن سُفْيان بن مُجاشع، ومحمد بن حُمْران الجُعْفي، ومحمد بن خزاعيّ السُّلَمي، لا سابعَ لهم.

ويقال: أول مَنْ تسَمَّى بمحمدٍ مُحَمَّدُ بنُ سُفْيانَ. واليمنُ تقول: بل محمد بن اليَحْمُدِ، من الأزد.

ثم حَمَى اللَّهُ كلَّ مَن تسمَّى به أَنْ يَدَّعِي النبوّةَ أو يدَّعيَها أَحدٌ له، أو يظهر عليه سببٌ يشكّكُ أحداً في أَمْره حتى تحققت السِّمَتانِ له ﷺ، ولم ينازَعْ فيهما.

وأَمّا قولُه ﷺ: **«وَأَنَا الماحي الذي يَمْحُو اللَّهُ بي الكُفرَ»** ففُسِّر في الحديث.

ويكون مَحْوُ الكُفرِ إمَّا مِنْ مكّة وبلادِ العرب؛ وما زُوِيَ له من الأرض، ووُعِدَ أنه يبلغُه مُلْكُ أمته؛ أو يكون المَحْوُ عامّاً، بمعنى الظُّهور والغَلَبة؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

٦١٩ ـ وقد ورد تفسيرُه في الحديث: أنه الذي مُحِيت به سيئاتُ مَنِ اتَّبعه.

وقوله: «**وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قَدَمِي**» أي على زمَانِي وعهْدي؛ أي ليس بَعْدِي نبيٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وسُمِّي عاقِباً؛ لأنه عَقَبَ ـ عليه السلام ـ غَيْرَه من الأنبياء.

٦٢٠ ـ وفي الصحيح: «**أنا العاقِبُ الذي ليس بعدي نبيٌّ**» [مسلم (١٢٥/٢٣٥٤)].

وقيل: معنى «**على قَدَمِي**» أي: يُحْشَرُ الناسُ بمُشَاهدتي؛ كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: «**على قَدَمِي**» على سابِقَتي؛ قال الله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وقيل: «**على قَدَمِي**» أي قُدَّامي، وحَوْلي؛ أي يجتمعون إليّ يوم القيامة.

وقيل: «**على قَدَمِي**» على سُنتي.

ومعنى قوله: «**لي خمسةُ أسماء**» قيل: إنها موجودةٌ في الكُتب المتقدمة، وعند أولي العِلْم من الأمم السالفة، والله أعلم.

٦٢١ ـ وقد رُوي عنه ﷺ: «**لي عشرةُ أسماء**» وذكَر منها: ﴿طه ۝١﴾ و ﴿يسٓ ۝١﴾؛ حَكاه مكّيٌّ.

وقد قيل في بعض تفاسير ﴿طه ۝١﴾: إنه يا طاهر! يا هادي! وفي ﴿يسٓ ۝١﴾ يا سيِّدُ! حكاه السُّلَمي عن الواسطي، وجَعْفر بن محمد.

٦٢٢ ـ وذكر غَيْرُه: «**لي عشرةُ أسماء**» فذكر الخمسةَ التي في الحديث الأول؛ قال: «**وأنا رسولُ الرحمة، ورسولُ الراحةِ، ورسولُ المَلاحِم**».

٦٢٢م ـ «**وأنا المُقفِّي، قَفَّيْتُ النبيين**».

٦٢٣ ـ «**وأنا قَيِّم**» والقيِّمُ: الجامعُ الكامِلُ؛ كذا وجدتُه، ولم أرْوِهِ.

وأرى أنَّ صوابه قُثَم ـ بالثاء ـ كما ذكرناه بَعْدُ عن الحربيّ؛ وهو أشبَه بالتفسير.

وقد وقع أيضاً في كتب الأنبياء: قال داود عليه السلام: اللهمَّ! ابْعَثْ لنا محمداً مُقِيمَ السنّة بعد الفَتْرة؛ فقد يكون القَيِّمُ بمعناه.

٦٢٤ ـ وروى النقَّاش عنه ﷺ: «**لي في القرآنِ سبعةُ أسماء: محمد، وأحمد، ويس، وطه، والمدثر، والمزَّمل، وعَبْدُالله**».

٦٢٥ ـ وفي حديثٍ عن جُبَير بن مُطْعِم رضي اللَّهُ عنه: «**وهي ستٌّ: محمد، وأحمد، وخاتم، وعاقِب، وحاشِر، ومَاحٍ**».

٦٢٦ ـ وفي حديث أبي موسى الأشعريِّ، أنه كان ﷺ يُسمِّي لنا نَفْسَه أسماء، فيقول: «**أنا محمدٌ، وأحمدُ، والمُقفِّي، والحاشِرُ، ونبيّ التوبة، ونبيّ المَلْحَمة، ونَبِيّ الرحمة**» [مسلم (٢٣٥٥)].

ويروى: «المَرْحَمة» و «الراحة».

وكلٌّ صحيح إنْ شاء الله.

ومعنى «**المُقفِّي**» معنى «**العاقب**».

وأمّا نبيُّ الرحمة، والتوبة، والمَرْحَمة، والراحة فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وكما وصفه بأنه يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. ويهديهم إلى صراط مستقيم. و ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٦٢٧ ـ وقد قال في صفة أمته إنها: «**أمةٌ مرحومة**» [أبو داود (٤٢٧٨)].

وقال الله تعالى فيهم: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]؛ أي يرحمُ بعضُهم بعضاً؛ فبعثه ـ ﷺ ـ ربُّه تعالىٰ رحمةً لأمته، ورحمةً للعالَمين، ورَحِيماً بهم، ومُتَرَحِّماً ومستغفِراً لهم، وجعل أمتَه مَرحومة، ووصفها بالرحمة.

٦٢٨ ـ وأمرها ﷺ بالتَراحُم، وأثنى عليه؛ فقال: «**إنَّ اللَّهَ يحِبُّ من عبادِه الرُّحماءَ**» [البخاري (٧٤٤٨)، مسلم (٩٢٣)].

٦٢٩ ـ وقال: «**الرَّاحِمُون يرحَمُهم الرحمنُ. ارحَموا مَنْ في الأرضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السماء**» [أبو داود (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٢٤)، أحمد (١٦٠/٢)].

وأما رواية «**نَبِيّ المَلْحَمة**» فإشارةٌ إلى ما بُعِثَ به من القتال والسيف ﷺ؛ وهي صحيحة.

٦٣٠ ـ وعن حُذَيفةَ مِثْلُ حديثِ أبي موسى، وفيه: «**ونبيُّ الرّحمة، ونبيّ التوبة، ونبيّ الملاحم**».

٦٣١ ـ وروى الحَربي في حديثه عليه السلام أنه ﷺ قال: «**أتاني مَلَكٌ، فقال لي: أَنْتَ قُثَم**» أي مُجْتَمِع. قال: والقُثَم: الجامعُ للخير؛ وهذا اسمٌ هو في أهلِ بيته عليه السلام معلوم.

وقد جاءت من ألقابه - ﷺ - وسِمَاته في القُرآنِ عدّةٌ كثيرة سِوَى ما ذكرناه؛ كالنُّور، والسّرَاج المُنير، والمُنْذِر، والنَّذِير، وَالمبَشِّر، والبَشير، والشاهد، والشهيد، والحقُّ المُبين، وخاتم النبيِّين، والرؤوف الرّحِيم، والأَمين، وقَدَم الصدق، ورَحمة العالمين، ونعمةِ اللّهِ، والعُروةِ الوثْقَى، والصِّرَاطِ المستقيم، والنّجْمِ الثاقب، والكريمِ، والنبيُّ الأُميّ، وداعِي اللّهِ، في أوصافٍ كثيرةٍ، وسِمَاتٍ جليلة.

وجَرَى منها في كُتب اللّهِ المتقدّمةِ، وكُتب أَنبيائه، وأَحاديث رسولِه، وإطلاقِ الأمة جملةٌ شافيةٌ؛ كتسميتِهِ بالمُصْطَفَى، والمُجْتَبى، وأبي القاسم، والحَبيب، ورسولِ رَبِّ العالمين، والشفيع المُشفَّعِ، والمُتَّقِي، والمُصْلِح، والطاهِر، والمُهَيْمِن، والصادِق، والمَصْدُوقِ، والهادِي، وسيّد وَلَدِ آدم، وسيّد المرسلين، وإمامِ المتّقين، وقائدِ الغُرِّ المُحَجَّلين، وحبيبِ اللّهِ وخليلِ الرحمن وصاحبِ الحَوْضِ المورود، والشفاعةِ، والمقام المحمود، وصاحب الوسيلةِ، والفضيلة، والدَّرجةِ الرفيعة، وصاحب التاجِ، والمِعْراج، واللواء، والقضيب، وراكب البُرَاقِ؛ والناقَة، والنَّجيب، وصاحبِ الحُجّةِ والسلطان، والخاتَم، والعلامةِ، والبُرْهان، وصاحبِ الهِرَاوةِ والنَّعْلَيْنِ.

ومِنْ أسمائه في الكُتب: المتوكّلُ، والمختار، ومُقيم السنّة، والمُقدَّس، ورُوح القُدُسِ ورُوح الحق؛ وهو معنى البارَقْلِيط في الإنجيل.

وقال ثَعْلَبٌ: البارَقْليط: الذي يفرّقُ بين الحقّ والباطل.

ومن أسمائه في الكتب السالفةِ؛ ماذ ماذ؛ ومعناه طَيِّب، طَيِّب، وحَمَّطايا، والخاتم، والحَاتِم؛ حكاه كعب الأحبار.

قال ثعلبُ: فالخاتِمُ الذي خَتَم الله به الأنبياءَ. والحاتم: أَحسنُ الأنبياء خَلْقاً وخُلُقاً.

ويسمّى بالسُّريانية: مُشَفَّحُ، والمُنْحَمِنَّا؛ واسمُه أيضاً في التوراة أُحَيْد. رُوِي ذلك عن ابْنِ سِيرين.

ومعنى صاحب القضيب؛ أي السيف؛ وقع ذلك مفسّراً في الإنجيل؛ قال: معه قَضِيب مِنْ حَدِيد يقاتِلُ به، وأُمّتُه كذلك.

وقد يحمَلُ على أنه القضيب الممشوق الذي كان يُمْسِكُه ﷺ؛ وهو الآن عند الخلفاء.

٦٣٢ ـ وأمّا الهِرَاوة التي وُصِفَ بها فهي ـ في اللغة ـ العصَا؛ وأُراها ـ واللَّهُ أعلم ـ العصا المذكورة في حديث الحَوْضِ: **«أَذودُ الناسَ عنه بعَصَاي، لأهل اليمن»** [مسلم (٢٣٠١)].

وأمّا التاجُ فالمرادُ به العِمَامةُ، ولم تكن حينئذٍ إلاّ للعرب، والعمائمُ تِيجَانُ العرب.

وأوصافُه، وألقابُه، وسِمَاتُه في الكتب كثيرة؛ وفيما ذكرناهُ منها مَقْنع إن شاء الله. وكانت كُنْيَته المشهورةُ أبا القاسم.

٦٣٣ ـ ورُوِي عن أَنس: أنه لـمّا وُلِدَ له إبراهيم جاءه جبريلُ فقال له: **«السلام عليكَ يا أبا إبراهيم»**.

فصل

فِي تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالىٰ لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ العُلا

قال المؤلِّفُ: ما أحرى هذا الفصلَ بفصولِ الباب الأول! لانخراطه في سِلْك مضمونها، وامتزاجه بعَذْبِ مَعِينها؛ لكن لم يشْرح اللَّهُ الصَّدْرَ للهداية إلى استِنْبَاطه، ولا أنارَ الفِكْرَ لاستخراج جَوْهره والْتقاطه إلا عند الخَوْضِ في الفصل الذي قبله؛ فرأينا أن نُضِيفَهُ إليه، ونَجْمَع به شَمْلَه.

فاعلم أن اللَّهَ تعالى خَصَّ كثيراً من أنبيائه بكرامةٍ خَلَعها عليهم مِنْ أسمائه؛ كتَسْمية إسحاق، وإسماعيل بـ «عليم» و «حليم، وإبراهيم بـ «حليم» ونوح بـ «شَكُور» وعيسى ويحيى بـ «بَرّ» وموسى بـ «كريم» و «قويّ» ويوسف بـ «حفيظ عليم» وأيوب بـ «صابر» وإسماعيل بـ «صَادِق الوَعد» كما نطق بذلك الكتابُ العزيز في مَوَاضِع ذِكْرِهم. صلى الله وسلم على جميعهم.

وَفضّل محمداً نبيَّنا ﷺ: بأَنْ حَلاّهُ منها في كتابه العزيز، وعلى ألسنةِ أنبيائه بعدَّةٍ كثيرة. اجتمع لنا منها جملةٌ بعد إعمال الفِكْر، وإحضار الذِّكْرِ، إذْ لم نَجِدْ مَنْ جَمع منها فوق اسْمينِ، ولا مَنْ تفرّغَ فيها لتأليف فَصْلين.

وحَرَّزنا منها في هذا الفصل نَحْوَ ثلاثين اسماً؛ ولعلَّ الله تعالى ـ كما أَلْهَم إلى ما عَلَّم منها وحقَّقه ـ يُتِمُّ النعم بإبانةِ ما لم يُظْهرهُ لنا الآن، ويَفْتَح غَلَقَهُ.

فمن أسمائه تعالى: «الحميد» ومعناه المحمود؛ لأنه حَمِدَ نَفْسه، وحَمِده

عبادُه، ويكون أيضاً بمعنى الحامِد لنفسه ولأعمال الطاعات.

وسَمَّى الله تعالى النبيَّ ﷺ محمداً، وأحمد؛ فـ «محمَّد» بمعنى محمود، وكذا وقع اسْمُه في زَبُورِ داود.

و «أحمد» بمعنى أَكْبَرُ من حَمِد؛ وأَجلُّ مَنْ حُمِد، وأشار إلى نحو هذا حسان بقوله:

وشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وهذا مُحَمَّدُ

ومن أسمائه تعالى: «الرؤوف الرحيم» وهما بمعنى متقارِب.

وقد سمّاه في كتابه بذلك؛ فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى: «الحقّ المُبين» ومعنى الحقّ: الموجود، والمتحقَّق أمْرُه، وكذلك المُبين؛ أي البيّن أمره وإلٰهيّتُهُ.

«بان» و «أبان» بمعنى واحد ويكون بمعنى المُبَيِّنِ لعباده أمْرَ دِينهم ومَعَادهم.

وسَمّى النبيَّ - ﷺ - بذلك في كتابه؛ فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨].

وقال تعالى ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥]؛ قيل: محمدٌ. وقيل القرآن. ومعناهُ ههنا ضِدُّ الباطِلِ، والمتحقِّقُ صِدْقُه وأمْرُه، وهو بمعنى الأوّل.

و «المُبينِ»: البَيِّنُ أمْرُهُ ورسالتُه، أو المُبَيِّن عن الله ما بعثَه به؛ كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن أسمائه تعالى: «النّور» ومعناه ذو النّور، أي خالقه، أو مُنَوِّر السمواتِ والأرض بالأنوار، ومُنَوِّر قلوب المؤمنين بالهداية.

وسَمّاه نوراً؛ فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]: قيل: مُحَمَّدٌ. وقيل: القرآن.

وقال فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، سُمِّي بذلك لوُضوحِ أمرِه، وبيان نبوّته، وتَنْوِير قلوبِ المؤمنين والعارفين بما جاء به.

ومن أسمائه تعالى: «الشّهيد» ومعناه: العالِم. وقيل: الشاهِدُ على عباده يومَ القيامة.

وسمّاه شهيداً وشاهداً؛ فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وهو بمعنى الأوّل.

ومن أسمائه تعالى: «الكريم» ومعناه: الكثير الخَيْرِ.

وقيل: المُفْضِل. وقيل: العَفُوّ. وقيل: العَلِيّ.

٦٣٤ ـ وفي الحديث المَرْوِيّ في أسمائه تعالى: **«الأكرم»**.

وسمّاه تعالى كريماً بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠]؛ قيل: محمد. وقيل: جبريل.

٦٣٥ ـ وقال عليه السلام: **«أنا أَكْرَمُ وَلَدِ آدمَ»**.

ومعاني الاسْم صحيحةٌ في حقّه ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: «العظيمُ» ومعناهُ: الجليلُ الشّأنِ، الذي كلُّ شيءٍ دونَه.

وقال في النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

ووقع في أوّل سِفرٍ من التوْرَاة، عن إسماعيل: وستلِدُ عظيماً، لأمةٍ عظيمة؛ فهو عظيمٌ، وعلى خُلق عظيم.

ومن أسمائه تعالى: «الجبّار» ومعناه: المُصْلِح، وقيل: القاهر. وقيل: العَلِيّ العظيمُ الشّأنِ. وقيل: المتكبّر.

وسُمّي النبيّ ﷺ في كتاب داود بجبّارٍ؛ فقال: تَقَلَّدْ أيها الجبّار! سَيْفَكَ؛ فإنّ نَامُوسكَ وشرائعَكَ مقرونةٌ بهَيْبةِ يَمِينِك.

ومعناه في حقّ النبيّ ﷺ: إمّا لإصلاحِهِ الأمة بالهداية والتعليم، أو لِقَهْرِهِ أعداءَه، أو لعلوّ مَنْزلته على البَشَر، وعظيم خَطَره.

ونفى تعالى عنه ـ في القرآن ـ جَبْرِيَّة التكبُّر التي لا تَلِيقُ به؛ فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

ومِنْ أسمائه تعالى: «الخبير» ومعناه: المُطّلِع بكُنْهِ الشيء، العالِم بحقيقته. وقيل: معناه المُخْبِر.

وقال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

قال القاضي بَكْرُ بنُ العَلاَء: المأمورُ بالسؤال غَيْرُ النبيّ عليه السلام والمسؤول الخبيرُ هو المصطفى ﷺ.

وقال غيره: بل السائل النبيُّ ﷺ. والمسؤولُ هو اللّهُ تعالى؛ فالنبيُّ خبيرٌ بالوَجْهين المذكورين؛ قيل: لأنه عالمٌ على غايةٍ مِنَ العِلْم بما أعلمه اللّهُ مِن

مكنونِ عِلمه، وعظيم مَعْرفته، مُخبر لأمَّتِهِ بما أذِن له في إعلامهم به.

ومن أسمائه تعالى: «الفتَّاح» ومعناه: الحاكم بين عِبَادِه، أو فاتح أبواب الرِّزق والرحمة، والمُنْغلق من أمورِهم عليهم؛ أو يَفْتَحُ قلوبَهم وبَصَائرهم لمعرفة الحقّ؛ ويكون أيضاً بمعنى الناصر؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]؛ أي: إن تَسْتَنْصِروا فقد جاءكم النَّصْر؛ وقيل: معناه مُبْتَدىء الفَتح والنَّصر.

٦٣٦ ـ وسَمَّى اللَّهُ تعالى نبيه محمداً ﷺ بـ «الفاتح» في حديث الإسراء الطويل من رواية الربيع بن أنس، عن أبي العالية وغيره، عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه؛ وفيه: من قول الله تعالى: **«وجعلتُك فاتِحاً وخَاتِماً»**.

وفيه من قول النبيّ ﷺ في ثنائه على رَبّه، وتَعْديد مَرَاتِبه: **«ورَفَع لي ذِكري، وجعلني فاتِحاً وخاتِماً»**؛ فيكونُ الفاتِح ـ هنا ـ بمعنى الحاكم، أو الفاتح لأبواب الرحمة على أمته، أو الفاتِح لبصائرهم لمَعْرفة الحقّ والإيمان بالله؛ أو الناصر للحق، أو المُبْتَدِىء بهدايةِ الأمةِ، أو المُبَدَّأ المُقَدَّم في الأنبياء والخاتِم لهم.

٦٣٧ ـ كما قال عليه السلام: **«كُنتُ أوّلَ الأنبياء في الخَلْق، وآخِرَهم في البَعْث»**.

٦٣٧م ـ ومن أسمائه تعالى في الحديث: **«الشَّكُور»** ومعناه: المُثِيبُ على العَمَلِ القَليل. وقيل: المُثْني على المُطِيعين؛ ووصف بذلك نبيَّه نوحاً عليه السلام فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٦٣٨ ـ وقد وصف النبيُّ ﷺ بذلك نَفْسَهُ فقال: **«أفَلاَ أكونُ عَبْداً شَكُوراً؟»** أي مُعْتَرِفاً بِنعَم رَبِّي، عارفاً بقَدْرِ ذلك، مُثْنِياً عليه، مُجْهداً نَفْسِي في الزيادة من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن أسمائه تعالى: العليم، والعَلاَّم. وعالِمُ الغَيْبِ والشهادةِ.

ووصفه نبيّه ﷺ بالعِلْم؛ وخَصَّه بمَزِيَّة منه؛ فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ومن أسمائه تعالى: **«الأوّلُ، والآخِرُ»** ومعناهما: السابقُ للأشياء قبل وجودها، والباقي بعد فَنَائها.

وتحقيقُه أنه ليس له أوّل ولا آخِر.

٦٣٩ ـ وقال ﷺ: «**كُنتُ أولَ الأنبياءِ في الخَلْق؛ وآخِرَهم في البَعْث**».

وفُسِّر بهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]؛ فقدّم محمداً ﷺ.

وقد أشار إلى نَحوٍ منه عُمَرُ بن الخطّاب رضِيَ الله عنه.

٦٤٠ ـ ومنه قولُه: «**نحن الآخِرون السابقون**» [البخاري (٨٧٦)، مسلم (٨٥٥)].

٦٤١ ـ وقوله: «**أنا أوّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الأرضُ، وأولُ مَنْ يدخلُ الجنةَ، وأول شافع، وأول مُشفَّع**» [مسلم (٢٢٧٨)] وهو خاتم النبيِّين، وآخِرُ الرُّسل ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: «**القَوِيّ**»، و «**ذو القُوَّةِ المَتِين**» ومعناه: القادر.

وقد وصفه اللّهُ تعالى بذلك؛ فقال: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ٢٠]؛ قيل: محمد. وقيل: جبريل.

٦٤١م ـ ومن أسمائه تعالى: «**الصادق**» في الحديث المأثور.

٦٤٢ ـ وورَدَ في الحديث أيضاً اسْمُه ﷺ بـ «الصادق المصدوق» [البخاري (٣٢٠٨)، مسلم (٢٦٤٣)].

ومن أسمائه تعالى: «الوَلِيّ» و «المَوْلَى» ومعناهما: الناصِرُ؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥].

٦٤٣ ـ وقال عليه السلام: «**أنا وَلِيُّ كلِّ مُؤْمِن**» [أحمد (٣/٣٧١)، البخاري (٢٢٩٨)، مسلم (١٦١٩)].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

٦٤٤ ـ وقال عليه السلام: «**مَنْ كنتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاه**».

ومن أسمائه تعالى: «العَفُوُّ» ومعناه: الصَّفُوح.

وقد وصف اللّهُ تعالى بهذا نَبيّه في القرآنِ، وفي التوراة، وأمره بالعَفْوِ؛ فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

٦٤٥ ـ وقال له جبريل ـ وقد سأله عن قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾؛ قال: «**أن تَعفُو عمَّن ظلَمَكَ**».

٦٤٦ ـ وقال في التوراة والإنجيل في الحديث المشهور، في صِفَته: «**ليس بفَظٍّ، ولا غَلِيظ، ولكن يَعفُو ويَصْفح**».

ومن أسمائه تعالى: «الهادي» وهو بمعنى توفيق اللّهِ لمَنْ أراد مِنْ عباده، وبمعنى الدَّلالةِ والدُّعاء. قال اللّهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ

﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥] وأصلُ الجميعِ مِنَ المَيْل. وقيل: من التقديم.

وقيل في تفسير ﴿طه ﴿١﴾﴾ إنه: يا طاهر! يا هادي! يعني النبي ﷺ.

وقال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال فيه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فاللَّهُ تعالى مختصٌّ بالمعنى الأول؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

وبمعنى الدَّلالة يَنْطلقُ على غيره تعالى.

ومِنْ أسمائه تعالى: «**المؤمن، المُهَيْمن**» قيل: هما بمعنًى واحدٍ؛ فمعنى المؤمن في حقّه تعالى: المُصَدِّقُ وعْدَه عبادَه، والمُصَدِّقُ قَوْلَه الحقّ، والمُصَدِّق لعباده المؤمنين ورُسُلِه. وقيل: المُوَحِّد نَفْسَه. وقيل: المُؤْمِن عبادَه في الدنيا من ظُلْمِه، والمؤمنين في الآخرةِ من عَذَابه.

وقيل: المُهَيْمِن بمعنى الأمين، مُصَغَّر منه، فقُلِبت الهمزةُ هاء.

وقد قيل: إنَّ قولهم في الدعاء: آمين، إنه اسْمٌ من أسماء الله تعالى، ومعناه معنى المُؤْمن.

وقيل: المُهَيْمِن بمعنى الشاهد والحافظ.

والنبيُّ ﷺ أمِين، ومُهَيْمِن، ومُؤْمن، وقد سمّاه اللَّهُ تعالى أمِيناً؛ فقال: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢١].

٦٤٧ ـ وكان ـ عليه السلام ـ يُعْرَف بالأمِين، وشُهِرَ به قَبْلَ النبوّة وبعدها.

٦٤٨ ـ وسَمّاهُ العبَّاسُ، في شعره مُهَيْمِناً في قوله:

ثُمَّ احتوىٰ بَيْتُكَ المُهَيْمِنُ مِنْ ... خِنْدِفَ عَلْيَاءَ تَحْتَها النُّطُقُ

قيل: المراد: يا أيها المُهَيْمِنُ! قاله القُتَبيُّ، والإمام أبو القاسم القُشَيْرِيُّ.

وقال تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]؛ أي: يصدِّق.

٦٤٩ ـ وقال ﷺ: «**أنا أَمَنَةٌ لأصحابي**»، فهذا بمعنى المؤْمن.

ومن أسمائه تعالى: «**القُدُّوس**» ومعناه: المُنزَّهُ عن النقائص المطهَّر من سِمَاتِ الحدَث؛ وسُمِّي «بيت المَقْدِسِ» لأنه يُتطَهَّر فيه من الذنوب؛ ومنه؛ الوادي المقدَّس، ورُوح القُدُس.

ووقع في كتب الأنبياء في أسمائه عليه السلام «المقدَّس» أي: المُطهَّر من الذنوب، كما قال تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

أو الذي يُتطهَّر به من الذنوب، ويُتنزَّه باتِّباعِه عنها، كما قال ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].

أو يكون مقدَّساً بمعنى مطهَّراً، من الأخلاق الذميمة. والأوصاف الدنيّة.

ومن أسمائه تعالى: «العزيز» ومعناه: المُمْتَنِع، الغالب، أو الذي لا نَظِير له، أو المُعِزّ لغيره؛ وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨] أي: الامتناعُ وجَلالَة القَدْر.

وقد وصف اللَّهُ تعالى نَفسه بالبشَارَةِ والنِّذارة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١].

وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] و ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وسمّاه اللَّهُ تعالى مُبَشِّراً، ونَذِيراً وبشيراً: أيْ مُبَشِّراً لأهل طاعته، ونَذِيراً لأهل مَعْصيته.

ومِنْ أسمائه تعالى فيما ذكره بعضُ المفسِّرين: ﴿طه ۝١﴾ و ﴿يسٓ ۝١﴾ وقد ذكر بعضُهم أيضاً أنهما من أسماء محمدٍ ﷺ وشرَّفَ وكرَّم.

فصل

فِي أَنَّ ذَاتَ اللهِ تَعالَى لا تُشْبِهُ ذَوَاتِ المَخلُوقِينَ، وَصِفَاتِهِ تَعالَى لا تُشْبِهُ صِفَاتِ المَخلُوقِينَ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: وها أنا أذكرُ نُكْتَةً أُذَيِّلُ بها هذا الفَصْلَ، وأختِمُ بها هذا القسمَ، وأزيحُ الإشكالَ بها فيما تقدم عن كلِّ ضعيف الوَهم، سَقيم الفَهم، تخلِّصُه من مَهاوِي التشبيه، وتزحزحُه عن شُبَهِ التمويهِ؛ وهو أن يعتقدَ أنَّ اللَّهَ تعالى جلّ اسْمُه في عظمته وكبريائه ومَلَكُوته، وحُسْنَى أسمائه، وعَلِيّ صِفاته، لا يُشْبِهُ شيئاً من مخلوقاته، ولا يشبَّهُ به؛ وأنَّ ما جاءَ مما أطلقه الشَّرْعُ على الخالقِ وعلى المخلوق؛ فلا تشابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفاتُ القَدِيم بخلافِ صفاتِ المخلوق؛ فكما أنَّ ذاته تعالى لا تُشبه الذوات، كذلك صفاتُه لا تشبِهُ صفاتِ المخلوقين؛ إذ صفاتُهم لا تَنفَكُّ عن الأغراضِ والأَعْراض؛ وهو تعالى ـ مُنزَّهٌ عن ذلك؛ بل لم يَزَلْ بِصفَاتِه وأسمائه، وكفى في هذا قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وللَّهِ دَرُّ مَنْ قال من العلماء العارِفين المحقّقين: التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غَيْرِ مُشْبِهةٍ للذّوات، ولا مُعَطَّلةٍ من الصفات.

وزاد هذه النكتة الواسطيُّ ـ رحمه الله ـ بياناً؛ وهي مقصودُنا؛ فقال: ليس كذاته ذاتٌ، ولا كاسمِهِ اسْمٌ، ولا كفِعْله فِعْلٌ، ولا كصِفَتِه صِفةٌ، إلا مِنْ جهة مُوافقةِ اللفظِ اللفظَ؛ وجلَّت الذَّاتُ القديمةُ أنْ يكون لها صِفةٌ حديثةٌ، كما استحال أن يكون للذّاتِ المُحْدثة صفةٌ قديمةٌ.

وهذا كلُّه مَذْهبُ أهلِ الحقِّ والسنَّةِ والجماعةِ، رضِيَ اللَّهُ عنهم.

وقد فَسَّرَ الإمامُ أبو القاسمِ القُشَيريّ ـ رحِمَه اللَّهُ ـ قوله هذا، ليَزيده بياناً؛ فقال: هذه الحكايةُ تشتَمِلُ على جوامع مسائِل التوحيد، وكيف تُشْبِهُ ذاتُه ذاتَ المُحْدَثاتِ؛ وهي بوجودها مستَغْنية؟! وكيف يُشْبِهُ فِعْلُه فِعْلَ الخَلْق، وهو لغير جَلْبِ أُنسٍ، أو دَفْع نَقْصٍ، حَصَل، ولا لخواطرَ وأغراضٍ، وُجِد، ولا بمُباشرةٍ ومُعَالجةٍ، ظَهَر؟! وفِعْلُ الخَلْقِ لاَ يخرجُ عن هذه الوجوه.

وقال آخر، مِنْ مشايخنا: ما تَوَهَمْتُموه بأوهامكم، أوْ أَدْرَكْتُموه بعقولكم فهو مُحْدَث مِثْلكم.

وقال الإمامُ أبو المعالي الجُوَيْني: مَنِ اطمأنَّ إلى موجودٍ انتهى إليه فِكْرُه؛ فهو مُشَبِّهٌ، ومَنِ اطمأنَّ إلى النَّفي المَحْض فهو مُعَطِّلٌ، وإن قطع بموجودٍ اعترف بالعَجْزِ عن دَرْك حقيقته فهو مُوَحِّدٌ.

وما أحسَنَ قولَ ذي النُّونِ المصري: حقيقة التوحيد أن تعْلَمَ أنَّ قدرةَ اللَّهِ تعالى في الأشياءِ بلا عِلاَج، وصُنْعَهُ لها بِلا مِزَاجٍ، وعلَّةُ كلِّ شيءٍ صُنْعُهُ، ولا عِلَّةَ لصُنْعِه، وما تُصوِّر في وَهْمِك فاللَّهُ بخلافه.

وهذا كلامٌ عجيبٌ نَفِيس محقَّق، والفَصْلُ الآخر، تفسير لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: تفسير لقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

والثالث: تفسير لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

ثبَّتنا اللَّهُ وإياكَ على التوحيد والإثباتِ، والتّنزيه، وجنَّبنا طَرَفي الضَّلالةِ والغواية من التعطيل والتّشبيه بمنِّهِ ورَحْمتِه.



الباب الرابع

فيما أَظْهَرَهُ اللَّهُ تعالىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ المُعْجِزَاتِ وَشَرَّفَهُ بِهِ مِنَ الخَصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ

قال المؤلف رحمه الله: حَسْبُ المتأمِّلِ أنَّ يُحَقِّق أن كتابَنا هذا لم نجمَعْه لِمُنكِرِ نبوّةِ نبيّنا ﷺ ولا لطاعنٍ في معجزاتِه فنحتاج إلى نَصْبِ البراهين عليها، وتَحصين حَوْزتها، حتى لا يَتَوصّلَ المُطاعِنُ إليها، ونذكرَ شروطَ المعجزِ والتحدّي وحَدّه، وفسادَ قولِ مَنْ أبطلَ نَسْخَ الشرائِع، وردَّه؛ بل أَلَّفْناه لأهلِ مِلَّته، المُلَبِّين لدعْوَتِه، المصدِّقين لنبوّته؛ ليكونَ تأكيداً في محبَّتِهم له، ومَنْماةً لأعمالهم؛ وليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ونيَّتنا أن نثبتَ في هذا الباب أمهاتِ معجزاته، ومَشاهيرَ آياته؛ لتَدلَّ على عِظَمِ قَدْره عند ربه. وأتيْنا منها بالمحقَّق والصحيح الإسنادِ؛ وأكثَرُه مما بلغ القَطْعَ، أو كاد؛ وأَضفْنا إليها بعضَ ما وقع في مشاهير كُتب الأئمة.

وإذا تأمَّلَ المتأمِّلُ المُنْصِف ما قدمناه مِنْ جميل أثره، وحَمِيدِ سيره، وبراعةِ عِلْمه، ورَجَاحةِ عَقْله وحِلْمه، وجُمْلةِ كمالِه، وجميع خِصَالِه، وشاهدِ حالِه، وصوابِ مقالِه، لم يَمْترِ في صحة نُبوّته، وصِدْق دَعْوَته.

وقد كفى هذا غيرَ واحدٍ في إسلامِه، والإيمان به.

٦٥٠ ـ فَرَوَيْنا عن التِّرْمذي، وابن قانع وغيرهما بأسانيدهم، أنَّ عبدَ اللّه بن سَلاَم؛ قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينةَ جئتُه لأنْظُرَ إليه؛ فلما استبَنْتُ وجْهَه عرفتُ أنَّ وَجْهَه ليس بوَجْه كذّاب.

حدثنا به القاضي الشهيدُ أبو عليّ رَحِمَه اللَّهُ؛ قال: حدثنا أبو الحُسين

الصَّيْرفي، وأبو الفضل بن خَيْرون، عن أبي يَعْلَى البغدادي، عن أبي علي السِّنجيِّ، عن ابن محبوب، عن التِّرْمِذِي؛ حدثنا محمد بن بشَّار، حدثنا عَبْدُالوهَّاب الثَّقفي، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عديّ، ويحيى بن سَعِيد، عن عَوْف بن أبي جَمِيلَة الأعرابيّ، عن زُرَارة بن أوْفىٰ، عن عبدالله بن سَلاَم... الحديث [الترمذي (٢٤٨٥)، ابن ماجه (١٣٣٤)، أحمد (٥/٤٥١)].

٦٥١ ـ وعن أبي رِمْثَةَ التَّيْمي: أتيتُ النبيَّ ﷺ، ومعي ابنٌ لي، فأُرِيتُه؛ فلما رأيتُه قلتُ: هذا نبيُّ الله ﷺ.

٦٥٢ ـ ورَوَى مسلم وغَيْرُه أنَّ ضِمَاداً لمّا وفَد عليه، فقال له النبيُّ ﷺ: **«إنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ ونستعينُه، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له؛ ومَنْ يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلَه إلاّ اللَّهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّ محمداً عَبْدُهُ ورسولُه»**، قال له: أعِدْ عليَّ كلماتِكَ هؤلاء، فلقد بَلَغْنَ قاموسَ البَحْر، هاتِ يَدَكَ أبايِعْكَ [مسلم (٨٦٨)].

٦٥٣ ـ وقال جامِعُ بن شدَّادٍ: كان رجلٌ منا يُقالُ له طارِقٌ، فأخبر أنه رأى النبيَّ ﷺ بالمدينة، فقال: **«هل معكم شيء تبيعونه؟»** قلنا: هذا البَعِير. قال: **«بِكَمْ؟»** قُلنا: بكذا وكذا وَسْقاً من تَمْر؛ فأخذ بخِطَامِه، وسار إلى المدينة؛ فقُلْنا: بِعْنا من رجل لا نَدْرِي مَنْ هو؛ ومعنا ظَعِينَةٌ، فقالت: أنا ضامِنَةٌ لِثَمَنِ البَعِير؛ رَأَيْتُ وَجْهَ رجلٍ مِثْلَ القمرِ ليلَةَ البَدْرِ لا يَخِيسُ بكم.

فأصبَحْنَا، فجاءَ رَجلٌ بتَمْرٍ، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم يأمركُم أنْ تأكُلوا من هذا التَّمرِ، وتَكتالُوا حتى تَستَوْفوا. ففعلْنا.

٦٥٤ ـ وفي خَبَر الجُلَنْدىٰ، مَلكِ عُمَان، لمَّا بلغه أنَّ رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام ـ قال الجُلَنْدىٰ: واللَّهِ! لقد دَلَّني على هذا النبيّ الأُمي أنه لا يأمُرُ بخَيْرٍ إلاّ كان أولَ آخِذٍ به، ولا يَنْهى عن شيءٍ إلاَّ كان أولَ تارِكٍ له، وأنه يغلِبُ فَلاَ يَبْطَر، ويُغْلَبُ فلا يَضْجَرُ، ويَفِي بالعَهْد، ويُنْجِزُ الموعود؛ وأشهَدُ أنه نبيّ.

وقال نِفْطَوَيْه، في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] هذا مَثَلٌ ضربه اللَّهُ تعالى لنبيّه عليه السلام؛ يقول: يكادُ منْظَرُه يَدُل على نبوّته وإن لم يَتْلُ قُرْآناً كما قال ابن رَوَاحة:

لـو لَـمْ تـكُـنْ فـيـه آيـاتٌ مُـبَـيِّـنَـةٌ ... لـكـان مَـنْـظَـرُهُ يُـنْـبِـيْـكَ بـالـخَـبَـرِ

وقد آن أنْ نَأخذَ في ذِكْرِ النبوَّةِ والوَحْي والرسالةِ، وبعده في معجزة القرآن، وما فيه من بُرْهان ودَلالة.

فصل

فِي النُّبوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَالوَحيِ

اعلَمْ أنّ الله جلّ اسْمهُ قادِرٌ على خَلْق المعرفةِ في قلوب عِبَاده، والعِلْم بذاتِه وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداءً، دونَ واسطةٍ، لو شاءَ؛ كما حُكِيَ عن سُنّتِهِ في بعض الأنبياء، وذكره بعضُ أهلِ التفسير في قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وجائزٌ أنْ يُوصِلَ إليهم جميع ذلك بواسطةٍ تبلّغُهم كلامَه، وتكونُ تلك الواسطة؛ إمّا مِنْ غَير البشَرِ، كالملائكة مع الأنبياء؛ أو مِنْ جِنْسهم، كالأنبياء مع الأمم، ولا مانِعَ لهذا مِنْ دَليلِ العَقْل.

وإذا جاز هذا ولم يَسْتَحِلْ، وجاءت الرسُلُ بما دَلَّ على صِدْقِهم من مُعْجزاتهم وجب تصديقُهم في جميع ما أتَوْا به؛ لأنَّ المعجِزَ مع التحدّي من النبيّ ﷺ قائمٌ مقامَ قولِ الله: صَدَق عَبْدي فأطِيعُوه واتّبِعوه، وشاهدٌ على صِدْقه فيما يقولُه؛ وهذا كافٍ. والتطويلُ فيه خارجٌ عن الغَرضِ فمَنْ أرادَ تتبُّعَه وجده مستوفًى في مصنَّفات أئمتنا رحمهم الله.

فالنبوّةُ في لغة مَنْ هَمَزَ ـ مأخوذةٌ من النبأ، وهو الخَبَر، وقد لا تُهْمَزُ على هذا التأويل تَسْهيلاً.

والمعنى: أنَّ اللَّهَ تعالى أطْلَعه على غَيْبه، وأعْلَمه أنه نبيُّه؛ فيكون نبيٌّ مُنَبَّأ، فَعِيل بمعنى مَفْعول؛ أو يكون مُخْبِراً عمّا بعثه اللَّهُ تعالى به، ومُنَبِّئاً بما أطلعه الله عليه، فَعِيل بمعنى فاعل؛ ويكونُ عِند مَنْ لم يَهْمِزْه من النَّبْوَةِ؛ وهو ما ارتفع من الأرض؛ ومعناهُ أنَّ لهُ رُتْبَةً شرِيفةً، ومكانةً نبيهةً عند مولاه مُنِيفة؛ فالوصفان في حقِّه مُؤْتَلِفان.

وأما الرسولُ فهو المُرْسَلُ، ولم يأتِ فَعُول بمعنى مُفْعَل في اللغة إلا نادراً. وإرسالُه: أمْرُ اللَّهِ ـ تعالى ـ له بالإبلاغ إلى مَنْ أرسلَه إليه؛ واشتقاقُه من التتابع؛ ومنه قولهم: جاء الناسُ أرْسَالاً، إذا تبعَ بعضُهم بعضاً؛ فكأنه أُلزِمَ تكريرَ التبليغ، أو أُلزِمت الأمّةُ اتّباعه.

واختلف العلماء: هل النبيُّ والرسولُ بمعنى، أو بمعنيين؟ فقيل: هما سواء، وأصلُه من الإنباء وهو الإعلامُ؛ واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]؛ فقد أثبتَ لهما معاً الإرسالَ، قال: ولا يكون النبيُّ إلا رسولاً؛ ولا الرسولُ إلا نبياً.

وقيل: هما مُفْتَرِقان مِنْ وجْه؛ إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطِّلاعُ على الغَيْب، والإعلامُ بخواصِّ النبوّةِ أو الرفعةِ لمعرفةِ ذلك، وحَوْزِ دَرَجتها؛ وافترقا في زيادة الرِّسالة للرسول، وهو الأمرُ بالإنذار والإعلام كما قُلْنا.

وحجَّتُهم من الآية نَفْسِها التفريقُ بين الاسمين، ولو كانَا شيئاً واحداً لما حسُنَ تكرَارُهما في الكلام البليغ، قالوا: والمعنى: وما أرسلنا من رسول إلى أمة، أو نبيّ ليس بمُرْسَل إلى أحد.

وقد ذهب بعضُهم إلى أنَّ الرسولَ مَنْ جاء بشَرْعٍ مبتدأ، ومَنْ لم يأتِ به نبيٌّ غَيْرُ رسولٍ، وإنْ أمِرَ بالإبلاغ والإنذار.

والصحيحُ، والذي عليه الجَمَّاءُ الغَفِير، أنَّ كلَّ رسولٍ نبي، وليس كلُّ نبي رسولاً. وأولُ الرسلِ آدم، وآخِرُهم محمد ﷺ.

٦٥٥ ـ وفي حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه: أنَّ الأنبياءَ مئةُ ألف وأربعةٌ وعشرون ألف نَبِيٍّ، وذَكَر أنَّ الرسلَ، منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر؛ أولهم آدم عليه السلام.

فقد بانَ لكَ معنى النبوة والرسالة، وليستا عند المحقِّقين ذاتاً للنبي، ولا وَصْف ذاتٍ، خلافاً للكَرَّاميَّة، في تطويلٍ لهم، وتَهويلٍ، ليس عليه تَعْوِيل.

وأما الوَحْيُ: فأصلُه الإسراعُ، فلما كان النبي يتلَقَّى ما يأتيه من ربه بعَجَل سُمِّيَ وَحياً، وسُمِّيت أنواعُ الإلهامات وَحياً، تشبهاً بالوَحي إلى النبي، وسُمِّيَ الخطّ وَحياً، لسرعةِ حرَكةِ يَدِ كاتبه؛ ووحي الحاجب واللَّحْظ: سرعةُ إشَارَتهما، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي: أوْمأ وَرمَز. وقيل: كتب؛ ومنه قولهم: الوَحا، الوَحا؛ أي السرعة.

وقيل: أصلُ الوَحْي السرُّ والإخفاء، ومنه سُمِّي الإلهامُ وَحياً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي يُوَسْوِسُونَ في صدورهم؛ ومنه قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] أي أُلْقِيَ في قلبها.

وقد قِيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] أي ما يُلْقيه في قلبه دونَ وَاسِطَةٍ.

فصل
فِي مُعْجِزَاتِهِ ﷺ وَمَعْنَى الْمُعْجِزَةِ

اعلم أنَّ معنى تَسْمِيتنا ما جاءت به الأنبياءُ معجزة، هو أنَّ الخَلْقَ عجزُوا عن الإتيانِ بمثلها؛ وهي على ضرْبين: ضربٌ هو مِنْ نوع قُدْرةِ البشر؛ فعجزوا عنه، فتَعجِيزهُم عنه فِعْلٌ لله دلَّ على صِدْقِ نبيّه، كصَرْفِهم عن تمنِّي الموت. وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم، ونحوه.

وضَرْبٌ هو خارجٌ عن قدرتهم؛ فلم يقدروا على الإتْيَانِ بمثله؛ كإحياء الموتى، وقَلْب العَصَا حيّة، وإخراج ناقةٍ من صَخرةٍ، وكلام شجرَة، ونَبْع الماء من الأصابع، وانشقاق القَمرِ، مما لا يُمْكِنُ أنْ يفعلَه أحد، إلا الله؛ فكونُ ذلك على يَدِ النبيّ ﷺ، مِنْ فِعْل اللّهِ تعالى، وتحدِّيه مَنْ يُكذِّبه أنْ يَأْتِي بمثله تعجيزٌ له.

واعلم أنّ المعجزاتِ التي ظهرَتْ على يدِ نبيّنا ﷺ ودلائلَ نبوّته وبراهينَ صِدْقِه من هٰذَيْن النوعين معاً. وهو أكثَرُ الرسُل معجزةً، وأبهرهم آيةً، وأظهرهم بُرْهاناً؛ كما سَنُبَيِّنُه؛ وهي ـ في كَثْرتها ـ لا يحيطُ بها ضَبْطٌ؛ فإنّ واحداً منها ـ وهو القُرآن ـ لا يُحصى عدَدُ معجزاتِه بألْفٍ ولا ألْفَيْن، ولا أكثر، لأنَّ النبيّ ﷺ قد تحدَّى بسورةٍ منه فعُجِزَ عنها.

قال أهلُ العِلْم: وأقصر السور: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] فكلُّ آيةٍ أو آيات منه بعَدَدِها وقَدْرِها مُعْجزةٌ؛ ثم فيها نَفْسها مُعْجزاتٌ على ما سنفصِّلُه فيما انطوى عليه من المعجزات.

ثم معجزاته ﷺ على قسمين: قِسْمٌ منها عُلِمَ قَطْعاً، ونُقِلَ إلينا متواتراً كالقرآن؛ فلا مِرْية، ولا خلافَ؛ بمَجيءِ النبيِّ به، وظهورِه من قِبَلِهِ؛ واستدلاله بِحُجَّتِه؛ وإنْ أنكر هذا مُعَانِدٌ جاحِدٌ، فهو كإنكاره وجودَ محمدٍ ﷺ في الدُّنيا.

وإنما جاء اعتراضُ الجاحدين في الحُجَّةِ به؛ فهو في نَفْسِه وجميع ما تضمَّنه من مُعْجز معلوم ضرورةً.

ووَجْهُ إعجازه معلوم ضرورةً ونَظَراً، كما سنَشْرحُه.

قال بعضُ أئمتنا: ويَجْري هذا المَجْرى على الجملة أنه قد جَرَى على يَدَيْه ـ عليه السلام ـ آياتٌ وخَوارِقُ عاداتٍ، إنْ لم يَبْلُغ واحدٌ منها معيَّناً القَطْعَ، فيبلغه جميعُها؛ فلا مِرْيَةَ في جريان معانيها على يَدَيْهِ؛ ولا يختلفُ مؤمنٌ ولا كافر، أنه جرتْ على يديه عجائبُ؛ وإنما خلافُ المُعَانِدِ في كَوْنها مِنْ قِبَل الله.

وقد قدَّمْنَا كونَها مِنْ قِبَل الله، وأنَّ ذلك بمَثَابة قوله: صَدَقْتَ.

فقد عُلِمَ وقوعُ مثلِ هذا أيضاً مِنْ نبيِّنَا ضرورةً لاتفاقِ مَعَانيها، كما يُعلَم ضرورةً جُودُ حاتِم، وشجاعةُ عَنترةَ، وحِلْمُ أحنَفَ، لاتِّفَاقِ الأخبارِ الواردة عن كل واحدٍ منهم على كرم هذا، وشجاعةِ هذا، وحِلْمِ هذا، وإنْ كان كلُّ خَبَرٍ بنفسه لا يُوجِبُ العِلْمَ، ولَا يُقْطَعُ بصحّته.

والقسمُ الثاني: ما لم يَبْلُغ مَبْلَغَ الضرورة والقَطع؛ وهو على نوعين: نوع مُشْتَهِر مُنْتَشِر، رواهُ العدَدُ، وشاعَ الخَبَرُ به عند المحدِّثين والرُّواةِ ونَقَلَة السِّيَرِ والأَخبارِ؛ كنَبْعِ الماء من بين الأصابع، وتكثير الطعام.

ونوعٌ منه اختصّ به الواحِدُ أو الاثنان؛ ورَوَاهُ العَدَدُ اليَسِيرُ، ولم يَشْتهِر اشتهارَ غيره، لكنه إذا جُمِعَ إلى مِثْلِه اتّفقا في المعنى، واجتمعا على الإتيان بالمُعْجِز، كما قدَّمناه.

قال المؤلف رحمه الله: وأنا أقولُ ـ صَدْعاً بالحق ـ: إنّ كثيراً من هذه الآيات المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقَطْع.

أمَّا انشِقَاقُ القَمرِ فالقرآنُ نَصَّ بوقوعِه، وأخْبَرَ عن وجوده، ولا يُعْدَلُ عن ظاهره إلاَّ بدليل، وجاء برَفْع احتماله صحيحُ الأخبار من طرق كثيرة، ولا يُوهِنُ عَزْمَنا خلافُ أخرَقَ مُنحَلِّ عُرَى الدِّين، ولا يُلْتَفت إلى سخافةِ مُبْتَدع، يُلْقي الشكَّ على قلوب ضعفاء المؤمنين؛ بل نُرْغم بهذا أنفه، ونَنْبِذُ بالعَرَاء سُخْفَهُ.

وكذلك قصةُ نَبْعِ الماء، وتكثير الطعام، رَوَاها الثِّقَاتُ والعَدَد الكثير، عن الجَمَّاءِ الغَفِير، عن العدد الكثير من الصحابة.

ومنها ما رَوَاه الكافةُ عن الكافَّةِ مُتَّصلاً عمَّن حدَّث بها مِنْ جُملة الصحابة وإخْبارهم أنَّ ذلكَ كانَ في مَوْطنِ اجتماعِ الكثير منهم في يوم الخَندق، وفي غزوة بُوَاط، وعُمْرة الحُدَيبية، وَغَزْوة تَبُوك، وأمثالِها مِنْ مَحافلِ المسلمين ومَجْمَع العساكر، ولم يُؤْثَر عن أحدٍ من الصحابة مخالفةٌ للراوي فيما حكاهُ، ولا إنكارٌ لِمَا ذُكر عنهم أنهم رأوْه كما رآه، فسكوتُ الساكتِ منهم كنُطْقِ الناطقِ؛ إذ هم المَنزَّهون عن السكوت على باطل، والمداهنةِ في كَذِب، وليس هناك رغبةٌ ولا رهبةٌ تمنعهم، ولو كان ما سمعوه مُنكراً عندهم وغَيْرَ معروف لديهم لأنكَرُوه، كما أنكر بعضُهم على بعض أشياء رواها من السُّنَن والسِّير وحروف القرآن. وخطَّأ بعضُهم بعضاً، ووهَّمَهُ في ذلك، مما هو معلوم؛ فهذا النوعُ كلُّه يلحَقُ بالقَطعِي من معجزاته لما بيَّنّاه.

وأيضاً فإنَّ أمثالَ الأخبار التي لا أصلَ لها، وبُنيت على باطل، لا بُدَّ مَعَ مرور الأزمان، وتداوُلِ الناسِ، وأهلِ البَحْثِ من انكشاف ضعفها، وخمول ذِكْرِها، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة، والأراجيف الطارئة. وأعلامُ نبيِّنا هذه الواردةُ من طريق الآحاد لا تزدادُ مع مرورِ الزمان إلاّ ظهوراً، ومع تداول الفِرَق، وكثرةِ طَعْنِ العدو، وحِرْصِه على توهينها، وتَضْعِيفِ أصلها، واجتهاد المُلْحِدِ على إطفاء نورها إلا قوة وقَبُولاً، وللطاعن عليها إلا حسرة وغَلِيلاً.

وكذلك إخبارهُ عن الغيوب، وإنباؤه بما يكونُ وكانَ، مَعلومٌ من آياته على الجملة بالضَّرُورة.

وهذا حقٌّ لا غِطَاءَ عليه؛ وقد قال به من أئمتنا: القاضي، والأستاذُ أبو بكر وغيرهما، رحِمَهم اللَّهُ؛ وما عِندي أَوْجَبَ قَوْلَ القَائِلِ: إنّ هذه القصصَ المشهورةَ من باب خَبَر الواحد، إلاّ قلَّةُ مطالعته للأخبار وروايَتِها، وشُغْلُه بغير ذلك من المعارف؛ وإلا فمن اعتنى بطُرق النَّقْل، وطالعَ الأحاديثَ، والسِّيرَ، لم يَرْتَبْ في صحة هذه القِصص المشهورة على الوجْهِ الذي ذكرناه.

ولا يَبْعُد أنْ يحصلَ العِلْمُ بالتواتُر عند واحدٍ ولا يحصلُ عند آخر؛ فإنّ أكثر الناس يعلمون ـ بالخَبرِ ـ كونَ بغداد موجودةً؛ وأنها مدينةٌ عظيمةٌ، ودارُ الإمارة والخلافةِ، وآحادٌ من الناس لا يعلمون اسمَها؛ فَضْلاً عن وصْفِها؛ وهكذا يعلم الفقهاءُ من أصحاب مالك بالضرورةِ وتواتُر النَّقل عنه، أنّ مذهبَه إيجابُ قراءةِ أُمِّ القرآن في الصلاةِ للمُنْفَرِدِ والإمام، وإجزاءُ النيّةِ في أولِ ليلةٍ من رمضان عَمّا سِوَاهُ؛ وأنَّ الشافعيّ يرى تَجْديدَ النيةِ كلَّ ليلة؛ والاقتصارَ في المَسْح على بَعْض الرأس، وأنّ مَذْهبهما القِصاصُ في القَتْلِ بالمُحدَّدِ وغيره، وإيجابُ النيّةِ في الوضوء، واشتراطُ الوليّ في النّكاح؛ وأنَّ أبا حنيفة يخالِفُهما في هذه المسائل؛ وغَيرهم مِمَّن لم يَشْتَغِل بمذاهبهم ولا رَوَى أقوالَهم لا يعرفُ هذا مِنْ مَذاهِبهم، فَضْلاً عن سِوَاه.

وعند ذِكْرِنا آحادَ هذه المعجزات نزيد الكلامَ فيها بياناً إنْ شاءَ الله تعالى.

فصل
فِي إعْجَازِ القُرآنِ

قال المؤلف: اعلم ـ وفَّقنا اللَّهُ وإيّاكَ ـ أن كتاب الله العزيز مُنْطَوٍ على وُجوهٍ من الإعجاز كثيرةٍ، وتحصيلُها من جهة ضَبْطِ أنواعِها في أربعة وجوه:

أولها: حُسْنُ تأليفه، والْتِئامُ كَلِمه، وفصاحتُه، ووجوهُ إيجازه، وبلاغتُه الخارقة عادةَ العرب؛ وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن، وفُرْسانَ الكلام؛ قد خُصُّوا من البلاغة والحِكَم بما لم يُخَص به غيرهم من الأمم، وأُوتُوا من ذَرَابةِ اللسان ما لم يُؤتَ إنسان، ومِنْ فَصْلِ الخطابِ ما يُقَيِّدُ الألباب؛ جعل اللَّهُ لهم ذلك طَبْعاً وخِلْقة، وفيهم غريزةً وقوة، يأتون منه على البَدِيهة بالعَجَب، ويُدْلُون به إلى كل سبب؛ فيخطبون بَدِيهاً في المقامات، وشديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحونَ ويَقْدَحون، ويتوسَّلُون ويتوصَّلُون، ويرفعون ويَضَعُون، فيأتون من ذلكَ بالسحْرِ الحلال، ويطوِّقون من أوصافهم أجملَ مِنْ سِمْطِ اللآل، فَيَخْدَعون الألبابَ، ويذلِّلُون الصعاب ويذهبون الإِحَنَ، ويُهيجون الدِّمَن، ويجرِّئون الجَبَانَ، ويَبْسطونَ يَدَ الجَعْدِ البَنَانِ، ويُصَيِّرون الناقِصَ كاملاً، ويتركونَ النَّبيه خاملاً.

منهم البَدَويُّ ذو اللفْظِ الجَزْلِ، والقولِ الفَصْل، والكلامِ الفَخْم، والطَّبْعِ الجَوْهري، والمَنْزَعِ القَوِيّ.

ومنهم الحَضَرِيُّ ذُو البلاغةِ البارعة، والألفاظ الناصِعَة، والكلماتِ الجامعة، والطَّبعِ السَّهل، والتصرُّف في القولِ القليلِ الكُلْفَةِ، الكثير الرَّوْنَقِ، الرقيق الحاشية.

وكِلاَ البابَيْن فلهما في البلاغةِ الحجّةُ البالغة، والقوةُ الدامغةُ، والقِدْحُ الفالج، والمَهْيَعُ الناهج، لا يَشُكُّون أنّ الكلامَ طَوْعُ مُرادِهم، والبلاغة مِلْكُ قِيَادِهم، قد حَوَوْا فنونَها، واسْتَنْبطوا عُيونَها، ودخلوا مِنْ كل باب من أبوابها، وعَلَوْا صَرحاً لبلوغ أسبابها؛ فقالوا في الخَطير والمَهين، وتفنَّنُوا في الغثِّ والسَّمين وتقاوَلوا في القُلِّ والكُثْرِ، وتساجَلُوا في النظم والنَّثر؛ فما راعَهم إلاَّ رسولٌ كريمٌ، بكتاب عزيز، لا يَأْتيه الباطِلُ مِنْ بَيْن يَدَيه ولا مِنْ خَلْفِهِ، تنزيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيدٍ؛ أُحكمتْ آياتُه، وفُصِّلت كَلِمَاتُه، وبهَرَت بلاغَتُه العقولَ، وظهرت فصاحَتُه على كل مَقُولٍ، وتضافَر إيجازُه وإعجازُه، وتظاهرَتْ حقيقتُه ومجازُه، وتبارَتْ في الحُسن مطالِعُه ومَقَاطعُه، وحوَتْ كُلَّ البيانِ جوامِعُه وبدائعُه، واعتدلَ مع إيجازه حُسْنُ نَظْمه، وانطبق على كثرة فوائده مختارُ لَفْظه، وهم أفسَحُ ما كانوا في هذا البابِ مَجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في السَّجْع والشعر ارتجَالاً، وأوسعُ في الغريب واللغةِ مقالاً؛ بلُغَتهم التي بها يتحاوَرُون، ومَنَازِعِهِمْ التي عنها يتناضلون، صارخاً بهم في كل حين، ومُقَرِّعاً لهم بِضْعاً وعشرين عاماً

على رؤوس الملأ أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس: ٣٨].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

و ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨].

و ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣] وذلكَ أنَّ المُفترى أسْهل، وَوَضع الباطلِ والمُختَلَقِ على الاختيار أقْرب، واللفظُ إذا تبعَ المعنى الصحيح كان أصْعب؛ ولهذا قيل: فلان يكتبُ كما يقالُ له، وفلان يكتب كما يُريد.

وللأوّلِ على الثاني فَضل، وبينهما شأوٌ بَعيد.

فلم يَزَلْ يُقرّعهم ـ ﷺ ـ أشدَّ التقريع، ويوبّخهم غايَة التوبيخ، ويسَفّهُ أحلامَهم، ويَحُطُّ أعلامَهم، ويشتّتُ نظامَهم، ويذمُّ آلهتهم وآباءَهم، ويستبيحُ أرضَهم وديارَهم وأموالَهم، وهم في كل هذا ناكِصُون عن معارضتِهِ، مُحْجِمون عن مَماثلته، يُخادِعُون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والاغتراء بالافتراءِ، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] و ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] و ﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤]، و ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

والمباهتة والرضا بالدَّنيّة؛ كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨].

و ﴿فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]. و ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

والادعاء مع العَجْزِ بقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

وقد قال لهم الله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فما فعلوا ولا قدروا. ومَنْ تعاطَى ذلك من سُخَفائهم ـ كمُسَيْلمة ـ كشف الله عُوارَهُ لجميعهم، وسلبهم الله ما ألِفوه، من فصيح كلامهم، وإلاَّ فلم يَخفَ على أهل المَيْزِ منهم أنه ليس من نَمطِ فصاحتهم، ولا جِنْس بلاغتهم؛ بل وَلَّوا عنه مُدْبرين، وأتَوا مُذْعِنين من بين مُهْتَدٍ وبين مَفْتُون.

٦٥٦ ـ ولهذا لما سَمِعَ الوليدُ بنُ المغيرة مِن النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾ [النحل: ٩٠] قال: والله! إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه

لطَلاوةً، وإن أسفلَه لَمُغْدِق، وإنّ أعلاه لَمُثمِر، ما يقولُ هذا بَشَر.

وذكر أبو عُبيد أنَّ أعرابياً سمِعَ رجلاً يقرأ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدْتُ لفصاحته.

وسمع آخرُ رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أنَّ مخلوقاً لا يقدِرُ على مثْلِ هذا الكلام.

وحُكِيَ أنّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يوماً نائماً في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهَّدُ شهادةَ الحق؛ واستخبره، فأعلمه أنه مِنْ بَطارقةِ الروم ممن يُحْسِنُ كلامَ العرب وغيرها، وأنه سمِعَ رجلاً من أسْرى المسلمين يقرأ آيةً من كتابكم فتأمَّلتُها، فإذا هي قد جُمِعَ فيها ما أُنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة؛ وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

وحَكَى الأصمعيُّ أنه سمِعَ كلامَ جارية، فقال لها: قاتلكِ اللَّهُ! ما أفصحكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧] فجمع في آيةٍ واحدة بين أمرين، ونَهْيَيْنِ، وخَبَرين، وبِشارَتَيْنِ. فهذا نوعٌ من إعجازه مُنفرد بذاته، غَيْرُ مضَافٍ إلى غيره على التحقيق والصحيح من القوْلَيْن.

وكونُ القرآنِ مِنْ قِبَلِ النبيّ ﷺ، وأنه أتى به، معلومٌ ضرورةً، وكونُه ـ عليه السلام ـ مُتحدِّياً به معلوم ضرورةً، وعَجْزُ العربِ عن الإتيان بمثله معلومٌ ضرورةً، وكونُه في فصاحته خارقاً للعادة، معلوم ضرورةً للعالمين بالفصاحة ووجوهِ البلاغة؛ وسبيلُ مَنْ ليس مِنْ أهلها عِلْمُ ذلك بعَجْزِ المُنكرين من أهلها عن مُعارضته، واعترافِ المُقِرِّينَ بإعجاز بلاغتِه.

وأنتَ إذا تأمَّلْتَ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبأ: ٥١].

وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤] وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأشباهَها من الآي، بل أكثر القرآن حقَّقْتَ ما بيَّنْتُه من إيجاز ألفاظها، وكَثْرة معانيها، ودِيْبَاجَةِ عبارتِها، وحُسْنِ تأليفِ حروفها، وتَلاؤُم كَلِمِها، وأنَّ تَحْتَ كلُّ لفظة منها جُمَلاً كثيرة؛ وفُصولاً جَمَّة، وعلوماً زواخِرَ، مُلِئَت الدواوينُ مِنْ بَعْضِ ما استُفيد منها، وكَثُرَت المقالاتُ في المستَنْبَطاتِ عنها.

ثم هو في سَرْد القِصص الطُّوالِ، وأخبار القرون السَوالِف، التي يضعفُ في عادةِ الفُصحاءِ عندها الكلامُ، ويذهبُ ماءُ البَيانِ، آيةٌ لمتأمِّلِه؛ مِنْ رَبْط الكلام بعضِه ببعض، والتئام سَرْدِه، وتناصُفِ وجُوهه؛ كقصَّة يوسف على طُولها.

ثم إذا تردَّدَت قِصَصُه اختلفت العباراتُ عنها على كَثْرة تردُّدِها حتى تكادُ كلُّ واحدةٍ تُنسي في البيانِ صاحبَتَها، وتُناصِفُ في الحُسْنِ وَجْهَ مُقَابلتها، ولا نفورَ للنفوسِ مِنْ تَرْديدها، ولا مُعَادَاةَ لمُعَادِها.

فصل

الوجه الثاني من إعجازه: صورةُ نَظْمِه العَجِيب، والأسلوبُ الغريبُ المخالفُ لأساليب كلامِ العرب ومَنَاهِج نَظْمها ونَثْرها الذي جاء عليه، ووقفَتْ مقاطِعُ آيِه، وانتهت فواصِلُ كلماته إليه؛ ولم يُوجَد قَبْلَه ولا بَعْدَه نظيرٌ له، ولا استطاعَ أحَدٌ مُماثلة شَيْءٍ منه؛ بل حارَتْ فيه عقولُهم، وتَدَهَّلَتْ دونَه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مِثْله في جِنْس كلامهم من نَثْر، أو نَظْم، أو سَجْع، أو رَجَز، أو شِعْر.

٦٥٧ ـ ولما سمع كلامَه ﷺ الوليدُ بن المغيرة، وقرأ عليه القرآنَ ـ رَقَّ؛ فجاءه أبو جَهْل مُنْكِراً عليه ـ قال: والله! ما منكم أحدٌ أعلم بالأشعار مني، والله! ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئاً مِنْ هذا.

٦٥٨ ـ وفي خبرِه الآخَر حين جمع قُريشاً عند حضور المَوْسِم، وقال: إن وُفُودَ العرب تَرِدُ فأجْمِعُوا فيه رَأْياً، لا يكذِّبُ بعضُكم بعضاً؛ فقالوا: نقولُ: كاهن. قال: واللَّهِ! ما هُو بكاهِن. ما هُوَ بزَمْزَمَتِه ولا سَجْعِه.

قالوا: مجنونٌ. قال: ما هُوَ بِمَجْنون، ولا بِخَنْقِهِ ولا وَسْوَستِه.

قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر. قد عرَفْنا الشِّعْرَ كلَّه، رَجَزَه، وهَزَجَهُ، وقَرِيضَه، ومَبْسوطَه، ومقْبوضَه، ما هو بشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هُوَ بساحر، ولا نَفْثِه ولا عَقْدِه.

قالوا: فما نقولُ؟ قال: ما أنتم بقائلين مِنْ هذا شيئاً، إلا وأنا أعرفُ أنه

باطل، وإنَّ أقربَ القَوْلِ أنه ساحر؛ فإنه سِحْرٌ يفرِّقُ به بين المرءِ وأبيه، والمرءِ وأخيه، والمرءِ وزَوْجِه، والمرءِ وعَشِيرته.

فتفرّقُوا وجلسوا على السَّبيل يحذِّرُون الناس؛ فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ١١ـ ٢٤].

٦٥٩ ـ وقال عُتْبَةُ بن ربيعة حين سَمِع القرآن: يا قوم! قد علمتُم أني لم أترك شيئاً إلاَّ وقد علمتُه وقرأتُه وقلْتُه؛ واللَّهِ! لقد سمعتُ قَوْلاً، واللَّهِ! ما سمعتُ مِثْلَه قطُّ؛ وما هو بالشِّعْرِ، ولا بالسِّحْرِ، ولا بالكَهَانة.

٦٥٩م ـ وقال النَّضْرُ بن الحارث نحوه.

٦٦٠ ـ وفي حديث إسلام أبي ذَرّ ـ وَوَصفَ أخاهُ أُنَيساً ـ، فقال: واللَّهِ! ما سمعتُ بأَشعر من أخِي أُنَيسٍ، لقد ناقَضَ اثني عشر شاعراً في الجاهلية، أنا أحدهُم، وإنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبي ذَرّ بخَبرِ النبيِّ ﷺ. قلت: فما يقولُ الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعْتُ قولَ الكَهَنةِ فما هو بقوْلهم، ولقد وضعتُه على أَقْراء الشِّعْر فلم يلتَئم، وما يَلْتَئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شِعْر؛ وإنه لصادقٌ، وإنهم لكاذِبُون [مسلم (٢٤٧٣)، البخاري (٣٨٦١)].

والأخبار في هذا صحيحةٌ كثيرة.

والإعجازُ بكل واحدٍ من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها؛ أو الأسلوب الغريب بذاته، كلُّ واحدٍ منهما نوعُ إعجازٍ على التحقيق، لم تَقْدِر العربُ على الإتيان بواحدٍ منهما؛ إذ كلّ واحدٍ خارجٌ عن قُدْرتها، مبَاين لفَصَاحَتها وكلامها؛ وإلى هذا ذهب غيرُ واحدٍ من أئمةِ المُحَقّقين.

وذهب بعضُ المحققين المقْتَدَى بهم إلى أنّ الإعجازَ في مجموع البلاغة والأسلوب، وأتى على ذلك بقَوْلٍ تمجُّه الأسماعُ، وتَنْفِرُ منه القلوبُ.

والصحيحُ ما قدمناهُ، والعلمُ بهذا كلّه ضرورةً وقطعاً.

ومَنْ تفنّن في علوم البلاغةِ، وأرهف خاطِرَه ولسانَه أدبُ هذه الصناعةِ لم يَخْفَ عليه ما قلناه.

وقد اختلف أئمةُ أهلِ السنَّةِ في وَجْهِ عَجْزهم عنه؛ فأكثَرُهم يقول: إنّه ما

جُمِعَ في قوةِ جَزَالته، ونَصَاعةِ ألفاظِه، وحُسْنِ نَظمِه، وإيجازِه، وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصحُ أن يكونَ في مَقْدُور البَشَرِ، وأنه مِنْ باب الخَوارِقِ الممتَنِعة عن إقدار الخَلْق عليها؛ كإحياء المَوْتى، وقَلْبِ العَصَا، وتسبيح الحَصَى.

وذهب الشيخُ أبو الحسن إلى أنه مِمَّا يمكنُ أن يدخلَ مِثلهُ تحت مقدور البَشر، ويُقدرهم الله عليه؛ ولكنه لم يكُن هذا ولا يكون؛ فمنعهم الله هذا، وعجّزَهم عنه.

وقال به جماعة من أصحابه.

وعلى الطريقَيْنِ فَعَجْزُ العرب عنه ثابتٌ، وإقامةُ الحجةِ عليهم بما يصح أن يكونَ في مقدور البَشر، وتحدِّيهم بأن يأتُوا بمثله، قاطعٌ؛ وهو أبلغُ في التعجيز، وأحرَى بالتقريع، والاحتجاجُ بمجيء بَشرٍ مثْلهم بشيءٍ ليس مِنْ قدرة البشر لازمٌ؛ وهو أَبْهَرُ آيةٍ، وأقمعُ دَلالةٍ.

وعلى كلِّ حال، فما أتَوْا في ذلك بمقال؛ بل صبَرُوا على الجَلاء، والقَتْل، وتجرَّعُوا كاساتِ الصَّغَار والذُّلّ؛ وكانوا من شُمُوخ الآنفِ، وإبَايَة الضَّيْم، بحيث لا يؤْثِرُون ذلك اختياراً، ولا يرضَوْنه إلا اضطراراً، وإلا فالمعارضَةُ ـ لو كانت من قُدرتهمْ ـ والشُّغْلُ بها أهونُ عليهم، وأسرعُ بالنُّجح، وقَطْعِ العُذْرِ، وإفحام الخَصْم لديهم، وهم مَنْ هم، قُدرَةً على الكلام، وقدوةً في المعرفة به لجميع الأنام؛ وما منهم إلا مَنْ جَهَدَ جَهْدَه، واستَنْفد ما عنده في إخفاء ظهوره، وإطفاء نُورِه، فما جَلَوْا في ذلك خَبيئةً مِنْ بنات شِفاههم، ولا أَتَوْا بنُطْفة مِنْ مَعين مِياههم، مع طُولِ الأَمَدِ، وكَثْرَةِ العَدَد، وتَظاهُر الوالد وما وَلَد؛ بل أبْلَسُوا فما نَبَسُوا، ومُنِعُوا فانْقَطَعُوا؛ فهذان نوعان من إعجازه.

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انْطَوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات، وما لم يكن ولم يَقَعْ؛ فوُجد؛ كما ورَدَ، وعلى الوَجْهِ الذي أخْبر به كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ ـ ٣] فكان جميعُ هذا، كما قال؛ فغَلبت الرومُ فارسَ في بِضْع سنين، ودخل الناسُ في الإسلام أفواجاً؛ فما مات عليه السلام وفي بلاد العرب كلِّها موضِعٌ لمْ يدخله الإسلامُ.

٦٦١ ـ واستخلف الله المؤمنين في الأرضِ، ومكّن لهم فيها دينَهم، وملَّكهم إياها من أقصى المشارقِ إلى أقصى المغَارِب؛ كما قال عليه السلام: **«زُوِيَتْ لي الأرضُ، فأُرِيتُ مشارقَها ومغارِبَها، وسيَبْلُغُ مُلْكُ أمتي ما زُوِيَ لي منها»** [مسلم (٢٨٨٩)].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]؛ فكانَ كذلك، لا يكادُ يُعَدُّ مَنْ سَعَى في تَغْييره وتَبْديل مُحْكَمِه من المُلحِدَةِ والمُعطِّلَة، لا سيّما القرامطة؛ فأجمعوا كَيْدَهم وحَوْلَهم وقوّتَهم، اليومَ نيِّفاً على خمس مئة عام، فما قدَرُوا على إطفاءِ شيءٍ من نُوره، ولا تَغْيير كلمةٍ مِن كلامِه، ولا تَشْكيك المسلمين في حَرْفٍ من حروفه، والحمدُ لله.

ومنه قولهُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١] فكان كلُّ ذلكَ.

وما فيه مِنْ كَشْفِ أسرار المنافقين واليَهُود، ومَقالِهم وكَذِبِهمْ في حَلِفِهم، وتَقْريعهم بذلك؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦] وقد قال مُبدياً، ما قدَّرَهُ اللَّهُ واعتقدَهُ المؤمنون يوم بَدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥].

ولما نزلَتْ، بشَّر النبيُّ ﷺ بذلك أصحابَه بأنَّ الله كفاهُ إياهم؛ وكان المستهزئون نَفَراً بمكّة، ينفرون الناسَ عنه، ويؤذُونَه، فهلَكُوا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فكان كذلك على كثْرة مَنْ رامَ ضُرَّهُ، وقَصد قَتْلَه؛ والأخبارُ بذلك معروفةٌ صحيحةٌ.

فصل

الوَجْه الرابع: ما أنبأ به مِنْ أخبارِ القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدَّاثِرة، مما كان لا يَعْلَمُ منه القصّةَ الواحدة إلا الفذُّ مِنْ أخبار أهْلِ الكتاب الذي قطع عُمُرَهُ في تعلُّم ذلك؛ فيُورِدُه النبيُّ ﷺ على وَجْهِه، ويأتي به على نَصِّه؛ فيَعْتَرِفُ العالِمُ منهم بذلك بصحَّتِه وصِدْقِه، وأنَّ مِثْلَه لم يَنَلْهُ بتعليم.

وقد علِموا أنه ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقْرأ ولا يكتب، ولا اشتغَل بمُدارسةٍ ولا مُثافَنةٍ، ولم يَغِبْ عنهم، ولا جَهِل حالَه أحدٌ منهم.

وقد كان أهلُ الكتاب كثيراً ما يسألونه ـ ﷺ ـ عَنْ هذا، فينزل عليه من القرآن ما يَتْلُو عليهم منه ذِكراً؛ كقصَص الأنبياءِ مع قَوْمِهم، وخَبرِ موسى والخَضِر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القَرْنين، ولُقْمان وابنِهِ، وأشباه ذلك من الأنباء والقصص وبَدْءِ الخَلْقِ، وما في التوْراة، والإنجيل، والزَّبُور، وصُحُف إبراهيم وموسى؛ ممّا صَدَّقَهُ فيه العلماءُ بها، ولم يَقْدِرُوا على تكذيب ما ذكر منها؛ بل أذْعَنُوا لذلك، فمِنْ مُوَفَّقٍ آمَنَ بما سبَق لهُ مِنْ خيْر، ومِنْ شقيٍّ مُعانِدٍ حاسِدٍ؛ ومع هذا فلم يُحْكَ عن واحدٍ من ـ النصارى واليهود ـ على شدَّةِ عداوتهم له، وحِرْصِهم على تَكْذيبِهِ، وطُولِ احتجاجه عليهم بما في

كُتُبهم، وتَقْريعِهم بما انطوَتْ عليه مصاحِفُهم، وكثرة سؤالهم له ﷺ، وتَغْنِيتهم إياه عن أخبارِ أنبيائهم، وأسرارِ علومِهم، ومستَوْدَعات سيرهم، وإعلامه لهم بمَكْتُوم شرائعهم، ومُضَمَّنات كُتبِهم؛ مِثْلُ سؤالِهم عن الرُّوح، وذي القَرْنَيْنِ، وأصحاب الكَهْفِ، وعيسى، وحُكْم الرَّجْم وما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه؛ وما حُرِّمَ عليهم من الأنعام، ومِنْ طَيِّباتٍ كانت أُحِلَّتْ لهم فحُرِّمَتْ عليهم ببَغْيهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن؛ فأجابهم وعرَّفهم بما أُوحي إليه من ذلك، أنه أنكر ذلك أو كذبه؛ بل أكثرُهم صرَّحَ بصحةِ نبوّته، وصِدْقِ مقَالَتِهِ، واعترف بعِنَادِهِ وحَسَدِهم إياه؛ كأهْلِ نَجْرَان، وابن صُورِيا [البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩)]، وابْنَيْ أَخْطَبَ وغيرهم.

ومن باهَتَ في ذلك بعْضَ المُباهَتة، وادَّعى أنَّ فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفةً، دُعِيَ إلى إقامةِ حُجَّتِه، وكَشْفِ دعوته؛ فقيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٣، ٩٤].

فقرَّع ووبَّخ، ودَعا إلى إحضارِ مُمكنٍ غيرِ مُمْتَنع؛ فمِنْ مُعْتَرِفٍ بما جَحَده، ومتَواقِحٍ يُلْقي على فَضِيحتهِ مِنْ كتابِه يَدَه [البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩)].

ولم يُؤْثَرْ أنَّ واحداً منهم أظهَر خلافَ قولِه مِنْ كتُبه، ولا أَبْدَى صحيحاً ولا سقيماً من صُحُفِه؛ قال اللَّهُ تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فصل

فِي آياتٍ وَرَدَتْ بِتعجِيزِ قَومٍ فِي قَضَايا وَإعلاَمِهِمْ أَنَّهُمْ لاَ يفعَلُونَهَا، فمَا فعَلُوا وَلاَ قدَرُوا عَلَىٰ ذَلِكَ

هذه الوُجوه الأربعة من إعجازه بينةٌ لا نِزَاعَ فيها ولا مِرْيَة.

ومن الوُجُوهِ البيِّنَةِ في إعجازه من غير هذه الوجوه آيٌ ورَدَتْ بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامِهم أنهم لا يَفْعَلُونها، فما فَعَلُوا ولا قَدَرُوا على ذلك؛ كقوله

لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥].

قال أبو إسحاق الزَّجَّاجُ: في هذه الآيةِ أعظمُ حجَّةٍ وأظهرُ دلالةٍ على صحةِ الرسالة؛ لأنه قال: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾؛ وأعلمهم أنهم لنْ يَتَمَنَّوْهُ أبداً، فلم يَتَمَنَّهُ واحد منهم.

٦٦٢ ـ وعن النبيِّ ﷺ: «**والذي نَفْسِي بيده! لا يقولُها رجلٌ منهم إلاَّ غَصَّ بريقِه**» [أحمد (١/٢٤٨)] يعني: يموتُ مكانَه.

فصرفهم اللَّهُ عن تمنِّيهِ، وجزَّعهم؛ ليُظْهِرَ صِدْقَ رسُولِه، وصحةَ ما أُوحِيَ إليه، إذ لم يتمنَّه أحَدٌ منهم؛ وكانوا على تكذيبه أحرصَ لو قَدَرُوا؛ ولكنَّ اللَّهَ يفعلُ ما يريد؛ فظهرت بذلكَ معجزتُه، وبانَتْ حُجّتُه.

وقال أبو محمدٍ الأَصِيليُّ: مِنْ أعجب أمْرِهم أنه لا يوجدُ منهم جماعةٌ، ولا واحدٌ، من يوم أمَرَ اللَّهُ بذلك نبيَّه، يُقْدِمُ عليه، ولا يُجيبُ إليه.

وهذا موجودٌ مشاهدٌ لمَنْ أراد أنْ يمتحنَه منهم.

٦٦٣ ـ وكذلك آيَةُ المُباهلةِ مِنْ هذا المعنى، حيث وفَد عليه أساقِفَةُ نَجْران، وأبَوا الإسلامَ؛ فأنْزَل اللَّهُ [تعالى] عليه آيَةَ المُباهَلَةِ بقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١] [البخاري (٤٣٨٠)، مسلم (٢٤٢٠)].

فامتنعوا منها، ورَضُوا بأداءِ الجِزْيَة؛ وذلكَ أنَّ «العاقب» عظِيمَهم قال لهم: قد علمْتُمْ أنه نبيٌّ، وأنه ما لاعَنَ قوماً نبيٌّ قطُّ فبَقِي كبيرهم ولا صغيرُهم.

ومثلُه قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟..﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فأخبرهم أنهم لا يَفْعَلُون؛ كما كان.

وهذه الآية أدخَلُ في بابِ الإخبارِ عن الغيبِ، ولكِنْ فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

فصل
فِي الرَّوْعَةِ الَّتِي تَلْحَقُ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْبَةِ الَّتِي تَعْتَرِيهِمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ

ومنها الرَّوْعَةُ التي تلحقُ قلوبَ سامِعيه وأسماعَهم عند سَمَاعِهِ، والهيبةُ التي تَعْتَريهم عند تلاوته لقوةِ حاله، وإنَافة خَطَرِه؛ وهي على المكذِّبين به أعظَمُ، حتى

كانوا يَستثقِلُونَ سَماعَه، ويزيدُهم نفوراً؛ كما قال تعالى؛ ويَوَدُّونَ انقِطَاعَه لِكَراهَتِهِم له.

٦٦٤ ـ ولهذا قال عليه السلام: «**إنَّ القرآن صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ على مَنْ كَرِهَه؛ وهو الحَكَمُ**» وأمَّا المؤمنُ فلا تزالُ رَوْعَتُه به، وهيبتُه إياه، مع تِلاوتِه، تُولِيهِ انجذاباً، وتكسِبُه هَشَاشَةً، لميْلِ قَلبِهِ إليهِ، وتصديقِهِ به. قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ويدلُّ على أنَّ هذا شيء خُصَّ به، أنَّه يَعْتَرِي مَنْ لا يفهم معانيه، ولا يعلم تفاسيره، كما رُوِيَ عن نَصْراني، أنه مرَّ بقارِىء، فوقف يبكي، فقيل له: مِمَّ بكيتَ؟ قال: للشَّجا والنظم.

وهذه الروعةُ قد اعترَتْ جماعةً قبل الإسلام وبعده؛ فمنهم من أسلم لها لأول وَهْلَة، وآمَنَ به، ومنهم مَنْ كفر.

٦٦٥ ـ فحُكي في الصحيح، عن جُبير بن مُطْعِم، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] كاد قلبي أنْ يَطِيرَ [البخاري (٤٨٥٤)، مسلم (٤٦٣)].

٦٦٦ ـ وفي رواية: وذلك أول ما وَقَر الإيمانُ في قلبي [البخاري (٤٠٢٣)].

٦٦٧ ـ وعن عُتبَة بن ربيعة أنه كلَّم النبيّ ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليهم ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا

وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١ـ ١٣] فأمسك عُتْبَة بيده على فِيِّ النبيِّ ﷺ، وناشدَهُ الرَّحِمَ أن يكفَّ.

٦٦٨ ـ وفي روايةٍ: فجعل النبيُّ ﷺ يقرأ وعُتْبَةُ مُضغٍ مُلْقٍ يديه خَلْفَ ظَهْره، مُعْتَمِدٌ عليهما، حتى انتهى إلى السجدة؛ فسجد النبيُّ ﷺ، وقام عُتْبَةُ لا يَدْرِي بما يُراجعه، ورجع إلى أهلِه، ولَمْ يخرجْ إلى قومه حتى أَتَوْهُ؛ فاعتذَر لهم، وقال: واللَّهِ! لَقَدْ كلَّمني بكلامٍ. واللَّهِ! ما سَمِعَتْ أُذُنايَ بمثله قطُّ، فما دَرَيْتُ ما أقولُ له.

وقد حُكي عنِ غيْرِ واحدٍ ممَّن رام مُعارَضته أنه اعترَتْه رَوْعَةٌ وهَيْبَةٌ كَفَّ بها عن ذلك.

فحُكِيَ أنَّ ابْنَ المُقفَّع طلبَ ذلكَ ورَامَهُ، وشرع فيه؛ فمرَّ بِصَبيٍّ يقرأُ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤] فرجَع ومحَا ما عَمِل؛ وقال: أشْهَدُ أنَّ هذا لا يُعَارَضُ، وما هو مِنْ كلام البشر؛ وكان مِنْ أفصح أهْلِ وَقْته.

وكان يحيى بن حَكَم الغَزَّال بَليغَ الأندلس في زَمَنِه؛ فحُكي أنه رَامَ شيئاً من هذا، فنظر في سُورة الإخلاص ليَحْذُوَ على مِثَالها، ويَنْسِجَ ـ بزَعْمِه ـ على مِنْوَالها ـ قال: فاعْتَرَتْني خَشيَةٌ ورِقَّةٌ، حمَلَتْهُ على التَّوْبَة والإنابة.

فصل

فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ آيَةً بَاقِيَةً لاَ تُعْدَمُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا مَعَ تَكَفُّلِ اللهِ بِحِفْظِهِ

ومن وُجُوهِ إعجازه المعدودة كونُه آيةً باقيةً لا تُعْدَمُ ما بَقِيَت الدُّنْيَا مع تكفُّل اللَّهِ بحفْظِه؛ فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وسائرُ مُعْجزاتِ الأنبياءِ انقضَتْ بانقضاء أوقاتها، فلم يَبق إلا خَبَرُها؛ والقرآنُ العَزيزُ، الباهِرَةُ آياتُه، الظاهرةُ معجزاتُه على ما كان عليه اليومَ، مدةَ خمس مئة عامٍ وخمسٍ وثلاثين سنةً لأولِ نزوله إلى وَقْتنا هذا، حجَّتُه قاهرةٌ، ومعارضَتُه مُمْتَنِعَةٌ، والأعصارُ كلُّها طافحةٌ بأَهْلِ البيانِ، وحَمَلة عِلْمِ اللسان، وأئمة البلاغة،

وفُرْسانِ الكَلام، وجَهابذة البراعةِ؛ والمُلْحِدُ فيهم كثيرٌ، والمُعَادِي للشَّرْعِ عَتِيد؛ فما منهم مَنْ أتى بشيءٍ يُؤْثَرُ في مُعَارَضَتِهِ، ولا أَلَّف كلمتين في مناقَضَتِهِ، ولا قَدَر فيه على مَطعَنٍ صَحيح، ولا قَدَحَ المتكلِّفُ مِنْ ذِهْنِه في ذلك إلا بزَنْدٍ شَحِيح؛ بل المأثورُ عَنْ كلِّ مَنْ رَامَ ذلك إلقاؤه في العَجْزِ بيدَيهِ، والنكوصُ على عَقِبَيْه.

فصل
فِي وُجوهِ أُخرَىٰ فِي إعْجَازِهِ مِنهَا: لاَ يَمَلُّهُ قَارئُهُ

وقد عَدّ جماعةٌ من الأئمة ومُقلّدي الأمّة في إعجازه وجوهاً كثيرةً.

منها: أن قارئَه لا يملُّه، وسامِعَه لا يَمُجُّه؛ بل الإكبابُ على تلاوتِه يزيدُه حلاوَةً، وتَرْدِيدُه يوجب له محبةً؛ لا يزال غضّاً طرِيّاً، وغيرُهُ من الكلام ـ ولو بلغ في الحُسنِ والبلاغةِ مَبْلَغه ـ يُمَلُّ مع الترديد، ويُعَادَى إذا أُعِيد؛ وكتابُنا يُستَلَذُّ به في الخلواتِ، ويُؤنَس بتلاوته في الأزمات؛ وسِواه مِنَ الكُتب لا يُوجَدُ فيها ذلك؛ حتى أحدثَ أصحابُها لها لحُوناً وطُرُقاً يستَجْلِبُونَ بتلكَ اللُّحُونِ تَنشيطَهم على قراءتها.

٦٦٩ ـ ولهذا وَصَف رسول الله ﷺ القرآنَ بأنه: «**لا يَخلَقُ على كثرةِ الردِّ، ولا تنقضي عِبَرُه، ولا تَفنَى عجائبُه؛ هو الفَصْلُ ليس بالهَزْل، لا يَشْبَعُ منه العلماءُ، ولا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تَلْتَبِسُ به الألسِنَة؛ هو الَّذي لم تَنْتَهِ الجنُّ حين سَمِعَتْه أنْ قالوا:** ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾» [الجن: ١، ٢] [الترمذي (٢٩٠٦)].

ومنها: جَمْعُه لعلوم ومعارِفَ لم تَعْهَد العربُ عامّةً ولا محمدٌ ﷺ قَبلَ نُبوّته خاصّة، بمعرفتها، ولا القيام بها؛ ولا يُحيطُ بها أحَدٌ من علماءِ الأمم، ولا يشتملُ عليها كتابٌ مِنْ كُتبِهم؛ فجُمِع فيه مِنْ بيان عِلم الشرائع، والتنبيهِ على طُرُق الحُجَج العَقْلياتِ، والردِّ على فِرَقِ الأمم؛ ببراهينَ قويّةٍ، وأدِلةٍ بيِّنةٍ، سَهْلَةِ الألفاظِ، موجَزةِ المقاصد، رامَ المُتَحذْلِقون بَعْدُ أنْ ينصبُوا أدلَّةً مِثْلَها، فلم يَقْدِرُوا عليها؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].

و ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

إلى ما حَواهُ من علوم السِّيَر، وأنْباء الأُمم، والمواعظِ، والحِكَم، وأخبار الدار الآخرةِ، ومحاسِنِ الآداب والشِّيَم.

قال الله ـ جَلَّ اسْمه ـ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

و ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

و ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٦٧٠ ـ وقال ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ أنزل هذا القرآن آمِراً وزاجراً، وسنةً خالية، ومَثَلاً مَضرُوباً، فيه نَبؤكم، وخَبَرُ ما كان قَبْلَكم، ونَبَأُ ما بَعْدَكم، وحُكم ما بينكم، لا يُخلِقُه طُولُ الردِّ، ولا تَنقضي عجائبُه؛ هو الحقُّ ليس بالهَزْلِ؛ مَنْ قال به صدق، ومَنْ حَكَم به عَدَل، ومَنْ خاصم به فَلَج، ومَنْ قَسَمَ به أقسطَ، ومَنْ عمِلَ به أُجِرَ، ومَنْ تمسَّكَ به هُدِيَ إلى صِراطٍ مُستقيم؛ ومَنْ طلب الهُدَى من غيره أضلَّه اللَّهُ؛ ومَنْ حَكم بغيره قَصَمه اللَّهُ؛ هو الذِّكْرُ الحكيم، والنُّورُ المُبين، والصِّراطُ المستقيمُ، وحَبْلُ اللَّهِ المتين، والشِّفَاءُ النافعُ، عِصمةٌ لِمَنْ تمسَّكَ بهِ، ونَجاةٌ لِمَن اتَّبعه، لا يَعْوَجُّ فيُقَوَّم، ولا يَزيغُ فيُستَعْتَب، ولا تَنقَضِي عجائبُه، ولا يَخْلَقُ على كَثْرة الرَّدِّ**».

٦٧١ ـ ونحوُه عن ابن مسعود؛ وقال فيه: «**ولا يختلِف، ولا يَتشانُّ، فيه نَبَأُ الأولين والآخرين**».

٦٧٢ ـ وفي الحديث: «قال اللَّهُ تعالى لمحمد ﷺ: إني مُنَزِّلٌ عليكَ توراةً حديثةً، تفتَحُ بها أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلُوباً غُلفاً، فيها ينابيعُ العِلْمِ وفَهْمُ الحِكْمة، ورَبيعُ القلوب».

وعَنْ كَعْب: عليكم بالقرآن، فإنه فَهْمُ العقولِ، ونورُ الحكمةِ.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فجُمع فيه ـ مع وَجازةِ ألفاظِه، وجَوامع كَلِمِه ـ أضعافُ ما في الكتبِ قَبْله، التي ألفاظُها على الضِّعفِ منه مراتٍ.

ومنها: جَمْعُه فيه بين الدليل ومَدْلُولِه؛ وذلك أنه احتجَّ بنظم القرآن، وحُسْنِ رَصْفِه وإيجازه وبلاغته؛ وأثناءَ هذه البلاغة أمْرُه ونَهْيُه، ووَعْدُه ووعيده؛ فالتالي له يَفْهَمُ موضعَ الحجّة والتكليف معاً مِنْ كلام واحد، وسورةٍ منفردة.

ومنها: أنْ جَعَلَهُ في حَيِّزِ المنظوم الذي لم يُعْهَدْ، ولم يكن في حَيِّزِ المنثور؛ لأنَّ المنظومَ أسهلُ على النفوس، وأوْعَى للقلوب، وأسْمَحُ في الآذان، وأحلى على الأفهام، فالناسُ إليه أميَلُ، والأهواءُ إليه أسرع.

ومنها: تيسيرُه تعالى حِفْظَه لمُتَعلّميه، وتقريبُه على متحفّظيه؛ قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وسائرُ الأمم لا يَحْفَظُ كُتُبَها الواحدُ منهم، فكيف الجَمَّاءُ على مُرور السنين عليهم. والقرآنُ مُيَسَّرٌ حِفْظُه للغِلْمان في أقرب مُدّة.

ومنها: مُشاكَلَةُ بَعْضِ أجزائه بعضاً، وحُسْنُ ائتلافِ أنواعِها، والتِئام أقسامها؛ وحُسْنُ التخلُّص من قِصَّةٍ إلى أُخرى، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معَانيه، وانقسام السُّورَةِ الواحِدةِ على أمرٍ ونَهْيٍ، وخَبَر واستِخبَار، ووَعْدٍ ووَعيد، وإثبات نُبُوَّةٍ، وتوحيد وتقرير، وتَرْغيبٍ وتَرْهيب، إلى غير ذلك من فوائده، دون خَلَلٍ يتخلَّلُ فصُولَه.

والكلامُ الفصيحُ إذا اعْتوره مِثْلُ هذا ضعفتْ قُوَّتُه، ولانَتْ جَزالتُه، وقلَّ رَوْنَقُه، وتَقَلْقَلَتْ ألفاظُه.

فتأمَّلْ أوّل ﴿صٓ﴾ وما جُمِع فيها مِنْ أخبار الكفّار وشِقَاقِهم وتَقْريعهم بإهلاكِ القرونِ مِنْ قَبْلِهم، وما ذُكر مِنْ تكذيبهم بمحمد ﷺ وتعجّبهم مما أتى به والخَبَر عن اجتماع مَلَئهم على الكُفْر، وما ظهر مِن الحَسَد في كلامهم، وتعجيزهم وتَوْهينهم، ووعيدهم بخِزْي الدنيا والآخرة، وتكذيبِ الأُمَمِ قَبْلَهم، وإهْلاكِ اللَّهِ لهم، ووعيدِ هؤلاء مِثْلَ مُصابهم، وتَصْبير النبيِّ على أذاهم، وتَسْليته بكل ما تقدّم ذِكْرُهُ؛ ثم أخَذَ في ذِكْرِ داود وقِصَص الأنبياء؛ كلُّ هذا في أوْجزِ كلامٍ وأحسنِ نظام.

ومنه: الجملةُ الكثيرة التي انطوتْ عليها الكلماتُ القليلةُ؛ وهذا كلُّه وكثيرٌ مما ذَكَرْنا أنه ذُكِر في إعجاز القرآنِ، إلى وجوهٍ كثيرة، ذَكرها الأئمةُ لم نَذْكُرْها؛ إذ أكثَرُها داخلٌ في باب بلاغته؛ فلا يَجِب أنْ يُعَدَّ فنّاً منفرداً في إعجازِه، إلا في باب تفصيل فنون البلاغة، وكذلك كثيرٌ مما قدمنا ذِكْره عنهم، يُعَدُّ في خواصّه وفضائله، لا إعجازه.

وحقيقةُ الإعجاز الوجوهُ الأربعة التي ذَكَرْنا؛ فليُعْتَمَدْ عليها، وما بعدها من خواصّ القرآنِ وعجائبه التي لا تَنْقَضي. وباللَّهِ التوفيق.

فصل
في انشقاقِ القمَرِ وحَبْسِ الشَّمس

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١، ٢].

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرةِ عن آياته؛ وأجمع المفسِّرون وأهلُ السنَّةِ على وقوعه.

٦٧٣ ـ أخبرنا الحُسَيْن بن محمد الحافظ من كتابه، حدثنا القاضي سِراجُ بن عَبْدالله، حدثنا الأَصِيلي، حدثنا المَرْوَزِيُّ، حدثنا الفَرَبْري، حدثنا البُخاري، حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن شُعْبَة، وسُفْيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انْشَقَّ القَمَرُ على عَهْدِ رسول الله ﷺ فِرقَتَيْنِ: فرقةً فوقَ الجَبَلِ، وفرقةً دونه؛ فقال رسول الله ﷺ: **«اشْهَدُوا»** [البخاري (٤٨٦٤)، مسلم (٢٨٠٠)].

٦٧٤ ـ وفي رواية مجاهد: ونحن مع النبيِّ ﷺ.

٦٧٤م ـ وفي بعض طرقِ الأعمش: ونحن بِمِنًى [البخاري (٣٨٦٩)، مسلم (٢٨٠٠/٤٤)].

٦٧٥ ـ ورواهُ أيضاً ـ عن ابن مسعودٍ ـ الأسودُ، وقال: حتى رأيتُ الجبلَ بين فُرْجَتَي القَمر [أحمد (٤١٣/١)].

٦٧٦ ـ ورواه عنه مسروق، أنه كان بمكة، وزاد: فقال كفّارُ قُريش: سَحَرَكم ابنُ أبي كَبْشَة [البخاري (٣٨٦٩)].

فقال رجلٌ منهم: إنَّ محمداً إنْ كان سَحَرَ القمر فإنه لا يَبْلُغُ مِنْ سِحْره أن يَسْحَر الأرضَ كلَّها، فاسْأَلوا مَنْ يأتيكم من بلدٍ آخر: هل رأَوْا هذا؟ فأَتَوْا، فسألُوهم فأخبروهم أنَّهم رأوْا مِثْلَ ذلك.

وحكى السَّمَرْقَنْدي عن الضَّحَّاك، نَحْوَه، وقال: فقال أبو جهل: هذا سِحْرٌ، فابعثوا إلى أهل الآفاقِ حتى تنظرُوا: أرَأوْا ذلك أم لا؟ فأخبرَ أهلُ الآفاقِ أنهم رَأَوْهُ مُنْشَقًّا؛ فقالوا ـ يَعْني الكفار ـ: هذا سِحْرٌ مستمرّ.

٦٧٧ ـ ورَوَاه أيضاً ـ عن ابن مسعود ـ عَلْقَمَةُ؛ فهؤلاء أربعة عن عبدالله.

٦٧٨ ـ ٦٨٣ ـ وقد رواهُ غيرُ ابْن مسعود، كما رواه ابنُ مسعود؛ منهم: أنس [البخاري (٣٦٣٧)، مسلم (٢٨٠٢)]، وابنُ عباس [البخاري (٣٦٣٨)، مسلم (٢٨٠٣)]،

وابنُ عُمر [مسلم (٢٨٠١)]، وحُذَيفةُ، وعلي، وجُبير بن مُطْعِم [الترمذي (٣٢٨٩)]؛ فقال عَلِيّ ـ من رواية أبي حُذيفة الأرْحَبي: انشقَّ القمرُ ونَحْنُ مع النبيّ ﷺ.

وعن أنسٍ: سأل أهلُ مكةَ النبيَّ ﷺ أنْ يُرِيهُم آيةً، فأراهم انشقاقَ القمرِ فرقتين حتى رأوْا حِراءَ بينهما. رواه عن أنسٍ قتادةُ.

وفي رواية مَعْمر وغيره، عن قتادة، عنه: أراهم القَمَرَ مرّتَيْن انشقاقَه، فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١].

ورواه عن جُبَير بن مُطْعِم ابنُه محمّد، وابنُ ابنِه جُبَير بن محمد.

ورواه عن ابن عباسٍ عبيدُ الله بن عبدالله بن عُتْبَة.

ورواه عن ابن عُمر مُجَاهدٌ، ورواهُ عن حُذَيفَة أبو عبدالرحمن السُّلَمِيُّ ومسلمُ بن أبي عِمْرَان الأزدِي.

وأكثرُ طُرقِ هذه الأحاديثِ صحيحةٌ؛ والآيةُ مُصَرِّحَةٌ، ولا يلتفتُ إلى اعتراض مخذول، بأنه لو كان هذا لم يخفَ على أهلِ الأرض؛ إذْ هو شيءٌ ظاهرٌ لجميعهم؛ إذ لم يُنْقَلْ لنا عن أهلِ الأرض أنهم رصَدُوه تلك الليلة فلم يَرَوْهُ انشقّ؛ ولو نُقِل إلينا عمَّنْ لا يجوزُ تَمالُؤهم ـ لكثرتهم ـ على الكذب، لَمَا كانت علينا به حجّةٌ؛ إذ ليس القَمرُ في حدٍّ واحدٍ لجميع أهلِ الأرضِ؛ فقد يطلعُ على قَوم قبل أن يطلُعَ على آخرين، وقد يكون مِنْ قومٍ بضِدِّ ما هو من مُقَابليهم من أقطَار الأرضِ، أو يَحُولُ بين قوم وبينه سحابٌ أو جِبالٌ؛ ولهذا نجدُ الكسوفات في بعض البلادِ دونَ بَعْض، وفي بعضها جُزئيّة، وفي بعضها كلّيّة، وفي بعضها لا يعرفها إلا المُدَّعون لعِلْمِها؛ ذلك تقديرُ العزيز العليم.

وآيةُ القمر كانَتْ ليلاً، والعادةُ من الناس بالليل الهدوء والسكونُ وإيجافُ الأبواب، وقطعُ التصرّف، ولا يكاد يَعْرِفُ من أمور السماء شيئاً، إلاَّ مَنْ رَصَدَ ذلك، وَاهْتَبَل به.

وكذلك ما يكونُ الكسوفُ القَمري كثيراً في البلاد، وأكثَرُهم لا يعلمُ به حتى يُخْبَرَ، وكثيراً ما يحدِّثُ الثقاتُ بعجائبَ يشاهدونها من أنوارٍ ونجومٍ طَوَالِعَ عظَامٍ تظهَر في الأحيان بالليل في السماء، ولا عِلْمَ عند أحد منها.

٦٨٤ ـ وخرّج الطحاوي في مشكل الحديث، عن أسماء بنت عُمَيْسٍ، من طريقين، أنّ النبيّ ﷺ كان يُوحَى إليه، ورأسُه في حِجْر عليّ، فلم يصلِّ العصر حتى غربت الشمسُ؛ فقال رسول الله ﷺ: **«أصلَّيتَ؟ يا علي!»** قال: لا.

فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم! إنه كان في طاعتكَ، وطاعةِ رسولك، فارْدُدْ عليه الشَمْسَ»**.

قالت أسماء: فرأيتُها غَرَبَتْ، ثم رأيتُها طَلَعَتْ بعد ما غَرَبَتْ، ووقفت على الجبالِ والأرض، وذلك بالصَّهْبَاءِ في خَيْبَر.

قال: وهذانِ الحديثان ثابتان ورُوَاتُهما ثقات.

وحكى الطَّحَاوي أنَّ أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن كان سبيلُهُ العلْمَ التخلّفُ عن حفظِ حديثِ أسماءَ؛ لأنه من أَجَلِّ علامات النبوَّة.

٦٨٥ ـ ورَوَى يونُس بن بُكَيْرٍ في زيادة المغازي في روايته عن ابن إسحاق: لمّا أُسْرِيَ برسول الله ﷺ، وأخْبَرَ قَومَه بالرُّفْقةِ والعلامةِ التي في العِيرِ قالوا: متى تَجيء؟ قال: **«يوم الأربعاء»** فلما كان ذلكَ اليوم أشرفتْ قُريش ينظرُون وقد ولَّى النهارُ ولم تَجِىء؛ فدعا رسول الله ﷺ، فزِيدَ له في النهارِ ساعة، وحُبِسَتْ عليه الشمسُ.

فصل

فِي نَبعِ المَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَتَكْثِيرِهِ بِبَرَكَتِهِ

قال المؤلف رحمه الله: أمّا الأحاديث في هذا فكثيرةٌ جداً.

رَوى حديثَ نَبْعِ الماءِ من بين أصابعه ﷺ جماعةٌ من الصحابة؛ منهم أنسٌ، وجابرٌ، وابن مسعود:

٦٨٦ ـ حدثنا أبو إسحاق: إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا القاضي عيسى بن سَهْل، حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو عُمَرَ بن الفَخّار، حدثنا أبو عيسى، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طَلْحة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: رأيتُ رسول الله ﷺ، وحانَتْ صلاةُ العَصْرِ؛ فالتمسَ الناسُ الوَضوءَ فلم يجدوه، فأُتِيَ رسول الله ﷺ بوَضُوء، فوضع رسولُ الله ﷺ في ذلك الإناءِ يدَه، وأمر الناسَ أن يتوضؤوا منه.

قال: فرأيتُ الماءَ ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناسُ حتى توضَّؤوا من عند آخرهم [البخاري (١٦٩)، مسلم (٥/٢٢٧٩)].

٦٨٧ ـ ورواه أيضاً ـ عن أنس ـ قَتادةُ، وقال: بإناءٍ فيه ماءٌ يغمر أصابِعَه أو لا يكاد يَغمر. قال: كم كنتُم؟ قال: كُنّا زُهاء ثلاث مئةٍ [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم (٧/٢٢٧٩)].

٦٨٨ ـ وفي روايةٍ عنه: وهم بالزَّوْرَاءِ عند السوق [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم (٦/٢٢٧٩)].

ورواهُ أيضاً حُمَيدٌ، وثابتٌ، والحَسنُ، عن أنس.

٦٨٩ ـ وفي رواية حُمَيدٍ: قلتُ: كم كانوا؟ قال: ثمانين [البخاري (٣٥٧٥)].

٦٩٠ ـ ونحوُه عن ثابت عنه [البخاري (٢٠٠)، مسلم (٤/٢٢٧٩)].

٦٩١ ـ وعنه أيضاً: وهم نحوٌ من سبعين رجلاً [البخاري (٣٥٧٤)].

٦٩٢ ـ وأما ابنُ مسعود ففي الصحيح عنه ـ من رواية علقَمةَ ـ: بينما نحن مع رسول الله ﷺ، وليس معنا ماءٌ، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اطلبوا مَن معه فَضلُ ماءٍ**»، فَأُتِي بماءٍ فصَبَّهُ في إناءٍ، ثم وضَع كفَّه فيه، فجعل الماءُ ينبُعُ مِنْ بين أصابع رسول الله ﷺ [البخاري (٣٥٧٩)].

٦٩٣ ـ وفي الصحيح، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن جابر رضي الله عنه: عَطِشَ الناسُ يومَ الحُدَيْبية ورسول الله ﷺ بين يدَيْه رَكْوَةٌ، فتوضأ منها، وأقبل الناسُ نَحْوَه؛ وقالوا: ليس عندنا ماءٌ إلاّ ما في رَكْوَتك؛ فوضع النبيُّ ﷺ يدَهُ في الرَّكْوَةِ فجعل الماءُ يَفُورُ من بين أصابعه كأمثال العُيُون.

وفيه: فقُلْتُ: كم كنتُم؟ قال: لو كنّا مِئَةَ ألفٍ لكفَانا؛ كُنّا خَمسَ عَشْرَةَ مئةً [البخاري (٤١٥٢)، مسلم (٧٢/١٨٥٦)].

٦٩٤ ـ ورُوِي مثلُه عن أنس، عن جابر؛ وفيه أنه كان بالحُدَيْبِيَة.

٦٩٥ ـ وفي رواية عُبادة بن الوَليد بن عُبادة بن الصامت عنه، في حديث مُسلِم الطَّويل في ذِكْر غَزوة بُوَاطٍ قال:

قال لي رسول الله ﷺ: «**يا جابرُ! نادِ، الوَضوء..**» وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجِد إلاّ قَطرَةً في عَزلاَءِ شَجْبٍ؛ فأُتِيَ به النبيّ ﷺ، فَغمزه وتكلّم بشيءٍ لا أدري ما هو؟ وقال: «**نادِ بجفْنَة الرَّكْب**»، فأتيتُ بها، فوضعتها بين يدَيْهِ، وذكَر أنّ النبيَّ ﷺ بسط يدَه في الجَفْنَةِ، وفرّق أصابِعَه، وصبَّ جابرٌ عليه، وقال: باسم الله كما أمَرَهُ ﷺ قال: فرأيتُ الماءَ يفورُ من بين أصابِعه، ثم فارت الجَفْنَةُ واستدارت حتى امتلأت، وأمر الناسَ بالاستقاء، فاستقَوْا حتى رَوُوا.

فقلت: هل بَقِيَ أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يدَه من الجفْنَة وهي مَلأَىٰ [مسلم (٣٠١٣)].

٦٩٦ ـ وعن الشَّعْبيّ: أُتِي النبيُّ ﷺ في بعض أسفاره بإداوَةِ ماءٍ، وقيل: ما مَعنا، يا رسولَ الله! ماءٌ غَيْرُها، فسكبها في رَكْوَةٍ، ووضع إصبعه وسطها، وغَمَسها في الماء، وجعل الناسُ يجيئون ويتوضَّؤون ثم يقومون.

٦٩٧ ـ قال التِّرمِذِيُّ: وفي الباب، عن عمران بن حُصَيْن.

ومِثْلُ هذا في هذه المواطن الحَفِلَة، والجموع الكثيرة، لا تتطرّقُ التهمةُ إلى المحدِّث به؛ لأنهم كانوا أسرعَ شيء إلى تكذيبه، لِمَا جُبِلَتْ عليه النفوسُ من ذلك؛ ولأنهم كانوا ممن لا يسكتُ على باطل؛ فهؤلاء قد رَوَوْا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضورَ الجَمَّاء الغَفِير له، ولم يُنْكِرْ أحد من الناس عليهم ما حدّثوا به عنهم أنهم فَعَلُوا وشاهدوا، فصار كتصديق جميعهم له.

فصل
في تَفْجِيرِ الْمَاء بِبَرَكَتِه ﷺ، وَانْبِعَاثِه بِمَسِّه وَدَعْوَتِه

٦٩٨ ـ ومما يُشْبِهُ هذا مِنْ مُعجزاته تفجيرُ الماء بَبركتِه، وانبعاثُه بِمَسِّه ودعْوَتِه فيما رَوَى مالك في «المُوطَّأ» عن مُعَاذ بن جُبَل في قصةِ غَزوةِ تَبُوك، وأنهم وَرَدُوا العَيْنَ وهي تَبِضُّ بشيءٍ من ماءٍ مِثْلَ الشِّراك، فَغَرَفُوا من العَيْن بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غَسَل رسول الله ﷺ فيه وَجْهَهُ ويَدَيْه، وأعادَهُ فيها، فجرَتْ بماءٍ كثيرٍ، فاسْتَقَى الناسُ.

٦٩٩ ـ قال في حديث ابن إسحاق: فانخرقَ من الماء ما لَهُ حِسٌّ كحِسِّ الصَّواعق.

ثم قال: **«يُوشِكُ، يا مُعَاذ! إن طالَتْ بك حياةٌ أنْ ترى ما ها هنا قد مُلِيء جِنَاناً»** [مسلم (٧٠٦/١٠)].

٧٠٠، ٧٠١ ـ وفي حديثِ البَراء، وسَلَمة بن الأكْوَع ـ وحديثُه أتمُّ ـ في قصةِ الحُديبية، وهم أربَعَ عَشرةَ مئة، وبئرُها لا تَرْوِي خمسين شاةً، فنزَحْنَاها فلم نَتْرُكْ فيها قَطْرَةً، فقعد رسول الله ﷺ على جَبَاها.

قال البراء: وأُتِيَ بدَلْوٍ منها، فبصق، فدعا ـ وقال سلَمة: فإمّا دعَا، وإمّا بصَق فيها ـ فجاشَتْ؛ فأرْوَوْا أنفُسهم وركَابَهم [البخاري (٣٥٧٧) مسلم (١٧٢٩)].

وفي غير هذه الروايتين في هذه القصة من طريق ابن شهاب في الحُدَيبية: فأخرج سَهماً مِن كِنانته، فوضع في قَعْرِ قَلِيبٍ ليس فيه ماءٌ، فَرَوِيَ الناسُ حتى ضربوا بِعَطَن.

٧٠٢ ـ وعن أبي قتادة، وذكر أن الناسَ شَكَوْا إلى رسُولِ الله ﷺ العَطَش في بعض أسفاره، فدعا بالمِيضَأة، فجعلها في ضِبْنِهِ، ثم الْتَقَم فَمَها، فاللّهُ أعلمُ ـ نفَثَ فيها أم لا ـ فشَرِبَ الناسُ حتى رَوُوا، وملؤوا كلَّ إناءٍ معهم؛ فخُيِّلَ إليَّ

أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً [مسلم (٦٨١)].

٧٠٣ - ورَوَى مِثْلَه عِمْرانُ بن حُصَيْنٍ.

وذكر الطبري حديثَ أبي قتادة على غير ما ذَكَره أهلُ الصحيح، وأن النبيّ ﷺ خرج بهم مُمِدًا لأهل مُؤْتَة عندما بَلَغهُ قَتْلُ الأمراءِ.

وذكر حديثاً طويلاً فيه مُعجِزاتٌ وآياتٌ للنبيّ ﷺ؛ وفيه إعلامُهم أنهم يفقدون الماءَ في غَدٍ.

وذكر حديثَ المِيْضَأةِ؛ قال: والقومُ زُهاء ثلاث مئة.

٧٠٤ - وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قَتَادة: **«احفَظْ عليَّ مِيضَأَتَك، فإنه سيكونُ لها نَبأٌ»** وذكر نحوه [مسلم (٦٨١)].

٧٠٥ - ومن ذلك حديثُ عِمْرانَ بن حُصَين حين أصابَ النبيَّ ﷺ وأصحابَه عَطشٌ في بعض أسفارهم؛ فوجَّه رجُلين من أصحابه، وأعلمهما أنهما يجدان امرأةً بمكانِ كذا معها بَعِيرٌ عليه مَزادتان. . . الحديث؛ فوجداها وأتَيا بها إلى النبيِّ ﷺ؛ فجعل في إناءٍ من مَزادَتَيْها، وقال فيه ما شاء اللَّهُ أن يقولَ؛ ثم أعاد الماءَ في المزادَتَيْنِ، ثم فُتِحَتْ عَزالِيْهِمَا؛ وأمر الناسَ فملؤوا أسقيتَهم حتى لم يَدَعُوا شيئاً إلاّ ملؤوه.

قال عِمْران: وتَخَيَّل إليَّ أنهما لم تَزْدادا إلا امتلاءً، ثم أمر فجُمِع للمرأةِ من الأزوادِ حتى ملأ ثَوبها. وقال: **«اذهبي؛ فإنَّا لم نأخُذ من مائك شيئاً؛ ولكنَّ الله سقانا. . .»** الحديث بطوله [البخاري (٣٤٤)، مسلم (٦٨٢)].

٧٠٦ - وعن سلَمة بن الأكْوع: قال نبيُّ الله ﷺ: **«هل مِنْ وَضوءٍ؟»** فجاء رجلٌ بإدَاوَةٍ فيها نُطْفَةٌ فأفرغَها في قَدَحٍ، فتوضَّأنا كُلُّنا نُدَغْفِقُهُ دَغْفَقَةً، أربعَ عَشْرة مِئةً [مسلم (١٧٢٩)]. . . الحديث بطوله.

٧٠٧ - وفي حديث عُمر، في جَيْش العُسْرَة: وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إنَّ الرجلَ لَيَنحَرُ بَعِيرَه، فيَعْصر فَرْثه فيشرَبُه؛ فرغِبَ أبو بكر إلى النبيِّ ﷺ في الدعاء، فرفَع يَدَيه، فلم يَرْجعهما حتى قالت السماء، فانسكبَتْ؛ فملؤوا ما معهم من آنِيَةٍ، ولم تجاوِز العسكر.

٧٠٨ - وعن عَمْرو بن شُعَيبٍ، أنَّ أبا طالب قال للنبيِّ ﷺ، وهو رَدِيفُه بذي المَجاز: عَطِشتُ وليس عندي ماءٌ؛ فنزل النبيُّ ﷺ، وضربَ بقَدَمِهِ الأرْضَ، فخرج الماءُ، فقال: **«اشرب»**.

والحديثُ في هذا الباب كَثِيرٌ؛ ومنه الإجابةُ بدعاء الاستسقاء وما جانسَهُ.

فصل

وَمِنْ مُعجِزَاتِهِ تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِبَرَكَتِهِ وَدُعَائِهِ

٧٠٩ ـ أخبرنا القاضي الشهيدُ أبو عليّ رحمه الله، حدثنا العُذْري، حدثنا الرازي، حدثنا الجُلُودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجَّاج، حدثنا سَلَمَة بن شَبِيب، حدثنا الحَسَن بن أَعْيَن، حدثنا مَعْقِل، عن أبي الزُّبير، عن جابر، أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ يَسْتَطْعِمُه، فأطعمه شَطْر وَسْقِ شَعير؛ فما زال يأكل منه وامرأتُه وضَيْفُه حتى كالَه، فأتى النبيَّ ﷺ، فأخبره، فقال: **«لو لم تَكِلْهُ لأكلتُم منه ولقام بكم»** [مسلم (٢٢٨١)].

٧١٠ ـ ومن ذلك حديثُ أبي طَلْحَةَ المشهور، وإطعامُه ﷺ ثمانين ـ أو سبعين ـ رجلاً من أقراص مِنْ شعير جاء بها أنس تحت يده ـ أي إبطه ـ فأمر بها فَفُتَّتْ، وقال فيها ما شاء اللَّهُ أَنْ يَقُولَ [البخاري (٣٥٧٨)، مسلم (٢٠٤٠)].

٧١١ ـ وحديثُ جابر في إطعامِه ﷺ يوم الخَنْدَق أَلْفَ رجُلٍ من صاع شَعير، وَعَنَاقٍ.

وقال جابر: فأُقْسِمُ باللَّهِ لأكلوا حتى تركُوه وانحرفوا، وإنَّ بُرْمَتَنا لتَغِطُّ كما هي، وإنَّ عجِينَنَا لَيُخْبَزُ.

وكان رسول الله ﷺ بَصقَ في العَجِين والبُرْمَة، وبارك.

رواهُ عن جابرٍ سَعيدُ بن مِينَاء، وأيمَنُ [البخاري (٤١٠٢)، مسلم (٢٠٣٩)].

٧١٢ ـ وعن ثابتٍ، مثلُه، عن رجل من الأنصار وامرأتِه، ولم يسمِّهما؛ قال: وجِيءَ بمثْلِ الكفِّ، فجعل رسول الله ﷺ يَبْسُطُها في الإناء، ويقولُ ما شاء الله، فأكل منه مَنْ في البيت والحُجْرةِ والدَّارِ؛ وكان ذلك قد امتلأ مِمّنْ قَدِم معه ﷺ لذلك؛ وبَقِي بعدما شَبِعُوا مِثْلَ ما كان في الإناء.

٧١٣ ـ وحديثُ أبي أيوبَ: أنه صنع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر من الطعام زُهاء ما يكْفِيهما؛ فقال له النبيُّ ﷺ: **«ادْعُ ثلاثين من أشراف الأنصار»** فدعاهم، فأكلوا حتى تركوا؛ ثم قال: **«ادعُ ستّين»** فكان مِثلُ ذلك؛ ثم قال: **«ادْعُ سَبْعين»** فأكلوا حتى تركوا، وما خرج منهم أحدٌ حتى أسلم وبايَع.

قال أبو أيوبَ: فأكلَ مِنْ طعامي مئةٌ وثمانون رجلاً.

٧١٤ ـ وعن سَمُرَةَ بن جُنْدُب: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بقَصْعَةٍ فيها لَحْمٌ، فتعاقَبُوها من غُدْوَةٍ حتى الليل؛ يقومُ قومٌ ويقْعُدُ آخرون [الترمذي (٣٦٢٥)].

٧١٥ ـ ومن ذلك حديثُ عبدالرحمن بن أبي بكر: كُنّا مع النبيّ ﷺ ثلاثين ومئة؛ وذكر في الحديث: أنه عُجِن صاعٌ من طعام، وصُنعت شاةٌ، فشُوِي سَوَادُ بَطْنِها ثم قال: وايْمُ اللّهِ! ما مِن الثلاثين ومئةٍ إلا وقد حَزَّ له حُزَّةً من سواد بطنها، ثم جعل منها قَصْعَتَيْنِ، فأكلْنا منهما أجمعون، وفضَل في القَصْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتُهُ على البَعِير [البخاري (٢٦١٨)، مسلم (٢٠٥٦)].

٧١٦ وحتى ٧١٩ ـ ومِنْ ذلك حديثُ عبدالرحمن بن أبي عَمْرةَ الأنصاري [أحمد (٤١٧/٣، ٤١٨)، مسلم (١٧٢٩)]، عن أبيه، ومِثْلُه لِسَلَمةَ بن الأكوع [البخاري (٢٤٨٤)، مسلم (١٧٢٩)]، وأبي هُريرةَ [مسلم (٢٧)]، وعُمر بنِ الخطاب رضي الله عنه فذكروا مَخْمَصةً أصابت الناسَ مع النبي ﷺ في بعض مَغَازِيه، فدعا ببقيَّة الأزوادِ، فجاء الرجلُ بالحَثْيَةِ من الطعام، وفَوْقَ ذلك؛ وأعلاهم الذي أتى بالصَّاعِ من التمر؛ فجمعه على نِطْعٍ ـ قال سَلَمَةُ: فَحزَرْتُه كَرَبْضَةِ العَنْزِ ـ ثم دعا الناسَ بأوعيتهم، فما بقي في الجيش وعاءٌ إلاّ ملؤوه وبقيَ منه.

٧٢٠ ـ وعن أبي هريرة: أمرني النبيُّ ﷺ أن أدْعُو له أهْلَ الصُّفَّة، فَتَتَبَّعتُهم حتى جَمَعْتُهم، فوضِعَتْ بين أيدينا صَحْفَةٌ، فأكَلْنا ما شِئْنا، وفرغْنا وهي مِثْلُها حين وُضِعَتْ إلاّ أنَّ فيها أثَر الأصابع.

٧٢١ ـ وعن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: جمع رسول الله ﷺ بني عبدالمطلب، وكانوا أربعين، منهم قومٌ يأكلونَ الجَذَعَةَ، ويشربون الفَرَقَ؛ فصنع لهم مُدّاً من طعام، فأكلوا حتى شَبِعوا، وبقِيَ كما هو؛ ثم دعا بعُسٍّ، فشَرِبُوا حتى رَوُوا، وبقِيَ كأنه لم يُشْرَبْ منه [أحمد (١٥٩/١)].

٧٢٢ ـ وعن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ حين ابْتَنَىٰ بزَيْنَب، أمَره أنْ يَدْعُوَ له قوماً سمَّاهم، وكلَّ من لقيتَ، حتى امتلأ البيت والحجرة، وقدَّمَ إليهم تَوْراً، فيه قَدْرُ مُدٍّ مِن تَمْرٍ، جُعِل حَيْساً، فوضعه قُدَّامَه، وغَمس ثلاثَ أصابعه، وجعل القومُ يتغدَّون ويخرجون، وبَقِيَ التَّوْرُ نحواً مما كان، وكان القوم أحداً ـ أو قال ـ اثنين وسبعين [مسلم (٩٥/١٤٢٨)، البخاري (٥١٧٠)].

٧٢٣ ـ وفي رواية أخرى في هذه القِصَّةِ أو مِثْلها إنَّ القوم كانوا زُهاءَ ثلاث مئة وأنهم أكلوا حتى شَبِعُوا. وقال لي: «ارفَعْ»، فلا أدْرِي حين وضَعْتُ كان أكثر أم حين رَفَعْتُ [مسلم (٩٤/١٤٢٨)].

٧٢٤ ـ وفي رواية جَعْفر بن محمد، عن أبيه عن عليٍّ رضي الله عنه: أنَّ فاطمة طبخَتْ قِدراً لغَدائها ووَجّهَتْ علِيّاً إلى النبيّ ﷺ ليتغدَّى معها، فأمرها

فَغَرَفَتْ منها لجميع نِسائه صَحْفَةً، صَحْفَةً ثم لَهُ ﷺ، ولعليّ، ثم لها، ثم رَفَعت القِدْرَ، وإنها لتَفِيضُ؛ قالت: فأكَلْنا منها ما شاء الله.

٧٢٥، ٧٢٦ ـ وأمرَ النبيُّ ﷺ عُمَر بن الخطاب أن يُزَوِّدَ أَرْبَعَ مِئَةِ راكب من أَحْمَسَ؛ فقال: يا رسول الله! ما هِيَ إلاّ أَصْوُعٌ. قال: «**اذهَبْ**»، فذهبَ فزوَّدهم منه، وكان قَدْرَ الفَصِيلِ الرابضِ، من التَّمرِ، وبَقي بحاله.

مِنْ رواية دُكَيْنِ الأَحْمَسي [أحمد (١٧٤/٤)]، ومن رواية جرير.

٧٢٧ ـ ومثلُه مِن رِوَايَة النُّعمان بن مُقَرِّنٍ الخَبَر بعَيْنه، إلا أنَّه قال: أربَعَ مئة راكب من مُزينة [أحمد (٤٤٥/٥)].

٧٢٨ ـ ومن ذلك حديثُ جابر في دَيْن أبيه بعد مَوْته، وقد كان بذَلَ لغُرَماءِ أبيه أصْلَ مالهِ، فلم يَقْبَلوه، ولم يكن في ثمرِها سنين كَفَاف دَيْنِهِم، فجاءَهُ النبيُّ ﷺ بعدَ أنْ أمَرهُ بِجَدِّها، وجَعْلها بَيَادِرَ في أصولها، فمشى فيها ودعا، فأوْفَى منه جابرٌ غُرَمَاءَ أبيه، وفضلَ مِثْلَ ما كانوا يَجُدُّون كلَّ سنةٍ [البخاري (٢١٢٧)].

١/٧٢٨ ـ وفي رواية: مثْلُ ما أعطاهم [البخاري (٣٥٨٠)]؛ قال: وكان الغُرماءُ يهودَ؛ فعجبوا من ذلك.

٧٢٩ ـ وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أصاب الناسَ مَخْمَصةٌ. فقال لي رسول الله ﷺ: «**هل مِنْ شَيء؟**» قلتُ: نعم؛ شيء من التمر في المِزْوَد. قال: «**فأْتِني به**» فأدخل يده فأخرج قَبْضَةً، فبسطها ودعا بالبَرَكةِ؛ ثم قال: «**ادْعُ عَشَرةً**» فأكلوا حتى شَبِعوا، ثم عَشَرة كذلك، حتى أطْعَم الجيشَ كلهم وشبِعُوا. قال: «**خُذْ ما جِئْتَ به، وأدخِلْ يدَكَ، واقبِضْ منه ولا تكبَّه**»، فقبَضْتُ على أكثر مما جئْتُ به؛ فأكلتُ منه، وأطعمتُ حياةَ رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعُمر، إلى أنْ قُتِل عثمان، فانتُهِبَ منِي، فذهب.

٧٣٠ ـ وفي رواية: فقد حملتُ من ذلك التَّمر كذا وكذا مِنْ وَسْقٍ في سبيلِ الله [الترمذي (٣٨٣٩)، أحمد (٣٥٢/٢)].

٧٣١ ـ وذُكِرَتْ مِثْلُ هذه الحكايةِ في غَزْوة تَبُوك، وأنَّ التَّمر كان بِضْعَ عِشْرَةَ تمرةً [مسلم (٤٥/٢٧)].

٧٣٢ ـ ومنه أيضاً حديثُ أبي هريرة حين أصابه الجوعُ، فاستَتْبَعَهُ النبيُّ ﷺ، فوجد لبناً في قَدَحٍ قد أُهدِيَ إليه، وأمره أن يَدْعُوَ أهلَ الصُّفَّةِ.

قال: فقلتُ: ما هذا اللَّبنُ فيهم؟ كنتُ أحقَّ أنْ أُصِيبَ منه شَربةً أتقوَّى بها. فدعَوْتُهم.

وذكر أمْرَ النبيّ ﷺ له أن يسقيَهم، فجعلتُ أُعطِي الرجلَ فيشربُ حتى يَرْوَى، ثم يأخذهُ الآخر حتى رَوِيَ جميعُهم.

قال: فأخذ النبيُّ ﷺ القَدَح، وقال: «**بقيتُ أنا وأنتَ، اقْعُد فاشْرَبْ**» فشربتُ، ثم قال: «**اشْرَبْ**» وما زال يَقُولُها وأشْرَبُ حتى قلتُ: لا، والذي بعثَكَ بالحق! ما أجِدُ له مسلَكاً؛ فأخذ القَدحَ، فحمِد الله وسمَّى وشَرِب الفَضْلَةَ [البخاري (٦٤٥٢)].

٧٣٣ ـ وفي حديث خالد بن عبدالعُزَّى أنه أجْزرَ النبيَّ ﷺ شاةً وكان عِيالُ خالدٍ كثيراً، يذبحُ الشاةَ فلا تُبِدُّ عِيالَه، عَظماً عَظماً؛ وإنَّ النبيّ ﷺ أكل من هذه الشاةِ، وجعل فَضْلَتها في دَلْوِ خالدٍ، ودعا له بالبَرَكةِ، فنثَر ذَلِكَ لِعيالِه، فأكلوا وأَفْضَلُوا، ذكر خَبَره الدُّولابيّ.

٧٣٤ ـ وفي حديث الآجُري في إنكاحِ النبيّ ﷺ لعليّ فاطمةَ، أن النبيَّ ﷺ أَمَرَ بِلالاً بقَصْعةٍ من أربعة أمداد أو خَمسةٍ، ويَذْبَح جَزُوراً لِوَليمتها قال: فأتيتُه بذلك، فطعن في رأسها، ثم أدخلَ الناس رُفقةً رُفقةً، يأكلونَ منها حتى فَرَغُوا، وبقيتْ منها فَضْلَةٌ؛ فبرّكَ فيها، وأمر بحَمْلِها إلى أزواجِه؛ وقال: «**كُلْنَ وأطْعِمْنَ مَنْ غَشِيَكُنَّ**».

٧٣٥ ـ وفي حديث أنس: تزوَّج رسول الله ﷺ، فصنعَتْ أُمّي: أمُّ سُلَيم حَيْساً، فجعلَتْه في تَوْرٍ، فذهبْتُ به إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: «**ضَعْهُ، وادْعُ لي فلاناً وفلاناً، ومَنْ لقيتَ**».

فدعوتُهم، ولم أدَعْ أحداً لقِيتُه إلاّ دعوتُه؛ وذكر أنهم كانوا زُهاءَ ثلاث مئة حتى مَلؤوا الصُّفَّةَ والحُجْرة، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**تحلَّقُوا عَشرةً عَشرةً**»، ووضع النبيُّ ﷺ يدَه على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاءَ اللَّهُ أن يقول؛ فأكلوا حتى شَبِعُوا كلُّهم، فقال لي: «**ارفَعْ**» فما أدري حين وُضِعت كانت أكثر أم حين رُفِعَتْ [البخاري (٥١٦٣)، مسلم (١٤٢٨/٩٤)].

وأكثَرُ أحادِيث هذه الفصولِ الثلاثة في الصحيح. وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعةَ عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافُهم من التابعين، ثم مَنْ لا يَنْعدُّ بعدهم.

وأكثَرُها في قصص مشهورة، ومَجَامِعَ مشهودة؛ ولا يمكنُ التحدُّث عنها إلا بالحق، ولا يسكُت الحاضرُ لها على ما أُنْكِرَ منها.

فصل

فِي كَلامِ الشَّجَرَةِ وَشَهَادَتِهَا لَهُ بِالنُّبُوَّةِ وإِجَابَتِهَا دَعْوَتَهُ

٧٣٦ ـ أخبرنا أحمد بن محمد بن غَلْبُون، الشيخُ الصالح، فيما أجازَنِيهِ، عن أبي عُمَرَ الطَّلَمَنكيِّ، عن أبي بكر بن المُهَنْدس، عن أبي القاسم البَغَوي، حدثنا أحمدُ بن عمران الأَخْنَسي، حدثنا أبو حيان التَّيْمي ـ وكان صدوقاً ـ عن مجاهد، عن ابن عُمرَ، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فدنا منه أعرابيٌّ، فقال: **«يا أعرابيُّ! أين تريد؟»** قال: إلى أهلي. قال: **«هل لكَ إلى خير؟»** قال: وما هو؟ قال: **«تَشهَدُ أنْ لا إله إلا اللّهُ وحْدَهُ لا شريكَ له، وأنّ محمداً عبْدُه ورسولُه»** قال: مَنْ يشهدُ لكَ على ما تقول؟ قال: **«هذه الشجرة: السَّمُرَةُ، وهي بشاطىء الوادي، وادعها فإنها تُجيبك»**.

فأقبلَتْ تخُدُّ الأرضَ حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهِدَت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.

٧٣٧ ـ وعن بُرَيْدَةَ: سألَ أعرابيٌّ النبيَّ ﷺ آيةً، فقال له: **«قل لتلك الشجرةِ: رسولُ الله ﷺ يدْعُوكِ»**.

قال: فمالت الشجرةُ عن يَمِينها وشِمالِها وبين يَدَيْها وخَلْفَها، فتقطَّعَتْ عروقُها، ثم جاءَت تخدُّ الأرضَ تجرُّ عروقها مُغْبَرَّةً، حتى وقفت بين يَدَي رسول الله ﷺ، فقالت: السلام عليك، يا رسول الله!

قال الأعرابيُّ: مُرْها فلترجِعْ إلى مَنْبِتها، فرجعت، فدلَّت عروقها في ذلك فاستوَتْ.

فقال الأَعرابي: ائذَنْ لي أسجد لك.

قال: **«لو أَمَرْتُ أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزَوْجِها»**.

قال: فأْذَن لي أنْ أقبِّل يَدَيْكَ ورِجْليكَ، فأَذِنَ له.

٧٣٨ ـ وفي الصحيح ـ في حديث جابر بن عبدالله، الطويل: ذهب رسول الله ﷺ يَقْضِي حاجتَه، فلم يَرَ شيئاً يستتِرُ به، فإذا بشجَرتين بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأَخذَ بِغُصْنٍ من أغصانها، فقال: **«انْقادِي عليّ بإذن الله»** فانقادَتْ معه كالبعير المَخْشُوشِ الذي يُصَانِعُ قائدَه.

وذكر أنه فَعَل بالأخرى مِثْلَ ذَلِكَ، حتى إذا كان بالمَنْصَفِ بينهما قال:

«الْتَئِمَا عليَّ بِإِذْنِ اللَّهِ» فالتأمَتَا ـ وفي روايةٍ أخرىٰ: فقال: «يا جابرُ! قُلْ لهذه الشجرة: يقول لكِ رسول الله ﷺ: الْحَقي بصاحِبتك حتى أجْلِسَ خَلْفَكما» ففعلتُ، فزحفَتْ حتى لَحِقَتْ بصاحبتها فجلس خَلْفَهما ـ فخرجتُ أُحضِرُ، وجلستُ أُحدِّثُ نفسي، فالتفتُّ فإذا برسول الله ﷺ مُقْبِلاً والشجرتان قد افترقتا، فقامت كلُّ واحدةٍ منهما على ساقٍ، فوقفَ رسول الله ﷺ وَقْفَةً، فقال برأسه هكذا يميناً وشِمالاً [مسلم (٣٠١٢)].

٧٣٩ ـ وعن أُسَامةَ بن زَيْد نَحْوُه، قال: قال لي رسول الله ﷺ في بعض مَغَازِيه: «هل؟» يعني مكاناً لحاجة رسول الله ﷺ، فقلت: إن الواديَ ما فيه موضعٌ بالناس، فقال: «هل ترىٰ من نَخْلٍ أو حجارة؟» قلت: أرى نخلات متقاربات. قال: «انطلق وقل لهنَّ: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمركنَّ أنْ تأْتِين لمَخْرجِ رسول الله ﷺ، وقلْ للحجارة مِثْلَ ذلك».

فقلتُ ذلك لهنّ، فوالذي بعثه بالحق! لقد رأيتُ النخلاتِ يتقاربن حتى اجتمعنَ، والحجارةَ يتعاقَدْنَ حتى صِرْنَ رُكاماً، فجلس خَلْفهنَّ.

فلما قضى حاجتَه قال لي: «قل لهنَّ يفترقن» فوالذي نَفْسِي بيده! لرأيتهنَّ والحجارةَ يفترقن حتى عُدْنَ إلى مواضعهن.

٧٤٠ ـ وقال يَعْلَى بن سِيَابةَ: كنتُ مع النبي ﷺ في مَسِير... وذكر نحواً من هذين الحديثين، وذكر: فأمر وَدِيَّتَيْنِ فانْضَمَّتَا [أحمد (١٧٢/٤)].

٧٤١ ـ وفي رواية: أَشَاءَتَيْنِ.

٧٤٢ ـ وعن غَيْلاَنَ بن سَلَمَةَ الثقفي مثلُه، في شجرتين.

٧٤٣ ـ وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، مثلُه، في غَزاة حُنَين.

٧٤٤ ـ وعن يَعْلَى بن مُرَّةَ ـ وهو ابن سِيَابَةَ ـ أيضاً، وذكر أشياءَ رآها من رسول الله ﷺ، فذكر أنَّ طَلْحَةَ ـ أو سَمُرَةَ ـ جاءت فأطافت به، ثم رجعَتْ إلى مَنْبِتها، فقال رسول الله ﷺ: «إنها استأذَنَتْ أنْ تسلِّمَ عليَّ» [أحمد (١٧٣/٤)].

٧٤٥ ـ وفي حديث عبدالله بن مسعودٍ رضي الله عنه: آذَنَتِ النبيَّ ﷺ بالجنّ، ليلةَ استمعوا له، شجرةٌ [البخاري (٣٨٥٩)، مسلم (٤٥٠)].

٧٤٦ ـ وعن مجاهد، عن ابن مسعود في هذا الحديث: أنَّ الجنَّ قالوا: مَنْ يشهدُ لك؟ قال: «هذه الشجرةُ، تعالَيْ يا شجرةُ!»، فجاءت تجرُّ عُروقها لها قَعَاقِع.

وذكر مِثْلَ الحديثِ الأول أو نحوه.

قال القاضي أبو الفضل: فهذا ابنُ عُمرَ، وبُرَيدَةُ، وجابرٌ، وابن مسعود، ويَعْلَى بن مُرّةَ، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك. وعليّ بن أبي طالب، وابنُ عبّاس، وغَيْرهم قد اتفقوا على هذه القصّةِ نَفْسِها أو معناها.

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافُهم، فصارت في انتشارها من القوةِ حيثُ هي.

وذكر ابن فوْرَك أنه ﷺ سَارَ في غَزْوةِ الطائف ليلاً، وهو وَسِنٌ، فاعترضَته سِدْرَةٌ، فانفرجَتْ له بِنصْفَين حتى جاز بينهما، وبقِيَتْ على ساقين إلى وقتنا هذا، وهي هناك معروفة مُعظَّمة.

٧٤٧ ـ ومن ذلك حديثُ أنَسٍ رضي الله عنه: أنَّ جبريلَ عليه السلام قال للنبيّ ﷺ ـ ورآه حَزيناً ـ: أتُحِبُّ أن أرِيكَ آية؟ قال: «**نعم**» فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرةٍ مِنْ وراءِ الوادِي، فقال: ادْعُ تلك الشجرةَ، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه.

قال: مُرْها فلترجعْ، فعادَتْ إلى مكانها [أحمد (١١٣/٣)، ابن ماجه (٤٠٢٨)].

٧٤٨ ـ وعن عليّ نَحْوُ هذا، ولم يذكُرْ فيها جبريل، قال: «**اللهمَّ! أرِنِي آيةً لا أُبالي مَن كذّبني بَعْدَها**» فدعا شجرة... وذكر مِثْلَه. وَحُزْنُهُ ﷺ لتكذيبِ قومه، وَطَلَبُهُ الآيَةَ لهم، لا لَهُ.

٧٤٩ ـ وذكر ابنُ إسحاقَ أنّ النبيَّ ﷺ أرَىٰ رُكَانَةَ مِثْلَ هذه الآية في شجرةٍ دعاها فأتَتْ حتى وقفَتْ بين يديه، ثم قال: «**ارجعي**» فَرَجَعَتْ.

٧٥٠ ـ وعن الحَسن أنه ـ عليه السلام ـ شكا إلى ربِّه من قَومِه وأنهم يخوّفونه، وسأله آيةً يَعْلَمُ بها أنْ لا مخافةَ عليه، فأوْحَىٰ الله إليه: أن ائتِ وادي كذا، فيه شجرةٌ، فادْعُ غُصْناً منها يأتِك. ففعل، فجاء يَخُطُّ الأرضَ خطّاً حتى انتصب بين يَدَيْهِ، فحبسه ما شاء الله، ثم قال له: «**ارجِعْ كما جئتَ**» فرجع، فقال: «**يا ربِّ! علمتُ أن لا مخافةَ عليَّ**».

٧٥١ ـ ونحوٌ منه عن عُمَرَ، وقال فيه: «**أرِنِي آيةً لا أُبالي مَنْ كذّبني بعدها...**» وذكر نحوَه.

٧٥٢ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال لأعْرابيّ: «**أرأيتَ إنْ دعوتُ هذا العِذْقَ مِن هذه النخلةِ أتشهَدُ أني رسولُ الله؟**» قال: نعم، فدعاه فجعل يَنْقِزُ، حتى أتاه. فقال: «**ارجعْ**» فعادَ إلى مكانه [الترمذي (٣٦٢٨)].

وخرّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديثٌ صحيح.

فصل
فِي قِصَّةِ حَنِينِ الْجِذْعِ

٧٥٣ وحتى **٧٦٢** ـ ويَعْضُد هذهِ الأخبارَ حديثُ حَنينِ الْجِذْعِ، وهو في نفسه مشهورٌ مُنْتَشر، والخَبَرُ به متواترٌ، قد خرَّجه أهلُ الصحيح [البخاري (٣٧٧)، مسلم (٥٤٤)]، ورَواهُ من الصحابة بضعةَ عشَر، منهم: أُبَيُّ بن كعب، وجابرُ بن عبداللَّه، وأنسُ بن مالك، وعَبْداللَّه بن عُمَر، وعَبْداللّه بن عباس، وسَهْلُ بن سعد، وأبو سعيد الخُدْرِيّ، وبُرَيْدَةُ، وأُمّ سَلَمَة، والمُطَّلِبُ بن أبي وَدَاعَة، كلُّهم يُحَدِّث بمعنى هذا الحديث [ابن ماجه (١٤١٤)، أحمد (١٣٧/٥) البخاري (٩١٨)].

قال الترمذيّ: وحديثُ أَنَس صحيح.

٧٦٣ ـ قال جابر بنُ عبداللّه: كان المسجدُ مسقوفاً على جُذوعِ نَخلٍ، فكان النبيُّ ﷺ إذا خطب يقومُ إلى جذْعٍ منها، فلما صُنِع له المِنْبَرُ سمعنا لذلك الْجذْع صَوْتاً كصوت العِشار.

٧٦٤ ـ وفي رواية أنس: حتى ارتجَّ المسجدُ بخُواره.

٧٦٥ ـ وفي رواية سَهْلٍ: وكَثُرَ بُكاءُ الناس لِمَا رأَوْا به.

٧٦٦ ـ وفي رواية المُطَّلب، وأُبَيٍّ: حتى تصدَّعَ وانشقَّ، حتى جاء النبيّ ﷺ، فوضع يَدَه عليه فسكتَ.

٧٦٧ ـ زاد غَيْرُه: فقال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ هذا بَكى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ»** [أحمد (٣٠٠/٣)].

٧٦٨ ـ وزَادَ غَيْرُه: والذي نَفْسي بيده! لو لم أَلْتَزِمْه لم يَزلْ هكذا إلى يوم القيامة تحزُّناً على رسول الله ﷺ، فأمر به رسول الله ﷺ فدُفِنَ تَحتَ المنبر.

كذا في حديث المُطَّلِبِ، وسَهْلِ بن سَعْد، وإسحاقَ عن أنس.

٧٦٩ ـ وفي بعض الروايات عن سهل: فدُفِنَتْ تحت مِنْبَره، أو جُعلت في السقف.

٧٧٠ ـ وفي حديث أُبَيّ: فكان إذا صلَّى النبيُّ ﷺ صلَّى إليه، فلما هُدِمَ المسجدُ أخذه أُبَيٌّ، فكان عنده إلى أن أَكلَتْه الأرضُ، وعاد رُفاتاً.

وذكر الإسْفَرايِيني أنَّ النبي ﷺ دعاه إلى نَفْسه، فجاء يخرِقُ الأرضَ، فالتزمه، ثم أمره فعادَ إلى مكانه.

٧٧١ ـ وفي حديث بُرَيْدَةَ: فقال ـ يَعْني: النبيَّ ﷺ ـ: **«إن شئْتَ أَرُدُّكَ إلى**

الحائط الذي كنتَ فيه تنبتُ لك عروقُك، ويَكْمُل خَلْقُك، ويُجدَّد لك خوصٌ وثمرة، وإنْ شِئْتَ أَغرِسْكَ في الجنة، فيأكل أوْلياءُ اللَّهِ من ثَمَرِكَ». ثم أصغَى له النبيُّ ﷺ يَسْتَمِعُ ما يقول.

فقال: بل تَغْرِسني في الجنَّة، فيأكل مني أولياءُ الله، وأكونُ في مَكانٍ لا أَبْلَى فيه.

فسمعه مَنْ يَليه.

فقال النبيُّ ﷺ: «قد فعلتُ» ثم قال: «اختارَ دارَ البقاءِ على دار الفَنَاء».

٧٧٢ ـ فكان الحسَنُ إذا حدَّثَ بهذا بكى، وقال: يا عبادَ اللَّهِ! الخشبةُ تَحِنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه، فأنتم أحقُّ أنْ تَشتَاقُوا إلى لقائه.

رواه عن جابرٍ: حَفْصُ بن عُبيداللّه ـ ويقال: عُبيداللّه بن حفص ـ وأيمن، وأبو نَضْرَةَ، وابن المسيَّب، وسَعِيد بن أبي كَرِب، وكُرَيْب، وأبو صالح.

ورواهُ عن أنس بن مالكٍ: الحسَنُ، وثابتٌ، وإسحاقُ بن أبي طلحة.

ورواهُ عن ابن عُمر: نافعٌ، وأبو حَيَّةَ.

ورواه أبو نَضْرَةَ، وأبو الوَدَّاكِ، عن أبي سَعِيد.

وعَمّارُ بن أبي عَمّار، عن ابن عباس.

وأبو حازم، وعباسُ بن سَهْل بن سعد، عن سهل بن سعد.

وكثيرُ بن زَيْد عن المطّلب.

وعَبْداللّه بن بُرَيْدَة عن أبيه.

والطُّفيْلُ بن أُبَيٍّ، عن أبيه.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: فهذا حديثٌ كما تراه خرَّجه أهلُ الصحة، ورواه من الصحابة مَنْ ذكرنا، وغَيْرهم من التابعين ضِعْفُهم، إلى مَنْ لم نذكره، وبِمَنْ دونَ هذا العددِ يقعُ العِلْمُ لِمَنْ اعتنى بهذا البابِ. واللَّهُ المثبِّتُ على الصواب.

فصل

فِي مُعجِزَاتٍ أُخرَىٰ للنَّبِيِّ ﷺ فِي سَائِرِ الجَمَادَاتِ كَتَسبِيحِ الطَّعَامِ وَتَسلِيمِ الحَجَرِ

ومِثْلُ هذا في سائر الجمادات:

٧٧٣ ـ حدثنا القاضي أبو عبداللّه: محمد بن عيسى التَّميمي، حدثنا القاضي أبو عَبْداللّه: محمد بن المُرَابِط، حدثنا المُهَلَّبُ: أبو القاسم، حدثنا أبو الحَسن

القابِسي، حدثنا المَرْوَزِيُّ، حدثنا الْفَرَبْرِيُّ، حدثنا البُخَاري، حدثنا محمد بن المُثَنّى، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْري، حدثنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عَنْ عَلْقَمة، عن عبدالله بن مسعود قال: لقد كنّا نسمَعُ تسبيحَ الطَّعَام وهو يُؤْكَلُ [البخاري (٣٥٧٩)].

٧٧٤ ـ وفي غير هذه الروايةِ، عن ابن مسعود: كُنَّا نأكلُ مع رسول الله ﷺ الطعامَ ونحنُ نسمعُ تسبيحَه [الترمذي (٣٦٣٣)].

٧٧٥ ـ وقال أنس: أخذ النبيُّ ﷺ كَفّاً من حصىً، فسبَّحْن في يدِ رسول الله ﷺ حتى سَمِعْنا التسبيحَ، ثم صبَّهُنَّ في يدِ أبي بكر رضي اللّهُ عنه فسبَّحْنَ، ثم في أيدينا فما سبَّحْنَ.

٧٧٦ ـ ورَوى مثلَه أبو ذَرٍّ، وذكر أنهنّ سبَّحْنَ في كف عُمر وعثمان.

٧٧٧ ـ وقال علي: كنّا بمكة مع رسول الله ﷺ، فخرج إلى بَعضِ نواحيها فما استقبله شجرةٌ ولا جَبَلٌ إلا قال له: السلامُ عليك، يا رسول الله! [الترمذي (٣٦٢٦)].

٧٧٨ ـ وعن جابر بن سَمُرَةَ، عنه عليه السلام: «**إني لأعْرِفُ حجراً بمكةَ كان يسلِّم عليّ**» [مسلم (٢٢٧٧)]. قيل: إنه الحجرُ الأسود.

٧٧٩ ـ وعن عائشة رضي اللّهُ عنها: «**لمَّا استقبلني جبريلُ عليه السلام بالرسالة جعلْتُ لا أَمرُّ بحَجَرٍ ولا شجَر إلا قال: السلام عليكَ، يا رسول الله!**».

٧٨٠ ـ وعن جابر بن عبدالله: لم يكن النبي ﷺ يمرُّ بحَجَرٍ ولا شجَرٍ إلا سجد له.

٧٨١ ـ وفي حديث العباس، إذ اشتمل عليه النبيُّ ﷺ وعلى بَنيه، بمُلاءةٍ، ودعا لهم بالسَّترِ من النار كَسَتْرِهِ إياهم بمُلاءته، فأَمَّنَتْ أُسْكُفَّةُ الباب وحوائطُ البيت: آمين، آمين.

٧٨٢ ـ وعن جعفر بن محمد، عن أبيه: مَرِضَ النبيُّ ﷺ، فأتاه جبريلُ بطبَق فيه رُمَّانٌ وعِنَبٌ، فأكل منه النبيُّ ﷺ، فَسَبَّحَ.

٧٨٣ ـ وعن أنس: صَعِدَ النبيُّ ﷺ، وأبو بكر، وعُمَرُ، وعثمانُ، أُحُداً، فرَجف بهم فقال: «**اثبُتْ أُحُدُ، فإنما عليكَ نبيٌّ وصِدِّيق، وشهيدان**» [البخاري (٣٦٧٥)].

٧٨٤ ـ ومِثْلُه عن أبي هريرة في حِراءَ، وزاد: معه عليٌّ، وطلحةُ، والزُّبَيْرُ، وقال: «**فإنما عليك نبيٌّ، أو صِدِّيق، أو شَهيدٌ**» [مسلم (٢٤١٧)].

٧٨٥ ـ والخبَرُ في حِرَاء أيضاً عن عثمان، قال: ومعه عَشَرَةٌ من أصْحابه أنا فيهم.

وزاد: عَبْدَ الرحمن، وسَعْداً، قال: ونسيتُ الاثنين [الترمذي (٣٦٩٩)، النسائي (٢٣٦/٦)].

٧٨٦ ـ وفي حديث سَعِيد بن زيد أيضاً مِثْلُه، وذكر عَشرةً، وزاد نَفْسَه [أبو داود (٤٦٤٨، ٤٦٤٩، ٤٦٥٠)، الترمذي (٣٧٥٧)، ابن ماجه (١٣٤)].

٧٨٧ ـ وقد رُوِيَ أنه حين طلبَتْه قُريش قال له ثَبِيرٌ: اهْبِطْ يا رسول الله! فإني أخافُ أنْ يقتلوكَ على ظَهْرِي فيعذبني الله.

فقال له حِرَاءُ: إليَّ يا رسول الله!

٧٨٨ ـ وعن ابن عُمَر ـ رضيَ اللَّهُ عنهما ـ أنّ رسول الله ﷺ: قرأ على المِنْبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثم قال: «يُمَجِّدُ الجبّارُ نَفْسَه، أنا الجبّار، أنا الجبّار، أنا الكبيرُ المتعال»، فرجَفَ المِنْبَر حتى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ عنه [أحمد (٧٢/٢)، البخاري (٧٤١٢)، مسلم (٢٥/٢٧٨٨)].

٧٨٩ ـ وعن ابن عباس: كان حولَ البيتِ ستّون وثلاث مئة صَنَم مُثْبَتَةُ الأرجُلِ بالرَّصاص في الحجارة، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ المسجد عامَ الفَتْح جعل يُشير بقَضيب في يده إليها ولا يمسُّها، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، فما أشار إلى وَجه صنَمٍ إلاَّ وَقع لِقَفَاهُ، ولا لِقَفَاهُ إلاَّ وقَع لوَجْهِه، حتى ما بقي منها صَنَمٌ.

٧٩٠ ـ ومثلُه في حديث ابن مسعود، وقال: فَجَعَلَ يَطْعَنُها ويقول: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩] [البخاري (٤٢٨٧)، مسلم (١٧٨١)].

٧٩١ ـ ومن ذلك حديثُه مع الراهب في ابتداءِ أَمْرِه [الترمذي (٣٦٢٠)]، إذ خرج تاجراً مع عَمّه، وكان الراهبُ لا يخرجُ لأَحدٍ، فخرج وجعل يتخَلَّلُهم، حتى أخذَ بيدِ رسول الله ﷺ فقال: هذا سيِّدُ العالَمِين، يَبْعَثُه اللَّهُ رحمةً للعالَمين.

فقال له أشياخٌ مِنْ قُريش: ما عِلْمُكَ؟ فقال: إنه لم يَبْقَ شَجَرٌ ولا حَجَرٌ إلاّ خَرَّ ساجداً له، ولا يسجدُ إلاّ لنبيّ... وذكر القِصّةَ، ثم قال: وأقبل ﷺ وعليه غَمَامةٌ تُظِلُّه، فلما دنا من القوم، وجدهم سبقوه إلى فَيْءِ الشجرة، فلما جلس، مال الفَيْءُ إليه.

فصل
فِي الآيَاتِ فِي ضُرُوبِ الحَيوانَاتِ

٧٩٢ ـ حدثنا سراجُ بن عبدالملك: أبو الحسين الحافظ، حدثنا أبي، حدثنا القاضي يونس، قال حدثنا أبو الفضلِ الصَّقَلِّي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجدّه، قالا: حدثنا أبو العلاء: أحمد بن عِمْران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو، حدثنا مُجاهد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا دَاجِنٌ، فإذا كان عندنا رسولُ الله ﷺ قَرَّ وثبتَ مكانَه، فلم يجيء ولم يذهَبْ، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذَهَبَ [أحمد (٦/١١٢، ١٥٠، ٢٠٩)].

٧٩٣ ـ ورُوي عن عُمَرَ أنَّ رسول الله ﷺ كان في مَحْفِل من أصحابه إذ جاءَ أعرابيٌّ قد صادَ ضَبّاً، فقال: من هذا؟ قالوا: نبيُّ الله. فقال: والَّلاتِ والعُزَّىٰ! لا آمَنْتُ بكَ أو يُؤْمِنَ بك هذا الضَّبُّ، وطَرَحه بين يدي النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «يا ضَبُّ!»، فأجابه بلسانٍ مُبينٍ يَسْمَعُهُ القومُ جميعاً: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ يا زَيْنَ مَنْ وَافَى القيامة.

قال: «مَنْ تَعْبُدُ؟» قال: الذي في السماء عَرْشُه، وفي الأرضِ سُلطَانُه، وفي البحر سبيلُه، وفي الجنة رَحْمَتُه، وفي النار عِقابُه.

قال: «فمَنْ أنا؟» قال: رسولُ ربِّ العالمين، وخاتِمُ النبيِّين، وقد أفلحَ مَنْ صَدَّقَك، وخابَ مَنْ كذَّبك، فأسلم الأعرابيُّ.

٧٩٤ ـ ومن ذلك قصةُ كلام الذّئب المشهورةُ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ:

بَيْنا راعٍ يَرْعَىٰ غَنَماً له، عرَضَ الذئبُ لشاةٍ منها، فأخذها الرَّاعي منه، فأَقعىٰ الذئبُ، وقال للرَّاعي: ألا تَتَّقِي الله! حُلْتَ بيني وبَيْنَ رِزْقِي!

قال الرَّاعي: العَجَبُ من ذِئبٍ يَتَكلَّمُ بكلام الإنس! فقال الذّئبُ: ألا أُخْبِرك بأعجب من ذلك؟ رسولُ الله ﷺ بين الحَرَّتَيْنِ يحدث الناسَ بأنباء ما قد سَبَق.

فأتَى الرَّاعي النبيَّ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «قُمْ فحدِّثْهُمْ»، ثم قال: «صَدَق» [أحمد (٣/٨٣، ٨٤)].

والحديث فيه قصةٌ، وفي بعضه طُول.

٧٩٥ ـ ورُوِي حديثُ الذئب عن أبي هُريرةَ.

وفي بعض الطُّرُق عن أبي هُريرة رضي الله عنه: فقال الذِّئبُ: أنتَ أعجَبُ واقفاً على غَنَمك، وتركْتَ نبيّاً لم يَبْعَث الله قَطُّ نبيّاً أعظمَ منه عنده قَدْراً، قد

فُتِحَت له أبوابُ الجنَّة، وأشرفَ أهلُها على أصحابه، ينظرون قِتالهم، وما بينك وبينه إلا هذا الشِّعْبُ، فتَصِير في جنود الله!

قال الرَّاعي: مَنْ لي بغَنَمي؟ قال الذئبُ: أنا أرعاها حتى ترجِعَ.

فأسلم الرجلُ إليه غَنَمه ومضَى.

وذَكَرَ قصتَه وإسلامَه ووجودَه النبيَّ ﷺ يُقاتل، فقال له النبيُّ ﷺ: «**عُدْ إلى غنمكَ تجدْها بوَفْرِها**».

فوجدها كذلك، وذبح للذِّئْبِ شاةً منها [أحمد (٢/٣٠٦)].

٧٩٦ ـ وعن أُهْبانَ بن أوسٍ: وأنه كان صاحبَ هذه القصَّة، والمحدِّثَ بها، ومكلِّم الذئب.

٧٩٧ ـ وعن سلمةَ بن عَمرو بن الأَكْوَعِ: أنه كان صاحبَ هذه القصة أيضاً، وسبَبَ إسلامِهِ بِمثْلِ حديث أبي سَعيد.

٧٩٨ ـ وقد رَوَى ابنُ وَهْب مِثْلَ هذا أنه جَرَى لأبي سُفْيانَ بن حَرْب، وصَفْوانَ بن أُمَيَّةَ، مع ذئب وَجَدَاه أَخَذَ ظَبْياً، فدخل الظَّبْيُ الْحَرَم، فانصرفَ الذئبُ، فَعَجِبا من ذلك، فقال الذئبُ: أعجبُ من ذلك محمدُ بن عبدالله بالمدينة، يدعوكم إلى الجَنَّةِ وتدعونه إلى النار.

فقال أبو سُفْيان: واللَّاتِ والعُزَّى! لئن ذَكَرْتَ هذا بمكة لتَتْرُكَنَّها خُلُوفاً.

وقد رُوِي مِثْلُ هذا الخَبَرِ، وأنه جَرَى لأبي جَهْل وأصحابه.

٧٩٩ ـ وعن عباس بن مِرْدَاسٍ: لمَّا تعجَّب من كلام ضِمَارٍ: صَنَمِهِ، وإنشادِهِ الشِّعرَ الذي ذكر فيه النبيَّ ﷺ، فإذا طائرٌ سقطَ، فقال: يا عباسُ! أتعجبُ مِن كلام ضِمَارٍ، ولا تعجب من نَفْسِك؟ إنَّ رسول الله ﷺ يَدْعُو إلى الإسلام وأَنْتَ جالسٌ؟ فكان سببَ إسلامِه.

٨٠٠ ـ وعن جابر بن عَبْدالله رضي الله عنهما عن رجل أَتَى النبيَّ ﷺ وآمنَ به وهو على بعض حصونِ خَيْبَر، وكان في غَنَم يرعاها لهم فقال: يا رسول الله! كيف بالغنم؟ قال: «**احصِبْ وجُوهَها، فإنَّ الله سيؤدِّي عنكَ أمانَتَك، ويردُّها إلى أهلها**».

ففعلَ، فسارت كلُّ شاةٍ حتى دخلَتْ إلى أهلها.

٨٠١ ـ وعن أنس رضي الله عنه دخل النبيُّ ﷺ حائطَ أنصاريٍّ، وأبو بكر، وعُمر، ورجلٌ من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عنهم، وفي الحائط غَنَمٌ فسجدَتْ له. فقال أبو بكر: نحن أحقُّ بالسجود لكَ منها. . . الحديث [أحمد (٣/١٥٨ ـ ١٥٩)].

٨٠٢ ـ وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: دخل النبيُّ ﷺ حائطاً، فجاء بعيرٌ فسجد له، وذكر مِثْلَه.

٨٠٣ وحتى ٨٠٦ ـ ومِثْلُه في الجَمَلِ، عن ثعلبة بن مالكٍ، وجابر بن عبدالله [أحمد (٣/٣١٠)]، ويَعْلىٰ بن مُرّة [أحمد (٤/١٧٠ ـ ١٧٢)]، وعبدالله بن جعفر [أحمد (٣/٣١٠)، أبو داود (٢٥٤٩)]، قال: وكان لا يدخلُ أحدٌ الحائطَ إلاّ شدَّ عليه الجَمَلُ، فلما دخل عليه النبيُّ ﷺ دَعَاه، فوضع مِشفَرَه، على الأرض، وبَرَك بين يديه، فخطَمه، وقال: «مَا بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ شَيْءٌ إلاّ يَعْلَمُ أَنّي رَسُولُ الله ﷺ إلاّ عاصِيَ الجِنِّ والإِنْسِ».

٨٠٧ ـ ومِثْلُه عن عَبْدالله بن أبي أَوْفى.

٨٠٧م ـ وفي خبر آخر في حديثِ الجَمَل أنّ النبي ﷺ سألهم عن شأْنِه، فأخبروه أنهم أرادوا ذَبْحَه.

وفي رواية: أن النبيَّ ﷺ قال لهم: «إنه شَكَا كَثْرةَ العملِ، وقِلّةَ العَلَفِ».

وفي رواية: «أنه شكا إليَّ أنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه في شاقّ العمل من صغره» فقالوا: نعم.

٨٠٨ ـ وقد روِي في قصة العَضْبَاء وكلامِها النبيَّ ﷺ، وتعريفها له بنفسها، ومبادرةِ العُشْبِ إليها في الرَّعْيِ، وتجنُّبِ الوحوشِ عنها، وندائهم لها: إنَّكِ لِمُحمَّدٍ، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتّى ماتَتْ. ذكره الإسفراييني.

٨٠٩ ـ وروى ابنُ وَهْبٍ، أنَّ حمامَ مكةَ أظلَّت النبيّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِها، فدعا لها بالبركة.

٨١٠ ـ ورُوي عن أنس، وزيد بن أَرْقَم، والمغيرة بن شعبة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ليلة الغارِ أمر اللّهُ شجرةً، فنبتت تُجاهَ النبيّ ﷺ فسترته، وأمر حمامَتَيْنِ فَوَقَفَتا بفَم الغار.

٨١٠م ـ وفي حديثٍ آخر: وأنّ العنكبوتَ نسجت على بابه [أحمد (١/٣٤٨)]، فلما أَتى الطالبون له، ورأوا ذلك، قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتانِ ببابه، والنبيُّ ﷺ يسمَعُ كلامَهم، فانصرفوا.

٨١١ ـ وعن عبدالله بن قُرْطٍ: قُرِّبَ إلى رسول الله ﷺ بَدَنَاتٌ خَمسٌ أو سِتٌّ أو سبع، لِيَنْحَرَها يوم عيد، فازْدَلَفْنَ إليه بأيّتِهنَّ يبدأُ [أبو داود (١٧٦٥)، أحمد (٤/٣٥٠)].

٨١٢ ـ وعن أُمِّ سَلَمَةَ: كان النبيُّ ﷺ في صحراء، فنادَتْهُ ظَبْيَةٌ، يا رسول الله! قال: «مَا حَاجَتُكِ؟» قالت: صادَني هذا الأعرابيّ، ولي خِشْفانِ في ذلك الجبَل، فأَطْلِقْني حتى أذهبَ فأُرْضِعَهما وأرجِعَ.

قال: «وتَفْعَلين؟» قالت: نعم. فأطلقها، فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانْتَبه الأعرابيُّ وقال: يا رسول الله! أَلكَ حاجةٌ؟ قال: «تُطلق هذه الظَّبْيَة» فأطلقها فخرجَتْ تَعْدُو في الصحراء، وتقول: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ، وأنك رسول الله.

٨١٣ ـ وفي هذا الباب ما رَوي مِنْ تسخِير الأسَدِ لسفينةَ: مولى رسول الله ﷺ، إذ وجَّهَهُ إلى مُعَاذٍ باليَمن، فَلَقِي الأسَدَ فعرَّفَه أنه مَوْلَى رسول الله ﷺ، ومعه كِتَابُه، فَهَمْهَم وتنحّى عن الطريق، وذكر في مُنصَرَفه مِثْلَ ذلك.

٨١٤ ـ وفي رواية أُخرى عنه: أن سفينةً تكسَّرَت به، فخرج إلى جزيرةٍ فإذا الأسدُ، فقلتُ له: أنا مَوْلَى رسول الله ﷺ، فجعل يَغْمِزني بمَنْكِبه حتى أقامني على الطريق.

٨١٥ ـ وأخذ ـ عليه السلام ـ بأذُنِ شاةٍ لقوم من عبدالقيس بين إصبَعيه، ثم خلاّها فصار لها مِيسماً، وبقيَ ذلك الأثَر فيها وفي نَسْلها بَعْدُ.

٨١٦ ـ وما رُوِيَ عن إبراهيم بن حَمّادٍ بسنَده من كلام الحِمَار الذي أصابه بخَيْبَر، وقال له: اسمي يزيدُ بن شهاب..

فسمّاه النبيُّ ﷺ يَعْفُوراً، وأنه كان يوجِّهُهُ إلى دُور أصحابه، فيضرب عليهم البابَ برأسِه، ويَسْتَدْعِيهم، وأنَّ النبيَّ ﷺ لما مات تردَّى في بئرٍ، جَزَعاً وحُزْناً، فمات.

٨١٧ ـ وحديثُ الناقةِ التي شهِدتْ عند النبيّ ﷺ لصاحِبها أنه ما سرقها، وأنها مِلْكُه.

٨١٨ ـ وفي حديث العَنْز التي أَتَتْ رسول الله ﷺ في عسكره، وقد أَصابهم عَطَش، ونزلوا على غير ماءٍ، وهم زُهاءُ ثلاث مِئَةٍ فحلبها رسول الله ﷺ، فَأَرْوَى الجُنْدَ، ثم قال لرافع: «أَمْلِكها وما أُراكَ» فربطها فوجدها قد انطلقت.

رواه ابنُ قانع وغَيْرُه، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «إنَ الذي جاء بها هو الذي ذهب بها».

٨١٩ ـ وقال لفرسه، عليه السلام ـ وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره ـ: «لا تَبرح، باركَ اللَّهُ فيك، حتى نَفرَغَ من صلاتنا» وجعله قِبْلَته، فما حرّكَ عُضواً منه حتى صلى ﷺ.

٨٢٠ ـ ويلتحقُ بهذا ما رواه الواقدي: أنَّ النبيَّ ﷺ لما وجَّهَ رسُلَه إلى

الملوك، فخرجَ ستةُ نفرٍ منهم في يوم واحد، فأصبح كلُّ رجلٍ منهم يتكلم بلسانِ القومِ الذين بعثه إليهم.

والحديثُ في هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور من ذلك وما وقع منه في كُتُبِ الأئمة.

فصل
فِي إِحْيَاءِ المَوْتَى وَكَلامِهِمْ، وَكَلامِ الصِّبْيَانِ والمَرَاضِعِ وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ ﷺ

٨٢١ ـ حدثنا أبو الوليد: هِشَام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، والقاضي أبو الوليد: محمد بن رُشْد، والقاضي أبو عبدالله: محمد بن عيسى التميمي، وغَيْرُ واحدٍ سماعاً وإذْناً، قالوا: حدثنا أبو علي الحافظ قال: حدثنا أبو عُمرَ الحافظ، حدثنا أبو زيد: عبدالرحمن بن يحيى، حدثنا أحمد بن سَعِيد، حدثنا ابنُ الأعرابي، حدثنا أبو داود، حدثنا وهْبُ بن بَقِيَّة، عن خالد ـ هو الطحّان ـ عن محمد بن عَمْرو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرة: أَنَّ يهوديَةً أَهدت للنبي ﷺ بخَيْبَر شاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا، فأكل رسول الله ﷺ منها، وأكل القَوْمُ، فقال: **«ارفَعُوا أيديَكم فإنها أَخبَرَتْني أَنَّهَا مَسْمُومةٌ»**. فمات بِشْر بن البراء.

وقال لليهودية: **«ما حملكِ على ما صَنَعْتِ؟»**وقالت: إنْ كنتَ نبيّاً لم يَضُرَّكَ الذي صَنعْتُ، وإنْ كنتَ مَلِكاً أرحْتُ الناسَ منك. قال: فأمر بها فقُتِلت [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٢٢ ـ وقد رَوىٰ هذا الحديثَ أَنسٌ، وفيه: قالت: أردتُ قَتْلَكَ. فقال: **«ما كان اللّهُ لِيسلِّطَكِ على ذلك»**. فقالوا: نقتلها؟

قال: **«لا»** [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)].

٨٢٣ ـ وكذلك رُوي عن أبي هريرة ـ من حديث غير وَهْبٍ ـ قال: فما عَرَضَ لها [البخاري (٤٢٤٩)، أبو داود (٤٥٠٩)].

٨٢٤ ـ ورواه أيضاً جابر بن عبدالله، وفيه: **«أَخْبَرَتْني به هذه الذِّراعُ»** قال: ولم يعاقِبْها [أبو داود (٤٥١٠)].

٨٢٥ ـ وفي رواية الحسن: **«أنَّ فخِذَها تكلمني أنها مسمومةٌ»**.

٨٢٦ ـ وفي رواية أبي سلمة بن عبدالرحمن قالت: **«إني مسمومة»** [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٢٧ ـ وكذلك ذكر الخَبَرَ ابنُ إسحاق، وقال فيه: فتجاوز عنها.

٨٢٨ ـ وفي الحديث الآخر، عن أنس أنه قال: فما زلْتُ أعِرفُها في لَهَواتِ رسول الله ﷺ.

٨٢٩ ـ وفي حديث أبي هُريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال في وَجَعهِ الذي مات فيه: **«ما زالَتْ أُكْلَةُ خَيْبَرَ تُعادُني، فالآنَ أَوانَ قَطَعَتْ أَبْهَري»** [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٣٠ ـ وحكى ابن إسحاق: إنْ كان المسلمون ليَرَوْنَ أنَّ رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمَهُ اللَّهُ به من النبوّة.

وقال ابنُ سَحْنون: أَجمع أَهلُ الحديث أنّ رسول الله ﷺ قتلَ اليهوديّة التي سمَّتْهُ.

وقد ذكرنا اختلافَ الرِّوايات في ذلك عن أبي هريرة، وأَنَس، وجابر.

٨٣١ ـ وفي رواية ابنِ عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه دَفَعها لأَولياء بشْرِ بن البراء فقتلوها.

وكذلك قد اختلف في قَتْلِه للّذي سحَره، قال الواقدي: وعَفْوهُ عنه أثبتُ عندنا وروي عنه أنه قتله.

٨٣٢ ـ وروى الحديثَ البزَّارُ، عن أبي سَعيدٍ، فذكر مثْلَه، إلا أنه قال في آخره: فبسط يَدَه وقال: **«كلُوا، باسم الله»** فأَكَلْنا، وذكر اسم الله، فلم تضرَّ منا أحداً.

قال القاضي أبو الفضل: وقد خرَّج حديثَ الشاةِ المسمومة أهلُ الصحيح، وخرّجه الأئمة، وهو حديثٌ مَشْهورٌ.

واختلف أئمة أهل النظرِ في هذا الباب، فمِنْ قائل يقول: هو كلامٌ يخلُقه اللَّهُ تعالى في الشاةِ الميتة، أو الحجر أو الشجر، وحروفٌ وأصوات يحدثها الله تعالىٰ فيها ويُسمعها منها دونَ تغيير أشكالها، ونَقْلِها عن هيئتها.

وهو مَذْهَبُ الشيخ أبي الحسنِ، والقاضي أبي بكر رحِمَهما اللَّهُ.

وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياةِ بها أولاً، ثم الكلام بعده.

وحُكِي هذا أيضاً عن شيخنا أبي الحسن، وكلٌّ محتَمل، واللَّهُ أعلم، إذ لم نَجْعلِ الحياةَ شرطاً لوجود الحروف والأصواتِ، إذ لا يستحيلُ وجودُها مع عدم الحياة بمجَرَّدِها.

فأمَّا إذا كانت عبارةً عن الكلام النفسيّ فلا بدّ من شَرْط الحياة لها، إذ لا يوجَدُ كلامُ النَّفس إلا مِنْ حَيٍّ، خلافاً للجُبَّائِيِّ من بين سائر متكلّمي الفِرَق في

إحالَتِهِ وجودَ الكلام اللفظيّ والحروف والأصواتِ إلا مِنْ حيٍّ مركَّب على تركيب مَنْ يصِحُّ منه النطقُ بالحروف والأصوات.

والتزم ذلك في الحصىٰ، والجِذْعِ، والذِّراع، وقال: إنَّ اللّهَ خلق فيها حياةً، وخَرَقَ لها فماً، ولساناً، وآلَةً أمكنها بها منَ الكلام.

وهذا لو كان، لَكَانَ نَقْلُه والتهمُّمُ به آكدُ من التهمُّم بنَقْل تسبيحهِ أو حَنِينِهِ، ولم ينقُلْ أحدٌ من أهل السِّير والرِّواية شيئاً من ذلك، فدلَّ على سقوط دَعْوَاه، مع أنه لا ضرورةَ إليه في النَّظر، والموفِّق الله.

٨٣٣ ـ ورَوَى وَكِيعٌ، رَفَعَه، عن فَهْد بن عَطِيَّة: أَنَّ النبيَّ ﷺ أتِيَ بصبيٍّ قد شبَّ لم يتكلّم قطُّ، فقال: **«مَنْ أنا؟»** فقال: رسول الله.

٨٣٤ ـ ورُوِي عن مُعَرِّض بن مُعَيْقِيبِ: رأيتُ مِنَ النبيّ ﷺ عَجَباً، جِيء بِصبيٍّ يوم وُلِد. . . فذَكر مثْلَه.

وهو حديثُ مُبارَك اليمامة، ويُعرف بحديث شَاصُونة: اسم رَاوِيه، وفيه: فقال له النبيّ ﷺ: **«صدقْتَ، بارَكَ الله فيكَ»**.

ثم إنّ الغلامَ لم يتكلّم بعدها حتى شبَّ، فكان يسمّى مُبارَكَ اليمامة.

وكانت هذه القصةُ بمكة في حِجَّةِ الوداع.

٨٣٥ ـ وعن الحَسنِ: أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ، فذكر أنه طرح بُنَيَّةً له في وادِي كذا، فانطلق معه إلى الوَادِي، وناداها باسمها: **«يا فلانةُ! أجِيبِي بإذنِ الله تعالى»** فخرجت وهي تقول: «لَبَّيْك وسَعْدَيْك! فقال لها: **«إنَّ أبَوَيكِ قد أسْلَما، فإنْ أحْبَبْتِ أن أردَّكِ عليهما؟»** قالت: لا حاجَةَ لي فيهما، وَجَدْتُ الله خيراً لي منهما.

٨٣٦ ـ وعن أنس: أنَّ شاباً من الأنصار تُوفِّي وله أُمٌّ عجوزٌ عَمْيَاءُ، فسجَّيناهُ، وعزَّيناهَا، فقالت: مات ابْني؟ قُلْنَا: نعم. قالت: اللهمّ! إنْ كنت تعلمُ أني هاجرتُ إليك وإلى نبيّك رجاءَ أن تعينني على كل شدةٍ فلا تَحْمِلَنَّ عليَّ هذه المصيبة.

فما برِحْنَا أنْ كشفَ الثوبَ عن وَجْهه، فطَعِمَ وطَعِمْنَا.

٨٣٧ ـ ورُوِيَ عن عَبْدالله بن عُبيد الله الأنصاري: كنتُ فيمن دفَن ثابتَ بن قيس بن شَمَّاسٍ، وكان قتل باليمامة، فسمِعْنَاهُ حين أدخلناهُ القَبْرَ يقول: محمدٌ رسول الله، أبو بكر الصدِّيقُ، عُمَر الشهيدُ، عثمانُ البَرُّ الرحِيمُ، فَنَظَرْنا فإذا هو ميِّت.

٨٣٨ ـ وروي عن النُّعمانِ بن بشير: أن زَيْد بن خارجة خَرَّ ميِّتاً في بعض

أزِقَّةِ المدينة، فَرُفِع وسجّي إذ سمعوه بين العشاءَيْن والنساءُ يَصْرُخْن حوله يقول: أَنْصِتُوا، أَنصتوا، فَحَسر عن وجْهِهِ، فقال: محمدٌ رسول الله، النبيُّ الأُمّيُّ، وخاتَمُ النبيِّين، كان ذلك في الكتاب الأولِ، ثم قال: صَدَقَ، صَدَقَ، وذَكر أبا بكر، وعُمر، وعثمان، ثم قال: السلام عليكَ، يا رسول الله! ورحمة الله وبركاتُه، ثم عاد ميتاً كما كان.

فصل
فِي إبْرَاءِ المَرْضَى وذَوِي العَاهَاتِ

٨٣٩ ـ أخبرنا أبو الحسَن: علي بن مُشَرَّفٍ، فيما أجازَنيه، وقرأتُه على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الحبّال، قال: حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابن الوَرْد، عن البَرْقِيِّ، عن ابن هشامٍ، عن زياد البَكّائي، عن محمد بن إسحاق، حدثنا ابنُ شهاب، وعاصمُ بن عُمَر بن قَتَادة، وجماعةٌ ذكرهم بقضية أُحُدٍ بطولها، قال: وقالوا: قال سعد بن أبي وقاص:

إنَّ رسول الله ﷺ لَيُنَاولني السَّهْمَ لا نَصْلَ له، فيقول: «ارم به» [البخاري (٤٠٥٥)، مسلم (٢٤١٢)].

٨٤٠ ـ وقد رَمَى رسول الله ﷺ يومئذٍ عن قَوْسه حتى اندقّت، وأُصيب يومئذٍ عَيْنُ قَتَادةَ ـ يعني ابن النعمان ـ حتى وَقَعَتْ على وجْنَتِهِ، فردّها رسول الله ﷺ، فكانت أحسنَ عَيْنَيْهِ.

ورَوَى قصَّة قَتَادةَ عاصِمُ بنُ عُمَر بن قتادةَ، ويزيد بن عياض عن ابن عُمر بن قَتَادة.

٨٤١ ـ ورَواها أبو سَعِيد الْخُدْرِيّ عن قتادةَ.

٨٤٢ ـ وبَصَق على أثَرِ سَهْمٍ في وَجْهِ أبي قَتَادة في يوم ذي قَرَدٍ، قال: فما ضَرَب عَلَيَّ ولا قَاحَ.

٨٤٣ ـ ورَوَى النَّسائي، عن عثمان بن حُنَيفٍ: أنّ أعمى قال: يا رسول الله! ادعُ الله أن يكشفَ لي عن بَصَري.

قال: «فانطلِقْ، فتوضَّأْ، ثم صَلِّ ركعتين، ثم قُلْ: اللهم! إنّي أسألكَ وأتوجَّهُ إليك بنَبيِّي محمد، نبيّ الرحمةِ، يا محمدُ، إني أتوَجَّهُ بكَ إلى ربّك أنْ يكشفَ عن بَصَري، اللهمَّ شفِّعْهُ فِيَّ».

قال: فرجَعَ وقد كشَفَ اللّهُ عن بصره [الترمذي (٣٥٧٨)، ابن ماجه (١٣٨٥)، أحمد (١٣٨/٤)].

٨٤٤ ـ ورُوي أنَّ ابن مُلاعِبِ الأَسِنَّةِ أصابه استِسْقَاءٌ، فبعثَ إلى رسول الله ﷺ، فأخذَ بيده حَثْوَةً من الأرض، فتفَل عليها، ثم أعطاها رسولَهُ، فأخذها متعجِّباً، يُرى أنْ قد هُزِىءَ به، فأتاه بها، وهو على شَفاً، فشربها، فشفَاهُ اللَّهُ.

٨٤٥ ـ وذكر العُقَيْلي، عن حَبيب بن فُدَيْكٍ ـ ويقال: فُوَيْك ـ أنَّ أباهُ ابيضَّتْ عيناه، فكانَ لا يُبْصِر بهما شيئاً، فنفث رسول الله ﷺ في عَيْنَيه، فأبصر، فرأيتُه يُدْخِلُ الخَيْطَ في الإِبْرَة، وهو ابْنُ ثمانين.

٨٤٦ ـ ورُمِي كُلْثُوم بن الحُصَيْنِ يومَ أُحُدٍ في نَحْرِه، فبصق رسول الله ﷺ فيه، فبرِىء.

٨٤٧ ـ وتَفَل علىٰ شَجَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بن أُنيس فلم تُمِدَّ.

٨٤٨ ـ وتَفَل في عينيْ عليٍّ يوم خَيْبر، وكان رَمِداً، فأصبح بارئاً [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].

٨٤٩ ـ ونفث على ضَرْبَةٍ بساقِ سلَمةَ بن الأَكْوَع يوم خَيْبرَ فبرئت [البخاري (٤٢٠٦)].

٨٥٠ ـ وفي رِجْل زَيْد بن مُعَاذ حين أَصابها السيف إلى الكَعْب، حين قتلَ ابْنَ الأَشْرَفِ، فبرئت.

٨٥١ ـ وعلى ساقِ عليّ بن الحَكَم يوم الخَندق إذ انكسرت، فبرىء مكانه، وما نزل عن فرسه.

٨٥٢ ـ واشتكى علي بن أبي طالب، فجعل يَدْعو، فقال النبي ﷺ: «اللهم! اشفِه، أو عَافِهِ» ثم ضربه بِرِجْله، فما اشتكى ذلك الوَجَعَ بَعْدُ [الترمذي (٣٥٦٤)].

٨٥٣ ـ وقطع أبو جَهْل يوم بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذ بن عَفْراءَ، فجاء يحملُ يدَه، فبَصقَ عليها رسولُ الله ﷺ، وأَلْصقها فَلَصِقَتْ. رواه ابْنُ وَهْب.

٨٥٤ ـ ومن روايته أيضاً: أنَّ خُبَيْبَ بن يَسَاف أُصيبَ يوم بَدْر مع رسول الله ﷺ بضَرْبَةٍ على عاتقِهِ حتى مال شِقُّه، فردَّه رسول الله ﷺ، ونفَثَ عليه حتى صَحَّ.

٨٥٥ ـ وأَتَته امرأةٌ مِنْ خَثْعم، معها صبيٌّ به بَلاَءٌ لا يتكلّم، فأُتي بماء فمَضْمَض فاهُ، وغسل يدَيْه، ثم أعطاها إيّاه، وأَمَرَها بسَقْيِه ومَسِّه به، فَبَرِىء الغلام، وعَقَل عَقْلاً يفضلُ عقولَ الناس.

٨٥٦ ـ وعن ابن عبّاس: جاءت امرأةٌ بابنٍ لها به جنُونٌ، فمسح صَدْرَه، فثَعَّ ثَعَّةً، فخرج من جَوْفِه مِثْلُ الْجَرْوِ الأسودِ، فشفي [أحمد (١/ ٢٥٤)].

٨٥٧ ـ وانكفأتِ القِدْرُ على ذِراعِ محمد بن حاطب وهو طفلٌ، فَمَسحَ عليه ودعا له، وتَفَل فيه فَبَرِئَ لِحِينه [أحمد (٣/ ٤١٨)].

٨٥٨ ـ وكانت في كفّ شُرَحْبِيل الجُعْفيِّ سِلْعَةٌ تمنعُه القَبْض على السيفِ وعِنَانِ الدابّةِ، فشكاها للنبيِّ ﷺ، فما زال يَطْحَنها بكفِّه حتى رفعها، ولم يبْقَ لها أثرٌ.

٨٥٩ ـ وسأَلَتْهُ جاريةٌ طعاماً، وهو يَأْكلُ، فناولها مِنْ بين يديه، وكانت قليلةَ الحياء، فقالت: إنما أُريدُ من الذي في فِيكَ، فناوَلها ما في فِيهِ، ولم يكن يُسْأَل شيئاً فيَمْنَعَه.

فلما استقرَّ في جَوْفِها أُلقِيَ عليها من الحياءِ ما لم تكن امرأَةٌ بالمدينةِ أشدَّ حياءً منها.

فصل
فِي إجَابَةِ دُعَائِهِ ﷺ

وهذا بابٌ واسعٌ جدّاً وإِجابةُ دعوةِ النبيّ ﷺ لجماعةٍ بما دعا لهم وعليهم متواتِرٌ على الجملةِ، معلومٌ ضرورةً.

٨٦٠ ـ وقد جاء في حديث حُذيْفَةَ: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدْرَكَتْ الدعوةُ ولدَه وولدَ ولدِه [أحمد (٥/ ٣٨٥ـ ٣٨٦)].

٨٦١ ـ حدثنا أبو محمد العتَّابيُّ بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابِسيُّ، حدثنا أبو زَيْد المَرْوَزِيُّ، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عَبْدالله بن أبي الأسود، حدثنا حَرَمِيٌّ، حدثنا شُعْبة، عن قتادةَ، عن أَنَس رضي الله عَنه، قال: قالت أُمِّي: يا رسولَ الله! خادِمُك أنسٌ، ادْعُ الله له. قال: **«اللهمّ! أَكْثِر مالَه وَوَلَده، وبارِكْ له فيما آتيته»** [البخاري (٦٣٤٤)، مسلم (٢٤٨١/ ١٤٢)].

٨٦٢ ـ ومِنْ رواية عِكرمة: قال أَنس: فوالله! إنَّ مالي لكثير؛ وإنَّ وَلَدي وولدَ ولدي ليُعَادُّون اليومَ على نحو المئة [مسلم (٢٤٨١/ ١٤٣)].

٨٦٣ ـ وفي رواية: وما أعلمُ أحداً أصاب مِنْ رَخاءِ العيش ما أصبْتُ، ولقد دفنْتُ بِيَدَيَّ هاتين مِئَةً من ولدي، لا أقولُ سِقْطاً ولا وَلَدَ ولدٍ.

٨٦٤ ـ ومنه دعاؤه لعبدالرحمن بن عَوف بالبركة [البخاري (٥١٥٥)، مسلم (١٤٢٧)]، قال عبدالرحمن: فلو رفعتُ حجراً لرجَوْتُ أَنْ أُصِيبَ تحته ذهباً، وفتح الله عليه، ومات فخُفِرَ الذهبُ من تركته بالفؤوس حتىٰ مَجَلَت فيه الأَيْدِي، وأَخَذَتْ كلُّ زوجةٍ ثمانين ألفاً، وكُنَّ أربعاً، وقيل: مئة ألف.

وقيل: بل صُولحت إحداهنّ، لأنه طلَّقها في مَرَضه على نَيِّف وثمانين ألفاً، وأوصى بخمسين ألفاً بعد صدقاته الفاشيةِ في حياته، وعَوارِفه العظيمة: أعتق يوماً ثلاثين عَبْداً، وتصدَّقَ مرةً بِعِير فيها سبعُ مِئة بَعِير، وردَتْ عليه تَحْمِلُ من كل شيء، فتصدَّقَ بها وبما عليها، وبأَقْتَابِها وأَحْلاَسِها.

٨٦٥ ـ ودعا لمعاويةَ بالتمكين في البلاد، فنال الخلافةَ.

٨٦٦ ـ ولسعد بن أبي وقاص رضِيَ الله عنه أَنْ يجيبَ اللَّهُ دعوتَه، فما دَعَا عَلَى أحدٍ إلاّ استُجِيبَ له [الترمذي (٣٧٥١)].

٨٦٧ ـ ودعا بعِزِّ الإسلام بعُمر رضِيَ الله عنه، أو بأَبي جَهْل، فاستُجِيب له في عُمر [الترمذي (٣٦٨١)، أحمد (٢/٩٥)].

٨٦٨ ـ قال ابنُ مسعود رضِي الله عنه: ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عُمر [البخاري (٣٦٨٤)].

٨٦٩ ـ وأصاب الناسَ في بعض مَغازِيه عَطشٌ، فسأله عُمَرُ الدعاءَ، فدعا، فجاءت سحَابةٌ، فسقتهم حاجتَهم، ثم أَقْلَعَتْ.

٨٧٠ ـ ودعا في الاستسقاء، فسُقوا، ثم شَكَوْا إليه المطَر، فدعا، فصَحَوْا [البخاري (١٠١٦)، مسلم (٨٩٧)].

٨٧١ ـ وقال لأبي قَتَادة: **«أَفْلَحَ وَجْهُك، اللهم! بارِكْ له في شَعره وبَشَره»**، فمات وهو ابنُ سبعين سنةً، وكأنه ابن خمس عشرة سنة.

٨٧٢ ـ وقال للنابغة: **«لا يَفْضُضِ اللَّهُ فَاكَ»** فما سقطت له سنّ.

وفي روَايةٍ: فكان أحسنَ الناس ثَغراً، إذا سقطَتْ له سِنٌّ نَبَتَتْ له أُخرى، وعاش عشرين ومِئَةَ سنة، وقيل: أكثَر من هذا.

٨٧٣ ـ ودعا لابْن عبَّاسٍ: **«اللهم! فقِّهْهُ في الدين، وعلِّمه التأويل»** [أحمد (٢٦٦/١، ٣١٤، ٣٢٨)، البخاري (١٤٣)، مسلم (٢٤٧٧)] فسُمِّي بَعْدُ الحَبْرَ، وترجُمان القرآن.

٨٧٤ ـ ودَعَا لعبداللّه بن جعفر بالبَرَكةِ في صَفْقَةِ يَمِينه، فما اشْتَرى شيئاً إلا رَبِحَ فيه.

٨٧٥ ـ ودعا لِلْمِقْدادِ بالبركة، فكانت عنده غَرَائرُ من المالِ.

٨٧٦ ـ ودعا بمثله لعُرْوة بن أبي الجَعْد [البخاري (٣٦٤٢)]، فقال فلقد كنتُ أقومُ بالكُناسةِ، فما أَرْجع حتى أربحَ أربعين ألفاً.

وقال البخاري في حديثِهِ: فكان لو اشترى الترابَ رَبِحَ فيه [البخاري (٣٦٤٢)].

٨٧٧ ـ ورُوِي مِثْلُ هذا لِغَرْقدة أيضاً.

٨٧٨ ـ وندَت له ﷺ ناقة، فدعا فجاءهُ بها إعصارُ ريحٍ، حتى ردَّها عليه.

٨٧٩ ـ ودعا لأُمِّ أبي هريرةَ فأَسلمت [مسلم (٢٤٩١)].

٨٨٠ ـ ودعا لعليّ أن يُكفَى الحرَّ والقَرَّ، فكان يلبسُ في الشتاء ثيابَ الصيفِ، وفي الصيف ثيابَ الشتاء، ولا يصيبه حَرٌّ ولا بَرْد [ابن ماجه (١١٧)].

٨٨١ ـ ودعا لفاطمة ابْنتِه اللَّهَ أَلاَّ يُجِيعَها، قالت: فما جُعْتُ بعد.

٨٨٢ ـ وسأله الطُّفيل بن عَمْرو آيةً لقومِه، فقال: «اللَّهمّ! نوِّرْ له» فسطَعَ نورٌ بين عَيْنَيْه، فقال: يا ربّ! أخاف أَنْ يقولوا: مُثْلَةٌ، فتحوّل إلى طَرَفِ سَوْطِه، فكان يُضيء في الليلة المظلمة، فسمِّيَ ذا النور.

٨٨٣ ـ ودعا على مُضَر فأُقْحِطوا، حتى استَعْطَفَته قريش، فدعا لهم فسُقوا [البخاري (٤٨٢١)، مسلم (٢٧٩٨/٤٠)].

٨٨٤ ـ ودعا على كِسرى حين مزَّق كتابَه أَن يمزِّقَ اللَّهُ مُلْكَه [البخاري (٦٤)]، فلم تَبْق له باقية، ولا بقِيَتْ لفارسَ رِيَاسةٌ في أقطار الدنيا.

٨٨٥ ـ ودعا على صبيّ، قطع عليه الصلاةَ، أن يقطَع الله أَثَره، فأُقْعِد [أبو داود (٧٠٧)].

٨٨٦ ـ وقال لرجل رآه يأكل بِشِماله: «كُلْ بيمينكِ» فقال: لا أستطيعُ. فقال: «لا استَطَعْتَ» فلم يرفَعْها إلى فِيه [مسلم (٢٠٢١)].

٨٨٧ ـ ودعا على عُتْبَة بن أبي لَهَب: «اللهمّ! سلِّطْ عليه كَلْباً من كلابِك»، فأَكله الأَسَد.

٨٨٨ ـ وقال لامرأةٍ: «أَكلكِ الأسدُ» فأكلها.

٨٨٩ ـ وحديثُه المشهور، من رواية عَبْدالله بن مسعود رضي الله عنه في دعائه على قُريش حين وضَعُوا السَّلاَ على رقَبته وهو ساجدٌ مع الفَرْث والدم، وسمّاهم، قال: فلقد رأيتُهم قُتِلُوا يوم بَدْر [البخاري (٢٤٠)، مسلم (١٧٩٤)].

٨٩٠ ـ ودعا على الحكَم بن أبي العاص، وكان يَخْتَلج بوجهه، ويغمِزُ عند النبيّ ﷺ، أي: لا، فرآه، فقال: «كذلك كُنْ» فلم يزَلْ يختلجُ إلى أن مات.

٨٩١ ـ ودعا على مُحَلِّم بن جَثَّامة فمات لسَبْع، فلفظَتْهُ الأرض، ثم وُورِيَ، فلفظَتْه مرَّاتٍ، فألْقَوه بين صُدَّين، ورضَمُوا عليه بالحجارة. والصُّدّ: جانِبُ الوادي.

٨٩٢ ـ وجحده رجلٌ بَيْعَ فرس ـ وهي التي شهِدَ فيها خُزَيمةُ للنبيِّ ﷺ ـ فردّ الفرسَ بعدُ النبيُّ ﷺ على الرجل، وقال: «**اللَّهُمَّ! إنْ كان كاذباً فلا تبارِكْ له فيها**» [أبو داود (٣٦٠٧)، النسائي (٧/ ٣٠١ـ ٣٠٢)] فأصبحتْ شاصِيةً برجْلِها، أي: رافعةً.

وهذا البابُ أكثَرُ مِنْ أَن يُحاطَ به.

فصل

فِي كَرَامَاتِهِ وبَرَكَاتِهِ وانْقِلاَبِ الأَعْيَانِ لَهُ فِيمَا لَمَسَهُ أَوْ بَاشَرَهُ

٨٩٣ ـ أخبرنا أحمدُ بن محمد، حدثنا أبو ذَرّ الهَرَوي، إجازةً.

وحدثنا القاضي أبو عليّ سماعاً، والقاضي أبو عَبْدالله: محمد بنُ عبدالرحمن وغيرُهما، قالوا: حدثنا أبو الوليد القاضي، حدثنا أبو ذَرّ، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهَيْثَم، قالوا: حدثنا الفَرَبْري، حدثنا البخاري، حدثنا عبدالأعلىٰ بن حماد حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سَعِيد، عن قتادة، عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه أن أهْلَ المدينةِ فَزِعُوا مرةً، فركبَ رسول الله ﷺ فَرَساً لأبي طَلْحَةَ كان يَقْطُف ـ أو به قِطَاف ـ وقال غيره: يُبَطَّأ، فلما رجع قال: «**وجَدْنا فَرَسَك بَحْراً**» فكان بَعْدُ لا يُجارَى [البخاري (٢٨٦٧)، مسلم (٣٣٠٧)].

٨٩٤ ـ ونَخَس جَمَلَ جابر، وكان قد أَعْيَا، فَنَشِطَ حتى كان ما يَمْلِكُ زِمَامَهُ [البخاري (٢٧١٨)].

٨٩٥ ـ وصنَع مِثْلَ ذلك بفرس لجُعَيْلٍ الأَشجعي، خفقها بمِخْفَقَةٍ معه، وبَرَّك عليها، فلم يملِك رأسَها نَشَاطاً، وباع من بَطْنِها باثني عشر ألفاً.

٨٩٦ ـ وركِبَ حماراً قَطوفاً لسعد بن عُبَادة فردَّه هِمْلاجاً لا يُسايَرُ.

٨٩٧ ـ وكانت شَعراتٌ مِنْ شعره في قَلَنْسُوَةِ خالد بن الوليد، فلم يشهَدْ بها قِتالاً إلاّ رُزِقَ النَّصرَ.

٨٩٨ ـ وفي الصحيح، عن أسماء بنت أبي بكر رضيَ اللَّهُ عنها، أنها

أخرجت جُبَّةَ طَيالسةٍ، وقالت: كان رسول الله ﷺ يَلْبَسُها، فنحن نَغْسِلها للمرضى نَسْتشْفِي بها [مسلم (٢٠٦٩)].

وحدثنا القاضي أبو علي، عن شَيْخه أبي القاسم بن المأمون، قال: كانت عندنا قَصْعةٌ من قِصاع النبيّ ﷺ، فكُنَّا نجعلُ فيها الماءَ للمرضى، فيستشفون بها.

٨٩٩ ـ وأخذ جَهْجَاهُ الغِفَاري القَضيبَ من يد عثمانَ رضي الله عنه ليَكْسِرَه على ركبته، فصاح الناسُ به، فأَخَذَتْهُ فيها الآكِلَةُ، فقطعها، ومات قبل الحَوْل.

٩٠٠ ـ وسكب من فَضْلِ وَضُوئه في بئر قُبَاء فما نَزَفَتْ بعد.

٩٠١ ـ وبزق في بئر كانت في دار أنس، فلم يكن بالمدينة أعذب منها.

٩٠٢ ـ ومَرّ على ماءٍ، فسأل عنه، فقيل له: اسْمُه بِيْسان، وماؤه مِلْح، فقال: «**بل هو نَعْمان وماؤه طيب**» فطاب.

٩٠٣ ـ وأُتِي بدَلْوٍ من ماء زمزم، فمجَّ فيه، فصار أطيبَ من المِسْك [ابن ماجه (٦٥٩)، أحمد (٤/٣١٥)].

٩٠٤ ـ وأعطى الحسن والحُسين لسانَه فمصّاه، وكانا يبكيان عَطشاً، فسكتا.

٩٠٥ ـ وكان لأُمّ مالكٍ عُكّةٌ تُهْدِي فيها للنبي ﷺ سَمْناً فأَمرها النبيّ ﷺ ألاَّ تَعْصرَها، ثم دفعها إليها، فإذا هي مَمْلُوءَةٌ سَمْناً، فيأتيها بَنُوها يسألونها الأُدْمَ، وليس عندهم شيءٌ فتَعْمِدُ إليها. فتجدُ فيها سَمْناً، فكانت تُقيم أُدْمَها حتى عَصَرَتْها [مسلم (٢٢٨٠)].

٩٠٦ ـ وكان يَتْفُلُ في أفواهِ الصبيان المراضع فيجزئهم ريقُه إلى الليل.

٩٠٧ ـ ومن ذلك: بركةُ يده فيما لمسه وغرسَهُ لِسَلْمانَ رضي الله عنه حين كاتَبَه مواليه على ثلاث مئة وَدِيَّةٍ يَغْرِسُها لهم، كلُّها تَعلَقُ وتُطْعِم، وعلى أربعين أُوقيَّةً من ذهب، فقام عليه السلام وغَرسها له بيده إلا واحدة غرسها غَيْرُه، فأَخذت كلّها إلا تلك الواحدة، فقلعها النبيُّ ﷺ وردَّها، فأَخذت.

وفي كتاب البزّار: فأَطعم النَّخلُ مِنْ عامه إلا الواحدة، فقلعها رسول الله ﷺ وغرسها فأطعمتْ مِنْ عامها.

وأعطاه مِثْلَ بَيْضَةِ الدَّجاجَة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه، فوزَن منها لمواليه أربعين أوقيَّة، وبقِيَ عنده مِثْلُ ما أعطاهم [أحمد (٥/ ٤٤١ـ ٤٤٤)].

٩٠٨ ـ وفي حديث حَنَشِ بن عَقِيل: سقاني رسول الله ﷺ شَرْبةً من سَويق

شربَ أوّلَها وشربتُ آخِرها، فما برحتُ أجدُ شِبَعَها إذا جُعتُ، وريَّها إذا عطِشتُ، وبَرْدَها إذا ظمئتُ.

٩٠٩ ـ وأعطى قَتادةَ بن النعمان ـ وصلَّى معه العشاء في ليلة مُظْلمةٍ مَطِيرةٍ ـ عُرْجوناً، وقال: **«انطلق به، فإنه سيُضِيء لك مِنْ بين يديك عَشراً ومن خلفِك عَشراً، فإذا دخلْتَ بيتَك فسترى سواداً فاضرِبه حتى يخرجَ، فإنه الشيطانُ»**.

فانطلق فأضاء له العُرجونُ حتى دخل بيْتَه، ووجد السَّواد فضربه حتى خرج [أحمد (٣/٦٥)].

٩١٠ ـ ومنها: دَفعُه لعُكَّاشة جِذْلَ حطَب، وقال: **«اضْرِبْ به»** حين انكسر سيفُه يوم بَدْر، فعاد في يده سيفاً صارماً، طويلَ القامة، أبْيَض، شدِيدَ المَتْنِ، فقاتل به، ثم لم يزَلْ عنده يشهَدُ به المواقِفَ إلى أن استُشهِد في قِتَالِ أهل الردّة. وكان هذا السيف يسمى العَوْن.

٩١١ ـ ودَفْعُهُ لعبداللّه بن جَحْش يوم أُحُد ـ وقد ذهب سيفُه ـ عَسِيبَ نخْلٍ، فرجع في يده سيفاً.

٩١٢ ـ ومنه: بركَتُه في دُرُورِ الشِّيَاه الحوائل باللبن الكثير، كقصّة شاة أُمّ مَعْبَدٍ.

٩١٣ ـ وأعْنُز معاوية بن ثَور.

٩١٤ ـ وشاةِ أنس.

٩١٥ ـ وغَنَم حليمة: مُرْضِعَتِهِ، وشارِفِها.

٩١٦ ـ وشاةِ عبداللّه بن مسعود [أحمد (١/٣٧٩)]، وكانت لم يَنْزُ عليها فَحل.

٩١٧ ـ وشاةِ المِقْداد [مسلم (٢٠٥٥)].

٩١٨ ـ ومن ذلك تَزْويدُهُ أصحابَه سقاءَ ماءٍ بعد أَنْ أوكأهُ، ودَعَا فيه، فلما حضرتهم الصلاةُ نزلوا فحلُّوه، فإذا به لَبَنٌ طيب وزُبدة في فمه ـ من رواية حمّاد بن سلمة.

٩١٩ ـ ومسح على رَأْسِ عُمير بن سَعْد وبرّك، فمات وهو ابنُ ثمانين، فما شاب.

٩٢٠، ٩٢١ ـ ورُوِيَ مِثْلُ هذه القِصص عن غير واحدٍ، منهم: السائبُ بن يزيد [البخاري (٣٥٤٠)، مسلم (٢٣٤٥)]، ومَدْلوك.

٩٢٢ ـ وكان يوجَدُ لعُتْبة بن فَرْقَد طِيبٌ يغلبُ طيبَ نسائه، لأنَّ رسول الله ﷺ مسح بيده على بَطْنِه وظَهْرِه.

٩٢٣ ـ وسلَتَ الدَّمَ عن وَجْهِ عائذ بن عَمرو، وكان جُرِحَ يوم حُنَيْن، ودعا له، فكانت له غُرَّةٌ كغُرَّةِ الفرس.

٩٢٤ ـ ومَسح على رأس قَيْس بن زَيْد الجُذَامي، ودعا له، فهلكَ وهو ابْنُ مِئة سنة، ورأسُه أبيض، وموضِعُ كفِّ النبي ﷺ وما مَرّت يَدُه عليه من شعره أسودُ، فكان يُدْعى الأغرَّ.

٩٢٥ ـ ورُوي مِثْلُ هذه الحكاية لعَمرو بن ثعلبة الجُهَني.

٩٢٦ ـ ومسح وَجْهَ آخر، فما زال على وَجْهه نُور.

٩٢٧ ـ ومسحَ وَجْهَ قَتادةَ بن مِلْحان، فكان لوجْهه بَريق حتى كان يُنْظَرُ في وجهه كما يُنْظَرُ في المرآة [أحمد (٥/ ٢٨ ـ ٢٩)].

٩٢٨ ـ ووضع يَده على رأس حنظلة بن حِذْيَم، وبَرَّكَ عليه، فكان حَنْظَلَة يُؤْتَى بالرجل قد وَرِمَ وَجْهُهُ، والشاة قد وَرِم ضَرْعُها، فيوضَعُ على موضع كفِّ النبيِّ ﷺ فيذهبُ الوَرَمُ [أحمد (٥/٦٨)].

٩٢٩ ـ ونضح في وَجه زينب بنت أم سَلَمة نَضحة مِن ماء، فما يُعْرَف كان في وَجه امرأةٍ من الجمال ما بها.

٩٣٠ ـ ومسح على رَأس صبي به عاهة، فَبرِىء واستوى شعره. وعلى غير واحدٍ من الصِّبْيان والمرضى والمجانين، فبرَؤُوا.

٩٣١ ـ ومثله روي في خبر المُهَلَّبِ بنِ قَبَالَةَ.

٩٣٢ ـ وأتاه رجل أُدْرَةٌ، فأمره أن يَنضَحَها بماءٍ، من عَيْن مَجَّ فيها، ففعل، فَبَرىء.

٩٣٣ ـ وعن طاووس: لم يُؤْتَ النبيُّ ﷺ بأحدٍ به مَسٌّ، فصكَّ في صَدْره إلا ذهب.

والمَسُّ: الجنونُ.

٩٣٤ ـ ومَجَّ في دَلْوٍ من بئر، ثم صبّ فيها، ففاح منها ريحُ المِسْكِ.

٩٣٥ ـ وأخذ قَبْضَةً من تُرابِ يوم حُنَين، ورَمى بها في وجوه الكفّار، وقال: «**شاهَتِ الوجوهُ**» فانصرفُوا يمسحون القذى عن أَعْيُنهم [مسلم (١٧٧٧)].

٩٣٦ ـ وشكا إليه أبو هريرة رضي الله عنه النِّسيانَ، فأمره ببَسْطِ ثَوْبه، وغَرف بيده فيه، ثم أَمره بضَمِّهِ، ففعل، فما نَسِيَ شيئاً بعد [البخاري (١١٩)، مسلم (٢٤٩٢)].

وما يُروَى عنه في هذا كثير.

٩٣٧ ـ وضرب صَدْرَ جَرِير بن عَبدالله، ودَعَا له، وكان ذُكِرَ له أنه لا يثبُتُ على الخيل، فصار من أفرس العرب وأثبتهم [البخاري (٣٠٣٦)، مسلم (١٣٥/٢٤٧٥)].

٩٣٨ ـ ومسح علىٰ رَأْس عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب وهو صغير، وكان دَميماً، ودعا له بالبركة، فَفَرَعَ الرجالَ، طُولاً وتَمَاماً.

فصل
فِي مَا أُطْلِعَ عَلَيهِ مِنَ الغُيُوبِ

ومن ذلك ما أُطْلِعَ عليه من الغيوبِ وما يكون. والأحاديثُ في هذا الباب بَحرٌ لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ولا يُنْزَفُ غَمْرُه.

وهذه المعجزَةُ من جملة معجزاتِه المعلومة على القَطْعِ، الواصلِ إلينا خَبَرُها على التواتُر، لكَثْرةِ رُوَاتِها، واتفاق مَعَانيها على الاطلاع على الغيب.

٩٣٩ ـ حدثنا الإمامُ أبو بكر: محمد بن الوليد الفِهْري إجازةً، وقرأتُه على غيره. قال أبو بكر: حدثنا أبو علي التُسْتَري، حدثنا أبو عُمر الهاشميّ، حدثنا اللّؤلُؤي، حدثنا أبو داود، حدثنا عثمان بن أبي شَيْبة، حدثنا جَرير، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حُذَيفة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ مَقاماً، فما ترك شيئاً يكونُ في مَقَامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّثه، حفِظَه من حفظَه، ونَسِيَه مَنْ نَسِيَه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكونُ منه الشيءُ فأَعرفُه فأذكرُه كما يذكر الرجلُ وَجهَ الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآهُ عرفه [البخاري (٦٦٠٤)، مسلم (٢٣/٢٨٩١)، أبو داود (٤٢٤٠)].

٩٤٠ ـ ثم قال حُذَيفة: ما أدري، أنسيَ أصحابي أم تناسَوْه؟ واللهِ! ما ترك رسول الله ﷺ مِنْ قائد فِتْنَة إلى أن تَنقَضِي الدنيا يبلغ مَنْ معه ثلاث مِئَةٍ فصَاعِداً إلا قد سمّاه لنا باسْمِه، واسْم أبيه، وقَبيلته [أبو داود (٤٢٤٣)].

٩٤١ ـ وقال أبو ذَرّ: لَقد تركَنا رسولُ الله ﷺ وما يحرِّك طائرٌ جناحَيهِ في السماءِ، إلاَّ ذكَرنا منه عِلْماً.

٩٤٢ ـ وقد خرّج أهلُ الصحيح والأئمةُ ما أعلَمَ به أصحابَه ﷺ ممّا وَعدهم به من الظُّهور على أعدائه [البخاري (٣٨٥٢)].

٩٤٣ ـ وفَتْحِ مكة [البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)].

٩٤٤ ـ وبيتِ المَقْدس [البخاري (٣١٧٦)].

٩٤٥ ـ واليمن، والشام، والعراقِ [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].

٩٤٦ ـ وظُهورِ الأَمْنِ، حتى تَظْعَنَ المرأةُ من الحِيْرَةِ إلى مكّة، لا تخافُ إلا اللَّهَ [البخاري (٣٥٩٥)].

٩٤٧ ـ وأنَّ المدينة ستُغْزَى [البخاري (١٨٧٤)، مسلم (١٣٨٩)].

٩٤٨ ـ وتُفْتَح خَيْبَرُ على يدي عليّ في غَدِ يومِه [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].

٩٤٩ ـ وما يفتحُ اللَّهُ على أُمّته من الدنيا، ويُؤْتَوْن من زَهْرَتها [البخاري (١٤٦٥)، مسلم (١٠٥٢)].

٩٥٠ ـ وقِسْمَتِهم كنوزَ كسرى وقَيصر [البخاري (٣١٢١)، مسلم (٢٩١٩)].

٩٥١ ـ وما يَحْدُث بينهم من الفِتَن والاختلاف والأهواء.

٩٥٢ ـ وسلوكِ سبيل مَنْ قَبْلَهم [البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩)].

٩٥٣ ـ وافتراقهم على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، الناجيةُ منها واحدةٌ [أحمد (٣٣٢/٢)، أبو داود (٤٥٩٦)، الترمذي (٢٦٤٠)، ابن ماجه (٣٩٩١)].

٩٥٤ ـ وأنها ستكونُ لهم أنماطٌ [البخاري (٣٦٣١)، مسلم (٢٠٨٣)].

٩٥٥ ـ ويَغْدُو أحدُهم في حُلَّةٍ، ويروحُ في أُخرى، وتُوضَع بين يديه صَحْفَةٌ وتُرفَعُ أُخرى، ويستُرونَ بيوتَهم كما تُسْتَرُ الكعبة.

ثم قال آخرَ الحديث: «**وأنتم اليومَ خَيرٌ منكم يومئذٍ**» [الترمذي (٢٤٧٦)].

٩٥٦ ـ وأنهم إذا مشَوْا المُطَيْطاءَ وخدَمَتْهم بناتُ فارِسَ والروم ردّ اللَّهُ بأسَهم بينهم، وسلَّط شِرَارَهم على خِيَارهم [الترمذي (٢٢٦١)].

٩٥٧ ـ وقتالِهم التُّرْكَ [البخاري (٢٩٢٨)، مسلم (٦٥/٢٩١٢)].

٩٥٨ ـ والخُزْرَ [البخاري (٣٥٩٠)]، والرُّوم.

٩٥٩ ـ وذَهَابِ كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهابِ قَيْصَر حتى لا قَيْصر بَعْدَه [البخاري (٣١٢٠)، مسلم (٢٠١٨)].

٩٦٠ ـ وذكر أنَّ الرومَ ذاتُ قُرونٍ إلى آخر الدّهر.

٩٦١ ـ وبذهاب الأمْثَلِ فالأمثل من الناس [البخاري (٦٤٣٤)].

٩٦٢ ـ وتقارُبِ الزمان، وقَبْضِ العِلْم، وظهورِ الفِتَن، والهَرْجِ [البخاري (١٠٣٦)، مسلم (١١/١٥٧)].

٩٦٣ ـ وقال: «**ويلٌ للعرب مِنْ شرٍّ قد اقترب**» [البخاري (٣٣٤٦)، مسلم (٢٨٨٠)].

٩٦٤ ـ وأنه زُوِيَتْ له الأرض فأُرِيَ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وسيبلغُ مُلْكُ أُمَّته ما زُوِيَ له منها [مسلم (٢٨٨٩)].

فكذلك كان، امتدّت في المشارق والمغارب ما بين أرضِ الهند أقصى المَشرق إلى بَحْرِ طَنْجة حيث لا عِمَارة وراءه، وذلك ما لم تملِكْهُ أُمَّةٌ من الأمم، ولم تمتدّ في الجنوب ولا في الشمال مِثْلَ ذلك.

٩٦٥ ـ وقوله: **«لا يزالُ أهلُ الغَرْبِ ظاهرينَ على الحقِّ حتى تقومَ الساعةُ»** [مسلم (١٩٢٥)] ـ ذهب ابن المَديني إلى أنهم العَرَبُ، لأنهم المختصّون بالسَّقْي بالغَرْب ـ وهي الدّلو ـ وغَيْرُه يذهبُ إلى أنهم أهلُ المَغْرِب، وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه.

٩٦٦ ـ وفي حديث آخر، مِنْ رواية أبي أُمَامَة: **«لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي ظاهرينَ على الحقِّ، قاهِرينَ لِعدُوِّهِمْ، حتى يأتيهم أَمْرُ اللّهِ وهم كذلك»**.

قيل: يا رسول الله! وأين هم؟ قال: **«ببيت المقدس»**.

٩٦٧ ـ وأَخْبَر بمُلْك بني أُمية.

٩٦٨ ـ ووِلاية مُعَاوية، ووصّاه [أحمد (٤/١٠١)].

٩٦٩ ـ واتخاذِ بني أُميّة مالَ اللّهِ دُوَلاً.

٩٧٠ ـ وخروج ولدِ العباسِ بالرايات السُّودِ [ابن ماجه (٤٠٨٤)].

٩٧١ ـ ومُلْكهم أضعافَ ما ملكوا.

٩٧٢ ـ وخروج المهدي.

٩٧٣ ـ وما ينالُ أهلَ بيتِه وتَقْتيلهم وتَشريدهم.

٩٧٤ ـ وقَتْل عليٍّ، وأنّ أشقاهَا الذي يَخضِبُ هذه من هذه، أي لحيَته من رَأسه.

٩٧٥ ـ وأنّه قسيمُ النار، يَدْخُل أولياؤه الجنة، وأعداؤه النار، فكان فيمَنْ عاداه الخوارج والناصِبَة، وطائفةٌ مِمّن يُنْسَبُ إليه من الروافِضِ كفَّروه.

٩٧٦ ـ وقال: **«يُقتَلُ عثمانُ وهو يَقرأُ في المُصحفِ»** [الترمذي (٣٧٠٨)].

٩٧٧ ـ وأن الله عسى أنْ يُلْبِسَه قَميصاً، وأنهم يُريدون خَلْعه [الترمذي (٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)].

٩٧٨ ـ وأنّه سيَقْطُر دمُه على قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

٩٧٩ ـ وأَنَّ الفِتَن لا تَظْهَر ما دام عُمَرُ حياً [البخاري (٧٠٩٦)، مسلم (١٤٤)].

٩٨٠ ـ وبمحاربة الزُّبَيْرِ لعليٍّ وهو ظالم له.

٩٨١ ـ ويُنبَاح كِلابِ الحَوأَب على بعض أَزْواجِهِ [أحمد (٦/٥٢)].

٩٨١م ـ وأنه يُقْتَل حولَها قتلى كثيرٌ، وتنجُو بعد ما كادت، فنبحت على عائشة عندِ خروجها إلى البَصْرة.

٩٨٢ ـ وأنَّ عمّاراً تقتلُه الفئةُ الباغِيةُ [مسلم (٢٩١٥)]، فقتله أصحابُ معاوية.

٩٨٣ ـ وقال لعبدالله بن الزُّبير: «**ويلٌ للناس مِنْكَ! وويلٌ لكَ من الناس!**».

٩٨٤ ـ وقال في قُزمانَ ـ وقد أَبْلَى مع المسلمين ـ: «**إنه من أهْلِ النار**» [البخاري (٢٨٩٨)، مسلم (١١٢)] فقتل نَفْسَه.

٩٨٥ ـ وقال في جماعة فيهم أبو هريرة، وسَمُرَةُ بن جُنْدُب، وحُذَيفة: «**آخركم موتاً في النار**» فكان بعضهم يسألُ عن بعض فكان سَمُرَةُ آخرَهم موتاً، هَرِم وخَرِف، فاصطلى بالنارِ فاحترقَ فيها.

٩٨٦ ـ وقال في حَنْظَلةَ الغَسِيل: «**سلُوا زوجَته عنه فإني رأيتُ الملائكة تغسُلُه**» فسألوها فقالت: إنه خرج جُنُباً، وأعجلَه الحالُ عن الغُسْلِ.

قال أبو سعيد رضي الله عنه: وجَدْنا رَأْسَه يَقْطُر ماءً.

٩٨٧ ـ وقال: «**الخلافةُ في قُريش**» [أحمد (٤/١٨٥)].

٩٨٨ ـ «**ولن يزالَ هذا الأَمْرُ في قُريش ما أقاموا الدِّين**» [البخاري (٣٥٠٠)].

٩٨٩ ـ وقال عليه الصلاة والسلام: «**يكون في ثَقِيف كَذّابٌ ومُبِيرٌ**» [مسلم (٢٥٤٥)] فَرأَوهُما: الحَجَّاجَ، والمُخْتَارَ.

٩٩٠ ـ وأن مُسَيْلِمَةَ يعقرهُ الله [البخاري (٣٦٢٠)، مسلم (٢٢٧٣)].

٩٩١ ـ وأَنّ فاطمة أَولُ أهلِه لحوقاً به [البخاري (٣٦٢٦)، مسلم (٢٤٥٠)].

٩٩٢ ـ وأَنْذَر بالرِدَّة [مسلم (١٩٢٠)].

٩٩٣ ـ وبأَنّ الخلافة بَعْده ثلاثون سنة، ثم تكون مُلْكاً [أبو داود (٤٦٤٦)، الترمذي (٢٢٢٦)]، فكانت كذلك بمدّةِ الحسَنِ بن عليّ.

٩٩٤ ـ وقال: «**إنَّ هذا الأَمْرَ بدَأَ نُبُوَّةً ورحمةً، ثم يكون رحمةً وخلافةً، ثم يكون مُلكاً عَضُوضاً، ثم يكون عُتُوّاً وجَبَروتاً وفساداً في الأمة**».

٩٩٥ ـ وأخبر بشأْنِ أُوَيْسٍ القَرَني [مسلم (٢٥٤٢)].

٩٩٦ ـ وبأُمَراء يؤَخِّرون الصلاةَ عن وَقْتها [مسلم (٥٣٤)].

٩٩٧ ـ وسيكونُ في أُمته ثلاثون كذَّاباً، فيهم أَربَعُ نسوةٍ [أحمد (٥/٣٩٦)].

٩٩٨ ـ وفي حديث آخر: «**ثلاثون دجّالاً كذّاباً أَحَدُهم الدجّال الكذاب، كلُّهم يَكْذِبُ على اللّهِ ورسوله**» [أبو داود (٤٣٣٤)، البخاري (٧١٢١)، مسلم (١٥٧/٨٤)].

٩٩٩ ـ وقال: «**يوشكُ أن يكثُرَ فيكم العَجَمُ، يأكلون فيئَكُمْ، ويَضرِبُون رِقَابَكُم**».

١٠٠٠ ـ و «**لا تقومُ الساعةُ حتى يسوقَ الناسَ بعصاهُ رجلٌ من قَحْطانَ**» [البخاري (٣٥١٧)، مسلم (٢٩١٠)].

١٠٠١ ـ وقال: «**خَيرُكم قَرْني، ثم الذين يلُونَهم، ثم الذين يلُونهم، ثم يأتي بَعْد ذلك قومٌ يشهَدُون ولا يُستَشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، ويَنْذِرون ولا يُوفُون ويظهر فيهم السِّمَنُ**» [البخاري (٢٦٥١)، مسلم (٢٥٣٥)].

١٠٠٢ ـ وقال: «**لا يأتي زمانٌ إلاّ والذي بعده شَرٌّ منه**» [البخاري (٧٠٦٨)].

١٠٠٣ ـ وقال: «**هلاكُ أمتِي على يَدي أُغَيلِمَةٍ من قُريش**». قال أبو هريرة راوِيه: لو شئتُ سمّيتُهم لكم: بنُو فلان، وبنو فلان [البخاري (٣٦٠٥)، مسلم (٢٩١٧)].

١٠٠٤ ـ وأخبر بِظُهورِ القَدَرِية [أبو داود (٤٦١٣)، أحمد (٢/٩٠)].

١٠٠٥ ـ والرافِضَة.

١٠٠٦ ـ وسَبِّ آخِر هذه الأمةِ أوَّلَها [الترمذي (٢٢١٠، ٢٢١١)].

١٠٠٧ ـ وقلّةِ الأنصار حتى يكونوا كالمِلْحِ في الطعام [البخاري (٣٨٠٠)]، فلم يَزَلْ أمْرُهم يتبدَّدُ حتى لم يَبْقَ لهم جماعةٌ.

١٠٠٨ ـ وأنهم سيلْقَوْن بعده أَثَرَةً [البخاري (٣١٤٧)، مسلم (١٠٥٩)].

١٠٠٩ ـ وأخبر بشأن الخَوارجِ وصِفتهم، والمُخدَجِ الذي فيهم، وأنَّ سِيمَاهُمُ التَّحليق.

١٠١٠ ـ ويُرَى رِعاءُ الغنم رؤوسَ الناس، والعراةُ الحُفاةُ يتبارَوْن في البُنْيان. وأَنْ تلِدَ الأَمَةُ رَبَّتها [البخاري (٥٠)، مسلم (٩، ١٠)].

١٠١١ ـ وأَنّ قريشاً والأحزاب لا يَغْزُونَه أبداً، وأنه هو يغزوهم [البخاري (٤١١٠)].

١٠١٢ ـ وأخبر بالمُوتان الذي يكونُ بعد فَتْحِ بيت المقدس [البخاري (٣١٧٦)].

١٠١٣ ـ وما وعَد من سُكْنَى البَصْرة [أبو داود (٤٣٠٧)].

١٠١٤ ـ وأنهم يَغْزُونَ في البحر كالملوكِ على الأَسِرَّةِ [البخاري (٢٨٠٠)، مسلم (١٩١٢)].

١٠١٥ ـ وأن الدِّين لو كان مَنُوطاً بالثريّا لنالَهُ رجَالٌ من أبناء فارِس [البخاري (٤٨٩٧)، مسلم (٢٥٤٦)].

١٠١٦ ـ وهاجَت ريح في غَزَاته فقال: **«هاجَتْ لموتِ منافقٍ»** [مسلم (٢٧٨٢)]، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك.

١٠١٧ ـ وقال لقومٍ من جلسائه: **«ضِرْسُ أحدِكم في النار أعظمُ من أُحُد»**.
قال أبو هريرة: فذهب القومُ ـ يعني: ماتوا ـ وبقيتُ أنا ورجلٌ، فقُتِل مرتَدّاً يوم اليمامة.

١٠١٨ ـ وأعْلَم بالذي غَلَّ خَرَزاً من خَرَزِ يَهُودَ، فَوُجِدَتْ في رَحْله [أبو داود (٢٧١٠)، النسائي (٦٤/٤)، ابن ماجه (٢٨٤٨)].

١٠١٩ ـ وبالذي غَلَّ الشَّمْلَةَ، وحيثُ هي [البخاري (٤٢٣٤)، مسلم (١١٥)].

١٠٢٠ ـ وناقتهُ حين ضلَّتْ، وكيف تعلَّقت بالشجرة بخِطَامها.

١٠٢١ ـ وبشأنِ كتاب حَاطِبٍ إلى أهل مكة [البخاري (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤)].

١٠٢٢ ـ وبقضيَّة عُمَيْرٍ مع صَفْوَانَ حين سارَّه وشارَطه على قَتْل النبيِّ ﷺ. فلما جاء عُميرٌ للنبيّ ﷺ قاصداً لقَتْلِه، وأَطْلَعَهُ رسول الله ﷺ على الأمر والسرّ أسلم.

١٠٢٣ ـ وأخبر بالمالِ الذي تركه عمُّه العباسُ رضي الله عنه عند أم الفَضْل بعد أن كتمه، فقال: ما عَلِمَه غيري وغيرُها، فأسلم [أحمد (٣٥٣/١)].

١٠٢٤ ـ وأعلم بأنه سيَقْتُل أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ.

١٠٢٥ ـ وفي عُتبة بن أبي لهب أنه يأكله كلب من كلاب الله.

١٠٢٦ ـ وعن مَصَارِع أهلِ بَدْر، فكان كما قال [مسلم (١٧٧٩)].

١٠٢٧ ـ وقال في الحَسنِ: **«إن ابني هذا سيدٌ، وسيُصْلحُ اللَّهُ به بين فئتَين عظيمتين من المسلمين»** [البخاري (٢٧٠٤)].

١٠٢٨ ـ ولسَعْدٍ: **«لعلَّك تُخلَّفُ حتى ينتفعَ بكَ أقوام ويستضرَّ بك آخرون»** [البخاري (٤٤٠٩)، مسلم (١٦٢٨)].

١٠٢٩ ـ وأخبر بقَتْلِ أهل مُؤْتة يوم قُتِلُوا وبينهم مسيرةُ شهرٍ أو أزيدُ [البخاري (١٢٤٦)].

١٠٣٠ ـ وبموت النجاشيّ يوم مات وهو بأرضه [البخاري (١٢٤٥)، مسلم (٩٥١)].

١٠٣١ ـ وأخبر فَيْرُوزَ إذ ورد عليه رَسُولاً من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم، فلما حقّق فيروزُ القصةَ أَسلم.

١٠٣٢ ـ وأخبر أبا ذرّ رضي الله عنه بِتَطْرِيدِه كما كان، ووجده في المسجد

نائماً، فقال له: «كيف بكَ إذا أُخرِجْتَ منه؟» قال: أسكُن المسجدَ الحرام. قال: «فإذا أُخرِجْتَ منه. . .» الحديث.

١٠٣٣ ـ وبعَيْشِه وَحْدَه، ومَوْته وحْدَه.

١٠٣٤ ـ وأخبر أَنَّ أَسرعَ أَزواجه به لحوقاً أَطولُهنَّ يداً [البخاري (١٤٢٠)، مسلم (٢٤٥٢)]، فكانت زينب لطُول يدها بالصدقة.

١٠٣٥ ـ وأخبر بقَتْل الحُسَين بالطَّفِّ، وأخرج بيده تُرْبةً، وقال: «فيها مَضْجَعُهُ».

١٠٣٦ ـ وقال في زيد بن صُوحَان: «يسبقُه عُضْوٌ منه إلى الجنة» فقُطعت يَدُه في الجهاد.

١٠٣٧ ـ وقال في الذين كانُوا معه على حِرَاء: «اثْبُتْ، فإنما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيد»، فقُتِل عليٌّ، وعُمَرُ، وعثمانُ، وطلحةُ، والزُّبيرُ، وطُعِن سعدٌ.

١٠٣٨ ـ وقال لسُرَاقَةَ: «كيف بكَ إذا أُلبستَ سُوَارَيْ كِسْرى؟» فلما أُتِيَ بهما عُمَرُ ألبسهما إياه، وقال: الحمدُ للّهِ الذي سلبهما كسرى وألبسهما سُراقةَ.

١٠٣٩ ـ وقال: «تُبْنَى مدينةٌ بين دِجْلَة ودُجَيل وقُطْرَبُل والصَّراةِ تُجْبَىٰ إليها خزائنُ الأَرْضِ، يُخْسَف بها»، يعني بغداد.

١٠٤٠ ـ وقال: «سيكونُ في هذه الأمة رَجلٌ يقال له: الوليدُ، هو شَرٌّ لهذه الأمة من فرعونَ لقومه» [أحمد (١/١٨)].

١٠٤١ ـ وقال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَقْتَتِلَ فئتان دَعْواهما واحدةٌ» [البخاري (٣٦٠٨)، مسلم (١٧/١٥٧)].

١٠٤٢ ـ وقال لعُمَر في سُهَيْل بْنِ عَمْرِو: «عسى أَنْ يقُومَ مقاماً يسُرُّكَ يا عُمرُ!» فكان كذلك، قام بمكّة مقامَ أبي بكر يوم بلغَهم مَوْتُ النبيِّ ﷺ، وخطب بنحو خُطْبَته، وثبَّتَهم وقوَّى بصائرهم.

١٠٤٣ ـ وقال لخالد حين وجَّهه لأُكَيْدِر: «إنك تجدُه يَصِيدُ البقَرَ» فوُجِدت هذه الأمورُ كلُّها في حياته، وبعد موته، كما قال عليه السلام.

إلى ما أخبر به جُلساءَه من أسرارهم وبَوَاطنهم، واطّلَع عليه من أسرار المنافقين وكُفرهم، وقولهم فيه وفي المؤمنين، حتى إنْ كان بعضهم ليقولُ لصاحبه: اسكُتْ، فوالله! لو لم يكُنْ عنده مَنْ يُخْبِرُهُ لأَخْبَرَتْهُ حجارةُ البَطْحاء.

١٠٤٤ ـ وإعلامُه بصفة السّحر الذي سَحره به لَبِيدُ بن الأَعْصَم، وكونه في

مِشْطٍ ومُشَاقةٍ، في جُفِّ طَلْعِ نخلةٍ ذَكَرٍ، وأنه أُلقِيَ في بئر ذَرْوَانَ، فكان كما قال، ووُجِد على تلك الصِّفَة.

١٠٤٥ ـ وإعلامُه قُريشاً بأكل الأَرَضَةِ ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها على بني هاشم، وقطعوا بها رَحِمَهُم، وأنها أبْقَتْ فيها كلَّ اسْمٍ لِلّهِ، فوجدوها كما قال.

١٠٤٦ ـ ووصفُه لكفارِ قريش بيتَ المقدس حين كَذَّبوه في خَبرِ الإسراء، ونَعْتُهُ إياه نَعْتَ مَنْ عرفَهُ.

١٠٤٧ ـ وإعلامُهم بِعِيرهم التي مَرَّ عليها في طريقه، وإنذارُهم بوقْتِ وصولها، فكان كلُّه كما قال ﷺ.

إلى ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولَمْ يَأْتِ بعدُ، منها ما ظهرَتْ مُقَدِّماتها.

١٠٤٨ ـ كقوله: **«عُمْرَانُ بيت المقدس خَرَابُ يَثْرب، وخَرابُ يَثْرِب خروجُ المَلْحمة، وخروجُ الملحمة فتْحُ القُسْطنطينية»** [أبو داود (٤٢٩٤)، أحمد (٥/٢٣٢)].

ومِنْ أشراط الساعة وآياتِ حلولِها، وذِكْرِ النَّشْرِ والحَشْرِ، وأخبارِ الأبرار والفجَّار، والجنةِ والنار، وعَرَصات القيامة.

وبحَسْب هذا الفصل أن يكون ديواناً مُفْرَداً يشتملُ على أجزاء وحْدَهُ، وفيما أشَرْنا إليه من نُكت الأحاديث التي ذكرناها كفايةٌ، وأكثرُها في الصحيح، وعند الأئمة.

فصل
فِي عِصْمَةِ اللّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّاسِ وَكِفَايَتِهِ مَنْ آذَاهُ

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

قيل: بكاف محمداً ﷺ أعداءَه المشركين. وقيل غَيْر هذا.

وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: ٩٥].

وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

١٠٤٩ ـ أخبرنا القاضي الشهيدُ أبو عليّ الصَّدَفي بقراءتي عليه، والفقيهُ الحافظ أبو بكر: محمد بن عبدالله المَعَافِرِيّ، قالا: حدثنا أبو الحُسين الصَّيْرفي، قال: حدثنا أبو يَعْلَى البَغْدَادي، حدثنا أبو عليّ السِّنْجيُّ، حدثنا أبو العباس المَرْوزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا عَبْد بن حُميد، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبيد، عن سَعِيد الجُرَيْري، عن عَبْدالله بن شَقِيق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. فأخرج رسولُ الله ﷺ رَأْسَه من القُبَّة، فقال لهم: **«يا أيُّها النَّاسُ! انْصَرِفُوا، فقد عَصَمَنِي رَبِّي عزَّ وجلَّ»** [الترمذي (٣٠٤٦)].

١٠٥٠ ـ ورُوي أن النبيَّ ﷺ كان إذا نزل مَنْزلاً اختار له أصحابُه شجرةً يَقِيلُ تحتها، فأَتَاهُ أعرابيٌّ فاخترط سَيْفَه ثم قال: مَنْ يمنَعُك منّي؟ فقال: **«اللَّهُ عزَّ وجل»** فأرعِدَتْ يَدُ الأعرابيّ، وسقط سيفُه، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دِماغُه، فنزلت الآية.

١٠٥١ ـ وقد رُويت هذه القصةُ في الصحيح، وأنْ غُورثَ بن الحارث صاحبُ هذه القصة، وأنّ النبيَّ ﷺ عَفا عنه، فرجع إلى قومه، وقال: جِئتكم من عند خَيْرِ الناس [البخاري (٤١٣٥، ٤١٣٦)، مسلم (٨٤٣)].

١٠٥٢ ـ وقد حُكِيت مِثْلُ هذه الحكاية، وأنها جرت له يوم بَدْرٍ، وقد انفرد من أصحابه لقضاءِ حاجتِه، فتبعه رجلٌ من المنافقين. . . وذكر مِثْلَه.

١٠٥٣ ـ وقد رُوِيَ أنه وَقَعَ له مِثْلُها في غزوة غَطَفان بِذِي أَمَرّ، مع رجل اسمه دُعْثُور بن الحارث، وأن الرجلَ أَسْلَمَ، فلما رجع إلى قومه الذين أَغْرَوْهُ ـ وكان سيِّدَهم وأشجعَهُم ـ قالوا له: أين ما كُنتَ تقولُ، وقد أمكنك؟ فقال: إنّي نظرتُ إلى رجل أبيضَ طويلٍ دَفَع في صَدْري، فوقعتُ لظَهْرِي، وسقط السيفُ من يدي، فعَرفتُ أنه مَلَك، وأسلمتُ.

قيل: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

١٠٥٤ ـ وفي رواية الخطَّابي أَنَّ غُورثَ بن الحارث المُحَاربي أراد أَنْ يَفْتِكَ بالنبيّ ﷺ، فلم يَشْعُر به إلاّ وهو قائم على رَأسِه مُنْتَضِياً سيفَه، فقال: **«اللَّهُمَّ! اكْفِنِيه بما شئتَ»**، فانكبَّ مِنْ وَجْهه من زُلَّخَةٍ زُلِّخَها بين كتفيه، ونَدَر سيفُه من يده. الزُّلَّخَةُ: وجع الظَّهْرِ.

وقيل في قصته غيرُ هذا، وذُكِر أنَّ فيه نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

١٠٥٥ ـ وقيل: كان رسول الله ﷺ يخافُ قريشاً، فلما نزلت هذه الآيةُ استلْقى، ثم قال: «مَنْ شاءَ فليَخذُلْني».

١٠٥٦ ـ وذكر عَبْدُ بن حُميد، قال: كانت حَمَّالَةُ الحطَب تضَعُ العِضاهَ ـ وهي جَمْرٌ ـ على طريق رسول الله ﷺ فكأنما يَطؤُها كَثِيباً أَهْيَلَ.

١٠٥٧ ـ وذكر ابن إسحاق عنها أنها لمَّا بلغَها نزولُ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١]، وذِكْرُها بما ذَكَرها اللَّهُ مع زَوْجها من الذم، أَتَتْ رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يَدِها فِهْرٌ من حجارة.

فلما وَقَفَتْ عليهما لم تَرَ إلا أبا بَكر، وأخذ اللَّهُ تعالى بِبَصَرِها عن نبيه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر! أين صاحِبُك؟ فقد بلغني أنه يَهْجُوني، والله! لو وجدتُه لضربتُ بهذا الفِهْرِ فاهُ.

١٠٥٨ ـ وعن الحَكَم بن أبي العاص: تواعَدْنا على النبيِّ ﷺ حتى إذا رأيناه سمعنا صوتاً خَلْفَنا ما ظَنَنَّا أنه بَقِي بِتِهامَة أحدٌ، فوقَعْنا مَغْشِيّاً علينا، فما أفَقْنا حتى قضى صلاتَه ورجع إلى أَهْلِهِ.

ثم تواعَدْنا ليلةً أخرى، فجئْنا حتى إذا رأيناه جاءت الصَّفَا والمَرْوَةُ، فحالت بيننا وبينه.

١٠٥٩ ـ وعن عُمر رضيَ اللَّهُ عنه: تواعَدْتُ أنا وأبو جَهْم بن حُذَيفة لَيلة قَتْلَ رسول الله ﷺ، فجئْنا منزلَه، فتَسَمَّعْنا له فافتتح وقرأ الفاتحة، وقرأ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ١ ـ ٨].

فضرب أبو جَهْم على عَضُد عُمر، وقال: انْجُ، وفرَّا هاربَيْنِ، فكانت من مقدِّمات إسلام عُمر رضي الله عنه [أحمد (١٧/١)].

١٠٦٠ ـ ومنه العِبْرَةُ المشهورة، والكفاية التامة عندما أخافته قُريش، وأجمعت على قَتْله وبيَتُوه، فخرج عليهم من بيته، فقام على رؤوسهم، وقد

ضرب الله تعالى على أبصارهم، وذَرَّ الترابَ على رؤوسهم، وخلص منهم.

١٠٦١ ـ وحِمايتُه عن رؤيتهم في الغار بما هيّأ اللّهُ له من الآيات، ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قال أُميّةُ بن خَلَف ـ حين قالوا: ندخُل الغار ـ: ما أَرَبُكم فيه، وعليه من نَسْج العنكبوت ما أُرى أنه من قَبْل أَنْ يولَد محمد؟

وَوَقَفَت حَمامتان على فمِ الغارِ، فقالت قريش: لو كان فيه أَحدٌ لما كانت هناك الحَمَام.

١٠٦٢ ـ وقصته مع سُراقَة بنِ مالك بن جُعْشُم حين الهجرة، وقد جعلت قُريش فيه وفي أبي بكر الجَعَائلَ، فأُنذِر به، فركب فرسَه واتّبعه حتى إذا قرب منه دعا عليه النبيُّ ﷺ، فساخت قوائمُ فَرَسِه، فخرّ عنها، واسْتَقْسَمَ بالأزلامِ، فخرج له ما يكره.

ثم ركب ودَنَا حتى سمع قراءةَ النبيّ ﷺ، وهو لا يلتفتُ، وأبو بكر رضي الله عنه يلتفتُ فقال للنبي ﷺ: أُتينا. فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فساخت ثانيةً إلى رُكْبتها، وخرَّ عنها، فزجرها فنهضَتْ ولقوائمها مِثْلُ الدُّخَانِ، فناداهم بالأَمان، فكتب له النبيُّ ﷺ أماناً، كتبه ابن فُهَيرة، وقيل: أبو بكر، وأخبرهم بالأخبار، وأمره النبيُّ ﷺ ألا يتركَ أحداً يلحقُ بهم.

فانصرف يقولُ للناس: كُفِيتُم ما ها هنا.

وقيل: بل قال لهما: أَرَاكُما دعوتما عليّ، فادْعُوَا لي [البخاري (٣٩٠٦، ٣٩٠٨)، مسلم (٢٠٠٩/٧٥)].

فنجا، ووقع في نَفْسه ظُهورُ النبيِّ ﷺ.

١٠٦٢م ـ وفي خبر آخر: أَنَّ راعياً عرفَ خَبرَهما، فخرج يشتَدُّ، يُعلِمُ قريشاً، فلما ورد علىٰ مكةَ ضُرِب على قَلْبِه، فما يَدْرِي ما يَصْنع، وأُنسِيَ ما خرج له، حتى رجع إلى موضعه.

١٠٦٣ ـ وجاءه ـ فيما ذكر ابنُ إسحاقَ وغَيْرُهُ ـ أبو جهل، بِصَخْرةٍ وهو ساجدٌ، وقريش ينظرون، ليَطْرَحَها عليه، فلزِقَتْ بيده، ويَبِسَتْ يداهُ إلى عُنقه، وأقبل يرجع القَهقَرى إلى خَلْفِهِ، ثم سأله أَنْ يدعُوَ له، ففعل، فانطلقت يَدَاه، وكان قد تواعد مع قُريش بذلك، وحلف لئن رآهُ ليَدْمَغَنَّه، فسألوه عن شأنه؟ فذكر أنه عَرَض لي دونه فَحْلٌ، ما رأيتُ مِثْلَه قطُّ، همَّ بي أن يأكلني.

فقال النبيُّ ﷺ: **«ذاكَ جبْريلُ، لو دَنَا لأَخَذَه»** [البخاري (٤٩٥٨)].

١٠٦٤ ـ وذكر السَّمَرْقَنْدي أَنَّ رجلاً من بني المُغيرة أتى النبيَّ ﷺ لِيَقْتُلَه،

فطمسَ اللّهُ على بَصَرِه، فلم يرَ النبيَّ ﷺ، وسمعَ قولَه، فرجع إلى أصحابه ولم يَرهم حتى نادَوْهُ.

وذكر أنَّ في هاتين القصتين، نزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ٨، ٩].

١٠٦٥ ـ ومن ذلك ما ذكره ابنُ إسحاق، وغيره في قِصَّته، إذْ خرج إلى بني قُريظَة، في أصحابه، فجلس إلى جِدار بَعْضِ آطامِهم، فانبعث عَمْرُو بن جِحَاشِ أحدُهم ليَطرحَ عليه رَحىً، فقام النبيُّ ﷺ فانصرفَ إلى المدينة وأعلمهم بقِصَّتِهم.

وقد قيل إنَّ قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١]. في هذه القصة نزلت.

١٠٦٦ ـ وحكى السَّمَرقَنْدِي أنه خرج إلى بني النَّضِير يستعينُ في عَقْل الكِلاَبِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قتلهما عَمْرُو بن أمية، فقال له حُيَيُّ بن أَخْطَب: اجلس، يا أبا القاسم! حتى نُطْعِمَك ونُعْطِيك ما سألْتنا.

فجلس النبيُّ ﷺ مع أبي بكر وعُمر رضي الله عنهما وتَوامرَ حُيَيٌّ معهم على قَتْلِه، فأعلم جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ بذلك، فقام كأنه يريدُ حاجته حتى دخل المدينة.

١٠٦٧ ـ وذكر أهلُ التفسير والحديث، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن أبا جَهْل وعَد قُريشاً لئن رأى محمداً يصلّي ليَطأنَّ رقَبَته.

فلما صلّى النبيُّ ﷺ أعلَمُوه، فأقبل، فلما قَرُب منه وَلى هارباً ناكصاً على عَقِبِيهِ، متَّقِياً بيدَيْه، فسئل، فقال: لما دنَوْتُ منه أشرَفْتُ على خَنْدق مملوءٍ ناراً كِدْتُ أَهْوِي فيه، وأبصرتُ هَوْلاً عظيماً، وخَفْقَ أجنحةٍ قد ملأت الأرضَ.

فقال ﷺ: **«تلك الملائكةُ، لو دَنَا لاختطفَتْهُ عُضواً عُضواً»**.

ثم أُنزل على النبي ﷺ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ٦ـ ١٩] [مسلم (٢٧٩٧)].

١٠٦٨ ـ ويروى أنَّ رجلاً يعرف بـ: شَيْبَةَ بن عثمان الحَجَبيّ أدركه يوم حُنَيْن، وكان حمزةُ قد قَتَل أباه وَعمّه، فقال: اليومَ أُدركُ ثأري من مُحمد.

فلما اختلط الناسُ أتاهُ من خَلْفِه، ورفع سيفَهُ ليَصُبَّه عليه، قال: فلما دنوتُ منه ارتفع إليّ شُواظٌ من نارٍ أسرعُ من البرقِ، فولّيتُ هارباً، وأحَسّ بي النبيُّ ﷺ فدعَاني، فوضع يدَهُ على صَدْري، وهو أبغضُ الخَلْق إليّ، فما رفعها إلاّ وهو أحبُّ الخَلْقِ إليّ، وقال لي: «**ادْنُ فقاتِلْ**» فتقدمتُ أمامَه أضربُ بسيفي وأقيه بنفسي، ولو لقيتُ أبي تلكَ الساعةَ لأوقعتُ به دونه.

١٠٦٩ ـ وعن فَضالةَ بن عَمْرو: أردتُ قتْلَ النبيّ ﷺ عامَ الفتح، وهو يطوفُ بالبيت، فلما دنوتُ منه قال: «**يا فَضَالة!**» قلتُ: نعم. قال: «**ما كنتَ تحدِّثُ به نَفْسَك؟**» قلتُ: لا شيءَ، فَضحِكَ واستغْفَر لي، ووضعَ يدهُ على صدري، فسكن قلبي. فوالله! ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أحبَّ إليّ منه.

١٠٧٠ ـ ومن مشهورِ ذلك خَبَرُ عامر بن الطُّفيل، وأرْبَدِ بن قيس ـ حين وفَدا على النبيّ ﷺ ـ، وكان عامرٌ قال له: أنا أشغَلُ عنك وَجْه محمد فاضربه أنت. فلم يَرَهُ فعل شيئاً، فلما كلَّمه في ذلك، قال له: واللّهِ! ما هَمَمْتُ أنْ أضربَه إلا وجدتُك بيني وبينه، أفأَضْرِبكَ؟

ومن عصمته له تعالى أن كثيراً من اليهود والكَهَنة، أنْذَروا به، وعَيّنوه لقُريش، وأخبروهم بِسَطْوَتِهِ بهم، وحضُّوهم على قَتْله، فَعَصَمَهُ اللّهُ تعالى حتى بلغ فيه أمْرَه.

١٠٧١ ـ ومن ذلك نَصْرُه بالرُّعْب أمامَهُ مَسيرةَ شَهْر، كما قال عليه السلام [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

فصل
فِي مُعْجِزَاتِهِ ﷺ
فِيمَا جَمَعَ اللّهُ لَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلومِ

ومن معجزاته الباهرة ما جَمعه اللّهُ له من المعارف والعلوم، وخصّه به من الاطّلاع على جميع مصالح الدُّنيا والدِّين، ومعرفَتهُ أُمور شرائعه، وقوانين دينه، وسياسةِ عِبادِه، ومصالحِ أمته، وما كان في الأمم قَبْلَه، وقِصصِ الأنبياءِ والرُّسُلِ والجبابرة والقرون الماضية من لَدُنْ آدم إلى زمَنِه، وحِفْظ شرائعهم وكتبهم، ووَعْي سِيَرهم، وسَرْدِ أنبائهم، وأيام اللّهِ فيهم، وصفاتِ أعيانِهم، واختلافِ آرائهم،

والمعرفةِ بمُدَدِهم وأعمارهم، وحِكَم حُكمائهم، ومُحاجَّةِ كلّ أُمَّةٍ من الكَفَرة، ومُعَارضة كلّ فِرْقة من الكِتَابيِّين بما في كُتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومُخبَّآت علومِها، وإخبارهم بما كتَمُوه من ذلك وغيَّرُوه.

إلى الاحتواء على لغات العَرب، وغريب ألفاظِ فِرَقِها، والإحاطةِ بضروب فَصَاحتها، والحِفْظِ لأَيَّامِها وأمثالها، وحِكَمها ومعاني أشعارها، والتخصيص بجَوامع كَلِمِها إلى المعرفة بضَرْب الأمثالِ الصحيحة، والحِكَم البيّنة لتَقْريب التفهيم للغامض، والتَبْيين للمُشكل، إلى تَمْهيد قواعِد الشَّرْع الذي لا تناقُضَ فيه ولا تَخاذُلَ، مع اشْتِمال شَريعته على محاسِن الأخلاق، ومَحَامِدِ الآداب، وكلُّ شيءٍ مُسْتَحْسن مُفَضَّل، لم يُنْكِر منه مُلْحِدٌ ذُو عَقْل سليم شيئاً إلاَّ مِنْ جهة الخِذْلاَن.

بل كلُّ جاحدٍ له، وكافرٍ من الجاهلية به إذا سَمِع ما يَدْعُو إليه صَوَّبه، واستحسنه دونَ طلبِ إقامةِ بُرْهانٍ عليه.

ثم ما أَحلَّ لهم من الطَّيِّبات، وحرّمَ عليهم من الخبائث، وصانَ به أنفُسَهم وأعراضَهم وأموالَهم من المُعاقَبَاتِ والحدودِ عاجلاً، والتخويفِ بالنار آجلاً مما لا يعلم علمه، ولا يقوم به، إلاَّ من مارس الدرسَ، والعكوف على الكتب، ومُثَافَنَة بعض هذا.

إلى الاحتواءِ على ضُروب العلوم، وفُنونِ المعارفِ، كالطب، والعِبَارة، والفرائض، والحِسَاب، والنَّسَب، وغير ذلك من العلوم مِمَّا اتخذَ أهلُ هذه المعارفِ كلامَه ﷺ فيها قُدْوةً وأصولاً في عِلْمِهم.

١٠٧٢ ـ كقوله: **«الرُّؤيَا لأوَّلِ عَابِرٍ»** [ابن ماجه (٣٩١٥)].

١٠٧٣ ـ وهي **«على رِجْلِ طائرٍ»** [أبو داود (٥٠٢٠)، الترمذي (٢٢٧٨)، ابن ماجه (٣٩١٤)].

١٠٧٤ ـ وقوله: **«الرؤيا ثلاث: رُؤْيا حقٌّ، ورُؤْيا يحدِّثُ بها الرجلُ نَفْسَه، ورؤيا تَخزِينٌ من الشيطان»** [مسلم (٢٢٦٣)، البخاري (٧٠١٧)].

١٠٧٥ ـ وقوله: **«إذا تقارب الزمانُ لم تَكَدْ رُؤيَا المؤمن تَكْذِب»** [البخاري (٧٠١٧)، مسلم (٢٢٦٣)].

١٠٧٦ ـ وقوله: **«أَصْلُ كلُّ داءٍ البَرْدَةُ»**.

١٠٧٧ ـ وما رُوِي عنه في حديث أَبي هريرة رضي الله عنه من قوله: **«المَعِدَةُ حَوْضُ البَدن، والعروقُ إليها وارِدَةٌ»**، وإن كان هذا حديثاً لا نصَحِّحُه لضعفه وكَونِه موضوعاً تكلّم عليه الدارَقُطْني.

١٠٧٨ ـ وقوله: «خَيرُ ما تداوَيتُم به السَّعُوطُ، واللَّدُودُ، والحِجَامةُ، والمَشِيُّ» [الترمذي (٢٠٤٧، ٢٠٤٨، ٢٠٥٣)].

١٠٧٩ ـ و «خَيرُ الحِجَامةِ يوم سَبْعَ عَشرَةَ، وتِسْعَ عَشرَةَ، وإحدى وعشرينَ» [الترمذي (٢٠٥٣)].

١٠٨٠ ـ «وفي العُودِ الهِندِي سبعةُ أَشفِيَةٍ» [البخاري (٥٧١٣)، مسلم (٢٢١٤)].

١٠٨١ ـ وقوله: «ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شرّاً من بَطنٍ، فإن كان لا بُدّ، فثلثٌ للطعام، وثُلثٌ للشراب، وثلثٌ للنَّفَس».

١٠٨٢ ـ وقوله ـ وقد سُئل عن سبأ ـ أَرَجُلٌ هو أم امرأةٌ، أم أرضٌ؟ فقال: «رجلٌ، وَلَد عَشَرَةً: تَيامَنَ منهم ستةٌ، وَتَشَاءَمَ أربعةٌ...» [الترمذي (٣٢٢٢)، أبو داود (٣٩٨٨)] الحديث بطوله.

١٠٨٣ ـ وكذلك جوابه في نَسب قُضَاعةَ [أحمد (١٥٦٧)]، وغير ذلك مما اضطرت العربُ على شُغْلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه من ذلك.

١٠٨٤ ـ وقوله: «حِمْيَر رأسُ العَرب ونابُها، ومَذْحِج هامَتُها وغَلْصَمَتها. والأَزْد كاهِلُها وجُمْجُمتها، وهَمْدانُ غارِبُها وذُرْوَتُها».

١٠٨٥ ـ وقوله: «إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئتهِ يومَ خَلقَ اللَّهُ السمواتِ والأَرضَ» [البخاري (٣١٩٧)، مسلم (١٦٧٩)].

١٠٨٦ ـ وقوله في الحوض: «زَوَاياهُ سَوَاء».

١٠٨٧ ـ وقوله ـ في حديث الذِّكر ـ: «وإنَّ الحسنةَ بعشر أَمثالها فتلك مِئةٌ وخمسون على اللسان، وألفٌ وخمسُ مئةٍ في الميزان» [أبو داود (٥٠٦٥)، الترمذي (٣٤١٠)، النسائي (٣/٧٤)، ابن ماجه (٩٢٦)].

١٠٨٨ ـ وقوله وهو بموضعٍ: «نِعْمَ موضِعُ الحمَّام هذا».

١٠٨٩ ـ وقوله: «ما بين المشرق والمغرب قِبْلَةٌ» [الترمذي (٣٤٤)، ابن ماجه (١٠١١)].

١٠٩٠ ـ وَقوله لعُيَيْنَةَ، أو الأَقْرَع: «أنا أفرسُ بالخَيل مِنك» [أحمد (٤/٣٨٧)].

١٠٩١ ـ وقوله لكاتبه: «ضعِ القَلمَ على أُذُنك، فإنه أَذْكَرُ للمُمِلِّ» [الترمذي (٢٧١٤)].

هذا مع أنه ﷺ كان لا يكتب، ولكنه أُوتي عِلْمَ كلِّ شيءٍ، حتى قد وردَتْ آثارٌ بمعرفته حروفَ الخطِّ وحُسْنَ تصويرها.

١٠٩٢ ـ كقوله: «لا تمدُّوا بسم الله الرحمن الرحيم» رواه ابنُ شَعْبان من طريق ابن عباس.

١٠٩٣ ـ وقوله في الحديث الآخر ـ الذي يُرْوَى عن مُعَاوية ـ أنه كان يكتُب بين يديه عليه السلام فقال له: «أَلِقِ الدَّوَاةَ، وحَرِّف القَلَم، وأَقِم الباءَ، وفَرِّقِ السينَ، ولا تُعَوِّر الميمَ، وحَسِّن اللَّهَ، ومُدَّ الرحمن، وجَوِّد الرحيم».

وهذا، وإنْ لم تصحّ الروايةُ أنه عليه السلام كَتَب فلا يبعد أن يُرزق عِلْمَ هذا ويُمْنَع الكتابة والقراءة.

وأمّا عِلْمُه عليه السلام بلغاتِ العربِ، وحِفظُه معانِي أشعارها، فأمْرٌ مشهورٌ، قد نبَّهْنا على بعضه أول الكتاب.

وكذلك حفظُه لكثيرٍ من لغاتِ الأمم.

١٠٩٤ ـ كقوله في الحديث: «سَنَهْ، سَنَهْ» [البخاري (٣٨٧٤)] وهي حسَنَةٌ بالحبشيَّة.

١٠٩٥ ـ وقوله: «ويكثر الهَرْجُ» وهو القَتْل بها.

١٠٩٦ ـ وقوله ـ في حديث أبي هريرة ـ: «أشكَنْب دَرْدَمْ؟» [ابن ماجه (٣٤٥٨)] أي وَجَعُ البَطْن بالفارسية.

إلى غير ذلك مما لا يعلمُ بَعْضَ هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا مَنْ مارس الدَّرْسَ والعُكوف على الكُتبِ ومُثَافَنَةَ أهلها عُمُرَه.

وهو رجلٌ ـ كما قال الله تعالى ـ أُمّيّ، لم يكتب ولم يقرأ، ولا عُرِف بصُحْبة مَنْ هذه صِفَتُه، ولا نشأ بين قَوْمٍ لهم عِلْمٌ ولا قراءةٌ لشيءٍ من هذه الأمور، ولا عُرِف هو قبلُ بشيءٍ منها، قالَ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إنما كانت غايةُ معارفِ العربِ النسبَ وأخبارَ أوائلها، والشعرَ، والبيانَ، وإنما حصل ذلكَ لهم بعد التفرُّغِ لعِلْمِ ذلكَ، والاشتغالِ بطلبِه، ومباحثة أهلِه عنه.

وهذا الفنُّ نُقْطةٌ من بَحْرِ عِلْمِه ﷺ.

ولا سبيل إلى جحد المُلحِد لشيءٍ مما ذكرناه، ولا وجدَ الكفرةُ حِيلةً في دفْع ما نصَصْناهُ إلاّ قولَهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] و ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فردّ اللَّهُ قولَهم بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثم ما قالوه مكابرة العِيَان، فإنّ الذي نسبُوا تعليمَه إليه إمّا سَلْمان الفارسيّ،

أو العبد الرُّومي، وسَلْمان إنما عرفه بعد الهِجْرَة، ونزولِ الكثير من القرآن، وظهورِ ما لا يَنْعَدُّ من الآيات.

وأما الرُّوميّ فكان أَسلم وكان يقرأُ على النبي ﷺ، واختُلف في اسمه.

وقيل: بل كان النبيُّ ﷺ يجلسُ عنده عند المَرْوة، وكلاهما أعجميُّ اللسان، وهم الفصحاءُ اللُّدُّ، والخطباءُ اللُّسْنُ، قد عجزوا عن مُعارضةِ ما أَتى به، والإِتْيانِ بمثله بل عن فَهْم رَصْفِهِ، وصُورَة تأليفه ونَظْمه، فكيف بأعجميّ أَلْكَنَ!.

نَعَمْ، وقد كان سَلْمانُ، أو بَلْعَامُ الروميُّ، أَوْ يَعِيش، أَو جَبْر، أو يَسار ـ على اختلافهم في اسمه ـ بين أَظْهُرهم يكلِّمونهم مَدَى أعمارهم، فهل حُكِيَ عن واحدٍ منهم شيء مِنْ مِثْل ما كان يجيءُ به محمدٌ عليه السلام؟ وهل عُرِف واحدٌ منهم بمعرفة شيء من ذلك؟ وما منع العدوّ حينئذٍ ـ على كَثْرة عددِه ودُؤُوب طلبه، وقوةِ حَسَدِه ـ أن يجلسَ إلى هذا فيأخذ عنه أيضاً ما يُعارضُ به، ويتعلَّمُ منه ما يَحْتَجُّ به على شيعتِهِ كفِعْل النَّضْر بن الحارث بما كان يُمَخْرِق به من أخبار كُتبه؟

ولا غاب النبيُّ ﷺ عن قَوْمِه، ولا كثُرت اختلافاتُه إلى بلاد أَهل الكتاب، فيُقال له: استمدَّ منهم، بل لم يَزَلْ بين أَظْهُرهم يَرْعَى في صِغَرِه وشَبَابه، على عادةِ أبنائهم، ثم لم يخرج عن بِلادِهم إلا في سَفْرَةٍ أو سَفرتين لم يَطل فيهما مُكْثُه مدّةً يُحْتَمل فيها تعليمُ القليل، فكيف الكثير!.

بل كان في سفرِه في صُحْبة قومه، ورِفَاقَةِ عَشِيرته، لم يغِبْ عنهم، ولا خالف حَالَهُ مدةَ مُقَامِه بمكة من تعليم، واختلاف إلى حَبْرٍ، أو قَسٍّ، أو منجِّم، أو كاهن.

بل لو كان هذا بعدُ كلُّه لكانَ مَجيءُ ما أَتى به في مُعجِز القرآنِ قاطعاً لكل عُذر، ومُدْحِضاً لكل حُجَّة، ومُجْلياً لكل أمر.

فصل

فِي أَخْبَارِهِ ﷺ مَعَ الْمَلائِكَةِ وَالْجِنِّ وَرُؤْيَةِ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ

ومن خصائصه ـ عليه السلام ـ وكراماتِه، وباهر آياتِه أنباؤُهُ مع الملائكة والجنّ، وإِمْدَادُ اللَّهِ له بالملائكة، وطاعةُ الجنّ له، ورؤيةُ كثير من أصحابه لهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف: ٢٩].

١٠٩٧ ـ حدثنا سُفْيان بن العاصي الفقيه، بسماعي عليه، حدثنا أبو الليث السَّمَرْقَنْدي، قال: حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجُلودي، حدثنا ابنُ سفيان، حدثنا مُسلم، حدثنا عُبَيْدُالله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شُعْبَةُ، عن سليمان الشيباني، سمع زِرَّ بن حُبَيْشٍ، عن عبدالله، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ [النجم: ١٨]. قال: رأى جبريلَ عليه السلام في صورتِه، له ستُّ مئة جناحٍ [البخاري (٣٢٣٢)، مسلم (١٧٤/٢٨٢)].

١٠٩٨ ـ والخَبَرُ في محادثتِهِ مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة، وما شاهده من كَثرتهم وعِظَمِ صُورِ بعضِهم ليلةَ الإسراءِ مشهورٌ.

١٠٩٩ ـ وقد رآهم بحَضْرَته جماعةٌ من أصحابه في مَواطِن مختلفة، فرأى أصحابُه جبريلَ عليه السلامُ في صُورةِ رَجُلٍ يسأله عن الإسلام والإيمان [البخاري (٥٠)، مسلم (٩، ١٠)].

١١٠٠، ١١٠١ ـ ورأى ابنُ عباسٍ، وأُسَامةُ بن زيد، وغيرُهما عنده جبريلَ في صورة دِحْيةَ.

١١٠٢ ـ ورأى سعدٌ عن يمينه ويسارِه جبريلَ وميكائيل في صورةِ رجُلين عليهما ثيابٌ بيضٌ [البخاري (٤٠٥٤)، مسلم (٢٣٠٦)].

ومِثلُه عن غَيرِ واحد.

١١٠٣ ـ وسمِعَ بعضُهم زَجْرَ الملائكة خَيْلَها يوم بَدْرٍ [مسلم (١٧٦٣)].

١١٠٤ ـ وبعضُهم رأى تَطَايُر الرؤوس من الكفار، ولا يَرون الضارب [أحمد (٤٥٠/٥)].

١١٠٥ ـ ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذٍ رجَالاً بِيضاً على خَيلٍ بُلْق بين السماء والأرض، ما يقومُ لها شيء.

١١٠٦ ـ وقد كانت الملائكةُ تصافِحُ عِمْران بن الحُصَيْن [مسلم (١٢٢٦/١٦٧)].

١١٠٧ ـ وأَرىٰ النبيُّ ﷺ لحمزَةَ جبريلَ في الكعبة، فخر مغشيّاً عليه.

١١٠٨ ـ ورأى عبدالله بن مسعود الجِنَّ ليلة الجِنِّ، وسمع كلامَهم، وشبَّههم برجال الزُّطِّ [مسلم (٤٥٠)].

١١٠٩ ـ وذكر ابنُ سعدٍ أنّ مُصْعَب بن عُمير لما قُتِل يوم أحد أخذ الرايةَ ملَكٌ على صورتِه، فكان النبيُّ ﷺ يقول له: «تَقَدَّمْ، يا مُصْعَبُ!» فقال له المَلَك: لستُ بمُصْعَب، فعلِم أنه مَلَكٌ.

١١١٠ ـ وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المصنِّفين عن عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: بينا نحن جلوسٌ مع النبيّ ﷺ إذ أقبل شيخٌ بيده عصا، فسلَّم على النبيّ ﷺ، فردّ عليه، وقال ﷺ: «**نَغْمَةُ الجِنّ! مَنْ أنتَ؟**» قال أنا هامةُ بن الهيثم بن لاقِس بن إبليس، فذكر أنه لَقِي نوحاً ومَنْ بَعْدَه.. في حديث طويل، وأنّ النبيَّ ﷺ علَّمه سُوَراً من القرآن.

١١١١ ـ وذكر الواقدي رحمه الله قتْل خالدٍ عند هَدْمه العُزّى للسوداء التي خرجَتْ له ناشِرةً شَعرَها عُرْيانةً، فجزَلها بسيفه، وأعلم النبيّ ﷺ، فقال له: «**تلك العُزّى**».

١١١٢ ـ وقال عليه السلام: «**إن شيطاناً تفلَّتَ البارحةَ ليقطعَ عليّ صلاتي، فأمكنني اللهُ منه، فأخذتُه فأردْتُ أنْ أربطه إلى سارية من سَوارِي المسجدِ حتى تنظروا إليه كلّكم، فذكرتُ دعوةَ أخي سليمان:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] **فردّه الله خاسئاً**» [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١)].

وهذا بابٌ واسِع.

فصل
فِي إِخبَارِ الرُّهبَانِ وَالأَحْبَارِ وَعُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ عَنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ

ومن دلائل نبوّته وعلاماتِ رسالته ما ترادفت به الأخبارُ عن الرهبان والأحبار وعلماء أهلِ الكتاب، من صفتِه وصفةِ أُمته واسْمِه وعلاماته، وذكْر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وُجِد من ذلك في أشعار الموحِّدين المتقدمين، من شِعْر تُبَّع، والأوْسِ بن حارثة، وكعب بن لؤَي، وسُفيان بن مُجاشع، وقُسّ بن ساعدة، وما ذُكِر عن سَيْف بن ذي يَزَن وغيرهم.

وما عرَّف به من أمْره زَيدُ بن عَمْرِو بن نُفَيل، ووَرَقَةُ بن نَوْفل، وعَثْكلانُ الحِمْيَرِيُّ، وعلماءُ يَهُود، وشامُول عالِمُهم صاحب تُبَّع، مِنْ صِفَتِه وخَبَره.

وما أُلْفِيَ مِنْ ذلك في التوراةِ والإنجيل مما قد جمعه العلماءُ وبيَّنُوه، ونقله

عنهما ثِقاتُ مَنْ أسْلَم منهم، مثل ابنِ سلاَم، وبَنِي سَعْيَة، وابن يامِين، ومُخَيرِيق، وكعْب، وأشباههم ممَنْ أسلم من عُلماء يَهُود.

وبَحِيرا [الترمذي (٣٦٢٠)]، ونَسْطور الحبشة، وصاحب بُصْرى، وضَغاطر، وأُسقُفَ الشام، والجارود، وسلْمان وتميم، والنجَاشي، ونصارى من الحبشة، وأَساقف نَجْران، وغيرهم ممّن أسْلَم من علماء النصارى.

وقد اعترف بذلك هِرَقْلُ، وصاحبُ رُومة عالِما النصارى، ورئيساهم، ومُقَوْقِس: صاحب مِصْر، والشيخ صاحبُه، وابن صُورِيا، وابن أَخْطب، وأخوه، وكعب بن أَسد، والزَّبِيْر بن باطِيا، وغيرهم مِنْ علماءِ اليهود، ممَّنْ حمله الحسَدُ والنَّفَاسَة على البقاء على الشقَاوة، والأخبارُ في هذا كثيرة لا تَنحصر.

وقد قرَّع أسماعَ يهودَ والنصارى بما ذكرَ أنه في كتُبهم من صفته وصفةِ أصحابه، واحتجَّ عليهم بما انطَوَتْ عليه من ذلك صحُفُهم، وذمَّهم بتحريف ذلك وكِتْمَانِه، وليِّهم أَلْسِنَتهم ببيانِ أمره، ودعوتهم إلى المُباهَلة على الكاذب، فما مِنْهم إلاّ مَنْ نَفَر عن معارضته، وإبداءِ ما أَلزمهم مِنْ كتُبهم إظهارَه.

ولو وجدوا خلافَ قوله لكان إظهارهُ أهونَ عليهم من بَذْلِ النفوس والأموالِ وتخريب الدِّيار ونبذ القِتال، وقد قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

إلى ما أَنْذَرَ به الكُهَّانُ، مِثْلُ: شافع بن كُلَيب، وشِقّ، وسَطِيح، وسَوَاد بن قَارِب، وخُنَافِر، وأَفْعَى نَجْرَان، وجِذْل بن جِذْل الكِنْدي، وابن خَلَصَةَ الدَّوْسِي، وسُغدىٰ بنت كُرَيْزٍ، وفاطمة بنت النعمان، ومَنْ لا يَنْعَدّ كَثْرةً.

إلى ما ظهر على أَلسنة الأَصنام من نبوّته، وحُلُولِ وقتِ رسالتِه، وسُمِع مِنْ هواتفِ الجان، ومن ذبائح النُّصب، وأجوافِ الصُّور، وما وجد من اسْم النبيِّ ﷺ والشهادةِ له بالرسالة مكتوباً في الحجارة والقبُورِ بالخطِّ القديم، ما أكثَرُهُ مشهورٌ، وإسلامُ مَنْ أَسْلَمَ بسبب ذلك معلوم مذكور.

فصل

فِي الآيَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ عِنْدَ مَوْلِدِهِ ﷺ

ومِنْ ذلك ما ظهر من الآيات عند مَوْلِدِه، وما حكَتْه أُمُّهُ ومَنْ حضره من العجائب.

١١١٣ ـ وكونُه رافعاً رأسَه عندما وضعَتْه، شاخصاً ببَصره إلى السماء.

١١١٣م ـ وما رأَتْهُ من النُّور الذي خرج معه عند ولادته.

١١١٤ ـ وما رأَتْه إذ ذاكَ أُمُّ عثمان بن أبي العاص مِنْ تَدَلِّي النجوم، وظهورِ النُّور عند ولادتِه، حتى ما تَنْظُرُ إلاَّ النّور.

١١١٥ ـ وقولِ الشِّفَاءِ، أُمِّ عبدِ الرحمن بن عَوْف: لما سقَطَ عليه السلامُ على يديّ واسْتَهَلَّ سمِعتُ قائلاً يقول: رحِمَكَ اللَّهُ، وأضاءَ لي ما بين المَشْرِقِ والمغرب حتى نظرتُ إلى قُصور الرُّوم.

١١١٦ ـ وما تعرَّفتْ به حَلِيمةُ وزَوْجُها ـ ظئْراهُ ـ مِنْ بركتِه، ودُرُورِ لَبَنِها له، ولبنِ شارِفِها وخِصْب غَنَمِها، وسُرْعَةِ شَبَابه، وحُسْنِ نَشْأَتِه.

١١١٧ ـ وما جرى من العجائب ليلةَ مولده، من ارْتجاج إيوان كسرى، وسقوطِ شُرَفاتِه، وغَيْضِ بحيرة طبريّة، وخمود نار فارس، وكان لها أَلفُ عام لم تَخْمُد.

١١١٨ ـ وأنه كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا أَكلَ مع عمّه أبي طالبِ وآلِهِ ـ وهو صغير ـ شبعُوا ورَوُوْا، فإذا غاب فأكلوا في غَيْبَتِه لم يَشْبَعُوا.

وكان سائرُ وَلدِ أبي طالب يُصبحون شُعْثاً ويُصْبح هو ﷺ صَقِيلاً دَهيناً كَحِيلاً.

١١١٩ ـ قالت أُمُّ أَيمن حاضِنَتُه: ما رأَيْتُه ﷺ شَكَا جُوعاً قطُّ ولا عطشاً صغيراً ولا كبيراً.

ومن ذلك حراسةُ السماءِ بالشُّهُب، وقَطْعُ رَصَدِ الشياطين، ومنْعُهم اسْتِراقَ السَّمعِ.

١١٢٠ ـ وما نشأَ عليه مِن بُغْضِ الأصنام.

١١٢٠م ـ والعفَّةِ عن أمور الجاهلية.

١١٢٠م١ ـ وما خصَّه اللَّهُ به مِنْ ذلك وحَمَاهُ حتى في سَتْرِه في الخبر المشهورِ عند بناءِ الكعبة إذ أخذ إزارَه ليجعَلَه على عاتِقِه، ليحملَ عليه الحجارةَ وتَعرَّى، فسقط إلى الأرض حتى ردّ إزارَه عليه.

فقال له عمّه: ما بالُك؟ قال: **«إني قد نُهِيتُ عن التعرّي»** [البخاري (٣٦٤)، مسلم (٣٤٠)].

١١٢١ ـ ومن ذلك إظْلالُ الله له بالغَمَام في سفره.

١١٢٢ ـ وفي رواية: أنَّ خديجةَ ونساءَها رأَيْنَهُ لمَّا قَدِم، ومَلَكَانِ يُظِلاَّنه، فذكرتْ ذلك لمَيْسَرةَ، فأخبرها أنه رأى ذلك منذ خرج معه في سفَره.

١١٢٣ ـ وقد رُوِي أنّ حليمةَ رأَتْ غمامةً تُظِلُّه، وهو عندها.

١١٢٣م ـ ورُوِي ذلك عن أخيه من الرَّضاعةِ.

١١٢٤ ـ ومن ذلكَ أنه نَزَلَ في بعضِ أسفارِه قبل مَبْعَثِه تحت شجرةٍ يابسة، فاعْشَوْشَبَ ما حولَها وأَيْنَعَتْ هي فأشرقَتْ وتدلَّتْ عليه أغصانُها بمَحْضر مَنْ رآه.

١١٢٥ ـ وميلِ فَيْءِ الشجرةِ إليه في الخَبَرِ الآخر حتى أظلَّته.

١١٢٦ ـ وما ذُكِر مِنْ أنه كان لا ظِلّ لشَخْصِه في شمسٍ ولا قَمر، لأنه كان نُوراً.

١١٢٧ ـ وأن الذُّبابَ كان لا يَقَعُ على جَسدِه ولا ثيابه.

١١٢٨ ـ ومن ذلك: تَحْبِيبُ الخَلْوَةِ إليه حتى أُوحِيَ إليه [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١١٢٩ ـ ثم إعلامُه بموته ودُنُوِّ أَجَلِه [البخاري (٦١٨٦)، مسلم (٢٤٥٠)].

١١٣٠ ـ وأنَّ قَبْرَهُ بالمدينة.

١١٣١ ـ وفي بَيتِهِ.

١١٣٢ ـ وأنَّ بين بَيْتِه وبين مِنْبَره رَوْضةً من رياض الجنة.

١١٣٣ ـ وتَخْيير اللَّهِ له عند مَوته [البخاري (٤٦٦، ٦٣٤٨)، مسلم (٢٤٤٤)].

١١٣٤ ـ وما اشتمل عليه حديثُ الوفاةِ من كراماته، وتشريفه، وصلاة الملائكةِ على جَسده على ما رَوَيْناهُ في بعضها.

واستِئْذَان مَلَكِ الموتِ عليه، ولم يستأذِنْ على غيره قَبْلَه.

١١٣٥ ـ ونِدائهم الذي سمعوه ألاَّ ينزعوا القميص عنه عند غُسْله [أبو داود (٣١٤٠)].

١١٣٦ ـ وما رُوِي من تَعْزِية الخَضِر والملائكةِ أهلَ بيتِه عند موته.

إلى ما ظهر على أصحابه من كراماته وبركتِه في حياتِه وموتِه.

١١٣٧ ـ كاستِسْقاءِ عُمر بعَمِّه [البخاري (١٠١٠)]، وتبرُّك غيرِ واحدٍ بذرِّيته.

فصل
فِي أَنَّ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَظْهَرُ مِنْ سَائِرِ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ

قال القاضي أبو الفضل: قد أتينا في هذا الباب على نُكَتٍ مِنْ مُعجزاته واضحةٍ، وجُمَلٍ من علامات نُبُوَّته مُقْنِعَةٍ، في واحدٍ منها الكفاية والغُنْيَة، وتركنا الكثير سِوَى ما ذكَرْنا، واقتصَرْنا من الأحاديث الطوال على عَيْنِ الغرَض، وفَصّ

المَقْصِد، ومن كثير الأحاديثِ وغَرِيبها على ما صَحَّ واشتهر إلا يسيراً من غَريبه مما ذكره مشاهيرُ الأئمة، وحذفْنا الإسناد في جُمهورها، طلباً للاختصار.

ويَحسب هذا الباب لو تُقُصِّي أَن يكونَ ديواناً جامعاً يشتمل على مُجلَّداتٍ عدة.

ومعجزاتُ نبيّنا ﷺ أَظهرُ من سائر معجزات الرسل بوَجْهين:

أحدهما: كَثْرتُها، وأنه لم يُؤتَ نبيٌّ معجزةً إلا وعند نبيّنا مثلُها، أو ما هو أبلغُ منها.

وقد نَبَّه الناسُ على ذلك، فإن أَرَدْتَه فتأمَّلْ فصول هذا الباب، ومعجزاتِ مَن تقدّم من الأنبياء، تقِفْ على ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما كونُها كثيرة فهذا القرآن، وكلُّه مُعْجِزٌ، وأقلُّ ما يقَعُ الإعجازُ فيه عند بعض أئمة المحققين سورةُ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾ [الكوثر: ١]، أو آيةٌ في قَدْرِها.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ كلَّ آية منه ـ كيف كانت ـ معجزة.

وزاد آخرون إلى أنَّ كلَّ جملةٍ مُنْتَظمةٍ منه معجزةٌ، وإن كانَتْ من كلمة أو كلمتين.

والحقُّ ما ذكرناه أولاً، لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فهو أقل ما تحدَّاهُمْ به، مع ما ينصُر هذا من نَظَر وتحقيقٍ يطولُ بَسْطُه.

وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلماتِ نحوٌ من سبعةٍ وسبعين ألفَ كلمة ونَيِّف على عدد بعضهم، وعدَدُ كلمات: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾ [الكوثر: ١] عَشرُ كلمات، فَتَجزَّؤُ القرآنِ على نسبة عددِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾ [الكوثر: ١] أزيد من سبعة آلافِ جُزْء، كلُّ وَاحِدٍ منها مُعْجِزٌ في نفسه.

ثم إعجازُه ـ كما تقدّم ـ بوَجْهين: طريقِ بلاغتِه، وطريقِ نَظْمِه، فصار في كلّ جُزْءٍ من هذا العدد مُعْجِزَتان، فتضاعفَ العدَدُ من هذا الوَجْهِ.

ثم فيه وجوهُ إعجازٍ أُخر من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكونُ في السورة الواحدة مِن هذه التجزئة الْخَبَرُ عن أشياءَ من الغيبِ، كلُّ خَبَرٍ منها بنفسه معجزٌ فيتضاعف العدَدُ كرَّةً أخرى.

ثم وجوهُ الإعجازِ الأُخَر التي ذكرناها توجبُ التضعيفَ، هذا في حقّ القرآنِ، فلا يكادُ يَأْخُذُ العدُّ معجزاتِه، ولا يَحْوِي الْحَصْرُ بَرَاهِينَه.

ثم الأحاديثُ الوارِدةُ، والأخبارُ الصادرةُ عنه ـ عليه السلام ـ في هذه

الأبواب وعما دلَّ على أمره مما أشرنا إلى جُمَلِه تبلغُ نحواً من هذا.

الوَجْه الثاني: وضوحُ معجزاته ﷺ، فإنَّ معجزات الرُّسلِ كانَتْ بقَدْرِ هِمَم أهلِ زمانهم، وبحسَب الفنّ الذي سما فيه قَرْنه.

فلما كان زمن موسى غاية علم أهلِهِ السُّحر، بُعث إليهم موسى بمعجزة تُشْبه ما يدَّعون قُدرتَهم عليه، فجاءهم منها ما خرق عادتَهم، ولم يكن في قُدرتِهم، وأَبطَل سِحرَهم.

وكذلك زمَنُ عيسى أَغْنَى ما كان الطبُّ، وأوفر ما كان أهلُه، فجاءهم أمرٌ لا يقدرون عليه، وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميّت، وإبراءِ الأكْمَهِ والأبرصِ دونَ معالجةٍ ولا طِبّ.

وهكذا سائرُ معجزاتِ الأنبياء.

ثم إنَّ الله تعالى بعثَ محمداً ﷺ، وجملةُ معارفِ العرب وعلومها أربعة: البلاغةُ، والشِّعرُ، والخبرُ، والكَهانَة، فأُنْزِل عليه القرآنُ الخارق لهذه الأربعة فصولٍ من الفصاحة، والإيجاز، والبلاغة الخارجة عن نَمَط كلامهم، ومن النظم الغريب، والأسلوب العجيب الذي لم يَهتَدُوا في المنظوم إلى طَرِيقِهِ، ولا علموا في أساليب الأوزان مَنهجه، ومن الأخبار عن الكوائن والحوادثِ والأسرار والمُخبَآت والضمائر، فتوجَدُ على ما كانت، ويعترفُ المُخبَرُ عنها بصحةِ ذلك وصِدْقِه، وإن كان أعْدَى العدوّ.

فأبطلَ الكَهانَةَ التي تصدُقُ مرَّةً وتكذب عَشراً، ثم اجتثَّها من أصْلها برَجْم الشُّهُب، ورَصْدِ النجوم.

وجاء من الأخبار عن القرون السالفة وأنباء الأنبياء، والأمم البائدة، والحوادث الماضية، ما يَعْجزُ مَنْ تفرَّغ لهذا العلم عن بعضه، على الوجوه التي بسطناها، وبيَّنا المُعْجِزَ فيها.

ثم بقيتْ هذه المعجزَةُ الجامعةُ لِهٰذِه الوجوهِ إلى الفصول الأُخرِ التي ذكرناها في معجزاتِ القرآن ثابتةً إلى يوم القيامة، بيِّنَةَ الحجةِ لكل أُمة تأتي، لا يَخفَى وجوهُ ذلك على مَنْ نظر فيه، وتأمَّل وجوهَ إعجازه.

إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل، فلا يمرّ عَصْر ولا زَمَن إلا ويظهر فيه صِدْقُه بظهور مُخبَرِه على ما أخبر، فيتجدَّدُ الإيمانُ، ويتظاهر البُرْهان، وليس الخَبَر كالعِيَان كما قيل، وللمشاهدة زيادةٌ في اليقين، والنفسُ أشدُّ طمأنينة

إلى عَيْن اليقين منها إلى علم اليقين وإن كان كلٌ عندها حقاً.

وسائر معجزاتِ الرسل انقرضت بانقراضهم، وعُدِمت بعَدَم ذَوَاتها، ومعجزةُ نبيّنا ﷺ لا تَبِيد ولا تنقطع، وآياتُه تتجدَّدُ ولا تضمَحِلُّ.

١١٣٨ ـ ولهذا أشار ـ عليه السلام ـ بقوله فيما حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذرّ، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهَيْثم، قالوا: حدثنا الفَرَبْرِي، حدثنا البخاري، حدثنا عبدالعزيز بن عَبْدالله، حدثنا الليثُ، عن سَعِيد، عن أبيه، عن أبي هُريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**ما مِن الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعْطِي من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وَحْياً أوحاه اللّهُ إليَّ، فأرجو أنّي أكثرُهم تابعاً يوم القيامة**» [البخاري (٧٢٧٤)].

هذا معنى الحديث عند بعضهم، وهو الظاهر، والصحيحُ، إن شاء الله.

وذهب غيرُ واحدٍ من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبيّنا ـ عليه السلام ـ إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وَحْياً وكلاماً لا يمكن التخييلُ فيه، ولا التحيُّل عليه، ولا التشبيه، فإنّ غيرها من معجزات الرسل قد رَامَ المعاندون لها بأشياء طمِعُوا في التخييل بها على الضعفاء كإلقاء السَّحَرة حِبَالهم وعصيّهم وشِبْه هذا مما يخيِّله الساحرُ، أو يتحيَّل فيه.

والقرآنُ كلامٌ ليس للحيلةِ ولا للسِّحْر في التخييل فيه عملٌ، فكان من هذا الوجه عندهم أظهرَ من غيره من المعجزات، كما لا يتمُّ لشاعرٍ ولا لخطيب أن يكون شاعراً أو خطيباً بضَرْب من الْحِيَل والتَّمْوِيهِ.

والتأويلُ الأول أخلصُ وأرضى.

وفي هذا التأويل الثاني ما يُغَمِّضُ الجَفْنُ عليه ويُغْضى.

ووجهٌ ثالث على مَذْهب مَنْ قال بالصَّرْفَة، وَأَنّ المعارضة كانت في مقدور البَشر، فصُرِفُوا عنها، أو على أحدِ مذهَبَيْ أهل السنةِ من أَنَّ الإِتْيَانَ بمثله مِنْ جنس مقدورهم، ولكن لم يكن ذلك قَبْلُ، ولا يكون بعدُ، لأن الله تعالى لم يُقْدِرْهم، ولا يُقدِرُهم عليه.

وبين المذهبين فرقٌ بَيِّن، وعليهما جميعاً، فتَرْكُ العرب الإتيانَ بما في مقدورهم، أو ما هو من جِنْس مقدورهم، ورِضَاهم بالبلاءِ، والجَلاَء، والسِّبَاءِ، والإذلال، وتغيير الحال، وسَلْب النفوس، والأموالِ، والتقريع، والتوبيخ،

والتعجيز، والتهديد، والوعيد ـ أَبين آيةٍ للعَجزِ عن الإتيان بمثله، والنكُولِ عن معارضته، وأَنهم مُنِعوا عن شيءٍ هو من جِنْس مقدورهم.

وإلى هذا ذهب الإمامُ أبو المعالي: الجُويني، وغيره، قال: وهذا عندنا أبلغُ في خَرْقِ العادةِ بالأفعال البديعة في أنفسها، كقَلْب العصا حيَّةً ونحوها، فإنه قد يسبقُ إلى بالِ الناظرِ بِدَاراً أَنَّ ذلك من اختصاصِ صاحبِ ذلك بمزيةِ معرفةٍ في ذلك الفنّ، وفَضْلِ علْمٍ إلى أَنْ يَرُدَّ ذلك صحيحُ النَّظرِ.

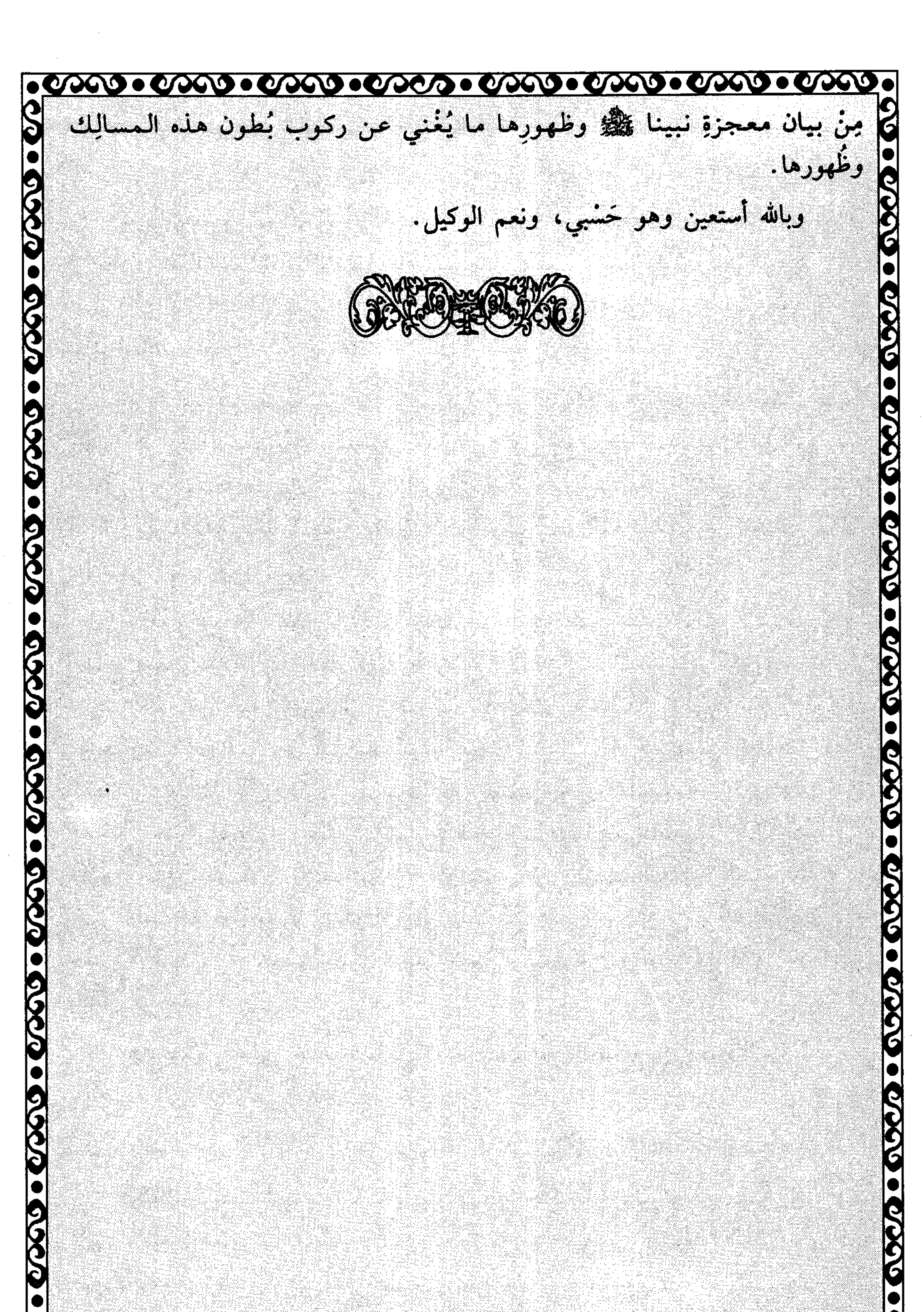
وأما التحدِّي للخلائق في مِئين مِنَ السنين بكلام مِنْ جِنْسِ كلامهم ليَأْتُوا بمثله فلم يَأْتُوا، فلم يَبْقَ بعدَ توفُّر الدَّواعِي على المعارضة ثم عَدَمها إلاّ مَنْعُ اللَّهِ الخَلْقَ عنها بمَثَابةِ ما لو قال نبيٌّ: آيتي أَنْ يَمْنَعَ اللَّهُ القيامَ عن الناس مع مقدرتهم عليه، وارتفاع الزَّمَانَةِ عنهم، فكان ذلك، وعَجَّزَهُم اللَّهُ تعالى عن القِيام، لكان ذلك من أَبْهَرِ آيةٍ، وأظهر دَلالةٍ. وبالله التوفيق.

وقد غاب عن بعضِ العلماءِ وَجْهُ ظهورِ آيته على سائر آياتِ الأنبياء، حتى احتاج للعُذْرِ عن ذلكَ بدقَّةِ أفهامِ العَرَب، وذكاءِ أَلبابِها، ووفُور عقولِها، وأنهم أدركوا المُعْجِزَةَ فيه بفِطنَتِهم، وجاءهم مِنْ ذلك بحسب إدْرَاكهم، وَغَيْرُهم مِنَ القِبْط وبني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل، بل كانوا من الغَبَاوَة، وقِلَّةِ الفِطنَة، بحيث جَوَّز عليهم فرعونُ أنه ربُّهم، وجوّز عليهم السامريُّ ذلك في العِجل بعد إيمانهم، وعبَدُوا المسِيحَ مع إجماعهم على صَلْبه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] فجاءتهم من الآيات الظاهرة البيّنة للأبصار بقَدْر غلَظ أفهامهم ما لا يشكّون فيه، ومع هذا فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ولم يصبروا على المنِّ والسَّلْوَى، واستبدلوا الذي هو أدْنى بالذي هو خير.

والعربُ ـ على جاهليتها ـ أكثرها يعترفُ بالصانع، وإنما كانت تتقرَّبُ بالأصنام إلى الله زُلْفى.

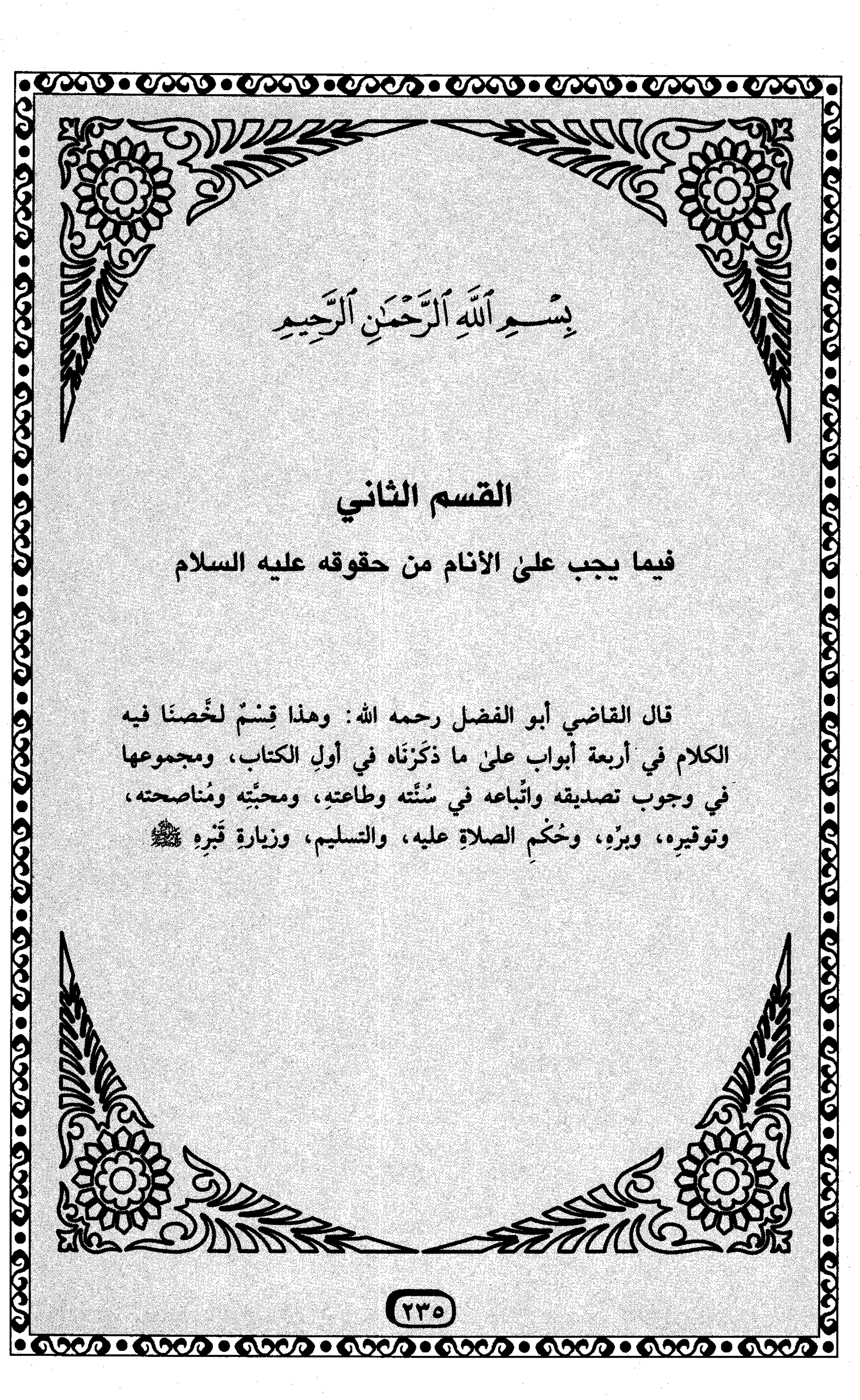
ومنهم مَنْ آمنَ باللَّهِ وَحْدَه من قَبْلِ الرسول ﷺ بدليل عَقْله، وصفاءِ لُبِّه.

ولما جاءهم الرسولُ بكتاب الله فهِموا حِكْمَتَهُ، وتَبَيَّنُوا ـ بفَضل إدراكهم لأول وهلةٍ ـ معجزتَه، فآمَنُوا به، وازدادوا كلَّ يوم إيماناً، ورَفَضُوا الدُّنيا كلَّها في صحبته، وهجروا ديارَهم وأَموالَهم، وقتلوا آباءهم وأبناءهم في نُصْرته، وأتى في معنى هذا بما يلوحُ له رَوْنَقٌ، ويُعْجِبُ منه زِبْرِج لو احتيج إليه وحُقِّق، لكنَّا قدَّمْنا



مِنْ بيان معجزةِ نبينا ﷺ وظهورِها ما يُغْني عن ركوب بُطون هذه المسالِك وظُهورها.

وبالله أستعين وهو حَسْبي، ونعم الوكيل.

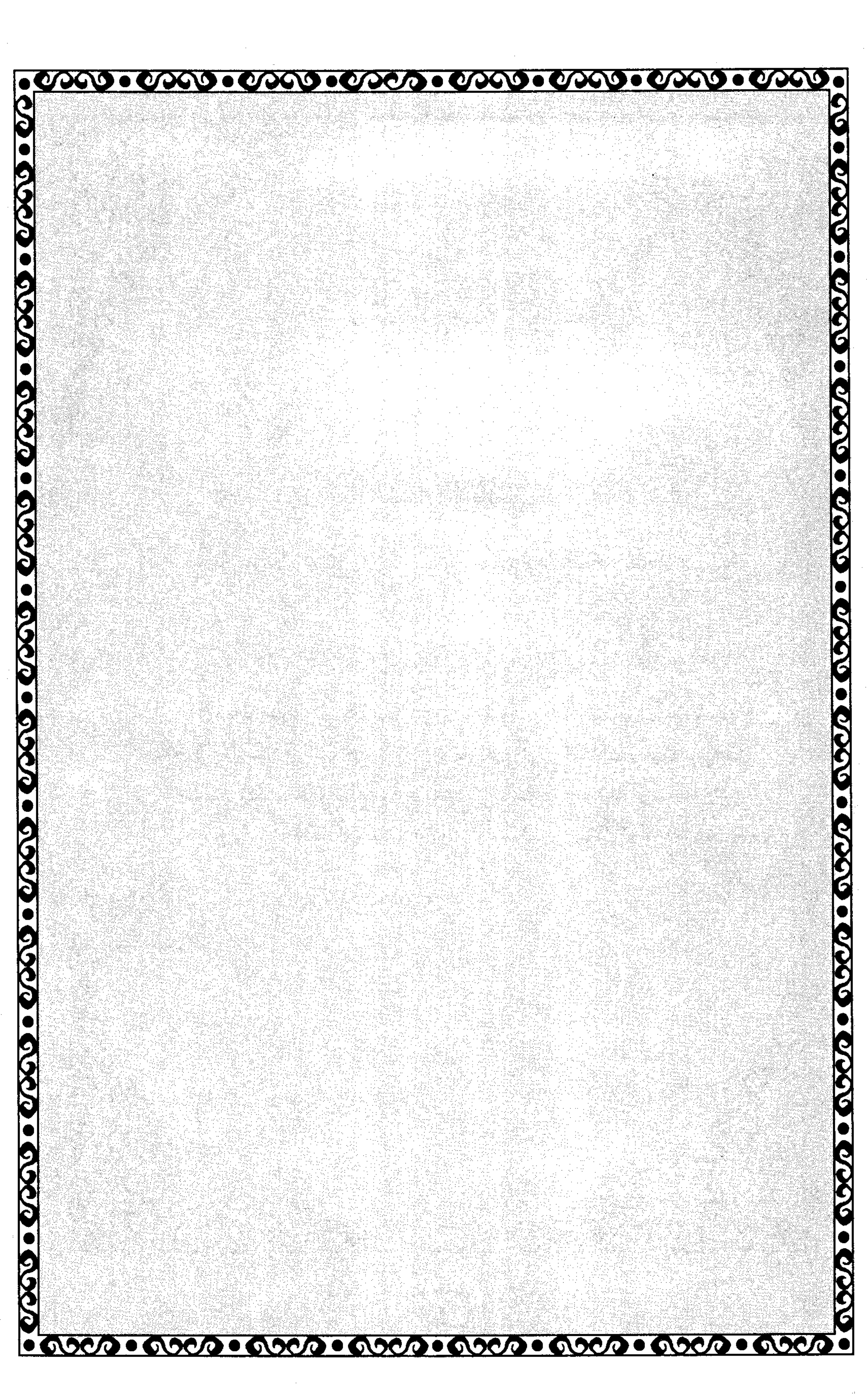


بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القسم الثاني

فيما يجب علىٰ الأنام من حقوقه عليه السلام

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وهذا قِسْمٌ لخَّصنَا فيه الكلام في أربعة أبواب علىٰ ما ذكَرْنَاه في أولِ الكتاب، ومجموعها في وجوب تصديقه واتِّباعه في سُنَّته وطاعتِهِ، ومحبَّتِه ومُناصحته، وتوقيرِه، وبرِّه، وحُكْمِ الصلاةِ عليه، والتسليم، وزيارةِ قَبْرِهِ ﷺ





الباب الأول

في فَرْضِ الإِيْمَانِ به وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ وَاتّبَاعِ سُنَّتِهِ

إذا تقرر بما قَدَّمْناه ثبوتُ نبوَّته وصحةُ رسالته، وجب الإيمانُ به وتصديقُه فيما أتىٰ به؛ قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٨، ٩].

وقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالإيمانُ بالنبيِّ محمد ـ عليه السلام ـ واجبٌ مُتَعَيِّن لا يتمُّ الإيمانُ إلا به، ولا يصحُّ إسلامٌ إلاّ معه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح: ١٣].

١١٣٩ ـ حدثنا أبو محمدٍ الخُشَنِيُّ الفقيه بقراءَتي عليه، حدثنا الإمام أبو علي الطبري، حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا ابن عَمْرَوَيْهِ، حدثنا ابنُ سُفْيان، حدثنا أبو الحُسَين، حدثنا أميَّةُ بن بِسْطَام، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا رَوْح، عن العلاء بن عبدالرحمن بن يعقوب، عن أَبِيه، عن أَبي هُرَيرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ؛ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّهُ، ويُؤمنوا بي وبما جئتُ به؛ فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا مني دِمَاءَهُم وأَموالَهم إلاَّ بحَقِّها، وحسابُهم على الله**» [البخاري (١٣٩٩)].

قال القاضي أبو الفضل:

والإيمانُ به ـ عليه السلام ـ هو تصديقُ نُبوَّتِه ورسالةِ اللَّهِ له، وتصديقُهُ في جميع ما جاءَ به وما قاله، ومطابقةُ تصديقِ القَلْب بذلك شهادةُ اللسان بأنه

رسولُ الله؛ فإذا اجتمع التصديقُ به بالقلب، والنطقُ بالشهادةِ بذلك باللسان.

١١٤٠ ـ تمّ الإيمان به والتصديق له. كما ورَدَ في هذا الحديث نَفسِه مِنْ روايةِ عَبْدِاللَّه بن عُمَر رضي الله عنهما: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إله إلاّ الله وأَنَّ محمداً رسولُ الله»** [البخاري (٢٥)، مسلم (٢٢)].

١١٤١ ـ وقد زادَهُ وُضوحاً في حديث جبريل؛ إذ قال: أَخْبِرْنِي عن الإسلام؟ فقال النبيّ ﷺ: **«أَنْ تشهدَ أَنْ لا إله إلا اللَّهُ، وأَنَّ محمداً رسولُ الله...»** وذكر أركانَ الإسلام. ثم سأله عن الإيمان، فقال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله...»** الحديث.

فقد قرَّرَ أَنَّ الإيمانَ به محتاجٌ إلىٰ العَقْدِ بالْجَنان، والإسلامَ به مضطرٌ إلىٰ النطق باللسان.

وهذه الحالُ المحمودةُ التامةُ.

وأما الحالة المذمومةُ فالشهادةُ باللسانِ دونَ تصديقٍ بالقَلْب، وهذا هو النِّفَاق؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١]؛ أي كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم، وهم لا يَعْتقدونه؛ فلمّا لم تُصدّق ذلك ضمائرُهم لم ينفعْهم أَنْ يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فخرجوا عن اسم الإيمان، ولم يكن لهم في الآخرة حُكمُهُ؛ إذ لم يكن معهم إيمان، ولَحِقُوا بالكافرين في الدَّرْكِ الأسفَلِ من النار، وبقي عليهم حكمُ الإسلام، بإظهار شهادةِ اللسان، في أحكام الدنيا المتعلقةِ بالأئمة وحكام المسلمين الَّذين أحكامُهم علىٰ الظواهرِ، بما أَظْهرُوهُ من علامةِ الإسلام؛ إذ لم يُجْعَل للبشَر سبيلٌ إلىٰ السرائر، ولا أُمِرُوا بالبَحْثِ عنها؛ بل نَهَىٰ النبيُّ ﷺ عن التحكّم عليها؛ وذمَّ ذلك.

١١٤٢ ـ وقال: **«هلاّ شَققْتَ عن قَلْبِه»** [مسلم (٩٦)، البخاري (٦٨٧٢)].

وللفرق بين القول والعَقْد ما جُعِلَ في حديث جبريلَ: الشَّهادةُ من الإسلام، والتصديقُ من الإيمان.

وبقيت حالتان أُخْرَيَان بين هذين:

١١٤٣ ـ إحداهما: أَنْ يُصدِّقَ بقلبه ثم يُختَرَمَ قَبْلَ اتِّساع وَقْتِ الشهادةِ بلسانه؛ فاختلف فيه؛ فشَرَطَ بَعْضُهم مِنْ تمامِ الإيمان القولَ والشهادةَ به؛ ورآه بعضهم مُؤمناً مستوجباً للجنة؛ لقوله عليه السلام: **«يَخرُج من النار مَنْ كان في قَلْبه مِثْقالُ ذرَّةٍ من إيمان»** [الترمذي (٢٥٩٨)]؛ فلم يذكر سِوَىٰ ما في القَلْب.

وهذا مُؤمنٌ بقَلْبه، غَيْرُ عاصٍ ولا مُفَرِّط بتَرْك غيره.

وهذا هو الصحيح في هذا الوَجْه.

الثانية: أنْ يصدِّقَ بقلبه ويُطوِّلَ مَهلَهُ، وعَلِمَ ما يلزمُه من الشَّهادة؛ فلم ينطق بها جملة ولا استَشهد في عُمُره ولا مرةً واحدة؛ فهذا اختُلف فيه أيضاً؛ فقيل: هو مُؤمن؛ لأنه مصدِّقٌ، والشهادةُ من جُمْلة الأعمال؛ فهو عاصٍ بتَرْكها غَيْرُ مُخَلَّدٍ في النار.

وقيل: ليس بمؤمن حتى يقارِنَ عَقْدُه شهادةَ اللسان؛ إذ الشهادةُ إنشاءُ عَقْدٍ، والتزامُ إيمان؛ وهي مرتبطةٌ مع العَقْد، ولا يتمُّ التصديقُ مع المُهْلَة إلا بها. وهذا هو الصحيح.

وهذه نُبْذَةٌ تُفْضِي إلىٰ مُتَّسَع من الكلام في الإسلام والإيمان وأبوابِهما، وفي الزيادة فيهما والنقصانِ، وهذا التجزّي مُمْتَنِع علىٰ مجرّدِ التصديق لا يصحُّ فيه جملةً؛ وإنما يرجعُ إلىٰ ما زادَ عليه من عَمَلٍ، وقد يعرض فيه لاختلاف صفاته، وتَبايُن حالاتهِ؛ من قُوَّةِ يَقين، وتصميم اعتقاد، ووضُوحِ مَعْرِفَةٍ، ودَوام حالةٍ، وحضور قَلْب.

وفي بَسْطِ هذا خروجٌ عن غرض التأليف؛ وفيما ذكرنا غُنْيَة فيما قصدْنا إن شاء الله.

فصل

فِي وُجوبِ طَاعَتِهِ ﷺ

وأَما وجوبُ طاعتهِ، فإذا وجب الإيمانُ به وتصديقهُ فيما جاء به وجبت طاعتُه؛ لأنَّ ذلك مما أتىٰ به؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛ فجعل تعالىٰ طاعة رسوله طَاعَتَهُ، وقَرنَ طاعته بطاعَتِه، ووعد على ذلك بجزيلِ الثواب؛ وأوعد على مخالفته بسوءِ العِقاب، وأَوجَب امتثالَ أمرِه، واجتنابَ نَهيه.

قال المفسرُونَ والأئمةُ: طاعةُ الرسولِ في الْتِزَام سُنّتِه والتسليم لما جاءَ به.

وقالوا: وما أرسلَ اللّهُ مِنْ رَسُولٍ إلاّ فرض طاعته علىٰ مَنْ أرسلَهُ إليه.

وقالوا: مَنْ يُطِع الرسولَ في سُنَّتِه يُطِع اللّهُ في فَرَائضه.

وسُئِل سَهْلُ بْنُ عَبْداللّهِ عن شرائع الإسلام؛ فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال السَّمَرْقَنْدي: يقال: أَطِيعُوا اللّهَ في فرائضه، والرسولَ في سُنَّتِه.

وقيل: أطيعوا اللّهَ فيما حرَّم عليكم، والرسولَ فيما بلّغكُمْ.

ويقال: أَطِيعوا اللّهَ بالشَّهادةِ له بالرُّبوبيّةِ، والنبيَّ بالشهادةِ له بالنبوّة.

١١٤٤ ـ حدثنا أَبو محمد بن عتّاب بقراءتي عَليه، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أَبو الحَسَن: عليّ بن محمد بن خَلف، حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عَبْدان، أخبرنا عَبْداللّه، أخبرنا يونس، عنِ الزُّهري، أخبرني أبو سَلَمَةَ بن عبدالرحمن، أنه سمع أبَا هُرَيرة يقولُ: إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «**مَنْ أَطاعني فقد أَطاع الله، ومَنْ عصاني فقد عَصَى اللّهَ، وَمَنْ أَطاع أَمِيري فقد أطاعني، ومَنْ عصىٰ أَميري فقد عصاني**» [البخاري (٧١٣٧)، مسلم (١٨٣٥)].

فطاعةُ الرسُولِ من طاعة الله؛ إذ اللّهُ أَمر بطاعته؛ فطاعتُه امتثالٌ لما أَمر اللّهُ به، وطاعةٌ له.

وقد حَكَىٰ اللّهُ عن الكفّار في دَرَكات جهنَّم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦﴾ [الأحزاب: ٦٦]؛ فتمنَّوْا طاعتَه حيثُ لا ينفعهُم التمني.

١١٤٥ ـ وقال عليه السلام: «**إذا نهيتُكم عن شيء فاجْتَنِبُوه، وإذا أمرتُكم بأَمرٍ فأْتوا منه ما استطعْتُم**» [البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧)].

١١٤٦ ـ وفي حديث أبي هريرة رضيَ اللّهُ عنه، عنه عليه السلام: «**كلُّ أُمتي يَدْخُلون الجنةَ إلاَّ مَنْ أَبىٰ**».

قالوا: يا رسول الله! ومَنْ يَأْبىٰ؟ قال: «**مَنْ أَطاعني دخل الجنةَ، ومَنْ عَصاني فقد أَبىٰ**» [البخاري (٧٢٨٠)].

١١٤٧ ـ وفي الحديث الآخر الصحيح، عنه عليه السلام: «**مَثَلي وَمَثَلُ ما بعثني اللَّهُ به كمَثَل رَجُل أتى قوماً، فقال: يا قوم! إني رأيتُ الجَيشَ بعَيْنَيَّ، وإني أنا النَّذِيرُ العُرْيان، فالنَّجاءَ؛ فأطاعَه طائفةٌ من قومه، فأدْلَجُوا، فانطلقوا على مَهَلِهم فنَجَوْا؛ وكذَّبَتْ طائفةٌ منهم فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيشُ فأهلكهم واجْتَاحَهُم؛ فذلك مَثَلُ مَنْ أطَاعَنِي، واتَّبَعَ ما جِئْتُ به، ومَثَلُ مَنْ عَصَاني وكذَّب ما جئتُ به من الحقِّ**» [البخاري (٧٢٨٣)، مسلم (٢٢٨٣)].

١١٤٨ ـ وفي الحديث الآخر في مَثَلِهِ: «**كَمَثَلِ مَنْ بنَى داراً وجعلَ فيها مأدُبَةً، وبعث دَاعِياً؛ فَمَنْ أجابَ الداعِيَ دخلَ الدارَ، وأكَلَ من المأدُبة؛ ومَنْ لم يُجِبِ الداعيَ لم يدخل الدارَ ولم يأْكُلْ من المَأْدُبة؛ فالدارُ: الجنة، والداعي: محمدٌ ﷺ. فمن أَطاع محمداً فقد أطاعَ اللَّهَ، ومَنْ عصى محمداً فقد عصى الله؛ ومحمدٌ فَرْقٌ بين الناس**» [البخاري (٧٢٨١)].

فصل
فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ وَامتِثَالِ سُنَّتِهِ وَالاقْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ

وأما وجوبُ اتباعِه وامتثالِ سُنَّتِهِ والاقتداءِ بهَدْيه؛ فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] أي ينقادون لحكمك؛ يقال: سلَّم، واستسلم، وأسلم؛ إذا انقاد.

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ الآية [الأحزاب: ٢١].

قال محمد بن علي الترمذي: الأُسوةُ في الرسولِ الاقتداءُ به، والاتباعُ لسُنَّتِه، وتركُ مخالفتِه في قولٍ أو فعل.

وقال غيرُ واحدٍ مِنَ المفسِّرين بمعناه.

وقيل: هو عِتابٌ للمتخلِّفين عنه.

وقال سَهْلٌ في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. قال: بمتابعة السنَّةِ؛ فأمرهم تعالى بذلك، ووَعَدهم الاهتداءَ باتِّباعِه؛ لأنَّ الله

تعالىٰ أرسله بالهُدىٰ ودين الحق ليُزَكِّيهم ويعلِّمهم الكِتَابَ والحِكْمَة، ويَهديهم إلىٰ صراطٍ مستقيم، ووعدهم محبَّتَه تعالىٰ في الآية الأخرىٰ ومَغْفِرته إذا اتَّبعوه، وآثروه علىٰ أهوائهم، وما تَجْنَحُ إليه نفوسُهُمْ؛ وأنَّ صِحَّةَ إيمانهم بانقيادِهم له، ورِضَاهم بحُكْمه، وتَرْكِ الاعتراضِ عليه.

١١٤٩ ـ ورُوي عن الحَسَنِ أنَّ أقوَاماً قالوا: يا رسُولَ اللَّهِ! إنّا نُحبُّ اللَّهَ. فأنزل اللَّهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

ورُوِيَ أن الآيةَ نزلت في كَعْب بن الأشْرَفِ وغيره، وأنهم قالوا: نحن أبناءُ اللَّهِ وأحِبّاؤُه؛ ونحن أشَدُّ حُبّاً لله؛ فأنزل الله الآية.

وقال الزَّجَّاجُ: معناهُ إنْ كنتُم تحبُّون الله ـ إن تَقْصِدُوا طاعته ـ فافعلوا ما أمركم به؛ إذْ مَحَبَّةُ العَبْدِ لِلَّهِ والرسولِ: طاعتُه لَهُمَا، ورِضَاهُ بما أمرا؛ ومحبَّةُ اللَّهِ لهم عَفْوُه عنهم، وإنعامُه عليهم برحْمَتِه.

ويُقال: الحبُّ من الله عِصمةٌ وتوفيقٌ؛ ومِنَ العِبادِ طاعةٌ؛ كما قال القائل:

تَعْصِي الإِلٰهَ وأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا لَعَمْرِي فِي القِيَاسِ بَدِيعُ
لو كانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ويقال: محبةُ العَبْدِ للَّهِ تعظيمُه له وهَيْبَتُه منه؛ ومحبّةُ اللَّهِ له رحمتُه له، وإرادتُه الجميلَ له؛ وتكون بمعنى مَدْحِه وثنائه عليه.

قال القُشَيْري: فإذا كان بمعنىٰ الرحمةِ والإرادةِ والمَدْحِ كان من صفاتِ الذات. وسيأتي بَعْدُ في ذِكْرِ مَحبَّة العَبْدِ غيْرُ هذا بحَوْلِ اللَّهِ تعالَىٰ.

١١٥٠ ـ حدثنا أبو إسحاق: إبراهيم بن جعفر الفقيهُ؛ قال: حدثنا أبو الأَصْبَغ: عيسىٰ بن سَهْل، وحدثنا أبو الحَسَن: يونس بن مُغِيث الفقيهُ بقراءتي عليه؛ قالا: حدثنا حاتم بن محمد؛ قال: حدثنا أبو حفص الجُهَني، حدثنا أبو بكر الآجُرِّي، حدثنا إبراهيم بن موسىٰ الجَوْزِي، حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوَلِيدُ بن مُسلم، عن ثَوْر بن يزيد، عن خالد بن مَعْدان، عن عبدالرحمن بن عَمْرِو الأسلمي، وحُجْرِ الكَلاَعِي، عن العِرْباض بن سارِيَة في حديثه في موعظةِ النبيِّ ﷺ أنه قال: «**فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الراشدين المَهْدِيِّين؛ عَضُّوا عليها بالنواجذ؛ وإياكم ومُحْدَثات الأمورِ؛ فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بِدْعَةٌ وَكلَّ بِدْعَة ضَلاَلَةٌ**» [أبو داود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢، ٤٣)].

١١٥١ ـ زاد في حديث جابر بمعناه: «**وكُلُّ ضَلالَةٍ في النار**» [مسلم (٨٦٧)، النسائي (١٨٩/٣)].

١١٥٢ ـ وفي حديث أَبي رافع عنه عليه السلام: «**لا أُلفِيَنَّ أَحَدَكم متَّكئاً علىٰ أَرِيكتهِ، يأْتيه الأَمرُ من أمري، مما أَمرتُ به، أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أَدري، ما وجَدْنَا في كتابِ الله اتَّبعْنَاه**» [أبو داود (٤٦٠٥)، الترمذي (٢٦٦٣)، ابن ماجه (١٣)، أحمد (٨/٦)].

١١٥٣ ـ وفي حديث عائشة رضي اللَّهُ عنها: صنعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ شيئاً ترخَّصَ فيه، فتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فحمد الله، ثم قال: «**ما بالُ قومٍ يتنزَّهون عن الشيء أَصنعُه؟ فواللَّهِ! إنِّي لأَعْلَمُهم بالله، وأشدُّهم له خَشيَةً**» [البخاري (٦١٠١)، مسلم (٢٣٥٦)].

١١٥٤ ـ ورُوي عنه عليه السلام أنه قال: «**القرآنُ صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ علىٰ مَنْ كرهه، وهو الحَكَم؛ فمن استمسك بحديثي وفَهِمَهُ وحَفِظَهُ جاء مع القرآن؛ ومَنْ تهاوَنَ بالقرآن وحديثي خَسِر الدُّنيا والآخرة، أُمِرَتْ أمتي أن يأخذُوا بقَولي، ويُطيعُوا أَمري، ويتَّبعُوا سُنَّتِي؛ فمن رَضِيَ بقولي فقد رضي بالقُرآنِ**» قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

١١٥٥ ـ وقال عليه السلام: «**من اقتدىٰ بي فهو مِنِّي، ومنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مني**».

١١٥٦ ـ وعن أبي هُريرة رضي اللَّهُ عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ أحسنَ الحديث كِتابُ اللَّهِ، وخَيرُ الهُدىٰ هُدىٰ محمدٍ، وشَرُّ الأمور مُحْدَثَاتُها**» [مسلم (٨٦٧)، ابن ماجه (٤٥)].

١١٥٧ ـ وعن عبداللّه بن عَمْرو بن العاص رضي اللَّهُ عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**العلم ثلاثة، فما سِوىٰ ذلك فهو فَضل: آية مُحْكَمَةٌ، أو سُنَّة قائمةٌ، أو فريضةٌ عادلةٌ**» [أبو داود (٢٨٨٥)، ابن ماجه (٥٤)].

١١٥٨ ـ وعن الحسن بن أَبِي الحَسَنِ رضيَ الله عنه: قال عليه السلام: «**عَمَلٌ قليلٌ في سُنَّةٍ خَيرٌ من عَمَلٍ كثير في بِدْعَةٍ**».

١١٥٩ ـ وقال عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ تعالىٰ يُدخِلُ العَبْدَ الجنَّةَ بالسُّنَّةِ تَمسَّكَ بها**».

١١٦٠ ـ وعن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه، عن النبيّ ﷺ، قال: «**المُتَمَسِّكُ بسنَّتي عند فسادِ أُمتي له أَجْرُ مِئَةِ شَهيد**».

١١٦١ ـ وقال عليه السلام: «إنَّ بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّةً؛ وإنَّ أمتي تَفترقُ على ثلاثٍ وسبعين، كلُّها في النارِ إلا واحدةً». قالوا: ومَن هم؟ يا رسولَ الله! قال: «الذي أنا عليه اليومَ وأصحابي» [الترمذي (٢٦٤١)].

١١٦٢ ـ وعن أنس: قال عليه السلام: «مَنْ أحيا سُنَّتي فقد أحياني، ومَنْ أحياني كان معي في الجنة».

١١٦٣ ـ وعن عَمرِو بنِ عَوْف المُزَنيِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لبلال بن الحارث: «مَنْ أحيا سُنَّةً من سُنَّتي قد أُمِيتَتْ بَعْدِي، فإنَّ له من الأجرِ مِثْلَ مَنْ عمل بها من غير أَنْ ينقُصَ من أجورِهم شيئاً؛ ومن ابتدع بِدعَة ضلالةٍ لا تُرْضِي اللَّهَ ورسولَه كان عليه مثْلُ آثام مَنْ عَمِلَ بها، لا ينقُصُ ذلكَ من أوزارِ الناس شيئاً» [الترمذي (٢٦٧٧)، ابن ماجه (٢١٠)].

فصل
فِي ما وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ وَالأئِمَّةِ مِنِ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَالاقْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ وَسِيرَتِهِ ﷺ

١١٦٤ ـ وأما ما ورد عنِ السَّلَف والأئمة من اتِّباع سُنَّته والاقتداء بهَدْيه وسيرته، فحدَّثنا الشيخُ أبو عِمْرَانَ: موسىٰ بن عبدالرحمن بن أبي تَلِيد الفقيهُ سماعاً عليه؛ قال: حدثنا أبو عُمر الحافظُ، قال: حدثنا سَعِيد بن نَصْر، حدثنا قاسم بن أَصْبَغ، وَوَهْب بن مَسَرَّةَ؛ قالا: حدَّثنا محمد بن وَضَّاح، حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ، حدثنا مالك، عن ابنِ شهابٍ، عن رجلٍ من آل خالد بن أَسِيْد ـ أنه سَأل عبدَ اللَّه بن عُمَرَ، فقالَ: يا أَبا عبدالرحمن! إنَّا نَجِدُ صلاةَ الْخَوْفِ، وصلاةَ الْحَضَر في القرآن، ولا نجدُ صلاةَ السفَر؟ فقال ابْنُ عُمر: يابْن أَخي! إنَّ الله بعثَ إلينا محمداً ﷺ، ولا نعلمُ شيئاً؛ فإنما نفعلُ كما رأيْنَاه يَفْعل [ابن ماجه (١٠٦٦)، النسائي (٣/ ١١٦ـ ١١٧)].

١١٦٥ ـ وقال عُمر بن عبدالعزيز: سنَّ رسُولُ اللَّهِ ﷺ ووُلاةُ الأمرِ بعده سُنَناً، الأخذُ بها تصديقٌ بكتابِ الله، واستعمالٌ لطاعة اللَّهِ، وقوةٌ علىٰ دِين الله، ليس لأَحدٍ تغييرها ولا تبديلها ولا النَّظرُ في رَأيِ مَنْ خالفها؛ من اقتدىٰ بها فهو مُهتَدٍ، ومن انتصر بها منصورٌ، ومَنْ خالفها واتَّبَعَ غَيْرَ سبيلِ المؤمنين ولاَّه اللَّهُ ما تولَّىٰ، وأَصْلاهُ جَهنَّم وساءَتْ مَصِيراً.

١١٦٦ ـ وقال الحَسَنُ بن أَبي الحَسَن: عَمَلٌ قليل في سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَملٍ كثير في بِدْعة.

١١٦٧ ـ وقال ابنُ شِهاب: بلغَنا عن رِجَالٍ من أَهلِ العلم، قالوا: الاعتصامُ بالسنَّةِ نجاةٌ.

١١٦٨ ـ وكتبَ عُمَرُ بن الخطاب إلىٰ عُمّالِهِ بتعلّمِ السنَّة والفَرائض واللَّحْن. أي: اللغة.

١١٦٩ ـ وقال: إنَّ نَاساً يجادِلُونكم ـ يعني: بالقرآن ـ فخذُوهم بالسّنَنِ؛ فإنّ أَصحابَ السنن أعلمُ بكتابِ الله.

١١٧٠ ـ وفي خبره حين صلَّىٰ بذي الحُلَيْفةِ رَكْعَتَيْن، فقال: أَصنَعُ كما رأَيتُ رسولَ الله ﷺ يصنَع [مسلم (٦٩٢)].

١١٧١ ـ وعن عليٍّ ـ حين قَرَنَ ـ فقال له عُثْمان: تَرَىٰ أني أَنْهىٰ النَّاسَ عنه وتَفْعَله؟ قال: لم أَكُنْ أَدَعُ سُنَّةَ رسُولِ الله ﷺ لقَوْلِ أحدٍ من النَّاس [البخاري (١٥٦٣)، مسلم (١٢٢٣)].

١١٧٢ ـ وعنه: أَلاَ إنّي لستُ بنبيّ ولا يُوحَىٰ إليّ، ولكن أَعْمَلُ بكتاب اللَّهِ وسُنّةِ نبيه محمد ﷺ ما استَطَعْتُ.

١١٧٣ ـ وكان ابنُ مسعود يقول: القَصْدُ في السنَّة خير من الاجتهاد في البِدْعة.

١١٧٤ ـ وقال ابنُ عُمَرَ: صلاةُ السفر ركعتان؛ مَنْ خالف السنّة كَفَرَ.

١١٧٥ ـ وقال أُبيُّ بن كَعب: عليكم بالسبيل والسنّةِ؛ فإنه ما علىٰ الأرض من عَبْدٍ علىٰ السبيلِ والسنّةِ ذكَر اللَّهَ في نَفْسِهِ ففاضت عَيْنَاه من خَشْيَةِ رَبِّه، فيعذبه اللَّهُ أبداً؛ وما علىٰ الأرض من عَبْدٍ علىٰ السبيلِ والسنّةِ ذَكَر اللَّهَ في نَفْسه فاقشعَرَّ جلدُه من خشية الله إلا كان مَثَلُهُ كمَثَل شجرةٍ قد يَبِس وَرَقُها؛ فهي كذلك، إذْ أَصَابتها رِيحٌ شديدةٌ، فَتحاتَّ عنها وَرَقُها إلا حَطَّ اللَّهُ عنه خطاياه كما تَحاتَّ عن الشَّجَرةِ ورَقُها؛ فإنّ اقتصاداً في سبيلٍ وسنةٍ خيرٌ من اجتهادٍ في خلافِ سبيلٍ وسنّةٍ، وموافقةِ بدْعةٍ، وانظروا أَنْ يكونَ عَمَلُكم ـ إنْ كان اجتهاداً واقتصاداً ـ أن يكون علىٰ مِنهاج الأنبياء وسُنّتهم.

١١٧٦ ـ وكتب بعضُ عُمّال عُمَر بن عبدالعزيز إلىٰ عُمَرَ بحال بلدِه، وكَثْرةِ لُصوصِه؛ هل يَأْخُذهم بالظّنّة، أو يَحْمِلهم علىٰ البيِّنة وما جَرَتْ عليه السنّة؟

فكتب إليه عُمَرُ: خُذْهم بالبيّنةِ وما جَرَتْ عليه السنّةُ؛ فإنْ لم يُصلحهم الحقُّ فلا أصْلَحهم اللَّهُ.

١١٧٧ ـ وعن عطاء، في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي إلىٰ كتاب اللّهِ وسُنّةِ رسُولِ اللّهِ ﷺ.

١١٧٨ ـ وقال الشافعي: ليس في سُنّةِ رسُولِ اللّهِ ﷺ إلاّ اتّباعُها.

١١٧٩ ـ وقال عمر ـ ونظر إلىٰ الحَجَرِ الأَسود ـ: واللّهِ! إنك حَجَرٌ لا تنفع ولا تضرّ؛ ولولا أنّي رأيْتُ رسولَ الله ﷺ يُقبِّلُكَ ما قَبَّلْتُك [البخاري (١٥٩٧)، مسلم (١٢٧٠)]؛ ثم قبَّله.

١١٨٠ ـ ورُئي عَبْدالله بن عُمر يُدِيرُ ناقَتَه في مكانٍ، فسُئل عنه، فقال: لا أدري؟ إلا أني رأيْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ فَعَله، ففَعَلْتُه [أحمد (١٢٨)].

١١٨١ ـ وقال أبو عثمان الحِيرِي: مَنْ أَمَّرَ السنَّةَ علىٰ نفسه قَوْلاً وفِعْلاً نطق بالحكمة، ومَنْ أَمَّرَ الْهَوَىٰ علىٰ نَفْسه نطق بالبِدْعة.

١١٨٢ ـ وقال سَهْلُ التُّسْتَرِيُّ: أُصولُ مَذْهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبيِّ ﷺ في الأخلاقِ والأفعال، والأكلُ من الحلالِ، وإخلاصُ النية في جميع الأعمال.

١١٨٣ ـ وجاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ـ إنه الاقتداءُ برسُولِ الله ﷺ.

١١٨٤ ـ وحُكِيَ عن أحمد بن حَنْبل؛ قال: كُنْتُ يوماً في جماعةٍ تجرّدوا ودخلوا الماءَ، فاستعملتُ الحديث: «مَنْ كان يُؤمِنُ بالله واليوم الآخر فلا يدخلُ الحمّام إلا بمِئْزَرٍ» [الترمذي (٢٨٠٢)، النسائي (١/١٩٨)] ولم أَتجرّد؛ فرأيتُ تلكَ الليلةَ قائلاً لي: يا أحمدُ! أَبْشِر؛ فإنَّ اللّهَ قد غفر لك باستعمالك السنَّةَ، وجعلكَ إماماً يُقْتَدىٰ بك.

قلت: مَنْ أنتَ؟ قال: جبريل.

فصل

فِي أَنَّ مُخَالَفَةَ أَمرِهِ ﷺ وَتَبدِيلَ سُنَّتِهِ ضَلَالٌ وَبِدْعَةٌ

ومخالفةُ أمره وتبديل سُنّتِه ضَلالٌ وبِدْعةٌ متوعَّد من الله تعالىٰ عليه بالخِذْلان والعذاب، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

١١٨٥ ـ حدثنا أبو محمد: عبدالله بن أبي جَعْفر، وعبدالرحمن بن عتّاب

بقراءتي عليهما؛ قالا: حدثنا أبو القاسم: حاتِمُ بن محمد، حدثنا أبو الحسَن القابِسيّ، حدثنا أبو الحسن بن مسرور الدبّاغ، حدثنا أحمد بن أبي سليمان، حدثنا سُحْنُون بنِ سَعِيد، حدثنا ابنُ القاسم، حدثنا مالك، عن العَلاء بن عبدالرحمن، عن أَبِيه، عن أَبي هريرة أَنَّ رسولَ الله ﷺ خرج إلىٰ المقبرة. . . وذكر الحديثَ في صفَةِ أُمّته؛ وفيه: «فَلَيُذَادَنَّ رجَالٌ عن حَوْضِي كما يُذَادُ البعيرُ الضالُّ، فأُنادِيهم: أَلاَ هَلُمَّ! أَلا هَلُمَّ!

فيقال: إنهم قد بدَّلُوا بَعْدَك. فأقول: فَسُحْقاً، فَسُحْقاً، فَسُحْقاً» [البخاري (١٣٦)، مسلم (٢٤٩)].

١١٨٦ ـ وَرَوَىٰ أَنَس أن النبيَّ ﷺ قال: «من رَغِبَ عن سُنتي فليس مني» [البخاري (٥٠٦٣)، مسلم (١٤٠١)].

١١٨٧ ـ وقال: «من أَدْخَل في أَمرنا ما ليس منه فهو رَدٌّ» [البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨)].

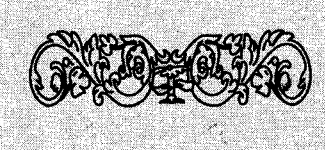
١١٨٨ ـ وَرَوَىٰ ابن أَبي رافع، عن أبيه، عن النبي ﷺ؛ قال: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكم متكِئاً علىٰ أَرِيكَتِه يأتيه الأمرُ من أمري، مما أَمَرْتُ به، أو نَهَيتُ عنه، فيقول: لا أَدرِي، ما وجدنا في كتابِ الله اتبَعْناه».

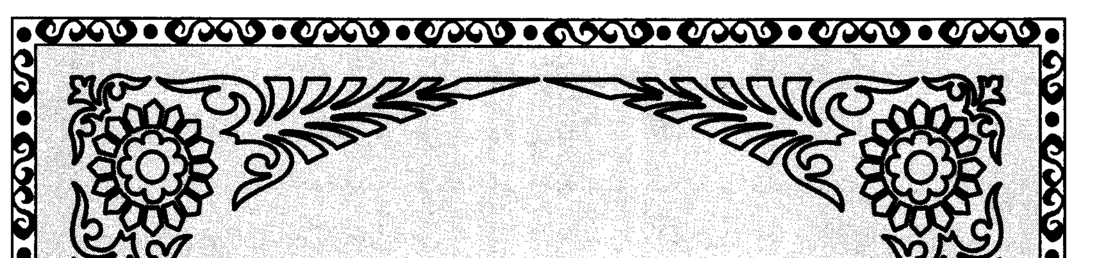
١١٨٩ ـ زاد في حديثِ المِقْدام: «أَلاَ وإنّ ما حَرّم رسولُ الله ﷺ مِثْلُ ما حَرّم الله» [الترمذي (٢٦٦٤)، ابن ماجه (١٢)].

١١٩٠ ـ وقال عليه السلام ـ وجِيءَ بكتابٍ في كَتِفٍ ـ: «كفىٰ بقوم حُمْقاً ـ أو قال: ضَلالاً ـ أَنْ يَرْغَبُوا عما جاءَ به نَبيُّهم إلىٰ غير نبيِّهم، أو كتابٍ غير كتابهم؛ فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]».

١١٩١ ـ وقال عليه السلام: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» [مسلم (٢٦٧٠)].

١١٩٢ ـ وقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: لستُ تارِكاً شيئاً كان رسولُ الله ﷺ يعْمَلُ به إلا عملْتُ به؛ إني أَخشى إنْ تَركْتُ شيئاً من أمره أَنْ أَزِيغ [البخاري (٣٠٩٣)، مسلم (١٧٥٩/٥٤)].





الباب الثاني

في لُزُوْمِ مَحبَّتِهِ عَليهِ السَّلامُ

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

فكفىٰ بهذا حضّاً وتنبيهاً ودَلالةً وحُجّةً علىٰ إلزام محبّته، ووجوب فَرْضِها، وعِظَم خَطَرِها، واستحقاقِه لها عليه السلام. إذ قرَّع تعالىٰ مَنْ كان مالُه وأهلُه وولَدُه أحبَّ إليه من اللَّهِ ورسولِه، وأوعدهم بقوله تعالىٰ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ...﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

ثم فسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممّن ضَلَّ ولم يَهْدِه اللَّهُ.

١١٩٣ ـ أخبرنا أبو عليّ الغسّاني الحافظ فيما أجازَنيه، وهو مما قرأْته علىٰ غير واحد؛ قال: حدثنا سِراجُ بن عبدالله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصِيلي، حدثنا المَرْوَزيُّ، حدثنا أبو عبدالله: محمد بن يُوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن عبدالعزيز بن صُهَيْب، عن أَنَس رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من وَلَدِهِ وَوالِدِهِ والنَّاسِ أجمَعين»** [البخاري (١٥)، مسلم (٤٤)].

١١٩٤ ـ وعن أبي هريرة نحوُه [البخاري (١٤)].

١١٩٥ ـ وعن أنسٍ، عنه عليه السلام: **«ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللَّهُ ورسولهُ أَحبَّ إليه مما سِوَاهما، وأَنْ يحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا للَّهِ، وأَنْ يكرهَ أَنْ يَعُودَ في الكفر كما يكرهُ أن يُقذَفَ في النار»** [البخاري (١٦)، مسلم (٤٣)].

١١٩٦ ـ وعن عُمر بن الخطاب رضي اللَّهُ عنه أنه قال للنبيّ ﷺ: لأَنْتَ أحبُّ إليّ من كلِّ شيءٍ إلاَّ نَفْسي التي بين جَنْبيَّ.

فقال النبيُّ ﷺ: **«لن يُؤمِنَ أَحَدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه مِنْ نفسه»**.

فقال عمر: والذي أنزلَ عليك الكتابَ! لأَنْتَ أحبُّ إلي من نفسي التي بين جَنْبيَّ.

فقال له النبيُّ ﷺ: **«الآن، يا عُمَرُ!»** [البخاري (٦٦٣٢)].

١١٩٧ ـ قال سَهْلٌ: مَنْ لم يَرَ وِلايَةَ الرسول عليه في جميع الأَحوالِ، ويرىٰ نفْسَه في مِلْكِهِ ـ عليه السلام ـ لا يَذُوقُ حلاوةَ سُنَّتِه؛ لأنَّ النبيّ ﷺ قال: **«لا يُؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه...»** الحديث.

فصل
فِي ثَوابِ مَحبَّتِهِ ﷺ

١١٩٨ ـ حدثنا أبو محمد بن عَتَّاب بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن: علي بن خلَف، حدثنا أبو زَيْد المَرْوزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عَبْدان، حدثنا أبي، حدثنا شُعْبة، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبي الْجَعْد، عن أَنس: رَضي الله عنه أنّ رجلاً أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: متى الساعة؟ يا رسولَ الله! قال: **«ما أعْدَدْتَ لها؟»** قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاةٍ ولا صَوْمٍ ولا صدقةٍ، ولكنّي أُحبُّ اللَّهَ ورسولَه. قال: **«أنْتَ مع مَنْ أحبَبْتَ»** [البخاري (٦١٧١)، مسلم (٢٦٣٩/١٦٤)].

١١٩٩ ـ وعن صَفْوانَ بنِ قُدامَةَ: هاجرتُ إلىٰ النبيّ ﷺ فأَتَيْتُه، فقلت: يا رسولَ الله! ناوِلْني يدَكَ أُبايعك. فناوَلَني يَدَهُ، فقلتُ: يا رسولَ الله! إني أُحبُّك. قال: **«المرءُ مع مَنْ أَحبَّ»**.

١٢٠٠ ـ ورَوَىٰ هذا اللفظَ عن النبيّ ﷺ عَبْدالله بن مسعود [البخاري (٦١٦٨)، مسلم (٢٦٤٠)].

١٢٠١ ـ وأبو موسىٰ [البخاري (٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤١)].

١٢٠٢ ـ وأنس [أبو داود (٥١٢٧)، الترمذي (٢٣٨٥)].

١٢٠٣ ـ وعن أبي ذرّ بمعناه [أبو داود (٥١٢٦)].

١٢٠٤ ـ وعن عليّ أنّ النبيّ ﷺ أخذَ بِيَدِ حَسن وحُسين، فقال: «مَنْ

أَحبّني وأَحبَّ هٰذَين وأَباهما وأُمّهما كان معي في دَرَجَتي يوم القيامة» [الترمذي (٣٧٣٣)، أحمد (٧٧/١)].

١٢٠٥ ـ ورُوِي أنّ رجُلاً أَتَىٰ النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! لأَنْتَ أَحبُّ إليّ مِنْ أَهلي ومَالِي؛ وإنِي لأَذكُرُكَ فما أصبِر حتى أَجِيءَ فأنظرَ إليك؛ وإني ذكرتُ مَوْتي وموتَك، فعرفتُ أنك إذا دخلْتَ الجنة رُفِعْتَ مع النبيّين، وإنْ دَخَلْتُها لا أَرَاك.

فأنزل اللّٰهُ تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] فدعا به فقرأها عليه.

١٢٠٦ ـ وفي حديثٍ آخَر: كان رَجُلٌ عند النبيِّ ﷺ ينظرُ إليه لا يَطْرِفُ، فقال: «ما بالُكَ؟» قال: بأَبي وأُمّي! أَتَمَتَّعُ من النظَر إليكَ، فإذا كان يومُ القيامةِ رفعك الله بتفضيله؛ فأنزل اللّٰهُ الآية.

١٢٠٧ ـ وفي حديث أَنسٍ رضِيَ اللّٰهُ عنه: «مَنْ أَحبَّني كان معي في الجنّةِ».

فصل

فيمَا رُوِيَ عَنِ السّلَفِ والأَئِمّةِ مِنْ مَحَبّتِهِمْ للنّبِيّ ﷺ وشَوْقِهِمْ لَهُ

١٢٠٨ ـ حدثنا القاضي الشَّهيد، حدثنا العُذْريّ، حدثنا الرازيّ، حدثنا الجُلُودي، حدثنا ابن سُفْيان، حدثنا مُسْلِم، حدثنا قُتَيبة، حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن، عن سُهيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة رضي اللّٰهُ عنه أنَّ رسولَ اللّٰهِ ﷺ قال: «مِنْ أَشَدِّ أُمّتي لي حُبّاً ناسٌ يكونونَ بَعْدِي؛ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لو رآني بأهله ومَالِهِ» [مسلم (٢٨٣٢)].

١٢٠٩ ـ ومِثْلُه عن أَبي ذَرٍّ [أحمد (١٥٦/٥)].

١٢١٠ ـ وقد تقدّم حديثُ عُمَرَ رضيَ اللّٰهُ عنه وقولُهُ للنبي ﷺ: لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيّ من نفسي، وما تقدم عن الصحابةِ في مِثْلِهِ.

١٢١١ ـ وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: ما كان أحدٌ أحبَّ إليّ من رَسُولِ الله ﷺ [مسلم (١٢١)].

١٢١٢ ـ وعن عَبْدَةَ بنت خالد بن مَعْدان؛ قالت: ما كان خالدٌ يَأْوِي إلىٰ

فراشٍ إلاَّ وهو يذْكُرُ من شَوْقِهِ إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار يُسمِّيهم ويقول: هُم أصْلِي وفَصْلي، وإليهم يحنُّ قَلْبِي، طالَ شوقي إليهم، فعجِّل ربِّ! قَبْضي إليك، حتى يَغْلِبَه النَّوم.

١٢١٣ ـ ورُوِي عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عنه أنه قال للنبيِّ ﷺ: والذي بعثَكَ بالحق! لإِسلامُ أبِي طالب كان أقرَّ لعيني من إسلامِهِ ـ يعني: أباه أبا قُحافَةَ ـ وذلك أنَّ إسلامَ أبي طالب كان أقرَّ لعينكَ.

١٢١٤ ـ ونحوُه عن عُمر بن الخطَّاب؛ قاله للعباس: أنْ تُسْلمَ أحَبُّ إليَّ من أنْ يُسلمَ الخطَّابُ؛ لأنَّ ذلكَ أحبُّ إلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

١٢١٥ ـ وعن ابْن إسحاقَ: أنَّ امرأةً من الأنصار قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجُها يوم أُحُدٍ مع رسولِ الله ﷺ، فقالت: ما فَعَل رسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحَمْدِ الله كما تُحبِّين. قالت: أرُونيهِ حتى أنْظُرَ إليه. فلما رَأتْهُ قالت: كُلُّ مُصيبةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ.

١٢١٦ ـ وسُئل عليُّ بن أبِي طالب رضِيَ اللَّهُ عنه كيف كان حُبُّكم لرسُول الله ﷺ؟ قال: كان واللَّهِ! أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادِنا وآبائنا وأمَّهاتنا، ومن المَاءِ الباردِ علىٰ الظَّما.

١٢١٧ ـ وعن زيد بن أسلم: خرج عُمر رضِيَ اللَّهُ عنه ليلةً يحرُس الناسَ، فرأىٰ مِصْبَاحاً في بيتٍ، وإذا عجوزٌ تَنْفُش صُوفاً، وتقول:

علىٰ مُحمَّدٍ صلاةُ الأبرارْ صلَّىٰ عليه الطيِّبونَ الأخيارْ

قد كنتَ قوَّاماً بُكاً بالأسحارْ يا ليتَ شِعْرِي والمَنَايا أطوارْ

هل تَجْمَعُنِي وحَبِيبِي الدَّارْ؟

تَعْنِي: النبيَّ ﷺ.

فجلس عُمر رضِيَ اللَّهُ عنه يَبكِي؛ وفي الحكاية طول.

١٢١٨ ـ ورُوِيَ أنَّ عَبدَاللَّه بن عُمر خَدِرتْ رِجْلُه، فقيل له: اذكُر أحبَّ الناسِ إليك يَزُلْ عنك.

فصاحَ: يا مُحمَّدَاه! فانتشرَتْ [البخاري (٩٦٧)].

١٢١٩ ـ ولما احتُضِر بلالٌ رضِيَ اللَّهُ عنه نادت امرأتُه: واحُزْنَاه! فقال: واطَرَبَاه! غداً ألْقَىٰ الأحِبَّة، محمداً وحِزْبه.

١٢١٩م ـ ومثله عن حُذَيْفَةَ بن اليمان رضي الله عنهما.

١٢٢٠ ـ ويُروىٰ أنَّ امرأةً قالت لعائشة رَضِيَ الله عنها: اكْشِفي لي قَبْرَ رسولِ اللَّهِ ﷺ؛ فكشفَتْه لها، فبكَتْ حتى ماتت.

١٢٢١ ـ ولما أخرج أهلُ مكة زَيْدَ بن الدَّثِنَةَ من الحَرَم ليَقْتُلوه، قال له أبو سفيان بنُ حَرْبٍ: أَنْشُدُكَ باللَّهِ يا زَيْدُ! أتُحِبُ أَنَّ مُحَمَّداً الآنَ عندنا مكانك تُضْرَبُ عُنُقُهُ، وأنَّكَ في أهلك؟

فقال زَيْد: والله! ما أُحبُّ أَن محمداً الآنَ في مكانه الذي هو فيه تُصِيبُه شَوْكَةٌ وأني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحداً يحبُّ أحداً كَحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً ﷺ.

١٢٢٢ ـ وعن ابن عباس: كانَتْ المرأةُ إذا أَتَت النبيّ ﷺ حلَّفها بالله: ما خرجَتْ مِنْ بُغْضِ زَوجٍ ولا رَغْبةً بأرضٍ عن أرضٍ؛ وما خرجَتْ إلا حبّاً لله ورسوله.

١٢٢٣ ـ ووقف ابن عُمَرَ علىٰ ابْنِ الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عنهما بعد قَتْلِه، فاستغفر له، وقال: كنتَ، والله ـ ما علمتُ ـ صوَّاماً قوَّاماً تُحِبُّ اللَّهَ ورسوله.

فصل

فِي عَلامَةِ مَحبَّتِهِ عَلَيهِ السَّلامُ

اعلَمْ أنَّ مَنْ أَحبَّ شيئاً آثَرَه، وآثَر مُوافقَته، وإلاَّ لم يكُنْ صادقاً في حُبِّه، وكان مُدَّعِياً. فالصادقُ في حبِّ النبيِّ ﷺ مَنْ تَظْهَرُ علاماتُ ذلك عليه.

وأوَّلُها: الاقتداءُ به واستعمالُ سُنَّتِه، واتِّبَاعُ أقوالِه وأفعَالِه، وامتثالُ أوامره، واجتنابُ نواهيه، والتأدُّبُ بآدابه في عُسْرِه ويُسْرِه، ومنْشَطِه ومَكْرَهِه، وشاهدُ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وإيثارُ ما شَرَعه وَحَضَّ عليه علىٰ هَوَىٰ نفسه، وموافقةِ شهوتِه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وإسْخَاطُ العبادِ في رضا الله تعالىٰ.

١٢٢٤ ـ حدثنا القاضي أبو عليّ الحافظ، حدثنا أبو الحُسَيْن الصَّيْرَفيُّ، وأبو الفضل بن خَيْرون؛ قالا: حدثنا أبو يَعْلَىٰ البَغْدَادِيّ، حدثنا أبو علي السِّنْجِيُّ، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى، حدثنا مسلم بن حاتم، حدثنا

محمد بن عَبْدالله الأنصاري، عن أبيه، عن عليّ بن زَيْد، عن سَعِيد بن المسيِّب؛ قال: قال أَنَس بن مالك رضي اللَّهُ عنه: قال لي رسولُ الله ﷺ: **«يا بُنَيَّ! إنْ قَدَرْتَ علىٰ أَنْ تُصْبِحَ وتُمْسِي ليس في قَلْبك غِشٌ لأحدٍ فافْعَل»**.

ثم قال لي: **«يا بُنيّ! وذلكَ مِنْ سُنَّتي، ومَنْ أَحْيا سُنّتي فقد أَحبَّني، ومَنْ أَحبَّني كان معي في الجنَّة»** [الترمذي (٢٦٧٨)].

فمن اتَّصفَ بهذه الصفةِ فهو كاملُ المحبةِ لِلَّهِ ورسوله، ومَنْ خالفَها في بعضِ هذه الأمور فهو ناقصُ المحبَّةِ، ولا يخرج عن اسْمِها.

١٢٢٥ ـ ودليلُه قَوْلُه عليه السلام للذي حدَّهُ في الخَمْر فلَعَنَه بعضُهم، وقال: ما أكثرَ ما يُؤْتَىٰ به! فقال النبيُّ ﷺ: **«لا تَلْعَنْهُ، فإنه يُحِبُّ اللَّهَ ورسولَه»** [البخاري (٦٧٨٠)].

ومن علاماتِ محبّة النبيِّ ﷺ كَثْرَةُ ذِكْرِه له؛ فمن أَحبَّ شيئاً أكثر ذِكْرَه.

ومنها: كثرةُ شَوْقِه إلىٰ لِقَائه؛ فكلُّ حَبيبٍ يحبُّ لِقَاءَ حَبِيبه.

١٢٢٦ ـ وفي حديث الأَشعريِّين عند قدومهم المدينةَ: أنهم كانوا يَرْتَجِزون: غَداً نَلْقَىٰ الأَحِبَّة. محمداً وصَحْبَه.

١٢٢٧ ـ وتقدّم قولُ بلال.

١٢٢٨ ـ ومثْلُه قال عمار قبل قَتْلِه.

١٢٢٩ ـ وما ذَكَرْناه مِنْ قِصّة خالد بن مَعْدان.

ومن علاماته ـ مع كَثْرة ذِكْره ـ تعظيمُه له، وتَوْقيره عند ذِكْرِه، وإظهارُ الخشوع والانكسار مع سَمَاع اسْمِه.

قال إسحاق التُّجِيبي: كان أصحابُ النبيِّ ﷺ بعده لا يذكرونَه إلاَّ خَشَعوا واقشعرَّتْ جُلودُهم وبَكَوْا.

وكذلك كثير من التابعين. منهم مَنْ يفعلُ ذلكَ محبةً له وشوقاً إليه؛ ومنهم مَنْ يفعلهُ تَهَيُّباً وتوقيراً.

ومنها محبّتُه لمَنْ أحبَّ النبيّ ﷺ، ومَنْ هو بِسَبَبِه من أَهلِ بَيْته وصَحَابته من المهاجرينِ والأنصار؛ وعداوةُ مَنْ عادَاهم ويُغْضُ مَنْ أبغَضهم وسبَّهم؛ فَمَنْ أَحبَّ شيئاً أَحبَّ من يحبُّ.

١٢٣٠ ـ وقد قال ـ عليه السلام ـ في الحَسن والْحُسَين: **«اللَّهُمَّ! إِنِّي أُحبُّهما فأَحِبَّهما»** [الترمذي (٣٧٨٢)].

١٢٣١ ـ وفي رواية، في الحَسن: «**اللَّهُمَّ! إني أحبُه فأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّه**» [البخاري (٢١٢٢)، مسلم (٢٤٢١)].

١٢٣٢ ـ وقال: «**مَنْ أَحبَّهما فقد أحبَّني، ومَنْ أحبَّني فقد أحبَّ الله، ومَنْ أَبْغَضهما فقد أَبْغَضَنِي وَمَنْ أَبْغَضني فقد أَبْغَضَ اللَّهَ**» [ابن ماجه (١٤٣)].

١٢٣٣ ـ وقال: «**اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي، لا تَتَّخِذُوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبَّهم فبِحُبِّي أَحَبَّهم، ومن أبغضهم فبِبُغْضي أَبْغَضَهُم، ومَنْ آذاهم فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد آذىٰ اللَّهَ، ومَنْ آذىٰ اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يأْخُذَه**» [الترمذي (٣٨٦٢)، أحمد (٨٧/٤)].

١٢٣٤ ـ وقال في فاطمة رضِيَ اللَّهُ عنها: «**إنها بِضْعَةٌ مني، يُغْضِبُني ما أَغْضَبها**» [البخاري (٣٧١٤)، مسلم (٢٤٤٩)].

١٢٣٥ ـ وقال لعائشة ـ في أُسامة بن زيد ـ: «**أَحِبِّيه فإني أُحبُّه**» [الترمذي (٣٨١٨)].

١٢٣٦ ـ وقال: «**آيةُ الإيمانِ حبُّ الأَنصار؛ وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُهم**» [البخاري (١٧)، مسلم (٧٤)].

١٢٣٧ ـ وفي حديث ابن عُمر: «**مَنْ أَحبَّ العربَ فبِحُبِّي أَحَبَّهم، ومَنْ أبغَضهم فبِبُغضي أبغَضهم**».

فبالحقيقة، مَنْ أحبَّ شيئاً أحبَّ كلَّ شيءٍ يحبُّه. وهذه سِيرةُ السَّلَفِ حتى في المُباحَات وشهواتِ النفس.

١٢٣٨ ـ وقد قال أنس ـ حين رأىٰ النبيَّ ﷺ يتتبَّع الدُّبَّاء من حَوالي القَصْعَة: فما زلتُ أُحبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يومئذٍ [البخاري (٢٠٩٢)، مسلم (٢٠٤١)].

١٢٣٩ ـ وهذا الحسنُ بنُ عليّ، وعَبْداللَّهِ بن عبّاس، وعبداللّه بنُ جعفر أَتَوا سَلْمىٰ، وسأَلُوها أَنْ تصنَع لهم طعاماً مِمَّا كان يُعْجِبُ النبيَّ ﷺ.

١٢٤٠ ـ وكان ابنُ عُمر يلبَسُ النِّعَالَ السِّبْتِيَّةَ، ويَصْبغُ بالصُّفرةِ؛ إذ رأىٰ النبيَّ ﷺ يَفْعَلُ نَحْوَ ذلك [البخاري (٥٨٥١)، مسلم (١١٨٧)].

ومنها: بُغضُ مَنْ أبغضَ اللَّهَ ورسولَه، ومعاداةُ مَنْ عاداهُ، ومجانَبةُ مَنْ خالَف سُنَّتَه وابْتَدَعَ في دِينه، واستثقالُ كلِّ أمرٍ يخالفُ شَرِيعَته؛ قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ. . .﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء أصحابُه ـ عليه السلام ـ قد قتلوا أَحِبَّائَهم في مرضاته، وقاتلوا آباءَهُمْ وأبناءهم.

١٢٤١ ـ وقال له عَبْدُاللَّهِ بن عبداللَّه بن أُبيٍّ: لو شئتَ لأتيتُكَ برأسِهِ، يعني أباهُ.

١٢٤٢ ـ ومنها أنْ يُحِبَّ القرآنَ الذي أتىٰ به ـ عليه السلام ـ وهَدَىٰ به واهتدىٰ، وتخلَّق به حتى قالت عائشةُ رضِيَ الله عنها: «كان خُلُقُهُ القرآن» وحبُّه للقرآن: تلاوتُه، والعملُ به وتفهُّمه.

ويحبُّ سُنَّته، ويقِفُ عند حُدُودها.

قال سَهْلُ بنُ عَبْدِاللَّهِ: علامةُ حُبِّ اللَّهِ حبُّ القرآنِ؛ وعلامةُ حُبِّ الله وحُبِّ القرآنِ حُبُّ النبيِّ ﷺ، وعلامةُ حُبِّ النبيِّ ﷺ حُبُّ السنَّةِ، وعلامةُ حُبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرةِ، وعلامةُ حبِّ الآخرةِ بُغْضُ الدُّنيا، وعلامةُ بُغْضِ الدُّنيا ألاَّ يَدَّخِرَ منها إلاَّ زاداً وبُلْغَةً إلىٰ الآخرة.

١٢٤٣ ـ وقال ابن مسعود: لا يسأَلُ أحدٌ عن نفسه إلاَّ القرآن؛ فإنْ كان يحبُّ القرآنَ فهو يحبُّ اللَّهَ ورَسُولَه.

ومِنْ علامة حبِّهِ للنبيِّ ﷺ: شفقَتُه علىٰ أُمَّته، ونُصْحُه لهم، وسَعْيُهُ في مَصَالِحهم، ورَفْعُ المَضَارِّ عنهم؛ كما كان ـ عليه السلام ـ بالمؤمنين رؤوفاً رَحِيماً.

ومن علامةِ تَمام محبّته: زُهْدُ مُدَّعِيها في الدنيا، وإيثارُه الفقْر واتّصافُه به.

١٢٤٤ ـ وقد قال ـ عليه السلام ـ لأبي سَعِيد الخُدْريّ: **«إنَّ الفقر إلىٰ مَنْ يُحبّني منكم، أسرعُ من السَّيْلِ من أعلىٰ الوادي ـ أو الجبَل ـ إلىٰ أسْفَله»** [أحمد (٤٢/٣)].

١٢٤٥ ـ وفي حديث عَبْداللَّه بن مُغَفَّل: قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ الله! إني أُحبُّك. فقال: **«انظر ما تقول»**. فقال: واللَّهِ! إني أُحبّك، ثلاث مرات. قال: **«إنْ كُنْتَ تُحبني فأعِدَّ لِلْفَقْرِ تِجْفَافاً»** [الترمذي (٢٣٥٠)].

ثم ذكر نَحْوَ حديثِ أبي سعيد بمعناه.

فصل
فِي مغنَىٰ المَحَبَّةِ لِلنَّبيِّ ﷺ وَحَقِيقَتِهَا

اختلف الناسُ في تفسير محبَّةِ الله ومحبَّةِ النبيِّ ﷺ، وكثُرت عباراتُهم في كل رواية وليست ترجعُ بالحقيقة إلى اختلاف مَقَالٍ، ولكنها اختلافُ أحوال.

فقال سفيانُ: المحبةُ اتِّبَاعُ الرَّسول عليه السلام. كأنه التفت إلى قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعضُهم: محبةُ الرسولِ اعتقادُ نُصرتِه، والذَّبّ عن سُنَّتِه، والانقياد لها، وهيبة مخالفته.

وقال بعضهم: المحبةُ: دَوام الذِّكر للمحبوب.

وقال آخر: إيثار المحبوب.

وقال بعضهم: المحبةُ الشَّوقُ إلىٰ المحبوب.

وقال بعضُهم: المحبةُ مُوَاطَأَةُ القَلْبِ لِمُرَادِ الربِّ؛ يُحبُّ ما أَحبَّ، ويكرهُ ما كَرِهَ.

وقال آخر: المحبةُ مَيْلُ القلبِ إلىٰ مُوافِقٍ له.

وأَكثرُ العِبَارَاتِ المتقدمة إشارةٌ إلىٰ ثمراتِ المحبّة دُونَ حقيقتها.

وحقيقةُ المحبّة الميلُ إلىٰ ما يُوافِقُ الإنسانَ، وتكون موافَقَتُه له إمَّا لاسْتِلْذَاذِهِ بإدراكِهِ؛ كحبِّ الصُّورة الجميلةِ، والأصواتِ الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأَشباهِها ممّا كلُّ طَبْعٍ سليم مائلٌ إليها لموافَقَتِها له، أو لاسْتلذاذه بإدراكه بحاسّةِ عَقْله وقَلْبه مَعانيَ باطنةً شريفةً؛ كَحُبِّ الصالحين، والعلماء، وأهل المعروف، والمأثور عنهم السِّيَرُ الجميلةُ، والأفعالُ الحسنة؛ فإنَّ طَبْعَ الإنسانِ مائلٌ إلىٰ الشغَفِ بأمثال هؤلاء حتى بلغَ التَعصبُ بقومٍ لقوم، والتشيُّعُ من أمة في آخرين ما يؤدّي إلىٰ الجلاء عن الأوطان، وهَتْكِ الحُرَمِ، واخْترام النفوسِ.

أو يكونُ حبُّه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه؛ فقد جُبِلت النفوسُ علىٰ حُبِّ مَنْ أحسن إليها.

فإذا تقرّرَ لك هذا، نظرْتَ هذه الأَسبابَ كلَّها في حقِّهِ عليه السلام فعلمتَ أنه عليه السلام جامِعٌ لهذه المعاني الثلاثة الموجِبةِ للمحبة.

أمّا جمالُ الصورةِ والظاهر، وكمالُ الأخلاقِ والباطن، فقد قرّرْنا منها قبلُ فيما مرَّ من الكتاب ما لا يحتاجُ إلىٰ زيادةٍ.

وأما إحسانُه وإنعامُه علىٰ أُمّتِه فكذلك قد مرَّ منه في أوصافِ اللّهِ تعالىٰ له من رأفَتِه بهم، ورَحْمَته لهم، وهِدَايته إياهم، وشفَقَته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رَؤوفٌ رحيم، ورحمةً للعالمين، ومُبشراً ونَذِيراً، ودَاعياً إلىٰ الله بإذْنِه وسِراجاً مُنِيراً، ويَتْلو عليهم آياتِه، ويُزَكّيهم، ويُعَلِّمهم الكِتاب والحِكْمَة، ويَهْدِيهم إلىٰ صراطٍ مُستقيم.

فأي إحسانٍ أجلُّ قَدْراً، وأعظمُ خَطَراً من إحسانه إلىٰ جميع المؤمنين؟ وأيُّ إفضالٍ أعمُّ منفعةً، وأكثرُ فائدةً من إنعامِه علىٰ كافةِ المسلمين؟ إذ كان ذَرِيعَتَهم إلىٰ الهداية، ومُنقِذَهم من العَماية، وداعِيَهم إلىٰ الفَلاحِ والكرامة، ووسيلَتهم إلىٰ رَبِّهم، وشفيعَهم، والمتكلِّمَ عنهم، والشاهدَ لهم، والموجبَ لهمُ البقاءَ الدائم والنعيمَ السَّرْمَد.

فقد استبان لكَ أنه عليه السلام مستوجبٌ للمحبَّة الحقيقية شَرْعاً بما قدّمناه من صحيح الآثار، وعادةً وجبلَّةً بما ذكرناه آنِفاً، لإفاضتِهِ الإحسان، وعُمومِه الإِجْمالَ؛ فإذا كان الإنسانُ يحبُّ مَنْ مَنَحهُ في دُنْياه ـ مرّةً أو مرتين ـ معروفاً، أو استنقذَه من هَلَكَةٍ أو مَضَرَّةٍ مدّة، التأذي بها قليلٌ منقطع، فمَنْ منحه ما لا يَبيدُ من النعيم، ووَقَاه ما لا يَفْنى من عذابِ الجحيم أوْلىٰ بالحبّ.

وإذا كان يُحَبُّ بالطَّبْعِ مَلِكٌ لحُسْنِ سيرته، أو حاكِمٌ لما يُؤْثَر من قَوَامِ طريقته، أو قاضٍ بعيدُ الدار لما يُشاد مِنْ عِلْمه، أو كرم شيمتِه، فمَنْ جمع هذه الخصالَ علىٰ غايةِ مراتب الكمال أحقُّ بالحبّ، وأَوْلىٰ بالميل.

١٢٤٦ ـ وقد قال عليّ رضِيَ اللَّهُ عنه في صفته ﷺ: مَنْ رآه بَدِيهةً هَابَهُ، ومَنْ خالطه معرفةً أَحَبَّه.

١٢٤٧ ـ وذُكِر لنا عن بَعْضِ الصحابة أنه كان لا يصرِفُ بصَرَهُ عنه محبةً فيه.

فصل
فِي وُجُوبِ مُنَاصَحَتِهِ عَلَيهِ السَّلَامُ

قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

قال أهلُ التفسير: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: إذا كانوا مُخْلصين مُسْلمين في السرِّ والعَلاَنِية.

١٢٤٨ ـ حدثنا القاضي الفقيه أبو الوليد بقراءتي عليه، حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا يوسف بن عبدالله، حدثنا ابنُ عبدِالمؤمنِ، حدثنا أبو بكر التمَّار، حدثنا أبو داود، قال: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زُهير، حدثنا سُهَيل بن أبي صالح، عن عطاء بن يزيد، عن تَمِيم الداري؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الدِّينَ النصَّيحةُ. إنَّ الدِّينَ النصيحةُ. إنَّ الدِّينَ النصيحةُ**» ثلاث مرات. قالوا:

لمَنْ؟ يا رسولَ الله! قال: «للَّهِ، ولكتابه، ولرسُولِه، ولأئمة المسلمين، وعامّتهم» [أبو داود (٤٩٤٤)، مسلم (٥٥)].

قال الأئمة رحمهم الله: النصيحة للَّهِ ولرسولِه ولأئمة المسلمين وعامّتهم واجبةٌ.

قال الإمام أبو سليمان البُسْتي: النصيحةُ: كلمةٌ يُعبَّرُ بها عن جُمْلَةِ إرادةِ الخير للمنصوحِ له؛ وليس يمكنُ أنْ يعبَّرَ عنها بكلمةٍ واحدةٍ تحصُرُها. ومعناها في اللغة الإخلاصُ؛ من قولهم: نصحتُ العسلَ، إذا خلَّصته من شَمعه.

وقال أَبو بكر بن أبي إسحاق الخفَّاف: النُّصْحُ فِعْلُ الشَّيْءِ الذي به الصَّلاحُ والملاءمة، مأخوذ منَ النِّصَاح؛ وهو الخيطُ الذي يُخَاطُ به الثوبُ.

وقال أبو إسحاق الزجَّاجُ نحوه.

فنصيحةُ اللَّهِ تعالىٰ: صِحَّةُ الاعتقادِ له بالوَحْدَانية، ووصْفُه بما هو أَهلُه، وتَنْزِيهُهُ عما لا يجوزُ عليه، والرغبةُ في مَحَابّه، والبُعْدُ من مساخِطِه، والإخلاص في عبادته.

والنصيحةُ لكتابه: الإيمانُ به، والعملُ بما فيه، وتحسينُ تلاوته، والتخشّع عنده، والتعظيم له، وتفهُّمه والتفقُّه فيه، والذبُّ عنه من تأويل الغالين، وطَعْنِ المُلْحِدِين.

والنصيحةُ لرسوله: التصديقُ بنبوّته، وبَذْلُ الطاعةِ له فيما أَمَرَ به ونهى عنه؛ قاله أبو سُليمان.

وقال أبو بكر: ومُوازرته ونُصْرَتُهُ وَحِمَايَتُهُ حيّاً وميتاً، وإحياءُ سُنَّته بالطلب، والذّبُّ عنها، ونَشْرِها، والتخلُّق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة.

وقال أبو إبراهيم: إسحاقُ التُّجيبي: نصيحةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: التصديقُ بما جاءَ به، والاعتصامُ بسنَّتِه، ونَشْرُها، والحضُّ عليها، والدعوةُ إلىٰ الله، وكتابِه ولرسولِه، وإليها، وإلىٰ العمل بها.

وقال أحمد بن محمد: مِنْ مفروضات القلوبِ اعتقادُ النَّصيحةِ لرسولِ اللَّهِ ﷺ.

قال أبو بكر الآجُرّي وغيره: النصحُ له يَقْتَضِي نُصْحَين؛ نُصْحاً في حياته، ونُصْحاً بعد مماته؛ ففي حياته نُصْحُ أَصحابِه له بالنَّصر والمُحَاماة عنه ومعاداة مَنْ عاداه، والسَّمع والطاعةِ له، وبَذْلِ النفوسِ والأموالِ دونَه؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

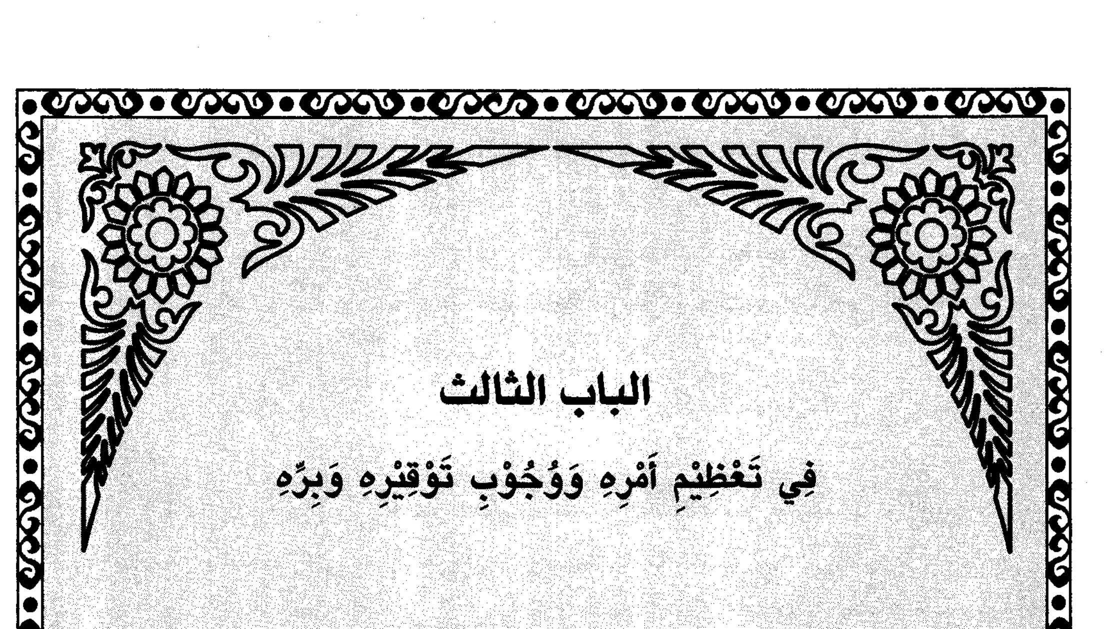
وأمّا نصيحةُ المسلمين له بعد وَفَاتِه فالتزامُ التوقير والإجلال، وشدةُ المحبّة له، والمثابرةُ علىٰ تعلُّم سُنّتِه، والتفقُّهِ في شَرِيعته؛ ومحبّةُ أهل بيته وأصحابِه، ومجانبةُ مَنْ رَغِبَ عن سُنّته، وانحرف عنها، وبُغْضُه والتحذير منه، والشفقةُ علىٰ أُمّتِه، والبحثُ عن تعرُّف أخلاقِه وسِيَره وآدابه، والصَّبرُ علىٰ ذلك.

فعلىٰ ما ذكره تكونُ النصيحةُ إحدىٰ ثمراتِ المحبّة، وعلامةً من علاماتها كما قدمنا.

١٢٤٩ ـ وحكىٰ الإمام أبو القاسم القُشَيْرِيُّ أَنَّ عَمْرو بن الليث ـ أحدَ ملوكِ خُراسان، ومشاهيرَ الثوّار، المعروفَ: بالصفَّار ـ مات، فرئي في النوم؛ فقيل له: ما فعل اللّهُ بك؟ فقال: غُفِر لي، فقيل: بماذا؟ قال: صعدتُ ذُرْوَةَ جَبَل يوماً فأشرفتُ علىٰ جنودي فأعجبتني كثرتُهم، فتمنّيت أني حضرتُ رسولَ الله ﷺ فأَعَنْته ونَصَرْتُه؛ فشكر اللّهُ لي ذلك وغَفرَ لي.

وأمّا النُّصْحُ لأئمةِ المسلمين: فطاعَتُهم في الحقِّ، ومَعُونتُهم فيه، وأَمْرُهم به، وتذكيرهم إياه علىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ وتَنْبِيهُهم على ما غَفلوا عنه، وَكُتِم عنهم، من أمورِ المسلمين، وتَرْكُ الخروجِ عليهم، وتضريبِ الناس وإفسادِ قلوبهم عليهم.

والنُّصحُ لعامّة المسلمين: إرشادهم إلىٰ مَصَالحهم، ومعونتُهم في أَمْر دِينهم ودُنْياهم بالقول والفِعْل، وتنبيهُ غافِلهم، وتبصيرُ جاهلهم، ورَفْدُ محتاجِهم، وسَتْرُ عَوْراتهم، ودَفْعُ المضارّ عنهم، وجَلْب المنافع إليهم.



الباب الثالث

فِي تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَوُجُوْبِ تَوْقِيْرِهِ وَبِرِّهِ

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

و: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٢ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فأوجب الله تعالى تَعْزيرَه وَتَوْقِيرَهُ، وأَلْزَم إكرامَه وتعظيمه.

قال ابن عباس: تُعزِّرُوه: أي تُجِلُّوه. وقال المبرّد: تعزِّروه: تبالغوا في تعظيمه.

وقال الأخفش: تَنصرونه. وقال الطبري: تُعينونه.

وَقُرِىء: تُعَزِّزُوه ـ بزايين ـ من العزّ.

ونُهِيَ عن التقدُّم بين يديْه بالقولِ؛ وسُوءِ الأدب بسَبْقِه بالكلام، على قول ابن عباس وغَيْرِه؛ وهو اختيارُ ثَعْلَب.

قال سَهْلُ بن عبدالله: لا تَقُولوا قبل أَنْ يَقُول؛ وإذا قال فاستمِعُوا له وأَنْصِتوا.

ونُهُوا عن التقدُّم والتعجُّلِ بقَضَاءِ أَمْرٍ قبلَ قَضائِهِ فيه؛ وأَنْ يَفْتَاتُوا بشيء في

ذلك مِنْ قِتَالٍ أو غيره من أَمْرِ دِينهم إلاَّ بأمره، ولا يسبقوه به.

وإلىٰ هذا يرجعُ قولُ الحسن، ومجاهد، والضحَّاكِ، والسُّدِّي، والثَّوري.

ثم وعظهم وحذَّرهم مخالفةَ ذلك؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] قال الماوَرْديُّ: اتَّقُوا: يعني في التقدُّم.

وقال السُّلَمي: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في إهمالِ حَقِّه وتَضْييع حُرْمَتِه، إنه سميعٌ لقَوْلكم، عَليم بِفعْلكم.

ثم نهاهم عن رَفْعِ الصوتِ فوقَ صَوْتِه، والجَهْرِ له بالقول كما يَجْهرُ بعضُهم لبعض ويرفَعُ صوتَه.

وقيل: كما يُنَادِي بعضُهم بَعْضاً باسمه.

قال أبو محمد: مَكِّيٌّ: أيْ لا تُسابِقُوه بالكلام، وتُغْلِظُوا له بالْخِطَاب ولا تُنَادُوه باسْمِهِ نِداءَ بَعْضِكُمْ لبعض ولكن عظِّموه وَوقِّروه ونادُوه بأشرفِ ما يحبُّ أنْ يُنَادىٰ به: يا رسول الله! يا نبيَّ اللَّهِ!

وهذا كقوله في الآية الأخرىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ [النور: ٦٣] على أَحَدِ التَّأْويلين.

وقال غيره: لا تخاطِبوه إلاَّ مُسْتَفْهِمين.

ثم خوَّفهم الله تعالىٰ بحَبْط أعمالهم إن هم فعلوا ذلكَ، وحذَّرهم منه.

١٢٥٠ ـ وقيل: نزلت الآية في وَفْدٍ من بني ـ تميم ـ وقيل: في غيرهم؛ أَتَوا النبيَّ ﷺ فنادَوْه: يا محمدُ! يا محمدُ! اخْرُج إلينا. فذمَّهم الله تعالىٰ بالْجَهل، ووصفَهم بأَنَّ أكثَرَهم لا يَعْقِلون.

١٢٥١ ـ وقيل: نزلت الآيةُ في محاوَرَةٍ كانت بين أَبي بكر وعُمر بين يدي النبيّ ﷺ، واختلافٍ جَرَى بينهما، حتى ارتفعَتْ أصواتُهما [البخاري (٤٣٦٧)].

١٢٥٢ ـ وقيل: نزلت في ثابت بن قَيس بن شَمَّاس خَطِيب النبيِّ ﷺ في مفاخرة بَني تميم، وكان في أُذُنَيْه صَمَم؛ فكان يَرْفَعُ صَوْتَه؛ فلما نزلت هذه الآية أقام في مَنْزِله، وخَشِيَ أَنْ يكونَ حَبِطَ عَملُه؛ ثم أَتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا نبيّ اللَّهِ! لقد خَشيتُ أَنْ أكون هلكتُ؛ نهانا اللَّهُ أَنْ نَجْهَر بالقَوْلِ، وأنا امرؤٌ جَهيرُ الصوت.

فقال له النبيُّ ﷺ: **«يا ثابتُ! أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تعيشَ حميداً، وتُقْتَلَ شَهيداً، وتدخلَ الجنة؟»** [البخاري (٢٦١٣)، مسلم (١١٩)] فقُتِلَ يومَ اليمامة.

١٢٥٣ ـ ورُوي أَنَّ أَبا بكر لما نزلت هذه الآيةُ قال: واللَّهِ! يا رسولَ اللَّهِ! لا أُكَلِّمُكَ بعدها إلا كأخي السِّرَارِ.

١٢٥٤ ـ وأنَّ عُمر كان إذا حَدَّثه حدَّثه كأخِي السِّرار؛ ما كان يُسمِعُ رسولَ الله ﷺ شيئاً بَعدَ هذه الآية حتى يَسْتَفْهِمَه [البخاري (٧٣٠٢)].

١٢٥٥ ـ فأنزل اللَّهُ تعالىٰ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣].

وقيل: نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ...﴾ [الحجرات: ٤] في غير بني تميم؛ نادَوه باسْمِه.

١٢٥٦ ـ ورَوَىٰ صَفوانُ بن عَسَّال: بَيْنَا النبيُّ ﷺ في سَفر إذ ناداهُ أعرابيٌّ بصوتٍ له جَهْوَرِي: أَيَا محمدُ! أيا محمدُ! فقلنا له: اغْضُضْ من صَوْتِك؛ فإنكَ قد نُهِيتَ عن رَفْع الصوت [الترمذي (٢٣٨٧)].

وقال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا...﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال بعض المفسرين: هي لغةٌ كانت في الأنصارِ؛ نُهُوا عن قَوْلها تعظيماً للنبيِّ ﷺ، وتَبْجيلاً له؛ لأنَّ معناها: ارْعَنا نَرْعَكَ فَنُهوا عن قَوْلها؛ إذْ مُقْتضاها، كأنهم لا يرعَونه إلاَّ بِرعايتِهِ لهم؛ بل حقُّه أَنْ يُرْعَىٰ علىٰ كلِّ حال.

وقيل: كانت اليهودُ تُعرِّضُ بها للنبيّ ﷺ بالرُّعونة؛ فَنُهي المسلمون عن قَوْلها؛ قَطْعاً للذَّرِيعة، ومَنْعاً للتَّشبيه بهم في قولها، لمشاركة اللفظ. وقيل غَيْرُ هذا.

فصل
فِي عَادَةِ الصَّحَابَةِ فِي تَعظِيمِهِ عَلَيهِ السَّلامُ وَإِجْلالِهِ وَتَوْقِيرِهِ

١٢٥٧ ـ حدثنا القاضي أبو علي الصَّدَفي، وأبو بَحْرٍ الأَسَدِي بسماعي عليهما في آخرين؛ قالوا: حدثنا أحمد بن عُمَر، حدثنا أحمدُ بن الحَسَن، حدثنا محمد بن عيسىٰ، حدثنا إبراهيم بن سُفْيان، حدثنا مُسْلم، حدثنا محمد بن المُثَنَّىٰ، وأبو مَعْن الرَّقاشي، وإسحاق بن منصور؛ قالوا: حدثنا الضحَّاك بن مَخْلَد، حدثنا حَيْوَةُ بن شُرَيح، حدثني يزيد بن أبي حَبِيب، عن ابن شُمَاسَة المَهْرِيِّ؛ قال: حَضَرْنا عَمْرَو بنَ العاص...

فذكر حديثاً طَوِيلاً فيه عن عَمْرو، قال: وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ مِنْ رسولِ الله ﷺ، ولا أَجَلَّ في عَيْني منه، وما كنتُ أُطيقُ أَنْ أَملأَ عَيْنَيَّ منه إجلالاً

له؛ ولو سُئلتُ أَنْ أَصِفَه ما أطقتُ؛ لأني لم أكُنْ أملأُ عَيْنَيَّ منه [مسلم (١٢١)].

١٢٥٨ ـ ورَوَى التِّرمذي، عن أنس، أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يخرجُ علىٰ أَصحابه من المُهَاجرين والأنصار وهم جلوسٌ، فيهم أبو بكر، وعُمر؛ فلا يرفَعُ أَحدٌ منهم بَصَرَه إليه إلاَّ أبو بكر وعُمرُ؛ فإنهما كانا ينظُرَانِ إليه وينظر إليهما، ويتَبَسَّمان إليه، ويتبسَّمُ إليهما [الترمذي (٣٦٦٨)، أحمد (١٥٠/٣)].

١٢٥٩ ـ ورَوَىٰ أُسامةُ بن شَرِيك؛ قال: أَتيت النبيَّ ﷺ وأصحابُه حولَه كأنما علىٰ رُؤُوسِهم الطَّيْرُ [أبو داود (٣٨٥٥)].

١٢٦٠ ـ وفي حديث صِفَتِه: إذا تكلَّم أَطرق جلساؤه كأنما علىٰ رُؤُوسهم الطير.

١٢٦١ ـ وقال عُروة بن مسعود حين وجَّهَتْه قُرَيش عامَ القضيَّة إلىٰ رسُولِ الله ﷺ، فرأى من تعظيم أصحابه له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتَدَرُوا وَضُوءه، وكادوا يَقْتَتِلون عليه، ولا يَبْصُق بُصاقاً، ولا يتنخَّمُ نُخَامَةً إلا تَلَقَّوْها بأكفِّهم فدَلَكُوا بها وُجوهَهم وأجسادَهم؛ ولا تسقُط منه شعرةٌ إلاَّ ابْتَدَرُوها؛ وإذا أمرهم بأَمْرٍ ابْتَدَروا أَمْرَه؛ وإذا تكلَّم خَفَضُوا أصواتَهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظَر تعظيماً له.

فلما رجعَ إلىٰ قُريش، قال: يا مَعْشَر قُرَيش! إني جئْتُ كِسْرَىٰ في مُلْكه، وقَيْصَرَ في مُلْكه، والنَّجَاشي في مُلكه؛ وإني، واللَّهِ! ما رأَيْتُ مَلِكاً في قومٍ قَطُّ مثلَ محمدٍ في أصْحَابه [البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)].

وفي رواية: إِنْ رأيتُ مَلِكاً قطُّ يُعظمه أصحابُه ما يُعَظِّمُ محمداً أصحابُه. وقد رأيتُ قوماً لا يُسْلِمُونه أبداً.

١٢٦٢ ـ وعن أنس: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ والحلاَّق يحلقُه، وقد أطاف به أصحابُه، فما يُريدون أن تَقَع شعرةٌ إلاَّ في يَدِ رَجُلٍ [مسلم (٢٣٢٥)].

١٢٦٣ ـ ومن هذا لمَّا أَذِنَتْ قُريش لعُثمانَ في الطَّواف بالبيت حين وجَّهه النبيُّ ﷺ إليهم في القَضِيَّة أَبى، وقال: ما كُنْتُ لأَفْعَلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ.

١٢٦٤ ـ وفي حديث طَلْحَةَ: إِنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قالُوا لأعرابي جاهلٍ: سَلْهُ عمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ـ وكانوا يَهَابونَه ويوقِّرونه ـ فسأله، فأَعرض عنه، إذ طلع طَلْحَةُ، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا مِمَّنْ قَضى نَحْبَهُ»** [الترمذي (٣٧٤٢)].

١٢٦٥ ـ وفي حديث قَيْلَةَ: فلما رأيتُ رسول الله ﷺ جالساً القُرْفُصاءَ أُرْعِدْتُ من الفَرَق. وذلك هَيْبَةً له وتعظيماً.

١٢٦٦ ـ وفي حديث المغيرة: كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يَقْرَعُون بابَهُ بالأظافير.

١٢٦٧ ـ وقال البَراء بن عازب: لقد كنتُ أُرِيدُ أن أَسأَلَ رسولَ الله ﷺ عن الأمر فأُؤخِّره سِنين مِنْ هَيْبَتِهِ.

فصل
فِيّ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ بعْدَ مَوْتِهِ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ

واعلم أنَّ حُرْمَة النبيِّ ﷺ بعد موتِه، وتوقيرَه وتعظيمَه، لازمٌ كما كان في حال حياتِه؛ وذلك عند ذِكْرِه ـ عليه السلام ـ وذِكْرِ حديثه وسُنَّتِه، وسَماعِ اسْمِه وسيرته، ومُعَاملةِ آلِهِ وعِتْرَته، وتعظيم أهل بيته وصحابته.

وقال أبو إبراهيم: إسحاق التُّجِيبي: واجبٌ على كل مُؤمنٍ متى ذَكَرَه ـ أو ذُكِر عنده ـ أنْ يخضَعَ ويَخْشع، ويتوقَّر ويسكنَ مِنْ حركته، ويأخُذَ في هَيْبَتِه وإجلالِه بما كان يأخُذ به نَفْسَهُ لو كان بين يَدَيه؛ ويتأدَّب بما أَدَّبَنا اللَّهُ به.

قال القاضي أبو الفضل: وهذه كانت سيرةَ سَلَفِنا الصالِح وأئمتنا الماضين رضي الله عنهم أجمعين.

١٢٦٨ ـ حدثنا القاضي أبو عبداللَّه: محمد بن عبدالرحمن الأشعري، وأبو القاسم: أحمد بن بَقِيّ الحاكم، وغيرُ واحد، فيما أجازُونيه؛ قالوا: حدثنا أبو العباسِ: أحمد بن عمر بن دِلْهاث قال: حدثنا أبو الحسن: علي بن فهر، حدثنا أبو بكر: محمد بن أحمد بن الفَرَج، حدثنا أبو الحَسَن: عبداللَّه بن المُنْتَاب، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا ابنُ حُمَيْد؛ قال: ناظرَ أبو جَعْفَرٍ أميرُ المؤمنين مَالِكاً في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، فقال له مَالِكٌ: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صَوْتَك في هذا المسجد، فإن اللَّهَ عز وجل أَدَّبَ قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣].

وذمَّ قوماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] وإنَّ حُرمَتَه ميتاً كحُرمَتِه حيّاً.

فاستكان لها أبو جَعْفرٍ، وقال: يا أبا عبدالله! أأستَقْبِلُ القِبْلَةَ وأدْعو أم أستقبلُ رسولَ الله ﷺ وأدعو؟ فقال: ولِمَ تصرفُ وجْهَك عنه وهو وَسِيلَتُك وَوَسِيلةُ أبيكَ آدمَ ـ عليه السلام ـ إلىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة؟ بل استقبلْهُ واستَشْفِعْ بِهِ، فيشفِّعه اللَّهُ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقال مالك ـ وقد سُئِل عن أيوب السَّخْتِياني ـ: إني ما حدثتكم عن أحدٍ إلا وأيوب أفضل منه.

قال: وحَجَّ حِجَّتَيْن، فكنتُ أرْمُقُهُ ولا أسمَعُ منه، غير أنه كان إذا ذُكِرَ النبيُّ ﷺ بكىٰ حتى أرْحَمَهُ!

فلما رأيتُ منه ما رأيتُ، وإجلالَه للنبي ﷺ كَتَبْتُ عنه.

وقال مُصْعَب بن عبدالله: كان مالك إذا ذُكر النبيُّ ﷺ يتغيَّر لونُه ويَنْحَني حتى يَصْعُبَ ذلك علىٰ جُلسائه؛ فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتُم ما رأيت لما أنكرتُم عليّ ما تَرَوْن؛ ولقد كنت أرىٰ محمد بن المُنْكَدِر ـ وكان سيِّدَ القُرَّاء ـ لا يكادُ يسألُه أحدٌ عن حديثٍ أبداً إلاَّ يَبْكي حتى نَرْحَمَه.

ولقد كنتُ أرىٰ جعفَر بن محمد الصادق، وكان كثيرَ الدُّعابَةِ والتبسُّم؛ فإذا ذُكر عنده النبيُّ ﷺ اصْفَرَّ. وما رأيتُه يحدِّثُ عن رسولِ الله ﷺ إلا علىٰ طَهارةٍ.

وقد اختلفتُ إليه زَماناً فما كنتُ أراه إلا علىٰ ثلاث خِصَال: إمّا مُصَلِّياً، وإمَّا صامتاً؛ وإمَّا يقرأُ القُرآن؛ ولا يتكلّم فيما لا يَعْنيه؛ وكان من العلماء والعُبَّادِ الذين يَخْشَوْنَ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ.

ولقد كان عَبْدالرحمن بن القاسم يذكُرُ النبيَّ ﷺ فيُنْظَرُ إلىٰ لونه كأنه نُزِفَ منه الدَّمُ، ولقد جفَّ لسانُهُ في فَمِهِ هَيْبَةً لرسُولِ الله ﷺ.

ولقد كنتُ آتِي عامِرَ بن عَبْدالله بن الزُّبَيْر فإذا ذُكِر عِنده النبيُّ ﷺ بكى حتى لا يَبْقى في عينيْهِ دُموع.

ولقد رأيتُ الزُّهْرِيَّ، وكان من أَهنأ الناسِ وأقربِهم، فإذا ذُكِر عنده النبيُّ ﷺ فكأنه ما عَرَفك ولا عَرَفْتَهُ.

ولقد كنتُ آتِي صَفْوَان بن سُلَيم، وكان من المتعبِّدين المجتهدين؛ فإذا ذُكِر عنده النبيُّ ﷺ بكىٰ، فلا يزالُ يبكي حتى يقومَ الناسُ عنه ويتركوه.

ورُوِيَ عَنْ قتادة أنه كان إذا سَمِعَ الحديثَ أَخذه العَوِيلُ والزَّوِيل.

ولما كَثُر علىٰ مالكٍ الناسُ قيل له: لو جَعلْتَ مُسْتَمْلِياً يُسْمِعُهم؟ فقال: قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]. وحُرْمتُه حياً وميتاً سواء.

وكان ابْنُ سِيرين ربما يَضْحَكُ؛ فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ النبيِّ ﷺ خَشَع.

وكان عَبْدالرحمن بن مَهْدِي إذا قرأ حديثَ النبيّ ﷺ أمرهم بالسكوت؛ وقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] وَيَتَأَوَّل أنه يجبُ له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجبُ له عِنْدَ سَمَاع قوله.

فصل
فِي سِيرَةِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ رِوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ

١٢٦٩ ـ حدثنا الحُسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، حدثنا أبو بكر البَرْقَانِي، وغَيْرُه، حدثنا أبو الحسن الدارَقُطني، حدثنا علي بن مُبَشِّر، حدثنا أحمد بن سِنَان القطّان، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا المسعودي، عن مُسلم البَطِين، عن عَمْرِو بن مَيْمُون؛ قال: اختلفتُ إلىٰ ابْنِ مسعود سَنَةً؛ فما سمعتهُ يقول: قال رسولُ الله ﷺ، إلاَّ أنه حدَّث يوماً فجرىٰ علىٰ لسانه: قال رسولُ الله ﷺ، ثم عَلاَهُ كَرْبٌ، حتى رأيتُ العَرَقَ يتحدَّر عن جَبهته، ثم قال: هكذا إنْ شاء الله، أو فَوْق ذا، أو ما دُونَ ذا، أو ما هو قريبٌ مِنْ ذا.

وفي رواية: فتربَّدَ وَجْهه.

وفي رواية: وقد تغرْغرتْ عَيْنَاه، وانتفَخَتْ أوداجُه.

وقال إبراهيم بن عبدالله بن قُرَيْم الأنصاري، قاضي المدينة: مَرَّ مالكُ بن أنس علىٰ أبي حازم، وهو يحدِّثُ، فجازَهُ، وقال: إني لم أَجِدْ مَوْضِعاً أَجلِسُ فيه، وكرهتُ أَنْ آخُذَ حديثَ رسول الله ﷺ وأنا قائم.

وقال مالك: جاء رجلٌ إلىٰ ابْن المُسَيِّب، فسأله عن حديثٍ وهو مُضْطَجِعٌ، فجلس وحدَّثه؛ فقال له الرجُلُ: وَدِدْت أنكَ لم تَتَعَنَّ، فقال: إني كرهتُ أَنْ أُحدِّثَكَ عن رسولِ الله ﷺ وأنا مُضْطَجع.

ورُوي عن محمد بن سيرين أنه قد يكونُ يضحكُ، فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ النبيّ ﷺ خَشَع.

وقال أبو مُصْعب: كان مالكُ بن أَنَس لا يُحدِّثُ بحديثِ رسولِ الله ﷺ إلاَّ وهو على وُضوءٍ، إجلالاً له.

وحكى مالكٌ ذلك عن جعفر بن محمد الصادق.

وقال مُصْعَب بن عبدالله: كان مالك بن أَنَس إذا حدَّث عن رسولِ الله ﷺ توضَّأ وتهيَّأ، ولبِسَ ثيابَه، ثم يحدِّث.

قال مُصْعب: فسُئل عن ذلك، فقال: إنه حديثُ رسولِ الله ﷺ.

قال مُطَرِّفٌ: كان إذا أتى الناسُ مالكاً خرجَتْ إليهم الجاريةُ وتقول لهم: يقولُ لكم الشيخُ: تُرِيدون الحديثَ أو المسائل؟ فإنْ قالوا: المسائل خرج إليهم، وإنْ قالوا: الحديث، دخل مُغْتَسَله، فاغتسل وتطَيَّبَ، ولبس ثياباً جُدُداً، ولبس ساجَه وتعمَّمَ، ووضَع على رأسه رداءَه، وتُلْقى له مِنَصَّةٌ، فيخرج فيجلسُ عليها، وعليه الخشوع، ولا يزالُ يُبَخَّرُ بالعودِ حتى يَفرُغَ مِنْ حديثِ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

قال غَيْرهُ: ولم يكن يجلسُ على تلك المِنصَّةِ إلا إذا حدَّث عن رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ أبي أُوَيْس: فقيل لمالك في ذلك، فقال: أُحِبُّ أَنْ أُعظِّمَ حديثَ رسولِ الله ﷺ، ولا أُحدِّثُ به إلا على طهارةٍ مُتمَكِّناً.

قال: وكان يكرهُ أَنْ يحدِّثَ في الطريق، أو وهو قائم، أو مُستَعْجل.

وقال: أُحِبُّ أَنْ أُفَهِّمَ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

قال ضِرَارُ بن مُرَّة: كانوا يكرهون أَنْ يحدِّثوا بحديثٍ على غير وُضوء.

ونَحْوُه عن قَتادة.

وكان الأَعمشُ إذا أحبَّ أن يحدِّث وهو على غير وُضوء تَيَمَّم.

وكان قَتَادةُ لا يحدِّث إلا على طَهارةٍ، ولا يقرأُ حديثَ النبيِّ ﷺ إلا على وُضوء.

قال عبدالله بن المبارك: كنتُ عند مالك، وهو يحدِّثنا، فلدغَتْه عَقْرَبٌ ستَّ عَشْرةَ مَرَّةً، وهو يتغيَّرُ لونُه وَيَصْفَرُّ ولا يقْطَعُ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

فلما فرغ من المجلس، وتفرَّقَ عنه الناسُ قلتُ له: يا أبا عبدالله! لقد رأيتُ منك اليومَ عجباً؟ قال: نعَمْ لدغَتْنِي عقرب سِتَّ عَشْرَةَ مرَّةً، وأنا صابرٌ في جميع ذلك؛ وإنما صَبَرْتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ الله ﷺ.

قال ابْنُ مهدي: مشيتُ يوماً مع مالك إلى العَقِيق، فسألتُه عن حديثٍ،

فانتهرني وقال لي: كنتَ في عيني أجلَّ من أنْ تسألَني عن حديثِ رسولِ الله ﷺ ونحنُ نمشي.

وسأله جرير بن عبدالحميد القاضي عن حديثٍ وهو قائم، فأمر بحَبْسه، فقيل له: إنه قاضٍ! قال: القاضي أَحقُّ مَنْ أُدِّبَ.

وذُكِر أَن هشام بن الغازي سأَل مالكاً عن حديثٍ وهو واقفٌ فضربه عشرين سَوْطاً، ثم أَشفق عليه فحدَّثه عشرين حديثاً؛ فقال هشام: وددْتُ لو زادني سِيَاطاً ويزيدني حديثاً.

قال عَبْدالله بن صالح: كان مالكٌ والليْثُ لا يكتبان الحديثَ إلاَّ وهما طاهِرَان.

وكان قتادةُ يستحبُّ ألاَّ يَقْرأ أَحاديث النبيِّ ﷺ إلا على وضوءٍ، ولا يحدِّثُ به إلاَّ على طَهَارةٍ.

وكان الأعمشُ إذا أراد أَنْ يحدِّثَ وهو على غير وضوءٍ تيمَّم.

فصل
ومن تَوْقيره ﷺ وبِرّه، بِرُّ آلِه وذُرِّيّته وأُمَّهاتِ المؤمنين: أزواجِه، كما حضَّ عليه ﷺ، وسلكهُ السلفُ الصالحُ رضِيَ الله عنهم

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

١٢٧٠ ـ أخبرنا الشيخ أبو محمدِ بن أحمد العَدْل مِنْ كتابِه، وكَتَبْتُ من أصله، حدثنا أبو الحسن المقرىء الفَرْغاني، حدثتني أُمُّ القاسم بنت الشيخ أبي بكر الخفَّاف، قالت: حدثني أبي، حدثنا حاتم ـ وهو ابن عقيل ـ، حدثنا يحيىٰ: هو ابن إسماعيل، حدثنا يحيىٰ: هو الحِمَّاني، حدثنا وَكيع، عن أبيه، عن سَعِيد بن مسروق، عن يزيد بن حَيَّان، عن زَيد بن أرْقَمَ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أَنْشُدُكُم اللَّهَ في أهل بيتي. . .**» ثلاثاً.

قلنا لزَيْد: مَنْ أَهْلُ بيتِه؟ قال: آلُ عليِّ بن أبي طالب، وآلُ جَعْفرٍ، وآل عَقِيلٍ، وآلُ العباس [مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧١ ـ وقال عليه السلام: «**إني تَارِكٌ فيكم ما إنْ أخذتُم به لم تضِلُّوا: كتابَ الله، وعِتْرتي: أهلَ بيتي؛ فانظُرُوا كيف تَخْلُفوني فيهما**» [الترمذي (٣٧٨٨)، مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧٢ ـ وقال عليه السلام: «**معرفةُ آلِ محمدٍ ﷺ براءةٌ من النار، وحُبُّ آلِ محمد ـ ﷺ ـ جَوازٌ علىٰ الصِّراطِ، والوِلايةُ لآل محمدٍ أمانٌ من العذاب**».

قال بعضُ العلماء: معرفتُهم هي معرفةُ مكانِهم من النبيّ ﷺ، وإذا عَرَفَهُمْ بذلك عرفَ وُجوبَ حقِّهم وحُرمَتِهم بسببه.

١٢٧٣ ـ وعن عُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ـ وذلك في بيت أمِّ سلمَة ـ دعا فاطمة وحَسَناً وحُسيناً، فجلَّلهم بكساءٍ، وعَلِيٌّ خَلْفَ ظهره فجلَّله بكساءٍ، ثم قال: «**اللَّهُمَّ! هؤلاء أهلُ بيتي؛ فأَذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ، وطَهِّرْهُم تطهيراً**» [الترمذي (٣٧٨٧)].

١٢٧٤ ـ وعن سعد بن أبي وقَّاص: لما نزلت آيةُ المُبَاهَلة دعا النبيُّ ﷺ عَلِيًّا وحَسَناً وحُسيناً وفاطمة، وقال: «**اللَّهُمَّ! هؤلاء أهلي**» [مسلم (٢٤٠٤/٣٢)].

١٢٧٥ ـ وقال النبيُّ ﷺ في عليٍّ: «**مَنْ كنتُ مَوْلاه فعليٌّ مولاه؛ اللهم! وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**».

١٢٧٦ ـ وقال فيه: «**لا يحبُّكَ إلاَّ مُؤمِنٌ، ولا يُبْغضُك إلا مُنافِقٌ**» [مسلم (٧٨)].

١٢٧٧ ـ وقال للعبَّاس: «**والذي نفسي بيده! لا يَدْخلُ قَلْبَ رجُلٍ الإيمانُ حتى يُحبَّكم للَّهِ ورسُولِه. ومَنْ آذىٰ عَمِّي فقد آذاني؛ وإنما عَمُّ الرجلِ صِنْوُ أبيه**» [الترمذي (٣٧٥٨)].

١٢٧٨ ـ وقال للعباس: «**اغْدُ عليَّ يا عمّ! مع وَلَدِك**» فجمعهم وجَلَّلَهم بمُلاءَتِهِ، ثم قال: «**هذا عَمِّي وصِنْوُ أبي؛ وهؤلاءِ أهلُ بيتي؛ فاسْتُرْهم اللَّهُمَّ! من النار كَسَتْرِي إياهم**» فأَمَّنَتْ أُسْكُفَّةُ الباب وحوائطُ البيت: آمين. آمين.

١٢٧٩ ـ وكان يأخذ أُسامةَ بن زَيْد، والحَسَن؛ ويقول: «**اللَّهُمَّ! إني أُحبُّهما فأَحِبَّهُما**» [البخاري (٣٧٣٥)].

١٢٨٠ ـ وقال أبو بكر: ارقُبُوا محمَّداً في أهل بيته [البخاري (٣٧١٣)].

١٢٨١ ـ وقال أيضاً: والذي نَفْسِي بيده! لَقَرابةُ رسولِ الله ﷺ أحبُّ إليّ أن أَصِلَ مِن قرابتي [البخاري (٣٧١٢)، مسلم (١٧٥٩)].

١٢٨٢ ـ وقال ﷺ: «**أحبَّ اللَّهُ مَنْ أحبَّ حُسيناً**» [الترمذي (٣٧٧٥)، ابن ماجه (١٤٤)].

١٢٨٣ ـ وقال: «من أحبَّني وأحبَّ هذين ـ وأشار إلىٰ حَسَنٍ وحُسَين وأباهما وأمَّهما ـ كان معي في دَرجتي يوم القيامة».

١٢٨٤ ـ وقال عليه السلام: «مَنْ أهان قُريشاً أهانه اللَّهُ» [أحمد (٦٤/١)].

١٢٨٥ ـ وقال ﷺ: «قَدِّموا قُريشاً ولا تَقَدَّموها».

١٢٨٦ ـ وقال عليه السلام لأُم سَلَمَةَ: «لا تؤذيني في عائِشَةَ» [البخاري (٢٥٨١)، مسلم (٢٤٤٢)].

١٢٨٧ ـ وعن عُقْبة بن الحارث: رأيتُ أبا بكر رضي الله عنه وقد جعل الحَسَن بن علي علىٰ عُنقِه وهو يقول: بأَبي شَبِيهٌ بالنبي، ليس شبيهاً بعليّ، وعليٌّ رضِيَ الله عنه يَضْحَك [البخاري (٣٧٥٠)].

١٢٨٨ ـ ورُوِي عن عَبْدِاللَّه بن الحسَن، قال: أتَيتُ عُمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ في حاجة، فقال لي: إذا كانت لك حاجةٌ فأَرسِلْ إليّ أو اكتُبْ؛ فإني أستحيي من الله أن يراكَ علىٰ بابي.

١٢٨٩ ـ وعن الشَّعْبيِّ: صلَّىٰ زَيْد بن ثابت علىٰ جَنَازة أمه، ثم قُرِّبَت له بَغْلتُه ليركَبَها، فجاء ابْنُ عباس فأخذ بِركَابه؛ فقال زَيْدٌ: خَلِّ عنه، يابْنَ عمِّ رسولِ الله! فقال: هكذا نَفْعَلُ بالعلماء. فقَبَّل زَيْد يَدَ ابن عباس؛ وقال: هكذا أمرنا أَنْ نَفْعلَ بأَهل بيتِ نبيِّنا.

١٢٩٠ ـ ورأىٰ ابْنُ عُمَرَ محمدَ بن أسامةَ بن زَيْد؛ فقال: لَيْتَ هذا عَبْدي؛ فقيل له: هو محمد بن أُسامة. فَطأْطأَ ابنُ عُمَرَ رَأْسَه، ونقَر بيده الأرْض، وقال: لو رآهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ لأَحَبَّه [البخاري (٣٧٣٤)].

١٢٩١ ـ وقال الأَوْزاعي: دخلَتْ بِنْتُ أُسامةَ بن زَيْدٍ ـ صاحبِ رسولِ الله ﷺ ـ علىٰ عُمر بن عبدالعزيز ومعها مَوْلًى لها يُمْسِكُ بيدها، فقام لها عُمر، ومشَىٰ إليها حتى جعل يدَها بين يَدَيْه، ويَدَاه في ثِيَابه، ومَشَىٰ بها حتى أَجْلسها علىٰ مَجْلسه، وجلس بين يديها، وما تركَ لها من حاجةٍ إلاَّ قَضَاها.

١٢٩٢ ـ ولما فَرض عُمَرُ بن الخطّاب لابْنِه عبدِ اللَّهِ في ثلاثةِ آلافٍ، ولأُسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسِ مئة، قال عَبْدُاللَّه لأبيه: لِمَ فضَّلْتَه؟ فوالله! ما سبقني إلىٰ مَشْهَد. فقال له: لأَنَّ زيداً كان أَحَبَّ إلىٰ رسولِ الله ﷺ مِنْ أَبيك، وأُسامةُ أحبُّ إليه منكَ؛ فآثرتُ حُبَّ رسولِ الله ﷺ علىٰ حُبِّي [الترمذي (٣٨١٣)].

١٢٩٣ ـ وبلغ معاويةَ: أَنَّ كابِس بن رَبيعة يُشَبَّه برسولِ الله ﷺ؛ فلما دخل

عليه من باب الدار قام عن سريره، وتلقَّاه، وقبَّل بين عَيْنيه، وأقطعه المِرْغابَ لِشَبهه بصورةِ رسولِ الله ﷺ.

١٢٩٤ ـ ورُوي أن مالكاً ـ رحِمَه الله ـ لمَّا ضَربه جعفرُ بن سليمان، ونال منه ما نال، وحُمِل مَغْشِيًا عليه، دخل عليه الناسُ، فأفاقَ، فقال: أُشهِدُكم أنِّي قد جعلتُ ضاربي في حِلّ.

فسُئل بعد ذلك، فقال: خِفتُ أن أموتَ، فألقىٰ النبيَّ ﷺ، فأستَحِي منه أنْ يدخُلَ بَعْضُ آلِه بِسَبَبِي النار.

١٢٩٥ ـ وقيل: إنَّ المنصور أقاده من جعفر، فقال له: أعوذُ باللَّهِ! واللَّهِ! ما ارتفعَ منها سوطٌ عن جسمي إلا وقد جعلتُه في حِلٍّ لقَرابته من رسول الله ﷺ.

١٢٩٦ ـ وقال أبو بكر بن عَيَّاشٍ: لو أتاني علي وعمر وأبو بكر لبدأتُ بحاجةِ عليٍّ قَبْلهما؛ لقرابته مِنْ رسُولِ الله ﷺ؛ ولأنْ أخِرَّ من السماء إلىٰ الأرض أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُقَدِّمَه عليهما.

١٢٩٧ ـ وقيل لابْن عباس: ماتت فلانة ـ لبعض أزواج النبي ﷺ ـ فسجد؛ فقيل له: أتسجدُ هذه الساعة؟ فقال: أليس قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا رأيتُم آيةً فاسْجُدوا**»، وأيُّ آيةٍ أعظمُ من ذهابِ أزواج النبيِّ ﷺ؟ [أبو داود (١١٩٧)، الترمذي (٣٨٩١)].

١٢٩٨ ـ وكان أبو بكر وعُمر يَزُورَانِ أمَّ أيْمَنَ مولاةَ النبيِّ ﷺ ويقولان: كان رسولُ الله ﷺ يَزُورُها [مسلم (٢٤٥٤)].

١٢٩٩ ـ ولمَّا وردَتْ حليمةُ السعديَّةُ علىٰ النبيِّ ﷺ بسط لها رداءهُ وقَضَىٰ حاجتَها.

فلما تُوفِّيَ وفدت علىٰ أبي بكر وعُمر فصنعا بها مِثْلَ ذلك.

فصل

ومن توقيره وبِرِّه ﷺ توقيرُ أصْحَابه وَبِرُّهم ومعرفةُ حقِّهم، والاقتداءُ بهم، وحُسْنُ الثناء عليهم، والاستغفارُ لهم، والإمساكُ عمَّا شَجر بينهم، ومعاداةُ مَنْ عادَاهُمْ، والإضرابُ عن أخبار المؤرِّخين، وجهَلةِ الرُّواةِ، وضُلَّالِ الشِّيعَة والمُبْتَدِعين القادحةِ في أحدٍ منهم؛ وأن يُلْتَمس لهم ـ فيما نُقِل عنهم من مِثْل ذلك فيما كان بينهم مِنَ الفِتَن ـ أحسنُ التأويلات، ويُخرَّج لهم أصْوَبُ المخارج. إذ هم أهلُ ذلك، ولا يُذكَرُ أحدٌ منهم بسوءٍ، ولا يُغْمَصُ

عليه أمْرُهُ، بل يُذْكَر حسناتُهم وفضائلُهم، وحَمِيدُ سِيرتهم، ويُسكتُ عما وَرَاءَ ذلك.

١٣٠٠ ـ كما قال عليه السلام: **«إذا ذُكِرَ أَصْحَابِي فأَمسِكُوا»**.

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

١٣٠١ ـ حدثنا القاضي أبو عليّ، حدثنا أبو الحُسَين، وأبو الفَضل؛ قالا: حدثنا أبو يَعْلىٰ، حدثنا أبو عليّ السِّنْجِيّ، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا التِّرمذي، حدثنا الحَسَن بن الصبَّاح، حدثنا سُفيان بن عُيَيْنة، عن زائدة، عَنْ عَبْدالملك بن عُمَير، عن رِبْعيّ بن حِرَاش، عن حُذَيفة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«اقْتَدُوا باللَّذين مِنْ بعدي: أبي بكر، وعُمَر»** [الترمذي (٣٨٠٤)، ابن ماجه (٩٧)، أحمد (٥/٣٨٥)].

١٣٠٢ ـ وقال: **«أصحابي كالنُّجوم بأيِّهم اقْتَديتُم اهتديتُم»**.

١٣٠٣ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَثَلُ أصحابي كمثَلِ المِلْحِ في الطعام؛ ولا يصلحُ الطعامُ إلا به»**.

١٣٠٤ ـ وقال: **«اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي؛ لا تتَّخذوهم غَرَضاً بعدي؛ فمن أحبَّهم فبحبّي أحبَّهم، ومن أبْغَضهم فبِبُغضِي أبْغَضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ اللَّهَ، ومَنْ آذىٰ اللَّهَ يوشكُ أَنْ يَأخذَه»**.

١٣٠٥ ـ وقال: **«لا تَسبُّوا أصحابي؛ فلو أنفق أحدُكم مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»** [البخاري (٣٦٧٣)، مسلم (٢٥٤، ٢٥٤١)].

١٣٠٦ ـ وقال: «مَنْ سبَّ أصحابي فعليه لَعْنَةُ اللَّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يقبلُ اللَّهُ منه صَرْفاً ولا عَدْلاً».

١٣٠٧ ـ وقال: «إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا».

١٣٠٨ ـ وقال في حديث جابر: «إنَّ اللَّهَ اختارَ أصحابي علىٰ جميع العالَمين سِوَىٰ النبيِّين والمرسلين، واختار لي منهم أربعةً: أبا بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليًا؛ فجعلهم خيرَ أصحابي، وفي أصحابي كلِّهم خير».

١٣٠٩ ـ وقال: «مَنْ أَحبَّ عُمَرَ فقد أحبَّني، ومَنْ أبغضَ عُمَرَ فقد أبغضني».

١٣١٠ ـ وقال مالك بن أنس، وغَيْرُه: مَنْ أَبغَضَ الصحابةَ وسبَّهم فليس له في فَيْءِ المسلمين حقٌّ، ونُزعَ بآية الحشر: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ٦ ـ ١٠].

١٣١١ ـ وقال: مَنْ غاظه أصحابُ محمدٍ فهو كافر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

١٣١٢ ـ وقال عَبْداللَّه بن المُبَارك: خَصْلتان مَنْ كانَتَا فيه نجا: الصدقُ، وحُبّ أصحَابِ محمد ﷺ.

١٣١٣ ـ وقال أيوب السَّخْتِيَاني: مَنْ أحب أبا بكر فقد أقام الدِّين، ومَنْ أحبَّ عُمر فقد أوْضَحَ السبيلَ، ومَنْ أحبَّ عثمان فقد استَضَاء بنُورِ اللَّه، ومَنْ أحبَّ عليًا فقد أخذ بالعُروة الوُثقىٰ، ومَنْ أحسنَ الثناءَ علىٰ أصحابِ محمد ـ ﷺ ـ فقد بريء من النِّفاق، ومن انْتَقَصَ منهم أحداً فهو مُبْتَدِعٌ مخالف السُّنَّة والسلف الصالح؛ وأخافُ ألاَّ يَصْعَد له عملٌ إلىٰ السماء حتى يحبَّهم جميعاً، ويكون قَلْبُه سليماً.

١٣١٤ ـ وفي حديث خالد بن سعيد أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أيُّها الناس! إني راضٍ عن أبي بكر فاعْرِفُوا له ذلك. أيها النَّاسُ! إني راضٍ عن عُمر، وعن

عليّ، وعن عثمان، وطلحَة، والزُّبير، وسَعدٍ، وسعيدٍ، وعبدالرحمن بن عَوْف؛ وأبي عبيدة؛ فاعرفوا لهم ذلك.

أَيُّها الناسُ! إنَّ اللَّهَ غَفَر لأهلِ بَدْرٍ والْحُدَيْبِيَة. أيها الناس! احفظوني في أَصحابي وَأَصْهاري وأَخْتَاني، لاَ يطالبَنَّكم أحدٌ منهم بمَظْلِمَةٍ؛ فإنها مَظْلِمةٌ لا توهَب في القيامةِ غداً».

١٣١٥ ـ وقال رجلٌ للمُعَافَى بن عمرانَ: أين عُمر بن عبدالعزيز مِنْ معاوية؟ فغضب وقال: لا يُقاسُ بأصحاب النبيِّ ﷺ أَحدٌ، معاوية صاحبُه وصِهره، وكاتبُه وأَمِينُه عَلَىٰ وَحْي الله.

١٣١٦ ـ وأُتِي النبيُّ ﷺ بِجَنازَةِ رَجُلٍ فلم يُصَلِّ عليه، وقال: «كَان يَبْغض عُثمانَ، فأَبْغَضَه الله» [الترمذي (٣٧٠٩)].

١٣١٧ ـ وقال عليه السلام في الأنصار: «اعْفُوا عن مُسِيئهم، واقْبلُوا من مُحسِنهم» [البخاري (٣٧٩٩، ٣٨٠٠)، مسلم (٢٥١٠)].

١٣١٨ ـ وقال: «احْفَظُوني في أصحابي وأَصْهَاري؛ فإنه مَنْ حفظني فيهم حَفظَه الله في الدنيا والآخرة، ومَنْ لم يحفَظْني فيهم تخلَّىٰ اللَّهُ منه، ومَنْ تخلَّىٰ اللَّهُ منه يوشِكُ أن يأخذه».

١٣١٩ ـ وقال عليه السلام: «مَنْ حَفِظني في أصحابي كنتُ له حَافظاً يوم القيامة».

١٣٢٠ ـ وقال: «مَنْ حَفِظني في أَصحابي وردَ عَلَيَّ الحوضَ، ومَنْ لم يَحفظني في أصْحابي لَم يَرِدْ عليّ الحوضَ، ولم يَرَني إلاَّ مِنْ بَعِيد».

١٣٢١ ـ وقال مالك ـ رحمه الله ـ: هذا النبيُّ مؤدِّب الْخَلْق الذي هدَانا اللَّهُ به، وجعله رحمةً للعالمين، يخرجُ في جَوْفِ الليلِ إلىٰ البَقِيع [مسلم (٩٧٤)] فَيَدْعُو لهم ويستغفِرُ كالمُوَدِّع لهم؛ وبذلك أمره الله، وأَمر النبيّ بحبّهم، ومُوَالاتهم، ومَعاداة مَنْ عَادَاهم.

١٣٢٢ ـ وروي عن كعب: ليس أحدٌ مِنْ أَصْحابِ محمد ﷺ إلاَّ ولَهُ شفاعةٌ يوم القيامة.

١٣٢٣ ـ وطَلَبَ من المُغيرة بن نَوْفَل أَنْ يشفَع له يوم القيامة.

١٣٢٤ ـ قال سَهْل بن عبداللَّه التُّسْتَرِيُّ: لم يُؤْمِن بالرسولِ مَنْ لم يُوَقِّرْ أَصحابَه، ولم يُعِزَّ أَوَامره.

فصل

ومن إعظامه وإكبارِه إعظامُ جميعِ أسبابِهِ، وإكرامُ مشاهِدِه وأمكنتِهِ من مكة والمدينة، ومَعاهِدِه، وما لَمَسَهُ عليه السلامُ أو عُرِف به.

١٣٢٥ ـ ورُوِي عن صَفِيَّةَ بنت نَجْدَةَ؛ قالت: كان لأبي مَحْذورَةَ قُصَّةٌ في مُقَدَّم رأسه، إذا قَعَد وأرسلها أصابت الأرضَ. فَقيل له: ألاَ تحلقُها؟ فقال: لم أكُنْ بالذي أحلِقُها، وقد مَسَّها رسولُ الله ﷺ بِيَدِه.

١٣٢٦ ـ وكانت في قَلَنْسُوة خالد بن الوليدِ شَعَراتٌ من شَعْر رسول الله ﷺ، فسقطتْ قلنسوتُه في بَعْضِ حُروبه، فشدَّ عليها شَدَّةً أنكر عليه أصحابُ النبيّ ﷺ كَثْرةَ مَنْ قُتِل فيها؛ فقال: لم أفعَلْها بسبب القَلَنْسُوة؛ بل لِمَا تضمَّنَتْه من شعْرِه ـ عليه السلام ـ لئلا أُسْلَب بركتهَا وتقع في أيدي المشركين.

١٣٢٧ ـ ورُئي ابنُ عُمر واضعاً يَدَهُ علىٰ مَقْعَدِ النبيّ ﷺ من المِنْبَر، ثم وضعها علىٰ وَجْهه.

١٣٢٨ ـ ولهذا كان مالك ـ رحِمَه الله ـ لا يركبُ بالمدينة دابَّةً؛ وكانَ يقول: أسْتَحِي من الله أنْ أطَأَ تُرْبَةً فيها رسولُ الله بحافِرِ دابَّة.

١٣٢٩ ـ ورُوي عنه أنه وهب للشَّافعي كُراعاً كثيراً كان عنده؛ فقال له الشافعيُّ: أمْسِكْ منها دابَّةً. فأجابه بمثل هذا الجواب.

١٣٣٠ ـ وقد حكىٰ أبو عبدالرحمن السُّلَمي عن أحمد بن فَضْلَوَيه الزَّاهد ـ وكان من الغُزاة الرُّماة ـ أنه قال: ما مَسَسْتُ القَوْسَ بيدي إلاّ علىٰ طَهارة منذ بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ أخذ القوسَ بيده.

١٣٣١ ـ وقد أفتىٰ مالكٌ فيمن قال: ـ تربةُ المدينة رَدِيَّةٌ ـ يُضْرَبُ ثلاثين دِرَّةً، وأمر بحَبْسه، وكان له قَدْرٌ؛ وقال: ما أحْوَجَه إلىٰ ضَرْبِ عُنُقه! تُربةٌ دُفِنَ فيها خير البشر: النبيُّ ﷺ، يزعمُ أنها غير طيبة!!

١٣٣٢ ـ وفي الصحيح أنه قال ـ عليه السلام ـ في المدينة: **«مَنْ أحدث فيها حَدَثاً أو آوىٰ مُحْدِثاً فعليه لَعْنَةُ اللّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين؛ لا يقبلُ اللّهُ منه صَرْفاً ولا عَدْلاً»** [البخاري (١٨٧٠)، مسلم (١٣٧٠)].

١٣٣٣ ـ وحُكِي أن جَهْجَاهاً الغِفَارِيَّ أخَذَ قضيبَ النبيِّ ﷺ من يد عثمان

رضي اللَّهُ عنه وتناوله لِيكْسِره علىٰ رُكْبته، فصاح به الناسُ، فأخذته الآكِلَةُ في رُكْبته فقطعها، وماتَ قبل الْحَوْلِ.

١٣٣٤ ـ وقال عليه السلام: «**مَنْ حلف علىٰ مِنبري كاذِباً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ**» [أبو داود (٣٢٤٦)، ابن ماجه (٢٣٢٥)].

١٣٣٥ ـ وحُدِّثْتُ أنَّ أبا الفضل الجَوْهري لما وردَ المدينةَ زائراً، وقَرُب من بيوتها تَرَجَّلَ ومشىٰ باكياً، يُنْشِد:

وَلَمَّا رَأَيْنا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا ... فُؤَاداً لِعِرْفَانِ الرُّسومِ ولا لُبّا

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً ... لِمَنْ بانَ عَنْهُ أنْ نُلِمَّ به رَكْبا

١٣٣٦ ـ وحُكي عن بعض المُريدين أنه لما أَشرف علىٰ مدينة الرسول ﷺ أنشد يقول متمثِّلاً:

رُفِع الحِجَابُ لنا فَلاحَ لناظرٍ ... قَمَرٌ تَقَطَّعُ دونَهُ الأَوْهَامُ

وإذا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحَمَّداً ... فَظُهورهُنَّ علىٰ الرِّجالِ حَرَامُ

قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وطِىءَ الثَّرَىٰ ... ولها علَيْنا حُرمَةٌ وذِمَامُ

١٣٣٦م ـ وحُكي عن بعض المشايخ أنه حجَّ ماشياً؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: العَبْد الآبِقُ لا يأتي إلىٰ بيت مولاه راكباً، لو قدرتُ أنْ أَمشِيَ علىٰ رأسي ما مشيتُ علىٰ قَدَمَيَّ.

١٣٣٦م ـ قال القاضي: وجدير لِمَوَاطنَ عُمِّرت بالوَحْي والتنزيل، وتردَّدَ بها جبريلُ وميكائيل، وعرجَت منها الملائكة والرُّوحُ، وضَجَّت عَرَصَاتُها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تُرْبَتُهَا علىٰ جَسدِ سيِّدِ البَشَر، وانتشر عنها مِنْ دين الله وسنّةِ رسوله ﷺ ما انتشر، مدارسُ آياتٍ، ومساجدُ صلواتٍ، ومشاهِدُ الفضائلِ والخيرات، ومعاهدُ البراهين والمعجزات، ومَنَاسِكُ الدِّين، ومشاعِرُ المسلمين، ومواقفُ سيد المرسلين، ومُتَبَوَّأُ خاتمِ النبيِّين ـ ﷺ وعلىٰ عترته أجمعين ـ حيث انفجرت النبوَّة، وأين فاضَ عُبَابُها؛ ومَوَاطن مَهْبط الرسالة؛ وأول أَرضٍ مَسَّ جِلْدَ المصطفىٰ تُرابُها، أَنْ تُعظَّم عَرَصاتُها، وتُتَنَسَّم نفحاتها، وتُقَبَّل رُبوعها وجُدْرَانها:

يا دارَ خَيْرِ المُرْسَلِينَ ومَنْ بِهِ ... هُدِيَ الأَنَامُ وخُصَّ بالآياتِ

عِنْدِي لأَجْلِكَ لَوْعَةٌ وصَبَابَةٌ ... وَتَشَوُّقٌ مُتَوَقِّدُ الجَمَرَاتِ

وعَلَيَّ عَهْدٌ إنْ مَلأتُ مَحاجِرِي ... مِنْ تِلْكُمُ الجُدْرَانِ والعَرَصاتِ

لأُعَفِّرَنَّ مَصُونَ شَيْبِي بَيْنَها مِنْ كَثْرَةِ التَّقْبيلِ والرَّشفَاتِ
لولا العَوَادِي، والأعَادِي زُرْتُها أَبداً ولو سَحْباً عَلَى الوَجَناتِ
لكِنْ سَأُهْدِي مِنْ حَفيلِ تَحِيَّتي لِقَطِيْنِ تِلْكَ الدَّارِ والحُجُراتِ
أزكىٰ من المِسْكِ المُفَتَّقِ نَفْحةً تَغْشَاهُ بالآصالِ والبُكُراتِ
وَتَخُصُّهُ بِزَواكيَ الصَّلواتِ ونَوامِيَ التَّسْلِيْمِ والبَرَكاتِ



الباب الرابع

فِيْ ذِكْرِ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيْمِ وَفَرْضِ ذٰلك وَفَضِيْلَتِهِ

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

١٣٣٧ ـ قال ابنُ عباس: معناه: إنَّ اللَّهَ وملائكَته يُبارِكون علىٰ النبيّ.

وقيل: إنَّ اللَّهَ يَتَرَحَّمُ علىٰ النبيّ، وملائكته يَدْعُون له.

قال المُبَرِّد: وأصل الصَّلاَة الترحُّم، فهي مِنَ الله رحمةٌ، ومن الملائكة رِقَّةٌ واستدعاءٌ للرحمة من الله.

١٣٣٨ ـ وقد ورد في الحديث صِفَةُ صلاةِ الملائكة علىٰ مَنْ جَلس ينتظرُ الصَّلاة: «**اللَّهُمَّ! اغفِرْ له، اللَّهُمَّ ارحَمْه**» [البخاري (٦٥٩)، مسلم (٦٤٩/٢٧٢)] فهذا دُعاء.

١٣٣٩ ـ وقال بَكْرٌ القُشَيْرِيُّ: الصلاةُ مِنَ اللَّهِ تعالىٰ لِمَنْ دونَ النبيِّ ﷺ رحمةٌ، وللنبيّ ﷺ تشريفٌ وزِيادةُ تَكْرِمَةٍ.

١٣٤٠ ـ وقال أبو العالية: صلاةُ اللَّهِ ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاةُ الملائكةِ الدعاء.

١٣٤١ ـ قال القاضي أبو الفضل: وقد فرَّق النبيُّ ﷺ ـ في حديث تعليم الصلاة عليه ـ بين لفظ الصلاة ولفظ البركة؛ فدلّ أنهما بمعنَيَيْن.

١٣٤٢ ـ وأما التسليمُ الذي أمر اللَّهُ تعالىٰ به عبادَه فقال القاضي أبو بكر بن بُكير: نزلت هذه الآيةُ علىٰ النبيّ ﷺ، فأمر اللَّهُ أصحابَه أنْ يسلِّموا عليه؛ وكذلك مَنْ بَعْدَهم أُمِرُوا أنْ يسلِّموا علىٰ النبيّ ﷺ عند حضورهم قَبْرَه، وعند ذِكْرِهِ.

وفي معنى السلام عليه ثلاثةُ وجوه:

أحدها: السلامةُ لكَ ومَعك، ويكونُ السلامُ مَصْدراً كاللَّذَاذِ واللَّذَاذة.

الثاني: أي السلامُ علىٰ حِفْظك ورِعَايتك مُتوَلٍّ له، وكَفِيل به، ويكون ـ هنا ـ السلامُ: اسْمُ الله.

الثالث: أنَّ السلامَ بمعنى المُسالمة له والانقياد؛ كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فصل
فِي حُكْمِ الصَّلاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ

واعلَمْ أنَّ الصلاةَ علىٰ النبيّ ﷺ فَرْضٌ علىٰ الجملة، غير محدّد بوقْتٍ، لأَمْرِ اللَّهِ تعالىٰ بالصَّلاةِ عليه، وحَمَلَ الأئمةُ والعلماءُ له علىٰ الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ أنَّ مَحْمَلَ الآية عِنْده علىٰ النَّدْبِ؛ وادَّعىٰ فيه الإجماعَ؛ ولعلَّه فيما زادَ علىٰ مرَّةٍ؛ والواجبُ منه الذي يَسْقُطُ به الحَرَجُ ومَأْثَمُ ترك الفَرْضِ مرةٌ؛ كالشهادةِ له بالنبوَّة؛ وما عَدَا ذلك مندوبٌ مُرَغَّبٌ فيه، من سُنَنِ الإسلام وشِعَارِ أهله.

قال القاضي أبو الحَسَنِ بن القَصَّار: المشهورُ عن أصحابنا أنَّ ذلك واجبٌ في الجملة علىٰ الإنسان، وفَرْضٌ عليه أنْ يأتِيَ بها مرَّةً من دَهْره مع القُدْرَةِ علىٰ ذلك.

وقال القاضي أبو بكر بن بُكير: افترض اللَّهُ علىٰ خَلْقه أنْ يُصَلُّوا علىٰ نبيِّه ويسلِّموا تسليماً، ولم يجعَلْ ذلكَ لوقتٍ معلوم؛ فالواجبُ أنْ يُكْثِرَ المرءُ منها، ولا يَغْفُل عنها.

قال القاضي أبو محمدِ بنُ نَصْر: الصلاةُ علىٰ النبيّ ﷺ واجبةٌ في الجملة.

قال القاضي أبو عبداللَّه: محمد بن سَعِيد: ذهب مالك وأصحابُه وغيرُهم من أهل العلم أنَّ الصلاةَ علىٰ النبيّ ﷺ فرضٌ بالجملةِ بِعَقْدِ الإيمان، لا تتعيّن فيه الصلاة، وأن مَنْ صلَّىٰ عليه مرةً واحدةً في عُمُرِهِ سقط الفَرْضُ عنه.

وقال أصحابُ الشافعي: الفَرْضُ منها الذي أمرَ اللَّهُ تعالىٰ به ورسُوله عليه السلام هو في الصلاة.

وقالوا: وأما في غيرها فلا خلافَ أنها غَيْرُ واجبة.

وأما في الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر: محمد بن جرير الطبريُّ، والطَّحاوي وغيرُهما إجماعَ جميع المتقدِّمين والمتأَخرين من علماءِ الأُمَّةِ علىٰ أنَّ الصلاةَ علىٰ النبيِّ ﷺ في التشهُّد غيرُ وَاجبةٍ.

وشذَّ الشافعيُّ في ذلك؛ فقال: «مَنْ لم يُصَلِّ علىٰ النبيِّ ﷺ من بعد التشهُّد الآخر وقَبْلَ السلام فَصَلاَتُه باطلة فاسدةٌ، وإنْ صلَّىٰ عليه قَبْلَ ذلك لم تجزِه» ولا سلَف له في هذا القول ولا سنَّة يَتَّبعها.

وقد بالغ في إنكارِ هذه المسألةِ عليه ـ لمخالفته فيها مَنْ تقدَّمَه ـ جماعةٌ، وشنَّعوا عليه الخلافَ فيها، منهم الطَّبري، والقُشَيْري، وغيرُ واحِدٍ.

وقال أبو بكر بن المنذر: يستحبُ ألاَّ يُصَلِّيَ أحدٌ صلاةً إلاَّ صَلَّىٰ فيها علىٰ رسولِ الله ﷺ؛ فإنْ تركَ ذلك تارك فصلاتُه مُجزئة في مَذْهب مالك، وأهل المدينة، وسفيان الثوري، وأهلِ الكوفة من أصحاب الرّأي وغيرهم. وهو قولُ جُمَلِ أَهْلِ العلم.

وحُكي عن مالك وسُفيانَ أنها في التشهُّد الأخير مستحبَّةٌ، وأنَّ تارِكَها في التشهُّد مُسيءٌ.

وشذَّ الشافِعيُّ فأَوْجَب علىٰ تارِكها في الصلاة الإعادَة؛ وأَوجب إسحاق أيضاً الإعادةَ مع تَعَمُّد تَرْكِها دونَ النِّسيان.

وحكىٰ أبو محمدِ بن أبي زَيْد، عن ـ محمد بن المَوَّاز ـ أنَّ الصلاةَ علىٰ النبيِّ ﷺ فريضةٌ.

قال أبو محمد: يريدُ ليست مِنْ فرائضِ الصلاة؛ وقاله محمد بنُ عبدالحكم وغيره.

وحكىٰ ابنُ القَصَّار وعَبْدالوهَّاب ـ أنَّ محمدَ بنَ الموَّاز ـ يَراها فريضةً في الصلاة كقولِ الشافعي.

وحَكَىٰ أبو يَعْلَىٰ العَبْديّ المالكيّ عن المذهب فيها ثلاثةَ أقوال في الصلاة: الوجوبَ، والنَّدْبَ، والسنةَ.

وقد خالف الخطَّابيُّ ـ من أصحاب الشافعيّ ـ وغيرهُ الشافعيَّ في هذه المسألة؛ قال الخطابي: وليْسَتْ بواجبةٍ في الصلاة؛ وهو قَوْلُ جماعةِ الفقهاءِ إلا الشافعي؛ ولا أعلمُ له فيها قدوةً.

والدليلُ علىٰ أنها ليست من فروضِ الصلاة عمَلُ السَّلَفِ الصالح قَبْل الشافعيّ، وإجماعُهم عليه.

وقد شنَّع الناسُ عليه في هذه المسألة جداً.

١٣٤٣ ـ وهذا تَشَهُّدُ ابْنِ مسعود [البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢)] الذي اختاره الشافعيُّ، وهو الذي علَّمه له النبيُّ ﷺ، ليس فيه الصلاةُ علىٰ النبيّ ﷺ.

١٣٤٤ حتى **١٣٥٠** ـ وكذلك كل مَنْ يَرْوي التشهُّدَ عن النبيّ ﷺ، كأبي هُريرة، وابن عباس [مسلم (٤٠٣)]، وجابرٍ [النسائي (٢/٣٤٣)]، وابن عُمر [أبو داود (٩٧١)]، وأبي سَعِيد الْخُدْري، وأبي موسىٰ الأشْعري [مسلم (٤٠٤)]، وعبدِ اللّه بن الزُّبيرِ لم يذكروا فيه صلاةً علىٰ النبي ﷺ.

١٣٥١، ١٣٥٢ ـ وقد قال ابن عبَّاس، وجابرٌ: كان النبيُّ ﷺ يعلِّمنا التشهد كما يعلمنا السورةَ من القرآن [مسلم (٤٠٣)].

١٣٥٣ ـ ونحوه عن أبي سعيد.

١٣٥٤ ـ وقال ابنُ عُمَرَ: كان أبو بكر يُعَلِّمُنا التشهُّد علىٰ المِنْبَر كما يُعلِّمون الصبيانَ في الكُتَّاب.

١٣٥٥ ـ وعلَّمه أيضاً علىٰ المِنبر عُمَرُ بنُ الخَطَّاب رَضِيَ الله عنه.

١٣٥٦ ـ وفي الحديث: **«لا صلاةَ لِمَنْ لم يُصَلِّ عليَّ»** [ابن ماجه (٤٠٠)].

قال ابن القصَّار: معناه: كاملةٌ؛ أو لِمَنْ لَمْ يُصَلِّ عليَّ مرَّةً في عُمُره.

وضعَّف أهلُ الحديثِ كلُّهم رِوايةَ هذا الحديث.

١٣٥٧ ـ وفي حديث أبي جعفرٍ، عن أبي مسعود، عن النبيّ ﷺ: **«مَنْ صلَّىٰ صلاةً لم يُصَلِّ فيها عليَّ وعلىٰ أهلِ بَيْتي لم تُقْبَلْ منه»**.

١٣٥٨ ـ قال الدارقُطْني: الصوابُ أنه من قَوْلِ أبي جعفر: محمد بن عليّ بن الحسين: لو صليتُ صلاةً لم أُصَلِّ فيها علىٰ النبيّ ﷺ ولا عَلىٰ أَهْلِ بيته لرأيتُ أنها لا تتم.

فصل
فِي المَوَاطِنِ الَّتِي يُستَحَبُّ فِيهَا الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلىٰ النَّبِيّ ﷺ ويُرْغَبُ

من ذلك في تشهُّد الصَّلاةِ كما قدَّمناه؛ وذلك بعد التشهُّد وقبل الدعاء.

١٣٥٩ ـ حدثنا أبو علي القاضي بقراءتي عليه ـ رحمه الله ـ قال: حدثنا الإمام أبو القاسم البَلْخي قال: حدثنا الفارسيُّ، عن أبي القاسم الخُزاعي، عن أبي سعيد: الهَيْثم بن كُليب، عن أبي عيسىٰ الحافظ قال: حدثنا محمود بن غَيْلان،

حدثنا عبدالله بن يزيدَ المُقرىء، حدثنا حَيْوَةُ بن شُريح، حدثني أبو هانىء الخَوْلاني أنَّ عَمْرَو بن مالك الْجَنْبِيَّ، أخبره أنه سمع فَضَالَةَ بن عُبَيد يقول: سمع النبيُّ ﷺ رجلاً يَدْعُو في صلاته، فلم يُصلِّ علىٰ النبي ﷺ؛ فقال النبيُّ ﷺ: «عَجِلَ هذا». ثم دعاه فقال له ولغيره: **«إذا صَلَّىٰ أَحَدُكم فَلْيَبْدَأْ بتحميد اللّهِ والثناءِ عليه، ثم لِيُصَلِّ علىٰ النبيِّ ﷺ؛ ثم لِيَدْعُ بَعْدُ بما شاءَ»** [الترمذي (٣٤٧٧)، أبو داود (١٤٨١)، النسائي (٣/٤٤)].

ويُروىٰ من غَيْر هذا السنَد: **«بتمجيد اللّهِ»** وهو أَصَحُّ.

١٣٦٠ ـ وعن عُمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللّه عنه قال: الدُّعاءُ والصلاةُ معلَّقٌ بين السماء والأرض؛ فلا يصعدُ إلىٰ اللّهِ منه شيءٌ حتى يُصَلَّى علىٰ النبيِّ ﷺ [الترمذي (٤٨٦)].

١٣٦١ ـ وعن عليِّ بن أبي طالب، عن النبيِّ بمعناه؛ وقال: وعلىٰ آل محمد.

١٣٦٢ ـ ورُوِيَ أَنَّ الدُّعاءَ محجوبٌ حتى يُصَلِّي الداعِي علىٰ النبيِّ ﷺ.

١٣٦٣ ـ وعن ابن مسعود: إذا أراد أَحدُكم أن يسأل اللّهَ شيئاً فليبدأ بمَدْحِه والثناء عليه بما هو أهلُه؛ ثم يصلِّي علىٰ النبيِّ ﷺ؛ ثم ليَسْأَلْ؛ فإنه أجدرُ أن يَنْجَحَ.

١٣٦٤ ـ وعن جابر رَضِيَ اللّه عنه قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: **«لا تجعلوني كقَدَحِ الرَّاكب؛ فإنَّ الراكب يملأُ قَدَحَهُ ثم يَضَعُهُ، ويرفع مَتاعَه؛ فإن احتاج إلىٰ شراب شربه، أو الوضوءِ تَوضَّأ، وإلاَّ هَرَاقه؛ ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخِرِه»**.

١٣٦٥ ـ وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحةٌ وأسبابٌ وأوقاتٌ؛ فإنْ وافق أركانَه قَوِي، وإن وافَق أجنحتَه طار في السماء، وإنْ وافَق مواقيتَه فاز، وإن وافق أسبابَه أَنْجَحَ؛ فأركانُه: حضورُ القَلْب، والرقَّةُ، والاستكانةُ والخشوعُ، وتعلُّق القَلْب بالله، وقطعهُ من الأسباب، وأجنحتهُ: الصِّدقُ. ومواقيتهُ: الأسحار، وأسبابهُ: الصلاةُ علىٰ محمد ﷺ.

١٣٦٦ ـ وفي الحديث: **«الدُّعاءُ بين الصلاتَيْنِ عليَّ لا يُرَدُّ»**.

١٣٦٧ ـ وفي حديث آخر: **«كلُّ دُعَاءٍ محجوبٌ دونَ السماءِ، فإذا جاءَتْ الصلاةُ عليَّ صعِدَ الدُّعاءُ»**.

١٣٦٨ ـ وفي دُعاءِ ابْنِ عباس الذي رَواه عنه حَنَشٌ؛ فقال في آخره:

واستجِبْ دُعَائي، ثم يبدأ بالصَّلاةَ علىٰ النبيّ ﷺ فيقول: اللهم! إني أسألكَ أن تُصَلّي علىٰ محمدٍ عَبْدِكَ ونَبِيّك ورَسُولك أفْضَلَ ما صلَّيْتَ علىٰ أحدٍ مِنْ خَلْقِكَ أجمعين آمين.

ومِنْ مواطنِ الصلاة عليه: عند ذِكْرِهِ، وسَمَاعِ اسْمِه، أو حديثِه، أو عند الأَذان.

١٣٦٩ ـ وقد قال عليه السلام: «**رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرتُ عنده فلم يصَلِّ عَلَيّ**» [الترمذي (٣٥٤٥)].

وَكَرِه ابْنُ حبيب ذِكْرَ النبيّ ﷺ عند الذَّبح.

وكَرِهَ سُحْنُون الصلاةَ عليه عند التعجُّب، وقال: لا يصلَّىٰ عليه إلا علىٰ طريق الاحتساب، وطَلَب الثواب.

قال أَصْبَغُ، عن ابن القاسم: مَوْطِنان لا يُذْكَر فيهما إلا الله: الذبيحةُ، والعُطَاس؛ فلا تَقُلْ فيهما بعد ذِكْرِ اللَّهِ؛ محمدٌ رسولُ اللَّهِ. ولو قال بعد ذِكْرِ اللَّهِ: صلَّىٰ اللَّهُ علىٰ محمد لم يكن تسميةً له مع اللَّهِ.

وقاله أَشْهَبُ؛ قال: ولا ينبغي أنْ تجعلَ الصلاةُ علىٰ النبي ﷺ فيه اسْتِنَاناً.

١٣٧٠ ـ ورَوَىٰ النَّسائي، عن أَوْسِ بن أَوْسٍ، عن النبيّ ﷺ: الأَمْرَ بالإكْثَارِ مِنَ الصلاةِ عليه يوم الجمعة [النسائي (٣/ ٩١ـ ٩٢)، أبو داود (١٠٤٧)، ابن ماجه (١٠٨٥)].

ومن مواطن الصلاة والسلام دخول المسجد:

١٣٧١ ـ قال أبو إسحاق بن شعبان: وينبغي لِمَنْ دخل المسجدَ أنْ يُصَلِّيَ علىٰ النبيّ ﷺ، وعلىٰ آله، ويترحَّم عليه، وعلىٰ آله، ويبارِك عليه وعلىٰ آله، ويسلِّم تسليماً؛ ويقول: «**اللهمَّ! اغفِرْ لي ذُنُوبي، وافتَح لي أبوابَ رَحْمتك**».

وإذا خرج فَعل مِثْلَ ذلك، وجعلَ موضعَ «**رَحْمَتِكَ**» «**فَضْلِكَ**».

١٣٧٢ ـ وقال عَمْرُو بن دينار ـ في قوله تعالى ـ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] ـ قال: إنْ لم يكُنْ في البيت أحدٌ فقل: السلامُ علىٰ النبيّ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتهُ، السلامُ علينا وعلىٰ عِبَاد اللَّهِ الصالحين، السلامُ علىٰ أهل البيتِ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.

١٣٧٣ ـ قال ابن عباس: المرادُ بالبيوتِ ـ ههنا ـ المساجد.

١٣٧٤ ـ وقال النَّخَعي: إذا لم يَكُن في المسجد أحدٌ فقل: السلامُ علىٰ رسولِ الله ﷺ؛ وإذا لم يكن في البيتِ أحدٌ فقل: السلامُ علينا وعَلَىٰ عبادِ اللَّهِ الصالحين.

١٣٧٥ ـ وعن عَلْقمةَ: إذا دخلْتُ المَسجدَ أقول: السلامُ عليك أيُها النبيُّ! ورحمةُ الله وبركاته، صلَّىٰ اللَّهُ وملائكتُهُ علىٰ محمد.

١٣٧٦ ـ ونَحْوُه عن كَعب: إذا دخلَ، وإذا خرج، ولم يذكر الصلاةَ.

١٣٧٧ ـ واحتجَّ ابْنُ شَعْبَانَ ـ لما ذَكَره ـ بحديث فاطمةَ بنتِ رسول الله ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كَان يفعَلُه إذا دخل المسجد [الترمذي (٣١٤)، ابن ماجه (٧٧١)، أحمد (٦/٢٨٢)].

١٣٧٨ ـ ومِثْلُه عن أَبي بكرِ بن عَمْرِو بن حَزم. وذَكَرَ السلامَ والرحمةَ. وقد ذكرنا هذا الحديثَ آخِر القسم، والاختلافَ في ألفاظه.

١٣٧٩ ـ ومِنْ مواطن الصلاة عليه أيضاً عند الصلاةِ عَلَىٰ الجنائز.

وذكر عن أَبي أُمامةَ أَنها من السنَّة [النسائي (٤/٧٥)].

ومن مَواطن الصلاةِ التي مضىٰ عليها عملُ الأمة، ولم تُنكرها: الصلاةُ عَلىٰ النبيّ وعلىٰ آله في الرسائل، وما يُكتب بَعْدَ البَسْمَلة؛ ولم يكن هذا في الصَّدْرِ الأَوَّل؛ وأُحْدِثَ عند ولاية بني هاشم، فمضَىٰ به عَمَلُ الناسِ في أقطارِ الأرض.

ومنهم مَنْ يختِمُ به أيضاً الكُتب.

١٣٨٠ ـ وقال عليه السلام: «**مَنْ صلَّىٰ عَلَيَّ في كِتَابٍ لم تزَلِ الملائكةُ تستغْفِرُ له ما دامَ اسْمِي في ذلكَ الكتاب**».

ومِنْ مواطِن السلام عَلىٰ النبي ﷺ تشهُّدُ الصلاة.

١٣٨١ ـ حدثنا أبو القاسم: خلف بن إبراهيم المقرىء الخطِيب رَحمه الله، وغيره قال: حدثتني كريمة بنت أحمد؛ قالت: حدثنا أبو الهَيْثَم، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو نُعيم، حدثنا الأعمش، عن شَقِيق بن سلَمة، عن عَبد اللَّه بن مَسعود، عن النبيّ ﷺ؛ قال: «**إذا صلَّىٰ أَحدُكم فليقل: التحياتُ للَّهِ والصلوات والطيباتُ، السلامُ عليكَ، أيُها النبيُ! ورحمةُ الله وبركَاتهُ. السلامُ علينا وعَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ الصالحين؛ فإنكم إذا قلتموها أصابَتْ كلَّ عَبْدٍ صالح في السماء والأرض**» [البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢)].

هذا أَحَدُ مواطنِ التسليم عليه؛ وسنَّتُه أَول التشهّد.

١٣٨٢ ـ وقد رَوَىٰ مالكٌ، عن ابن عُمر: أنه كان يقولُ ذلك إذا فرَغَ مِنْ تَشَهُّدِه وأراد أَن يُسلِّمَ.

واستحبَّ مالكٌ في «المبسوط» أَنْ يسلِّمَ بمثْلِ ذلك قبل السلام.

١٣٨٣ ـ قال محمد بن مَسْلَمَةَ: أَراد ما جاء عن عائشة وابنِ عُمرَ أنهما كانا

يَقُولاَنِ عند سَلاَمهما: السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ! ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه. السلامُ علينا وعَلَىٰ عبادِ اللَّهِ الصالحين. السلامُ عليكم.

واستحبَّ أهلُ العِلم أنْ يَنْوِيَ الإنسانُ حين سلامِهِ كلَّ عبدٍ صالحٍ في السماء والأرضِ من الملائكة وبني آدم والجنِّ.

قال مالكٌ في «المجموعة»: وأُحِبُّ للمأموم إذا سلَّم إمامُه أن يقول: السلام عَلَى النبيِّ ورحمةُ اللَّهِ وبركَاته، السلامُ علينا وعَلَىٰ عبادِ اللَّه الصالحين. السلام عليكم.

فصل
فِي كَيفِيَّةِ الصَّلاةِ عَلَيهِ وَالتَّسلِيمِ

١٣٨٤ ـ حدثنا أبو إسحاق: إبراهيم بن جَعْفَرٍ الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا القاضي أبو الأَصْبَغ، حدثنا أبو عبداللَّه بن عَتَّاب، حدثنا أبو بكر بن وافد وغيره، قالوا: حدثنا أبو عيسىٰ، حدثنا عُبَيْد اللَّهِ، حدثنا يحيىٰ، حدثنا مالك، عن عَبْداللَّه بن أبي بكَر بن عمرو بن حَزْم، عن أبيه، عن عَمْرو بن سُليم الزُّرَقي أنه قال: أخبرني أبو حُمَيد الساعديُّ أنهم قالوا: يا رسولَ اللَّه! كيفَ نُصَلِّي عليكَ؟ قال: **«قولُوا: اللهمَّ! صَلِّ عَلَىٰ محمدٍ وأزواجِهِ وذرِّيتِه، كما صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إبراهيم، وبارِكْ عَلَىٰ محمد وأزواجه وذُرِّيَتِه كما باركْتَ عَلَىٰ آل إبراهيم، إنك حَمِيد مجيد»** [البخاري (٣٣٦٩)، مسلم (٤٠٧)].

١٣٨٥ ـ وفي رواية مالك، عن أبي مسعود الأنصاري؛ قال: **«قولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى محمد وعَلَى آلِهِ، كما صليتَ عَلَى آلِ إبراهيم، وبارِكْ عَلَى محمد وعلى آله كما باركْتَ عَلَى آل إبراهيم في العالمين، إنك حَمِيدٌ مَجيدٌ. والسلام كما قد عَلِمْتُم»** [مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٦ ـ وفي رواية كعب بن عُجْرَةَ: **«اللهم! صَلِّ عَلَى مُحمدٍ وآل محمد، كما صليتَ عَلَى إبراهيم، وبارِكْ عَلَى مُحمّدٍ وآلِ محمدٍ كما باركْتَ على إبراهيم، إنكَ حَمِيد مجيد»** [البخاري (٦٣٥٧)، مسلم (٤٠٦)].

١٣٨٧ ـ وعن عُقْبَةَ بن عَمْرٍو في حديثه: **«اللهمّ! صَلِّ عَلَىٰ محمد النبيّ الأُمِّيِّ، وعَلَىٰ آل محمد»** [أبو داود (٩٨١)، مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٨ ـ وفي رواية أبي سَعِيد الْخُدْرِي: **«اللهمّ! صلِّ عَلَىٰ محمدٍ عَبْدِك ورسولِك...»** [البخاري (٦٣٥٨)].

١٣٨٩ ـ حدثنا القاضي أبو عبدالله التميمي سماعاً عليه، وأبو عليّ: الحَسَنُ بنِ طَرِيف النحْوي بقراءتي عليه؛ قالا: حدثنا أبو عبدالله بن سَعْدُون الفقيهُ، حدثنا أبو بكر المُطَوِّعي، حدثنا أبو عبدالله الحاكم، عن أبي بكر بن أبي دارِم الحافظ، عن عليّ بن أحمد العِجْلي، عن حَرْب بن الحَسَن، عن يحيىٰ بن المُساوِر، عن عَمْرو بن خالد عن زَيْد بن عليّ بن الحُسين عن أبيه علي، عن أبيه الحسين، عن أبيه عليّ بن أبي طالب؛ قال: عَدَّهُنَّ في يَدِي رَسُولُ الله ﷺ، وقال: «عَدَّهُنَّ في يدي جبريلُ، وقال: هكذا نزلَتْ من عند ربِّ العزَّة؛ اللهمَّ! صلِّ عَلَىٰ محمد، وعَلَىٰ آلِ محمد، كما صليتَ علىٰ إبراهيم، وعَلَىٰ آل إبراهيم، إنك حَمِيدٌ مجيد، اللهم! بارك علىٰ محمد، وعلىٰ آل محمد، كما باركت علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللَّهُمَّ وَتَرَحَّمْ عَلَىٰ محمد، وعَلَىٰ آلِ محمدٍ، كما ترحَّمْتَ علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حَمِيد مَجِيد.

اللهمّ! وتحنَّنْ عَلَىٰ محمدٍ، وعَلَىٰ آلِ محمد، كما تَحَنَّنْتَ عَلَىٰ إبراهيم، وعَلَىٰ آلِ إبراهيمَ، إنك حميدٌ مَجِيد، اللَّهُمَّ! وَسَلِّمْ علىٰ محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ، كما سلمتَ على إبراهيمَ، وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ».

١٣٩٠ ـ وعن أَبي هريرة، عن النبي ﷺ: «مَن سَرَّه أَنْ يَكْتَالَ بالمِكْيَال الأوفَىٰ إذا صلَّىٰ علينا أهلَ البيتِ فليقُلْ: اللهمَّ! صَلِّ على محمدٍ، النبيِّ، وأزواجِهِ أمهات المؤمنينَ، وذُرِّيته، وأهلِ بيته، كما صليتَ علىٰ إبراهيم، إنك حَمِيد مَجِيد» [أبو داود (٩٨٢)].

١٣٩١ ـ وفي رواية زَيْد بن خارجةَ الأنصاري: سألتُ النبيَّ ﷺ: كيف نُصَلِّي عليك؟

فقال: «صلُّوا عليَّ واجتهدُوا في الدعاء، ثم قولوا: اللهمَّ! بارِكْ علىٰ محمد، وعلىٰ آل محمد، كما باركت علىٰ إبراهيم إنك حَمِيد مجيد» [النسائي (٤٩/٣)، أحمد (١٩٩/١)].

١٣٩٢ ـ وعن سَلامةَ الكِنْدِي: كان عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يعلِّمُنا الصَّلاة علىٰ النبيّ ﷺ فيقول: اللهمَّ! داحِيَ المَدْحُوَّات، وبارِىءَ المَسْمُوكاتِ، اجْعَلْ شرائفَ صَلَوَاتِك، ونَوَامِيَ بركاتِك، ورَأْفَةَ تَحَنُّنِك علىٰ محمد، عَبْدِكَ ورسولِك، الفاتِح لما أُغْلِق، والخاتِم لِمَا سبَقَ، والمُعْلِنِ الحقَّ بالحقِّ، والدامِغ لجَيْشاتِ الأباطِيل، كما حُمِّلَ، فاضْطَلَعَ بأمْرِك لطاعتك، مستَوْفِزاً فِي مَرْضَاتك، واعِياً لِوَحْيك، حافِظاً لِعَهْدِك، ماضياً علىٰ نَفَاذِ أمرِكَ، حتى أَوْرَىٰ قَبَساً لقابسٍ، آلاءَ اللَّهِ

تَصِلُ بأهله أسبابُهُ. به هُلِيَتِ القلوبُ بعد خَوْضَاتِ الفِتَنِ وَالإثم، وأبهج مُوضِحَاتِ الأعلام، ونائراتِ الأحكام، ومُنيراتِ الإسلام؛ فهو أمينُك المأمونُ، وخازنُ عِلْمِك المَخْزُونِ، وشَهِيدُكَ يوم الدِّين، وبَعِيثُكَ نِعمةً، ورَسُولُك بالحقِّ رحمةً؛ اللهمّ! افسحْ له في عَدْنِكَ، واجْزِه مضاعفَاتِ الخيرِ مِنْ فضلك، مُهَنَّئَاتٍ له غير مُكَدَّرَات، مِنْ فَوْزِ ثوابِكَ المحلولِ، وجزيل عَطَائِك المعلول.

اللهمَّ! أَعْلِ على بناءِ الناس بِنَاهُ، وأَكرِمْ مَثْوَاهُ لَدَيْك ونُزُلَهُ، وأَتِمَّ له نورَه، واجْزِهِ مِن ابتعاثك له مقبولَ الشهادةِ، ومَرْضِيَّ المَقَالَةِ، ذا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وخُطَّةِ فَضْلٍ، وبُرْهانٍ عظيم.

١٣٩٣ ـ وعنه أيضاً في الصلاة على النبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

لبَّيْكَ اللهمَّ! رَبِّي وسَعْدَيْك، صلواتُ اللّهِ البَرِّ الرَّحيم، والملائكةِ المقرَّبين، والنبيِّين والصِّدِّيقين، والشُّهداءِ والصالحين، وما سبَّح لكَ من شيء يا ربَّ العالمين! على محمد بن عَبْدالله، خاتم النبيِّين، وسيِّدِ المرسلين، وإمامِ المتَّقين، ورسولِ ربِّ العالمين؛ الشاهِد البشير، الداعِي إليك بإذْنِكَ، والسراجِ المُنير؛ وعليه السلام.

١٣٩٤ ـ وعن عبدالله بن مسعود: اللهمَّ! اجعَلْ صَلَوَاتِكَ وبركاتِكَ ورَحْمتِكَ على سيِّدِ المرسلين، وإمامِ المتَّقين، وخاتَمِ النبيِّين، محمدٍ عَبْدِك ورسُولك؛ إمامِ الخير، ورسُول الرحمةِ.

اللهمَّ! ابْعَثْهُ مَقاماً محموداً يَغْبِطُه فيه الأوَّلون والآخِرُونَ.

اللهم! صَلِّ على محمَّدٍ، وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبراهيم، وآل إبراهيم، إنكَ حَمِيد مجيد؛ وبارِكْ على مُحمد، وعلى آل محمدٍ، كما باركْتَ على إبراهيمَ، وعلى آل إبراهيم، إنكَ حَميد مَجيد [ابن ماجه (٩٠٦)].

١٣٩٥ ـ وكان الحَسَنُ البَصْري يقول: مَنْ أَراد أَنْ يشربَ بالكأسِ الأوْفَى من حَوْضِ المصْطَفَى فليَقُلْ: اللهمّ! صَلِّ على محمد، وعلى آله، وأَصحابِه، وأولادِه، وأزواجِه، وذرِّيَّتِه، وأَهل بيته، وأَصهارِه، وأَنْصارِه وأَشياعِه وَمُحِبِّيْهِ وأُمَّتِه؛ وعلينا، معهم أجمعين. يا أرحمَ الرَّاحمين!.

١٣٩٦ ـ وعن طاووس، عن ابْن عبَّاس. أنه كان يقول: اللهمَّ! تقبَّل شفاعةَ محمد الكبرى، وارفَعْ دَرَجَته العُلْيَا، وآتِه سُؤْلَه في الآخرةِ والأُولى، كما آتيتَ إبراهيم وموسى.

١٣٩٧ ـ وعن وُهَيب بن الوَرْد أنه كان يقول في دُعائه: اللهمَّ! أَعْطِ محمداً أَفضلَ ما سألكَ لنفسه، وأَعْطِ محمداً أفضلَ ما سألكَ له أحدٌ مِنْ خَلقك، وأَعْطِ محمداً أفضلَ ما أَنْتَ مسؤول له إلىٰ يوم القيامةِ.

١٣٩٨ ـ وعن ابنِ مسعود رَضِيَ اللَّه عنه أنه كان يقولُ: إذا صلَّيْتُم علىٰ النبيّ ـ عليه السلام ـ فأَحْسِنُوا الصلاةَ عليه؛ فإنكم لا تَدْرُونَ، لعَلَّ ذلك يُعْرَضُ عليه؛ وقولوا: اللهمّ! اجْعَلْ صلواتِكَ ورَحْمَتَكَ وبركاتِك علىٰ سيِّد المُرْسلين، وإمامِ المتقين، وخاتم النبيين، محمدٍ عَبْدِكَ ورسولِك، إمامِ الخير، وقائد الخير، ورَسُولِ الرحمة.

اللهم! ابعثْه مقاماً محموداً، يَغْبِطُه فيه الأَوَّلون والآخِرُون؛ اللهمَّ! صَلِّ علىٰ محمد، وعلىٰ آل محمد، كما صلَّيْتَ علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آل إبراهيمَ، إنك حَميدٌ مجيد.

اللهمَّ! بارِكْ علىٰ محمَّد وعلىٰ آلِ محمد، كما باركْتَ علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آل إبراهيم إنكَ حميد مجيد.

وما يُؤثَرُ في تطويل الصلاة، وتكثير الثناءِ علىٰ أهل البيت، وغيرهم، كثير.

١٣٩٩ ـ وقولُه: **«والسلامُ كما قد عَلِمْتُمْ»** [مسلم (٤٠٥)] هو ما علَّمَهم اللَّهُ في التَّشَهُّد من قوله: **«السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبركاتُه، السلام علينا وعلىٰ عباد اللَّه الصالحين»**.

١٤٠٠ ـ وفي تشهُّد عليّ ـ رضي اللَّه عنه ـ: السلامُ علىٰ نبيِّ اللَّه ـ ﷺ ـ السلامُ علىٰ أنبياءِ اللَّه ورُسُله، السلامُ علىٰ رسول الله، السلامُ علىٰ محمد بن عبداللَّه، السلام علينا، وعلىٰ المؤمنين والمؤمنات، مَنْ غاب منهم ومن شَهِد.

اللهم! اغفِرْ لمحمدٍ، وتقبَّلْ شفاعتَه، واغْفِرْ لأَهْلِ بَيْتِه، واغفِرْ لي ولِوالديّ وما وَلَدَا، وارحمهما.

السلامُ علينا وعلى عِبَادِ اللَّهِ الصالِحين، السلامُ عليكَ، أَيُّها النبيُّ! ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.

جاء في هذا الحديث عن علي ـ رضي الله عنه ـ: الدعاءُ للنَّبيِّ ﷺ بالغفران.

وفي حديث الصلاةِ عليه أيضاً قَبْلُ: الدعاءُ له بالرحمة؛ ولم يأتِ في غيره من الأحاديث المرفوعة المعروفة.

وقد ذهب أبو عُمَرَ بنُ عبدالبَرّ، وغيرُه إلىٰ أنه لا يُدْعَى للنبي ـ ﷺ ـ

بالرحمة؛ وإنما يُدْعَىٰ له بالصلاةِ والبركةِ التي تختصُّ به، ويُدْعَىٰ لغيره بالرحمة والمغفرة.

١٤٠١ ـ وقد ذكر أبو محمدِ بنِ أبي زَيْد في الصلاة علىٰ النبيِّ ﷺ: اللهمَّ! ارْحَمْ محمداً، وآل محمدٍ، كما تَرَحَّمْتَ علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آلِ إبراهيم.

ولم يأْتِ هذا في حديث صحيح. وحجَّتُه قوله في السلام: «**السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ! ورحمةُ اللّهِ وبَرَكاتُهُ**».

فصل

فِي فَضِيلَةِ الصَّلاَةِ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ

١٤٠٢ ـ أخبرنا أحمد بن محمد الشيخُ الصالح من كتابه، حدثنا القاضي يونس بن مُغِيث، حدثنا أبو بكر بن مُعَاوِية، حدثنا النَّسائي، حدثنا سُوَيد بنُ نصر، حدثنا عبداللّه، عن حَيْوَة بن شُرَيح؛ قال: أَخبرني كَعْبُ بن عَلْقَمَة أنه سَمِعَ عبدالرحمن بن جُبير: مَوْلىٰ نافع، أنه سمع عبداللّه بن عَمْرِو يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتُم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، وصَلُّوا عليَّ؛ فإنه مَنْ صلَّىٰ عليَّ مرة واحدة صلَّىٰ اللّهُ عليه بها عَشراً؛ ثم سَلُوا الله لي الوسيلةَ، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تَنْبَغِي، إلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللّهِ، وأَرجو أَنْ أكون أنا هو؛ فمن سأَلَ الله لي الوسيلة حلَّتْ عليه الشَّفاعةُ**» [النسائي (٢/٢٥)، مسلم (٣٨٤)].

١٤٠٣ ـ وعَنْ أَنس بن مالِك أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ صلَّىٰ عَلَيَّ صلاةً، صلَّىٰ اللّهُ عليهِ عَشرَ صَلَواتٍ، وحطَّ عنه عَشرَ خَطِيئاتٍ، ورفعَ له عَشرَ درجاتٍ**» [النسائي (٣/٥٠)].

١٤٠٤ ـ وفي رواية: «**وكتب له عَشرَ حَسَناتٍ**» [أحمد (٢/٢٦٢)، الترمذي (٤٨٤)].

١٤٠٥ ـ وعن أَنَس، عنه عليه السلام: «**إنَّ جبريل ناداني، فقال: مَنْ صلَّىٰ عليكَ صلاةً صلَّىٰ اللّهُ عليه عشراً، ورفَعه عَشر درجاتٍ**».

١٤٠٦ ـ وفي رواية عبدالرحمن بن عوف، عنه عليه السلام: «**لقِيتُ جبريلَ فقال لي: إني أُبشِّرك أَنَّ اللّه تعالىٰ يقول: مَنْ سلَّم عليكَ سلَّمتُ عليه، ومَنْ صَلَّىٰ عليك صَلَّيتُ عليه**» [أحمد (١/١٩١)].

١٤٠٧ ـ ونَحْوه مِن روايةِ أَبي هريرة [مسلم (٤٠٨)].

١٤٠٨ ـ ومالكِ بن أَوْسِ بن الحَدَثانِ.

١٤٠٩ ـ وعُبيد الله بن أبي طَلْحةَ [النسائي (٣/٤٤، ٥٠)].

١٤١٠ ـ وعن زَيد بن الحُباب: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ قال: اللهمَّ! صَلِّ علىٰ محمدٍ، وأَنْزِلْه المُنْزَلَ المُقرَّبَ عندكَ يوم القيامة، وجبَتْ له شفاعتي» [أحمد (٤/١٠٨)].

١٤١١ ـ وعن ابن مسعود: «أَوْلىٰ الناسِ بي يومَ القيامة أكثرُهم عليَّ صلاةً» [الترمذي (٤٨٤)].

١٤١٢ ـ وعن أبي هُريرة عنه عليه السلام: «مَنْ صَلَّىٰ عليَّ في كتابٍ لم تَزَلِ الملائكةُ تستغْفِرُ له ما بقِي اسْمِي في ذلكَ الكتاب».

١٤١٣ ـ وعن عامر بن ربيعةَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ صلَّى عليَّ صَلاةً صلَّتْ عليه الملائكةُ ما صلَّىٰ عليَّ، فَلْيُقِلَّ مِنْ ذلك عَبْدٌ أَوْ فلْيُكْثِر» [ابن ماجه (٩٠٧)، أحمد (٣/٤٤٥)].

١٤١٤ ـ وعن أُبيِّ بن كعْبٍ: كان رسولُ الله ﷺ إذا ذهب رُبُعُ الليل قام فقال: «يا أيها الناسُ! اذكُروا الله، جاءت الرَّاجفةُ، تتبعُها الرادفةُ، جاء الموتُ بما فيه».

فقال أُبيُّ بن كعبٍ: يا رسولَ الله! إني أُكثِرُ الصلاةَ عليك، فكم أجعلُ لكَ مِن صَلاتي؟

قال: «ما شِئْتَ». قال: الرُّبعَ؟ قال: «ما شئتَ، وإنْ زِدْتَ فهو خَيرٌ لك».

قال: الثلثَ؟ قال: «ما شئتَ، وإنْ زِدتَ فهو خَير».

قال: النصفَ؟ قال: «ما شئْتَ، وإنْ زِدتَ فهو خير لك».

قال: الثلثين؟ قال: «ما شئتَ، وإن زِدتَ فهو خير لك». قال: يا رسولَ الله! أفأَجْعَلُ صلاتي كلَّها لك؟ قال: «إذاً تُكفَىٰ ويُغفَرُ ذَنْبُك» [الترمذي (٢٤٥٧)].

١٤١٥ ـ وعن أبي طَلْحةَ: دخلتُ علىٰ النبيِّ ﷺ فرأيتُ من بِشره وطَلاقَتِه ما لم أَرَهُ قطُّ، فسألتُه، فقال: «وما يمنَعُني؟! وقد خرج جبريلُ آنِفاً، فأتاني ببشارة مِنْ ربِّي عزَّ وجَلَّ، قال: إنَّ الله بعثني إليكَ أُبشِّرك أنه ليس أحدٌ من أُمَّتِكَ يصلِّي عليكَ مرة إلا صلَّىٰ اللهُ عليه، وملائكتهُ بها عَشراً».

١٤١٦ ـ وعن جابر بن عبدالله؛ قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ قال حين يسمعُ النداء: اللهمَّ! ربَّ هذهِ الدعوةِ التامة! والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوَسِيلَة

والفَضِيلة، وابعَثْه مقاماً محموداً الذي وَعَدْتَه، حَلَّتْ له الشفاعةُ يوم القيامة» [البخاري (٦١٤)].

١٤١٧ ـ وعن سَعْد بن أبي وقَّاص: «مَنْ قال حين يسمَعُ النداءَ ـ أو المُؤَذِّنَ ـ: وأنا أشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأنَّ محمداً عَبْدُهُ ورسولُه، رضيتُ باللَّهِ ربًا، وبالإسلام دِيناً، وبمحمدٍ ﷺ نبيًا، غُفِرَ لَهُ» [مسلم (٣٨٦)].

١٤١٨ ـ وروىٰ ابنُ وهْبٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ سلَّم عليَّ عَشراً فكأنما أعتَقَ رقبَةً».

١٤١٩ ـ وفي بَعْضِ الآثار: «لَيَرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ ما أعرفُهم إلا بكَثْرةِ صلاتهم عليَّ».

١٤٢٠ ـ وفي آخَر: «إنَّ أنجاكم يَوْمَ القيامةِ مِنْ أهوالِها ومَوَاطِنها أكثَرُكم عليَّ صلاةً».

١٤٢١ ـ وعن أَبي بكر رضي الله عنه: الصلاةُ علىٰ النبيّ ﷺ أَمْحَقُ للذنوب من الماءِ الباردِ للنار؛ والسلامُ عليه أفضلُ مِنْ عِتْق الرِّقاب.

فصل
في ذمِّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ علىٰ النَّبيِّ ﷺ وَإثمِهِ

١٤٢٢ ـ حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رَحِمه الله، حدثنا أبو الفضل بن خَيرون، وأبو الحُسَين الصَّيرفي؛ قالا: أخبرنا أبو يَعْلىٰ، أخبرنا السِّنْجِيُّ، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسىٰ، حدثنا أحمد [الترمذي (٣٥٤٥)] بن إبراهيم الدَّوْرقي، حدثنا رِبْعيّ بن إبراهيم، عن عَبْدالرحمن بن إسحاق، عن سَعِيد بن أبي سَعِيد، عن أبي هُريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«رَغِمَ أنفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ، ورَغِمَ أنفُ رَجُلٍ دخلَ رمضانُ ثم انسلخَ قَبل أنْ يُغْفَرَ له، ورَغِمَ أنفُ رجل أدركَ عِنْدَه أبَواهُ الكِبَرَ فلم يُدْخلاه الجنة».

قال عبدالرحمن: وأظنُّه قال: «أو أحدهما» [الترمذي (٣٥٤٥)].

١٤٢٣ ـ وفي حديث آخَر: أنَّ النبيَّ ﷺ صَعِد المِنْبر فقال: «آمين»، ثم صعد، فقال: «آمين» ثم صعد فقال: «آمين»، فسأله معاذُ بن جبل عن ذلك، فقال: «إنَّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتاني فقال: يا محمد! مَنْ سُمِّيتَ بين يَدَيه فلم يُصَلِّ عليكَ فمات فدخل النار، فأبعده الله؛ قل: آمين؛ فقلتُ: آمين».

وقال فيمن أدركَ رمضانَ فلم يُقْبَل منه فمات مِثْلَ ذلك.

ومَنْ أَدركَ أبويه ـ أو أحدهما ـ فلم يَبَرَّهما فمات مثله.

١٤٢٤ ـ وعن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عنه عليه السلام، أنه قال: **«البخيلُ ـ كُلُّ البخيل ـ الذي ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ»**.

١٤٢٥ ـ وعن جعفر بن محمد، عن أبيه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ أخطِئَ به طريقَ الجنة»** [ابن ماجه (٩٠٨)].

١٤٢٦ ـ وعن عليّ بن أبي طالب، عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: **«إنَّ البخيلَ ـ كُلَّ البخيلِ ـ مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ عَلَيَّ»**.

١٤٢٧ ـ وعن أبي هُريرة، قال: قال رسول الله ﷺ ـ **«أَيُّما قومٍ جلسوا مَجلِساً ثم تفرَّقوا قَبْلَ أَنْ يَذْكُروا اللّهَ، ويُصَلُّوا عَلَىٰ النبيّ ﷺ، كانت عليهم من الله تِرَةٌ، إنْ شاءَ عذَّبهم، وإن شاءَ غَفَر لهم»** [الترمذي (٣٣٨٠)، أحمد (٤٤٦/٢)].

١٤٢٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: **«مَنْ نَسِيَ الصَّلاةَ عَلَيَّ نَسِيَ طريقَ الجنَّة»**.

١٤٢٩ ـ وعن قَتَادَة، عنه ـ عليه السلام ـ: **«مِنَ الجفاءِ أَنْ أُذْكَرَ عند الرجل فلا يُصَلِّي عَلَيَّ»**.

١٤٣٠ ـ وعن جابر، عنه ـ عليه السلام ـ: **«ما جلس قومٌ مَجلِساً ثم تفرَّقوا علىٰ غير صلاةٍ عَلَىٰ النبيّ ﷺ إلاَّ تفرَّقوا عَنْ أَنْتَنِ مِنْ ريح الْجِيفَة»**.

١٤٣١ ـ وعن أبي سَعيد، عن النبيّ ﷺ، قال: **«لا يجلسُ قومٌ مَجْلِساً لا يصلُّونَ فيه عَلَىٰ النبيّ ﷺ إلا كان عليهم حسرةً ـ وإنْ دخلوا الجنةَ ـ لما يَرَوْن من الثواب»** [الترمذي (٣٣٨٠)، النسائي (٤١٠)].

١٤٣٢ ـ وحكىٰ أبو عيسىٰ الترمذي، عن بَعْضِ أَهْلِ العلم؛ قال: إذا صلَّىٰ الرجلُ عَلَىٰ النبيّ ﷺ مرَّةً في المجلس أجزأ عنه ما كان في ذلك المجلس.

فصل
فِي تَخصِيصِهِ ـ عَلَيهِ السَّلاَمُ ـ بِتَبلِيغِ صَلاَةِ مَنْ صلَّىٰ عَلَيهِ أَوْ سَلَّمَ مِنَ الأَنَامِ

١٤٣٣ ـ حدثنا القاضي أبو عبدالله التميميّ، حدثنا الْحُسَين بن محمد، حدثنا أبو عمرَ الحافظ، حدثنا ابنُ عبدالمؤمن، حدثنا ابن داسَةَ، حدثنا أبو داودَ، حدثنا ابن عوفٍ، حدثنا المقرِئ، حدثنا حَيْوَة، عن أبي صَخْر: حُمَيد بن زِياد،

عن يزيد بن عبدالله بن قُسَيط، عن أبي هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِنْ أحدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلا رَدَّ اللَّهُ عليَّ رُوحي حتىٰ أَرُدَّ عليه السلامُ» [أبو داود (٢٠٤١)، أحمد (٢/٥٢٧)].

١٤٣٤ ـ وذكر أبو بكر بن أبي شَيْبَة، عن أبي هُريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ عند قَبْرِي سمعتُه، ومَنْ صَلَّىٰ عليَّ نائياً بُلِّغْتُه».

١٤٣٥ ـ وعن ابن مسعود: «إنَّ للَّهِ ملائكةً سيَّاحين في الأرض يبلِّغوني عن أُمَّتي السلام» [النسائي (٣/٤٣)].

١٤٣٦ ـ ونحوه عن أَبي هُريرة [أبو داود (٢٠٤٢)، أحمد (٢/٣٦٧)].

١٤٣٧ ـ وعن ابن عُمَر: أَكثِروا من السلام عَلىٰ نبيِّكم كُلَّ جمعة؛ فإنه يُؤتَىٰ به منكم في كل جمعة.

١٤٣٨ ـ وفي رواية: «فإنَّ أحداً لا يصلِّي عَلَيَّ إلا عُرِضَتْ صلاتُه عَلَيَّ حينَ يَفرُغُ منها» [ابن ماجه (١٦٣٧)].

١٤٣٩ ـ وعن الحسن بن عليّ، عنه ﷺ: «حيثما كنتم فصلُّوا عَليّ؛ فإنَّ صلاتَكُم تَبْلُغني».

١٤٤٠ ـ وعن ابن عباس: ليس أحدٌ مِنْ أُمَّةِ محمد يسلِّم عليه ويصلِّي عليه إلاَّ بُلِّغَه.

١٤٤١ ـ وذكر بعضُهم أَنَّ العَبْدَ إذا صلَّىٰ عَلَىٰ النبيّ ﷺ عُرِض عليه اسْمُه.

١٤٤٢ ـ وعن الحسن بن عليّ: إذا دخلْتَ المسجِدَ فسلِّم علىٰ النبيّ ﷺ؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تَتَّخِذوا بيتي عِيداً، ولا تتخذُوا بُيوتكم قُبوراً، وصلُّوا عليَّ حيثما كنتم؛ فإنَّ صلاتكم تبلُغني حيثما كنتُم».

١٤٤٣ ـ وفي حديث أَوْس: «أكثِرُوا عليَّ من الصلاة يومَ الجمعة؛ فإنَّ صلاتكم مَعْرُوضَةٌ عليّ».

١٤٤٤ ـ وعن سُلَيمانَ بن سُحَيم: رأيتُ النبيَّ ﷺ في النومِ، فقلت: يا رسولَ الله! هؤلاء الذين يأتونَكَ فيسلِّمونَ عليكَ، أَتفقَهُ سلامَهم؟ فقال: نعم، وأَرُدُّ عليهم.

١٤٤٥ ـ وعن ابنِ شِهَاب: بلغَنا أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَكثِروا من الصلاةِ عليّ في الليلة الزهراء، واليوم الأَزْهر؛ فإنهما يؤدِّيان عنكم، وإنَّ الأرضَ لا تأكل أجسادَ الأنبياءِ؛ وما مِنْ مسلم يصلِّي عليَّ إلا حملها مَلَكٌ حتى يُؤدِّيها إليّ، ويُسمِّيه، حتى إنه ليقولُ: إنّ فلاناً يقول كذا وكذا».

فصل

فِي الاخْتِلافِ فِي الصَّلاةِ عَلىٰ غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيهِمُ السَّلاَمُ

قال القاضِي ـ وفَّقه اللّهُ ـ: عامةُ أهلِ العِلْمِ متَّفِقونَ عَلَىٰ جوَازِ الصلاةِ عَلَىٰ غَيْرِ النبيِّ ﷺ.

١٤٤٦ ـ ورُوِي عن ابْنِ عبَّاس أنه قال: لا تجوزُ الصلاةُ عَلَىٰ غَيْرِ النبيِّ ﷺ.

١٤٤٧ ـ ورُوِي عنه: لا يَنْبَغِي الصلاةُ عَلَىٰ أَحَدٍ إلا النبيِّين.

١٤٤٨ ـ وقال سُفْيَانُ: يُكْرَهُ أَنْ يُصلَّىٰ إلاَّ علىٰ نَبِيٍّ.

١٤٤٩ ـ ووجدتُ بخطِّ بَعْضِ شيوخي: مذهبُ مالك أنه لا يجوزُ أَنْ يصلَّىٰ علىٰ أحدٍ من الأنبياء سِوَىٰ محمد ﷺ، وهذا غَيْرُ معروفٍ من مذهبه؛ وقد قال مالك في «المبسوطة» ليحيىٰ بن إسحاق: أَكْرَهُ الصلاةَ علىٰ غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أَنْ نتعدَّىٰ ما أُمِرْنا به.

١٤٥٠ ـ وقال يحيىٰ بن يحيىٰ: لستُ آخُذ بقوله؛ لا بَأْسَ بالصلاةِ علىٰ الأنبياء كلهم وعلى غيرهم؛ واحتجَّ بحديث ابن عُمر.

١٤٥١ ـ وبما جاءَ في حديث تعليم النبيِّ ﷺ الصلاة عليه وفيه: **«وعلىٰ آله، وعلىٰ أزواجه»**.

وقد وجدتُ معلَّقاً عن أبي عِمْرَان الفاسي: رُوِي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما كراهة الصلاةِ علىٰ غَيْرِ النبيِّ ﷺ؛ قال: وبه نقول. ولم تكن تُستَعْمَلُ فيما مضىٰ.

١٤٥٢ ـ وقد روىٰ عبدالرزاق عن أبي هريرة رَضِيَ اللّه عنه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«صلُّوا علىٰ أنبياء اللّهِ ورُسُلِهِ؛ فإنّه بَعَثهم كما بعثني»**.

قالوا: والأَسانيدُ عن ابن عبَّاس لَيِّنَةٌ، والصلاةُ في لسان العرب بمعنى الترحُّم والدُّعاء؛ وذلك علىٰ الإطلاق حتى يمنَعَ منه حديثٌ صحيح أو إجماع.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ. . .﴾ [البقرة: ١٥٧].

١٤٥٣ - وقال النبيُّ ﷺ: **«اللَّهُمَّ صَلِّ على آلِ أَبي أَوفىٰ»**. وكان إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: **«اللَّهُمَّ! صَلِّ علىٰ آلِ فُلان»** [البخاري (١٤٩٧)، مسلم (١٠٧٨)].

١٤٥٤ - وفي حديث الصلاةِ: **«اللَّهُمَّ! صلِّ علىٰ محمد، وعلىٰ أزواجه وذرِّيته»**.

١٤٥٥ - وفي حديث آخر: **«وعلىٰ آل محمد»**: قيل: أتباعه، وقيل: آل بيته، وقيل: أُمَّته. وقيل: الأتباع، والرَّهْط، والعشيرة. وقيل: آلُ الرجُلِ: قومه. وقيل: ولده. وقيل: أَهلُه الذين حُرِّمت عليهم الصَّدَقَةُ.

١٤٥٦ - وفي رواية أَنس: سُئل النبيُّ ﷺ: مَنْ آلُ محمدٍ؟ قال: **«كُلُّ تَقِيٍّ»**.

١٤٥٧ - ويَجِيءُ علىٰ مَذْهب الحسَن أَنَّ المرادَ بآلِ محمدٍ: مُحمدٌ نَفْسُه؛ فإنه كان يَقُولُ في صلاتِه علىٰ النبيِّ ﷺ: اللهم! اجعلْ صَلَوَاتِك وبركاتِك علىٰ آلِ مُحمد، يريدُ: نَفْسه؛ لأنه كان لا يُخِلُّ بالفَرْض، ويَأْتِي بالنَّفْل؛ لأَنَّ الفَرْضَ الذي أَمر اللَّهُ تعالىٰ به هو الصلاةُ علىٰ محمد نَفْسِه.

١٤٥٨ - وهذا مِثْلُ قَوْلِه عليه السلام: **«لقد أُوتِيَ مِزماراً مِنْ مَزَامِير آلِ داود»** [البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٧٩٣/٢٣٦)]، يريدُ: مِنْ مزامير داود.

١٤٥٩ - وفي حديث أَبي حُمَيْد الساعديّ في الصلاة: **«اللهمّ! صلِّ علىٰ محمد وأزواجِه وذُرِّيَّتِهِ»**.

١٤٦٠ - وفي حديث ابنِ عُمَر أنه كان يُصَلِّي علىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وعلىٰ أَبي بكر وعُمر. ذكره مالكٌ في «المُوطَّأ» من رواية يحيىٰ الأندلسي.

١٤٦١ - والصحيحُ من رواية غيره: ويَدْعُو لأَبي بَكْرٍ وعُمرَ.

١٤٦٢ - وروىٰ ابنُ وَهْب، عن أَنس بن مالك: كنّا ندعو لأَصحابنا بالغَيْب؛ فنقول: اللهم! اجعَلْ منكَ علىٰ فُلان صلواتِ قومٍ أبرارٍ، الذين يقومونَ بالليل، ويصومُونَ بالنهار.

قال القاضي أبو الفضل: والذي ذهب إليه المحقِّقون، وأَمِيلُ إليه، ما قاله مالك وسُفْيان رحمهما الله ورُوِي عن ابن عباس؛ واختاره غَيْرُ واحدٍ من الفقهاء والمتكلِّمين أنه لا يُصَلَّىٰ علىٰ غير الأنبياء عند ذِكْرهم؛ بل هو شيء يختصُّ به الأنبياءُ، توقيراً لهم وتعزيزاً، كما يُخَصُّ الله تعالىٰ عند ذِكره بالتَّنزيه والتَّقْدِيس والتعظيم، ولا يشاركُه فيه غَيْرُه، كذلك يجبُ تخصيص النبيِّ ﷺ وسائرِ الأنبياء

بالصلاة والتسليم ولا يشارِكهم فيه سِوَاهم، كما أمرَ اللَّهُ به بقوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ويُذكَرُ مَنْ سِوَاهم من الأئمَّةِ وغيرهم بالغُفرانِ والرِّضا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ . . .﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأيضاً فهو أمْرٌ لم يَكُنْ معروفاً في الصَّدْرِ الأول؛ كما قال أبو عِمْرانَ؛ وإنما أَحدثته الرافضةُ والمتَشَيِّعة في بعض الأئمة؛ فشارَكوهم عند الذِّكْرِ لهم بالصلاة، وساوَوْهم بالنبيِّ ﷺ في ذلك.

وأيضاً فإنَّ التشبُّهَ بأَهْلِ البِدَعِ مَنهيٌّ عنه؛ فتَجِبُ مُخالَفتُهم فيما التزموه من ذلك.

وذِكْرُ الصلاةِ علىٰ الآلِ والأَزواج مع النبيِّ ﷺ بحُكْم التَّبَعِ والإضافة إليه لا علىٰ التخصيص.

قالوا: وصلاةُ النبيِّ ﷺ علىٰ مَنْ صَلَّىٰ عليه مُجراها مُجرىٰ الدعاءِ والمُواجهةِ، ليس مِنها معنى التعظيم والتوقير.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا﴾ [النور: ٦٣] وكذلك يجبُ أن يكونَ الدعاءُ له مُخالفاً لدُعاءِ الناسِ بعضهم لبعض.

وهذا اختيارُ الإمام أبي المظفَّر الإسْفَراييني أحد شُيوخنا، وبه قال ابنُ عَبْدِ البَرِّ.

فصل
فِي حُكْمِ زِيَارَةِ قَبرِهِ عَلَيهِ السَّلامُ، وَفَضِيلَةِ مَنْ زَارَهُ وَسَلَّمَ عَلَيهِ وَكَيفَ يُسَلِّمُ وَيَدْعُو له

وزيارةُ قَبْره ـ عليه السلام ـ سُنَّةٌ من سُنَنِ المسلمين مُجْمَعٌ عليها، وفَضيلةٌ مُرَغَّبٌ فيها، رُوِيَ عن ابنِ عُمر رضيَ اللَّهُ عنه.

١٤٦٣ ـ حدثنا القاضي أبو عليّ؛ قال: حدثنا أبو الفَضل بن خَيرون؛ قال: حدثنا الحَسَن بن جَعْفر؛ قال: حدثنا أبو الحَسَن: علي بن عُمَر الدارَقُطني؛ قال:

حدثنا القاضي المحامِلِيّ؛ قال: حدثنا محمد بن عبدالرزَّاقِ؛ قال: حدثنا موسىٰ بن هِلال، عن عَبد اللّه بن عُمر، عن نافع، عن ابن عمر رضِيَ الله عنهما؛ أنه قال: قال النبيُّ ﷺ: **«مَنْ زار قَبْرِي وجبَتْ له شفاعتي»**.

١٤٦٤ ـ وعن أَنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ زارني في المدينة مُحْتَسِباً كانَ في جِواري، وكنتُ له شَفِيعاً يوم القيامة»**.

١٤٦٥ ـ وفي حديثٍ آخر: **«مَنْ زارني بعد موتي فكأنما زارَني في حَيَاتي»**.

١٤٦٦ ـ وكَرِه مالك أنْ يقَال: زُرْنا قَبْرَ النبيّ ﷺ.

١٤٦٧ ـ وقد اختُلف في معنىٰ ذلك؛ فقيل: كراهة الاسم؛ لِمَا وردَ من قَوْلِه عليه السلام: **«لَعَنَ اللّهُ زُوَّاراتِ القُبُورِ»** [أحمد (٢/٣٣٧)، الترمذي (١٠٥٦)، ابن ماجه (١٥٧٦)].

١٤٦٨ ـ وهذا يردُّه قَوْلُهُ: **«نهيتُكم عن زِيارَةِ القبور فزوروها»** [مسلم (٩٧٧)].

١٤٦٩ ـ وقوله: **«مَنْ زارَ قَبْري»** فقد أَطلق اسْمَ الزيارة.

وقيل: إن ذلك لِمَا قِيل: إنَّ الزائرَ أَفْضَلُ من المَزُور.

١٤٧٠ ـ وهذا أيضاً ليس بشيء؛ إذْ ليس كلُّ زائرٍ بهذه الصفة، وليس عموماً؛ وقد وردَ في حديثِ أهلِ الجنة: زيارَتُهم لربّهم [الترمذي (٢٥٤٩)، ابن ماجه (٤٣٣٦)]؛ ولم يُمْنَعْ هذا اللفظ في حقه تعالىٰ.

وقال أبو عمران ـ رحمه الله ـ: إنما كَرِه مالكٌ أن يُقال: طواف الزيارة، وزُرْنا قَبْرَ النبيّ ﷺ لاستعمالِ الناسِ ذلكَ بينهم بعضهم لبعض؛ فكرِهَ تسويةَ النبيّ ﷺ مع الناس بهذا اللفظ؛ وأحب أن يُخصَّ بأَن يُقالَ: سلَّمنا علىٰ النبيّ ﷺ.

وأيضاً فإنَّ الزيارةَ مُباحةٌ بين الناسِ، وواجبٌ شَدُّ الرحالِ إلىٰ قبره ﷺ؛ يريد بالوُجوب هنا وجوبَ نَدْبٍ وترغيبٍ وتأكيد، لا وجوبَ فرضٍ.

١٤٧١ ـ والأَوْلَىٰ عندي أنَ مَنْعَهُ وكراهةَ مالكٍ له لإضافته إلىٰ قَبْرِ النبيِّ ﷺ؛ وأنه لو قال: زُرْنا النبيَّ لم يَكْرهه؛ لقوله عليه السلام: **«اللهمَّ! لا تجعَلْ قبري وَثَناً يُعْبَدُ بعدي، اشتدَّ غضَبُ اللّهِ علىٰ قومٍ اتَّخذُوا قُبورَ أَنبيائهم مساجدَ»**.

فحمى إضافةَ هذا اللفظِ إلىٰ القبر، والتشبّه بفعل أولئك؛ قطعاً للذَّريعة، وحَسْماً للباب. والله أعلم.

قال إسحاقُ بن إبراهيم الفقيه: وممَّا لم يَزلْ مِنْ شأن مَنْ حَجَّ المرورُ

بالمدينة، والقَصْدُ إلىٰ الصلاة في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، والتبرُّكُ برُؤْيةِ رَوْضَتِه ومِنْبَرِهِ وقَبْرِهِ، ومجلسه، وملامِس يديه، ومواطىء قدميه، والعمودِ الذي كان يَسْتَنِدُ إليه، وينزل جبريل بالوَحْي فيه عليه، وبمَنْ عَمَره وقصَده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله.

وقال ابنُ أَبي فُدَيْك: سمعتُ بعضَ مَنْ أَدْرَكْتُ يقول: بلغَنا أنه مَنْ وقف عند قَبْر النبي ﷺ فتلاَ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم قال: صلىٰ الله عليك، يا محمدُ! مَنْ يَقُولُها سبعين مرةً ناداه مَلَك: صلىٰ اللَّهُ عليكَ يا فلان! ولم تَسْقط له حاجة.

١٤٧٢ ـ وعن يزيد بن أَبي سَعِيد المَهْري: قدمْتُ علىٰ عُمر بنِ عبدالعزيز، فلما وَدَّعتُه قال لي: إليكَ حاجةٌ؛ قلت: ما هي؟ قال: إذا أَتيتَ المدينةَ سترىٰ قَبْرَ النبيِّ ﷺ، فأَقْرِه منّي السلام.

وقال غيره: وكان يُبْرِدُ إليه البريدَ من الشام.

١٤٧٣ ـ قال بعضُهم: رأيتُ أَنس بن مالك أَتىٰ قَبْرَ النبيِّ ﷺ؛ فوقَفَ، فرفع يَدَيْهِ، حتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ افتتحَ الصلاة، فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف.

١٤٧٤ ـ وقال مالك ـ في رواية ابْنِ وَهْب ـ في الرجل إذا سلَّم علىٰ النبيِّ ﷺ وَدَعَا: يَقِفُ ووَجْهُه إلىٰ القبر الشريف لا إلىٰ القِبْلة، ويَدْنُو، ويُسَلِّم، ولا يمسُّ القَبْرَ بيده.

١٤٧٥ ـ وقال في «المبسوط»: لا أَرَىٰ أَنْ يَقِفَ عند قَبْر النبيّ ﷺ يَدْعو، ولكِنْ يسلِّم ويَمْضِي.

١٤٧٦ ـ قال ابْنُ أَبي مُلَيْكةَ: مَنْ أَحبَّ أَنْ يقومَ وِجاهَ النبيّ ﷺ فليَجْعل القِنْدِيلَ الذي في القِبْلةِ عند القَبْرِ علىٰ رأسه.

١٤٧٧ ـ وقال نافع: كان ابْنُ عُمر يُسلِّمُ علىٰ القَبْر؛ رأيتُه مئةَ مرةٍ وَأكثر، يجيءُ إلىٰ القبر فيقول: السلامُ عَلَىٰ النبيِّ ﷺ، السلامُ علىٰ أبي بكر، السلام عَلَىٰ أبي، ثم ينصرف.

١٤٧٨ ـ ورُئي ابْنُ عُمر واضعاً يَدَهُ علىٰ مَقْعَد النبيّ ﷺ من المنبر، ثم وضعها علىٰ وجهه.

١٤٧٩ ـ وعن ابن قُسَيط والعُتْبي: كان أَصحابُ النبيّ ﷺ إذا خلا المسجدُ جَسُّوا رُمّانة المِنْبر التي تَلِي القَبْرَ بَميَامِنِهم، ثم اسْتَقْبَلُوا القِبلةَ يَدْعُون.

١٤٨٠ ـ وفي الموطَّأ ـ من رواية يحيىٰ بنِ يحيىٰ اللَّيْثي ـ أنه كان يقفُ علىٰ

قَبرِ النبيِّ ﷺ فيصلّي علىٰ النبيّ، وعلىٰ أَبي بكر، وعُمرَ.

١٤٨١ ـ وعند ابن القاسم والقَعْنَبي: ويدْعُو لأَبي بكر، وعُمر.

١٤٨١م ـ قال مالك ـ في رواية ابنِ وَهْب ـ: يقولُ المسلِمُ: السلام عليكَ، أَيُّها النبيُّ! ورحمةُ اللّهِ وبركاتُه.

١٤٨١م١ ـ قال في «المبسوط»: ويُسَلِّم علىٰ أبي بكر، وعُمر.

١٤٨١م٢ ـ قال القاضي أبو الوليد الباجي: وعندي أنه يَدْعُو للنبيِّ ﷺ بلَفْظِ الصلاةِ، ولأبي بكر، وعُمر، كما في حديثِ ابن عُمر من الخِلاَف.

١٤٨١م٣ ـ وقال ابنُ حبيب: ويقولُ إذا دخل مسجد الرسولِ: باسم الله، وسلام عَلَى رسولِ اللّه ـ عليه السلام ـ السلامُ علينا من ربِّنا، وصلَّىٰ اللّهُ وملائكتهُ عَلَىٰ محمد. اللَّهُمَّ! اغفِرْ لي ذُنوبي، وافْتَحْ لي أبوابَ رَحْمَتِك وجَنَّتك، واحفَظْني من الشيطان الرجيم، ثم اقْصِدْ إلىٰ الرَّوْضة ـ وهي ما بين القَبْرِ والمِنْبرِ ـ فارْكَعْ فيها ركعتين قبل وقوفك بالقَبْر تَحْمَد اللّهَ فيهما وتسأله تمامَ ما خرجْتَ إليه والعَوْنَ عليه.

وإنْ كانت رَكْعَتَان في غير الرَّوْضَةِ أَجْزَأَتكَ، وفي الروضة أفضلُ.

١٤٨٢ ـ وقد قال عليه السلام: **«ما بينَ بَيْتِي ومِنْبَري رَوْضَةٌ من رِيَاض الجنَّةِ؛ ومِنْبري عَلَىٰ تُرْعة من تُرَعِ الجنَّة»** [أحمد (٥/٣٣٥)].

ثم تَقِف بالقبر مُتَوَاضِعاً متوقِّراً، فتصلِّي عليه وتُثْنِي بما يَحْضُرُكَ، وتسلّم عَلَىٰ أبي بكرٍ وعُمر، وتَدْعُو لهما.

وأَكثِرْ من الصلاةِ في مسجدِ النبيِّ ﷺ بالليل والنهار، ولا تَدَعْ أَنْ تأتي مسجدَ قُبَاء وقبورَ الشهداء.

وقال مالك في كتاب محمد: ويسلّم عَلَىٰ النبيّ ﷺ إذا دخل وخرج ـ يعني في المدينة ـ وفيما بين ذلك.

وقال محمد: وإذا خرج جعل آخِرَ عَهْدِه الوقوفَ بالقَبْر، وكذلك من خَرج مسافراً.

١٤٨٣ ـ وَرَوَىٰ ابنُ وَهب عن فاطِمَة بنتِ النبي ـ عليهما السلام ـ عن النبيِّ ﷺ قال: **«إذا دَخلْتَ المسجدَ فَصَلِّ عَلَىٰ النبيِّ ﷺ، وقل: اللهُمَّ! اغفِرْ لي ذُنوبي، وافتح لي أبوابَ رحمتك، وإذا خرجْتَ فصَلِّ عَلَىٰ النبيّ ﷺ، وقل: اللهمّ! اغفِرْ لي ذُنوبي، وافتَح لي أبوابَ فَضْلِك»**..

١٤٨٤ ـ وفي رواية أُخرىٰ: «**فليسلِّم**» مكانَ: فليصلِّ فيه، ويقول إذا خرج: «**اللهمَّ! إني أسألك مِنْ فضلك**» [أبو داود (٤٦٥)، مسلم (٧١٣)].

١٤٨٥ ـ وفي أُخرىٰ: «**اللهمَّ! احفَظْني من الشيطان الرجيم**» [ابن ماجه (٧٧٣)].

١٤٨٥م ـ وعن مُحمد بن سيرين: كان الناسُ يقولون إذا دخلوا المسجدَ: صلَّىٰ اللَّهُ وملائكتهُ عَلَىٰ محمدٍ. السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ! وَرحمةُ اللَّهِ وبركاته، باسم اللَّهِ دخلنا، وابسْمِ اللَّهِ خرجنا، وعَلَىٰ اللَّهِ توكَّلنا.

وكانوا يقولون إذا خرجوا مِثْلَ ذلك.

١٤٨٦ ـ وعن فاطمةَ أيضاً: كان النبيُّ ﷺ إذا دخل المسجدَ قال: «**صلىٰ اللَّهُ عَلَىٰ محمد وسلَّم**» [الترمذي (٣١٤)، أحمد (٢٨٢/٦، ٢٨٣)]. ثم ذكَر مِثْلَ حديثِ فاطمةَ قَبْلَ هذا.

١٤٨٧ ـ وفي روايةٍ: حمِدَ اللَّهَ وَسَمَّىٰ، وصَلَّىٰ عَلَىٰ النبيِّ ﷺ، وذكر مِثلَه.

١٤٨٨ ـ وفي روايةٍ: «**باسْمِ الله، والسلامُ عَلَىٰ رسولِ الله**» [ابن ماجه (٧٧١)، أحمد (٢٨٣/٦)].

١٤٨٩ ـ وعن غيرها: كان رسُولُ الله ﷺ إذا دخل المسجدَ قال: «**اللَّهمَّ! افتَحْ لي أبوابَ رحمتك، ويَسِّرْ لي أبوابَ رِزْقِك**».

١٤٩٠ ـ وعن أَبي هُرَيرة: «**إذا دخل أحدُكم المسجدَ فليصلِّ عَلَىٰ النبيّ ﷺ، وليَقُلْ: اللَّهمّ افتَحْ لي...**».

وقال مالك في «المبسوط»: وليس يلزمُ مَنْ دَخَلَ المسجدَ وخرجَ منه من أهل المدينة الوقوفُ بالقبر؛ وإنما ذلك للغُرباء.

وقال فيه أيضاً: لا بَأسَ لِمَنْ قدِمَ مِنْ سَفَرٍ، أو خرج إلىٰ سفر أن يقِفَ علىٰ قَبْرِ النبيّ ﷺ فيصلّي عليه وَيَدْعُو له وَلأَبي بكر وَعُمَر.

فقيل له: فإنَّ ناساً من أهل المدينة لا يَقْدَمون من سفَرٍ وَلا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرةً أو أكثر؛ وربَّما وَقفوا في الجمعة أو في الأيام المرةَ والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلّمون وَيَدْعُونَ ساعةً.

فقال: لم يَبْلُغني هذا عَنْ أحدٍ من أَهل الفِقْه ببلدنا، وَتَرْكُه وَاسع، ولا يُصْلِحُ آخرَ هذه الأمةِ إلا ما أَصْلَحَ أَوَّلَها؛ ولم يَبْلُغْني عن أَول هذه الأمّة وَصَدْرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، وَيُكره إلا لِمَنْ جاءَ من سفرٍ أو أَراده.

قال ابنُ القاسم: وَرَأَيتُ أهلَ المدينةِ إذا خرجوا منها أو دخلوا إليها أتَوا القَبْرَ فسلَّموا؛ قال: وذلك رَأْيِي.

قال الباجيُّ: فَفَرَّقَ بين أهلِ المدينةِ وَالغُرَباء؛ لأنَّ الغرباءَ قَصدوا لذلك؛ وأهل المدينة مُقيمون بها لم يَقْصِدُوها من أجلِ القبرِ وَالتسليم.

١٤٩١ ـ وَقال عليه السلام: «اللَّهمّ! لا تجعَلْ قَبْري وَثَنًا يُعْبَدُ؛ اشتَدَّ غضَبُ اللهِ علَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قبورَ أنبيائهم مَساجِدَ».

١٤٩٢ ـ وَقال: «لا تجعلوا قَبري عيداً» [أبو داود (٢٠٤٢)، أحمد (٣٦٧/٢)].

ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي ـ فيمن وَقف بالقَبْرِ: لا يَلْصَق به، ولا يَمسّه، وَلا يقف عنده طَوِيلاً.

وَفي «العُتْبِيَّة» يَبْدأ بالركوع قبل السلام في مسجد رسول الله ﷺ؛ وَأَحَبُّ مواضِع التنفّل فيه مُصَلَّىٰ النبيِّ ﷺ حيث العمودُ المُخلَّق.

وَأمّا في الفريضة فالتقدُّم إلىٰ الصفوف وَالتنفُّلُ فيه للغرباء أحبُّ إليَّ من التنفّل في البُيوت.

فصل

فيما يلزَمُ مَن دخَلَ مسجِدَ النبيِّ ﷺ من الأدبِ سِوَىٰ ما قدَّمناه، وَفضلِه، وفضلِ الصلاةِ فيه، وَفي مسجِدِ مكّةَ، وذِكرِ قبرِه وَمِنْبرِه، وَفضلِ سُكنَى المدينةِ ومكّةَ

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ...﴾ [التوبة: ١٠٨].

١٤٩٣ ـ رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ مسجدٍ هو؟ قال: «هو مَسجدي هذا» [مسلم (١٣٩٨)].

وهو قولُ ابنِ المسيِّب، وَزَيْد بن ثابت، وَابنِ عمر، وَمالك بن أنس، وَغيرِهم.

١٤٩٤ ـ وَعن ابن عبّاس أنه مسجدُ قُباء.

١٤٩٥ ـ حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا الحُسَيْن بن محمد الحافظ، حدثنا أبو عُمر النَّمَرِي، حدثنا أبو محمد بن عبدالمؤمن، حدثنا أبو بكر بن دَاسَة، حدثنا أبو داود، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا سُفيانُ، عن الزُّهريِّ، عن

سَعِيد بن المسَيَّب، عن أبي هريرة رَضِيَ الله عنه عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجدِ الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصىٰ**» [أبو داود (٢٠٣٣)، البخاري (١١٨٩)، مسلم (١٣٩٧)].

وقد تقدّمت الآثارُ في الصلاةِ والسلام علىٰ النبيِّ ﷺ عند دخول المسجد.

١٤٩٦ ـ وعن عبدالله بن عَمْرو بنِ العاص، أنَّ النبي ﷺ كان إذا دخل المسجدَ قال: «**أعوذُ بالله العظيم، وبوَجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرَّجيم**» [أبو داود (٤٦٦)].

١٤٩٧ ـ وقال مالِك ـ رحمه الله ـ: سمع عُمر بن الخطاب رضِيَ اللَّهُ عنه صوتاً في المسجد، فدعا بصاحبه؛ فقال: مِمَّنْ أنتَ؟ قال: رجل مِنْ ثَقِيف. قال: لو كنْتَ من هاتين القَرْيتين لأَدَّبْتُكَ، إنّ مسجدَنا هذا لا يُرفَع فيه الصوتُ [البخاري (٤٧٠)].

قال محمد بن مَسْلَمةَ: لا يَنْبَغي لأَحدٍ أَنْ يعتمدَ المسجدَ برَفْعِ الصوت، ولا بشيء من الأذىٰ، وأَنْ يُنَزَّهَ عَمَّا يُكْرَه.

قال القاضي: حكى ذلك كله القاضي إسماعيلُ في «مَبْسُوطِه» في باب فَضل مسجدِ النبيِّ ﷺ. والعلماءُ كلُّهم مُتَّفِقُون علىٰ أَنَّ حُكْمَ سائر المساجدِ هذا الحُكم.

قال القاضي إسماعيل: وقال محمد بن مَسْلَمة: ويُكره في مسجدِ الرسولِ ﷺ الجَهْرُ علىٰ المصلّين فيما يخلِطُ عليهم صلاتَهم، وليس مما يخصُّ به المساجدُ رَفْعُ الصوتِ، قد كُرِهَ رَفْعُ الصوتِ بالتَّلْبِيَة في مساجدِ الجماعات إلاّ المسجدَ الحرامَ ومسجد منًى.

١٤٩٨ ـ وقال أبو هُرَيرة، عنه عليه السلام: «**صلاةٌ في مسجدي هذا خَيرٌ مِنْ ألفِ صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجدَ الحرام**» [البخاري (١١٩٠)، مسلم (١٣٩٤)].

قال القاضي أبو الفضل: اختلف الناسُ في معنى هذا الاستثناء علىٰ اختلافهم في المُفَاضَلة بين مكة والمدينة؛ فذهب مالك ـ في رواية أَشهب عنه ـ وقال ابنُ نافع صاحبه، وجماعةُ أصحابه، إلىٰ أنّ معنى الحديث أن الصلاةَ في مسجد الرسولِ أَفضلُ من الصلاةِ في سائرِ المساجد بألف صلاةٍ إلاّ المسجدَ الحرام؛ فإنَّ الصلاةَ في مسجد النبي ﷺ أفضلُ من الصلاةِ فيه بدون الأَلفِ.

١٤٩٩ ـ واحتجُّوا بما رُوِي عن عُمرَ بن الخطاب رضي اللَّهُ عنه: صلاةٌ في

المسجد الحرام خيرٌ من مئة صلاةٍ فيما سواه. فتأتي فَضِيلةُ مسجدِ الرَّسُولِ ﷺ بتِسْع مِئةٍ، وعلىٰ غيره بألفٍ.

وهذا مَبْنِيٌّ علىٰ تَفْضِيل المدينة علىٰ مَكَّة علىٰ ما قدَّمناه؛ وهو قولُ عُمر بن الخطاب، ومالك، وأكثر أهل المدينة.

وذهب أهلُ الكوفةِ ومكة إلىٰ تفضيل مكةَ؛ وهو قولُ عطاءٍ، وابنِ وَهْبٍ وابنِ حَبِيب من أصحاب مالك، وحكاه السَّاجِي عن الشافعيِّ؛ وحَملُوا الاستثناءَ في الحديث المتقدِّم علىٰ ظاهره، وأَنَّ الصلاة في المسجد الحرام أَفضلُ.

١٥٠٠ ـ واحتجُّوا بحديثِ عَبْدالله بن الزُّبَير، عن النبيِّ ﷺ بمثْلِ حديثِ أبي هريرة؛ وفيه: «**وصلاةٌ في المسجد الحرام أَفضلُ من الصلاة في مسجدي هذا بمئة صلاة**» [أحمد (٥/٤)].

ورَوى قتادةُ مِثلَه؛ فيأتي فَضْلُ الصلاةِ في المسجدِ الحرام ـ علىٰ هذا ـ علىٰ الصلاة في سائر المساجد بمئة ألفٍ.

ولا خِلاَفَ أنَّ موضِعَ قَبْرِه أفضلُ بِقَاع الأرض.

قال القاضي أبو الوليد الباجي: الذي يقتَضِيه الحديثُ مخالفةُ حُكْمِ مسجِد مكَّةَ لسائر المساجِدِ، ولا يُعْلَم منه حُكْمُها مع المدينة.

وذهب الطَّحَاوي إلىٰ أنَّ هذا التفضيلَ إنما هو في صلاةِ الفَرْض.

وذهب مُطَرِّفٌ ـ من أصحابنا ـ إلىٰ أنَّ ذلك في النافلة أيضاً؛ قال: وَجُمُعَةٌ خَيْرٌ من جُمُعَةٍ، ورَمضانُ خَيْرٌ من رمضانَ.

١٥٠١ ـ وقد ذكر عبدالرزاق في تفضيل رمضان بالمدينةِ وغيرها حديثاً نحوه.

١٥٠٢ ـ وقال ـ عليه السلام ـ «**ما بين بَيْتِي ومِنْبَري رَوْضَةٌ من رياض الجنة**» [البخاري (١١٩٥)، مسلم (١٣٩٠)].

١٥٠٣ ـ ومثلُه عن أبي هُريرة ـ أو أبي سعيد ـ وزاد: «**ومِنْبَري علىٰ حَوْضِي**» [البخاري (١١٩٦)، مسلم (١٣٩١)].

١٥٠٤ ـ وفي حديث آخر: «**مِنْبَري علىٰ تُرْعَةٍ من تُرَعِ الجنة**».

قال الطبري: فيه مَعْنَيان:

١٥٠٥ ـ أحدهما: أن المراد بالبيت: بيتُ سُكْناه علىٰ الظاهر، مع أنه رُوي ما يبيِّنه: «**بين حُجْرَتي ومنبري**» [أحمد (٣٨٩/٣)].

١٥٠٦ ـ والثاني: أنَّ البيتَ هذا القَبْرُ؛ وهو قولُ زَيد بن أَسْلَم في هذا

الحديث، كما رُوِيَ: «بين قبري ومِنبري» [أحمد (٣/٦٤)]. قال الطَّبَري: وإذا كان قَبْرُهُ في بَيْتِه اتَّفَقَتْ معاني الروايات، ولم يكن بينها خِلَاف؛ لأن قَبْره في حُجْرَتِهِ، وهو بَيْتُه.

وقولهُ: «ومِنْبَري علىٰ حَوْضِي»: قيل: يحتمل أنه مِنبره بعَيْنه الذي كان في الدنيا؛ وهو أظهر.

والثاني: أن يكون له هناك منبر.

والثالث: أنَّ قَصْدَ مِنبره والحضورَ عنده لملازمةِ الأعمالِ الصالحة يُوردُ الحوضَ، ويوجبُ الشُّرْبَ منه، قاله الباجي.

وقوله: «رَوْضَةٌ مِنْ رياضِ الجَنَّةِ» يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه موجِبٌ لذلك، وأَنَّ الدعاءَ والصلاةَ فيه يستحقُّ ذلك من الثواب.

١٥٠٧ ـ كما قيل: «**الجنَّةُ تحت ظِلالِ السيوف**» [البخاري (٢٨١٨)، مسلم (١٧٤٢)].

والثاني: أنَّ تلكَ البُقْعَةَ قد ينقُلها اللَّهُ فتكون في الجنةِ بعينها؛ قاله الدَّاوُدِيُّ.

١٥٠٨ ـ ورَوَىٰ ابنُ عمرَ، وجماعةٌ من الصحابة، أَنَّ النبيَّ ﷺ قال في المدينة: «**لا يَصْبِرُ علىٰ لأوائها، وشِدَّتِها أحدٌ، إلاَّ كُنتُ له شَهِيداً ـ أو شفِيعاً ـ يَوْمَ القيامة**» [مسلم (١٣٧٧)].

١٥٠٩ ـ وقال فيمن تَحَمَّلَ عن المدينة: «**والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يَعْلَمُون**» [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].

١٥١٠ ـ وقال: «**إِنَّما المدينةُ كالكِير تَنفِي خَبَثَها، وتَنصَعُ طَيِّبَها**» [البخاري (١٨٨٣)، مسلم (١٣٨٣)].

١٥١١ ـ وقال: «**لا يخرجُ أحدٌ من المدينة رَغْبَةً عنها إلا أَبْدَلها اللَّهُ خيراً منه**» [مسلم (١٣٦٣)].

١٥١٢ ـ ورُوي عنه عليه السلام: «**مَن ماتَ في أَحَدِ الحرمَين حاجًا أو مُعْتَمِراً، بعثه اللَّهُ يومَ القيامة ولا حِسابَ عليه ولا عذَابَ**».

١٥١٣ ـ وفي طريق آخر: «**بُعِثَ من الآمنين يوم القيامة**».

١٥١٤ ـ وعن ابن عُمَرَ: «**مَن استطاعَ أَنْ يموتَ بالمدينة فَلْيَمُتْ بها؛ فإني أَشفَعُ لِمَنْ يموتُ بها**» [الترمذي (٣٩١٧)، ابن ماجه (٣١١٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

قال بعضُ المفسرين: ﴿آمِنًا﴾ من النارِ. وقيل: كان يأمَنُ من الطلب مَنْ أحدث حَدَثاً خارجاً عن الحرم، ولجأ إليه في الجاهلية؛ وهذا مِثْلُ قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] على قول بعضهم.

وحُكي أنَّ قوماً أتَوْا سَعْدونَ الخَوْلاني بالمُنَسْتيرِ فأعلموه أن كُتَامَةَ قتلُوا رجُلاً، وأضرموا عليه النارَ طولَ الليل. فلم تَعْمَلْ فيه شيئاً وبَقِيَ أبيضَ البدنِ، فقال: لعلَّه حجَّ ثلاثَ حِجَجٍ؟! قالوا: نعم. قال: حُدِّثْتُ أنَّ مَنْ حجَّ حِجَّةً أدَّى فرضَه، ومَنْ حجَّ ثانيةً دايَنَ ربَّه، ومَنْ حجَّ ثلاثَ حِجَجٍ حَرَّمَ اللَّهُ شَعْرَه وبشَرَه على النارِ.

١٥١٥ ـ ولما نظر رسولُ الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مَرْحباً بِكِ مِنْ بيتٍ؛ ما أعظمَكِ! وأعظمَ حُرْمَتَكِ!» [الترمذي (٢٠٣٢)].

١٥١٦ ـ وفي الحديث، عنه عليه السلام: «ما مِنْ أحدٍ يدْعُو اللَّهَ تعالى عند الرُّكنِ الأسودِ إلاَّ استجابَ الله له، وكذلك عند الميزابِ».

١٥١٧ ـ وعنه عليه السلام: «مَنْ صلَّى خَلْفَ المَقامِ ركعتَيْنِ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، وحُشِرَ يوم القيامة من الآمنين».

١٥١٨ ـ قال الفقيه القاضي أبو الفضل ـ رحمه الله ـ: قرأتُ على القاضي الحافظ أبي عليّ رحمه الله، قلت له: حدثك أبو العباس العُذْريّ؛ قال: حدثنا أبو أسامةَ: محمد بن أحمد بن محمد الهَرَوِيّ، حدثنا الحسن بن رَشِيق، سمعتُ أبا الحسن: محمد بن الحسن بن راشد، سمعتُ أبا بكر: محمد بن إدريس، سمعتُ الحُمَيْدِيّ؛ قال: سمعتُ سُفْيان بن عُيَيْنة، قال: سمعتُ عَمْرو بن دينار قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما دعا أحَدٌ بشيءٍ في هذا المُلْتَزَمِ إلا استُجِيبَ لَهُ».

قال ابن عباس: وأنا فما دَعَوْتُ اللَّهَ بشيءٍ في هذا المُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا مِنْ رسولِ الله ﷺ إلاَّ استُجِيبَ لي.

وقال عَمْرو بن دينار: وأنا فما دعوتُ الله تعالى بشيءٍ في هذا المُلْتَزَم منذ سمعتُ هذا من ابن عباس إلا استُجِيبَ لي.

وقال سُفْيان: وأنا فما دعوتُ الله بشيءٍ في هذا المُلْتَزَم منذ سمعتُ هذا من عَمْرو بن دينارٍ إلاَّ استُجِيبَ لي.

قال الحُميدي: وأنا فما دعوتُ الله بشيء في هذا المُلتَزَم منذُ سمعتُ هذا من سُفْيان إلا استُجيبَ لي.

وقال محمد بن إدريسَ: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيءٍ في هذا الْمُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا من الحُميدي إلا استُجِيب لي.

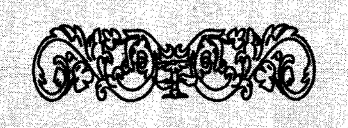
وقال أبو الحسن: محمد بن الحسن: وأنا فما دعوتُ الله بشيء في هذا المُلتَزَم منذُ سمعتُ هذا من محمد بن إدريسَ إلاَّ استُجِيبَ لي.

قال أبو أُسامةَ: وما أذكر الحَسَن بن رَشِيق قال فيه شيئاً: وأنا فما دَعَوْتُ الله بِشيءٍ في هذا المُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا من الحسن بن رَشِيق إلا استُجِيب لي من أَمْرِ الدنيا، وأَنا أرجو أن يُسْتَجاب لي مِنْ أمر الآخرة.

قال العُذْري: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيءٍ في هذا المُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا من أبي أُسامة إلا استُجِيبَ لي.

قال أبو عليّ: وأنا فقد دعوتُ الله فيه بأشياء كثيرة واسْتُجِيب لي بعضُها، وأرجو مِن سَعَةِ فَضْله أنْ يستجيب لي بقيّتها.

قال القاضي أبو الفضل: قد ذكرنا نُبَذاً من هذه النُكت في هذا الفَصْل وإنْ لم تكن من الباب، لتعلقها بالفَصْل الذي قبله حِرْصاً علىٰ تمام الفائدة؛ واللَّهُ الموفق للصواب برحمته.





القسم الثالث

فِيمَا يَجِبُ للنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا يَسْتَحِيلُ فِيْ حَقِّهِ أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا يَمْتَنِعُ أو يَصِحُّ مِنَ الأَحْوَالِ البَشَرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْءَايَٰتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

فمحمّد ﷺ وسائر الأنبياءِ مِنَ البَشَر، أُرسلوا إلى البشرِ، ولولا ذلك لما أطاق الناسُ مُقاومَتَهُمْ، والقَبولَ عنهم، ومخاطبتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]؛ أي لما كان إلاّ في صورةِ البَشَر الذين يمكنكم مخاطبتهم ومخالطتهم؛ إذْ لا تُطِيقون مُقاومةَ المَلَك، ومخاطبته، ورُؤيته، إذا كان على صُورته.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]؛ أي لا يمكنُ في سنّةِ اللَّهِ إرسالُ

المَلَكِ إلاَّ لِمَنْ هو مِنْ جِنسه، أو مَنْ خَصَّه اللَّهُ تعالىٰ واصطفاه وقَوَّاه علىٰ مُقَاومته، كالأنبياء والرسُلِ.

فالأنبياءُ والرسلُ عليهم السلام وسائطَ بين الله تعالىٰ وبين خَلْقِهِ يُبَلِّغُونَهم أَوَامِرَه ونواهيه، وَوَعْدَه وَوَعِيدَه، ويُعرِّفونَهم بما لم يَعْلَمُوه مِنْ أَمْرِه وخَلْقه، وجَلالِه وسُلْطانِه، وَجَبَرُوته ومَلَكوتِه؛ فظَوَاهِرُهُم وأجسادُهم وبِنْيَتُهم متَّصِفةٌ بأوصاف البشر، طارىء عليها ما يَطْرأ علىٰ البَشَر من الأعراض والأَسقام، والموتِ والفناءِ، ونعوت الإنسانية، وأرْوَاحُهم وبَوَاطنُهم متَّصِفَةٌ بأعْلَىٰ من أَوْصاف البشر، متعَلِّقة بالملأ الأعلىٰ، متشبِّهة بصفاتِ الملائكة، سليمةٌ من التغيّر والآفات، لا يلحَقُها غالباً عَجزُ البشريَّة، ولا ضَعفُ الإنسانية، إذ لو كانت بواطنُهم خالصةً للبَشريةِ كظَوَاهِرِهم لَمَّا أطاقوا الأَخْذَ عن الملائكة، ورؤيَتهم لهم، ومخاطبَتَهم إياهم، ومُخَالَطتهم، كما لا يُطِيقُه غيرُهم من البَشَر.

ولو كانت أَجسامُهُم وظواهِرُهم متَّسِمَةً بنعوتِ الملائكة، وبخلاف صفاتِ البَشَر، لَمَا أَطاقَ البَشَر ومَنْ أُرْسِلُوا إليهم مخالطتهم، كما تقدم من قولِ الله تعالىٰ؛ فجُعِلُوا من جهة الأجسام والظَّوَاهر مع البَشَر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة.

١٥١٩ ـ كما قال عليه السلام: «**لو كنتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أبا بكر خَلِيلاً؛ ولكِنْ أُخُوَّةُ الإسلام، لكِنَّ صَاحِبَكُمْ خليلُ الرحمن**».

١٥٢٠ ـ وكما قال: «**تنامُ عَيْنايَ وَلا يَنَامُ قلبي**».

١٥٢١ ـ وقال: «**إنِّي لستُ كهيئتكم؛ إنِّي أظلُّ يُطعمني رَبِّي ويَسْقيني**».

فبواطنُهم منَزَّهةٌ عن الآفاتِ، مُطَهَّرَةٌ من النقائص والاعتلالات.

وهذه جملةٌ لن يكتَفِيَ بمضمونها كلُّ ذي هِمَّةٍ؛ بل الأكثَرُ يحتاجُ إلىٰ بَسْطٍ وتفصيل علىٰ ما نَأتِي به بَعْدَ هذَا الباب في البابين بعَوْن الله وهو حَسْبِي ونعم الوكيل.



الباب الأول

فِيمَا يَخْتَصُّ بِالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالكَلامِ فِي عِصْمَةِ نَبِيِّنَا وَسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلامُهُ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: اعلم أنّ الطوارئ من التغييراتِ والآفات على آحادِ البشر لا يَخلُو أنْ تَطرأ على جِسمِه، أو على حَوَاسّه بغير قَصْدٍ واختيار؛ كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار؛ وكلُّه في الحقيقة عمَلٌ وفِعل، ولكنْ جرَىٰ رسْمُ المشايخ بتفصيله إلى ثلاثة أنواع: عَقْدٍ بالقلب، وقَوْلٍ باللسان، وعَمَلٍ بالجوارح.

وجميع البَشر تَطرأ عليهم الآفاتُ والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلِّها.

والنبيُّ ﷺ - وإن كان من البَشرِ، ويجوز على جِبِلَّتِه ما يجوزُ على جِبِلَّة البَشر - فقد قامت البراهينُ القاطعة، وتمت كلمةُ الإجماع على خروجه عنهم، وتنزيهه عن كثير من الآفاتِ التي تقعُ على الاختيار وعلى غير الاختيار، كما سنُبيّنُهُ - إن شاء الله - فيما نأتي به من التفاصيل.

فصل

في حُكم عقدِ قلبِ النبيِّ ﷺ من وقت نُبُوّتِه

اعلم - منَحنا اللهُ وإياك توفيقه - أنّ ما تعلّق منه بطريق التوحيد، والعِلم بالله وصفاتِه، والإيمانِ به، وبما أُوحيَ إليه، فعلى غايةِ المعرفةِ، ووضوحِ العِلم واليقين، والانتفاء عن الجَهْل بشيءٍ من ذلك، أو الشكّ أو الرَّيب فيه، والعصمةِ من كلِّ ما يُضَادُّ المعرفة بذلك واليقين.

هذا ما وقع إجماعُ المسلمين عليه، ولا يَصِحُّ بالبراهين الواضحةِ أن يكونَ في عقودِ الأنبياء سِواه؛ فلا يُعتَرضُ علىٰ هذا بقولِ إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ إذ لم يَشُكَّ إبراهيمُ في إخبار الله تعالىٰ له بإحياءِ المَوْتَىٰ، ولكِنْ أراد طُمَأْنينة القَلْبِ، وتَرْكَ المنَازعةِ لمشاهدة الإحياءِ؛ فحصل له العِلْمُ الأوَّلُ بوقوعه، وأراد العِلْمَ الثاني بكيفيته ومشاهدته.

الوجه الثاني: أنَّ إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ إنما أراد اختبارَ منزلتِه عند رَبِّه، وعِلْمَ إجابَته دعْوَته بسؤال ذلك مِنْ ربِّه؛ ويكون قولُه تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ أي تُصَدِّق بمنزلتك مني، وخُلّتك، واصطفائك؟.

الوجه الثالث: أنه سأَل زِيادَةَ يَقِينٍ وقوةَ طمأنينة، وإنْ لم يكنْ في الأول شكٌ؛ إذ العلومُ الضروريةُ والنظرية قد تتفاضَل في قُوَّتها، وطَرَيَان الشكوك علىٰ الضَّرُورياتِ مُمْتنع؛ ومَجوَّزٌ في النظريات؛ فأرادَ الانتقالَ مِنَ النظرِ أو الْخَبَرِ إلىٰ المشاهدةِ وَالترقِّي مِنْ علم اليقين إلىٰ عَيْنِ اليقين؛ فليس الْخَبَرُ كالمعايَنَة؛ ولهذا قال سهلُ بنُ عَبْدِاللّٰهِ: سَأَل كَشْفَ غطاءِ العِيَان ليزدادَ بنُورِ اليقين تمكّناً في حاله.

الوجه الرابع: أنه لما احتجَّ علىٰ المشركين بأَنَّ ربَّهُ يُحْيي ويُميتُ طلبَ ذلك مِنْ ربه، ليَصِحَّ احتجاجُهُ عِيَاناً.

الوجه الخامس: قولُ بعضهم: هو سُؤالٌ علىٰ طريقِ الأدب؛ المرادُ: أَقْدِرْني علىٰ إحياء الموتى، وقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ عن هذه الأُمْنِيَّةِ.

الوجه السادس: أنه أَرىٰ من نفسه الشكَّ، وما شكَّ، لكن ليُجَاوَبَ فَيَزْدَاد قُرْبُهُ.

١٥٢٢ ـ وقولُ نبيِّنا عليه السلام: «**نحن أَحقُّ بالشكِّ من إبراهيم**»: نفيٌ لأَنْ يكونَ إبراهيم شكٌّ، وإبعادٌ للخواطر الضعيفة أن تَظنَّ هذا بإبراهيم عليه السلام؛ أي نحن موقِنون بالبَعْثِ، وإحياءِ الله الموتىٰ؛ فلو شكَّ إبراهيمُ لَكُنَّا أَوْلى بالشكِّ منه؛ إمّا علىٰ طريقِ الأَدَبِ، أو أَنْ يُريدَ أُمَّتَهُ الذين يجوزُ عليهمُ الشَّكُّ، أو على طريق التواضع والإشفاقِ إنْ حَمَلْتَ قِصةَ إبراهيم عَلَىٰ اختبار حالِه، أو زيادةِ يقينه.

فإنْ قلتَ: فما معنى قولِه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٤، ٩٥].

فاحذَرْ ـ ثَبّتَ اللَّهُ قلبي وقَلْبَك ـ أَنْ يَخطُر بِبالِكَ ما ذكره بعض المُفسّرين، عن ابن عباس ـ أو غيره ـ مِنْ إثبات شَكٍّ للنبيِّ ﷺ فيما أُوحِيَ إليه، وأنه مِن البَشَر؛ فمثلُ هذا لا يجوزُ عليه جُملةً عليه السلام.

١٥٢٣ ـ بل قد قال ابنُ عباس وغيرُهُ: لم يشكَّ النبيُّ ﷺ، ولم يسأل.

ونحوه عن ابن جُبَير، والحَسَن.

١٥٢٤ ـ وحكى قَتادةُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما أَشُكُّ ولا أسألُ**»، وعامَّةُ المفسّرين علىٰ هذا.

واختلفوا في معنى الآية: فقيل: المرادُ: قُلْ يا محمد! للشاكِّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ...﴾ الآية [يونس: ٩٤].

قالوا: وفي السورة نَفْسِها ما دلَّ علىٰ هذا التأويل وهو قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس: ١٠٤].

وقيل: المرادُ بالخطاب العربُ وغَيْرُ النبيّ ﷺ، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] الخِطابُ له، والمرادُ غَيْرُه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩] ونظيره كثير.

قال بَكْرُ بْنُ العَلاء: ألا تَراهُ يقول: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]. وهو ﷺ كان المُكذَّب فيما يَدْعُو إليه؛ فكيف يكون ممَّن يُكذِّبُ به؟!

فهذا كلُّه يَدُلُّ علىٰ أنَّ المرادَ بالخطاب غَيْرُه.

ومثْلُ هذه الآية قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] المأمورُ ها هنا غَيْرُ النبيِّ ﷺ، ليسألَ النبيَّ، والنبيُّ ﷺ هو الخَبِيرُ المسؤول، لا المسْتَخْبِرُ السائلُ.

وقال: إن هذا الشكَّ الذي أُمر به غَيْرُ النبيِّ ﷺ بسؤال الذين يقرؤُون الكتابَ إنما هو فيما قصَّهُ الله من أخبار الأُمم، لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة.

ومثْلُ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] المرادُ به المشركون، والخِطَابُ مُواجهة للنبي ﷺ؛ قاله القُتَبِيُّ.

وقيل: المعنىٰ سَلْنَا عمَّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قبلك؛ فحُذِف الخافض، وتَمّ الكلامُ؛ ثم ابتدأ الكلام: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ. . .﴾ [الزخرف: ٤٥] الآية إلىٰ آخرها علىٰ طريقِ الإنكار؛ أي ما جعلنا؛ حكاه مَكِّيٌّ.

وقيل: أُمِر النبيُّ ﷺ أَنْ يسأَلَ الأنبياءَ ليلةَ الإسراءِ عن ذلك؛ فكان أَشدَّ يقيناً من أَنْ يحتاج إلىٰ السؤال.

١٥٢٥ ـ فرُوِي أنه قال: **«لا أسأَلُ؛ قد اكتفيتُ»**؛ قاله ابن زَيْد.

وقيل: سَلْ أُمَمَ مَنْ أَرْسَلْنَا؛ هل جاؤُوهم بغير التوحيد؟ وهو معنى قول مجاهدٍ، والسُّدِّي، والضَّحاك، وقَتَادة.

والمرادُ بهذا والذي قَبْلَه إِعلامُه بما بُعِثَتْ به الرُّسُلُ، وأنه تعالىٰ لم يأْذَنْ في عبادةِ غيره لأحدٍ؛ ردّاً علىٰ مُشْركي العربِ وغيرهم؛ في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وكذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أي في عِلْمِهم بأنّك رسولُ الله، وإنْ لم يُقِرُّوا بذلك؛ وليس المراد به شَكُّهُ فيما ذكر في أول الآية.

وقد يكونُ أيضاً علىٰ مِثْلِ ما تَقَدَّم؛ أي: قل يا محمد! لِمَنْ امْتَرَىٰ في ذلك: لا تكونَنَّ من المُمْترين، بدليل قوله أول الآية: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١١٤] وأن النبيّ ﷺ يخاطِبُ بذلك غَيْرَه.

وقيل: هو تقرير؛ كقوله تعالى لعيسىٰ عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد عَلِم أنه لم يَقُلْ.

وقيل: معناه ما كنتَ في شكٍّ فاسأَلْ تَزْدَدْ طُمأْنينةً وعِلْماً إلىٰ عِلْمك، ويقيناً.

وقيل: إن كنتَ تَشُكُّ فيما شرَّفْنَاكَ وَفضَّلناكَ به فَسَلْهُمْ عن صِفَتك في الكُتب ونَشْرِ فضائلك.

وحُكي عن أبي عُبيدة أنَّ المرادَ: إن كنتَ في شكٍّ من غيرك فيما أنزلناه.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠] علىٰ قراءة التخفيف؟

قلنا: المعنى في ذلك ما قالته عائشة رَضِيَ الله عنها: معاذ الله أَنْ تَظُنَّ ذلك

الرسلِ بربّها؛ وإنّما معنى ذلك أنّ الرسلَ لما استيأسوا ظنّوا أنّ مَنْ وَعَدَهُمُ النَّصْرَ مِنْ أتْباعِهِم كذبوهم؛ وعلى هذا أكثر المفسرين.

وقيل: إنّ الضمير في «ظَنُّوا» عائد على الأتْباع والأمَم، لا على الأنبياء والرسل؛ وهو قولُ ابن عباس، والنَّخَعي، وابن جُبير، وجماعة من العلماء.

وبهذا المعنى قرأ مجاهد: ﴿كَذَبُوا﴾ - بالفتح؛ فلا تَشْغَلْ بالَكَ من شاذّ التفسير بسواه، مما لا يليق بمَنْصِب العلماء، فكيف بالأنبياء؟!

١٥٢٥م - وكذلك ما وَرَدَ في حديث السيرة، ومُبْتَدأ الوَحْي؛ في قوله ﷺ لخديجة: «لقد خَشِيتُ على نَفْسي» [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)] ليس معناه الشكّ فيما آتاهُ اللّهُ بعد رُؤْيَة المَلَك؛ ولكن لَعَلَّهُ خَشِيَ ألاّ تحتمِلَ قُوَّتُه مقاومةَ المَلَك وأعْباءَ الوَحْي، فيَنْخَلِع قلبُه، أو تزهق نفسُه.

وهذا على ما ورد في الصحيح: أنه قاله بعد لِقائه المَلَكَ؛ أو يكون ذلك قبل لِقاء المَلَك وإعلام اللّهِ تعالى له بالنبوّة لأوّلِ ما عرضت عليه من العجائب، وسلّم عليه الحجَرُ والشجَرُ، وبدأته المنامات والتباشير؛ كما رُوِيَ في بعض طُرُق هذا الحديث: إنّ ذلك كان أولاً في المنام، ثم أُرِيَ في اليَقَظة مِثْلَ ذلك؛ تأنيساً له عليه السلام؛ لئلا يَفْجَأه الأمرُ مشاهدةً ومشافهةً؛ فلا تَحْتَمِلُه لأوّلِ حالةٍ بِنْيَةُ البشريّة.

١٥٢٦ - وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أوّلُ ما بُدِئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة؛ قالت: ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ؛ وقالت: إلى أن جاءهُ الحقُّ وهو في غار حِراء... الحديث [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١٥٢٧ - وعن ابن عباس: مكثَ النبيُّ ﷺ بمكة خمس عَشْرَةَ سنةً. يسمَعُ الصوتَ، ويرى الضوءَ سبْعَ سنين ولا يَرَى شيئاً؛ وثماني سنين يُوحَى إليه [مسلم (١٢٣/٢٣٥٣)، أحمد (٣١٢/١)].

١٥٢٨ - وقد رَوَى ابنُ إسحاق عن بعضهم أنّ النبيّ ﷺ قال - وذكر جِواره بغار حِراء - قال: «فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أقرأ؟» وذكر نحو حديث عائشة في غطّه له وإقرائه إياه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ السورة ثلاثاً.

قال: «فانصرف عني، وهببْتُ من نومي كأنما صُوّرَتْ في قلبي، ولم يكُنْ أبْغض إليّ من شاعرٍ أو مجنون.

ثم قلت: لا تحدّثُ عنّي قريش بهذا أبداً؛ لأعمِدَنّ إلى حالقٍ من الجَبَل فلأطرحَنّ نفسي منه، فلأقتلنّها.

فبينا أنا عامِدٌ لذلك إذ سمعتُ مُنادِياً يُنادِي من السماء: يا محمدُ! أنتَ رسولُ اللّهِ، وأنا جبريل، فرفعتُ رَأسي فإذا جبريلُ علىٰ صورةِ رجل...» وذكر الحديثَ.

فقد بيّن لك في هذا أن قولَه لما قال، وقَصْدَه لما قَصَدَ، إنما كان قَبْل لقاءِ جبريلَ عليهما السلام، وقَبْل إعلامِ اللّهِ تعالىٰ له بالنّبوّة، وإظهارِه اصطفاءَه له بالرسالة.

١٥٢٩ ـ ومِثْلُه حديثُ عَمْرِو بن شُرَحْبِيل أنه ـ عليه السلام ـ قال لخديجة رضِي الله عنها: «**إني إذا خلوتُ وَحْدِي سمعتُ نداءً، وقد خَشيتُ والله! أن يكونَ هذا لأمرٍ**».

١٥٣٠ ـ ومن رواية حمَّاد بن سلمة أَنَّ النبيَّ ﷺ قال لخديجة: «**إني لأسمَعُ صَوْتاً، وأَرىٰ ضَوْءاً، وأَخشى أَن يكونَ بي جنُونٌ**» [أحمد (٣١٢/١)].

١٥٣١ ـ وعلى هذا يُتأَوَّلُ ـ لو صَحّ ـ قولُه في بعض هذه الأحاديث: «**إنَّ الأبْعَد شاعرٌ أو مجنونٌ**» وألفاظاً يُفْهم منها معانِي الشكّ في تصحيح ما رآه؛ وأنه كان كلّه في ابتداء أمره، وقبل لقاء المَلَكِ له، وإعلامِ اللّهِ أنه رسولُه؛ فكيف وبعضُ هذه الألفاظ لا تصِحُّ طُرُقُها؟!

وأمَّا بَعْدَ إعلام الله تعالىٰ لهُ ولقائه المَلَك فلا يصحُّ فيه رَيْبٌ، ولا يجوز عليه شكٌّ فيما أُلقِيَ إليه.

١٥٣٢ ـ وقد رَوَىٰ ابنُ إسحاقَ عن شُيوخِه أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُرْقَىٰ بمكةَ من العَيْن قبل أن يُنَزَّلَ عليه، فلما نزل عليه القرآن أصابَه نحوُ ما كان يُصِيبُه؛ فقالت له خديجة: أُوَجِّهُ إليك من يَرْقيك؟ قال: «**أمَّا الآن فلا**».

١٥٣٣ ـ وحديثُ خديجة واختبارُها أَمْرَ جبريل بِكشْفِ رَأسِها... الحديث إنما ذلك في حق خديجة لتتحقّق صِحَّةَ نبوّةِ رسولِ الله ﷺ، وأَنَّ الذي يأتيه مَلَك، ويزولُ الشكُّ عنها، لا أنها فعلَتْ ذلك للنبيّ ﷺ وليخْتَبِرَ هو حالَه بذلك.

١٥٣٤ ـ بل قد وردَ في حديث عَبْدِاللّه بنِ محمد بن يحيىٰ بن عُرْوَةَ، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أَنَّ ورقةَ أَمر خديجة أن تختبر الأَمْرَ بذلك.

١٥٣٥ ـ وفي حديث إسماعيل بن أبي حَكِيم أنها قالت لرسولِ الله ﷺ: «يابْنَ عَمّ! هل تستطيعُ أنْ تُخبرني بصاحبِكَ إذا جاءكَ؟ قال: «نعم» فلما جاء جبريلُ أخبرها، فقالت له: اجلس إلى شِقِّي...» وذكر الحديث إلىٰ آخره؛ وفيه: فقالت: ما هذا شيطان! هذا المَلَك يابْنَ عمّ! فاثْبُتْ وأبْشِرْ، وآمَنَتْ بهِ.

فهذا يدلُّ على أنها مُستَثبِتَةٌ بما فعلتهُ لنفسها، ومستَظهِرَةٌ لإيمانها، لا للنبيِّ ﷺ.

١٥٣٦ ـ وقولُ مَعْمَرٍ في فَتْرَةِ الوَحْيِ: «فَحزنَ النبيُّ ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حُزناً غَدَا مِنه مِرَاراً كي يتردَّىٰ من شواهق الجبال» [البخاري (٦٩٨٢)] لا يَقْدَحُ في هذا الأَصل، لقول مَعْمَرٍ عنه: فيما بلَغنا، ولم يُسْنده، ولا ذَكر راويه، ولا مَنْ حدَّث به، ولا أَنَّ النبيَّ ﷺ قاله؛ وَلا يُعْرَف مِثْلُ هذا إلا من جهة النبيِّ ﷺ، مع أنه قد يُحْمَلُ علىٰ أنه كان أولَ الأَمرِ كما ذكرْناه؛ أو أنه فعلَ ذلك لِمَا أَحْرَجَهُ مِن تكذيبِ مَنْ بلَّغه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦].

١٥٣٧ ـ ويُصَحِّح معنى هذا التأويل حديثٌ رَوَاهُ شَرِيك، عن عَبْدالله بن محمد بن عَقِيلٍ، عن جابر بن عبدالله: أَنَّ المشركينَ لمَّا اجتمعُوا بدارِ النَّدْوَةِ للتَّشَاوُرِ في شأنِ النبيِّ ﷺ، واتفقَ رأْيُهم علىٰ أَنْ يقولوا: إِنه ساحِرٌ، اشْتدَّ ذلكَ عليه، وتزمَّل في ثيابه، وتدثَّر فيها؛ فأتاه جبريلُ فقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل: ١] و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١].

أو خاف أَنَّ الفَتْرَةَ لأمر أو سَبَبٍ منه، فخَشِيَ أَن يكونَ عقوبةً مِن ربِّه، ففعل ذلك بنفسه، ولم يَرِدْ بعدُ شرْعٌ بالنَّهْيِ عن ذلك، فيُعْتَرَض به.

ونحو هذا فِرَارُ يونُس ـ عليه السلام ـ خشيةَ تكذيبِ قومه له، لمَّا وَعَدهم به من العذاب؛ وقولُ اللهِ تعالىٰ في يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ . . .﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧] معناه أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عليه.

قال مكِّيٌّ: طمِعَ في رَحْمَةِ الله وألاَّ يُضَيِّق عليه مَسْلَكه في خروجه.

وقيل: حَسَّن ظَنَّه بمولاه أنه لا يَقْضِي عليه العقوبة.

وقيل: نُقَدِّرُ عليه ما أصابه.

وقد قُرِىءَ: ﴿نُقَدِّر عليه﴾ بالتشديد.

وقيل: نُؤَاخذه بغضَبِه وذهابه.

وقال ابن زيد: معناه: أفظنَّ أن لن نَقدِرَ عليه؟ علىٰ الاستفهام.

ولا يليقُ أَنْ يُظَنَّ بنبيٍّ أن يَجْهلَ صفةً من صفاتِ ربِّه.

وكذلك قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] الصحيح: مُغاضِباً لقَوْمِه لكُفْرِهم؛ وهو قولُ ابن عباس، والضحَّاك، وغيرهما؛ لا لِرَبِّه عَزَّ وجَلَّ إِذْ مُغَاضَبَةُ اللَّهِ: مُعَادَاةٌ له؛ ومُعَاداةُ اللَّهِ: كُفْرٌ لا تليقُ بالمُؤْمنين، فكيف بالأنبياء!.

وقيل: مُسْتَحْيِياً مِنْ قَوْمِه أن يَسِمُوه بالكذبِ أو يقتلوه، كما ورد في الخبر.

وقيل: مُغَاضِباً لبَعْضِ الملوكِ فيما أَمَرَهُ به من التوجُّه إلىٰ أمرِ أَمرَهُ اللَّهُ به علىٰ لسانِ نبيٍّ آخر؛ فقال له يونسُ: غيري أقوىٰ عليه منّي؛ فعزم عليه فخرج لذلك مُغَاضِباً.

وقد رُوِيَ عن ابن عبّاس: أنَّ إرسالَ يونس ـ عليه السلام ـ ونبوّته إنما كانت بعد أنْ نَبذَه الحوتُ، واستدلّ من الآية بقوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٥ ـ ١٤٧].

ويُستدلُّ أيضاً بقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ...﴾ [القلم: ٤٨] وذكر القصة.

ثم قال: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٥٠]؛ فتكون هذه القصةُ إذاً قبل نُبوّته.

١٥٣٨ ـ فإنْ قِيل: فما مَعْنَىٰ قولِه عليه السلام: **«إنّه ليُغَانُ علىٰ قَلْبِي، فأَستَغْفِرُ الله في كلِّ يوم مئة مرةٍ؟»** [مسلم (٢٧٠٢)].

١٥٣٩ ـ وفي طريق آخر: **«في اليوم أكثر من سبعين مرةً»** [البخاري (٦٣٠٧)].

فاحْذَرْ أَنْ يقعَ ببالكَ أَنْ يكونَ هذا الغَيْنُ وَسْوَسَةً أو رَيْباً وقع في قلبه عليه السلام؛ بل أَصْلُ الغَيْن في هذا: ما يتغَشّىٰ القَلْبَ ويُغطِّيه؛ قالهُ أبو عُبيدة، وأصلُه مِنْ غَيْنِ السماء؛ وهو إطْبَاقُ الغَيْم عليها.

وقال غَيْره: والغَيْنُ شيءٌ يُغَشِّي القَلْبَ ولا يُغطِّيه كلَّ التَّغْطِية كالغَيْمِ الرقيق الذي يَعْرِضُ في الهواء، ولا يَمْنَعُ ضوءَ الشمس.

وكذلك لا يُفْهم من الحديث أنه يُغَانُ علىٰ قَلْبه مئةَ مرةٍ أو أكثر مِنْ سبعين مرة في اليوم؛ إذْ ليس يقتضيه لَفْظُه الذي ذكرناه؛ وهو أكثر الرواياتِ؛ وإنما هذا عددٌ للاستغفار لا لِلْغَيْنِ؛ فيكونُ المرادُ بهذا الغَيْنِ إشارةً إلىٰ غَفَلات قَلْبِه، وفَتَرَاتِ نَفْسِه، وسَهْوِها عن مداومةِ الذِّكر ومشاهدة الحق، بما كان ﷺ دُفِعَ إليه مِنْ مُقَاسَاةِ البَشَر، وسِياسةِ الأمة، ومُعانَاةِ الأَهْلِ، ومُقَاوَمةِ الوَلِيّ، والعدو، ومصلحةِ النفس؛ وكُلِّفه من أعباء أداءِ الرسالةِ، وحَمْلِ الأَمانة؛ وهو في كلِّ هذا في طاعةِ ربِّه، وعبادةِ خالقِه؛ ولكن لمَّا كان ﷺ أرفعَ الخَلْقِ عند الله مكانةً، وأعلاهم دَرَجةً، وأَتَمَّهم به معرفةً؛ وكانت حالُه عند خلوص قَلْبه، وخُلوِّ هِمَّتِهِ، وتَفَرُّدِه بربِّه، وإقباله بكلِّيَّتِهِ عليه، ومقامُه هنالك أرفع حالَيْه، رَأَىٰ ـ عليه السلام ـ

حال فترته عنها، وشُغْلِه بسِوَاها، غضاً مِنْ عَليِّ حالِه، وخَفْضاً من رَفيع مقامِه؛ فاستغفر اللهَ من ذلك.

وهذا أَوْلَى وُجوهِ الحديث وأشهرُها.

وإلى معنى ما أشرْنا به، مالَ إليه كثيرٌ من الناسِ، وحام حَوْلَه، فقارَبَ ولم يَرِدْ.

وقد قرَّبْنا غامِضَ معناهُ، وكشفْنا للمستفيد مُحَيَّاهُ؛ وهو مبنيٌّ على جوازِ الفَتَراتِ، والغَفَلاتِ، والسَّهوِ في غير طريقِ البَلاغ، على ما سيأتي.

وذهبت طائفةٌ من أرباب القلوب، ومَشْيَخةِ المتصوِّفة مِمَّنْ قال بتنزيه النبيِّ ﷺ عن هذا جملةً، وأجلَّه أنْ يَجُوز عليه في حالٍ سَهْوٌ أو فَتْرَةٌ إلى أنَّ معنى الحديث: ما يُهِمُّ خاطِرَهُ، ويَغُمُّ فِكْرَهُ من أمرِ أُمَّتِه ـ عليه السلام ـ لاهتمامه بهم، وكَثْرةِ شفقتِه عليهم؛ فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكونُ الغَيْنُ ـ هنا ـ على قلبِه: السَّكينةُ التي تَتغشَّاه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ ويكونُ استغفارُه ـ عليه السلام ـ عندها إظهاراً للعبوديَّة والافتقار.

وقال ابنُ عطاء: استغفارُه وفِعْلُه هذا تعريفٌ للأُمَّة يَحْمِلُهم على الاستغفار.

وقال غيره: ويستشعرونَ الحذَرَ، ولا يَركَنون إلى الأَمْنِ.

وقد يُحتمل أن تكونَ هذه الإغانَةُ حالةَ خَشْيَةٍ وإعظامٍ تغشى قلبَه، فيستغفر حينئذٍ شكراً للهِ، وملازمةً لعبوديته.

١٥٤٠ ـ كما قال في ملازمة العبادة: «**أَفلا أكونُ عَبْداً شَكُوراً؟**».

١٥٤١ ـ وعلى هذه الوجُوه الأخيرة يُحمل ما رُوِيَ في بعض طُرُقِ هذا الحديث عنه عليه السلام: «**إنَّه ليُغانُ على قلبي في اليوم أكثر من سبعين مرة، فأستغفرُ الله**»(١).

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقوله لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

فاعلم أنه لا يُلتفتُ في ذلك إلى قولِ مَنْ قال في آية نبيِّنا عليه السلام: فلا تكونَنَّ مِمَّنْ يَجْهلُ أنَّ اللهَ لو شاء لَجَمَعَهُم على الهُدَى. وفي آية نوح: لا تكونَنَّ ممن يجهلُ أنَّ وَعْدَ الله حقٌّ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]؛ إذ فيه

إثباتُ الجَهْلِ بصفةٍ من صفاتِ الله؛ وذلك لا يجوزُ على الأنبياء.

والمقصودُ وَعْظُهم ألاَّ يَتَشَبَّهُوا في أُمورِهم بسِمَات الجاهلين، كما قال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾. وليس في آيةٍ منها دَلِيلٌ على كَوْنِهم على تلك الصفةِ التي نهاهم الله عن الكَوْنِ عليها؛ فكيف؟ وآيةُ نوحٍ قَبْلَها: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾. فَحَمْلُ ما بعدها على ما قبلها أَوْلَى؛ لأَنَّ مِثْلَ هذا قد يحتاجُ إلى إِذْنٍ.

وقد تَجُوزُ إِباحَةُ السؤالِ فيه ابتداءً؛ فنهاهُ الله أَنْ يسأله عمَّا طوى عنه عِلْمَه، وأَكَنَّه مِنْ غَيْبِه من السببِ المُوجِبِ لهلاكِ ابنه.

ثم أَكْمَلَ الله تعالى نعمتَه عليه بإعلامِه ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. حكى معناهُ مَكِّيٌّ.

كذلك أُمِرَ نَبِيُّنا ـ عليه السلام ـ في الآية الأخرى بالتزام الصَّبْر على إعراضِ قومه؛ ولا يَحْرَجُ عند ذلك؛ فيقارِبَ حالَ الجاهلِ بشدَّةِ التحسُّر. حكاه أبو بكر بن فُورَك.

وقيل: معنى الخطاب لأمَّة محمدٍ ﷺ؛ أي: فلا تكونوا من الجاهلين. حكاه أبو محمد مَكِّيٌّ؛ وقال: مثْلُه في القرآن كثير.

فبهذا الفصل وجب القولُ بعِصْمَةِ الأنبياءِ منه بعد النبوة قَطْعاً.

فإنْ قلتَ: فإذا قرَّرت عِصْمَتَهم من هذا، وأنه لا يجوزُ عليهم شيءٌ من ذلك، فما معنى إذاً وَعِيدُ اللّهِ لنبيِّنا ﷺ على ذلك إن فَعَلَه، وتحذيره منه، كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وقوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٥].

وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾ الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

فاعْلَمْ ـ وفَّقنا اللّهُ وإياكَ ـ أنه ﷺ لا يَصِحُّ، ولا يجوزُ عليه، أَنْ لا يُبلِّغَ،

وأن يخالفَ أمرَ ربِّه، ولا أنْ يُشرِك به ولا يتقوَّل على الله ما لا يُحِبُّ، أو يفتري عليه، أو يَضِلَّ أو يُختَم على قلبه، أو يُطيعَ الكافرين؛ لكن اللَّهَ تعالى يسَّرَ أمْرَه بالمكاشفةِ والبيان في البلاغ للمخالفين، وأنَّ إبلاغَه إنْ لم يكُنْ بهذه السبيل فكأنه ما بلَّغ.

فطيَّبَ نَفْسَه، وقوَّى قَلْبَه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ كما قال لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [طه: ٤٦]؛ لِتَشْتَدَّ بصائرُهم في الإبلاغ، وإظهارِ دِينِ اللَّهِ، ويُذْهِبَ عنهم خوفَ العدوِّ المُضْعِفِ للنَّفْسِ.

وأما قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٦].

وقولُه: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] فمعناه: أن هذا جزاءُ مَنْ فَعَلَ هذا، وجزاؤُكَ لو كنتَ مِمَّنْ يَفعَلُه، وهو لا يَفعَلُه.

وكذلك قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمرادُ به غيرُه؛ كما قال: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] و ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبهه، فالمرادُ به غيرُه وأنَّ هذه حالُ مَنْ أشرَك؛ والنبيُّ ﷺ لا يجوزُ عليه هذا.

وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] فليس فيه أنه أطاعهم، واللَّهُ ينهاهُ عمَّا يشاءُ ويأمرُه بما يشاءُ؛ كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢]. وما كان طردهم ـ عليه السلام ـ ولا كان مِنَ الظالمين.

فصل
فِي عِصمَةِ الأَنبِيَاءِ قَبلَ النُّبوَّةِ
مِنَ الجَهلِ باللَّهِ تَعالى وَصِفَاتِهِ

وأما عِصمَتُهم من هذا الفن قبل النبوة فللناسِ فيه خِلافٌ؛ والصوابُ أنهم معصومون ـ عليهم السلام ـ قبلَ النبوة من الجهل بالله وصفاته والشَّكِّ في شيء مِنْ ذلك؛

وقد تعاضدت الأخبارُ والآثارُ عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النَّقيصة منذُ وُلِدُوا، ونَشأَتِهم على التوحيد والإيمان؛ بل على إشراقِ أنوارِ المعارفِ، ونَفَحاتِ ألطافِ السعادةِ، كما نبَّهْنا عليه في الباب الثاني من القسم الأول من كتابنا هذا.

ولم ينقُلْ أحدٌ من أهلِ الأخبارِ أنَّ أحداً نُبِّىءَ واصطُفِيَ مِمَّن عُرِفَ بكُفرٍ وإشراكٍ قبل ذلك. ومُسْتَنَدُ هذا الباب النَّقْلُ؛ وقد اسْتدلَّ بعضُهم بأنَّ القلوبَ تَنفِرُ عمَّن كانت هذه سبيله.

وأنا أقول: إنَّ قُريشاً قد رَمَتْ نبيَّنا ـ عليه السلام ـ بكلِّ ما افتَرَتْهُ، وعَيَّر كُفَّارُ الأمم أنبياءَها بكل ما أمكنها واختلقَتْه، مما نصَّ اللَّهُ تعالى عليه، أو نقلَتْهُ إلينا الرُّوَاةُ، ولم نجِدْ في شيء من ذلكَ تَعْييراً لواحدٍ منهم برفْضِهِ آلهَته، وتقْريعه بذَمّه بتَرْكِ ما كان قَدْ جامَعَهم عليه.

ولو كان هذا، لكانوا بذلك مُتَبادِرين، وبتَلَوُّنه في معبوده محتجِّين، ولكَان توبيخُهم له بِنَهيِهم عما كان يعبدُ قَبْلُ أفظَعَ وأقطعَ في الحجة مِنْ توبيخه بنَهْيِهم عن تَرْكِهم آلِهَتهم، وما كان يعبدُ آباؤهم من قبل.

ففي إطْبَاقِهم على الإعراض عنه دَليلٌ على أنهم لم يجِدُوا سبيلاً إليه؛ إذ لو كان لنُقِل، ولما سَكَتُوا عنه، كما لم يسكتُوا عندَ تحويل القِبْلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا . . .﴾ [البقرة: ١٤٢]، كما حكاه الله عنهم.

وقد استدلَّ القاضي القُشَيْري على تنزيههم عَنْ هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال: فطهّرهُ اللَّهُ في الميثاق.

وبَعِيدٌ أنْ يَأْخُذَ منه الميثاقَ قَبلَ خَلْقِه، ثم يَأْخذ مِيثاق النَّبيين بالإيمان به ونَصْرِهِ قَبلَ مولده بدُهور، ويجوِّزَ عليه الشِّرْكَ أو غيرَه من الذنوب. هذا ما لا يجوِّزُه إلا مُلْحِد. هذا معنى كلامه.

١٥٤٢ ـ وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريلُ عليه السلامُ وشقَّ قَلْبَهُ صغيراً، واستخرج منه عَلَقَةً، وقال: هذا حظُّ الشيطانِ منكَ، ثم غسله وملأهُ حِكْمةً وإيماناً، كما تظاهرت به أخبارُ المبدأ.

ولا يُشَبَّهُ عليكَ بقولِ إبراهيم في الكوكب والقمر والشمسِ: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾

[الأنعام: ٧٦] فإنه قد قيل: كان هذا في سِنّ الطفولية، وابتداءِ النظَر والاستدلال؛ وقَبْلَ لزومِ التكليف.

وذهب معظَمُ الحُذَّاقِ من العلماء المفسّرين إلى أنه إنما قال ذلك مُبكِّتاً، لقومه، ومستدلاً عليهم.

وقيل: معناه الاستفهامُ الواردُ مَوْرِدَ الإنكار؛ والمرادُ: فهذا رَبِّي؟!

قال الزَّجَّاجُ: قولُه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] أي على قولكم؛ كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ [فصلت: ٤٧] أي عندكم.

ويدلُّ على أنه لم يَعْبُدْ شيئاً مِنْ ذلك، ولا أَشْرَكَ قطُّ باللَّهِ طرْفَةَ عيْن: قولُ الله تعالى عنه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٠].

ثم قال: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ـ ٧٧].

وقال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤]؛ أي: من الشِّرْك.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فإن قلْتَ: فما معنى قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

قيل: إنه إنْ لم يُؤَيِّدْني اللَّهُ بمعونته أكُنْ مِثْلَكم في ضَلالتكم وعبادتكم، على معنى الإشْفَاقِ والحذَر؛ وإلاّ فهو معصومٌ في الأزَلِ من الضلال.

فإنْ قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . . .﴾ [إبراهيم: ١٣]. ثم قال بعد ذلك عن الرسل: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا . . . .﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فلا يُشْكِلُ عليكَ لفظةُ العَوْدِ، وأنها تقتضي أنَّهُمْ إنّما يعودون إلى ما كانوا فيه من مِلّتهم؛ فقد تأتِي هذه اللفظةُ في كلام العرب لغيرِ ما ليس له ابتداءٌ بمعنى الصَّيْرُورَة.

١٥٤٣ ـ كما جاء في حديث الجهَنّميِّين: **«عادُوا حُمَماً»** [البخاري (٦٥٦٠)، مسلم (١٨٣)] ولم يكونوا قبلُ كذلك.

ومثْلُه قولُ الشاعر:

تِلْكَ المكارِمُ لا قَعْبانِ منْ لَبَنٍ ... شِيبَا بماءٍ فعَادَا بَعْدُ أَبْوالا

وما كانا قَبْلَ ذلك، كذلك.

فإن قلْتَ: فما معنى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: ٧]؛ فليس

هو من الضلال الذي هو الكُفر؛ قيل: ضالاً عن النُّبوَّةِ فهدَاك إليها؛ قاله الطبري.

وقيل: وجدكَ بَيْنَ أهلِ الضّلالِ، فعصمكَ مِنْ ذلك، وهدَاك للإيمان، وإلى إرشادهم.

ونحوه عن السُّدِّي وغَيْرِ واحدٍ.

وقيل: ضالاً عن شَرِيعتك التي لاَ تَعْرِفُها فهَدَاك إليها.

والضلال ها هنا: التَّحَيُّر؛ ولهذا كان ـ عليه السلام ـ يخْلُو بغار حِرَاءَ في طلب ما يتوجّه به إلى ربّه، ويَتَشَرَّع به حتى هدَاهُ إلى الإسلام، قال معناه القُشَيْري.

وقيل: لا تَعْرفُ الحقّ، فهدَاكَ إليه. وهذا مثْلُ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣]؛ قاله علي بن عيسى.

قال ابن عباس: لم تكن له ضلاَلَةُ معصيةٍ.

وقيل: هَدَى؛ أي بَيَّن أمْرَكَ بالبَرَاهين.

وقيل: وَجدَكَ ضَالاً بين مكة والمدينة، فهدَاكَ إلى المدينة.

وقيل: المعنى: وَجدك فهدىَ بكَ ضالاً.

وعن جعفر بن محمد: وَوجدكَ ضالاً عن مَحبَّتي لكَ في الأَزَلِ؛ أي: لا تعرفها؛ فمنَنْتُ عليكَ بمعرفتي.

وقرأ الحسنُ بن عليّ: ووَجدكَ ضالٌّ فهدَىٰ؛ أي اهتدىٰ بك.

وقال ابنُ عطاء: ووَجدكَ ضالاً، أي: مُحِباً لمعرفتي. والضالُّ: المُحِبُّ؛ كما قال: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي محبتك القديمة؛ ولم يريدوا ها هنا في الدِّين؛ إذْ لو قالوا ذلك في نبيِّ اللَّهِ لكفرُوا.

ومِثْلُه عند هذا قولُه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]. أي: مَحبَّةٍ بيِّنةٍ.

وقال الجُنَيْدُ: ووَجدكَ مُتحَيِّراً في بيانِ ما أُنزلَ عليكَ فهداكَ لِبيَانِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقيل: ﴿وَوَجَدَكَ﴾ لم يعرفْكَ أحدٌ بالنبوَّةِ حتى أظهركَ، فهدى بك السعداءَ، ولا أعلمُ أحداً قال من المفسرين ها هنا فيها: ضالاً عن الإيمان.

وكذلك في قصةِ موسىٰ عليه السلام قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: من المخطئين الفاعلين شيئاً بغير قَصْد؛ قاله ابنُ عَرَفة.

وقال الأزهري: معناه من النَّاسِين.

وقد قيل ذلك في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]؛ أي ناسياً؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالجواب أنَّ السمرقندي قال: معناه: ما كنتَ تَدْرِي قبْل الوَحْيِ أنْ تقرأ القرآنَ، ولا كيف تدعو الخَلْق إلى الإيمان.

وقال بَكْرٌ القاضي نحوه؛ قال: ولا الإيمانُ الذي هو الفرائض والأحكام؛ قال: فكان ﷺ قبْلُ مؤمناً بتوحيده؛ ثم نزلت الفرائضُ التي لم يكن يَدرِيها قبْلُ؛ فزاد بالتكليف إيماناً؛ وهو أحسَنُ وجوهِه.

فإن قلْتَ: فما معنى قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] فاعلم أنه ليس بمعنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]؛ بل قد حكى أبو عُبَيْد الهَرَوي أن معناه لَمِن الغافلين عن قصةِ يوسف؛ إذْ لم تَعْلَمْها إلاّ بوَحْينا.

١٥٤٤ ـ وكذلك الحديث الذي يرويه عثمان بن أبي شَيْبَة بِسنده عن جابر بن عبداللَّه الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبيَّ ﷺ قد كان يشهدُ مع المشركين مشاهِدَهم، فسمِعَ المَلَكَيْنِ خَلْفه، أحدهما يقولُ لصاحبه: اذهَب حتى تقومَ خَلْفَه. فقال الآخر: كيف أقومُ خَلْفَه وعَهْدُه باستلامِ الأصنام؟ فلم يشهدهم بعد.

فهذا حديثٌ أنكره أحمد بن حَنْبَلٍ جداً، وقال: هذا موضوع، أو شبِيهٌ بالموضوع.

وقال الدارقُطني: يقال: إن عثمان وَهِمَ في إسناده.

والحديثُ بالجملة مُنْكَرٌ غَيْرُ متَّفق على إسناده؛ فلا يُلتفَتُ إليه.

١٥٤٥ ـ والمعروف عن النبيّ ﷺ خِلافُه عند أهل العلم من قَوْله: **«بُغِّضَتْ إليّ الأصنامُ»**.

١٥٤٦ ـ وقوله في الحديث الآخر الذي روَتْه أُمُّ أيمَنَ حين كلَّمه عَمُّه وآلُه في حضُورِ بعض أعيادهم، وعزَمُوا عليه فيه بعد كَراهته لذلك؛ فخرج معهم، ورجع مَرْعُوباً؛ فقال: **«كلَّما دَنَوْتُ منها مِنْ صَنَم تمثَّلَ لي شَخصٌ أبيضُ طويل يصيح بي: وَراءَكَ، لا تمسَّه»** فما شَهِدَ بَعْدُ لهم عِيداً.

١٥٤٧ ـ وقوله ـ في قصّة بَحِيرا ـ حين استحلفَ النبيَّ ﷺ باللاَّتِ

والعُزَّى، إذ لقِيَه بالشَّام في سَفرَته مع عمِّه أبي طالب وهو صبيٌّ، ورأى فيه علاماتِ النبوَّة، فاختبره بذلك، فقال له النبيّ ﷺ: «**لا تسألْني بهما، فواللَّهِ! ما أبغضتُ شيئاً قطُّ بُغْضهما**».

فقال له بَحِيرَا: فبالله! إلاّ ما أخبرتني عما أسألُكَ عنه. فقال: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لك**».

وكذلك المعروف مِنْ سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتوفيق الله له أنه كان قبل نبوّته يخالفُ المشركين في وقوفهم بمُزْدَلفة في الحج؛ فكانَ يقفُ هو بعَرَفَة؛ لأنه كان موقفَ إبراهيم عليه السلام.

فصل

فِي أَنَّهُ لا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الأَنْبِيَاءِ العِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِبَعْضِ أُمُورِ الدُّنْيا

قال القاضي أبو الفضل ـ رحمه الله ـ: قد بان بما قدمناه عقودُ الأنبياءِ في التوحيد، والإيمان، والوَحْي وعِصْمتهم في ذلك على ما بيَّنَّاه.

فأمَّا ما عَدَا هذا الباب من عقودِ قُلوبهم فجِمَاعُها أنها مملوءةٌ عِلْماً ويقيناً على الجُمْلَة، وأنها قد احتَوَتْ من المعرفة والعلمِ بأمور الدِّين والدنيا مِمَّا لا شَيْءَ فَوْقَه.

ومَنْ طالعَ الأخبارَ، واعتنى بالحديث، وتأمَّلَ ما قُلْنَاهُ وَجدَه.

وقد قدمنا منه في حقّ نبيِّنا ـ عليه السلام ـ في الباب الرابع أول قسم من هذا الكتاب ما يُنبِّه على ما وراءَه، إلا أَنَّ أحوالَهم في هذه المعارفِ تختلِفُ.

فأَمَّا ما تعلّق منها بأَمْرِ الدنيا فلا يُشْتَرَطُ في حَقِّ الأنبياءِ العِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ معرفة الأنبياء ببعضها، أو اعتِقادِها على خلاف ما هِيَ عليه، ولا وَصْمَ عليهم فيه؛ إذْ هِمَمُهم متعلِّقَةٌ بالآخرة وأنبائها، وأمْرِ الشريعةِ وقوانينها. وأُمورُ الدنيا تضادُّها، بخلاف غيرهم من أهلِ الدنيا الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

كما سنُبَيِّنُ هذا في الباب الثاني إنْ شاء الله؛ ولكنَّه لا يُقال: إنهم لا يعلمون شيئاً مِنْ أمْر الدنيا؛ فإنّ ذلك يؤدي إلى الغَفْلَةِ والبَلَه، وهم المنزَّهُون عنه؛ بل قد أُرسِلُوا إلى أهل الدنيا، وقُلِّدُوا سِيَاسَتَهم وهدايَتَهم، والنظرَ في مصالِح دِينهم ودُنياهم؛ وهذا لا يكون مع عَدَمِ العِلْمِ بأمور الدنيا بالكلِّيَّة؛ وأحوالُ

الأَنبياءِ وسِيَرُهم في هذا الباب معلومةٌ، ومعرفتُهم بذلك كلّه مشهورةٌ.

وأمَّا إن كان هذا العَقْدُ مما يتعلّقُ بالدِّين فلا يَصِحُّ من النبيِّ ﷺ إلاَّ العِلْمُ به، ولا يجوزُ عليه جَهْلُه جملةً؛ لأنه لا يَخْلُو أن يكونَ حصلَ عِنْدَهُ ذلك عن وَحْيٍ مِنَ الله، فهو ما لا يَصِحُّ الشكُّ منه فيه ـ على ما قدَّمناه ـ فكيف الْجَهْلُ؟ بل حصل له العِلْمُ اليقين. أو يكون فَعَل ذلك باجتهاده فيما لم يَنْزِل عليه فيه شيء، على القَوْل بتجويز وُقُوع الاجتهادِ منه في ذلك على قول المحقِّقينَ.

١٥٤٨ ـ وعلى مقتضى حديث أُمِّ سَلَمةَ رضي الله عنها: «**إني إنَّما أَقْضِي بينكم بِرَأْيي فيما لم يُنْزَل عَلَيَّ فيه شيء**» [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)، أبو داود (٣٥٨٥)]. خرّجه الثقات.

وكقِصَّة أَسْرَى بَدْر، والإِذْنِ للمُتَخَلِّفين على رَأْي بعضهم، فلا يكون أيضاً ما يعتقِدُه مما يُثْمِرُه اجتهادُه إلا حقًّا وصحيحاً.

هذا هو الحق الذي لا يُلْتَفَتُ إلى خلافِ مَنْ خَالفَ فيه ممَّنْ أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد لا على القولِ بتَصْويبِ المجتهدين الذي هو الحقُّ والصوابُ عندنا؛ ولا على القولِ الآخر بأن الحقَّ في طرَفٍ واحدٍ لعصمةِ النبيِّ ﷺ من الْخطَأ في الاجتهاد في الشرعيات؛ ولأنَّ القولَ في تَخْطئةِ المجتهدين إنما هو بَعْدَ استقرارِ الشَّرْع؛ ونَظَرُ النبيِّ ﷺ واجتهادُه إنما هو فيما لم يَنْزِلْ عليه فيه شيءٌ، ولم يُشْرَعْ لَهُ قَبْلُ؛ هذا فيما عَقَد عليه قَلْبَه ﷺ، فأمَّا ما لم يَعْقِدْ عليه قَلْبَه من أَمْرِ النَّوازِل الشرعية؛ فقد كان لا يعلمُ منها أوَّلاً إلاَّ ما علَّمَهُ اللَّهُ ـ عز وجل ـ شيئاً فشيئاً حتى استقرَّ عِلْمُ جملتها عِنْدَه؛ إمَّا بوَحْيٍ من اللَّهِ، أو إذْنٍ له أنْ يَشْرَع في ذلك، ويَحْكم بما أراه الله.

وقد كان ينتظِرُ الوَحْيَ في كثير منها؛ ولكنه لم يَمُتْ ﷺ حتى اسْتَفْرَغَ عِلْمَ جَمِيعها عنده عليه السلام، وتقرَّرت معارفُها لدَيْه على التحقيق، ورَفْع الشكّ والرَّيْب، وانْتِفَاء الْجَهْل.

وبالجملة فلا يَصِحُّ منه الجهلُ بشيءٍ مِنْ تفاصيل الشَّرْعِ الذي أُمِرَ بالدعوة إليه؛ إذ لا تَصِحُّ دَعْوَتُه إلى ما لا يَعْلَمُ.

وأمَّا ما تعلَّقَ بعَقْدِهِ من مَلَكُوتِ السمواتِ والأرض، وخَلْقِ الله تعالى وتَعْيين أسمائه الحسنى، وآياته الكبرى، وأُمورِ الآخرةِ، وأشْرَاطِ الساعةِ، وأَحْوَالِ السعداء والأشقياءِ، وعِلْم ما كان وما يكونُ مما لا يعلَمُه إلا بوَحْيٍ ـ فعلى ما تقدّم ـ من

أنه معصوم فيه، لا يَأخُذُه فيما أُعلِمَ به شَكٌّ ولا رَيبٌ؛ بل هو فيه على غَايةِ اليقين.

١٥٤٩ ـ لكنه لا يشترطُ له العلمُ بجميعِ تَفاصِيلِ ذلك، وإنْ كَانَ عنده مِنْ عِلْمِ ذلك ما ليس عند جَمِيعِ البَشَر؛ لقوله: **«إنِّي لاَ أَعْلَمُ إلاَّ ما علَّمني رَبِّي»**.

١٥٥٠ ـ ولقوله: **«ولاَ خطَر عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»**. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ. . .﴾ [السجدة: ١٧] [مسلم (٢٨٢٥)].

وقول موسىٰ ـ عليه السلام ـ للخَضِرِ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

١٥٥١ ـ وقوله ﷺ: **«أسألكَ بأسمائك الحُسنى ما علمتُ منها وما لمْ أعْلَمْ»**.

١٥٥٢ ـ وقوله: **«أسألُكَ بكل اسْمٍ هُوَ لكَ سَمَّيتَ به نَفْسَك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك»** [أحمد (٣٩١/١)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] قال زَيْدُ بن أسْلم وغيرُه: حتى ينتهي العلمُ إلى الله.

وهذا ما لا خَفاءَ به، إذْ معلوماتُه ـ تعالى ـ لا يُحاطُ بها، ولا مُنْتهى لها.

هذا حُكْمُ عَقْدِ النبيِّ ﷺ في التوحيد والشّرْع والمعارف والأمور الدينية.

فصل
فِيْ إِجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَىٰ عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكِفَايَتِهِ مِنْهُ

واعلَمْ أنَّ الأمَّةَ مجتمعةٌ على عِصْمَةِ النبيِّ ﷺ من الشيطانِ وكفايتِه منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطرِه بالوساوس.

١٥٥٣ ـ وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو عليّ ـ رَحِمه الله ـ قال: حدثنا أبو الفَضل بن خَيرون العَدْل، حدثنا أبو بكر البَرْقَاني وغَيْرُه، حدثنا أبو الْحَسَنْ الدارقُطْني، حدثنا إسماعيل الصفَّارُ، حدثنا عباس التَّرْقُفِي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سُفيان، عن منصور، عن سالم بن أبِي الْجَعْد، عن مسروق، عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما مِنكُم مِنْ أحَدٍ إلاَّ وقد وُكِلَ به قرينُه من الْجِنّ، وقَرِينُه من الملائكة»**.

قالوا: وإياكَ؟ يا رسولَ الله! قال: «وإيَّايَ؛ ولكنَّ اللَّهَ تعالى أعانني عليه فأَسْلَمَ».

زاد غيرُهُ، عن مَنْصُور: «فلا يأمرني إلاَّ بخيرٍ» [مسلم (٢٨١٤)].

١٥٥٤ ـ وعن عائشة بمعناه [مسلم (٢٨١٥)].

رُوي: «فَأَسْلَمُ» بضم الميم؛ أي فأسلمُ أنا منه.

وصحَّح بعضُهم هذه الروايةَ ورَجَّحها.

ورُوِيَ: «فأسلمَ» يعني: القَرينُ، أنه انتقل من حالِ كفرِه إلى الإسلام؛ فصار لا يَأمرُ إلاَّ بخير، كالمَلك.

وهو ظاهر الحديث.

١٥٥٥ ـ ورواه بعضُهم: «فاستَسْلَمَ».

قال القاضي أبو الفضل: فإذا كان هذا حُكْمُ شَيْطانِه وقَرينهِ المُسَلَّطِ على بني آدم، فكيف بمن بَعُدَ منه، ولم يلزَمْ صُحْبَته، ولا أُقْدِرَ على الدنوِّ منه؟!

وقد جاءت الآثارُ بتَصَدِّي الشياطين لَهُ في غير مَوْطنٍ؛ رغبةً في إطفاء نُوره وإمَاتةِ نَفْسِه، وإدخالِ شُغْلٍ عليه؛ إذ يئِسُوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين، كتعرُّضِه له في صلاته؛ فأخذه النبيُّ ﷺ وأسَره.

١٥٥٦ ـ ففي الصِّحاح، قال أبو هريرة، عنه عليه السلام: «إنَّ الشيطانَ عَرَض لي ـ قال عبدالرزاق: في صورةِ هرٍّ ـ فشدَّ عليَّ يقطَعُ عليَّ الصلاةَ فأمكنني اللَّهُ مِنْهُ، فَذَعَتُّه. ولقد هممتُ أَنْ أوثِقَه إلى ساريَةٍ من سواري المسجد حتى تُصْبِحُوا تنظرونَ إليه، فذكرْتُ قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] الآية، فَرَدَّهُ الله خاسئاً».

١٥٥٧ ـ وفي حديث أَبي الدَّرْدَاء عنه عليه السلام: «إنَّ عدوَّ اللَّهِ إبليسَ جاءني بِشهابٍ من نار ليجعله في وَجْهي» ـ والنبي ﷺ في الصلاة وذَكَرَ تعَوُّذَه بالله منه، ولَعْنَهُ له ـ «ثم أردت أن آخُذَه» وذكر نَحْوَه؛ وقال: «لأَصْبَحَ موثَقاً يتلاعَبُ به وِلْدَانُ أهْلِ المدينة» [مسلم (٥٤٢)].

١٥٥٨ ـ وكذلك في حديثه في الإسراء، وَطَلَبِ عِفْرِيتٍ له بشُعلةِ نارٍ، فعلّمه جبريلُ ما يتعوَّذُ به منه. ذكره في الموطَّأ [أحمد (٣/٤١٩)].

١٥٥٩ ـ ولمَّا لم يَقْدر على أذاه بمباشرته تسبَّب بالتوسُّط إلى عِدَاهُ؛ كقضيَّته مع قُرَيش في الائتمار بقَتْلِ النبي ﷺ، وتصوُّره في صورة الشَّيْخ النَّجْدِي.

١٥٦٠ ـ ومرَّةً أُخرى في غَزْوة يوم بَدْر في صورة سُرَاقة بن مالك، وهو

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٥٦١ ـ ومرةً يُنْذِرُ بشأنه عند بَيْعَةِ العَقَبةِ.

وكُلُّ هذا فقد كفاهُ اللَّهُ أمرَه، وعَصَمَهُ ضَرَّه وشَرَّه.

١٥٦٢ ـ وقد قال عليه السلام: «**إن عيسى ـ عليه السلام ـ كُفِيَ مِنْ لَمْسِه، فجاءَ لِيَطْعَنَ بيده في خاصِرَتِهِ حين وُلِدَ، فطَعَنَ في الحِجَابِ**» [البخاري (٣٢٨٦، ٣٤٣١)، مسلم (٢٣٦٦)].

١٥٦٣ ـ وقال عليه السلام ـ حين لُدَّ في مَرَضِه، وقيل له: خَشِينا أن يكون بكَ ذاتُ الجَنْبِ ـ فقال: «**إِنَّها من الشيطان، ولم يكن اللَّهُ ليُسلِّطَه عليَّ**» [أحمد (١١٨/٦)، البخاري (٤٤٥٨)، مسلم (٢٢١٣)].

فإنْ قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. فقد قال بعض المفسرين: إنها راجعة إلى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أي يستَخِفَّنَّك غضبٌ يحملُك على تَرْكِ الإعْراض عنهم فاستعِذْ بالله تعالى.

وقيل: النَّزْغُ ـ هنا ـ: الفسادُ، كما قال تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: أفسد. وقيل: باعد.

وقيل: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يُغرِيَنَّكَ ويُحرِّكنَّكَ. والنَّزْغُ: أدنى الوَسْوَسَةِ، فأمره الله تعالى أنه متى تحرّك عليه غضبٌ على عدوّه، أو رَامَ الشيطانُ من إغرائه به وخَواطر أداني وَساوِسِه، ما لم يُجْعَلْ له سبيلٌ إليه، أَنْ يستعيذَ منه، فيُكفَى أمره، ويكون ذلك سببَ تمامِ عِصْمَتِه، إذ لم يُسلَّط عليه بأكثر من التعرُّضِ له، ولم يُجعل له قدرةٌ عليه.

وقد قيل في هذه الآية غيْرُ هذا.

وكذلك لا يصحُّ أَن يتَصوَّرَ له الشيطانُ في صُورةِ المَلَك، ويُلبِّس عليه، لا في أول الرسالة ولا بعدها.

والاعتمادُ في ذلك دَلِيلُ المعجِزة؛ بل لا يَشُكُّ النبيُّ أَنَّ ما يأتيه من الله الملَكُ ورسوله حقيقةً، إمَّا بعلْمٍ ضَرُورِيّ يخلُقه اللَّهُ له، أو ببرهان يُظهره لديه، لِتتِمَّ كلمةُ ربِّك صِدْقاً وعَدْلاً، لا مُبدِّل لكلماته.

فإنْ قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ

ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢].

فاعْلَمْ أنَّ للناس في معنى هذه الآية أقاويلَ، منها السَّهْلُ والوَعْثُ، والسمينُ والغثُّ؛ وأولى ما يقالُ فيها ما عليه الجمهورُ من المفسّرين: أنّ (التمنّي) ها هنا: التلاوةُ، (وإلقاءُ الشيطان فيها) شَغْله بخواطر وأذكارٍ مِنْ أُمورِ الدُّنْيا للتَّالي حتى يُدخلَ عليه الوَهْمَ والنسيانَ فيما تَلاَه، أو يُدْخلَ غيرَ ذلك على أفهام السامعين من التحريف، وسُوءِ التأويل ما يزيلُه اللّهُ وينسخُه، ويكشِفُ لَبْسه، ويُحكم آياته.

وسيأتي الكلامُ على هذه الآية بعدُ بأشْبَع من هذا إنْ شاءَ اللّهُ تعالى.

وقد حكى السَّمَرْقَنديُّ إنكارَ قولِ مَنْ قال بتَسلُّطِ الشيطانِ على مُلْكِ سليمان، وغَلَبَتِهِ عليه، وأَنَّ مِثْلَ هذا لا يَصِحُّ.

وقد ذَكَرْنا قصةَ سليمانَ مبيَّنةً بَعْدَ هذا، ومَنْ قال: إنَّ الجسدَ هو الولد الذي وُلِدَ لَهُ.

وقال أبو محمد: مَكّيٌّ ـ في قصة أيوبَ ـ وقولِهِ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]: إنه لا يجوز لأحد أن يتأوّل أنّ الشيطانَ هو الذي أَمْرَضَه، وأَلْقى الضُّرَّ في بَدَنِه، ولا يكونُ ذلك إلا بِفعْل اللّهِ وأمرِه، ليَبْتَليهم وَيُثِيبَهُمْ.

قال مَكّيٌّ: وقد قيل: إنَّ الذي أصابه به الشيطانُ ما وَسْوسَ بِهِ إلى أهله.

فإن قُلْتَ: فما معنى قولِه تعالى ـ عن يُوشَع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] وقوله ـ عن يوسفَ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

١٥٦٤ ـ وقولِ نبيِّنا ـ عليه السلام ـ حين نام عن الصلاة يوم الوادي: «**إنَّ هذا وَادٍ به شَيْطَانٌ**».

وقول موسىٰ ـ عليه السلام ـ في وَكْزته: ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ...﴾؟ الآية [القصص: ١٥].

فاعلم أن هذا الكلام قد يَرِدُ في جميع هذا على مَوْرِد مستَمِرٍّ كلامِ العرب في وصْفِهم كلَّ قبيح، من شَخْص، أو فعلٍ، بالشيطانِ أو فعلِه؛ كما قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥].

١٥٦٥ ـ وقال ـ عليه السلام ـ «**فَلْيُقاتِلْه فإنّما هو شَيْطَانٌ**» [البخاري (٥٠٩)، مسلم (٥٠٥)].

وأيضاً فإنَّ قَوْلَ يُوشعَ لا يَلْزَمنا الجوابُ عنه؛ إذ لم يَثْبت لَهُ في ذلك الوَقْتِ نبوَّةٌ مع موسىٰ؛ كما حكى الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ...﴾ [الكهف: ٦٠].

والمَرْوِيُّ أنه إنما نُبِّىءَ بعد مَوْتِ موسىٰ، وقيل: قُبَيل موته.
وقولُ موسىٰ كان قَبْلَ نبوَّتِه بدليل القرآن.
وقصةُ يوسف أيضاً قد ذُكِرَ أنها كانت قَبْلَ نُبُوَّتِهِ.
وقد قال المفسّرونَ في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [يوسف: ٤٢] قولَيْنِ: أَحَدَهُمَا:
أَنَّ الذي أَنساهُ الشيطان ذِكْرَ ربّه أَحَدُ صاحبي السِّجن، و (ربُّه): المَلِكُ؛ أي أنساهُ أَنْ يَذْكُر للمِلِكِ شَأنَ يوسف عليه السلام.
وأيضاً فإنَّ مِثْلَ هذا مِنْ فِعْلِ الشيطان ليس فيه تسليط على يوسف ـ عليه السلام ـ ويُوشَعَ بوساوس ونَزْغ؛ وإنما هو بشَغْلِ خَوَاطِرهما بأُمُور أُخَرَ، وتذكيرهما من أمورهما ما يُنْسِيهما ما نَسِيَاهُ.
١٥٦٦ ـ وأمَّا قولُه ـ عليه السلام ـ: «**إِنَّ هذا وادٍ به شَيطَانٌ**». فليس فيه ذِكْرُ تسلُّطه عليه، ولاَ وَسْوَسَةٍ له.
١٥٦٧ ـ بل إنْ كان بمقتضى ظاهِره فقد بيَّن أمْرَ ذلك الشيطان بقوله: «**إنَّ الشيطانَ أتى بلالاً، فلم يَزل يُهَدِّئُهُ كما يُهَدَّأُ الصبيُّ حتى نام**».
فاعلم أَنَّ تسلُّطَ الشيطانِ في ذلك الوادي الذي عَرَّس به إنما كان على بلالٍ الموكَّل بكِلاءةِ الفَجْر.
هذا إنْ جعلنا قَوْلَه: «**إنَّ هذا وادٍ به شيطان**» تَنْبِيهاً على سبب النَّوم عن الصلاة. وأما إنْ جعلناه تنبيهاً على سبب الرَّحِيلِ عن الوادي، وعلَّةً لتَرْكِ الصلاة به، وهو دليلُ مساقِ حديثِ زَيْد بن أَسْلَم فلا اعتراضَ به في هذا الباب؛ لبيانه، وارتفاعِ إشكالَه.

فصل

فِي صِدْقِ أَقْوَالِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ

وأما أَقواله ـ عليه السلام ـ فقامت الدلائل الواضحةُ بصحَّةِ المعجزةِ على صِدْقه، وأجمعت الأمةُ ـ فيما كان طريقُه البلاغَ ـ أنه معصوم فيه من الإخبارِ عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قَصْداً وعَمْداً، ولا سَهْواً أو غَلَطاً.
أمَّا تعمُّد الخُلْف في ذلك فَمُنْتَفٍ، بدليل المعجزةِ القائمة مقام قَوْلِ اللَّهِ: صَدَقَ فيما قال، اتفاقاً، وبإطْبَاقِ أهل المِلَّةِ، إجماعاً.
وأما وقوعُه على جهة الغَلطِ في ذلك فبهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق

الإسفَراييني ومَنْ قال بقوله. ومِنْ جهة الإجماع فقط، ووُرودِ الشَّرْع بانتفاء ذلك، وعصمةِ النبي ﷺ لا من مقتضى المعجزة نَفْسِها عند القاضي أبي بكر الباقِلاَّني ومَنْ وافَقَه لاختلافٍ بينهم في مقتضى الدليل. أعني: دليلَ المعجزة. لا نُطوِّل بذكره، فنخرجُ عن غَرَض الكتاب؛ بل نعتمد على ما وقع عليه ـ إجماعُ المسلمين ـ أنه لا يجوز عليه خُلْفٌ في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن رَبِّه، وما أَوْحاهُ إليه من وَحْيِهِ، لا على وَجْهِ العَمْد، ولا على غَيْر عَمْد، ولا في حالتي الرِّضا والسخَط، والصحةِ والمرض.

١٥٦٨ ـ وفي حديث عبدالله بن عَمْرو: قلتُ: يا رسولَ الله! أكتُب كلَّ ما أسمَعُ منك؟ قال: «**نعم**». قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «**نعم، فإني لا أقول في ذلك كلِّه إلا حقاً**» [أبو داود (٣٦٤٦)، أحمد (١٦٢/٢)].

ولْنَزِدْ ما أشَرْنا إليه من دَلِيل المعجزة عليه بياناً؛ فنقول:

إذا قامت المعجزةُ على صِدْقِه، وأنه لا يقولُ إلاّ حقاً، ولا يبلِّغُ عن اللهِ إلاّ صِدْقاً، وأنَّ المعجزةَ قائمةٌ مقامَ قَوْلِ الله تعالى له: صدَقْتَ فيما تذكُره عني؛ وهو يقول: إني رسولُ الله إليكم، لأُبلِّغكم ما أُرسلْتُ به إليكم، وأُبيِّن لكم ما نُزِّلَ إليكم، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

و ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؛ فلا يصحُّ أن يوجَدَ منه في هذا الباب خَبَرٌ بخلاف مُخْبَره على أيّ وَجْه كان.

فلو جوَّزْنا عليه الغَلَط والسَّهْوَ لما تميَّزَ لنا من غيره، ولاخْتَلط الحقُّ بالباطل؛ فالمعجزةُ مُشْتَمِلَةٌ على تصديقه جُمْلَةً واحدةً من غير خصوصٍ؛ فتنزيهُ النبي ﷺ عن ذلك كلِّه واجبٌ برهاناً وإجماعاً كما قال أبو إسحاق رضي الله عنه.

فصل

فِي رَدِّ المُؤَلِّفِ لِبَعْضِ الشُّبهَاتِ وَالمَطَاعِنِ، كَرَدِّهِ لِقِصَّةِ الغَرَانِيقِ وَبَعْضِ الشُّبهِ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا الزَّائِغُونَ

وقد توجَّهتْ هنا لبعض الطاعنين سؤالاتٌ؛ منها:

١٥٦٩ ـ ما رُوي من أنّ النبي ﷺ لمّا قرأ سورة: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾. وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ـ قال: «**تلك**

الغَرانيقُ العُلا، وإنَّ شفاعَتها لتُرتَجى» ويروى: **«تُرتضى»** وفي رواية: **«إنَّ شفاعَتها لتُرتَجى، وإنها لمَعَ الغَرانيق العُلا»**.

وفي رواية أخرى: **«والغرانقةُ العُلاَ، تلك للشفاعة تُرتجى»**.

فلما ختم السورة، سجد ﷺ، وسجد المسلمون معه، والكُفَّارُ لمَّا سمعوه أثنىٰ على آلهتهم.

وما وقع في بعض الروايات أنَّ الشيطانَ ألقاها على لسانه، وأنَّ النبي ﷺ كان تمنّى أنْ لو نزلَ عليه شيء يُقاربُ بينه وبين قومه.

وفي رواية أُخرى: ألاّ ينزل عليه شيء ينفِّرهم عنه؛ وذكر هذه القصة، وأنَّ جبريل عليه السلامُ جاءه فعرض عليه السُّورة، فلما بلغ الكلمتين قال له: ما جئتُك بهاتين، فحزنَ لذلك النبيُّ ﷺ، فأنزل اللَّهُ ـ عز وجل ـ عليه تسليةً له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

فاعلَمْ ـ وفَّقك اللَّهُ ـ أنَّ لنا في الكلام على مُشكِل هذا الحديث مأخَذَينِ: أحدهما: في توهين أصْلِه، والثاني على تسليمه.

أما المَأْخذُ الأول: فيكفيكَ أنَّ هذا حديثٌ لم يُخرجه أَحَدٌ من أهل الصحة، ولا رَوَاهُ ثِقَةٌ بسندٍ سليم متّصلٍ؛ وإنما أُولِعَ به وبمثله المفسِّرُون والمؤرِّخون المولَعُون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كلَّ صحيح وسَقِيم.

ولقد صدق القاضي بَكْرُ بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلِيَ الناسُ ببعض أهل الأهْواءِ والتفسير، وتعلَّق بذلك المُلْحِدُون مع ضَعْف نَقَلته واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته؛ فقائلٌ يقول: إنه في الصلاة؛ وآخر يقول: قالها في نادِي قومِه حين أُنزلَتْ عليه السورة؛ وآخر يقول: قالها وقد أصابَتْه سِنَةٌ؛ وآخر يقول: بل حَدَّثَ نَفْسَه فَسَها؛ وآخر يقول: إنَّ الشيطان قالها على لسانه، وإنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا عرضها على جبريل قال: ما هكذا أَقْرأْتُك؛ وآخر يقول: بل أَعْلَمَهُمْ الشيطانُ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأها؛ فلما بلغ النبيَّ ﷺ ذلك قال: **«والله! ما هكذا نزلَتْ»** إلى غير ذلك من اختلاف الرُّواة.

وَمَنْ حُكِيَتْ هذه الحكايةُ عنه من المفسّرين والتابعين لم يسندها أَحَدٌ منهم، ولا رفعها إلى صاحبٍ؛ وأَكْثَرُ الطرق عنهم فيها ضعيفةٌ واهية، والمرفوعُ فيه: حديثُ شُعْبة، عن أبي بشر، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس قال فيما أحسبُ ـ الشك في الحديث ـ: أنّ النبيّ ﷺ كان بمكةَ... وذكر القصة.

قال أبو بكر البزّار: هذا الحديثُ لا نعلمُه يُرْوَى عن النبيّ ﷺ بإسنادٍ متصل يجوزُ ذكْرُه إلاّ هذا، ولم يُسْنِدْه عن شُعْبَةَ إلاَّ أُمَيَّةُ بن خالد، وغيرُهُ يُرْسِلُه عن سعيد بن جُبَير؛ وإنما يعرفُ عن الكَلْبي، عن أبي صالح، عن ابنِ عباس؛ فقد بيَّن لك أبو بكر ـ رحمه الله ـ أنه لا يُعْرَف من طريقٍ يجوز ذكره سِوَى هَذَا.

وفيه من الضَّعْفِ ما نبّه عليه مع وقوع الشكّ فيه، كما ذكرناه من الذي لا يُوثَق به، ولا حقيقة معه.

وأما حديث الكلبيّ فمِمَّا لا تجوزُ الروايةُ عنه ولا ذِكْرُهُ لقوّةِ ضَعْفه وكَذِبه، كما أشار إليه البزّار رحمه الله.

١٥٧٠ ـ والذي منه في الصحيح أَنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ ـ وهو بمكة ـ فسجد، وسجد المسلمون والمشركون والجنّ والإنس. هذا توهينه من طريق النَّقْلِ، فأمَّا من جهة المعنى فقد قامت الحجةُ، وأجمعت الأمةُ على عصمته ﷺ ونزاهتِه عن مِثْلِ هذه الرذيلة؛ إمَّا من تَمَنِّيه أن يُنْزَلَ عليه مثْلُ هذا من مَدْحِ آلهةٍ غيرِ الله، وهو كفر؛ أو أن يتسوَّرَ عليه الشيطان، ويُشبِّه عليه القرآن حتى يجعلَ فيه ما ليس منه، ويعتقدَ النبيُّ ﷺ أنَّ من القرآن ما ليس مِنْهُ حتى يُنَبِّهه جبريلُ عليه السلام، وذلك كلُّه مُمْتَنِع في حَقِّه عليه السلام، أو يقول ذلك النبيُّ ﷺ مِنْ قِبَلِ نفسه عَمْداً، وذلك كُفر؛ أو سَهْواً، وهو معصومٌ مِنْ هذا كله.

وقد قرَّرنا بالبرهان والإجماع عصمَته ـ عليه السلام ـ من جَرَيانِ الكُفرِ على قلبه أَوْ لسانه، لا عَمْداً ولا سَهْواً، أو أَنْ يتشبه عليه ما يُلْقيه المَلَك مِمَّا يُلْقِي الشيطانُ، أو يكون للشيطانِ عليه سبيلٌ، أو أن يتقوَّلَ على اللَّهِ، لا عَمْداً ولا سهواً، ما لم يُنَزَّلْ عليه؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٥].

ووَجْهٌ ثانٍ: وهو استحالةُ هذه القصة نظَراً وعُرْفاً؛ وذلك أَنَّ هذا الكلام لو كان ـ كما رُوي ـ لكان بعيدَ الالتئام لكونه متناقِضَ الأقسام، مُمتزِج المَدْحِ بالذَّمِّ،

متخاذلَ التأليف والنّظم. ولَمّا كان النبيُّ ﷺ ولا مَنْ بحضرته من المسلمين، وصناديد المشركين ممن يخفَى عليه ذلك؛ وهذا لا يَخفَى على أدنى متأمّل، فكيف بمَنْ رَجح حِلْمهُ، واتَّسع في باب البَيان ومعرفةِ فصيحِ الكلام عِلْمُه؟!

ووَجْهٌ ثالثٌ: أنه عُلِم مِنْ عادةِ المنافقين، ومُعَانِدي المشركين، وضَعَفَةِ القُلُوبِ، والجهلة من المسلمين، نفورُهم لأول وَهْلَةٍ؛ وتخليطُ العدوّ على النبيّ ﷺ لأقلّ فِتْنَةٍ، وتعييرهم المسلمين، والشّمات بهم الفَيْنَة بعد الفَيْنَة، وارتدادُ مَنْ في قلبه مرَضٌ مِمّنْ أظهر الإسلام لأدنَى شُبْهة، ولم يَحْكِ أحدٌ في هذه القِصَّةِ شيئاً سِوَى هذه الروايةِ الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدَتْ قريش بها على المسلمين الصَّوْلَة، ولأقامت بها اليهودُ عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرةً في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاءِ رِدَّة، وكذلك ما رُوي في قِصَّةِ القضِيَّة؛ ولا فِتْنَة أعظمُ من هذه البلية لو وُجِدَتْ، ولا تَشْغيب للمُعَادِي حينئذٍ أَشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت؛ فما رُوِيَ عَنْ معاندٍ فيها كلمةٌ، ولا عن مسلم بسببها بنتُ شَفَة؛ فدَلَّ على بُطْلها واجتثاث أصلِها.

ولا شكَّ في إدخال بَعْضِ شياطين الإِنْسِ أو الجنّ هذا الحديثَ على بعض مغفَّلي المحدِّثين، ليُلَبِّس به على ضُعفاء المسلمين.

ووَجْهٌ رابع: ذكر الرُّوَاةُ لهذه القضية أنَّ فيها نزلت: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

وهاتان الآيتان تَرُدَّان الخبرَ الذي رَوَوْه؛ لأنَّ الله تعالى ذكر أنهم كادوا يَفْتِنُونه حتى يَفْتَرِي، وأنه لولا أنه ثَبَّته لكاد يَرْكَنُ إليهم.

فمضمون هذا ومفهومُه أَنَّ الله تعالى عصَمه مِنْ أَنْ يَفْتَرِي، وثبَّته حتى لم يَرْكَنْ إليهم شيئاً قليلاً؛ فكيف كثيراً؟! وهم يَرْوُون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراءِ بمَدْحِ آلِهتهم، وأنه قال عليه السلام: افتريتُ على الله، وقلت ما لم يَقُلْ؛ وهذا ضِدُّ مَفهُومِ الآيةِ، وهي تُضْعِفُ الحديثَ لو صَحّ، فكيف ولا صحَّة له؟!

وهذا مِثلُ قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].

١٥٧١ ـ وقد رُوِيَ عن ابن عباس: كل ما في القرآن «كاد» فهو ما لا يكون

أبداً؛ قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]؛ ولم يذهب، و ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]؛ ولم يفعل.

قال القُشَيْرِي القاضي: ولقد طالبهُ قُريش وثَقِيف إذْ مرَّ بآلهتهم أن يُقبِل بوجهه إليها، ووعَدوه الإيمانَ به إنْ فَعَل، فما فعل، ولا كانَ لِيَفْعَل.

قال ابنُ الأنباري: ما قاربَ الرسولُ ولا رَكَنَ.

وقد ذُكِرَتْ في معنى هذه الآية تفاسيرُ أُخَر، ما ذكرناه مِنْ نَصِّ الله على عصمةِ رسوله يَرُدُّ سَفسافَها؛ فلم يَبْقَ في الآية إلاّ أنَّ الله تعالى امْتَنَّ على رسولِه بعصمته وتثبيتِه مما كادَه به الكُفَّار، ورَامُوا من فِتْنَتِه؛ ومُرَادُنا من ذلك تنزيههُ وعِصْمَتُه ﷺ؛ وهو مفهوم الآية.

وأما المأخذ الثاني: فهو مبنيٌّ على تسليم الحديث لو صَحَّ؛ وقد أعاذَنا اللَّهُ من صِحَّته؛ ولكنْ على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمةُ المسلمين بأجوبةٍ؛ منها الغَثُّ والسمين؛ فمنها ـ ما رَوَاه قتادةُ ومقاتل ـ أنَّ النبي ﷺ أصابَته سِنَةٌ عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلامُ على لسانه بحُكْم النوم.

وهذا لا يَصِحُّ؛ إذ لا يجوزُ على النبيِّ مثلُه في حالةٍ من أحواله، ولا يخلقُه اللّهُ على لسانه، ولا يستولي الشيطانُ عليه في نومٍ ولا يَقَظَةٍ لِعِصْمتِه في هذا الباب مِنْ جميع العَمْد والسهو.

وفي قَوْلِ الكلبي: إنَّ النبيَّ ﷺ حدَّثَ نَفْسَه؛ فقال ذلكَ الشيطانُ على لسانِه.

وفي رواية ابن شِهَاب؛ عن أبي بكر بن عبدالرحمن؛ قال: وسَهَا؛ فلما أُخْبِرَ بذلك قال: إنما ذلك من الشيطان.

وكلُّ هذا لا يَصِحُّ أَنْ يقولَه ـ عليه السلام ـ لا سَهواً ولا قَصْداً، ولا يتقوَّله الشيطانُ على لسانه عليه السلام.

وقيل: لعلَّ النبيَّ ﷺ قاله في أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] على أحد التأويلات.

وكقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] بعد السَّكْتِ وبيان الفَصْلِ بين الكلامين، ثم رجع إلى تلاوته.

وهذا ممكِنٌ مع بيان الفصل وقَرِينَةٍ تدلُّ على المراد، وأنه ليس من المتلوّ، وهو أَحَد ما ذكره القاضي أبو بكر.

فلا يُعْتَرَضُ على هذا بما رُوِي أنه كان في الصلاة؛ فقد كان الكلامُ فيها قَبْلُ غَيْرَ ممنوع.

والذي يَظْهَرُ وَيَتَرَجَّح في تأويلِهِ عنده وعند غيره من المحقِّقين على تسليمه أن النبيَّ ﷺ كان ـ كما أمره ربُّه ـ يُرَتِّلُ القرآنَ ترتيلاً، ويفصِّلُ الآيَ تفْصِيلاً في قراءته، كما رَوَاهُ الثقاتُ عنه، فيمكن تَرَصُّد الشيطانِ لتلك السكتات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحَاكِياً نَغْمة النبي ﷺ بحيث يَسْمَعُهُ مَنْ دنَا إليه من الكفَّار، فَظَنُّوها من قَوْلِ النبيِّ ﷺ، وأشاعوها، ولم يَقْدَح ذلك عند المسلمين بحِفْظِ السورةِ قَبْلَ ذلك على ما أنزلها اللَّهُ تعالى وتحقُّقِهم مِنْ حال النبي ﷺ في ذمّ الأوثان وعَيْبِها على ما عُرِفَ منه.

وقد حَكَى مُوسىٰ بن عُقْبَةَ في مَغَازِيه نحوَ هذا، وقال: إنَّ المسلمين لم يسمعوها، وإنما أَلْقَى الشيطانُ ذلكَ في أَسماع المشركين وقلوبهم؛ ويكون ما رُوِي مِنْ حُزْنِ النبيِّ ﷺ لهذه الإشاعة والشبهةِ، وسبب هذه الفِتنة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢].

فمعنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: تلا، قال اللَّهُ تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي تلاوة.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢] أي يذهبه، ويزيل اللَّبْس به، ويُحْكِم آياته.

وقيل: معنى الآية: هو ما يقَعُ للنبيِّ ﷺ من السَّهْوِ إذا قرأ فَيَنْتَبه لذلك ويَرْجِعُ عنه.

وهذا نحوٌ من قولِ الكلبي في الآية: إنَّهُ حدَّث نفسَه، وقال: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: حدَّث نفسه.

وفي رواية أبي بكر بن عبدالرحمن نَحْوه.

وهذا السَّهْوُ في القراءةِ إنما يَصِحُّ فيما ليس طريقُه تغييرَ المعاني، وتبديلَ الألفاظ، وزيادةَ ما ليس من القرآن؛ بل السَّهو عن إسقاطِ آيةٍ منه أو كلمة؛ ولكنه لا يُقَرُّ على هذا السهو؛ بل يُنَبَّه عليه، ويذكَّر به لِلْحِين على ما سنذكره في حكم ما يجوزُ عليه من السهو وما لا يجوز.

ومما يظهر في تأويله أيضاً أنَّ مجاهداً روَى هذه القصة: «والغَرانِقة العُلا» فإنْ سَلَّمْنا القصةَ قلنا: لا يَبْعُد أنَّ هذا كان قُرْآناً، والمراد بالغرانقة العُلا، وأنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجى؛ الملائكة على هذا التأويل وهذه الرواية.

وبهذا فسّر الكلبي (الغرانقة) أنها الملائكة؛ وذلك أنَّ الكفَّارَ كانوا يعتقدون أنَّ الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى اللَّهُ عنهم وردَّ عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ٢١]؛ فأنكر الله كلَّ هذا من قولهم؛ ورجاءُ الشفاعةِ من الملائكة صحيح، فلما تأوَّلهُ المشركون على أنَّ المرادَ بهذا الذِّكرِ آلهتهم، ولبَّس عليهم الشيطان ذلك، وزيَّنه في قلوبهم وألقاهُ إليهم نسخ اللَّهُ ما ألقى الشيطانُ، وأحكم آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلاً للتلبيس، كما نُسخ كثير من القرآن ورُفعت تلاوتُه؛ وكان في إنزال اللَّهِ تعالى لذلك حكمةٌ، وفي نسخه حكمةٌ؛ ليُضِلَّ به مَنْ يشاء ويَهْدِي من يشاء؛ وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين، و ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ ـ لما قرأ هذه السورة، وبلغ ذِكْرَ اللاتِ والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى، خاف الكفَّارُ أن يأتي بشيء من ذمِّها فسبقوا إلى مَدْحِها بتلك الكلمتين ليُخلِّطوا في تلاوة النبيِّ ﷺ، ويشنِّعوا عليه على عادتهم وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ونُسِبَ هذا الفعل إلى الشيطان لحَمْلِهِ لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأن النبي ـ ﷺ ـ قاله؛ فحزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه، فسلاه اللَّهُ تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ الآية [الحج: ٥٢] وبيَّنَ للناس الحقَّ في ذلك من الباطل، وحفظ القرآن، وأحكمَ آياتِه، ودفع ما لبَّس به العدوُّ، وكما ضمنه اللَّهُ تعالى من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

ومن ذلك ما رُوِيَ من قصة يونس ـ عليه السلام ـ أنه وَعَدَ قومَه بالعذاب عن ربه، فلما تابوا، كُشِفَ عنهم العذابُ، فقال: لا أرجعُ إليهم كذَّاباً أبداً، فذهب مُغاضباً.

فاعلم ـ أكرمَكَ اللَّهُ ـ أنَّه ليسَ في خبرٍ من الأخبارِ الواردةِ في هذا الباب أن يونس ـ عليه السلام ـ قال لهم: إنَّ اللَّهَ مُهلِكُكُم، وإنما فيه أنَّه دعا عليهم بالهلاك؛ والدعاءُ ليس بخبرٍ يُطلَب صِدْقُه من كَذِبِه، لكنه قال لهم: إن العذاب مُصَبِّحكم وقتَ كذا وكذا، فكان ذلك، كما قال؛ ثم رَفَعَ اللَّهُ تعالى عنهم العذابَ

وتَدَارُكهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

١٥٧١م - ورُوِي في الأخبار أنهم رَأَوْا دَلائِلَ العذاب ومَخَايِلَهُ؛ قاله ابنُ مسعود.

وقال سَعِيد بن جُبَير: غَشَّاهم العذابُ كما يُغَشِّي الثوبُ القبْرَ.

١٥٧٢ - فإنْ قُلْتَ: فما معنى ما رُوِي من أَنَّ عبدالله بن أبي سَرْح كان يَكْتُبُ لرسولِ الله ﷺ، ثم ارتدَّ مُشرِكاً، وصار إلى قريش، فقال لهم: إني كنتُ أَصْرِف محمداً حيثُ أُرِيد؛ كان يُمْلِي عليَّ «عَزِيز حكيم» فأقول أو «عليم حكيم» فيقول: «**نَعَمْ؛ كُلٌّ صَوَابٌ**».

١٥٧٣ - وفي حديث آخر: فيقول له النبيُّ ﷺ: «**اكتُبْ كذا**» فيقول: أَكْتُبُ كذا؟ فيقول: «**اكتب كيف شِئْتَ**». ويقول: «**اكتُبْ: عَلِيماً حَكِيماً**» فيقول: أَكْتُبُ سميعاً بصيراً، فيقول له: «**اكتب كيف شِئْتَ**».

١٥٧٤ - وفي الصحيح، عن أَنَس رضي الله عنه أَنَّ نَصْرَانِياً كان يكتبُ للنبيِّ - ﷺ - بعد ما أسلم ثم ارتدَّ كافراً، وكان يقول: ما يَدْرِي محمدٌ إلاَّ ما كتبتُ له [البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١)، أحمد (٣/ ١٢٠ - ١٢١)].

فاعلَمْ - ثَبَّتَنَا اللَّهُ وإياك على الحق، ولا جعل للشيطانِ وتَلْبِيسه الحقَّ بالباطل علينا ولا إلينا سبيلاً - أَنَّ مِثْلَ هذه الحكاية أَوَّلاً لا تُوقِعُ في قَلْبِ مُؤمنٍ رَيْباً؛ إذ هي حكايةٌ عمّن ارتدَّ وكفر بالله، ونحن لا نقبلُ خَبَرَ المسلم المُتّهم، فكيف بكافرٍ افْتَرى هو ومِثْلُه على اللَّهِ ورسُلِه ما هو أعظَمُ مِنْ هذا؟!

والعَجبُ لسليم العَقْل يَشْغَل بمثل هذه الحكاية سِرَّه، وقد صدرَتْ من عدوٍّ كافرٍ، مُبْغِض للدين، مُفْتَرٍ على اللَّهِ ورسوله؛ ولم يَرِدْ عن أحدٍ من المسلمين، ولا ذَكَر أَحَدٌ من الصحابةِ أنه شاهد ما قالَهُ وافتراه على نبيِّ اللَّهِ و ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الآية [النحل: ١٠٥].

وما وقَعَ مِنْ ذِكْرِها في حديث أَنَسٍ - رضي اللَّهُ عنه - وظاهِر حكايَتِها؛ فليس فيه ما يدلّ على أنه شاهَدَها، ولعله حكى ما سَمِع.

وقد عَلَّل البزَّارُ حديثَه ذلك، وقال: رَوَاه ثابتٌ عنه، ولم يُتَابَع عليه؛ ورَوَاهُ حُميد عن أَنس، قال: وأَظنُّ حُميداً إنما سمعه من ثابت.

قال القاضي أبو الفضل - وفَّقه اللَّهُ -: ولهذا؛ واللَّهُ أعلم، لم يخَرِّجْ أهلُ الصحيح حديثَ ثابت ولا حُميد [مسلم (٢٧٨١)، أحمد (٣/ ١٢٠ - ١٢١)]. والصحيح حديث عبدالعزيز بن رُفَيع عن أَنَس [البخاري (٣٦١٧)] رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي خَرَّجه

أهلُ الصحة، وذكَرْناه، وليس فيه عن أنَس قولُ شيءٍ من ذلك من قِبَلِ نفسه إلا مِنْ حكايته عن المُرْتَدّ النصرانيّ ولو كانَتْ صحيحةً لما كان فيها قَدْحٌ ولا توهِيمٌ للنبيّ ﷺ فيما أوحِيَ إليه، ولا جَوَاز للنسيان والغَلَطِ عليه والتحريف فيما بلَّغه، ولا طعَن في نَظْم القرآنِ، وأنه من عند الله؛ إذ ليس فيه ـ لو صَحَّ ـ أكْثَرُ من أنَّ الكاتبَ قال له: عليم حكيم ـ وكتبه؛ فقال له النبيّ ـ ﷺ ـ: «كذلك هو»، فسبقه لسانه أو قَلَمُه لِكلِمَةٍ أو كلمتينِ مما نُزِّل عَلَى الرسول قبل إظهارِ الرسولِ لها؛ إذ كان ما تقدَّم ممَّا أمْلاهُ الرسولُ يَدُلُّ عليها، ويقتضي وقوعها بقوةِ قُدْرَةِ الكاتب على الكلام، ومعرفته به، وجَوْدةِ حِسِّه وفِطْنته، كما يَتَّفِقُ ذلك للعارف إذا سَمِعَ ولا يَتَّفِق ذلك في جُمْلة الكلامِ، كما لا يَتَّفِق ذلك في آية ولا سورة.

وكذلك قَوْله عليه السلام ـ إنْ صحَّ ـ: «كُلٌّ صَوَابٌ» فقد يكون هذا فيما كان فيه مِنْ مقاطِع الآي وَجْهَان وقراءتان أُنْزِلتا جميعاً عَلَى النبيِّ ﷺ، فأملى إحْداها، وتوصّل الكاتِبُ بفِطْنَتِه ومعرفته بمقتضى الكلام إلى الأُخرى، فَذَكَرَها للنبيِّ ﷺ كما قدمناه فصوَّبها له النبيُّ ﷺ؛ ثم أحكمَ اللَّهُ مِنْ ذلك ما أحكم، ونَسخ ما نَسِخَ كما قد وُجِدَ ذلك في بعض مَقَاطِع الآي؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

وهذه قراءة الجمهور، وقد قرأ بعضهم، وهم جماعةٌ: «فإنكَ أنْتَ الغفورُ الرَّحيم». وليست من المصحف.

وكذلك كلماتٌ جاءَت على وَجْهين في غير المقاطع، قرأ بهما معاً الجمهورُ، وثبَتَتا في المصحف، مثل: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] و﴿نُنشِرُهَا﴾.

و ﴿يقْضِ الحَقَّ﴾ و﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وكلُّ هذا لا يوجِبُ رَيْباً، ولا يُنسبُ للنبي ـ ﷺ ـ غلطاً ولا وَهْماً.

وقد قيل: إن هذا يحتملُ أن يكونَ فيما يكتبُه عن النبي ـ ﷺ ـ الكاتبُ إلى الناس غَيْرِ القرآن، فيصف اللَّهَ ويسمّيه في ذلك كيف يشاء.

فصل
فِي حَالِه ﷺ فِي أَخْبَارِ الدُّنْيا

هذا القولُ فيما طريقُه البَلاَغ، وأمّا ما ليس سبيلُه سبيلَ البلاغ من الأخبار التي لا مُسْتَنَدَ لها إلى الأحكام، ولا أخبار المعادِ، ولا تُضافُ إلى وَحْي؛ بل في

أمورِ الدنيا وأحوال نَفْسِه - فالذي يجبُ اعْتِقَادُه تَنْزِيهُ النبيّ - ﷺ - عن أنْ يَقَعَ خَبَرُه في شيءٍ من ذلك بخلاف مُخْبَره، لا عَمْداً ولا سَهواً ولا غلطاً، وأنه معصوم مِنْ ذلك في حالِ رِضَاه وفي سَخَطِه، وجدِّه ومَزْحِه وصِحّته ومرضِهِ.

ودليلُ ذلك اتفاقُ السلَفِ وإجماعُهم عليه؛ وذلك أنا نعلمُ مِنْ دِين الصحابةِ وعادتِهم مُبَادرَتَهم إلى تصديق جميع أحوالِه، والثِّقَة بجميع أخباره في أي باب كانت، وعن أي شيء وقَعتْ، وأنه لم يكن لهم توقُّف ولا تردُّد في شيء منها، ولا استثباتٌ عن حالِه عند ذلك؛ هل وقع فيها سَهْوٌ أم لا؟.

١٥٧٥ - ولما احتجَّ ابنُ أبي الحُقَيْق اليهودي على عُمَر حين أَجْلاهم من خَيْبر بإقرار رسولِ الله - ﷺ - لهم، واحتجّ عليه عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنه بقولِه ﷺ: «**كيف بكَ إذا أُخرجتَ مِنْ خَيْبَر**»؟ فقال اليهودي: كانت هُزَيْلَةً من أبي القاسم. فقال عُمر: **كذَبْتَ، يا عدوَّ الله!** [البخاري (٢٧٣٠)].

وأيضاً فإنَّ أَخبارَهُ وآثارَه وسِيَره وشمائلَه مُعْتَنًى بها، مُستَقْصًى تفاصيلها، ولم يَرِدْ في شيء منها استدراكه - عليه السلام - لغلطٍ في قولٍ قاله، أو اعترافُه بوَهَم في شيءٍ أخبر به.

١٥٧٦ - ولو كان ذلك لنُقِل كما نُقِل من قصَّته - عليه السلام - في رجوعه - ﷺ - عما أشار به على الأنصار في تلقيحِ النخل - وكان ذلك رأياً لا خَبَراً.

١٥٧٧ - وغَيْرُ ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب؛ كقوله ﷺ: «**واللَّهِ! لا أحلفُ على يمين، فأرى غَيْرَها خيراً منها إلاَّ فعلتُ الذي حلَفْتُ عليه وكفَّرت عن يميني**» [البخاري (٦٦٢٣)، مسلم (١٦٤٩)].

١٥٧٨ - وقوله: «**إنكم تَخْتَصِمُونَ إليّ...**» الحديث [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)].

١٥٧٩ - وقوله: «**اسقِ يا زُبَيْرُ! حتى يبلغَ الماءُ الجَذْرَ**» [البخاري (٢٣٥٩)، مسلم (٢٣٥٧)] كما سنُبَيِّن كلَّ ما في هذا مِنْ مُشكِل ما في هذا الباب والذي بعده إن شاء الله، مع أشباهها.

وأيضاً فإنَّ الكَذِبَ متى عُرف من أَحدٍ، في شيءٍ من الأخبار، بخلاف ما هُوَ، على أيّ وجه كان، استُريبَ بخبره، واتُّهِمَ في حديثِه، ولم يقَعْ لقوله في النفوس موقع، ولهذا ما تَرَكَ المُحدِّثون والعلماءُ الحديثَ عمَّن عُرِف بالوَهم والغَفْلة وسوءِ الحِفْظِ، وكَثْرةِ الغَلَط، مع ثقته.

وأيضاً فإنَّ تعمُّدَ الكذبِ في أمورِ الدنيا معصيةٌ والإكثارُ منه كبيرةٌ بإجماعٍ، مُسقِطٌ للمروءة.

وكلُّ هذا مما يُنزَّهُ عنه منصبُ النبوة؛ والمرةُ الواحدةُ منه فيما يُستبشَعُ ويُستشنَعُ ويَشيع مِمَّا يُخِلُّ بصاحبها، ويُزري بقائلها لاحقةٌ بذلك.

وأما فيما لا يقعُ هذا الموقع فإنْ عددْناها من الصغائر فهل يجري على حُكمها في الخلاف فيها؟ مختلف فيه. والصوابُ تنزيهُ النبوّةِ عن قليله وكثيره، سَهوه وعَمْدِه؛ إذ عُمدَةُ النبوة البلاغُ والإعلامُ والتَّبيين، وتَصديقُ ما جاء به النبيُّ ﷺ وتجويزُ شيءٍ من هذا قادحٌ في ذلك، ومُشكِّكٌ فيه، مناقضٌ للمعجزة؛ فلنَقْطع عن يقينٍ بأنه لا يجوز على الأنبياء خُلْفٌ في القول في وَجْهٍ من الوجوه، لا بقصدٍ ولا بغير قصدٍ، ولا نتسامح مع مَنْ سامحَ في تجويزِ ذلك عليهم حالَ السَّهو فيما ليس طريقُه البلاغ؛ نعم، وبأنه لا يجوزُ عليهم الكذِبُ قبل النبوّة، ولا الاتسامُ به في أمورهم وأحوالهم؛ لأنَّ ذلك كان يُزري ويريبُ بهم وينفِّر القلوبَ عن تصديقهم بعدُ.

وانظُرْ إلى أحوالِ أهل عَصْرِ النبيِّ ﷺ من قُرَيش وغيرها من الأمم وسُؤالِهم عن حالِه في صِدْقِ لسانِه، وما عُرِفُوا به من ذلك واعترفوا به مما عُرِف، واتِّفاقِ أهلِ النَّقْلِ على عِصْمةِ نبيِّنا ﷺ منه قَبْلُ وبَعْدُ؛ وقد ذكرنا من الآثار فيه في الباب الثاني أولَ الكتاب ما يبيِّن لك صحةَ ما أشرنا إليه.

فصل

في ردِّ بعضِ الاعتراضاتِ والشُّبه، كسهوه ﷺ في الصَّلاةِ، وقولِ إبراهيمَ: إنِّي سقيمٌ

١٥٨٠ ـ فإن قلتَ: فما معنى قوله ـ عليه السلام ـ في حديث السَّهوِ الذي حَدَّثنا به الفقيه أبو إسحاق: إبراهيم بن جعفر، قال: حدثنا القاضي أبو الأصبَغ بنُ سهل، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو عبدالله بنُ الفخّار، حدثنا أبو عيسى، حدثنا عُبيدالله، حدثنا يحيى، عن مالك، عن داود بن الحُصين، عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد أنه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: صلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةَ العصرِ، فسلَّم في ركعتين، فقام ذو اليَدَيْن، فقال: يا رسول الله! أقُصِرَت الصلاةُ أم نَسيتَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**كلُّ ذلك لم يكن**»

[مسلم (٥٧٣/٩٩)].

١٥٨١ ـ وفي الرواية الأخرى: «**ما قُصِرَتْ الصلاة، . وما نسيتُ**» [البخاري (٤٨٢، ١٢٢٩، ٦٠٥١)]. الحديث بقصته؛ فأخبره بنَفْي الحالتين، وأنها لم تكُن؛ وقد كان أَحدُ ذلك، كما قال ذو اليَدَيْن: قد كان بعضُ ذلك يا رسولَ الله!

فاعلَمْ ـ وفَّقَنا الله وإياكَ ـ أنَّ للعلماء في ذلك أجوبةً، بعضُها بِصَددِ الإنصاف؛ ومنها ما هو بِنِيَّةِ التعسُّف والاعتساف؛ وها أنا أقول:

أمَّا على القول بتجويز الوَهْم والغَلَط فيما ليس طريقُه من القول البلاغ، وهو الذي زيَّفناهُ من القَوْلَيْن ـ فلا اعتراضَ بهذا الحديث وشِبْهه.

وأمَّا على مَذْهب مَنْ يمنَعُ السَّهْوَ والنسيان في أفعاله جملةً، ويَرى أنه في مِثْل هذا عامِدٌ لصورةِ النسيان لِيَسُنَّ، فهو صادقٌ في خَبَره؛ لأنه لم يَنْسَ ولا قُصِرَتْ، ولكنه على هذا القولِ تعمَّد هذا الفِعْلَ في هذه الصورة ليسنَّهُ لمن اعتَرَاهُ مِثْلُه؛ وهو قولٌ مرغوبٌ عنه، ونَذْكُرُه في مَوْضِعه.

وأمَّا على إحالةِ السَّهْوِ عليه في الأقوالِ وتجويز السَّهْو عليه فيما ليس طريقُه القول ـ كما سنذكره ـ ففيه أجوبةٌ.

منها: أنَّ النبيَّ ﷺ أَخبر عن اعتقادِه وضميره؛ أمَّا إنكارُ القَصْر فحقٌّ وصِدْقٌ باطناً وظاهراً. وأمَّا النِّسيَانُ فأَخبر ـ ﷺ ـ عن اعتقاده، وأنه لم يَنْسَ في ظَنِّه؛ فكأنه قصدَ الخَبرَ بهذا عن ظنِّه وإنْ لم يَنْطق به؛ وهذا صِدْقٌ أيضاً.

وَوَجْهٌ ثانٍ: أنَّ قولَه: «**ولم أَنْسَ**» راجعٌ إلى السلام: أي إني سلمتُ قَصْداً، وسهوتُ عن العَدَدِ، أي لم أَنْسَهُ في نَفْس السلام؛ وهذا محتملٌ؛ وفيه بُعْدٌ.

ووَجْهٌ ثالث: ـ وهو أَبعَدُها ـ ما ذهب إليه بعضُهم، وإن احتمله اللفظُ من قوله: «**كلُّ ذلك لم يكن**»: أي لم يجتمع القَصْرُ والنسيان؛ بل كان أَحدهما ومفهومُ اللفظ خلافُه، مع الرواية الأخرى الصحيحة، وهو قولُه: «**ما قُصِرَت الصلاةُ وما نسيتُ**».

هذا ما رأيتُ فيه لأَئمتنا؛ وكلٌّ مِنْ هذه الوجوه محتَمل للَفظ على بُعْدِ بعضها، وتعسُّف الآخر منها.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: والذي أقولُ ـ ويظهرُ لي أنه أَقربُ من هذه الوجوه كلِّها ـ: أن قوله ﷺ: «**لم أَنْسَ**» إنكارٌ للَفظِ الذي نفاهُ عن نَفْسِه.

١٥٨٢ ـ وأنكرهُ على غيره بقوله: «**بئس ما لأحدكم أنْ يقولَ: نَسِيتُ آيةَ كذا وكذا، ولكنه نُسِّيَ**» [البخاري (٥٠٣٢)، مسلم (٧٩٠)].

١٥٨٣ ـ وبقوله في بعض روايات الحديثِ الآخر: «**لَسْتُ أَنْسىٰ، ولكن**

أُنَسَّ». فلما قالَ له السائلُ: أَقُصِرت الصلاة أم نسيتَ؟ أنكر قَصْرَها كما كان، ونِسيانَه هو مِنْ قِبَلِ نَفْسه، وإنه إنْ كان جرى شيء من ذلك فقَدْ نُسِّيَ حتى سأل غَيْرَه؛ فتحقَّقَ أنه نُسِّيَ، وأُجْرِيَ عليه ذلك لِيَسُنَّ؛ فقوله على هذا: «لم أَنْسَ ولم تُقْصَر» أو «كلُّ ذلك لم يَكُنْ» صِدْقٌ وحَقٌّ؛ لم تُقْصَر، ولم يَنْسَ حقيقةً، ولكنه نُسِّيَ.

وَوَجْهٌ آخر استَثَرْتُه من كلامِ بعض المشايخ؛ وذلك أنه قال: إنَّ النبيَّ ﷺ كان يَسْهُو ولا يَنسى؛ ولذلك نَفَى عن نَفْسِه النِّسيان؛ قال: لأنَّ النِّسيان غَفْلةٌ وآفة؛ والسَّهْو إنما هو شُغْلُ بالٍ قال: فكان النبيّ ﷺ يَسْهُو في صلاته ولا يَغْفُل عنها؛ وكان يَشْغَله عن حركات الصلاة ما في الصلاة؛ شُغْلاً بها، لا غَفْلةً عنها.

فهذا ـ إنْ تُحقِّق على هذا المعنى ـ لم يكُنْ في قوله: «ما قُصِرَتْ الصلاةُ ولا نَسيتُ» خُلْفٌ في قولٍ.

وعندي أنَّ قولَه: «ما قُصِرتْ الصلاةُ وما نَسِيتُ» بمعنى التَّرْك الذي هو أَحَدُ وَجْهَي النسيان؛ أراد ـ واللَّهُ أعلم ـ: إني لم أُسَلِّم من رَكْعَتين تاركاً لإكمال الصلاة، ولكني نسيتُ، ولم يكن ذلك من تلْقَاء نَفْسي.

١٥٨٤ ـ والدليلُ على ذلك قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث الصحيح: «إني لأَنسى، أو أُنَسَّى لأَسُنَّ».

١٥٨٥ ـ وأما قصَّةُ كلماتِ إبراهيم ـ عليه السلام ـ المذكورة في الحديث أنها كذباتُه الثلاث [البخاري (٣٣٥٧)، مسلم (٢٣٧١)]، المنصوصة، في القرآن منها اثنتان: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢، ٦٣]. وقوله للملِكِ عن زَوْجته: «إنها أُختي» فاعلم ـ أكرمك اللَّهُ ـ أنَّ هذه كلَّها خارجةٌ عن الكذب؛ لا في القَصْد ولا في غيره؛ وهي داخلةٌ في باب المعاريض التي فيها مندوحة عن الكذب.

أمَّا قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ـ فقال الحسن وغيره: معناه: سأَسْقم؛ أي إنّ كلّ مخلوق معَرَّضٌ لذلك، فاعتذر لقومه من الخروج معهم إلى عِيدهم بهذا.

وقيل: بل سَقِيم بما قُدِّر عليَّ من الموت.

وقيل: سَقِيم القَلْبِ بما أُشاهِدُه من كُفركم وعِنَادِكم.

وقيل: بل كانت الحُمَّى تأخُذه عند طلوع نَجْمٍ معلومٍ؛ فلما رآه، قال هذا، اعتذر بعادته.

وكلُ هذا ليس فيه كذِبٌ؛ بل هو خَبَرٌ صحيح صِدْق.

وقيل: بل عَرَّضَ بسقمِ حجّته عليهم، وضَعْف ما أراد بيانَه لهم مِنْ جهة النجومِ التي كانوا يشتغِلون بها، وأنه أثناء نظره في ذلك، وقَبْل استقامةِ حجّته عليهم في حال سَقَم ومَرَضِ حال، مع أنه لم يشكَّ هو ولا ضَعُفَ إيمانُه، ولكنه ضَعُفَ في استدلالِه عليهم وسقم نظَره، كما يُقال: حجَّةٌ سَقِيمةٌ، ونَظَرٌ معلول، حتى ألهمه اللّهُ باستدلاله وصحةِ حجَّتِه عليهم بالكوكب والشمس والقمر ـ ما نَصّه اللّهُ تعالى ـ وقد قدَّمْنا بيانَه.

وأما قولُه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣] فإنَّه علَّق خَبَرَه بشَرْط نطقه، كأنه قال: إنْ كان ينطقُ فهو فَعَله على طريق التبكيت لقومه. وهذا صدقٌ أيضاً، ولا خُلْف فيه.

وَأَمَّا قولُه: «أختي» فقد بيّن في الحديث، وقال: «فإنكِ أُختي في الإسلام» وهو صِدقٌ؛ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحُجرات: ١٠].

١٥٨٦ ـ فإنْ قلْتَ: فهذا النبيُّ ﷺ قد سمَّاها كَذِبات، وقال: «**لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كَذِبَاتٍ**».

١٥٨٧ ـ وقال في حديث الشفاعة: «**ويذكر كذباته**» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)] فمعناه: أنه لم يتكلّم بكلام صورتُه صورةُ الكذِب ـ وإنْ كان حقاً في الباطن ـ إلاّ هذه الكلمات.

ولمَّا كان مفهومُ ظاهِرها خلافَ باطنها أَشفق إبراهيم ـ عليه السلام ـ مِن مؤاخذته بها.

١٥٨٨ ـ وأما الحديث: «**كان النبيُّ ﷺ إذا أراد غَزْوَةً وَرَّى بغيرها**» [البخاري (٢٩٤٨)، مسلم (٢٧٦٩/٥٤)] فليس فيه خُلْفٌ في القَوْلِ؛ إنما هو سَتْرُ مَقْصدِهِ، لئلا يأخُذَ عدوُّه حِذْرَه؛ وكَتَم وَجْهَ ذهابه بذكر السؤال عن موضع آخر، والبحث عن أخباره والتَّعْرِيض بذكْرِه، لا أنَّه يقول: تَجهَّزُوا إلى غَزْوةِ كذا، أَوْ وجهَتْنا إلى موضع كذا خلافَ مَقْصدِهِ؛ فهذا لم يَكُنْ؛ والأولُ ليس فيه خَبرَ يَدْخُلُه الخلفُ.

١٥٨٩ ـ فإن قلتَ: فما معنى قولِ موسىٰ ـ عليه السلامُ ـ وقد سُئل: «**أيّ الناس أعلمُ؟ فقال: أنا أَعْلَم؛ فَعَتِبَ الله عليه ذلك؛ إِذْ لَم يَرُدَّ العلمَ إليه**» الحديث [البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠)]؛ وفيه قال: «**بل عَبْدٌ لنا بمَجْمع البَحْرَينِ أَعْلَمُ منك**».

وهذا خَبَرٌ قد أنبأ اللّهُ أنه ليس كذلك.

١٥٩٠ ـ فاعلَمْ أنه قد وقع في هذا الحديث من بعض طُرُقه الصحيحة، عن ابن عباس: «هل تعلمُ أحداً أعلمَ منك؟».

فإذا كان جوابُه على عِلْمه فهو خبَرٌ حقٌّ وصِدْقٌ ولا خُلْف فيه ولا شُبهة.

وعلى الطريق الآخر فنحمَلُه على ظنّه ومُعْتقَدِه، كما لو صَرّح به؛ لأنّ حالَه في النبوّة والاصطفاء يقتضي ذلك؛ فيكون إخبارُه بذلك أيضاً عن اعتقادِه وحِسْبانه صِدْقاً لا خُلْفَ فيه.

وقد يُريدُ بقوله: «أنا أعلم» بما تقتضيه وظائفُ النبوة من علوم التوحيد، وأمورِ الشريعة، وسياسة الأمة، ويكون الخَضِر أعلمَ منه بأمورٍ أُخَر مما لا يعلمُه أحَدٌ إلاّ بإعلام الله من علوم غَيْبِه؛ كالقصص المذكورة في خبرهما، فكان موسى عليه السلام أعْلَمَ على الجملة بما تقدَّمَ. وهذا أعلمُ على الخصوص بما أُعْلِم به.

ويَدُل عليه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وعَتْبُ الله ذلكَ عليه ـ فيما قاله العلماء ـ إنكار هذا القَوْل عليه، لأنه لم يَرُدَّ العِلْمَ إليه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، أو لأنه لم يَرْضَ قولَه شَرْعاً، وذلك ـ والله أعلم ـ لئلا يَقْتَدِيَ به فيه مَنْ لم يَبْلُغ كمالَه في تَزْكِيةِ نَفْسِه وعُلُوّ دَرَجتِه من أمته؛ فيَهْلِك لِمَا تضمَّنه مِنْ مَدْحِ الإنسانِ نَفْسَه؛ ويُورِثُه ذلك مِن الكِبْرِ والعُجْب والتعاطي والدّعوى؛ وإنْ نُزِّهَ عن هذه الرذائلِ الأنبياءُ فغيرُهم بمَدْرَجة سَبيلِها ودَرْك لَيْلِها إلاّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ؛ فالتحفّظُ منها أوْلَى لنفسه، وليُقْتدَى به.

١٥٩١ ـ ولذا قال ـ عليه السلام ـ تحفُّظاً من مِثْلِ هذا مما قد أُعْلِمَ به: «أنا سَيّدُ وَلَدِ آدم ولا فَخْرَ».

وهذا الحديث إحْدى حُجَجِ القائلين بِنُبُوّة الخَضِر ـ عليه السلام ـ لقوله فيه: «أنا أعلمُ من موسى». ولا يكون الوليُّ أعلمَ من النبيّ، بل النبي أعلم من الولي.

فأما الأنبياء فيتفاضلونَ في المعارف.

وبقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]؛ فدلّ أنه بوحي. ومَنْ قال: إنه ليس بنبيّ قال: يحتملُ أن يكونَ فعله بأمْرِ نبيٍّ آخر.

وهذا يضعُف؛ لأنه ما عَلِمنا أنه كان في زَمن موسى ـ عليه السلام ـ نبيٌّ غيره إلا أخاه هارون؛ وما نَقَل أحدٌ من أهلِ الأخبار في ذلك شيئاً يُعَوَّلُ عليه.

وإذا جعلنا: «أعلمَ منك» ليس على العموم؛ وإنما هو على الخصوص، وفي قضايا مُعيّنة ـ لم يَحْتَجْ إلى إثباتِ نُبوّة الخَضِر؛ ولهذا قال بعضُ الشيوخ:

كان موسى أعلم مِنَ الخَضِر فيما أخذ عن اللّهِ، والخضرُ أَعلمُ فيما دُفِعَ إليه من موسىٰ.

وقال آخر: إنما أُلجِئَ موسىٰ إلى الخَضِر للتَّأديبِ لا لِلتَّعليم.

فصل
فِي عِصْمَةِ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ

وأمَّا ما يتعلقُ بالجَوارحِ من الأعمال، ولا يخرجُ من جُملتها القولُ باللسانِ فيما عدا الخبرَ الذي وقع فيه الكلامُ والاعتقادُ بالقَلْب فيما عَدَا التوحيد، وما قدمناه مِنْ مَعَارفه المختصة به فأَجمع المسلمون على عِصْمَةِ الأنبياء من الفَوَاحشِ والكبائر الموبقات. ومستند الجمهور في ذلك الإجماعُ الذي ذكرناه.

وهو مذهبُ القاضي أبي بكر؛ ومنَعها غَيْرُه بدليلِ العَقْل مع الإجماع؛ وهو قولُ الكافة، واختاره الأستاذ أبو إسحاق.

وكذلك لا خِلَافَ أنهم معصومون مِنْ كِتمانِ الرِّسالةِ والتقصيرِ في التبليغ؛ لأَنَّ كُلَّ ذلك تقتضِي العصمةَ منه المعجزةُ، مع الإجماعِ على ذلك من الكافة.

والجمهورُ قائلون: بأنهم معصومون من ذلك مِنْ قِبَلِ اللّهِ، معتصمون باختيارِهم وكَسْبِهم، إلا حُسيناً النجار؛ فإنه قال: لا قدرةَ لهم على المعاصي أصلاً.

وأَمَّا الصغائر فجوّزها جماعةٌ من السَّلَف وغيرهم على الأنبياء؛ وهو مَذْهَبُ أبي جعفر الطبري وغيرِه من الفقهاء والمُحَدِّثين والمتكلمين. وسنُورِدُ بَعْدَ هذا ما احتجُّوا به.

وذهبت طائفةٌ أُخرى إلى الوقْفِ، وقالوا: العَقْلُ لا يُحيل وقوعَها منهم؛ ولم يأتِ في الشَّرْعِ قاطِعٌ بأَحد الوجهين.

وذهبت طائفةٌ أُخرى من المحقِّقين من الفقهاء والمتكلّمين إلى عِصْمَتهم من الصغائر كعِصْمتهم من الكبائر؛ قالوا: لاختلافِ الناسِ في الصغائر وتَعْيينها من الكبائر وإشكالِ ذلك، وقولِ ابن عباس وغَيْره: إن كلّ ما عُصِيَ اللّهُ ـ عز وجل ـ به فهو كبيرةٌ، وإنه إنما سُمِّي منها الصَّغيرةُ بالإضافة إلى ما هو أكْبَرُ منه؛ ومخالفةُ الباري في أيِّ أمْرٍ كان، يجبُ كونه كبيرة.

قال القاضي أبو محمد: عَبْدالوهَّاب: لا يمكنُ أن يُقال: إنَّ في معاصي الله صغيرةً إلا على معنى أنها تُغْتَفَر باجْتناب الكبائر، ولا يكون لها حُكْمٌ مع ذلك،

بخلاف الكبائر إذا لم يَتُبْ منها فلا يُحْبِطُها شيء. والمشيئةُ في العَفْو عنها إلى الله تعالى؛ وهو قولُ القاضي أبي بكر وجماعةِ أئمة الأشعرية وكثيرٍ من أئمة الفقهاء.

قال القاضي رحمه الله: وقال بعضُ أئمتنا: ولا يجبُ على القولين أن يُختلفَ أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها؛ إذ يُلحقها ذلك بالكبائر؛ ولا في صغيرةٍ أدَّتْ إلى إزالةِ الْحِشْمَةِ، وأسقطت المروءة، وأوجبت الإزراء والخساسة؛ فهذا أيضاً مِمَّا يُعْصَمُ عنه الأنبياء إجماعاً؛ لأن مِثْلَ هذه يَحُطُّ مَنْصِبَهُ المُتَّسِم به، ويُزْرِي بصاحبه، ويُنَفِّر القلوبَ عنه؛ والأنبياءُ منزَّهون عن ذلك. بل يُلْحَق بهذا ما كان مِنْ قَبِيلِ المُبَاح؛ فأدّى إلى مِثْله؛ لخروجه بما أدَّى إليه عن اسْمِ المباحِ إلى الحَظْرِ.

وقد ذهب بعضُهم إلى عِصْمتهم من مُوَاقَعة المكروه قَصْداً.

وقد استدلَّ بعضُ الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمَصِير إلى امتثال أفعالهم، واتِّباع آثارهم وسِيَرهم مطلقاً.

وجمهورُ الفقهاءِ على ذلك من أصحاب الشافعيّ ومالكٍ وأبي حنيفة من غير التزامِ قرينةٍ، بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حُكْم ذلك.

وحكى ابنُ خُوَيْز مِنْدَاد، وأبو الفرج عن مالك، التزامَ ذلك وجوباً، وهو قولُ الأبهري وابن القَصَّار وأكثر أصحابنا.

وقولُ أكثرِ أهلِ العراقِ، وابن سُرَيجٍ، والإصْطَخْرِيّ، وابن خَيْران من الشافعية. وأكثرُ الشافعية على أنَّ ذلك نَدْبٌ.

وذهبت طائفةٌ إلى الإباحة.

وقيَّد بعضُهم الاتِّباعَ فيما كان من الأمور الدينية وعُلِمَ به مَقْصِدُ القُرْبة.

ومَنْ قال بالإباحة في أفعاله لم يُقَيِّدْ. قال: فلو جوَّزْنا عليهم الصغائرَ لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم؛ إذ ليس كلُّ فِعْلٍ من أفعاله يتميَّزُ مَقْصِدُه من القُرْبَةِ أو الإباحةِ، أو الحَظْرِ، أو المعصية. ولا يصحُّ أن يُؤْمَر المرءُ بامتثالِ أمرٍ لعلَّه معصيةٌ، لا سيَّما على مَنْ يَرَى تقديمَ الفعل على القولِ إذا تعارضَا من الأصوليّين.

ونزيدُ هذا حجَّةً بأن نقول: مَنْ جوَّز الصغائرَ ومَنْ نفاها عن نبيّنا ـ عليه السلام ـ مُجْمِعون على أنه لا يُقِرُّ على مُنْكَر مِنْ قولٍ، أو فِعْلٍ، وأنه متى رأى شيئاً، فسكت عنه ـ ﷺ ـ دَلَّ على جوازِه، فكيف يكون هذا حالُه في حقّ غيره، ثم يجوزُ وقوعه منه في نفسه؟!

وعلى هذا المَأخَذ تجبُ عصمتُهم من مُواقعةِ المكروهِ، كما قيل. وإذ الحظْرُ أو النَّدْبُ على الاقتداء بفعلِه يُنَافِي الزَّجْرَ والنَّهْيَ عن فِعْلِ المكروه.

وأيضاً قد عُلِم مِنْ دين الصحابةِ قَطْعاً الاقتداءُ بأَفعال النبيِّ ﷺ كيف توجَّهَتْ، وفي كل فَنّ كالاقتداء بأقواله.

١٥٩٢ ـ فقد نَبَذُوا خواتيمَهم حين نبذ خاتَمه [البخاري (٦٦٥١)، مسلم (٢٠٩١)].

١٥٩٣ ـ وخلعوا نِعَالَهم حين خَلَع نعله [أبو داود (٦٥٠)].

١٥٩٤ ـ واحتجاجُهم برؤية ابْنِ عُمَر إياه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس [البخاري (١٤٥)، مسلم (٢٦٦)].

واحتجَّ غَيْرُ واحدٍ منهم في غير شيء مما بابُه العبادةُ أو العادة بقوله: رأيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ يفعله.

١٥٩٥ ـ وقال: **«هَلاً خَبَرتيها أَنّي أُقَبِّلُ وأَنا صائمٌ»**.

١٥٩٦ ـ وقالت عائشة ـ محتجَّةً ـ: كنت أفعلُه أنا ورسولُ الله ﷺ [الترمذي (١٠٨)].

١٥٩٧ ـ وغضِبَ ـ عليه السلام ـ على الذي أُخْبِرَ بمثل هذه عنه؛ فقال: يُحِلُّ اللَّهُ لرسوله ما يشاء وقال: **«إني لأَخْشَاكم للَّهِ وأَعْلَمُكم بحدوده»**.

والآثارُ في هذا أعظم من أَنْ نُحيط عليها، لكنه يُعْلم مِنْ مجموعها على القَطْع اتباعُهم أفعالَه واقتداؤُهم بها، ولو جوَّزُوا عليه المخالفةَ في شيء منها لما اتَّسق هذا، ولَنُقِلَ عنهم وظهر بَحْثُهُمْ عن ذلك، ولَمَا أنكر ـ عليه السلام ـ على الآخر قولَه واعتذارَه بما ذكرناه.

وأَمَّا المُبَاحات فجائزٌ وقوعُها منهم؛ إذ ليس فيها قَدْحٌ، بل هي مَأذون فيها، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلَّطةٌ عليها، إلا أَنَّهم بما خُصُّوا به من رَفيع المنزلةِ، وشُرِحَتْ له صدورُهم من أنوار المعرفة، واصْطُفُوا به مِنْ تَعَلُّقِ الهمم بالله والدارِ الآخرة، لا يأخذونَ من المباحات إلا الضَّرُورات مما يَتَقَوَّوْنَ به على سُلوكِ طريقهم، وصلاحِ دِينهم، وضرورةِ دنياهم، وما أُخِذَ على هذه السبيل التحق بطاعةٍ، وصار قُرْبَةً، كما بَيَّنَّا منه أولَ الكتاب طَرَفاً في خصال نبيِّنا عليه السلام؛ فبان لك عظيمُ فَضْلِ اللَّهِ على نبيِّنا عليه السلام وعلى سائر أنبيائه عليهم السلامُ. بأَنْ جعل أفعالهم قُرُباتٍ وطاعاتٍ بعيدةً عن وَجْه المخالفة ورسْمِ المعصية.

فصل
فِي عِصْمَةِ الأَنْبِيَاءِ مِنَ المَعَاصِي قَبْلَ النُّبُوَّةِ

وقد اخْتُلِفَ في عِصْمَتِهم من المعاصي قبل النبوّةِ؛ فمنعها قومٌ، وجوَّزها آخرون. والصحيحُ ـ إن شاء الله ـ تنزيههُم من كل عَيْب، وعِصْمَتُهم من كلّ ما يُوجبُ الرِّيَب؛ فكيف والمسألةُ تصوُّرُها كالمُمْتَنِع؛ فإنَّ المعاصيَ والنواهِي إنما تكون بعد تقرُّر الشَّرْع.

وقد اختلف الناسُ في حال نبينا ـ عليه السلام ـ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إليه؛ هل كان متَّبِعاً لِشَرْعٍ قَبْلَه أم لا؟ فقال جماعة: لم يكن متَّبِعاً لشيء؛ وهذا قولُ الجمهور؛ فالمعاصي على هذا القول غَيرُ موجودةٍ ولا مُعْتَبَرة في حقِّه حينئذٍ؛ إذ الأحكامُ الشرعية إنما تتعلَّق بالأوامر والنواهي وتَقَرُّرِ الشريعة.

ثم اختلفت حُجَجُ القائلين بهذه المَقَالة عليها؛ فذهَبَ سيفُ السُّنَّةِ، ومُقْتَدَى فِرَقِ الأُمَّةِ، القاضي أبو بكرٍ إلى أَنَّ طريقَ العِلْم بذلك النَّقْلُ، وَموارد الخبر مِنْ طريق السمع؛ وحجَّتُه أنه لو كان ذلك لنُقِل، ولما أَمكن كَتْمُه وسَتْرُه في العادة؛ إذْ كان مِنْ مُهِمّ أَمْرِه؛ وأَوْلَى ما اهتُبِلَ به مِنْ سيرته، ولفَخَر به أَهلُ تلك الشريعة، ولاحْتَجُّوا به عليه؛ ولم يُؤْثَر شيءٌ من ذلك جملةً.

وذهبت طائفةٌ إلى امتناع ذلك عَقْلاً؛ قالوا: لأنه يَبْعُد أَنْ يكونَ متبوعاً مَنْ عُرِف تابعاً؛ وبنوا هذا على التحسين والتقبيح؛ وهي طريقةٌ غيرُ سديدةٍ؛ واستنادُ ذلك إلى النَّقْلِ ـ كما تقدمَ للقاضي أبي بكر ـ أَوْلَى وأَظْهَر.

وقالت فِرقةٌ أُخرى بالوَقْفِ في أمره عليه السلام، وتَرْكِ قَطْعِ الحُكْم عليه بشيءٍ في ذلك؛ إذ لم يُحِل أَحَدَ الوجهين منها العَقْلُ، ولا استَبانَ عندنا في أحدهما طريقُ النَّقلِ؛ وهو مَذْهبُ أبي المعالي.

وقالت فرقةٌ ثالثة: إنه كان عاملاً بِشَرْعِ مَنْ قَبْلَه؛ ثم اختلفوا: هل يتعيَّنُ ذلكَ الشرعُ أم لا؟ فوقف بعضُهم عن تَعْيِينه، وأَحْجَم، وجَسَر بعضُهم على التعيين وصمّم.

ثم اختلَفتْ هذه المعيّنة فيمن كان يتَّبعُ؛ فقيل: نوحٌ، وقيل: إبراهيم، وقيل: موسىٰ، وقيل: عيسى صلوات الله عليهم. فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة.

والأَظْهرُ فيها ما ذهبَ إليه القاضي أبو بكر، وأَبعدُها مذاهب المعيِّنين؛ إذ

لو كان شيء من ذلك لنُقِلَ كما قَدَّمنا، ولم يَخْفَ جملةً؛ ولا حجةَ لهم في أنَّ عيسىٰ آخِرَ الأنبياء، فلزمت شريعتُه مَنْ جاء بعدها؛ إذ لم يثبُتْ عمومُ دَعْوة عيسىٰ، بل الصحيحُ أنه لم يكن لنبيّ دَعوةٌ عامةٌ إلا لنبيّنا ﷺ؛ ولا حجةَ أيضاً للآخرينَ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ولا للآخرين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]، فتُحمل هذه الآية على اتِّباعهم في التَّوحيد؛ كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد سمَّىٰ اللَّهُ تعالىٰ فيهم مَنْ لم يُبْعَثْ، ولم يكُنْ له شريعةٌ تَخُصُّهُ؛ كيوسف بن يعقوب على قولِ مَنْ يقول: إنه ليس برسولٍ.

وقد سمَّى اللَّهُ تعالى جماعةً منهم في هذه الآية شرائِعُهم مختلفةٌ لا يمكنُ الْجمعُ بينها؛ فدلّ أن المرادَ ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادةِ الله تعالى.

وبَعْدَ هذا؛ فهل يلزمُ مَنْ قَال بمَنْعِ الاتِّبَاع هذا القولُ في سائر الأنبياءِ غيرِ نبيِّنا ﷺ، أو يخالفون بَينهم؟.

أمَّا مَنْ مَنَعَ الاتِّبَاعَ عقلاً فيطَّردُ أصْله في كلِّ رسولٍ بلا مِرْيَةٍ. وأمَّا مَنْ قال إلى النَّقْل فأينما تُصوِّر له وتُقرِّر اتَّبعه.

ومن قال بالوقْفِ فعلَى أَصْلِه، ومن قال بوجوب الاتِّبَاع لمَنْ قَبله يلتزمه بمَسَاقِ حُجَّتِه في كل نبيّ.

فصل
فِي حُكْمِ السَّهْوِ وَالنِّسيانِ فِي الوَظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ

هذا حكْمُ ما تَكونُ المخالفةُ فيه من الأعمالِ عن قَصْدٍ؛ وهو ما يسمَّى مَعْصِيةً، ويدخلُ تحت التكليف. وأمَّا ما يكون بغير قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ، كالسَّهْو، والنِّسيان في الوظائف الشَّرْعِيَّة، مما تَقرَّرَ الشَّرْعُ بعدم تعلُّق الخطاب به، وتَرْكِ المؤاخذة عليه؛ فأحوالُ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في ترْك المؤاخذة به، وكونه ليس بمعصية لهم مع أُممهم سواء. ثم ذلك على نوعين: ما طريقُه البلاغُ، وتقريرُ الشَّرْع، وتعلُّق الأحكام، وتعليمُ الأمةِ بالفِعْل، وأخذُهم باتِّباعِه فيه، وما هو خارجٌ عن هذا مما يختصُّ بنفسه.

أَمَّا الأوَّل: فحُكمه عِنْدَ جماعةٍ من العلماء حُكْمُ السَّهْوِ في القَوْلِ في هذا الباب، وقد ذكرنا الاتفاقَ على امتناع ذلك في حقِّ النبيِّ ﷺ، وعِصْمتِه مِنْ

جوازِه عليه قَصْداً أو سَهْواً؛ وكذلك قالوا: الأفعالُ في هذا الباب لا يجوز طروُّ المخالفة فيها لا عمْداً ولا سَهْواً؛ لأنها بمعنى القولِ مِنْ جهة التبليغ والأداء، وطروّ هذه العوارض عليها يوجِبُ التشكيك، ويسبِّبُ المطاعِنَ.

واعتَذَرُوا عن أحاديث السَّهْوِ بتوجيهاتٍ نذكرُها بعد هذا. وإلى هذا مال أبو إسحاق الإسفراييني.

وذهب الأكثرُ من الفقهاء والمتكلمين إلى أنَّ المخالفَة في الأفعال البلاغية والأحكام الشرعية ـ سَهْواً وعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ منه ـ جائزة عليه، كما تقرَّرَ من أحاديث السَّهْوِ في الصلاةِ؛ وفرَّقُوا بين ذلك وبين الأقوال البلاغية لِقيَامِ المعجزةِ على الصِّدْقِ في القَوْلِ، ومخالفَةُ ذلك يناقِضُها.

وأما السَّهْوُ في الأفعال فَغَيْرُ مُنَاقِضٍ لها، ولا قادحٍ في النبوة، بل غلطاتُ الفِعْل وغفلاتُ القَلْب من سِمَات البشر.

١٥٩٨ ـ كما قال ـ عليه السلام ـ: **«إنما أنا بَشَرٌ، أَنسى كما تَنسَوْنَ، فإذا نسيتُ فذكِّروني»** [البخاري (٤٠١)، مسلم (٥٧٢)].

١٥٩٩ ـ نعم، بل حالةُ النسيان والسَّهو ـ هنا ـ في حقِّه عليه السلام سببُ إفادةِ عِلْمٍ، وتقريرِ شَرْعٍ، كما قال عليه السلام: **«إني لأَنسَى ـ أو أُنَسَّى ـ لأَسُنَّ»**.

١٦٠٠ ـ بل قد رُوِيَ: **«لستُ أَنسى، ولكن أُنَسَّى لأَسُنَّ»**.

وهذه الحالةُ زِيادةٌ له في التبليغ، وتمامٌ عليه في النعمةِ، بعيدةٌ عن سِمَاتِ النَّقْصِ، واعتراضِ الطَّعْنِ؛ فإن القائلين بتجويز ذلك يشترطون أن الرُّسُلَ لا تُقَرُّ عَلَى السَّهْوِ والغَلط؛ بل ينبَّهُون عليه، ويُعَرِّفون حُكْمه بالفَوْرِ ـ على قولِ بعضهم ـ وهو الصحيح وقَبْلَ انقراضِهم على قَوْلِ الآخرين.

وأَمَّا ما ليس طريقُه البلاغَ، ولا بيانَ الأحكام من أفعاله عليه السلام، وما يختصُّ به من أُمور دِينه، وأذكار قَلْبِه، مما لَمْ يَفْعلْه ليُتَّبع فيه، فالأكثَرُ من طبقاتِ علماء الأمةِ على جواز السَّهْوِ والغَلَط عليه فيها، ولحوقِ الفَتَراتِ، والغَفَلاتِ بقَلْبِه؛ وذلك بِما كُلِّفَه من مقاساةِ الخَلْقِ، وسياسات الأمةِ، ومعاناةِ الأهل، وملاحظةِ الأعداء؛ ولكن ليس على سبيل التكرار، ولا الاتصال؛ بل على سبيل النُّدُور.

١٦٠١ ـ كما قال عليه السلام: **«إنه ليُغَانُ على قلبي، فأستَغفِرُ اللّهَ»**.

وليس في هذا شيء يَحُطُّ من رُتْبَتِه ويُنَاقِضُ معجزَته.

وذهبت طائفة إلى مَنْعِ السَّهْوِ، والنِّسيان، والغَفَلات، والفَتَرات في حقه ـ عليه السلام ـ جملةً.

وهو مذهبُ جماعة المتصوِّفة وأصحاب عِلْمِ القلوب والمقامات، ولهم في هذه الأحاديث مذاهبُ نذكرها ـ إن شاء الله ـ بَعْدُ.

فصل

فِي الكَلامِ عَلى الأَحَادِيثِ المَذْكُورِ فِيهَا السَّهْوُ منه عَلَيهِ السَّلامُ

قد قدَّمْنَا في الفصول قبل هذا ما يجوزُ فيه عليه السهْوُ ـ عليه السلام ـ وما يمتَنِعُ، وأَحَلْنَاهُ في الأَخبارِ جملةً، وفي الأقوال الدينية قَطْعاً، وأَجَزْنَا وقوعَه في الأفعالِ الدينية عَلىٰ الوَجْهِ الذي رتَّبْنَاهُ، وأشرنا إلى ما ورد في ذلك؛ ونحن نَبْسُط القولَ فيه ها هنا ـ إن شاء الله ـ ونقول: الصحيح من الأحاديث الواردة في سَهْوِهِ ـ عليه السلام ـ في الصلاة ثلاثةُ أحاديث:

١٦٠٢ ـ أوَّلها: حديث ذي اليَدَيْنِ في السلام من اثنتين.

١٦٠٣ ـ الثاني: حديث ابن بُحَيْنَةَ في القيام من اثنتين [البخاري (٨٢٩)، مسلم (٥٧٠)].

١٦٠٤ ـ الثالث: حديث ابن مسعود رضِيَ الله عنه: أَنَّ النبيّ ﷺ صلَّىٰ الظُّهْرَ خمساً [البخاري (١٢٢٦)، مسلم (٩١/٥٧٢)].

وهذه الأحاديثُ مبنيَّةٌ على السَّهْوِ في الفِعْلِ الذي قرَّرْنَاهُ، وحكمةُ اللّهِ فيه لِيُسْتَنَّ به، إذ البَلاغُ بالفعل أَجْلَىٰ منه بالقولِ، وأَرْفَعُ للاحتمال؛ وشرطه أنه لا يُقَرّ عَلَىٰ السَّهوِ؛ بل يُشْعَر به ليرتَفِعَ الالْتِباسُ، وتظهرَ فائدةُ الحكمةِ فيه كما قدمناه؛ وإن النسيانَ والسَّهْوَ في الفِعْلِ فِي حقِّه ـ عليه السلام ـ غير مُضَادّ للمعجزةِ، ولا قادحٍ في التصديق.

١٦٠٥ ـ وقد قال عليه السلام: **«إنما أَنَا بَشَرٌ مثلكم أَنْسَىٰ كما تَنْسَوْنَ؛ فإذا نسيتُ فذكِّروني»**.

١٦٠٦ ـ وقال ﷺ: **«رحِمَ اللّهُ فلاناً؛ لقد أَذْكَرَنِي كذا وكذا آيةً، كنتُ أَسْقَطْتُهُنَّ»** [البخاري (٥٠٣٨)، مسلم (٧٨٨)]، ويُرْوَىٰ: **«أُنْسِيتُهُنَّ»**.

١٦٠٧ ـ وقال عليه السلام: **«إنِّي لأَنْسَىٰ ـ أو أُنَسَّىٰ ـ لأَسُنَّ»**.

١٦٠٨ ـ قيل: هذا اللفظُ شَكٌّ من الراوي. وقد روى: **«إني لا أَنسَىٰ، ولكن أُنَسَّىٰ لأَسُنَّ»**.

وذهب ابن نافع، وعيسىٰ بن دينار أنه ليس بشك؛ وأَنَّ معناه التقسيم؛ أي أَنسَىٰ أنا، أو يُنَسِّينِي الله.

قال القاضي أبو الوليد الباجي: يَحْتَمِلُ ما قالاهُ، أَنْ يُرِيدَ إِنِّي أَنْسَىٰ في اليَقَظَةِ، وأُنسَّىٰ في النوم، أو أَنْسَىٰ عَلَى سبيل عادةِ البَشَرِ من الذُّهُولِ عن الشيءِ والسَّهْوِ؛ أو أُنَسَّىٰ مع إقبالي عليه وتفرُّغي له؛ فأَضاف أَحَدَ النِّسْيانَيْن إلىٰ نفسه؛ إذ كان له بعضُ السبب فيه، ونفىٰ الآخرَ عن نفسه؛ إذ هو فيه كالمضطرّ.

وذهبت طائفةٌ من أصحاب المعاني والكلام عَلى الحديث إلىٰ أَنَّ النبي ﷺ كان يسهو في الصلاة ولا يَنسَىٰ؛ لأَنَّ النسيان ذُهُولٌ وغَفْلَةٌ وآفةٌ؛ قال: والنبيُّ ﷺ مُنَزَّهٌ عنها؛ والسَّهْوُ شُغْلٌ؛ فكان النبي ـ عليه السلام ـ يَسْهُو في صلاته، وَيشغله عن حركات الصلاةِ ما في الصلاة، شُغْلاً بها، لا غَفْلَةً عنها.

واحتجَّ بقوله في الرواية الأخرى: «**إني لا أَنسىٰ**».

وذَهَبَتْ طائفةٌ إلى مَنْعِ هذا كلِّه عنه، وقالوا: إِنَّ سَهْوَه عليه السلام كان قصداً وَعَمْداً لِيَسُنَّ.

وهذا قولٌ مرغوبٌ عنه، مُتناقِضُ المقاصدِ، ولا يُحْلَىٰ منه بطائل؛ لأنه كيف يكون متعمِّداً ساهياً في حال؟! ولا حجَّةَ لهم في قولهم: إنّه أُمِرَ بتَعَمُّدِ صورةِ النسيان لِيَسُنَّ؛ لقوله عليه السلام: «**إِنِّي لأَنْسَىٰ أو أُنسَّىٰ لأَسُنَّ**». وقد أثبتَ أَحَد الوَصْفَيْنِ، ونَفَىٰ مُناقضَةَ التعمُّدِ والقَصْد.

١٦٠٩ ـ وقال: «**إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم أَنْسَى كما تَنْسَوْنَ، فإذا نسيت فذكّروني**».

وقد مَالَ إلى هذا عظيمٌ من المحقِّقين من أئمتِنا، وهو أبو المظفَّر الإسْفَرايِيني، ولم يَرْتَضِه غَيْرُه منهم، ولا أرتضيه، ولا حجَّةَ لهاتَيْن الطائفتين في قوله: «**إني لا أَنسَىٰ ولكن أُنسَّىٰ**» إذ ليس فيه نَفْيُ حُكْمِ النسيان بالجملة، وإنما فيه نَفْيُ لَفْظِه وكراهَةُ لَقَبِه.

١٦١٠ ـ كقوله: «**بئسَ ما لأَحدكم أن يقولَ: نسيتُ آيةَ كذا، ولكنّه نُسِّيَ**» أو نَفْيُ الغَفْلةِ وقلةِ الاهتمامِ بأمرِ الصلاةِ عن قَلْبِهِ، لكِنْ شُغِلَ بها عنها، ونَسِيَ بعضها ببعضها.

١٦١١ ـ كَما ترك الصلاةَ يوم الخَندق حتى خرج وقْتُها [البخاري (٢٩٣١)، مسلم (٦٢٧)]، وشُغِل بالتحرُّزِ من العدوّ عنها؛ فشُغِل بطاعةٍ عن طاعةٍ.

١٦١٢ ـ وقيل: إنَّ الذي تُرِكَ يوم الخَندقِ أربعُ صلواتٍ: الظهر، والعَصْر،

والمغرب، والعشاء، وبه احتجَّ مَنْ ذَهب إلى جَوَازِ تَأخير الصلاةِ في الحرب، إذا لم يتمكّن من أدائها إلى وَقْتِ الأَمْنِ، وهو مذهبُ الشاميِّين.

والصحيحُ أَنَّ حُكْمَ صلاةِ الخوفِ كان بَعْدَ هذا، فهو ناسخ له.

١٦١٣ - فإنْ قلْتَ: فما تقولُ في نَوْمِهِ ﷺ عن الصلاة يوم الوادي.

١٦١٤ - وقد قال: «إن عينيَّ تنامان ولا ينام قَلْبِي؟».

فاعلم أَنَّ للعلماء عن ذلك أَجوبةً.

منها: أَنَّ المرادَ بأَنَّ هذا حُكْمُ قَلْبه عند نومه وعينيه في غالب الأوقات، وقد يَنْدُرُ منه غَيْرُ ذلك، كما يَنْدُرُ من غيره خلافُ عادتِه.

١٦١٥ - ويُصَحِّحُ هذا التأويل قولُه - عليه السلام - في الحديث نَفْسه: «إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَنا».

١٦١٦ - وقولُ بلالٍ فيه: ما أُلقِيَتْ عليّ نومةٌ مِثْلُها قط [البخاري (٥٩٥)]. ولكن مِثْلُ هذا إنما يكونُ منه لأَمْرٍ يريدُه الله مِنْ إثبات حُكمٍ، وتأسيس سُنَّةٍ، وإظهار شَرْعٍ.

١٦١٧ - وكما قال في الحديث الآخر: «لو شاءَ اللَّهُ لأيقَظَنا، ولكِنْ أَراد أن يكونَ لِمَنْ بعدكم».

الثاني: أَنَّ قَلْبَه لا يستَغْرِقُه النومُ حتى يكون منه الحدَثُ فيه.

١٦١٨ - لما رُوِيَ أنه كان محروساً.

وأنه كان ينام حَتىٰ يَنْفُخَ، وحتىٰ يُسْمَعَ غَطِيطُه ثم يقوم فَيُصَلِّي ولا يتوضَّأ [البخاري (١١٧)، مسلم (٧٦٣)].

١٦١٩ - وحديث ابن عباس المذكور فيه وضوءُه عند قيامِه من النوم [البخاري (٦٣١٦)، مسلم (١٨٢/٧٦٣)]، فيه نومُه مع أَهْلِه؛ فلا يمكن الاحتجاجُ به على وضوئه - عليه السلام - بِمُجَرَّدِ النَّوم، إذ لعلَّ ذلك لِمُلاَمَسَةِ الأهلِ أو لِحَدَثٍ آخر، فكيف وفي آخرِ الحديث نَفْسِهِ: ثم نام حتى سمعتُ غَطِيطَه، ثم أقيمت الصلاةُ فصلَّىٰ ولم يتوضَّأ؟

١٦٢٠ - وقيل: لا ينامُ قَلْبُهُ مِنْ أَجْلِ أنه يُوْحَىٰ إليه في النَّوم، وليس في قصةِ الوادي إلاَّ نومُ عَيْنَيْهِ عن رؤية الشمس، وليس هذا من فِعْل القَلْبِ، وقد قال - عليه السلام -: «إِنَّ اللَّهَ قبضَ أرواحَنا ولو شاء لردّها إلينا في حينٍ غير هذا».

١٦٢١ - فإن قيل: فلولا عادتُه من استِغْراقِ النومِ لما قال لِبلاَلٍ: «اكْلأْ لنا الصُّبْحَ» [مسلم (٦٨٠)].

١٦٢٢ ـ فقيل في الجواب: إنه كان مِنْ شَأْنِهِ ـ عليه السلام ـ التَّغْلِيس بالصُّبْحِ؛ ومراعاةُ أولِ الفَجْرِ لا يصحُّ ممَّنْ نامَتْ عينُه؛ إذ هو ظاهرٌ يُدْرَك بالجوارح الظاهرة، فوكَّلَ بلالاً بمراعاةِ أوَّلِه لِيُعْلِمَه بذلك، كما لو شُغِل بشغل غير النوم عن مُراعاته.

١٦٢٣ ـ فإنْ قيل: فما معنى نَهْيِه ـ عليه السلام ـ عن القول: «**نسيت**».

١٦٢٤ ـ وقد قال عليه السلام: «**إِنِّي أَنْسَىٰ كما تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نسيت فذكروني**».

١٦٢٥ ـ وقال: «**لقد أذكرني كذا وكذا آية كُنْتُ أُنسِيتُها**».

فاعْلَم ـ أكرمكَ اللَّهُ ـ أنه لا تَعارُضَ في هذه الألفاظ؛ أمَّا نهيُه عن أنْ يُقال: «**نسيتُ آيةَ كذا**» فمحمول على ما نُسِخَ فعله من القرآن، أي: إنَّ الغَفْلَة في هذا لم تَكُنْ منه، ولكن الله تعالى اضطرَّه إليها لِيَمْحُوَ ما يشاءُ وَيُثْبِتَ، وما كان مِنْ سَهْوٍ، أو غَفْلةٍ مِنْ قِبَلِهِ تذكَّرَها صَلُحَ أَنْ يُقَال فيه: أَنْسَىٰ.

وقد قيل: إنَّ هذا مِنْهُ ـ ﷺ ـ على طريقِ الاستحبابِ في أَنَّهُ يُضِيفُ الفِعْلَ إلى خالقه، والآخرَ عَلَىٰ طريقِ الجوازِ لاكْتِسَابِ العَبْدِ فيه، وإسْقَاطِهِ ـ عليه السلام ـ لما أسقط من هذه الآيات جائزٌ عليه بعد بلاغ ما أُمِرَ ببلاغه، وتوصيله إلى عِبَادِ الله، ثم يستذكرُها مِنْ أُمَّتِهِ، أوْ مِنْ قِبَلَ نَفْسِه، إلاَّ ما قضىٰ اللَّهُ ـ عز وجل ـ نَسْخَه ومَحْوَه من القلوب وتَرْكَ اسْتِذْكَارِهِ.

وقد يجوزُ أَنْ يَنْسَىٰ النبيُّ ـ ﷺ ـ ما هذا سبيلُه كَرَّةً؛ ويجوز أَنْ يُنَسَّيه منهُ قبلَ البلاغ ما لا يغيِّرُ نَظْماً، ولا يخلِّطُ حُكْماً، مما لا يُدْخِلُ خَلَلاً في الْخَبَر، ثم يُذَكِّرُهُ إيَّاه، ويستحيل دَوامُ نسيانِه لَهُ؛ لحِفظِ اللَّهِ كتابَهُ، وتكليفه بلاغَهُ.

فصل
فِي الرَّدِّ عَلىٰ مَنْ أَجازَ عَلَيهِمُ الصَّغَائِرَ والكلامِ عَلَى ما احتَجُّوا بِهِ فِي ذلِكَ

اعْلَمْ أَنَّ المجوِّزِينَ الصغائرَ عَلَى الأَنبياء من الفقهاء والمحدِّثين وَمَنْ شايَعَهم عَلَىٰ ذلك من المتكلِّمينَ احتجُّوا عَلَىٰ ذلك بظواهِرَ كثيرةٍ من القرآن والحديث، إن التزموا ظواهِرَها أَفْضَتْ بهم إلى تجويز الكبائر وخَرْقِ الإجماع، وما لا يقولُ به مسلمٌ، فكيف وكلُّ ما احتجوا به مما اختلف المفسِّرون في معناه، وتقابلت الاحتمالاتُ في مُقْتَضَاهُ، وجاءت أقاوِيلُ فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك؟

فإذا لم يكن مذهبُهم إجماعاً، وكان الخلافُ فيما احتجُوا به من ذلك قديماً، وقامت الحجة والدلالةُ على خطأ قولِهم، وصحة غيرِه، وجب تَرْكُه، والمصيرُ إلى ما صَحَّ.

وها نحن نأخذُ في النظرِ فيها إنْ شاء اللَّهُ:

فمن ذلك قولُه تعالى لِنَبِيِّنا محمد ﷺ:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية[محمد: ١٩].

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وقولُه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ...﴾ الآية [التوبة: ٤٣].

وقولُه: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝﴾ الآية [عبس: ١، ٢].

وما قصَّ عليه من قَصَصِ غيره من الأنبياء؛ كقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

وقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وقوله ـ عنه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقوله ـ عن يونس: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧].

وما ذكر من قصتِه وقصةِ داود؛ وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].

وقوله ـ عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية [يوسف: ٢٤] وما قَصَّ من قصَّتِه مع إخوته.

وقوله ـ عن موسى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥].

١٦٢٦ ـ وقول النبيّ ـ ﷺ ـ في دعائه: **«اللَّهُمَّ! اغفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ»** [مسلم (٧٧١)] ونحوه من أدعيته. عليه السلام.

١٦٢٧ ـ وذِكْر الأنبياءِ في الموقفِ ذُنُوبَهم، في حديث الشفاعةِ.

١٦٢٨ ـ وقوله: **«إنه ليُغَانُ على قلبي فأَستغفِرُ اللَّه»**.

١٦٢٩ ـ وفي حديث أبي هُريرة: «إني لأستغفِرُ اللَّهَ، وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرةً».

وقوله تعالى ـ عن نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقد كان الله ـ عز وجل ـ قال له: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وقال ـ عن إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ الآية [الشعراء: ٨٢].

وقوله ـ عن موسى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ...﴾ الآيات [ص: ٣٤] إلى ما أشبه هذه الظواهر.

قال القاضي رحمه الله:

فأمّا احتجاجُهم بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فهذا قد اختلفَ فيه المفسِّرون؛ فقيل: المرادُ ما كان قبل النبوة وبَعْدها.

وقيل: المراد ما وقع لكَ مِنْ ذَنْبٍ وما لم يَقَعْ. أَعلمَهُ أنه مغفورٌ له.

وقيل: المتقدم ما كان قَبْلَ النبوّةِ، والمتأَخرُ: عِصْمَتُك بَعْدها، حكاه أحمد بن نصر.

وقيل: المراد بذلك أمته عليه السلام.

وقيل: المرادُ ما كان عن سَهْوٍ وغَفْلَةٍ، وتأويل. حكاه الطبري رحمه الله، واختاره القُشَيْري.

وقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ لأبيك آدم، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ من ذنوبِ أُمّتك؛ حكاه السَّمَرْقَنْدِيُّ والسُّلَميّ عن ابن عطاء.

وبِمثْلِه والذي قبلهُ يُتَأَوَّلُ قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] قال مكيٌّ: مخاطبةُ النبيِّ ﷺ ـ ها هنا ـ هي مخاطبةٌ لأُمته.

وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ ـ لمَّا أُمِر أنْ يقولَ: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] ـ سُرَّ بذلك الكفَّارُ لعنهم الله؛ فأنزل الله تعالى عليه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية [الفتح: ٢] وبمآل المؤمنين في الآية الأخرى بعدها؛ قاله ابن عباس؛ فمقصِدُ الآية: إنك مغفور لكَ، غَيْرُ مُؤاخَذٍ بِذَنْبٍ تُذْنب أَنْ لو كان. قال بعضُهم: المغفرةُ ها هنا: تَبرئةٌ من العيوب.

وأما قولُه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: ٢، ٣]؛

فقيل: ما سلف مِنْ ذَنْبِكَ قبل النبوة؛ وهو قولُ ابنِ زَيْدٍ، والحسن، ومعنى قولِ قتادة.

وقيل: معناه أنه حُفِظَ قَبْلَ نبوّته منها، وعُصِمَ؛ ولولا ذلك لأثقلت ظَهْره؛ حكى معناه السمرقندي.

وقيل: المرادُ بذلك ما أَثْقلَ ظَهْرَهُ مِنْ أَعْباءِ الرسالةِ حتى بلّغها؛ حكاه الماوَرْدِيُّ، والسُّلَميُّ.

وقيل: حَطَطْنَا عَنكَ ثِقلَ أيّام الجاهليةِ؛ حكاه مكيّ.

وقيلَ: ثِقَل شَغْلِ سِرِّكَ وحَيْرَتِكَ وطلبِ شَريعتك حتى شَرَعْنا ذلك لَكَ، حكى معناه القُشَيْري.

وقيل معناه: خَفَّفْنَا عليكَ ما حمّلْتَ بحِفْظِنا لما استُحفِظْتَ، وحُفِظَ عليك.

ومعنى ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: كاد ينقُضه؛ فيكون المعنى على مَنْ جعل ذلكَ لما قبل النبوة اهتمامَ النبيِّ - ﷺ - بأُمورٍ فَعَلها قبل نُبوَّتِه، وحُرِّمَتْ عليه بعد النبوّة؛ فعدّها أوزاراً، وثقلت عليه، وأشْفَق منها.

أو يكون الوضْعُ عِصْمةَ اللَّهِ له وكفايتَه من ذنوبٍ لو كانت لأنْقَضَتْ ظَهْرَهُ.

أو يكون مِنْ ثقل الرسالة؛ أو ما ثَقُلَ عليه وشغل قَلْبَه من أُمور الجاهلية، وإعلامِ اللَّهِ تعالى له بحفْظِ ما استحفظه مِنْ وَحْيه.

وأما قَوْلُه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] فأَمْرٌ لم يتقدَّم للنبيِّ ﷺ فيه من اللَّهِ - تعالى - نَهْيٌ فيُعَدَّ معصية، ولا عدَّه اللَّهُ تعالى عليه معصيةً؛ بل لم يعدّهُ أهلُ العلمِ مُعاتبةً، وغَلَّطوا مَنْ ذهب إلى ذلك؛ قال نِفْطَوَيْهِ: وقد حاشاهُ الله تعالى من ذلكَ؛ بل كان مُخَيَّراً في أَمْرَيْنِ؛ قالوا: وقد كان له أنْ يَفْعَل ما شاء فيما لم يُنَزَّلْ عليه فيه وَحْيٌ، فكيف وقد قال الله تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]. فلمَّا أَذِنَ لهم أَعْلَمَهُ اللَّهُ بما لم يطَّلِعْ عليه مِنْ سِرِّهِمْ أنه لو لم يأْذَنْ لهم لقعدوا، وأنه لا حرجَ غليه فيما فَعلَ، وليس ﴿عَفَا﴾ - هنا - بمعنى غَفَرَ.

١٦٣٠ - بل كما قال النبيُّ ﷺ: **«عفا الله لكم عن صَدقَةِ الخيل والرقيق»** [الترمذي (٦٢٠)، أبو داود (١٥٧٤)، النسائي (٣٧/٥)، ابن ماجه (١٧٩٠)]. ولم تَجِبْ عليهم قطُّ؛ أي لم يُلْزِمكم ذلك.

ونحوهُ للقُشَيْرِيّ؛ قال: وإنما يقولُ: العَفو لا يكونُ إلاَّ عَنْ ذَنْبٍ مَنْ لم يَعْرِفْ كلامَ العرب؛ قال: ومعنى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي: لم يُلْزِمْكَ ذَنْباً.

قال الدَّاوُدِيُّ: رُوِيَ أنها تكرمة من الله عز وجل.

وقال مكيٌّ: هو استفتاحُ كلامٍ؛ مثل: أعزَّكَ اللَّهُ! وأكرمكَ الله!

وحكى السمرقندي أنَّ معناهُ: عافاك الله.

وأما قولُه في أُسارى بَدْرٍ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]. فليس فيه أيضاً إلزامُ ذَنْبٍ للنبيِّ ﷺ؛ بل فيه بَيَانُ ما خُصَّ به وفُضِّل مِنْ بين سائر الأنبياء؛ فكأنه قال: ما كَان هذا لنبيٍّ غَيْرِك.

١٦٣١ ـ كما قال ﷺ: **«أُحِلَّتْ لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لنبيٍّ قَبْلي»**.

فإنْ قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

قيل: الْمَعْنِي بالخطاب لِمَنْ أَرَادَ ذلكَ منهم، وتجرَّد غَرَضُه لِعَرَضِ الدنيا وَحْدَه فيها، والاستِكْثَارِ منها؛ وليس المراد بهذا النبيَّ ﷺ، ولا عِلْيَةَ أصحابِهِ؛ بل قد رُوِيَ عن الضحّاك أنها نزلَتْ حين انهزم المشركون يَوْمَ بَدْرٍ، واشتغل الناسُ بالسَّلَبِ وجَمع الغنائم عن القِتَال؛ حتى خَشِيَ عُمر أَنْ يَعْطِفَ عليهم العدوُّ.

ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٨]؛ فاختلف المفسِّرون في معنى الآية؛ فقيل: معناها: لولا أنه سبق مني أَنْ لا أُعذِّبَ أَحداً إلا بعد النَّهْيِ لعذَّبتُكم.

فهذا يَنْفِي أَنْ يكونَ أَمْرُ الأَسْرَى معصيةً.

وقيل: المعنى: لولا إيمانُكم بالقرآنِ ـ وهو الكتابُ السابقُ ـ فاستوجَبْتُم به الصَّفْحَ لعُوقِبْتُم على الغنائم.

ويُزَادُ هذا القولُ تفسيراً وبياناً بأَنْ يُقَال: لولا ما كنتُم مؤمنين بالقرآنِ، وكنتُم مِمَّنْ أُحِلَّت لهم الغنائمُ لعُوقِبْتُم، كما عُوقِبَ مَنْ تَعَدَّى.

وقيل: لولا أنه سبق في اللَّوْحِ المحفوظ أَنَّها حلالٌ لكم لعُوقبتم.

فهذا كلُّه يَنْفِي الذَّنْبَ والمعصية؛ لأَنَّ مَنْ فَعَلَ ما أُحِلَّ له يَعْصِ؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

١٦٣٢ ـ وقيل: بل كان ـ عليه السلام ـ قد خُيِّرَ في ذلك؛ وقد رُوِي عن علي بن أبي طالب ـ رضِيَ الله عنه ـ أنه قال: جاء جبريلُ ـ عليه السلام ـ إلى النبيّ ـ ﷺ ـ يوم بَدرٍ، فقال: خَيِّرْ أصحابَكَ في الأُسارىٰ، إن شاؤُوا القَتْلَ، وإنْ شاؤُوا الفداءَ، على أن يُقتَل منهم في العام المُقْبِل مِثْلُهم.

فقالوا: الفداء ويُقْتَل مِنَّا [الترمذي (١٥٦٧)].

وهذا دليل على صحة ما قُلْناه، وأنهم لم يفعلوا إلاَّ ما أُذِنَ لهم فيه؛ ولكن بعضَهم مالَ إلى أضعف الوَجْهين مما كان الأَصْلَحُ غيْرَه من الإثْخانِ والقَتْلِ؛ فعُوتِبُوا على ذلك، وبُيِّن لهم ضَعْفُ اختيارهم وتصويبُ اختيارِ غَيْرِهم؛ وكلُّهم غَيْرُ عُصَاةٍ ولا مُذْنبين؛ وإلى نحو هذا أشار الطبريُّ.

١٦٣٣ ـ وقولُه ـ عليه السلام ـ في هذه القضيَّة: **«لو نزل مِن السماء عَذابٌ ما نجا منه إلا عُمرُ»** إشارةٌ إلى هذا من تصويب رَأيه، ورأْيِ مَنْ أخذ بمَأْخَذِه، في إعزازِ الدِّين، وإظهار كلمته، وإبادَةِ عَدُوِّه، وأَنَّ هذه القضيَّةَ لو استوجبَتْ عذاباً نجا منه عمر ومِثْلُه، وعَيَّنَ عُمَرَ لأنه أولُ من أشار بقَتْلهم؛ ولكنّ الله لم يقَدِّرْ عليهم في ذلك عذاباً لِحِلِّه لهم فيما سبق.

وقال الداوديُّ: الخَبَرُ بهذا لا يثبت، ولو ثبتَ لما جاز أَنْ يُظَنَّ أَنَّ النبيَّ ﷺ حكَمَ بما لا نَصَّ فيه، ولا دليل مِنْ نَصٍّ، ولا جُعِل الأَمْرُ إليه فيه؛ وقد نزَّهَهُ اللَّهُ تعالى عن ذلك.

وقال القاضي بَكْرُ بن العلاء: أَخبر اللَّهُ تعالى نبيَّه ـ عليه السلام ـ في هذه الآية أنّ تأويلَه وافق ما كتبه له من إحلالِ الغنائم والفِداء؛ وقد كان قَبْل هذا فادَوْا في سَرِيَّةِ عبداللَّه بن جَحْشٍ التي قُتِلَ فيها ابنُ الحَضْرميّ بالحَكَم بن كَيْسان وصاحِبه، فما عتَبَ اللَّهُ ذلك عليهم؛ وذلك قَبْلَ بَدْر بأكثر من عام.

فهذا كلُّه يَدُلُّ على أَنَّ فِعْلَ النبيِّ ﷺ في شَأنِ الأَسْرَى كَان على تأويلٍ وبَصِيرةٍ، وعلى ما تقدَّم قَبْلُ مثلُه؛ فلم ينكِره اللَّهُ تعالى عليهم، لكنِ اللَّهُ تعالى أرادَ ـ لِعظَم أَمرِ بَدْرٍ وكَثْرَةِ أسراها ـ والله أعلم ـ إظهارَ نعمتِه، وتَأكيدَ مِنَّتِه، بتعريفهم ما كتبه في اللَّوْحِ المحفوظ مِنْ حِلِّ ذلك لهم، لا على وَجْهِ عِتابٍ وإنكارٍ أو تَذْنيبٍ. هذا معنى كلامه.

وأما قولُه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١، ٢].

فليس فيه إثباتُ ذَنْبٍ له عليه السلام، بل إعلامُ الله ـ عز وجل ـ أَنَّ ذلك

المُتَصَدِّي له ممَّنْ لا يتزكَّى، وأنَّ الصَّوابَ والأَوْلَى كان ـ لو كُشِفَ لكَ حالُ الرَّجُلَين ـ الإقبالُ على الأعمى.

وفِعْلُ النبيِّ ـ ﷺ ـ لِمَا فَعَل، وتَصَدِّيه لذلك الكافر، كان طاعةً للَّهِ وتبليغاً عنه واستئلافاً له، كما شرعه اللَّهُ له، لا معصية، ولا مخالفةً له.

وما قصَّه اللَّهُ له ـ عليه السلام ـ مِنْ ذلك إعلامٌ بحال الرَّجُلين وتوهين أَمْرِ الكافر عنده والإشارة إلى الإعراضِ عنه، بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عبس: ٧].

وقيل: أراد بـ «عبس»، و «تَوَلَّى» ـ الكافر الذي كان مع النبيِّ ﷺ؛ قاله أبو تمَّام.

وأمَّا قصةُ آدمَ عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] بعد قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وتصريحه ـ تعالى ـ عليه بالمعصية بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] أي جهل.

وقيل أَخطأ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى قد أخبر بعُذْرِه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه: ١١٥]؛ قال ابنُ زيد: نَسِيَ عداوةَ إبليس له، وما عَهِدَ اللَّهُ إليه من ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ . . .﴾ الآية [طه: ١١٧].

وقيلَ: نسي ذلك بما أظهر لهما إبليس من الشفقة، والميل إليهما، والنُّصْحِ لهما.

وقال ابن عباسٍ: إنَّما سُمِّيَ الإنسانُ إنساناً لأنه عُهِدَ إليه فنَسِيَ.

وقيل: لم يَقْصِد المخالفةَ استحلالاً لها، ولكنهما اغترَّا بِحَلِفِ إبليس لهما: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ وتوهما أَنَّ أحداً لا يحلفُ بالله حانثاً.

وقد رُوِيَ عُذْرُ آدمَ عن ذلك بمثْلِ هذا في بَعْضِ الآثارِ.

وقال ابْنُ جُبَيْر: حلف باللَّهِ لهما حتى غرَّهما؛ والمُؤْمِنُ يُخْدَعُ.

وقد قيل: نَسِيَ، ولم يَنْوِ المخالَفة؛ فلذلك قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أي قَصْداً للمخالفة.

وأكثرُ المفسرين على أَنَّ العَزْمَ ـ ها هنا ـ الحَزْمُ والصَّبْرُ.

وقيل: كان عند أَكْله سكرانَ؛ وهذا فيه ضَعْفٌ؛ لأن اللَّهَ ـ عز وجل ـ وصف خَمْرَ الجنَّةِ أنها لا تُسْكر؛ فإذا كان ناسياً لم تكن معصية؛ وكذلك إن كان مُلَبَّساً عليه غالطاً؛ إذ الاتفاقُ على خروج النَاسِي والسَّاهِي عن حُكم التكليف.

وقال الشيخ أبو بكر بن فُورَك وغيره: إنه يمكنُ أَنْ يكونَ ذلك قبل النبوَّةِ؛ ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فذكر أَنَّ الاجتباءَ والهدايةَ كانا بعد العِصْيَانِ.

وقيل: بل أكلها متأوِّلاً، وهو لا يَعْلَمُ أَنَّها الشجرةُ التي نُهِيَ عنها؛ لأَنَّه تأَوَّلَ نَهْيَ اللَّهِ عن شجرةٍ مخصوصةٍ لا على الجِنْس؛ ولهذا قيل: إنما كانت التوبةُ مِن تَرْك التحفُّظ، لا مِنَ المخالفة.

وقيل: تأَوَّلَ أَنَّ اللَّهَ لم يَنْهَهُ عنها نَهْيَ تَحْرِيم.

فإنْ قِيل: فعلى كُلِّ حالٍ فقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؛ وقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

١٦٣٤ ـ وقوله في حديث الشفاعة ـ ويذكرُ ذَنْبَه ـ: «**وإني نُهيتُ عن أكلِ الشجرةِ فعصيتُ**» فسيأتي الجوابُ عنه وعن أشباهه مُجملاً آخِرَ هذا الفَصْلِ إنْ شاءَ الله تعالى.

وأمَّا قِصَّةُ يونس فقد مضىٰ الكلامُ على بعضها آنفاً؛ وليس في قصة يونس نَصٌّ على ذَنْبٍ؛ وإنما فيه: ﴿أَبَقَ﴾ [الصافات: ١٤٠] و ﴿ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد تكلمنا عليه.

وقيل: إنما نقِم اللَّهُ عليه خروجَه عن قومه فارًّا من نزول العذاب.

وقيل: بل لمَّا وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال: واللَّهِ لا أَلقاهم بوجْه كذَّابٍ أبداً.

وقيل: بل كانوا يقتُلون مَنْ كذَب فخاف ذَلِكَ.

وقيل: ضَعُفَ عن حَمْلِ أعباءِ الرسالةِ. وقد تَقَدَّمَ الكلامُ أنه لم يَكْذِبْهم.

وهذا كلُّه ليس فيه نصٌّ على معصية إلاَّ على قولٍ مرغوب عنه.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٤٠] قال المفسرون: تباعَدَ.

وأما قوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ فالظُّلْمُ وَضْعُ الشيء في غيرِ موضعه؛ وهذا اعترافٌ منه عند بعضهم بذَنْبِه؛ فإمَّا أَنْ يكونَ لخروجه عن قَوْمِه بغير إذْنِ ربِّه، أو لضَعْفِه عمَّا حُمِّلَه، أو لدعائه بالعذابِ على قَوْمِه، وقد دعا نوحٌ بهلاكِ قومه فلم يؤاخَذْ.

وقال الواسطي في معناه: نَزَّه رَبَّه عن الظلم، وأضافَ الظُّلْمَ إلىٰ نفسه اعترافاً واستحقاقاً. وقيل: هذا مثل قَوْلِ آدم وحَوَّاء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾

[الأعراف: ٢٣]؛ إذ كانا السبب في وَضعهما غير الموضع الذي أُنزِلا فيه؛ وإخْرَاجهما من الجنَّةِ، وإنزالهما إلى الأرض.

١٦٣٥ ـ وأما قصةُ داود ـ عليه السلام ـ فلا يجبُ أَنْ يُلْتفَتَ إلى ما سَطَّرَهُ فيها الإخباريون عن أهل الكتاب الذينَ بَدَّلُوا وغَيَّروا؛ ونقلهُ بَعْضُ المفسرين. ولم ينصَّ اللَّهُ على شيء من ذلك، ولا وردَ في حديث صحيح. والذي نصّ اللَّهُ عليه قولـه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].

وقولُه فيه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

فمعنى ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ أي: اختبرناه. و ﴿أَوَّابٌ﴾: قال قتادة: مُطِيع.

وهذا التفسير أَوْلى.

١٦٣٦، ١٦٣٧ ـ وقال ابن عباس، وابن مسعود: ما زاد داودُ على أنْ قال للرجل: انْزِلْ لي عن امرأتك وَأَكْفِلْنِيها؛ فعاتَبَهُ اللَّهُ على ذلك، ونبَّهه عليه، وأَنكر عليه شُغْله بالدنيا، وهذا الذي ينبغي أَنْ يعوَّل عليه من أمره عليه السلام.

وقد قيل: خطبها على خِطْبته.

وقيل: بل أَحبَّ بقَلبه أَنْ يُسْتَشْهَدَ.

وحكى السمرقندي أَنَّ ذَنْبَه الذي استَغْفَر منه قولُه لأَحَدِ الْخَصْمَين: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ [ص: ٢٤]، فظلَّمَهُ بقول خَصْمِه.

وقيل: بل لِمَا خشِيَ عَلَى نَفسه، وظَنَّ من الفِتْنَةِ بما بُسِطَ له من المُلْك والدُّنيا.

وإلى نَفْي ما أُضِيفَ في الأخبارِ إلى دَاود من ذلك، ذَهَبَ أحمدُ بن نصر، وأبو تمَّام، وغيرهما من المحققين.

وقال الدَّاوُدِيُّ: ليس في قصةِ داود وأُورِيَا خَبَرٌ يَثْبُتُ؛ ولا يظنُّ بنبيّ محبَّةُ قَتْلِ مُسْلم.

وقيل: إنَّ الخَصْمين اللذَيْن اختصما إليه رجلان في نِتَاج غَنَم، على ظَاهر الآية.

وأما قصةُ يوسف وإخوتِه فليس على يوسفَ منها تعقُّب، وأَمَّا إخوتُه فلم تَثْبُتْ نبوَّتُهم فَيَلْزَمَ الكلامُ على أفعالهم. وذِكْرُ الأسباطِ وعَدُّهم في القرآنِ عند ذِكْرِ الأنبياء ليس صريحاً في كونهم من أهل الأنبياء.

قال المفسرون: يريدُ مَنْ نَبِيءَ مِنْ أَبْناءِ الأَسباط.

وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صِغَارَ الأسنان؛ ولهذا لم يميِّزوا يوسفَ حين اجتمعوا به؛ ولهذا قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] وإنْ ثَبَتَتْ لهم نبوَّةٌ فبَعْد هذا، والله أعلم.

وأما قولُ الله تعالى فيه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

١٦٣٨ ـ فعلى مَذهب كثيرٍ من الفقهاء والمُحدِّثين أَنَّ هَمَّ النَّفْسِ لا يُؤاخَذُ به العبد، وليس سيِّئةً لقوله ـ عليه السلام ـ عن ربِّه: «**إذا هَمّ عبدي بسيِّئة فلم يعمَلْها كُتِبَتْ له حسنة**» [البخاري (٦٤٩١، ٧٥٠١)، مسلم (١٢٩، ١٣١)]، فلا معصيَة حينئذٍ ليوسف في هَمّه إذاً.

وأما على مذهب المحقِّقين من الفقهاء والمتكلِّمين فإنَّ الهَمَّ ـ إذا وُطِّنت عليه النفسُ ـ سيئةٌ. وأما ما لم تُوطَّن عليه النفسُ من همومها وخَواطرها فهو المعفوُّ عنه.

وهذا هو الحقُّ؛ فيكون ـ إنْ شاء الله ـ هَمُّ يوسف من هذا؛ ويكون قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣].

أي ما أبرِّئها من هذا الهَمِّ؛ أو يكون ذلك منه على طريق التواضُعِ والاعتراف بمخالفة النفس لمَا زُكِّيَ قَبْلُ وبُرِّىء، فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عُبيدة، أَنَّ يوسف لَمْ يهُمَّ، وأن الكلامَ فيه تقديمٌ وتأخير؛ أي: ولقد همَّتْ به؛ ولولا أن رأى برهانَ ربِّه لهَمَّ بها؛ وقد قال اللَّهُ تبارك وتعالى ـ عن المرأة ـ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ...﴾ الآيات [يوسف: ٢٣].

قيل في ﴿رَبِّىٓ﴾: الله تعالى، وقيل: المَلِك.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: بزَجْرها ووَعْظِها.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: غَمُّها امتناعُه عنها.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: نظر إليها.

وقيل: هَمّ بضَرْبها ودَفْعِها.

وقيل: هذا كلُّه كان قَبْلَ نبوَّته عليه السلام.

وقد ذَكَرَ بعضُهم: ما زال النساءُ يَمِلْن إلى يوسفَ مَيْلَ شَهْوةٍ حتى نبَّأَهُ الله، فألْقَى عليه هيبَ النبوّةِ؛ فشغَلَتْ هيبتُه كلَّ مَنْ رآه عن حُسْنِه.

وأمَّا خَبَرُ موسىٰ ـ عليه السلام ـ مع قتيلِه الذي وَكزَهُ فقد نصَّ الله تعالى أنه مِنْ عَدُوِّه، وقال: كانَ مِن القِبْطِ الذين على دِين فِرْعَون.

ودليلُ السّورةِ في هذا كلِّه أنه قَبْلَ نُبُوَّةِ موسىٰ عليه السلام.

وقال قتادة: وَكزَه بالعصا، ولم يتعمَّدْ قَتْلَه، فعلى هذا لا معصيةَ في ذلك.

وقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾ [القصص: ١٥]. وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦] قال ابن جُرَيْجٍ: قال ذلك من أَجْل أنه لا ينبغي لنبيٍّ أَنْ يَقْتُلَ حتى يُؤْمَر.

وقال النقّاش: لم يَقْتُلْه عن عَمْدٍ مُريداً للقَتْل، وإنما وَكزَهُ وَكْزَةً يريدُ بها دَفْعَ ظُلْمه، قال: وقد قيل: إنَّ هذا كان قَبْلَ النبوة، وهو مُقْتَضَى التِّلاوة.

وقولُه تعالى ـ في قصّته: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، أي ابتليناكَ ابتلاءً بعد ابتلاءٍ. قيل: في هذه القصة وما جَرَى له مع فرعون. وقيل: إلقاؤه في التابوت واليمّ، وغير ذلك.

وقيل: معناهُ أَخْلَصْناكَ إخلاصاً؛ قاله ابنُ جبَيْر ومجاهد؛ مِنْ قولهم: فتنْتُ الفِضَّةَ في النار، إذا خَلَّصْتَها. وأَصْلُ الفتنةِ معنًى: الاختبارُ، وإظهارُ ما بَطَن، إلا أنه استُعْمل في عُرْف الشرع في اختبارٍ أدّى إلى ما يُكْرَه.

١٦٣٩ ـ وكذلك ما رُوِي في الخبر الصحيح؛ من أنَّ ملك الموتِ جاءه فلطم عينَه ففقأها... الحديث [البخاري (١٣٣٩)، مسلم (٢٣٧٢/١٥٨)].

ليس فيه ما يُحْكَمُ به على موسىٰ ـ عليه السلام ـ بالتعدِّي وفِعْلِ ما لا يَجِبُ له، إذ هو ظاهِرُ الأَمْرِ، بَيِّنُ الوَجْهِ، جائز الفِعْل، لأنَّ موسىٰ دَافِعَ عن نفسه مَنْ آتاهُ لإتلافها، وقد تُصُوِّر له في صورةِ آدَمِيّ، فلا يمكنُ أنه علم حينئذٍ أنه ملك الموت، فدافعه عن نَفْسه مدافعةً أَدَّت إلى ذهاب عَيْنِ تلك الصورة التي تَصَوَّرَ له فيها ملَك الموت امتحاناً مِنَ اللّهِ ـ عز وجل ـ لموسىٰ، فلما جاءه بَعْدُ، وأَعلمه اللّهُ ـ عزّ وجل ـ أنه رسولُهُ إليه استَسْلَم.

وللمتقدمين والمتأَخّرين على هذا الحديث أَجوبةٌ هذا أَسَدُّها عندي، وهو تأويلُ شيخنا الإمام أبي عبدالله المَازَري.

وقد تأوّله ـ قديماً ـ ابنُ عائشة، وغَيْرُه على صَكِّهِ ولَطْمِهِ بالحجَّة، وفَقْءِ

عَيْنِ حجَّته، وهو كلامٌ مستعملُ في هذا الباب؛ معروف في اللغة.

وأمَّا قصةُ سليمانَ وما حكى فيها أَهْلُ التفاسير من ذَنْبِه وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ﴾ [ص: ٣٤]؛ فمعناه ابتَلَيْناه: أي اختبرناه.

١٦٤٠ ـ وابتلاؤه: ما حُكِي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لأَطُوفَنَّ الليلةَ على مئة امرأةٍ ـ أو تسعٍ وتسعين ـ كلُّهن يأتين بفارسٍ، يجاهِدُ في سبيل الله. فقال له صَاحِبُهُ: قل: إن شاء الله، فلم يقُلْ. فلم تحمِلْ منهنَّ إلا امرأة واحدة، جاءت بشِقِّ رجل**».

قال النبي ﷺ: «**والذي نَفسي بيده! لو قال: إنْ شاء الله، لجاهَدُوا في سبيل الله**».

قال أصحابُ المعاني: والشِّقُّ: هو الجسَدُ الذي أُلقِيَ على كُرْسِيِّه حين عُرِضَ عليه، وهو عقوبتُه ومِحْنَتُه.

وقيل: بل مات فأُلقِيَ على كرسيِّه ميِّتاً.

وقيل: ذَنْبُه: حِرْصُه على ذلك وتمنِّيه.

وقيل: لأنه لم يَسْتَثْنِ لِمَا استغْرَقَهُ من الحِرْصِ، وغلب عليه من التَّمنِّي.

وقيل: عقوبتُه أنْ سُلِبَ مُلكُه، وذَنْبُه: أنْ أَحبَّ بقلبه أن يكونَ الحقُّ لأَختانِه على خَصمهم.

وقيل: أُوخِذَ بذَنْبٍ قارَفَه بعضُ نسائه. ولا يصحّ ما نقله الإخباريّون من خرافاتهم: مِنْ تَشَبُّهِ الشيطانِ به، وتسلُّطه على مُلكه، وتصرّفِه في أُمته بالجَوْرِ في حُكمه؛ لأنَّ الشياطين لا يُسَلَّطون على مثْلِ هذا؛ وقد عُصِم الأنبياءُ مِنْ مِثْله.

وإنْ سُئل: لِمَ لَمْ يَقُلْ سليمانُ في القصةِ المذكورة: إنْ شاءَ اللَّهُ؟ فعَنْهُ أجوبةٌ:

١٦٤١ ـ **أحدها**: ما رُوِيَ في الحديث الصحيح أنه نَسِيَ أن يقولَها [مسلم (١٦٥٤)، البخاري (٥٢٤٢)]، وذلك لِيَنْفُذ مرادُ اللَّهِ تعالى.

والثاني: أنه لم يسمَعْ صاحِبَه وشُغِل عنه.

وقوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]. لم يَفعَلْ هذا سليمان ـ عليه السلام ـ غَيْرَةً على الدنيا ولا نفاسة بها؛ ولكن مَقْصِده في ذلك ـ على ما ذكره المفسرون ـ ألا يسلَّطَ عليه أَحَدٌ كما سُلِّط عليه الشيطان الذي سلبه إِيَّاه مُدّةَ امتحانِه على قَوْلِ مَنْ قال ذلك.

وقيل: بل أَراد أن يكونَ له من اللَّهِ فَضِيلةٌ، وخاصةٌ يختصّ بها كاختصاص

غيرِه من أنبياءِ اللَّهِ ورسوله بخواصَّ منه.

وقيل: ليكونَ ذلك دليلاً وحجَّةً على نبوَّته؛ كإلانَةِ الحديدِ لأبيه داود عليه السلام، وإحياءِ الموتى لعيسىٰ، واختصاصِ محمد ﷺ بالشفاعة، ونحو هذا.

وأما قصةُ نوح ـ عليه السلام ـ فظاهرةُ العُذرِ، وأنه أخذ فيها بالتأويلِ وظاهرِ اللَّفظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]؛ فطلب مُقتضى هذا اللفظِ، وأراد عِلْمَ ما طُوِيَ عنه مِنْ ذلك؛ لا أنه شَكَّ في وَعْدِ اللَّهِ تعالى فَبَيَّنَ اللَّهُ عليه أنه ليس من أهْلِه الذين وَعَدَه بنجاتهم لكُفرِه، وعَمَلِهِ الذي هو غَيْرُ صالح؛ وقد أعلمه أنه مُغْرِق الذين ظلموا، ونهاهُ عن مخاطبته فيهم؛ فأُوخِذَ بهذا التأويل، وعُتِبَ عليه، وأَشْفَقَ هو من إقدامِه على ربه لسؤالِه ما لم يؤذَن له في السؤال فيه؛ وكان نوحٌ ـ فيما حكاهُ النقاش ـ لا يَعْلَمُ بكُفرِ ابنِه.

وقيل في الآية غَيْرُ هذا؛ وكلُّ هذا لا يَقْضِي على نُوحٍ بمعصيةٍ سِوَى ما ذكرناه من تأويله وإقدامِه بالسؤال فيما لم يُؤْذَنْ له فيه، ولا نُهِيَ عنه.

١٦٤٢ ـ وما رُوي في الصحيح: مِنْ أَنَّ نَبِيًّا قرصَتْه نَمْلَةٌ فحرَّقَ قَرْيَةَ النملِ، فأَوحى اللَّهُ إليه: أَنْ قرصَتْكَ نملةٌ أَحرقْت أُمةً من الأُمَم تسبِّح؟! [البخاري (٣٠١٩)، مسلم (٢٢٤١)]. فليس في هذا الحديث أنَّ هذا الذي أَتَى معصية؛ بل فعل ما رآه مصلحةً وصواباً بقَتْلِ مَنْ يُؤذي جِنْسُهُ، ويمنَعُ المنفعةَ بما أَباحَ الله.

ألاَ تَرَى أَنَّ هذا النبيَّ كان نازِلاً تَحْتَ الشجرةِ، فلما آذتْهُ النملةُ تحوّل برَحْلِه عنها مخافةَ تكرار الأذى عليه؟ وليس فيما أوحَى اللَّهُ ـ عز وجل ـ إليه ما يوجِبُ عليه معصيةً؛ بل نَدَبَهُ إلى احتمال الصَّبر وتَرْك التَّشفي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]؛ إذ ظاهِرُ فِعْلِه إنما كان لأَجْل أنها آذَتْهُ هو في خاصَّته؛ فكان انتقاماً لنفسه، وقَطْعَ مضَرَّةٍ يتوقَّعُها مِنْ بقيَّةِ النملِ هناكَ؛ ولم يأتِ في كلِّ هذا أمراً نُهِيَ عنه، فيُعَصَّى به، ولا نَصَّ فيما أَوْحَى اللَّهُ إليه بذلك، ولا بالتوبةِ ولا بالاستغفار منه. والله أعلم.

١٦٤٣ ـ فإنْ قيل: فما معنى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«ما مِنْ أحدٍ إلاَّ أَلَمَّ بذَنْبٍ أو كاد إلا يحيى بن زكريا»** [أحمد (٢٥٤/١، ٢٩٢)] أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فالجوابُ عنه: كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قَصْدٍ وعَنْ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ.

فصل

فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرآنِ وَالْحَدِيثِ مِنِ اعْتِرافِ الأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ

فإنْ قلتَ: فإذا نفيتَ عنهم ـ صلوات الله عليهم ـ الذنوبَ والمعاصي بما ذكرتَه من اختلافِ المفسرين وتأويل المحقِّقين، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وما تكرّرَ في القرآنِ والحديث الصحيح من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وبُكائهم على ما سَلَفَ منهم، وإشفاقِهم، وهل يُشفقُ ويُتَابُ ويُسْتَغْفَرُ إلاّ من شيء عظيم؟

فاعْلَمْ ـ وفَّقَنا الله وإيَّاكَ ـ أنَّ دَرجةَ الأنبياءِ في الرِّفْعَة، والعلوّ، والمعرفة بالله، وسنَّتِهِ في عباده، وعِظَم سلطانِه، وقُوَّةِ بَطْشِه، فيما يحملُهم على الخوف منه جلَّ جَلالُه، والإشفاقِ من المؤاخذةِ بما لا يؤاخَذُ به غَيْرُهم، وأنهم ـ في تصرُّفهم بأمورٍ لم يُنْهَوْا عنها، ولا أُمِرُوا بها؛ ثم أُوخِذوا عليها، وعوتِبُوا بسببها، أو حُذِّروا مِنَ المؤاخذةِ بها، وأَتَوْها على وَجهِ التَّأْوِيل، أو السَّهْوِ، أو تَزَيُّدٍ مِنْ أُمورِ الدنيا المباحة ـ خائفون وَجِلُون، وهي ذُنوبٌ بالإضافةِ إلى عَلِيِّ مَنْصبهم، ومَعَاصٍ بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنَّها كذنوب غيرهم ومَعَاصِيهم؛ فإن الذنْبَ مأخوذ من الشيء الدَّنِيّ الرَّذْل، ومنه ذَنَبُ كل شيء، أي: آخره. وأذنابُ الناسِ: رُذالُهم، فكأَنَّ هذه أدنى أفعالِهم، وأسوأ ما يَجْرِي من أحوالهم لتطهيرهم، وتنزيههم، وعمارةِ بواطِنهم وظواهرهم بالعمل الصالح، والكلِمِ الطيب، والذِّكْر الظاهر والخفيّ، والخشية لله تعالى، وإعظامه في السرِّ والعَلانِيَة، وغَيْرُهم يتلوّثُ من الكبائر، والقبائح، والفواحش ما تكون بالإضافة إليه هذه الهَنَاتُ في حقّه كالحسنات، كما قيل: حسناتُ الأَبْرار سيئاتُ المُقَرَّبين، أي يَرَوْنها بالإضافةِ إلى عليّ أحوالِهم كالسيئات.

وكذلك العِصْيَانُ: التركُ والمخالفة؛ فعلى مقتضى اللفظة كيفما كانت منْ سَهْوٍ أو تأويل فهي مخالفةٌ وتَرْك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي: جَهِلَ أَنَّ تِلْكَ الشجرةَ هي التي نُهِيَ عِنها؛ والغَيّ: الْجَهْل.

وقيل: أخطأ ما طَلبَ من الخلودِ، إذ أَكلها، وخابت أُمْنِيَّتُهُ.

وهذا يوسفُ ـ عليه السلام ـ قد أُوخِذ بقوله لأحد صاحِبَي السِّجْنِ:

﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

قيل: أُنسِيَ يوسفُ ذِكرَ اللَّهِ.

وقيل: أُنسِيَ صاحبُه أن يذكُرَه لسيِّدِه الملك.

١٦٤٤ ـ قال النبي ﷺ: **«لولا كلمةُ يوسف ـ عليه السلام ـ ما لَبِثَ في السِّجْنِ ما لَبِثَ»**.

قال مالك بن دينار: لمّا قال ذلك يوسفُ قيل له: اتّخذْتَ مِنْ دوني وَكِيلاً؟! لأُطِيلَنَّ حَبْسك. فقال: يا رَبِّ! أَنسىٰ قَلْبي كثرةُ البَلْوَى.

وقال بعضُهم: يؤاخَذُ الأنبياء بمَثَاقيلِ الذَّرِّ، لمكانَتِهم عنده، ويجاوزُ عن سائر الْخَلْقِ لقلة مُبالاته بهم في أضعافِ ما أتَوْا به من سُوءِ الأدب.

وقد قال المحتجُّ للفرقة الأولى على سِيَاق ما قُلْنَاه: إذا كان الأنبياءُ يؤاخَذُون بهذا مِمّا لا يُؤَاخَذُ به غيرُهم من السَّهْوِ والنِّسْيَان، وما ذكرتُه، وحالُهم أَرْفَعُ فحالُهم إذاً في هذا أسوأ حالاً مِنْ غيرهم.

فاعلم ـ أكرمَك اللَّهُ ـ أنّا لا نُثْبِتُ لك المؤاخذة في هذا على حَدِّ مُؤاخذةِ غيرِهم؛ بل نقول: إنهم يؤاخَذُون بذلك في الدنيا، ليكون ذلك زيادةً في دَرَجاتِهم؛ ويُبْتلون بذلك، ليكون استشعارهم له سبباً لِمَنْمَاةِ رُتَبِهم، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢٢].

وقال لداود: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٢٥﴾ [ص: ٢٥].

وقال بعد قولِ موسى: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٤] وقال بعد ذكْر فتْنةِ سليمان وإنابتِه: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾ [ص: ٣٦ ـ ٤٠].

وقال بعضُ المتكلمين: زَلاَّتُ الأنبياء في الظاهر زَلاَّتٌ، وفي الحقيقة زُلَفٌ وكراماتٌ، وأشار إلى نحو ما قدَّمناهُ.

وأيضاً فَلِيُنَبِّهَ غَيْرَهُمْ مِنَ البشَر منهم، أو مِمَّنْ ليس في درجتهم بمؤاخذتهم بذلك، فيستَشْعِرُوا الحذَر؛ ويعتقدوا المحاسبةَ ليَلْتَزِمُوا الشكْرَ على النِّعَمِ، ويُعِدُّوا

الصَّبْر على المِحَنِ بملاحظة ما وقع بأهل هذا النصاب الرَّفيع المعصومِ؛ فكيف بمَنْ سِوَاهم؟! ولهذا قال صالحٌ المُرِّي: ذِكْرُ داود بَسْطَةٌ للتوّابين.

قال ابن عطاء: لم يكن ما نَصَّ اللَّهُ تعالى عليه من قصة صاحبِ الحُوتِ نَقْصاً له، ولكن استزادةً مِنْ نبيِّنا عليه السلام.

وأيضاً فيقال لهم: فإنكم، ومَنْ وافقكم، تقولون بغفرانِ الصغائر باجتناب الكبائر.

ولا خِلاَفَ في عِصمةِ الأنبياء من الكبائر، فما جَوَّزْتُم من وقوع الصغائر عليهم هي مغفورة على هذا، فما معنى المؤاخذة بها إذاً عندكم وخوفِ الأنبياءِ وتَوْبَتهم منها، وهي مغفورةٌ لهم لو كانت؟!

فما أَجابوا به فهو جوابُنَا عن المؤاخذةِ بأفعال السَّهْوِ والتأويل.

وقد قيل: إنَّ كثرةَ استغفارِ النبيِّ ﷺ وتَوْبَته وغيره من الأنبياء على وَجْه ملازمةِ الخضوعِ وَالعُبودِيّة، والاعتراف بالتقصيرِ، شُكراً لله عَلَى نِعَمه.

١٦٤٥ ـ كما قال ـ عليه السلام ـ وقد أَمِنَ من المُؤاخذة مما تقدَّم وتأَخَّر: **«أَفَلا أكونُ عبداً شكوراً؟»**.

١٦٤٦ ـ وقال: **«إني أخشاكم لِلَّهِ، وأعلَمُكم بما أَتَّقِي»** [البخاري (٥٠٦٣)].

قال الحارثُ بن أسدَ المحاسِبي. خوف الملائكة والأنبياءِ خوفُ إعظام وتعبُّد لِلَّهِ؛ لأنهم آمنون.

وقيل: فعلوا ذلك ليُقْتَدَى بهم، وتستَنَّ بهم أُمَمُهم.

١٦٤٧ ـ كما قال عليه السلام: **«لو تعلمون ما أَعْلَمُ لضحكتُم قليلاً وَلَبَكَيْتُمْ كثيراً»**.

وأيضاً فإنَّ في التوبة والاستغفار معنًى آخَرَ لطيفاً أشار إليه بعضُ العلماء، وهو استدعاءُ محبَّةِ اللَّهِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فإحداثُ الرسل والأنبياء الاستغفارَ والأوبةَ والتوبةَ والإنابةَ في كُلِّ حِين استدعاءٌ لمحبَّةِ اللَّهِ عز وجل. والاستغفارُ فيه أيضاً معنى التَّوْبة، وقد قال ـ اللَّهُ تعالى لنبيِّه ـ بعد أَنْ غَفر له ما تقدَّم من ذَنْبِه وما تأَخَّر: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣].

فصل

فِي فَوَائِدِ القَوْلِ بِعِصْمَةِ الأَنْبِيَاءِ

قد اسْتَبَانَ لك أيُّها الناظِرُ! بما قرَّرْنَاه، ما هو الحقُّ مِنْ عِصمته - عليه السلام - عن الجهل بالله، وصِفَاته، أو كونِه على حالةٍ تُنافِي العِلْمَ بِشَيءٍ من ذلك كلّه جملة، بعد النبوَّة عَقْلاً وإجماعاً، وقَبْلها سَمْعاً ونَقْلاً، ولا بشيءٍ ممَّا قَرَّرَهُ مِنْ أُمور الشَرْع، وأدَّاه عَنْ ربِّه من الوحْي قطعاً عَقْلاً وشَرْعاً، وعِصْمَتِهِ عن الكذب وخُلْفِ القَوْل - مُنْذُ نَبَّأَهُ اللّهُ وأرسله - قَصْداً أو غَيْرَ قَصْدٍ، واستحالةُ ذلك عليه شَرْعاً وإجماعاً، ونَظراً وبرهاناً، وتنزيهِهِ عنه قَبْلَ النبوةِ قَطْعاً؛ وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامةِ السَّهْوِ والغَفْلةِ، واستمرارِ الغَلَطِ والنِّسيانِ عليه فيما شرعَهُ للأُمَّةِ، وعصمتِه في كل حالاته؛ مِنْ رضاً وغَضب، وجِدٍّ ومَزْحٍ؛ فيجبُ عليكَ أن تتلقّاهُ باليمين، وتشدّ عليه يَدَ الضَّنِينِ، وتَقْدِر هذه الفصولَ حَقَّ قَدْرِها، وتَعْلَمَ عظيمَ فائدتِها وخَطَرِها. فإِنَّ مَنْ يجهل ما يجبُ للنبي ﷺ، أو يجوز له، أو يستحيل عليه، ولا يعرفُ صُوَرَ أحكامِه، لا يَأْمَنُ أن يعتقِدَ في بعضِها خِلاَفَ ما هي عليه، ولا يُنزِّهُه عمّا لا يجب أَنْ يُضَافَ إليه، فيَهلك مِنْ حيثُ لا يَدْري، ويسقُطَ في هُوَّةِ الدَّرْكِ الأَسفل من النار؛ إذْ ظَنُّ الباطِل به؛ واعتقادُهُ ما لا يجوزُ عليه - ﷺ - يَحُلُّ بصاحبه دارَ البَوَار.

١٦٤٨ - ولهذا ما احتَاط النبي - عليه السلام - على الرَّجُلَيْنِ اللَّذَين رأياهُ ليلاً، وهو مُعتَكِفٌ في المسجد مع صَفِيَّةَ، فقال لهما: **«إنها صَفِيَّةُ»**. ثم قال لهما: **«إنَّ الشيطانَ يَجْرِي من ابنِ آدمَ مَجرى الدم؛ وإني خشيت أَنْ يَقذِفَ في قلوبِكما شيئاً فَتَهلِكا»** [البخاري (٢٠٣٥)، مسلم (٢١٧٥)].

هذه - أكرمكَ اللّهُ - إحدى فوائدِ ما تكلَّمنا عليه من هذه الفصول؛ ولعلّ جاهلاً لا يعلمُ بِجَهْلِه إذا سمِعَ شيئاً منها يَرَى أَنَّ الكلامَ فيها جُمْلَةٌ من فضُول العلم، وأنّ السكوت أولى. وقد استبان لكَ أنه متعيِّنٌ للفائدة التي ذكرناها.

وفائدة ثانيةٌ يُضْطرُّ إليها في أصولِ الفِقْه، ويبنىٰ عليها مسائلُ لا تنعدُّ من الفِقْه، ويُتخلَّص بها مِنْ تَشغيب مُختلفي الفقهاء في عدّةٍ منها؛ وهي: الحكمُ في أقوالِ النبيّ ﷺ وأفعالِه؛ وهو بابٌ عظيم، وأصلٌ كبير من أُصولِ الفِقه؛ ولا بُدّ من بنائه على صِدْقِ النبي ﷺ في إخباره وبلاغه؛ وأنه لا يجوز عليه السَّهْوُ فيه، وعِصمتُه من الكبائر والمخالفةِ في أفعالِه عَمْداً؛ وبحسبِ اختلافهم في وُقوع الصَّغائر، وَقَعَ خلافٌ

في امتثال الفِعْلِ، بَسْطُ بيانِه في كُتب ذلك العلم؛ فلا نَطوِّل به.

وفائدةٌ ثالثة: يحتاجُ إليها الحاكم والمُفْتي فيمن أضاف إلى النبيِّ ﷺ شيئاً مِنْ هذه الأمور، ووصفَه بها؛ فمَنْ لم يَعْرِفْ ما يجوزُ عليه وما يمتَنِعُ، وما وقع الإجماعُ فيه والخلاف، كيف يصمِّم في الفُتْيا في ذلك؛ ومِنْ أين يَدْرِي؟ هل ما قاله فيه نَقْصٌ أو مَدْحٌ؟ فإمَّا أَنْ يَجْتَرِئَ على سَفْكِ دَمِ مُسْلمٍ حَرَامٍ، أو يُسْقِطَ حقاً، أو يُضيِّع حرمةً للنبي عليه السلام.

ولسبيل هذا ما قد اختلف فيه أَربابُ الأصولِ، وأئمةُ العلماءِ، والمحقِّقين في عصمة الملائكة.

فصل
فِي القَوْلِ فِي عِصْمَةِ المَلائِكَةِ عَلَيهِمُ السَّلامُ

أجمع المسلمونَ على أَنَّ الملائكة مؤمنون فُضَلاء؛ واتّفق أئمةُ المسلمين أَنَّ حُكْمَ المرسلين منهم حُكْمُ النبيين سواء في العِصْمَةِ كما ذكَرْنا عِصْمَتهم منه، وأنهم في درجات الأنبياء، وحقوقهم، والتبليغُ إليهم للأنبياء كالأنبياء مع الأمم.

واختلفوا في غير المُرْسَلين منهم؛ فذهبَتْ طائفةٌ إلى عِصْمَةِ جميعِهم عن المعاصي؛ واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦].

وبقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وبقوله: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦] و ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩] ونحوه من الآيات.

وذهبَتْ طائفةٌ إلى أَنَّ هذا خصوصٌ للمُرْسَلين منهم والمُقَرّبين. واحتجُّوا بأشياءَ ذكرها أهلُ الأخبارِ والتفاسير، نحنُ نذكرُها ـ إنْ شاءَ اللَّهُ ـ بَعْدُ؛ ونُبيِّنُ الوَجْهَ فيها إن شاء الله والصوابُ: عِصْمَةُ جميعهم، وتَنْزيهُ جَنابِهم الرفيع عن

جميع ما يحطُّ من رُتبتهم ومنزلتهم عن جليل بمقدارهم.

ورأيتُ بعضَ شيوخنا أشار إلى أنْ لا حاجةَ للفقيه بالكلام في عِصمتهم، وأنا أقول: إنَّ للكلامِ في ذلك ما للكلام في عِصمةِ الأنبياءِ من الفوائد التي ذكرناها، سوى فائدةِ الكلام في الأقوالِ والأفعالِ، فهي ساقطةٌ ها هنا.

١٦٤٩ ـ فممّا احتجَّ به مَنْ لم يُوجِبْ عِصْمةَ جميعهم قصةُ هاروتَ وماروت [الحمد (١٣٤/٢)]، وما ذُكِرَ فيها أهلُ الأخبارِ ونَقَلَةُ المفسّرين؛ وما رُوِيَ عن عليّ وابنِ عباسٍ في خَبَرِهما وابتلائهما.

فاعْلَمْ ـ وفَّقك الله ـ أنَّ هذه الأخبارَ لم يُرْوَ منها شيء لا سقيمٌ ولا صحيحٌ عن رسولِ الله ﷺ، وليس هو في شيءٍ يُؤخَذُ بقياسٍ.

والذي منه في القرآن اختلف المُفسِّرونَ في معناه؛ وأنكر بعضُهم قول بعضٍ، وأنكر أيضاً ما قال بعضُهم فيه كثيرٌ من السلف كما سنذكره. وهذه الأخبارُ من كُتبِ اليهودِ وافترائهم، كما نصَّه اللهُ ـ تعالى ـ أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان ـ عليه السلام ـ وتكفيرِهم إياه.

وقد انطوت القِصّةُ على شُنَعٍ عظيمة. وها نحن نُخبِرُ في ذلك ما يكشِفُ عن غِطاءِ هذه الإشكالات إنْ شاء الله.

فاختُلِف أولاً في هاروت وماروت؛ هل هما مَلَكان أو إنسيانِ؟ وهل هما المرادُ بالملَكين أم لا؟ وهل القراءة مَلَكين أو مَلِكَيْنِ بفتح اللام، أو بكسرها أو بهما جميعاً؟ وهل ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] نافية أو موجبةٌ؟!

فأكثرُ المُفسّرين قالوا: إن اللّهَ تعالى امْتَحنَ الناسَ بالمَلَكين لتعليم السِّحر وتَبيينِه، وأنَّ عمله كُفْر فمَنْ تعلّمه كفر، ومَنْ تركَهُ آمن؛ قال اللّهُ تعالى حكاية عنهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وتَعْليمهُما للناس له تعليمُ إنْذارٍ؛ أي يقولان لِمَنْ جاء يطلبُ تعلّمَه: لا تفعلوا كذا، فإنه يُفرِّقُ بين المرءِ وزوجِه؛ ولا تَتخيّلوا بكذا؛ فإنه سِحْرٌ، فلا تكفروا.

فعلى هذا: فِعلُ المَلَكين طاعةٌ، وتَصرُّفهُما فيما أُمِرا به ليس بمعصيةٍ؛ وهي لغيرهما فِتْنة.

ورَوَى ابنُ وَهْب، عن ـ خالد بن أبي عِمْران ـ أنه ذُكِر عنده هاروت وماروتُ، وأنهما يعلّمان السِّحْرَ، فقال: نحنُ نُنَزِّهُهما عن هذا.

فقرأ بعضهم: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فقال خالد: لم يُنَزَّل عليهما.

فهذا خالدٌ ـ على جَلالَته وعِلْمه ـ نزَّههما عن تعليم السِّحْرِ الذي قد ذَكَرَ غيرُهُ أنهما مأذون لهما في تعليمه بشريطة أن يُبَيِّنا أنه كفر، وأنه امتحانٌ من اللَّهِ تعالى وابتلاءٌ؛ فكيف لا نُنَزِّههما عن كبائر المعاصي والكُفر المذكورة في تلك الأخبار؟

وقولُ خالد: لم يُنَزَّل: يريد أَنَّ «ما» نافية؛ وهو قولُ ابن عباس؛ قال مكّيٌّ: وتقدير الكلام: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢] يريدُ بالسِّحر الَّذِي افتعَلَته عليه الشياطينُ، واتبَعَتهم في ذلك اليهودُ.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال مكيٌّ: هما جبريلُ وميكائيل: ادَّعى اليهودُ عليهما المجيء به، كما ادَّعَوْا على سليمان، فأكذبهم اللَّهُ تعالى بقوله في ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] قيل: هما رجُلانِ تعلَّماهُ.

قال الحسن: هاروتُ وماروتُ عِلْجانِ من أهلِ بابل؛ وقرأ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلِكَيْنِ﴾ ـ بكسر اللام، وتكون «ما» إيجاباً على هذا.

وكذلك قراءة عبدالرحمن بن أَبْزَى: بكسر اللام. ولكنه قال: المَلِكان هنا: داود وسُليمان وتكون «ما» نَفياً على ما تقدّم.

وقيل: كانا مَلِكين من بني إسرائيل، فمسخهما اللَّهُ، حكاه السمرقندي.

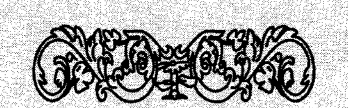
والقراءةُ بكسر اللام شاذَّةٌ؛ فَمَحْمِلُ الآية ـ على تقدير أَبي محمدٍ: مكّيٌّ ـ حسَنٌ، ينَزِّهُ الملائكة، ويُذْهِب الرجْسَ عنهم، ويطهرهم تطهيراً.

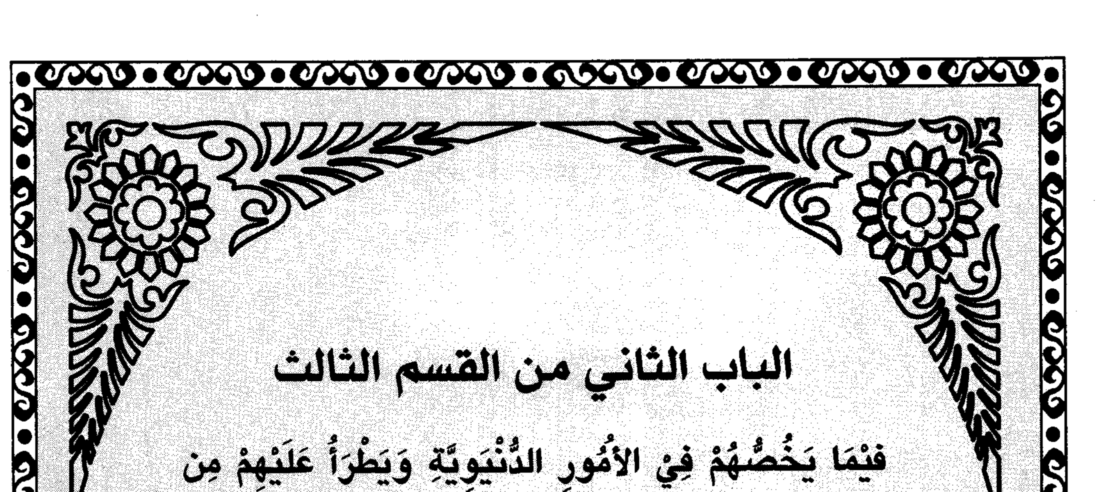
وقد وصفهم الله بأنهم مُطَهَّرون، وكِرَامٌ بَررة، ولا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أمرهم.

ومما يذكرونه قصةُ إبليس، وأنه كان من الملائكةِ ورئيساً فيهم، ومِنْ خُزّان الجنّةِ.. إلى آخر ما حَكَوْهُ، وأنه استَثْناهُ من الملائكة بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] وهذا أيْضاً لم يُتَّفَقْ عليه؛ بل الأكثرُ يَنفُون ذلك، وأنه أبو الجنّ، كما أَنّ آدم أبو الإنْس؛ وهو قولُ الحسنِ، وقَتادة، وابن زَيْد.

وقال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ: كان مِنَ الجنّ الذين طردَتْهم الملائكةُ في الأرضِ حين أفسدوا؛ والاستثناء من غير الجنْس شائعٌ، في كلام العرب سائغ؛ وقد قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

ومِمَّا رَوَوْهُ في الأخبار أَنَّ خَلْقاً من الملائكة عَصَوا اللَّهَ فحُرِّقوا، وأُمِروا أَنْ يسجدوا لآدمَ فأَبَوْا فحُرِّقوا، ثم آخرون كذلك؛ حتى سجدَ لهُ مَنْ ذكرهُ اللَّهُ تعالى إلا إبليس، في أخبارٍ، لا أَصْلَ لها، تردُّها صِحَاحُ الأخبارِ، فلا يُشْتَغل بها. والله أعلم.





الباب الثاني من القسم الثالث

فيمَا يَخُصُّهُمْ فِيْ الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيَطْرَأُ عَلَيْهِمْ مِن العَوارِضِ البَشَرِيَّةِ

قد قدَّمْنا أنه ـ عليه السلام ـ وسائر الأنبياءِ والرسُلِ مِنَ البشَر، وأنّ جِسْمَه، وظاهرَهُ خالصٌ للبَشَرِ، يجوز عليه من الآفات والتغيُّرات، والآلام والأسقام، وتجرُّع كَأْسِ الحِمَام ما يجوز على البَشَرِ؛ وهذا كلُّه ليس بنقيصةٍ فيه؛ لأنَّ الشيْءَ إنما يسمَّى ناقصاً بالإضافة إلى ما هو أتمُّ منه وأكملُ من نوعِه؛ وقد كتب اللَّهُ تعالى على أَهْلِ هذه الدار: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وخلق جميعَ البشَر بمَدْرجةِ الغِيَرة: فقد مرِضَ عليه السلام، واشتكى، وأصابه الحرُّ والقرُّ، وأدركه الجوعُ والعَطَشُ، ولحقه الغَضَبُ والضَّجَرُ، وناله الإعياءُ والتَّعبُ، ومَسَّه الضَّعْفُ والكِبَر، وسَقَطَ فجُحِشَ شِقُّه [البخاري (٨٠٥)، مسلم (٤١١)]، وشَجَّه الكفّارُ، وكَسَروا رَبَاعِيَتَهُ، وسُقِيَ السُّمَّ، وسُحِر، وتَدَاوىٰ ـ عليه السلام ـ واحتجم، وَتَنَشَّر، وتَعَوَّذَ، ثم قضى نَحْبَه فتُوفِّي ﷺ، ولَحِق بالرفيق الأعلى، وتخلَّص من دار الامتحان والبَلْوَى، وهذه كلها سِمَاتُ البشَرِ التي لا مَحِيصَ لهم عنها؛ وأصاب غَيْرَه من الأنبياء ما هو أعظَم من ذلك؛ فقُتِلوا قَتْلاً.

ورُموا في النار، وَنُشِرُوا بالمناشير. ومنهم مَنْ وقاهُ اللَّهُ ذلك في بعض الأوقات. ومنهم مَنْ عَصَمَهُ الله ـ عز وجل ـ كما عَصَم بَعْدُ نبيَّنا ـ ﷺ ـ من الناس؛ فلئِنْ لم يَكْفِ نبيَّنا ربُّه يَدَ ابنِ قَمِئَةَ يوم أُحد، ولا حَجَبه عن عُيُون عِدَاهُ عند دَعْوَتِه أَهْلَ الطائف؛ فلقد أَخَذَ على عُيونِ قُرَيش عند خروجه إلى ثور، وأمسك عنه سيفَ غَوْرَث، وحَجَرَ أبي جَهْل، وفَرَسَ سُراقة؛ ولئن لم يَقِه مِن

سِحْرِ ابن الأَعْصَمِ فلقد وقاه ما هو أعظم منه، من سُمِّ اليهودِيَة.

وهكذا سائرُ أنبيائه، مُبْتَلَى، ومُعافَى؛ وذلك مِنْ تَمَام حِكْمته، ليُظْهِر شَرَفَهم في هذه المقامات، ويبيِّن أمرهم، ويُتِمّ كَلمته فيهم، وليحقِّق بامتحانهم بَشَرِيَّتهم، ويرتفعَ الالتباسُ عن أهلِ الضّعْف فيهم، لِئَلاَّ يضلُّوا بما يظهَر من العجائب على أيديهم، ضَلاَلَ النصارى بعيسى ابْنِ مريم عليه السلام، وليكونَ في مِحَنِهم تسليةٌ لأُمَمِهِمْ، ووفور لأجورهم عند ربهم، تماماً على الّذي أَحْسَنَ إليهم.

قال بعضُ المحققين: وهذه الطوارىء والتغيُّرات المذكورةُ إنما تختصُّ بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومةُ البَشَرِ، ومعاناة بني آدم لِمُشَاكَلَةِ الجنْسِ.

وأما بَوَاطنُهم: فمنزَّهةٌ غالباً عن ذلكَ، معصومةٌ منه، متعلقةٌ بالملأ الأعلى والملائكةِ لأَخْذِها عنهم، وتَلَقِّيها الوَحْيَ منهم.

١٦٥٠ ـ قال: وقد قال عليه السلام: «**إنَّ عينيّ تنامانِ ولا ينامُ قلبي**».

١٦٥١ ـ وقال: «**إنّي لَسْتُ كهَيْئتكم؛ إني أَبيتُ يُطعمني رَبِّي ويَسْقِيني**».

١٦٥٢ ـ وقال: «**لستُ أَنْسَى، ولكن أُنَسَّى، ليُسْتَنَّ بي**».

فأخبر ـ عليه السلام ـ أنَّ سِرَّه وباطنَه ورُوحَه بخلاف جسمه وظاهره، وأنَّ الآفاتِ التي تحلُّ ظاهِرَه من ضَعْفٍ وجوع، وسَهَرٍ ونَوْمٍ، لا يَحُلُّ منها شيء باطنَه، بخلاف غيره من البَشَر في حُكْم الباطن؛ لأنَّ غيرَه إذا نام استغرق النومُ جِسْمَه وقَلْبه.

١٦٥٣ ـ وهو ـ عليه السلام ـ في نومِه حاضِرُ القَلْبِ كما هو في يَقَظَتِه، حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروساً من الحَدَثِ في نومه لِكَوْنِ قلبه يَقْظَان كما ذكرناه.

١٦٥٤ ـ وكذلك غيره إذا جاع ضَعُفَ لذلك جِسْمه، وخارت قُوَّتُه، فبطلت بالكليّة جملتُه، وهو ـ عليه السلام ـ قد أخبر أنه لا يَعْتَريه ذلك، وأنه بخلافهم؛ لقوله: «**لستُ كَهَيْئتكم: إني أَبيتُ يُطعمني رَبي ويَسْقِيني**».

وكذلك أقولُ: إنه في هذه الأحوالِ كلِّها؛ من وَصَبٍ ومَرَضٍ، وسِحْرٍ وعَرَضٍ، وغَضَبٍ، لم يَجْرِ على باطِنه ما يُخِلُّ به، ولا فاض منه على لسانه وجَوَارِحه ما لا يليقُ به، كما يَعْتَرِي غَيْرَهُ من البَشَرِ مِمّا نأخذُ بَعْدُ في بيانه.

فصل
في الرَّدِّ عَلى مَنْ طَعَنَ في حَدِيثِ السِّحْرِ

١٦٥٥ ـ فإن قلْتَ: فقد جاءت الأَخبارُ الصحيحةُ أنه ـ عليه السلام ـ سُحِرَ كما حدثنا الشيخُ أبو محمدٍ العَتَّابي بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسَن: عليّ بن خلف، حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عبيد بن إسماعيل، قال: حدثنا أبو أُسامةَ، عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائِشَةَ رضِيَ اللّهُ عنها، قالت: سُحِرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى إنه ليُخَيَّل إليه أنه فعل الشيءَ وما فعله [البخاري (٥٧٦٦)، مسلم (٢١٨٩)].

١٦٥٦ ـ وفي رواية أخرى: حتى كان يخيَّل إليه أَنه كان يأتي النساءَ ولا يأتيهن. . . الحديث [البخاري (٥٧٦٥)].

وإذا كان هذا من التباسِ الأَمْرِ على المسحور فكيف حالُ النبي ﷺ في ذلك وكيف جاز عليه، وهو معصوم؟!

فاعْلَمْ ـ وفَّقنا اللّهُ وإياكَ ـ أَنّ هذا الحديث صحيحٌ متَفَقٌ عليه؛ وقد طعنَتْ فيه المُلْحِدَةُ، وتذرّعَتْ به ـ لسُخْفِ عقولِها وتَلْبِيسها على أَمثالها ـ إلى التشكيك في الشّرْعِ؛ وقد نزّه اللّهُ الشّرْعَ والنبيَّ عما يُدْخِلُ في أَمْرِه لَبْساً، وإنما السِّحْرُ مَرَضٌ منَ الأَمراض، وعارِضٌ من العِلَل، تجوزُ عليه كأَنواعِ الأَمراضِ مما لا يُنْكَرُ ولا يَقْدَحُ في نُبوّته عليه السلام.

وأمّا ما وَرَدَ أنه كان يخيَّل إليه أنه فعل الشيءَ ولا يَفْعَلُه، فليس في هذا ما يُدْخِلُ عليه داخلةً في شيءٍ مِنْ تَبْلِيغه أَو شريعته، أَو يَقْدَحُ في صِدْقِه؛ لقيام الدَّليل والإجماع على عِصْمته مِنْ هذا، وإنما هذا فيما يجوزُ طُرُوْؤُهُ عليه في أَمْرِ دُنْياه التي لم يُبْعَثْ بسببها، ولا فُضِّل من أَجْلها؛ وهو فيها عُرْضَةٌ للآفات كسائر البَشَر؛ فغَيْرُ بَعيدٍ أَنْ يُخَيَّل إليه من أمورِها ما لا حقيقةَ له، ثم يَنْجلي عنه، كما كان.

١٦٥٧ ـ وأيضاً فقد فَسَّرَ هذا الفَصْلَ الحديثُ الآخَرُ من قوله: «حتى يُخَيَّل إليه أنه يأتي أهلَه ولا يأتيهن». وقد قال سفيان: وهذا أَشدُّ ما يكونُ مِنَ السِّحْر [البخاري (٥٧٦٥)].

ولم يَأْتِ في خَبَر منها أَنه نُقِلَ عنه في ذلك، قولٌ بخلاف ما كان أخبر أنه

فعله ولم يَفْعَله؛ وإنما كانت خواطِر وتخيلات.

وقد قيل: إنَّ المراد بالحديث أنه كان يتخيَّلُ الشيءَ أنه فعله، وما فعله، لكنه تخْييل لا يَعْتَقِدُ صِحتَه، لتكون ـ بحمد الله ـ اعتقاداته كلها على السَّدَاد، وأقوالُه على الصحة.

١٦٥٨ ـ هذا ما وَقَعْتُ عليه لأئمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث مع ما أَوْضَحْنَاه من معنى كلامهم، وزِدْنَاهُ بياناً من تلويحاتهم. وكُلُّ وَجْهٍ منها مُقْنِعٌ؛ لكنه قد ظهر لي في الحديث تَأْوِيلٌ أَجْلَى وأَبْعَدُ من مَطَاعن ذَوِي الأَضَالِيلِ، يستفادُ من نَفْسِ الحديث؛ وهو أَنَّ عبدالرزّاق قد رَوَى هذا الحديثَ، عن ابن المسيِّب، وعُروة بن الزبير، وقال فيه عنهما: سَحَرَ يَهُودُ بني زُرَيق رسولَ الله ﷺ، فجعلوه في بئر حتى كاد رسول الله ﷺ أَنْ يُنكِرَ بَصَره؛ ثمّ دَلّه اللَّهُ على ما صنعوا فاستخرجه من البئر.

ورُوي نحوه، عن الواقدي، وعن عبدالرحمن بن كعب، وعُمر بن الحَكَم.

١٦٥٩ ـ وذَكَرَ عن عطاء الخُراساني، عن يحيى بن يَعْمَر: حُبِس رسولُ الله ﷺ عن عائشة سنَةً، فَبَيْنَا هو نائم أَتاه ملكان، فقعد أَحدُهما عند رأسه والآخَرُ عند رِجْليه... الحديث.

١٦٦٠ ـ قال عبدالرزَّاق: حُبِس رسولُ الله ﷺ عن عائشة خاصةً سنةً حتى أنكر بَصَره.

١٦٦١ ـ وروى محمد بن سَعْد، عن ابن عباس: مَرِض رسُولُ الله ﷺ، فحُبِس عن النساء والطعام والشراب، فهبَطَ عليه مَلكان... وذكر القصة.

فقد استبان لكَ مِنْ مضمون هذه الروايات أَنّ السِّحْرَ إنما تسلَّط على ظاهره وَجَوارِحه، لا على قلبه واعتقادِه وعَقْلِه، وأنه إنما أَثَّرَ في بَصَرِه، وحَبَسَه عن وَطْءِ نسائه، وطعامه، وأضعف جِسْمَه وأَمرضه؛ ويكون معنى قوله: «يخيَّلُ إليه أنه يأتي أَهْلَه ولا يأتيهن» أي: يَظْهَرُ له من نشاطه ومتقدَّم عادته القدرَة على النساء؛ فإذا دَنَا مِنهنَّ أصابَته أُخْذَةُ السِّحرِ فلم يقدر على إتيانهنّ كما يعتري مَنْ أُخِذ واعْتُرِض.

ولعله لمثل هذا أَشار سُفْيان بقوله: وهذا أَشدُّ ما يكون من السِّحْر [البخاري (٥٧٦٥)]. ويكون قولُ عائشة في الرواية الأخرى: «إنه ليُخَيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، أو ما فعله» مِنْ بابِ ما اختلّ مِنْ بَصره، كما ذُكِر في الحديث؛ فيظنّ أنه رأى شخصاً مِنْ بعض أزواجه، أو شَاهد فِعْلاً من غيره، ولم يكن على ما

يُخَيَّلُ إليه، لِمَا أصابه في بصره وضَعْفِ نَظَرِه، لا لشيءٍ طَرَأَ عليه في مَيْزِهِ.

وإذا كان كذلك لم يكُنْ فيما ذُكِر من إصابةِ السِّحْرِ له، وتأثيرِه فيه، ما يُدْخِلُ لَبْساً، ولا يَجِدُ به الملحدُ المعترضُ أُنساً.

فصل
في أحوالِهِ ﷺ في أمورِ الدُّنيا

هذه حالُه في جِسْمِه، فأَما أحوالُه في أُمور الدنيا فنحن نَسْبُرُها على أُسلوبها المتقدم ـ إن شاء الله ـ بالعَقْدِ والقولِ والفعل.

١٦٦٢ ـ أما العَقْد منها فقد يَعْتَقِدُ في أمور الدنيا الشيء على وَجْهٍ ويظهر خلافُه، أو يكون منه على شكٍّ أو ظن بخلاف أُمورِ الشرع؛ كما حدثنا أبو بَحْر: سُفيان بن العاصي، وغَيْرُ واحدٍ سَمَاعاً وقراءةً؛ قالوا: حدثنا أبو العباس: أحمد بن عُمَر، قال: حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد بن عَمْرويه، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا عَبْداللّه بن الرُّومي، وعباس العَنْبَري وأحمد المَعْقِريُّ؛ قالوا: حدثنا النضر بن محمدٍ؛ قال: حدثنا عِكرمة، حدثنا أبو النجاشيّ؛ قال حدثنا رافع بن خَدِيج؛ قال: قدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ وهم يَأْبُرون النَّخلَ، فقال: «ما تصنعونَ؟» قالوا: كنّا نَصْنَعُهُ. قال: **«لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً»**؛ فتركوه، فنَقَصَتْ؛ فذكروا ذلك له؛ فقال: **«إنما أنا بَشَرٌ، إذا أمرتُكم بشيءٍ مِنْ دينكم فخذُوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رَأْيٍ فإنما أنا بَشَرٌ»** [مسلم (٢٣٦٢)].

١٦٦٣ ـ وفي رواية أنس: **«أنتم أعلمُ بأَمْرِ دُنياكم»** [مسلم (٢٣٦٣)].

١٦٦٤ ـ وفي حديث آخر: **«إنما ظَنَنْتُ ظَنّاً، فلا تؤاخذوني بالظَّنِّ»** [مسلم (٢٣٦١)].

١٦٦٥ ـ وفي حديث ابنِ عباس في قصة الخَرْص؛ فقال رسولُ الله ﷺ: **«إنما أَنا بَشَرٌ مثلكم، فما حدثتكُم به عَن الله فهو حَقٌّ، وما قلتُ فيه مِن قِبَلِ نَفسِي فإنما أنا بَشَرٌ أُخطِىءُ وأُصِيب»**.

وهذا على ما قَرَّرْنَاهُ فيما قاله مِنْ قِبَلِ نَفْسِه في أمور الدنيا وظَنّه من أحْوالها، لا ما قَالَهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِه واجتهاده في شَرْعٍ شرعَهُ؛ أو سُنّةٍ سنَّها.

١٦٦٦ ـ وكما حكى ابنُ إسحاق أنه ـ عليه السلام ـ لما نزل بأَدْنى مياهِ بَدْرٍ، قال له الحُباب بن المنذر: أهذا منزلٌ أنزلكَهُ اللَّهُ ليس لنا أن نتقدّمَه، أم هو

الرأيُ والحرب والمكيدة؟ قال: «لا، بل هو الرأي والحربُ والمَكيدةُ». قال: فإنه ليس بمَنْزِلٍ، انهَضْ حتى نَأْتِي أدنىٰ ماءٍ من القوم، فننزِلَه، ثم نُعَوِّرَ ما وَرَاءه من القُلُب؛ فنشرب ولا يشربون.

فقال: «أشَرْتَ بالرأي»، وفعل ما قاله.

وقد قال له اللّهُ عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٦٦٧ ـ وأرَاد مصالحةَ بَعْضِ عدوِّه على ثلث ثَمَرِ المدينة، فاستشار الأنصارَ. فلما أخبروه برأيهم رجع عنه.

فمِثْلُ هذا وأشباهُه من أمور الدنيا التي لا مَدْخَلَ فيها لعِلْم ديانَةٍ، ولا اعتقادِها، ولا تعليمها، يجوزُ عليه فيها ما ذكرناه؛ إذ ليس في هذا كلِّه نَقِيصةٌ ولا محطَّة؛ وإنما هي أُمورٌ اعتياديةٌ يعرفُها مَنْ جرَّبها، وجعلها هَمَّهُ، وشغَل بها نَفْسَه، والنبيُّ ﷺ مشحونُ القَلْبِ بمعرفة الرّبوبية؛ ملآنُ الجَوانِح بالعلوم الشرعية، مُقَيَّد البالِ بمصالح الأُمةِ الدينية والدُّنيَوية، ولكنْ هذا إنما يكونُ في بعض الأمور، ويجوز في النادر وفيما سبيلُه التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المُؤذِنِ بالْبَلَهِ والغَفْلَة.

وقد تواتَرَ بالنَّقْل عنه ـ عليه السلام ـ من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها، وسياسة فِرَق أهلها ما هو معجزٌ في البشر، مما قد نبَّهنا عليه في باب معجزاته ـ عليه السلام ـ من هذا الكتاب.

فصل
في ما يُعْتَقَدُ في أُمورِ أَحكَامِ البَشَرِ الجَارِيَةِ على يَدَيهِ ﷺ وَقَضَايَاهُمْ

١٦٦٨ ـ وأمّا ما يُعْتَقد في أمورِ أَحكام البَشَرِ الجارية على يَدَيْه وقَضَاياهم، ومعرفة المحقّ من المُبْطل، وعلِم المُصْلِح من المُفْسِد، فبهذه السَّبِيل؛ لقوله عليه السلام: «**إنما أنَا بَشَرٌ وإنكم تختصمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكونَ ألْحنَ بحُجّته من بعضٍ؛ فأقضي له على نَحوِ ممَّا أَسمَعُ؛ فمَنْ قَضَيتُ له مِنْ حقِّ أَخيه بشيءٍ فلا يأخذ منه شيئاً، فإنما أَقْطَعُ له قطعةً من النار**» [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٦٩ ـ حدثنا الفقيه أَبو الوَليد رحمه الله؛ حدثنا الْحُسين بن محمد الحافظ، حدثنا أَبو عُمَرَ، حدثنا أبو محمد، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن كَثِير، حدثنا سُفيان، عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أَبيهِ، عن زينب

بنت أُمّ سَلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ . . . الحديث [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٧٠ ـ وفي رواية الزُّهري، عن عُرْوَة، قال: «**فلعلّ بعضَكم أن يكون أبلغَ من بعض؛ فأَحْسِبُ أنه صادق فأَقْضِي له**» [البخاري (٢٤٥٨)، مسلم (٥/١٧١٣)].

وتَجْري أحكامُه ـ عليه السلام ـ على الظاهر ومُوجَب غَلَباتِ الظنّ بشهادةِ الشاهد، ويمينِ الحالف، ومراعاةِ الأَشْبَهِ، ومعرفةِ العِفَاصِ والوِكَاء، مع مُقْتَضى حكمةِ الله في ذلك؛ فإنه تعالى ـ لو شاء ـ لأطْلَعه على سرائرِ عِبادِه، ومُخَبّآتِ ضمائر أُمته؛ فتولّى الْحُكْمَ بينهم بمجرّدِ يَقِينه وعِلْمه دونَ حاجةٍ إلى اعترافٍ، أو بيّنَةٍ، أو يمينٍ أو شُبْهة؛ ولكنْ لمَّا أَمر اللَّهُ أُمّتَه باتِّبَاعِه والاقتداءِ به في أحوالِه وأفعاله وأقوالِهِ، وقضاياه، وسِيَرِه؛ وكان هذا لو كان مِمّا يختصُّ بِعِلْمِه ويُؤْثِرُهُ اللَّهُ به، لم يكُنْ للأُمّةِ سبيلٌ إلى الاقتداء به في شيء من ذلك، ولا قامت حُجّةٌ بقضيّةٍ من قضاياه لأَحَدٍ في شريعتهِ؛ لأنا لا نعلَمُ ما أُطْلِعَ عليه هو في تلك القضيّة لِحُكْمِه هو إذاً في ذلك بالمكنون من إعلام اللَّهِ له بما أَطْلَعَهُ عليه من سرائرهم؛ وهذا ما لا تعلمُه الأمة؛ فأَجْرَى اللَّهُ تعالى أحكامَه على ظَوَاهرهم التي يَسْتَوِي فيها هو وغَيْرُه من البَشَر؛ ليَتِمّ اقتداءُ أُمتهِ به في تَعْيين قضاياهُ، وتنزيل أحكامِه، ويأتون ما أَتَوْا مِنْ ذلك على عِلْم ويقين من سُنّته، إذ البيانُ بالفِعْل أوقَع منه بالقوْلِ، وأَرْفَع لاحتمالِ اللّفظِ، وتأْوِيل المتأوّل؛ وكان حكمُه عَلَى الظاهِر أَجْلى في البيان، وأوضَحَ في وجوهِ الأحكام، وأكْثَر فائدةً لموجباتِ التَّشاجُر والْخِصَامِ، وليَقْتَدِي بذلك كلِّه حُكّامُ أُمّتِهِ، ويُسْتَوثق بما يُؤْثَر عنه، ويَنْضبط قانون شَريعته، وطيّ ذلك عنه من عِلْم الغَيْب الذي استأْثَر به ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فيعلّمه منه بما شاء، ويستأْثِر بما شاءَ، ولا يَقْدح هذا في نبوّته، ولا يَفْصِمُ عُرْوَةً من عصمته.

فصل
فِي أقوالِهِ ﷺ الدنيويّةِ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ غَيرِهِ، وَمَا فَعَلَهُ، أَوْ يَفْعَلُهُ

وأما أَقوالُه الدنيويّة: من إخبارِه عن أحوالِه، وأحوالِ غيره، وما يفعلُه أو فَعَله ـ فقد قدَّمْنَا ـ أنَ الْخُلْفَ فيها مُمْتَنِعٌ عليه في كلِّ حالٍ، وعلى أيّ وَجْهٍ كان من عَمْد أو سَهْو، أو صحةٍ، أو مرض، أو رَضاً، أو غَضَب، وأنه معصومٌ منه ﷺ .

هذا فيما طريقُه الخَبَر المَحْضُ مِمّا يدخله الصِّدْقُ والكَذِبُ؛ فأمّا المعاريضُ، الموهِمُ ظاهرُها خِلافَ باطِنِها، فجائزٌ ورودُها منه في الأمور الدنيويّة لا سيما لقَصْدِ المصلحةِ.

١٦٧١ - كتَوْرِيته عن وَجْه مَغَازيه لئلاً يأْخُذَ العدوُّ حِذْرَهُ.

وكما رُوي مِنْ مُمَازحتِه ودُعَابَتِه لبَسْط أُمَّتِه، وتَطْييب قلوب المؤمنين من صَحَابَتِهِ، وتأكيداً في تَخْبيبهم وصحبتهم، ومسرّةِ نُفوسهم.

١٦٧٢ - كقوله عليه السلام: «**لأَحْمِلَنَّكَ على ابْن الناقة**» [أبو داود (٤٩٩٨)، أحمد (٣/٢٦٧)].

١٦٧٣ - وقوله - للمرأة التي سأَلَتْهُ عن زَوْجِها: «**أَهُوَ الذي بِعَيْنِه بَيَاضٌ؟**».

وهذا كلُّه صِدْقٌ؛ لأَنَّ كلَّ جَملٍ ابنُ ناقةٍ، وكُلَّ إنسانٍ بعينهِ بياضٌ.

١٦٧٤ - وقد قال عليه السلام: «**إني لأَمْزَحُ، ولا أقولُ إلا حقّاً**» [الترمذي (١٩٩٠)، أحمد (٢/٣٤٠)].

هذا كلُّه فيما بابُه الخَبُر؛ فأما ما بابُه غَيْرُ الخبرِ فيما صُورَتُه صورةُ الأَمْرِ والنَّهْيِ في الأمورِ الدنيوية فلا يصحّ منه أيضاً، ولا يجوزُ عليه أن يأمُر أحداً بشيء أو يَنهى أحداً عن شيء وهو يُبطن خلافَه.

١٦٧٥ - وقد قال عليه السلام: «**ما كان لنبيّ أن تكونَ له خائنةُ الأَعْيُنِ**» [أبو داود (٢٦٨٣)، النسائي (٧/١٠٦)]. فكيف أن تكونَ له خيانة قَلْبٍ؟!

فإنْ قلتَ: فما معنى إذاً قوله تعالى في قصة زَيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فاعلَمْ - أكرمكَ اللّهُ - ولا تَسْتَرِبْ في تَنْزِيهِ النبيّ - عليه السلام - عن هذا الظاهِرِ وأَنْ يَأْمر زَيْداً بإمساكها وهو يحبُّ تطليقَه إياها، كما ذُكِر عن جماعةٍ من المفسرين.

١٦٧٦ - وأَصَحُّ ما في هذا القول ما حكاه أهل التفسير، عن عليّ بن الحُسين رضي الله عنهما، أنّ اللّهَ تعالى كان أَعْلَمَ نَبيَّهُ أَنَّ زَيْنَب ستكون من أزواجه، فلما شَكَاها إليه زيدٌ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وأَخفى في نفسه ما أَعْلَمه اللّهُ به من أنه سيتزوّجها مما اللّهُ مُبْدِيه ومُظهِره بتمام التزويج وطلاق زَيْدٍ لها.

١٦٧٧ - ورَوَى نحوَه عَمْرُو بن فائد، عن الزّهري، قال: نزل جبريلُ على

النبيّ ﷺ يُعلِمه أَنَّ اللَّهَ يزوِّجُهُ زَيْنب بنت جَحْش؛ فذلك الذي أخفى في نَفْسه.

ويصحّح هذا قولُ المفسّرين في قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي: لا بُدّ لك أن تتزوَّجها.

ويوضّحُ هذا أنَّ اللَّهَ لم يُبْدِ من أمرِهِ معها غيْرَ زواجِه إياها، فدلَّ أنه الذي أخفاهُ ـ عليه السلام ـ مِمّا كان أعلمه الله تعالى به.

وقولُه تعالى في آخر هذه القصة في بقية الآيات: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فدلَّ على أنه لم يكُنْ عليه حَرَجٌ في الأمر.

قال الطَّبَرِيُّ: ما كان اللَّهُ ليُؤْثِمَ نَبِيَّهُ ـ عليه السلام ـ فيما أحَلَّ له مِثالَ فِعْلِه لمن قَبْلَه من الرُّسل؛ قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي من النبيِّين فيما أُحِلَّ لهم.

١٦٧٨ ـ ولو كان ـ على ما رُوِيَ في حديث قتادة ـ من وقوعِها مِنْ قَلْبِ النبيِّ ﷺ عندما أعجبَتْهُ، ومحبّته طلاقَ زَيْدٍ لها لكان فيه أعظمُ الحَرَجِ، وما لا يَليقُ بِهِ مِنْ مَدِّه عَيْنَيْه لِمَا نُهِيَ عنه مِنْ زَهْرَةِ الحياةِ الدنيا، ولكان هذا نَفْسَ الحَسَد المذموم الذي لا يَرْضاهُ، ولا يتَّسِم به الأتقياءُ، فكيف سيِّدُ المرسلين؟!

قال القُشَيْرِيُّ: وهذا إقدامٌ عظيم مِنْ قائله، وقلّةُ معرفةٍ بحقِّ النبي ﷺ وبفَضْلِه.

وكيف يقال: رآها فأعجبَتْهُ؟ وهي: بِنْتُ عمَّته، ولم يَزَلْ يَراها منذُ ولِدتْ، ولا كان النساءُ يَحتَجِبْنَ منه ـ عليه السلام ـ قبل النبوة وبعدها، هذا وهو زوَّجها لزَيْد؛ وإنما جعل اللَّهُ طلاقَ زَيْدٍ لها، وتزويج النبيِّ ﷺ إياها؛ لإزالة حُرْمه التَّبَنّي، وإبطالِ سُنّتِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . .﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ الآية[الأحزاب: ٣٧].

ونَحْوُه لابْنِ فُورَك.

وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِي: فإنْ قيل: فما الفائدة في أَمْرِ النبيِّ ﷺ لزيد بإمساكِها؟ فهو: أنّ الله تعالى أعلمَ نبيَّه أنها زَوجتُه، فنهاهُ النبيُّ ﷺ عن طَلاقِها؛ إذ لم تكُنْ بينهما أُلْفَةٌ؛ وأخفى في نَفْسه ـ ﷺ ـ ما أعلمهُ اللَّهُ به، فلما طلَّقها زيدٌ خَشِيَ النبي ﷺ قولَ الناسِ: يَتزوجُ امرأةَ ابنِه؛ فأمره اللَّهُ بزَواجِها ليُباحَ مِثْلُ

ذلك لأُمَّته، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد قيل: كان أَمْرُهُ لزيدٍ بإمساكها قَمْعاً للشَّهْوَةِ، وردّاً للنفس عن هَوَاها. وهذا القولُ إذا جوّزْنا عليه ـ عليه السلام ـ أنه رآها فجأةً واستَحْسنها. فمِثْلُ هذا لا نُكْرَةَ فيه، لما طُبِعَ عليه ابْنُ آدمَ من استحسانِه الحَسَن، ونَظْرَةُ الفُجاءة مَعْفوٌّ عنها؛ ثم قمعَ نَفْسَه عنها، وأمر زَيْداً بإمساكها؛ وإنما تُنْكَرُ تلك الزياداتُ التي في القِصَّة. والتعويلُ والأَوْلى ما ذكرناه عن عليّ بن الحُسَين، وحكاهُ السَّمَرْقندي؛ وهو قولُ ابْنِ عطاء، وصحّحه واستحبه القاضي القُشَيْرِي. وعليه عوَّل أبو بكر بن فُورَك، وقال: إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير؛ قال: والنبيُّ ﷺ مُنَزَّهٌ عن استعمال النِّفَاق في ذلك، وإظهارِ خلافِ ما في نفسه، وقد نزَّهه اللَّهُ عن ذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ وقال: ومَنْ ظنَّ ذلك بالنبيّ ﷺ فقد أخطأ.

قال: وليس معنى الخَشْيةِ ـ هنا ـ: الخوف؛ وإنما معناه: الاستحياءُ؛ أي: يستحيي منهم أنْ يقولوا: تزوَّجَ زوجةَ ابنه.

وأن خشيته ـ عليه السلام ـ من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهودِ، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوَّجَ محمد زوجةَ ابنِه، بعد نَهْيه عن نِكاحِ حلائل الأبناء، كما كان؛ فعتبه الله ـ عز وجل ـ على هذا، ونزّهَهُ عن الالتفات إليهم فيما أحلَّه له، كما عتبَه على مُراعاةِ رِضَا أزواجِه في سورة التحريم بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] وكذلك قوله له ها هنا: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

١٦٧٩، ١٦٨٠ ـ وقد رُوِيَ عن الحسن البصري وعائشة: لو كتم رسولُ الله ـ ﷺ ـ شيئاً مما نزل عليه كتم هذه الآية [مسلم (٢٨٨/١٧٧)، الترمذي (٣٢٠٨)] لما فيها من عَتْبِه وإبداء ما أخفاه.

فصل

فِي شَرْحِ حَدِيثِ الوَصِيَّةِ فِي مَرَضِهِ ﷺ

١٦٨١ ـ فإنْ قلت: قد تقررتْ عصمتُه ـ عليه السلام ـ في جميع أقواله وأحواله، وأنه لا يصحُّ منه فيها خُلْفٌ ولا اضطرابٌ، في عَمْدٍ ولا سَهْو، ولا صحةٍ ولا مَرَضٍ، ولا جِدّ ولا مزح، ولا رِضاً ولا غضَب. ولكن ما معنى

الحديث في وصيته ـ عليه السلام ـ الذي حدثنا به القاضي الشهيد أبو عليّ رحمَه الله؛ قال: حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذرّ، حدثنا أبو محمد، وأبو الهَيْثَم، وأبو إسحاق؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا عبدالرزاق بن هَمَّام، حدثنا مَعْمَر، عن الزّهري، عن عُبيدالله بن عبدالله، عن ابن عباس؛ قال: لَما حُضِر رسولُ الله ﷺ وفي البيت رجالٌ، فقال النبيُّ ﷺ: «**هَلمُّوا أكتُبْ لكم كِتاباً لن تضِلُّوا بعده**» [البخاري (٤٤٣٢)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

فقال بعضُهم: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد غلَبَهُ الوَجَعُ... الحديث.

١٦٨٢ ـ وفي روايةٍ: «**ائتوني أكتبْ لكم كتاباً لن تَضِلُّوا بعدي أبداً**» فتنازعوا، فقالوا: مالَهُ؟ أَهَجَرَ؟! استَفْهِموه؛ فقال: «**دعُوني، فإنَّ الذي أنا فيه خَيْرٌ**» [البخاري (٣١٦٨، ٤٤٣١)، مسلم (٢٠/١٦٣٧)].

١٦٨٣ ـ وفي بعض طُرُقه: إِنَّ النبيَّ ﷺ يَهْجُرُ؟ [مسلم (٢١/١٦٣٧)].

١٦٨٤ ـ وفي رواية: هَجَرَ [البخاري (٣٠٥٣)]. ويُرْوى: أَهُجْرٌ؟ ويروى: أَهُجْراً؟

١٦٨٥ ـ وفيه: فقال عُمر: إنَّ النبيَّ ﷺ قد اشتدَّ به الوَجَع، وعندنا كتابُ اللَّهِ، حَسْبُنا. وكَثُر اللَّغَطُ؛ فقال: «**قومُوا عني**» [البخاري (١١٤)].

١٦٨٦ ـ وفي روايةٍ: واختلفَ أهلُ البيتِ واختصموا؛ فمنهم مَنْ يقولُ: قَرِّبوا له يكتبْ لكم رسولُ الله ﷺ كتاباً. ومنهم مَنْ يقول ما قال عُمَر [البخاري (٧٣٦٦)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

قال أئمتُنا في هذا الحديث: النبيُّ ـ ﷺ ـ غيرُ معصوم من الأمراض، وما يكونُ مِنْ عَوارِضها من شدَّةِ وَجَع، وغَشْيٍ، ونحوه مما يَطرأ على جِسمه، معصومٌ أَنْ يكونَ منه من القَوْل أثناءَ ذلك ما يَطْعَنُ في مُعْجِزَتِهِ، ويؤدِّي إلى فسادٍ في شريعته من هَذَيان، أو اختلالٍ في كلام.

وعلى هذا لا يَصحُّ ظاهِرُ روايةِ مَنْ رَوَى في الحديث: «هَجَر» إذ معناه: هَذَى. يقال: هَجَر هُجْراً، إذا هَذى. وأَهْجَرَ هُجْراً: إذا أفْحش؛ وأَهْجَرَ: تَعْدِيَةُ هَجَر؛ وإنما الأَصحُّ والأَوْلَى: «**أَهَجَرَ؟**» على طريق الإنكار على مَنْ قال: لا يَكتبُ...

١٦٨٧ ـ وهكذا روايتُنا فيه في «صحيح البخاري» من رواية جميع الرُّوَاة في حديث الزّهري المتقدم.

١٦٨٨ ـ وفي حديث محمد بن سَلاَم، عن ابن عُيَيْنَةَ [البخاري (٣١٦٨)]، وكذا ضَبَطَهُ الأَصِيْلِيُّ بخطِّه في كتابه، وغَيْرُه مِنْ هذه الطرق.

١٦٨٩ ـ وكذا رَوَيْناه عن مسلم في حديث سُفْيان [مسلم (١٦٣٧/٢٠)]، وعن غيره.

وقد تُحْمَلُ عليه روايةُ مَنْ رَوَاهُ «هَجَرَ؟» على حذْفِ أَلِف الاستفهام؛ والتقديرُ: «أَهَجَرَ؟» أو أنْ يُحْمَلَ قولُ القائل: «هَجَر» أو «أَهْجَرَ» دهشةً مِنْ قائل ذلك، وحيرةً لعظيم ما شاهَدَ مِنْ حالِ الرسولِ ﷺ، وشِدَّة وَجَعِهِ؛ وهَوْل المقام الذي اختُلِف فيه عليه، والأمْرِ الذي هَمَّ بالكتابِ فيه، حتى لم يَضْبط هذا القائلُ لفظَه، وأجْرَىٰ الهُجْرَ مُجْرَى شِدَّةِ الوَجع؛ لا أنَّه اعتقد أنه يجوزُ عليه الهُجْرُ، كما حملهم الإشفاقُ على حِرَاسته؛ والله تعالى يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ونحو هذا.

١٦٩٠ ـ وأمّا على رواية: «أَهُجْراً» وهي روايةُ أبي إسحاق المُسْتَمْلي في الصحيح في حديث ابن جُبَيْر، عن ابن عباس، من رواية قُتَيْبَةَ [البخاري (٤٤٣١)] ـ فقد يكون هذا رَاجعاً إلى المختلفينَ عنده ﷺ، ومخاطبةً لهم من بعضهم لبعض؛ أي جئتم باختلافكم على رسولِ الله ﷺ وبين يَدَيْه ـ هُجْراً ومُنْكَراً من القول؟

والهُجْرُ: بضم الهاء: الفُحْش في المَنْطق.

وقد اختلف العلماءُ في معنى هذا الحديث اختلافاً كثيراً، وكيف اختلف الصحابة بعد أمْرِهِ لهم ـ عليه السلام ـ أنْ يأتوه بالكتاب، فقال بعضُهم: أوَامِرُ النبيّ ﷺ يُفْهم إيجابُها، مِنْ نَدْبِها، مِنْ إباحتها بقرائن، فلعله قد ظهر مِنْ قرائن قوله ـ عليه السلام ـ لبعضهم ما فهمُوا أنه لم يكُنْ منه عَزمةٌ، بل أمْرٌ ردَّهُ إلى اختبارهم أو اختيارهم عند مَوْتِهِ وبعضُهم لم يَفْهم ذلك، فقال: استَفْهِمُوهُ، فلما اختلفوا كفَّ عنه، إذ لم يكن عَزمة، ولِمَا رأوْهُ مِنْ صوابِ رأي عُمَر.

ثم هؤلاء قالوا: ويكون امتناعُ عُمر إمّا إشفاقاً على النبيّ ﷺ مِنْ تكليفه في تلك الحال إملاء الكتاب، وأن تدخُلَ عليه مشقّةٌ من ذلك، كما قال: إن النبيّ ﷺ اشتدَّ به الوَجَعُ.

وقيل: خَشِيَ عُمَرُ أن يكتبَ أُموراً يعجزون عنها فيحصلونُ في الحَرَج بالمخالفة، ورأى أن الأرْفق بالأمةِ في تلك الأمور سعَةُ الاجتهاد، وحكْمُ النظر، وطلبُ الصواب؛ فيكونُ المصيبُ والمخطىء مَأجوراً.

وقد عَلِمَ عُمَرُ تَقرُّرَ الشَّرْعِ، وتأسيسَ المِلَّةِ، وأنَّ الله تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

١٦٩١ ـ وقوله عليه السلام: «**أُوصِيكم بكتَاب الله وعِتْرَتي**» [مسلم (٢٤٠٨)].

وقولُ عُمر: «حَسبُنا كتاب الله» ردٌّ علَى من نازَعه، لا عَلَى أمْرِ النبيّ ﷺ.

وقد قيل: إنَّ عُمر خشي تطرُّقَ المنافقين ومَنْ في قلوبهم مَرَضٌ لِمَا كُتِبَ في ذلك الكتاب في الخَلْوَةِ، وأن يتقوّلوا في ذلك الأقاويل، كادِّعاءِ الرافضة الوصيةَ لعليّ وغير ذلك.

وقيل: إنه كان من النبيّ ﷺ لهم على طريق المَشُورة والاختبار. هل يتفقون على ذلك أم يختلفون؟ فلما اختلفوا تركه.

وقالت طائفة أُخرى: إنَّ معنى الحديث أَنَّ النبي ـ ﷺ ـ كان مُجيباً في هذا الكتاب لِمَا طُلِبَ منه؛ لا أَنّه ابتدأ بالأمْر به؛ بل اقتضاهُ منه بَعْضُ أصحابِه؛ فأَجاب رَغْبَتَهم، وكره ذلك غيرُهم لِلْعِلَل التي ذكرناها.

١٦٩٢ ـ واستُدِلَّ في مثل هذه القضية بقولِ العباسِ لعليّ بن أبي طالب: انْطَلِقْ بنا إلى رسولِ الله ﷺ؛ فإنْ كان الأمْرُ فينا عَلِمْنَاهُ؛ وكراهةِ عليٍّ هذا، وقولِه: واللَّهِ! لا أفعل... الحديث [البخاري (٤٤٤٧)].

١٦٩٣ ـ واستدلّ بقوله: «**دَعُوني؛ فإن الذي أنا فيه خير**» أي: الذي أنا فيه خيرٌ من إرسالِ الأَمْر، وتَرْكِكم وكتابَ الله، وأنْ تَدعوني مِمَّا طلبْتُم.

وذُكِر أنَّ الذي طُلِبَ كتابُهُ أَمْر الخلافةِ بَعْدَه، وتعيينُ ذلك.

فصل
فِي شَرْحِ حَدِيثِ: أيُّما مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ أوْ جَلَدْتُهُ فاجْعَلْها كَفَّارَةً، وأحاديثَ أُخَرَ

١٦٩٤ ـ فإن قيل: فما وَجه حديثه أيضاً الذي حدثنا به الفقيه أبو محمد الخُشَني بقراءتي عليه، حدثنا أبو علي الطَّبَري، حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجُلُودي؛ قال: حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا قُتَيبة، حدثنا ليث، عن سعيد بن أبي سَعِيد، عن سالم مَوْلى النَّصْرِيِّين؛ قال: سمعت أبا هُرَيرة يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**اللَّهم! إنما مُحَمَّدٌ بَشَرٌ، يَغْضَبُ كما يَغضَبُ البَشَر، وإني قد اتَّخذْتُ عندكَ عَهْداً لن تُخْلِفَنيه، فأيُّما**

مؤمنٍ آذيتهُ، أو سَبَبْتُهُ، أو جَلَدْتُه، فاجعلها له كفارةً وقُربةً، تُقرِّبُه بها إليكَ يومَ القيامة» [مسلم (٢٦٠١/٩١)، البخاري (٦٣٦١)].

١٦٩٥ ـ وفي رواية: «**فأيُّما أحدٍ دعوتُ عليه دَعوةً**» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٦ ـ وفي رواية: «**ليس لها بأَهْلٍ**» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٧ ـ وفي رواية: «**فأيُّما رجُلٍ من المسلمين سَبَبْتُه، أو لعَنْتُه، أو جلدتُه، فاجعلها له زكاةً، وصلاة، ورحمةً**» [مسلم (٢٦٠١/٨٩)].

وكيفَ يصحُّ أنْ يَلْعَنَ النبيُّ ـ ﷺ ـ مَنْ لا يستحقُّ اللَّعْنَ، ويَسبُّ مَنْ لا يستحقُّ السبَّ، ويجلدُ مَنْ لا يستحقُّ الجَلْدَ، أو يفعَلُ مثل ذلك عند الغَضب، وهو معصومٌ من هذا كلِّه؟

فاعلَمْ ـ شرح اللَّهُ صَدْرك ـ أنَّ قوله ﷺ أولاً: «**ليس لها بأهْلٍ**»؛ أيْ: عندك يا ربِّ في باطن أمره؛ فإنَّ حُكْمَهُ ـ عليه السلام ـ على الظاهر، كما قال، ولِلحكْمَةِ التي ذَكَرْنَاها، فحَكَم ـ عليه السلام ـ بجلْدِه، أو أدَّبه بسبِّه، أو لَعْنِهِ، بما اقتضاهُ عنده حالُ ظاهِره؛ ثم دعا عليه الصلاة والسلام لشَفَقَتِهِ ﷺ على أُمَّته، ورحمته لهم، ورأفته عليهم التي وصفَهُ اللَّهُ بها، وحَذَرِه أن يتقبَّل اللَّهُ فيمَنْ دَعَا عليه دعوتَهَ ـ أنْ يجعلَ دعاءَه ولَعْنَهُ وسبَّهُ له رحمة؛ فهو معنى قوله: «**ليس لها بأهل**»؛ لا أنه ـ عليه السلام ـ يحمله الغضبُ، ويستفزُّه الضَّجر لأنْ يَفعَلَ مِثْلَ هذا بمَنْ لا يستحقُّه مِنْ مُسْلم.

وهذا معنًى صحيح، ولا يُفهَم من قوله: «**أغْضَبُ كما يَغْضَبُ البَشَر**» أنَّ الغَضبَ حملَه على ما لا يجبُ فعلُه؛ بل يجوزُ أن يكونَ المرادُ بهذا أَنَّ الغَضَبَ لله حمَلَهُ على معاقَبتهِ بلَعْنِه أو سبِّه؛ وأنه مما كان يحتمل ويجوز عفْوُه عنه، أو كان مما خُيِّر بين المعاقبةِ فيه أو العَفْوِ عنه.

وقد يَحتمل أنه خرج منه ذلك، بمَخْرَجِ الإشفاق وتعليم أُمتهِ الخوفَ والحذَرَ مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ الله تعالى.

وقد يُحْمَل ما وردَ من دُعائه هذا، ومن دعواته على غير واحدٍ في غير مَوْطن، على غير العَقْدِ والقَصْد؛ بل بما جرت به عادةُ العرب؛ وليس المراد بها الإجابة.

١٦٩٨ ـ كقوله عليه السلام: «**تَرِبَتْ يَمِينُكَ**» [أحمد (٨١/٣)، البخاري (١٣٠)، مسلم (٣١٠)].

١٦٩٩ ـ و «**لا أشْبَعَ الله بَطْنَكَ**» [مسلم (٢٦٠٤)].

١٧٠٠ ـ و «عقرى حلقى» [البخاري (١٥٦١)، مسلم (١٢١١/١٢٨)] وغيرها من دعواته عليه السلام.

١٧٠١ ـ وقد وَرَد في صِفتِه ـ في غير حديثٍ ـ أنه عليه السلام لم يَكُنْ فحَّاشاً.

١٧٠٢ ـ وقال أَنَس: لم يكن سبَّاباً، ولا فاحشاً، ولا لعّاناً؛ وكان يقول لأحدنا عند المَعْتَبَةِ: «ما لَهُ تَرِبَ جَبِينُه؟» [البخاري (٦٠٣١، ٦٠٤٦)].

فيكون حَمْلُ الحديث على هذا المعنى؛ ثم أَشفَقَ ـ عليه السلام ـ من مُوافَقَةِ أمثالها إجابةً، فعاهد ربَّه، كما قال في الحديث، أَنْ يجعلَ ذَلِكَ للمقُولِ له زَكاةً، ورَحْمَةً، وقُرْبَةً.

وقد يكون ذلك إشفاقاً على المدعُوِّ عليه، وتأنيساً له؛ لئلا يَلْحقَه من استشعارِ الخوف والحذَر من لَعْن النبيِّ ﷺ، وتقبُّل دعائه، ما يحمِله على اليأْسِ والقُنوط من رحمة الله.

وقد يكون ذلك سُؤَالاً مِنه لربِّه ـ عز وجل ـ لِمَنْ جلدَه، أو سبّه على حَقٍّ، وبوجْهٍ صحيح أَن يجعلَ ذلك لَهُ كفّارةً لِمَا أَصابَه، وتَمْحِيَةً لما اجترم، وأن يكون ذلك عقوبتُه له في الدنيا سبَبَ العَفْوِ والغُفْران.

١٧٠٣ ـ كما جاء في الحديث الآخر: «ومَنْ أَصاب من ذلك شيئاً فعُوقِبَ به في الدنيا فهو كفّارةٌ له» [البخاري (١٨)، مسلم (١٧٠٩)].

١٧٠٤ ـ فإنْ قلت: فما معنى حديث الزُّبير وقولِ النبيِّ ﷺ ـ حين تَخَاصُمِه مع الأَنصاريِّ في شِرَاج الحَرَّةِ ـ: «اسْقِ يا زُبَيْرُ! حتى يبلُغَ الماء الكعبين». فقال له الأنصاري: أَنْ كان ابْنَ عَمّتك، يا رسول الله! فتلَوَّن وَجْهُ النبيِّ ﷺ؛ ثم قال: «اسْقِ يا زُبَيْرُ! ثم احبِسْ حتى يبلُغَ الجَدْرَ. . .» الحديث.

فالجوابُ أَنَّ النبيَّ ﷺ مُنَزَّهٌ أن يقَعَ بنَفْس مُسلم منه في هذه القصة أَمْرٌ يُريب؛ ولكنه ﷺ ندبَ الزُّبَيْرَ أولاً إلى الاقتصار علىَ بعض حَقِّه على طريق التوسط، والصُّلح، فلمَّا لم يَرْضَ بذلك الآخَرُ، ولَجَّ، وقال ما لا يجبُ، استوفى النبيُّ ﷺ للزُّبَيْر حقه.

ولهذا ترجَمَ البُخاري على هذا الحديث: بابٌ: إذا أَشار الإمامُ بالصُّلح فَأَبى حَكَم عليه بالحُكم البَيِّنِ [البخاري (٥/٣٠٩ فتح)].

١٧٠٥ ـ وذَكر في آخر الحديث: فاستَوْعى رَسُولُ الله ﷺ حينئذٍ للزُّبير حقَّه [البخاري (٢٧٠٨)].

وقد جعل المسلمون هذا الحديثَ أصْلاً في قضيّته.

١٧٠٦ ـ وفيه الاقتداءُ به ﷺ في كلِّ ما فعله في حالِ غضَبِه ورِضَاه، وأنه ـ وإن نَهى أنْ يَقْضِيَ القاضي وهو غَضْبَان [البخاري (٧١٥٨)، مسلم (١٧١٧)] ـ فإنه في حكمه في حال الغَضَب والرِّضا سواء، لكونه فيهما معصوماً. وغضبُ النبيِّ ﷺ في هذا إنما كان لِلَّهِ تعالى لا لِنَفْسِهِ، كما جاء في الحديث الصحيح.

١٧٠٧ ـ وكذلك الحديث في إقادته عُكَّاشَةَ من نَفْسه لم يكن لتَعَدِّ حَمَلَهُ الغَضَبُ عليه؛ بل وقع في الحديث نفسه أن عُكَّاشَة قال له: وضَرَبْتَني بالقَضِيب، فلا أَدْرِي أعمداً، أم أردتَ ضَرْبَ الناقة؟ فقال النبيُّ ﷺ: **«أُعِيذُكَ بالله، يا عُكَّاشَةُ! أن يتعمَّدكَ رسول الله ﷺ»**.

١٧٠٨ ـ وكذلك في حديثه الآخر مع الأعرابيِّ حين طلب ـ عليه السلام ـ الاقتصاصَ منه، فقال الأعرابيُّ: قد عَفَوْتُ عنك. وكان النبي ﷺ قد ضربه بالسَّوْطِ لتَعَلُّقِه بزمام ناقته مرةً بعد مرة، والنبي ﷺ يَنْهَاهُ ويقول له: **«تُدْرِكُ حاجتَك»** وهو يَأْبَى؛ فضربه ـ عليه السلام ـ بعد أنْ نهاهُ ثلاثَ مرات.

وهذا منه ـ عليه السلام ـ لِمَنْ لم يَقِفْ عند نَهْيه صوابٌ، وموضِعُ أَدَبٍ، لكنه ـ عليه السلام ـ أشفق إذ كان حقَّ نَفْسه من الأَمْرِ حتى عَفَا عنه.

١٧٠٩ ـ وأمّا حديثُ سَوَاد بن عَمْرو: أتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ وأنا مُتَخَلِّقٌ فقال عليه الصلاة والسلام: **«وَرْسٌ! وَرْسٌ! حُطَّ، حُطَّ»** وغَشِيَني بقَضِيب كان في يَده في بَطْني فأوجعني. قلت: القصاصَ، يا رسولَ الله! فكشف لي عن بَطْنِه ـ ﷺ ـ فأبيتُ القصاصَ.

وإنما كان ضربه ـ عليه السلام ـ لِمُنْكَرٍ رآهُ به؛ ولعلّه لم يُرِدْ بضَرْبه بالقضيب إلاّ تَنْبِيهَهُ، فلما كان منه إيجاعٌ لم يقْصِدْهُ طلب التحلّل منه على ما قدمناه.

فصل
فِي أنَّ عَامّةَ أفعَالِهِ ﷺ سَدَادٌ وَصَوَابٌ، والرّدُّ على بَعْضِ الشُّبَهِ

وأمّا أفعالُه ـ عليه السلام ـ الدُّنيَويّة فحُكْمُه فيها مِنْ تَوَقِّي المَعَاصي والمكروهات ما قد قدمناه، ومن جوازِ السَّهْوِ والغلطِ في بعضها ما ذكرناه.

وكلُّه غَيْرُ قادحٍ في نبوته عليه السلام. بلى، إن هذا فيها على النُّذور؛ إذ عامّةُ أفعالِه على السَّدَاد والصواب، بل أكثرُها أو كلُّها جاريةٌ مَجْرَى العباداتِ

والقُرَب على ما بيَّنا؛ إذ كان ـ عليه السلام ـ لا يأخُذُ منها لنَفْسِه إلا ضرورَته، وما يُقيم به رَمَقَ جسمِه، وفيه مصلحة ذاتِه التي بها يَعْبُدُ ربَّه، ويُقِيم شريعتَه، ويَسُوسُ أُمَّته، وما كان فيها بينه وبين الناس من ذلك فبَيْنَ معروفٍ يصْنَعه، أو برٍّ يوسِّعُه، أو كلام حسَنٍ يقولُه أو يَسْمَعُه، أو تألُّف شاردٍ، أو قَهْرِ مُعَانِدٍ، أو مُدَاراةِ حاسدٍ؛ وكلُّ هٰذا لاحِقٌ بصالح أعمالِه عليه السلام، مُنتظِم في زَاكِي وظائفِ عِبَاداته؛ وقد كان يُخَالِفُ في أفعالِه الدنيوية بحسبِ اختلاف الأحوالِ، ويُعِدُّ للأُمور أَشباهها، فيركَبُ في تصرُّفه ـ لِمَا قرُبَ ـ الحمارَ، وفي أسفاره البعيدة الراحِلَةَ، ويركبُ البَغْلَةَ في معاركِ الحَرْب، دليلاً على الثبات، ويركبُ الخَيْلَ ويُعِدُّها ليوم الفَزَعِ وإجابة الصارخ.

وكذلك في لباسِه وسائرِ أحوالِه بحسَبِ اعتبار مصَالِحه، ومصالح أُمَّتِه.

وكذلك يَفْعَلُ الفِعْلَ من أُمورِ الدنيا، مساعدةً لأُمَّتِه، وسياسةً وكراهيةً لخِلافِها، وإن كان قد يرى غَيْرَه خيراً منه، كما يَتْرُكُ الفِعْلَ أبداً؛ وقد يرى فِعلَه خيراً منه. وقد يفعل هذا في الأمور الدينية مما لهُ الخِيَرةُ في أَحَدِ وَجْهيه، كخروجه من المدينة لأُحُدٍ، وكان مذهبُه التحصُّنَ بها.

١٧١٠ ـ وتَرْكه قَتْلَ المنافقين، وهو على يقين من أمْرِهم مؤالفَةً لغيرهم، ورعايةً للمؤمنين من قَرَابتهم، وكراهةً لأَنْ يقول الناس: إن محمداً يقتلُ أَصحابَه؛ كما جاء في الحديث.

١٧١١ ـ وتَرْكه بناءَ الكعبةِ على قواعد إبراهيم، مراعاةً لقلوب قُريش، وتعظيمهم لتغييرها، وحذَراً من نِفَارِ قلوبهم لذلك، وتحريكِ متقدِّم عَدَاوتهم للدِّينِ وأهله؛ فقال لعائشة في الحديث الصحيح: «**لولا حِدْثانُ قومِكِ بالكُفر لأتمَمْتُ البيتَ على قواعدِ إبراهيم**» [البخاري (١٥٨٥)، مسلم (١٣٣٣)].

١٧١٢ ـ ويفعلُ الفِعْلَ ثم يتركه؛ لكَونِ غيرِه خيراً مِنْهُ؛ كانتقالِه من أدْنى مِيَاهِ بَدْرٍ إلى أقربها للعدوّ من قريش.

١٧١٣ ـ وقوله: «**لو استقبلْتُ من أمري ما استَدْبَرْتُ ما سُقْتُ الهَدْيَ**» [البخاري (٧٢٢٩)، مسلم (١٢١١/١٥)].

ويبسطُ وَجْهه للعدوّ الكافر رجاءَ استئلافه.

١٧١٤ ـ ويصبر للجاهل، ويقول: «**إنَّ مِنْ شِرَار الناسِ مَن اتَّقاهُ الناس لِشَرِّه**» [البخاري (٢١٣١)، مسلم (٢٥٩١)]. ويبذلُ له الرغائب ليحبِّبَ إليه شريعتَه ودِيْنَ ربِّه.

ويتولّى في مَنْزله ما يتولَّى الخادِمُ مِنْ مِهْنَتِه، وَيَتَسَمَّتُ في مَلَئِه، حتى لا يبدو منه شيءٌ من أطرافه، وحتى كأن على رؤوس جُلسائه الطير؛ ويتحدث مع جلسائه بحديث أَوَّلِهم، ويتعجّبُ مما يتعجبون منه، ويضحكُ مما يضحكون منه؛ قد وَسِعَ الناسَ بِشْرُهُ وعَدْلُه، لا يستفزُّهُ الغَضَبُ، ولا يُقصِّر عن الحقّ، ولا يُبْطِنْ على جلسائه.

١٧١٥ ـ يقول: «**ما كانَ لنبيٍّ أن تَكُونَ له خائنةُ الأَعْيُنِ**».

١٧١٦ ـ فإنْ قلْتَ: فما معنى قوله لعائشة رضِيَ الله عنها في الدَّاخل عليه: «**بئس ابنُ العشيرةِ**» فلما دخل عليه، أَلاَنَ له القولَ، وضحكَ معه، فلما سألتْهُ عن ذلك قال: «**إنَّ مِنْ شرارِ الناس مَنِ اتّقاهُ الناسُ لشَرِّه**».

وكيف جاز أَنْ يُظْهِرَ له خلافَ ما يُبْطِن، ويقول في ظَهْرِه ما قال؟

فالجوابُ عن ذلك: أَنَّ فِعْلَه ـ عليه السلام ـ كان استئلافاً لمِثْلِه، وتطييباً لنفسه؛ ليتمكّنَ إيمانُه، ويدخلَ في الإسلام بسببِهِ أتباعُه، ويراه مِثْلُه فينجذب بذلك إلى الإسلام.

ومِثْلُ هذا على هذا الوَجْهِ قد خرج مِنْ حَدِّ مداراة الدنيا إلى السياسة الدِّينية.

وقد كان النبيّ يستَأْلِفهم بأموال اللَّهِ العريضةِ، فكيف بالكلمة اللَّيِّنة؟

١٧١٧ ـ وعن صَفْوَانَ: لقد أعطاني وهو أَبْغَضُ الناس إليّ، فما زال يُعطيني حتى صار أَحبَّ الخَلْقِ إليّ [مسلم (٢٣١٣)].

١٧١٨ ـ وقوله فيه: «**بئس ابنُ العشيرةِ**» هو غير غِيبةٍ؛ بل هو تعريفُ ما علمه منه لمَنْ لم يَعْلَمْ، لِيُحْذَر حالُه، ويُحْتَرَزَ مِنْهُ، ولا يوثَق بجانبه كلَّ الثِّقَة، ولا سيما وكان مُطاعاً مَتْبُوعاً في قومه.

ومِثْلُ هذا إذا كان لضرورة، وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ، لم يكن بِغيبةٍ، بل كان جائزاً، بل واجباً في بعض الأحيان كعادة المحدِّثين في تجريح الرواة، والمزكّين في الشُّهود.

١٧١٩ ـ فإن قيل: فما معنى المُعْضِل الوارِد في حديث بَرِيرَةَ من قَوْله ﷺ لعائشة؛ وقد أخبرته أَنَّ مَوالِيَ بَرِيرةَ أَبَوْا بَيْعها إلا أَن يكونَ لهم الوَلاءُ؛ فقال لها عليه السلام: «**اشتريها واشتَرِطي لهم الوَلاءَ**» ففعلت، ثم قام خطيباً، فقال: «**ما بالُ أقوام يشترطونَ شروطاً ليسَتْ في كتاب الله؟ كلُّ شَرْطٍ ليس في كتاب اللَّهِ فهو باطل**» [البخاري (٢١٦٨)، مسلم (١٥٠٤)] والنبيُّ ـ ﷺ ـ قد أمرها بالشَّرْط لهم، وعليه باعُوا،

ولولاه ـ واللَّهُ أعلم ـ لما باعُوها من عائشة، كما لَمْ يَبِيعوها قَبْلُ حتى شرطُوا ذلك عليها؛ ثم أبطله ـ عليه السلام ـ وهو قد حرَّمَ الغِشَّ والخديعة؟!

فاعلم ـ أكرمكَ اللَّهُ ـ أَنَّ النبيَّ ﷺ مُنَزَّهٌ عن ذلك مما يَقَعُ في بال الجاهلِ مِنْ هذا، ولتَنْزيهِ النبيّ ـ عليه السلام ـ عن ذلك ما قد أَنكر قومٌ هذه الزيادة في الرواية قوله: «**اشترطي لهم الولاء**» إذ ليست في أكثر طرقِ الحديث؛ ومع ثَبَاتها فلا اعتراضَ بها؛ إذ يقَعُ «**لهم**» بمعنى «عليهم»؛ قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]. أي: عليهم.

وقال: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: ٧]. أي: فعليها.

فعلى هذا يكون معناه: **اشترطي** عليهم الولاءَ لكِ، ويكون قيامُ النبيِّ ﷺ ووَعظُهُ لما سلف لهم من شَرْطِ الولاءِ لأنفُسهم قَبْلَ ذلك.

ووَجه ثانٍ: أَنَّ قولَه عليه السلام: «**اشترطي لهم الوَلاَء**»، ليس على معنى الأَمر، لكن على معنى التسوية والإعلام بأَنَّ شَرْطَهُ لهم لا ينفَعُهم بعد بيانِ النبيِّ ﷺ لهم قَبْلُ: أنَّ الولاءَ لمَنْ أَعتق؛ فكأنه قال: اشترطي أو لا تَشْتَرطي، فإنه شَرْطٌ غَيْرُ نافع.

وإلى هذا ذَهب الدَّاوُدِيّ وغَيْرُهُ؛ وتوبيخ النبيِّ ﷺ لهم؛ وتقريعُهم على ذلك يَدُلُّ على عِلْمِهم به قَبْلَ هذا.

الوَجه الثالث: أَنَّ معنى قوله: «**اشترطي لهم الوَلاَءَ**» أي: أظهِري لهم حُكْمَهُ، وبيِّني عندهم سُنَّتَهُ أَنَّ الولاءَ إنما هو لمَنْ أَعتق. ثم بعد هذا قام هو ﷺ مبيِّناً ذلك ومُوَبِّخاً على مخالفة ما تقدَّم مِنْهُ فيه.

فإنْ قيل: فما معنى فِعْلِ يوسفَ ـ عليه السلام ـ بأخيه؛ إذْ جعل السِّقايةَ في رَحْلِه، وأَخَذَهُ باسم سَرِقتها، وما جَرَى على إخوته في ذلك، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]؛ ولم يَسْرِقُوا؟

فاعلم ـ أكرمك الله ـ أَنَّ الآيةَ تدلُّ على أنّ فعْلَ يوسفَ كان عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

فإذا كان كذلكَ فلا اعتراضَ به، كان فيه ما فيه.

وأيضاً فإنَّ يوسفَ كان أَعْلَمَ أَخاهُ بـ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ الآية [يوسف: ٦٩] فكان ما جَرَى عليه بعد هذا من وفْقه ورَغْبَتِه، وعلى يقينٍ من عُقْبَى الخَيْرِ له به، وإزاحةِ السُّوءِ عنه والمضَرّةِ بذلك.

وأما قوله: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فليس من كلام يوسف ولا من قوله، فيلزمُ عليه جوابٌ لِحَلِّ شُبَهِهِ.

ولعلَّ قائلَه إنْ حُسِّنَ له التأويلُ كائناً مَنْ كان ظَنَّ على صورةِ الحالِ ذلك.

وقد قيل: قال ذلك لِفعْلهم قَبْلُ بيوسفَ وبَيْعهم له. وقيل غير هذا. ولا يلزمُ أنْ يُقَوِّلَ الأنبياءُ ما لم يأتِ أنهم قالوه، حتى يُطْلَبَ الخلاصُ منه، ولا يلزمُ الاعتذارُ عن زَلاَّت غيرهم.

فصل

فِي الحِكْمَةِ فِي إِجْرَاءِ الأَمْرَاضِ وَشِدَّتِها عَلَيهِ ﷺ، وَعَلَى جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ

فإن قيل: فما الحكمةُ في إجْراء الأمراضِ وشدَّتها عليه، وعلى جميع الأنبياء عليهم السلام؟ وما الوَجْهُ فيما ابتلاهُم اللَّهُ به من البَلاَءِ، وامتحانهم بما امتُحنُوا به كأيوب، ويعقوب، ودانيال، ويحيى، وزكريا، وعيسى، وإبراهيم، ويوسف، وغيرهم، صلواتُ الله عليهم، وهم خيرتُه من خَلْقِهِ وأَحِبَّاؤه وأصفياؤه؟

فاعلم ـ وفَّقك اللَّهُ ـ أَنَّ أفعالَ اللَّهِ تعالى كلَّها عَدْلٌ، وكلماتِه جميعها صدقٌ لا مُبَدِّل لكلماته، يَبْتَلي عبادَه، كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

و ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فامتحانُه ـ عز وجل ـ إياهم بضروبِ المِحَن زيادةٌ في مكانتهم، ورفعةٌ في درجاتهم، وأسبابٌ لاستخراج حالات الصبر والرضا، والشكرِ والتسليم، والتوكُّل، والتفويض، والدعاءِ، والتضرّع منهم، وتأكيدٌ لبصائرهم في رَحْمَةِ المُمْتَحَنين، والشفَقَةِ على المُبْتَلين، وتذكرةٌ لغيرهم، وموعظةٌ لسواهم ليتأسَّوا في البلاءِ بهم؛ ويتسلَّوا في المِحَن بما جرَى عليهم، ويقتدوا بهم في الصَّبر، ومَحْوٌ لِهَنَاتٍ فرطَتْ منهم، أو غَفَلاتٍ سلفَتْ لهم، لِيَلْقَوا الله تعالى طيِّبين مُهذَّبين؛ وليكون أجرُهم أكملَ، وثوابُهم أوفرَ وأجْزل.

١٧٢٠ ـ حدثنا القاضي أبو عليّ الحافظ، حدثنا أبو الحسين الصَّيْرفيّ وأبو

الفضل بن خَيْرون؛ قالا: حدثنا أبو يَعْلى البَغْداديُّ، حدثنا أبو علي السِّنْجيُّ، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى التِّرمذي، حدثنا قُتيبة، حدثنا حمّاد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن مُصْعب بن سَعْد، عن أبيه؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله! أيُّ الناسِ أَشدُّ بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأَمْثَلُ، فالأمْثَلُ، يُبْتَلى الرَّجلُ على حسَبِ دِينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يَتْرُكَهُ يمشي على الأرض وما عليه خَطِيئة»** [الترمذي (٢٣٩٨)، ابن ماجه (٤٠٢٣)].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ـ ١٤٨].

١٧٢١ ـ وعن أبي هريرة [الترمذي (٢٣٩٩)]: **«ما يزالُ البلاءُ بالمُؤمن في نفسه، وولده، وماله حتى يلقَى اللَّهَ، وما عليه خطيئة»**.

١٧٢٢ ـ وعن أنس، عنه عليه السلام: **«إذا أراد اللَّهُ بعَبْده الخير عجَّل له العقوبَة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسكَ عنه بذَنْبِه حتى يُوَافى به يوم القيامة»** [الترمذي (٢٣٩٦)].

١٧٢٣ ـ وفي حديث آخر: **«إذا أَحبَّ الله عَبْداً ابْتَلاهَ ليَسْمَعَ تضرُّعَهُ»**.

وحكى السَّمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ كلَّ مَنْ كان أكرمَ على الله تعالى كان بلاؤه أشَدَّ كيْ يتبيَّن فَضْلُه، ويستوجبَ الثواب؛ كما رُوي عن لُقمانَ أنه قال: يا بنيّ! الذهبُ والفضةُ يُخْتَبرانِ بالنار، والمؤمنُ يُخْتَبَرُ بالبلاء.

وقد حُكِي: أَنَّ ابتلاءَ يعقوبَ بيوسف كان سبَبه التفاتَه في صَلاَتِه إليه، ويوسفُ نائمٌ محبةً له.

١٧٢٤ ـ وقيل: بل اجتمع يوماً هو وابنُه يوسف على أكْلِ حَملٍ مَشْوِيّ، وهما يَضْحَكانِ، وكان لهم جارٌ يتيم، فشمّ رِيحَه واشتهاه وبكى، وبكتْ جدَّةٌ له عجوز لبكائه، وبينهما جِدَار، ولا عِلْمَ عند يعقوب وابنِه؛ فعُوقبَ يعقوبُ بالبكاء أَسَفاً على يوسف إلى أنْ سالَتْ حَدَقتاهُ، وابيضَّتْ عيناهُ من الحُزْن. فلما علم بذلك كان بقيَّةَ حياتِه لا يردُّ سائلاً، ويأْمُر منادياً ينادي على سَطْحه: ألاَ مَنْ كان مُفْطِراً فليتغَدَّ عند آل يعقوب.

وعُوقِبَ يوسف بالمِحْنَةِ التي نصَّ الله عليها.

١٧٢٥ ـ ورُوِي عن الليث أَنَّ سببَ بلاءِ أيوب أنه دخل مع أهل قريته على

مَلِكِهِم، فكلّموه في ظُلمه، وأغلظوا له إلاّ أيوب، فإنه رَفق به مخافةَ على زَرْعِه، فعاقَبَهُ اللّهُ تعالى ببلائه.

ومِحْنةُ سليمانَ لِمَا ذكرناهُ من نيتِه في كوْنِ الحقّ في جِهَة أصهاره؛ أو للعمل بالمعصية في داره، ولا عِلْمَ عنده.

١٧٢٦ ـ وهذه فائدةُ شدّةِ المرضِ والوَجَع بالنبيّ ﷺ؛ قالت عائشة: ما رأيتُ الوجَعَ على أحدٍ أشدّ منه على رسولِ الله ﷺ [البخاري (٥٦٤٦)، مسلم (٢٥٧٠)].

١٧٢٧ ـ وعن عبداللّه: رأيتُ النبيَّ ﷺ في مرضه، يُوعَكُ وَعْكاً شديداً، فقلت: إنك لتُوعَك وعْكاً شديداً! قال: **«أَجَلْ، إني أُوعَكُ كما يوعَكُ رَجُلاَن منكم»**. قلت: ذلك أنَّ لك الأَجْرَ مرتين؟ قال: **«أجلْ، ذلك كذلك»** [البخاري (٥٦٤٨)، مسلم (٢٥٧١)].

١٧٢٨ ـ وفي حديث أَبي سعيد أن رجُلاً وضَع يدَهُ عَلَى النبيِّ ﷺ فقال: واللّهِ! ما أُطِيقُ أَضَعُ يدي عليك من شِدَّةِ حُمّاك. فقال النبيُّ ﷺ: **«إنا مَعْشَرَ الأنبياء يُضَاعفُ لنا البلاءُ، إنْ كان النبيُّ ليُبْتَلَى بالقُمَّلِ حتى يَقْتُلَه، وإن كان النبيُّ ليُبْتَلَى بالفقر، وإنْ كانوا ليَفرَحُون بالبلاءِ كما تفرحون بالرخاء»** [ابن ماجه (٤٠٢٤)].

١٧٢٩ ـ وعن أنس، عن النبي ﷺ: **«إنَّ عِظَم الجَزاءِ مع عِظَم البلاءِ، وإنَّ اللّهَ إذا أَحبَّ قوماً ابتلاهم؛ فمن رضِيَ فلَهُ الرِّضا، ومن سخِط فله السَّخَط»** [الترمذي (٢٣٩٦)، ابن ماجه (٤٠٣١)].

١٧٣٠، ١٧٣١ ـ وقد قال المفسّرون في قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]: إنّ المُسْلِمَ يجزَى بمصائب الدنيا، فتكون له كفارة. ورُوِي هذا عن عائشة [أحمد (٦/ ٦٥ ـ ٦٦)]، وأَبِي بَكْرٍ [الترمذي (٣٠٣٩)]، ومجاهد.

١٧٣٢ ـ وقال أبو هريرة، عنه عليه السلام: **«مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خيراً يُصِبْ منه»** [البخاري (٥٦٤٥)].

١٧٣٣ ـ وقال في رواية عائشة: **«ما مِنْ مُصِيبةٍ تصيبُ المسلمَ إلاّ يُكفِّرُ اللّهُ بها عنه حتى الشوكةِ يشاكُها»** [البخاري (٥٦٤٠)، مسلم (٢٥٧٢/٤٩)].

١٧٣٤ ـ وقال في رواية أَبِي سعيد: **«ما يصيبُ المؤمنَ من نَصَب ولا وَصَب، ولا هَمٍّ، ولا حَزَن، ولا أذىً، ولا غَمّ ـ حتى الشوكةِ يُشَاكُها ـ إلا كفَّر اللّهُ بها مِنْ خطاياه»** [البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٣)].

١٧٣٥ ـ وفي حديث ابن مسعود: **«ما مِنْ مُسلمٍ يُصيبه أذىً إلا حاتَّ اللّهُ**

عنه خطاياهُ كما تحاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ» [البخاري (٥٦٤٧)، مسلم (٢٥٧١)].

وحكمةٌ أُخرى أودعها اللَّهُ في الأمراضِ لأجسامهم، وتعاقب الأوجاع عليها وشدَّتها عند مماتهم، لتضعُفَ قُوى نفُوسهم، فيسهلَ خروجُها عند قبْضِهم، وتخفَّ عليهم مُؤنةُ النَّزْعِ، وشدةُ السكراتِ بتقدُّم المرض، ويضعف الجسم والنفس كذلك.

١٧٣٦ ـ وهذا خلافُ موتِ الفجاءةِ وأَخْذِه، كما يُشاهَدُ من اختلاف أحوالِ الموتى في الشدةِ واللِّين، والصعوبة والسهولة. وقد قال عليه السلام: **«مَثَلُ المؤمن مَثَلُ خامَةِ الزَّرْعِ تُفَيِّئُها الرِّيحُ هكذا وهكذا»** [البخاري (٥٦٤٣، ٥٦٤٤)، مسلم (٢٨٠٩)].

١٧٣٧ ـ وفي رواية أبي هريرة عنه: **«من حيثُ أَتَتْها الريحُ تكفؤُها؛ فإذا سكنت اعتدلَتْ؛ وكذلك المؤمنُ يُكَفَأُ بالبلاء. ومَثَلُ الكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ، صمّاءَ معتدلةً حتى يَقْصِمَها الله»** [البخاري (٧٤٦٦)، مسلم (٢٨٠٩)].

معناه: أَنَّ المؤمنَ مُرَزَّأٌ، مُصَابٌ بالبلاءِ والأمراضِ، راضٍ بتصريفه من أقدار الله تعالى مُنْطاعٌ لذلك، ليِّنُ الجانب برضاه وقلّةِ سَخَطه، كطاعة خامةِ الزَّرْعِ وانقيادِها للرياح، وتمايلها لهبوبها وترنحها من حيث ما أتتها؛ فإذا أزاحَ اللَّهُ عن المؤمن رِياحَ البلايا، واعتدلَ صحيحاً كما اعتدلَتْ خامةُ الزَّرْعِ عند سكون رياحِ الجوِّ، رجع إلى شُكْر ربِّه ومعرفةِ نعمتِه عليه بِرَفْع بلائه، منتظراً رحمته وثوابَه عليه.

فإذا كان بهذه السبيل لم يصعُبْ عليه مَرَضُ الموتِ، ولا نزولُه، ولا اشتدّت عليه سكراتُه ونَزْعُه، لعادتِه بما تقدّمَهُ من الآلام، ومعرفةِ مالَه فيها من الأجْرِ، وتَوْطِينِه نَفْسَه على المصائب ورِقَّتها وضَعْفِها بتَوَالِي المرضِ أو شدّته، والكافِرُ بخلاف هذا: مُعافى في غالبِ حالِه، مُمَتَّع بصحة جِسْمه، كالأَرْزَةِ الصمَّاءِ، حتى إذا أراد اللَّهُ هلاكه قَصَمهُ لحينهِ على غِرَّةٍ، وأخذه بَغْتَةً من غير لُطْفٍ ولا رِفْقٍ؛ فكان موتُه أشدَّ عليه حسرةً، ومقاساةُ نَزْعِه مع قوةِ نَفْسه وصحةِ جِسْمِه أشدَّ ألماً وعذاباً، ولَعَذابُ الآخرةِ أشقُّ كانجعافِ الأَرْزَةِ. وكما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وكذلك عادة اللَّهِ تعالى في أعدائه، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ففجأ جميعهم بالموت، على حال عُتُوٍّ وغَفلةٍ، وصبّحهم به، على غير استعدادٍ بَغْتَةً؛ ولهذا ما كره السلفُ موت الفجأة.

١٧٣٨ ـ ومنه في حديث إبراهيم: كانوا يكرهون أَخْذَةً كأخْذَةِ الأَسَفِ. أي: الغَضَب، يريدُ: موتَ الفُجاءة.

وحكمةٌ ثالثة: أنَّ الأمراضَ نَذِير المماتِ، وبِقَدْر شدّتِها شدةُ الخوفِ من نزول الموتِ؛ فيستعدّ مَنْ أصابَتْه، وعَلِمَ تَعاهُدها له، لِلقاء ربّه، ويُعْرِضُ عن دَارِ الدنيا الكثيرة الأنكاد ويكون قَلْبُهُ معلّقاً بالمعاد، فيتنصَّل مِنْ كُلّ ما يَخْشى تِبَاعته مِنْ قِبَل الله، وقِبَلِ العباد، ويُؤَدّي الحقوقَ إلى أهلها، وينظر فيما يحتاج إليه من وَصِيّة فيمن يُخَلِّفه أو أَمْرٍ يَعْهده.

١٧٣٩ ـ وهذا نبيُّنا ـ عليه السلام ـ المغفورُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، قد طلب التنصُّل في مَرَضِه ممّن كان له عليه مالٌ أو حقٌ في بَدَن، وأَقاد من نَفْسه وماله، وأمكن من القِصاصِ منه، على ما ورد في حديث الفَضْل.

١٧٤٠ ـ وحديثِ الوفاةِ.

١٧٤١ ـ وأوصَى بالثَّقَلين بعده: كتابِ الله، وعِتْرته [مسلم (٢٤٠٨)].

١٧٤٢ ـ وبالأنصار عَيْبَتِهِ [البخاري (٣٧٩٩)، مسلم (٢٥١٠)].

١٧٤٣ ـ ودعا إلى كَتْبِ كتابٍ لئلا تضلَّ أُمته بعده؛ إما في النصّ على الخلافة، أو الله أعلم بمراده. ثم رأى الإمساكَ عنه أفضلَ وخيراً.

وهكذا سيرة عبادِ الله المؤمنين وأوليائه المتقين.

وهذا كلُّه يُحْرَمُه غالباً الكفارُ، لإملاءِ اللّهِ لهم، ليزدادو إثماً وليستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

١٧٤٤ ـ ولذلك قال ـ عليه السلام ـ في رجل مات فجأةً: «**سبحان الله! كأنه على غَضَبٍ، المحرومُ مَنْ حُرِمَ وصيّتَه**» [ابن ماجه (٢٧٠٠)].

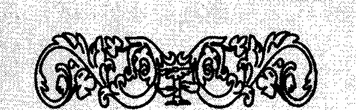
١٧٤٥ ـ وقال: «**موتُ الفُجاءةِ راحةٌ للمؤمن، وأَخْذَةُ أَسَفٍ للكافر أو الفاجر**» [أحمد (١٣٦/٦)].

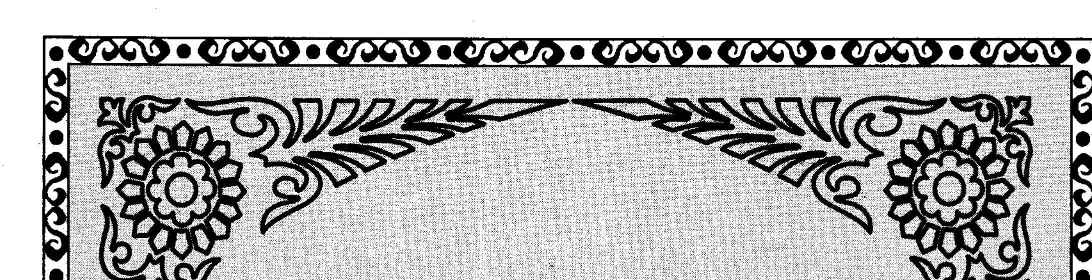
١٧٤٦ ـ وذلك لأن الموتَ يأتي المؤمِنَ، وهو غالباً مستعدٌّ له مُنْتَظِرٌ لحلوله؛ فهان أَمْرُهُ عليه كيف ما جاء، وأَفْضَى إلى راحتِه مِنْ نَصَبِ الدنيا وأذاها؛ كما قال عليه السلام: «**مُسْتَرِيحٌ ومُسْتراحٌ منه**» [البخاري (٦٥١٢)، مسلم (٩٥٠)].

وتأتي الكَافِرَ والفاجرَ منيتُهُ على غير استعدادٍ، ولا أُهْبَة، ولا مقدّمات مُنْذِرة

مُـزعـجـةٍ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾ [الأنبياء: ٤٠]؛ فكان الموتُ أشدَّ شيءٍ عليه.

١٧٤٧ ـ وفراقُ الدُّنيا أفْظَعُ أمرٍ صدمه، وأكرهُ شيء له؛ وإلى هذا المعنى أشار ـ عليه السلام ـ بقوله: «**مَنْ أَحبَّ لقاءَ اللَّهِ أحبَّ اللَّهُ لقاءَه، ومَنْ كَرِه لقاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لقاءَه**».





القسم الرابع

في تَصَرُّفِ وُجُوهِ الأَحْكامِ فِيمَنْ تَنَقَّصَهُ أو سَبَّهُ عليه الصلاة والسلام

قال القاضي أبو الفضل رضِيَ الله عنه: قد تقدّم من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمّة ما يجبُ من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعيَّنُ له مِنْ بِرٍّ وتَوْقير، وتعظيم وإكرام؛ وبحسَبِ هذا حرَّمَ اللَّهُ تعالى أذاهُ في كتابه، وأجمعت الأُمَّةُ على قَتْلِ مُنْتَقِصِهِ من المسلمين وسابّه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال تعالى في تحريم التعريض له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

وذلكَ أنَّ اليهودَ ـ لعنهم الله ـ كانوا يقولون: رَاعِنا، يا محمد! أي أرْعِنا سَمْعَك، واسْمَعْ منا، ويعرِّضُونَ بالكلمة، يريدونَ: الرُّعُونة؛ فنَهى الله المؤمنين عن التشبُّه بهم، وقَطع الذريعة بنَهْيِ المؤمنين عنها، لئلا يتوصَّلَ بها الكافِرُ والمنافِقُ إلى سَبِّه، والاستهزاءِ به.

وقيل: بل لِمَا فيها من مُشَارَكةِ اللفظ؛ لأنها عند اليهودِ بمعنى: اسمع لا سمعْتَ.

وقيل: بل لما فيها من قِلَّةِ الأدبِ، وعدمِ توقيرِ النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأنها في لغة الأنصار بمعنى: ارْعَنا نَرْعكَ؛ فنُهوا عن ذَلكَ؛ إذ مضمونه أنهم لا يَرْعَوْنه إلا برِعَايته لهم، وهو ـ عليه السلام ـ واجبُ الرعايةِ بكل حالٍ.

١٧٤٨ ـ وهذا هو ـ عليه السلام ـ قد نَهى عن التَّكنّي بكُنيَته، فقال: «**تَسمَّوا باسْمِي، ولا تكنَّوا بكُنيَتي**»؛ صِيَانةً لنفسه، وحمايةً عن أذاه.

١٧٤٩ ـ إذ كان ﷺ استجاب لرجُلٍ نادى: يا أبا القاسم! فالتفت إليه، فقال: لم أعنِكَ، إنما عنيت فلاناً [البخاري (٣٥٣٧)، مسلم (٢١٣١)]؛ فنهى حينئذٍ عن التكنّي بكُنيَتِه لئلا يتأذّى بإجابةِ دَعْوَةِ غَيْرِه مِمَّن لم يَدْعُه، ويَجِدَ بذلك المنافِقُون والمستهزئونَ ذَرِيعة إلى أذَاهُ والإزراء به فينادونه، فإذا التفتَ قالوا: إنما أردنا هذا ـ لسِواهُ ـ تَعْنيتاً له، واستخفافاً بحقه على عادة المُجّان والمستهزئين، فحمَى ـ عليه السلام ـ حِمَى أذَاهُ بكل وَجْهٍ؛ فحمل محقّقُو العلماءِ نَهْيَهُ عن هذا على مدة حياته، وأجازُوهُ بعد وفاته لارتفاعِ العِلَّة.

وللناسِ في هذا الحديث مذاهبُ ليس هذا موضعها؛ وما ذكرناه هو مذهبُ الجمهور، والصوابُ إن شاء الله. وإنّ ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل النَّدْب والاستحباب، لا على التحريم؛ ولذلك لم يَنْهَ عن اسْمِه؛ لأنه قد كان اللَّهُ مَنَعَ مِنْ ندائه به بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣]؛ وإنما كان المسلمون يدعونه: يا رسول الله! ويا نبيّ الله! ﷺ، وقد يَدْعُونه بكُنيته أبا القاسم! بعضُهم في بعض الأحوال.

١٧٥٠ ـ وقد روَى أنس رضِيَ الله عنه عنه عليه السلام، ما يدلُّ على كراهةِ التسمّي باسْمِه، وتنزيهه عن ذلك؛ إذا لم يوقَّر، فقال: «**تُسَمُّونَ أولادكم محمداً ثم تلعنونهم؟!**».

١٧٥١ ـ ورُوِيَ أنّ عُمر رضِيَ الله عنه كتب إلى أهل الكوفة: لا يُسمَّى أَحَدٌ منكم باسم النبيّ ﷺ، حكاه أبو جعفر الطبري.

١٧٥٢ ـ وحكى محمد بن سعد أنه نظر إلى رجل اسمُه محمد، ورجلٌ يسبُّه، ويقول له: فعل اللَّهُ بك، يا محمد! وصنع. فقال عُمَر لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب: لا أرى محمداً ﷺ يُسَبُّ بِكَ؛ واللَّهِ! لا تُدْعَى محمداً ما دمْتَ حيّاً؛ وسمّاهُ عبدَ الرحمن.

١٧٥٣ ـ وأراد أَنْ يمنَعَ أَنْ يُسمَّى أَحَدٌ بأسماءِ الأنبياء إكراماً لهم بذلك، وغيَّر أَسماءَ جماعةٍ تسمَّوا بأسماءِ الأنبياءِ، ثم أَمْسَك.

والصوابُ خلافه وجوازه بَعْده عليه السلام، بدليل إطباقِ الصحابةِ على ذلك.

١٧٥٤ ـ وقد سمَّى جماعةٌ منهم ابنه محمداً، وكنَّاه بأبي القاسم.

١٧٥٥ ـ ورُوِيَ أنَّ النبيّ ﷺ أذِنَ في ذلك لعليّ رضِيَ الله عنه [أبو داود (٤٩٦٧)، الترمذي (٢٨٤٣)].

١٧٥٦ ـ وقد أخبر عليه السلام أنَّ ذلكَ اسْمُ المهدي وكُنيته [أبو داود (٤٢٨٢)، الترمذي (٢٢٣٠)].

١٧٥٧ وحتى **١٧٥٩** ـ وقد سَمّى به النبيُّ ﷺ محمد بن طلحة، ومحمد بن عَمْرو بن حَزْم، ومحمد بن ثابت بن قَيْس، وَغيْرَ واحد.

١٧٦٠ ـ وقال: **«ما ضَرَّ أحَدَكم أن يكون في بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة؟!»**.

وقد فصلتُ الكلامَ في هذا القسم على بابينِ كما قدمناه.





الباب الأول

في بَيَانِ ما هُوَ في حَقِّهِ ـ عليه السلام ـ سَبٌّ، أو نَقْصٌ، مِنْ تَعْرِيْضٍ أَوْ نَصٍّ

اعلَمْ ـ وفَّقَنا اللَّهُ وإياك ـ أنَّ جميعَ مَنْ سَبَّ النبيَّ ﷺ، أو عابَه، أو أَلْحَقَ به نَقْصاً في نَفْسه، أو نَسَبِه، أو دِينِه، أو خَصْلَةٍ من خِصالِه، أو عَرَّضَ به، أو شَبَّهَهُ بشيءٍ على طريق السبِّ له، أو الإزراءِ عليه، أو التصغير لشأنِه، أو الغَضِّ منه، والعَيْبِ له؛ فهو سابٌّ له؛ والحكمُ فيهِ حكْمُ الساب، يُقْتَلُ كما نُبَيِّنُه، ولا نَستثني فصْلاً من فُصُول هذا الباب على هذا المَقْصِدِ، ولا نَمْتَرِي فيه تصريحاً كان أو تلويحاً.

وكذلك مَنْ لعنه أو دَعَا عليه، أو تمنّى مضَرّةً له، أو نَسبَ إليه ما لا يليقُ بمنصِبه على طريق الذَّمِّ أو العيب في جهتِه العزيزةِ بسُخْفٍ من الكلام وهُجْر، ومُنْكَر من القول وزُور، أو عَيَّرَهُ بشيءٍ مِمَّا جَرَى من البلاءِ والمِحْنَة عليه، أو غَمَصَه ببعضِ العوارضِ البشرية الجائزةِ والمعهودةِ لَدَيْه.

وهذا كلُّه إجماعٌ مِنَ العلماء وأئمةِ الفَتْوى مِنْ لَدُن الصحابة رضوانُ اللَّهِ عليهم إلى هَلُمَّ جرّاً.

وقال أبو بَكْر بن المنذر: أَجْمَعَ عَوَامُّ أَهْلِ العِلْم على أنَّ مَنْ سبَّ النبيَّ ﷺ يُقْتَل؛ ومِمّن قال ذلكَ: مالكُ بْنُ أَنس، وَاللَّيْثُ بن سعد، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهبُ الشافعيّ.

قال القاضي أبو الفضل: وهو مقْتَضى قولِ أبي بَكْرِ الصدّيق رضِيَ الله عنه، ولا تُقْبَلُ توبتُه عند هؤلاء المذكورين.

وبمثله قال أبو حنيفة، وأصحابه؛ والثوريّ، وأهل الكوفة، والأوزاعي في المسلم، لكنهم قالوا: هي رِدَّةٌ.

وروى مثله الوليدُ بن مُسْلم عن مالك.

وحكى الطبري مثله، عن أبي حنيفة، وأصحابه، فيمن تنقّصه عليه السلام، أو برِئ منه، أو كذّبه.

وقال سُحْنُون فيمن سبّه: ذلك رِدّةٌ كالزَّنْدَقة.

وعلى هذا وقع الخلافُ في استتابته وتكفيره؛ وهل قَتْله حَدّاً أو كُفْراً! كما سنُبيّنه في الباب الثاني إنْ شاءَ اللّهُ تعالى ولا نعلمُ خلافاً في استباحةِ دَمِه بين علماءِ الأمصار وسلَفِ الأئمة وقد ذكر غيرُ واحدٍ الإجماعَ على قَتْلِه وتكفيره، وأشارَ بعضُ الظاهرية ـ وهو أبو محمد: عليُّ بن أحمد الفارسي ـ إلى الخلاف في تكفيرِ المستخفّ به والمعروف ما قدّمناه.

قال محمد بن سُحْنُون: أجمع العلماء أنّ شاتِمَ النبيِّ ﷺ المتنقِّص له كافِرٌ. والوعيدُ جارٍ عليه بعذابِ اللّهِ له؛ وحُكْمُه عند الأمة القَتْلُ؛ ومَنْ شكَّ في كُفْرِه وعذابِه كَفَر.

واحتجّ إبراهيمُ بن حسين بن خالد الفقيه في مِثْلِ هذا بقتْلِ خالدِ بن الوليد مالكَ بنَ نُوَيْرَة لقوله ـ عن النبيِّ ﷺ ـ: صَاحِبُكُمْ.

وقال أبو سليمان الخطّابي: لا أعلم أحَداً من المسلمين اختلف في وجوبِ قَتْلِه إذا كان مسلماً.

وقال ابنُ القاسم، عن مالك، في «كتاب ابنِ سُحنون» و «المبسوط» و «العُتْبِيّة»، وحكاهُ مُطَرِّفٌ، عن مالك، في «كتاب ابن حبيب»: مَنْ سبَّ النبيَّ ﷺ من المسلمين قُتِل، ولم يُسْتَتَبْ.

قال ابن القاسم في «العُتْبِيّة»: مَنْ سبّه أو شتمه أو عابه أو تنقَّصَهُ فإنه يُقْتَل، وحُكْمُه عند الأمةِ القَتْل كالزِّنديق وقد فرضَ اللّهُ تعالى توقيره وَبِرّه. وفي «المبسوط» عن عثمان بن كِنانة: مَنْ شَتَم النبي ﷺ من المسلمين قُتِل، أو صُلِبَ حيّاً، ولم يُسْتَتَبْ، والإمامُ مُخَيّرٌ في صَلْبِه حيّاً أو قَتْلِه.

ومن رواية أبي المُصْعَب، وابن أبي أُوَيْس: سمعْنا مالكاً يقولُ: مَنْ سبَّ رسول الله ﷺ، أو شتمه، أو عابه، أو تنقّصَهُ، قُتِلَ ـ مُسلماً كان أو كافراً ـ ولا يُسْتتاب.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحابُ مالك أنه قال: مَنْ سبَّ النبيَّ ﷺ أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قُتِل ولم يُسْتَتَبْ.

وقال أَصْبَغُ: يُقْتَلُ على كل حالٍ أَسرَّ ذلك أو أَظهرهُ؛ ولا يُسْتَتابُ؛ لأَن توبَته لا تعرفُ.

وقال عَبْدالله بنُ عبدالحَكَم: مَنْ سبَّ النبيَّ ﷺ من مسلم أو كافرٍ قُتِل ولم يُسْتَتَبْ.

وحكى الطبريُّ فيه مِثْلَه، عن أشهب، عن مالك.

وروَى ابْنُ وَهْب، عن مالك: مَنْ قال: إنَّ رداء النبي ﷺ - ويروى: زِرَّ النبيّ ﷺ - وسِخٌ؛ أراد به عَيْبَه: قُتِل.

وقال بعضُ علمائِنا: أجمع العلماءُ على أَنَّ من دعا على نبيٍّ من الأنبياء بالويلِ، أو بشيءٍ من المكروه أنه يقتل بلا استتابةٍ.

وأَفْتَى أبو الحسن القابسيّ فيمن قال في النبيّ ﷺ: الحمَّالُ؛ يتيمُ أبي طالب - بالقَتْل.

وأفتى أبو محمدِ بنُ أَبِي زَيْد بقَتْل رجُلٍ سَمِعَ قوماً يتذاكرونَ صفةَ النبيّ ﷺ إذ مَرَّ بهم رجلٌ قَبِيحُ الوَجْه واللِّحْيَة؛ فقال لهم: تريدون تعرفونَ صِفَتَه؟ هي في صِفَةِ هذا المارِّ في خَلْقِه ولحيتِه. قال: ولا تُقْبَلُ توبَته.

وقد كذَبَ - لعَنَهُ الله - وليس يخرجُ ذلك من قلْبِ سلِيم الإيمان.

وقال أحمد بن أبي سليمان - صاحبُ سُحْنون -: مَنْ قال: إنَّ النبيَّ ﷺ كان أسودَ يُقتَل.

وقال في رَجُل قيل له: لا، وحقِّ رسولِ الله! فقال: فعل اللَّهُ برسولِ الله كذا وكذا، وذكر كلاماً قبيحاً؛ فقيل له: ما تقولُ؟ يا عَدُوَّ الله! فقال أشدَّ من كلامِه الأول؛ ثم قال: إنما أردتُ برسولِ الله العَقْرب. فقال ابنُ أبي سليمان الذي سأله: اشْهَدْ عليه وأنا شريكُك يُريدُ: في قَتْله وثوابِ ذلك.

قال حبيبُ بن الربيع: لأَنَّ ادِّعاءَه التأويل في لفظٍ صُرَاح لا يُقْبَل؛ لأنه امتهانٌ؛ وهو غَيْرُ مُعزِّز لرسولِ الله ﷺ، ولا مُوَقِّر له؛ فوجب إباحةُ دَمِه.

وأفتى أبو عَبْدالله بن عتّاب - في عَشّارٍ؛ قال لرجل: أَدِّ، واشْكُ إلى النبي ﷺ؛ وقال: إن سَأَلْتُ أو جَهِلْتُ، فقد جَهِل وسأَل النبيُّ ﷺ - بالقَتْل.

وأفتى فقهاءُ الأندلس بقَتْل ابن حاتم المُتَفقِّه الطُّلَيْطلي وصَلْبه بما شُهد عليه به من استِخْفَافه بحق النبيّ ﷺ وتسميتِه إياه أثناءَ مناظرته باليتيم، وخَتَنِ حَيْدَرةَ، وزعْمِه أَنَّ زُهْدَه لم يكن قَصْداً؛ ولو قَدَر على الطيبات أكلها، إِلَى أَشْبَاهٍ لهذا.

وَأَفْتَى فقهاءُ القَيْرَوانِ وأصحابُ سُحنون بقَتْل إبراهيم الفَزَاري، وكان شاعراً

مُتَفَنِّناً في كثير من العلوم، وكان ممَّن يَحْضُر مَجْلسَ القاضي أبي العباس بن طالب للمناظرة، فرُفِعَتْ عليه أُمورٌ منكَرَةٌ من هذا الباب في الاستهزاءِ بالله وأنبيائه ونبيِّنا عليه السلام؛ فأحضَرَ له القاضي يحيى بن عُمر وغيره من الفقهاء، وأمَرَ بقَتْلِه وصَلْبِه؛ فطُعِنَ بالسكين، وصُلِبَ مُنكَّساً؛ ثم أُنزل وأُحرق بالنار.

وحكى بعضُ المؤرخين أنه لمّا رُفِعَتْ خشَبَتُه، وزالت عنها الأيدي استدارت، وحوَّلَتْهُ عن القِبْلةِ؛ فكان آيةً للجميع، وكبَّر الناسُ، وجاء كلْبٌ فولَغَ في دَمِهِ؛ فقال يحيى بن عُمر: صدق رسولُ الله ﷺ.

١٧٦١ ـ وذكر حديثاً عنه عليه السلام أنه قال: **«لاَ يَلِغُ الكلْبُ في دم امرىءٍ مسلم»**.

وقال القاضي أبو عبدالله بن المرابط: مَنْ قال: إنَّ النبيَّ ﷺ هُزِمَ يُستتابُ، فإنْ تاب وإلا قُتِل؛ لأنه تَنَقُّصٌ؛ إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته، إذ هو على بَصِيرة من أمره، ويقين من عصمته.

وقال حبيب بن ربيع القَرَوي: مذهبُ مالك وأصحابه أنَّ مَنْ قال فيه ـ عليه السلام ـ: ما فيه نَقْص، قُتِل دُون استتابة.

وقال ابنُ عتّاب: الكتابُ والسنةُ مُوجِبانِ أنَّ مَنْ قصَد النبيَّ ﷺ بأذَى أو نَقْص، معرِّضاً أو مصرّحاً ـ وإنْ قلَّ ـ فقَتْله واجِبٌ. فهذا البابُ كلُّه مما عدَّه العلماءُ سبّاً ونَقْصاً يجِبُ قَتْلُ قائله، لم يختَلِفْ في ذلك متقدِّمُهم ولا متأخِّرُهم، وإن اختلفوا في حكم قَتْله على ما أشرنا إليه ونبيِّنُه بعدُ أيضاً. إن شاء الله.

وكذلك أقولُ: حُكْمُ مَنْ غمصَهُ أو عَيَّره برعاية الغَنم، أو السَّهْوِ، أو النسيان، أو السِّحْرِ، أو ما أصابه من جُروح أو هزيمة لبعض جيوشه، أو أذَى مِن عدوِّه، أو شدةٍ من زَمَنِه، أو بالمَيْل إلى نسائه؛ فحُكْمُ هذا كلِّه ـ لمَنْ قصدَ به نَقْصه ـ القتْلُ.

فصل
فِي الحُجَّةِ فِي إيجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّهُ أَوْ عَابَهُ عَلَيهِ السّلامُ

فمن الكتاب العزيز لَعْنَةُ اللّهِ لمُؤذيهِ في الدنيا والآخرة، وقِرانُه تعالى أذاهُ بأذاه، ولا خِلافَ في قَتْلِ مَنْ سبَّ الله، وأنَّ اللَّعْنَ إنما يستوجِبُه مَنْ هو كافرٌ، وحُكْمُ الكافر القَتْلُ؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال ـ في قاتل المُؤمن مِثْلَ ذلك؛ فمِنْ لَعْنَتِه في الدُّنْيَا القَتْلُ؛ بقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال في ـ المُحارِبِينَ، وذكر عقوبتهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد يَقَعُ القَتْلُ بمعنى اللَّعْن؛ قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: ١٠] أي لعنهم الله. و ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] أي: لعنهم الله؛ ولأنه فرَّقَ بين أذاهما وأذى المؤمنين؛ فقال في أذى المؤمنين ما دُونَ القَتْلِ؛ مِن الضَّرْب والنَّكالِ بقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ الآية [الأحزاب: ٥٨].

وكان حُكْمُ من يُؤْذِي الله ونَبِيّه أشدَّ منْ ذلك؛ وهو القَتْل. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فسلبَ اسْمَ الإيمانِ عمَّن وجَد في صَدْرِه حَرَجاً من قضائه، ولم يسلِّمْ له؛ ومَنْ تنقصه فقد ناقض هذا.

وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢].

ولا يُحْبِط العَمَلَ إلا الكفرُ، والكافرُ يُقْتَل.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ...﴾ [المجادلة: ٨]. ثم قال تعالىٰ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ﴾ [التوبة: ٦١] ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

قال أهل التفسير: ﴿كَفَرْتُم﴾ بقولكم في رسول الله ﷺ.

وأمَّا الإجماعُ فقد ذكرناه.

١٧٦٢ ـ وأمّا الآثارُ فحدَّثنا الشيخُ أبو عَبْدِاللَّهِ: أحمدُ بن محمد بن غَلْبُون، عن الشيخ أبي ذَرّ الهَرَوي إجازةً، قال: حدثنا أبو الحسن الدارَقُطني، وأبو عُمر بن حَيْوَة، قالا: حدثنا محمد بن نوح، حدثنا عبدالعزيز بن محمد بن الحَسَن بن زَبَالَة، حدثنا عبدالله بن موسىٰ بن جعفر، عن عليّ بن موسىٰ، عن أبيه، عن جدّه، عن محمد بن علي بن الحُسين، عن أبيه، عن الحُسين بن علي، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ سبَّ نبِياً فاقْتُلوهُ، ومَنْ سبَّ أصحابي فاضربوه»**.

١٧٦٣ ـ وفي الحديث الصحيح: أمر النبيُّ ﷺ بِقَتْل كَعْب بن الأَشرف. وقولُه: **«مَنْ لكَعْب بن الأَشْرَفِ؟ فإنه يُؤذِي اللّهَ ورسولَه»** [البخاري (٥٢١٠)، مسلم (١٨٠١)]. ووجَّه إليه مَنْ قتله غِيلَةً دونَ دَعوةٍ، بخِلاف غيره من المشركين وعلَّل قَتْلَه بأذاه له، فدلَّ أنَّ قَتْلَه إياهُ لغير الإشراك، بل للأذى.

١٧٦٤ ـ وكذلك قَتَلَ أبا رافع، قال البراءُ: وكان يُؤذي رسول الله ﷺ، ويُعِين عليه [البخاري (٤٠٣٩)].

١٧٦٥ ـ وكذلك أَمْرُه يومَ الفَتحِ بقَتْل ابْنِ خَطَل، وجاريَتَيْهِ اللّتَيْن كانتا معه تُغَنّيان بسبِّه عليه السلام.

١٧٦٦ ـ وفي حديث آخر أنَّ رجلاً كان يَسُبُّه عليه السلام، فقال: **«مَنْ يَكفِيني عَدُوّي؟»** فقال خالدٌ: أنا، يا رسول الله! فبعثه ﷺ فقتله.

وكذلك قتل جماعةً ممَّن كانوا يؤذونه من الكُفَّار وَيَسُبُّونَه كالنَّضْر بن الحارث، وعُقْبة بن أبي مُعَيْط.

وعَهِد بقَتْلِ جَماعةٍ منهم قبل الفَتْح وَبَعْدَه، فقُتِلوا إلا مَنْ بادر بإسلامِه قبل القُدْرَة عليه.

١٧٦٧ ـ وقد رَوَى البزَّارُ، عن ابن عباس ـ أَنَّ عُقْبة بن أَبي مُعَيط نادىٰ: ما مَعْشَر قريش! مالي أُقْتَل مِنْ بينكم صَبْراً؟! فقال له ﷺ: **«بكُفْرِك وافترائك على رسول الله ﷺ»**.

١٧٦٨ ـ وذكر عبدالرزّاق أنَّ النبي ﷺ سبَّهُ رجلٌ، فقال: **«مَنْ يَكْفِيني عَدُوّي؟»** فقال الزبير: أنا، فبارزه فقتله الزبير.

١٧٦٩ ـ ورَوَى أيضاً أن امرأَةً كانت تَسُبُّه عليه السلام، فقال: **«مَنْ يَكفيني عَدُوّي؟»** فخرج إليها خالد بن الوليد فقتَلَها.

١٧٧٠ ـ وروَى أن رجلاً كذَب على النبيِّ ﷺ، فبعث عَلِيّاً والزُّبير إليه ليقتُلاهُ.

١٧٧١ - ورَوَى ابنُ قانع أَنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! سمعتُ أَبي يقولُ فيك قولاً قَبِيحاً فقتلْتُه! فلم يَشُقَّ ذلك عَلى النبي ﷺ.

١٧٧٢ - وبَلغ المهاجِرَ بن أبي أمية - أميرَ اليمن لأَبي بكر رضي اللَّهُ عنه - أن امرأةً هناك في الردّةِ غنَّتْ بِسَبِّ النبيِّ ﷺ، فقطع يَدَها، ونزع ثَنِيَّتها، فبلغ أَبا بكر رضي الله عنه ذلك، فقال له: لولا ما فعلْتَ لأمرتُك بقَتْلها، لأنَّ حَدَّ الأنبياء ليس يشبهُ الحدودَ.

١٧٧٣ - وعن ابن عباس: هَجَتْ امرأةٌ من خَطْمَةَ النبيَّ ﷺ، فقال: «مَنْ لي بها؟» فقال رجلٌ من قَوْمِها: أنا يا رسول الله! فنهض فقتلها، فأخبر النبي ﷺ فقال: «لا يَنْتَطِحُ فيها عَنْزَانِ».

١٧٧٤ - وعن ابن عباس أن أَعمى كانَت له أُمُّ وَلدٍ تَسُبُّ النبيّ ﷺ فَيَزْجُرها فلا تَنْزجِرُ، فلما كانت ذات ليلةٍ جعلت تَقَعُ في النبيِّ ﷺ وتَشْتمه، فقتلها، وأَعْلَم النبيَّ ﷺ بذلك، فأَهدرَ دَمَها [أبو داود (٤٣٦١)، النسائي (٧/ ١٠٧ـ ١٠٨)].

١٧٧٥ - وفي حديث أَبي بَرْزَةَ الأسلمي: كنتُ يوماً جالساً عند أبي بكر الصديق، فغضِب على رجل من المسلمين - وحكى القاضي إسماعيلُ، وغَيْرُ واحدٍ من الأئمةَ في هذا الحديث أنه سبَّ أبا بكر - ورواه النسائي: أتيتُ أبا بكر - وقد أغلظ لِرَجُلٍ فردَّ عليه، فقلتُ: يا خليفةَ رسول الله! دَعْنِي أضربْ عُنقَه. فقال: اجْلِسْ، فليس ذلك لأحدٍ إلا لرسول الله ﷺ [أبو داود (٤٣٦٣)، النسائي (٧/ ١٠٩، ١١١)، أحمد (١/ ١٠)].

قال القاضي أبو محمد بن نَصْر: ولم يخالِفْ عليه أحد، فاستدلَّ الأئمةُ بهذا الحديث على قَتْل مَنْ أَغْضبَ النبيَّ ﷺ بكُلِّ ما أغضبه، أو آذاهُ أو سبّه.

ومِنْ ذلك كتابُ عُمر بن عبدالعزيز إلى عامل الكوفة، وقد استشاره في قَتْلِ رجُل سبَّ عُمر رضي الله عنه فكتب عُمر إليه: إنه لا يَحِلُّ قَتْلُ امرىءٍ مسلم بسَبِّ أحدٍ من الناس إلا رجلاً سبَّ رسول الله ﷺ، فَمنْ سَبَّهُ فقد حَلَّ دَمُه.

وسأل الرشيدُ مالكاً في رَجُلٍ شتَم النبيَّ ﷺ، وذكر له أَنَّ فقهاءَ العراقِ أَفتَوْه بجَلْدِه، فغَضِبَ لذلك، وقال: يا أمير المؤمنين! ما بقاء الأُمَّةِ بعد شتم نبيِّها؟! مَنْ شَتَم الأَنبياء قُتِل، ومَنْ شتمَ أصحابَ النبيّ ﷺ يُجْلَدُ.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله تعالى: كذا وقع في هذه الحكاية، رواها غَيْرُ واحدٍ من أَصحاب فتاوى مالك، ومؤلِّفي أخباره وغيرهم، ولا أدري مَنْ

هؤلاء الفقهاءِ بالعراق الذين أفتَوا الرشيد بما ذَكر؟ وقد ذكَرْنا مذهبَ العراقيين بقتْلِه، ولعَلَّهم مِمَّنْ لم يُشهَرْ بعِلْم، أو مَنْ لا يُوثَق بفَتْواهُ، أو يميلُ به هَواهُ، أو يكون ما قاله يُحمَل عَلَى غير السبِّ، فيكون الخلافُ: هل هو سَبٌّ أو غيرُ سَبٍّ؟ أو يكون رجع وتاب عن سَبِّه، فلم يَقُلْه لمالك على أَصْله، وإلا فالإجماعُ على قَتْل مَنْ سبَّهُ كما قدَّمْناهُ.

ويدلُّ عَلَى قتْلِه مِنْ جهة النَّظَر والاعتبار أَنَّ مَنْ تنقَّصه - عليه السلام - أو سَبَّهُ فقد ظهرت علامةُ مَرضِ قَلْبِه، وبُرهانُ سِرِّ طَوِيَّتِهِ وكفره، ولهذا حكم له كثيرٌ مِنَ العلماء بالردَّة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي، وَقَوْلُ الثوري، وأبي حنيفة، والكوفيين.

والقولُ الآخرُ: أنه دَليلٌ عَلى الكُفر، فيُقْتَل حدّاً، وإنْ لم يحْكَمْ له بالكُفرِ إلاَّ أن يكون متمادياً عَلَى قوله، غَيْرَ مُنْكِر له، ولا مُقْلِع عنه، فهذا كافر، وقولُه: إمَّا صَريحُ كُفرٍ كالتكذيب ونحوه، أو من كلماتِ الاستهزاء والذمِّ، فاعترافُه بها وتَرْكُ توْبَتِه عنها دليلُ استِحْلالِه لذلك، وهو كُفرٌ أيضاً، فهذا كافر بلا خلاف، قال الله تعالى في مِثْلِهِ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال أهل التفسير: هي قولُهم: إنْ كان ما يَقُولُ محمد حقّاً لَنَحْنُ شَرٌّ من الحمير.

وقيل: بَلْ قولُ بعضِهِم: ما مَثَلُنا ومثل محمدٍ إلا كقول القائل: سمِّنْ كَلْبَك يَأْكُلْكَ وَأَجِعْهُ يَتْبَعْكَ، ولَئِنْ رجَعْنَا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

١٧٧٦ - وقد قيل: إنَّ قائل مثل هذا، إنْ كان مُستَتِراً به إنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الزِّنْدِيق يُقْتَل، ولأنه قد غَيَّرَ دِينَه، وقد قال عليه السلام: «**مَنْ غَيَّرَ دِينَه فاضرِبوا عُنقه**» [البخاري (٣٠١٧)] ولأَنَّ لحُكم النبيِّ ﷺ في الحُرْمةِ مَزِيَّةً على أمتِه، وسابُّ الحرِّ مِن أُمَّتِه يُحَدُّ، فكانت العقوبةُ لمَنْ سبَّه - عليه السلام - القَتْلَ، لعظيم قَدْرِهِ، وشفوفِ مَنْزِلته على غَيْرِه.

فصل
في أسبابِ عفوِهِ ﷺ عَنْ بَعْضِ مَنْ آذاهُ

١٧٧٧ - فإنْ قلْتَ: فَلِمَ لَمْ يَقْتُلِ النبيُّ ﷺ اليهوديَّ الذي قال له: السَّامُ عليكم [البخاري (٦٩٢٦)]، وهذا دعاءٌ عليه.

١٧٧٨ ـ ولا قَتَلَ الآخَرَ الذي قال له: إنَّ هذهِ لَقِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله، وقد تأذَّى النبيُّ ﷺ مِنْ ذلكَ، وقال: **«قد أُوذِيَ موسى بأكثر من هذا فصبر»** [البخاري (٣١٥٠)، مسلم (١٠٦٢)] ولا قتل المنافقين الذين كانوا يُؤْذُونَه في أكثر الأحيان؟

١٧٧٩ ـ فاعلم ـ وَفَّقَنا اللّهُ وإياك ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان أولَ الإسلامِ يَسْتَأْلِفُ عليه الناسَ، ويُميلُ قلوبَهم إليه وإلى محبته ويحبّبُ إليهم الإيمان ويزيّنه في قلوبهم، ويداريهم، ويقول لأصحابه: **«إنما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرين ولم تُبْعَثُوا منفِّرين»** [البخاري (٢٢٠)].

١٧٨٠ ـ ويقول: **«يَسِّروا وَلا تُعَسِّرُوا، وسكِّنُوا ولا تنفِّروا»** [البخاري (٦١٢٥)، مسلم (١٧٣٤)].

١٧٨١ ـ ويقول: **«لا يتحدّثُ الناسُ أنّ مُحمداً يقتلُ أصحابَه»**.

وكان ﷺ يُدَارِي الكفّارَ والمنافقين، ويُجْمِلُ صُحْبَتَهم، وَيُغْضِي عليهم، ويحتملُ مِنْ أذاهم، ويَصبِرُ على جفائهم ما لا يجوزُ لنا اليوم الصَّبْرُ لهم عليه، وكان يُرْفِقُهم بالعطاءِ والإحسان، وبذلك أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وذلك لحاجةِ النَّاسِ للتَّألّف أول الإسلام، وجَمْعِ الكلمة عليه، فلما استقرَّ وأَظهرهُ الله عَلَى الدِّين كلِّه قَتَلَ مَنْ أَقْدَرَهُ الله عليه، واشتهر أمْرُه، كفِعْله بابْنِ خَطَل، ومَنْ عَهد بقَتْلِه يَوْمَ الفَتْح، ومَنْ أمكنه قَتْلُه غِيْلَةً مِن يهود وغيرهم، أو غلبةً مِمَّنْ لم يَنْظِمْه قَبْلُ سِلْكُ صُحْبته، والانخراط في جُمْلَة مُظْهِرِي الإيمان له مِمَّنْ كانَ يُؤْذِيه، كابنِ الأشرفِ، وأبي رافع، والنّضرِ، وعُقْبة.

وكذلك نَذَر دَمَ جماعةٍ سِوَاهم، كَكَعْب بن زهير، وابن الزِّبَعْرَى وغيرهما ممَّنْ آذاه حتى ألقوا بأيديهم، ولَقُوهُ مسلمين.

وبَوَاطِنُ المنافقين مُسْتَتِرةٌ، وحُكْمُه ـ عليه السلام ـ على الظاهر، وأكثَرُ تلك الكلمات إنما كان يَقُولُها القائلُ منهم خُفْيَةً، ومع أمثالِه الكفار ويَحلفونَ عليها إذا نُميت، وينكرونها، و ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وكان ـ عليه السلام ـ مع هذا يَطْمَعُ في فَيْئَتهم، ورجوعهم إلى الإسلام، وتَوْبَتِهم، فيَصْبِرُ ـ عليه السلام ـ على هَنَاتهم وجَفْوَتهم، كما صبر

أُولوا العَزْمِ من الرُّسل حتى فاء كثير منهم باطناً، كما فاءَ ظاهراً، وأخلص سِرّاً كما أظهر جَهْراً، ونفع اللَّهُ بَعْدُ بكثير منهم، وقام منهم للدِّين وُزَراءُ وأعوانٌ وحُمَاة وأنصار كما جاءت به الأخبار.

وبهذا أجاب بَعْضُ أئمتنا رَحِمَهم اللَّهُ عن هذا السؤال وقال: لعله لم يَثْبُتْ عنده ـ عليه السلام ـ من أقوالهم ما رُفِع، وإنما نقله الواحدُ، ومَنْ لم يَصِلْ رُتْبَةَ الشهادةِ في هذا الباب، من صَبيّ، أوْ عَبْدٍ، أو امرأةٍ، والدماءُ لا تُسْتَبَاحُ إلاَّ بِعَدْلَيْنِ.

١٧٨٢ ـ وعلى هذا يُحمَلُ أَمْرُ اليَهُود في السلام، وأنهم لوَوْا به ألسنتهم، ولم يبيِّنُوه، ألاَ تَرَى كيف نَبَّهَتْ عليه عائشةُ، ولو كان صَرَّحَ بذلك لم تَنْفَرِدْ بعِلْمِهِ، ولهذا نَبَّه النبيُّ ﷺ أصحابه على فِعلهم، وقِلّةِ صِدْقهم في سَلاَمِهم، وخيانتِهم في ذلك، ليّاً بألسنتهم، وطَعْناً في الدِّين، فقال: «**إنَّ اليهودَ إذا سلَّم أحدُهم فإنما يَقُولُ: السَّامُ عليكم، فقولوا: عليكم**».

وكذلك قال بعضُ أصحابنا البَغْداديين: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يَقْتُل المنافقين بعلمِه فيهم، ولم يَأْتِ أنه قامت بيّنَةٌ على نِفَاقِهِم، فلذلكَ تركهم.

وأيضاً فإنَّ الأَمْرَ كان سِرّاً وباطناً، وظاهِرُهم الإسلامُ والإيمانُ، وإنْ كان مِنْ أهلِ الذمة بالعَهْدِ والجِوار، والناسُ قريبٌ عَهْدُهم بالإسلامِ، ولم يتميَّزْ بَعْدُ الخبيثُ من الطيب.

وقد شاعَ عن المذكورين في العَرَب كَوْنُ مَنْ يُتَّهَم بالنِّفَاقِ من جملة المؤمنين وصَحَابة سيِّد المُرسلين، وأنصار الدين بحُكْمِ ظاهِرهم، فَلوْ قَتَلهم النبيُّ ﷺ لنفَاقهم وما يَبْدُرُ منهم، وعِلْمِه بما أَسَرُّوا في أنفسهم لوجَدَ المنفِّرُ ما يقول، ولارْتَابَ الشاردُ، وأرْجَفَ المعانِدُ، وارتاعَ من صحبة النبيِّ ﷺ، والدخولِ في الإسلام غَيْرُ واحد، ولزعَمَ الزاعِمُ وطَعَنَ العدوّ الظالِمُ ـ أنَّ القَتْلَ إنما كان للعداوة وطلب أَخْذ التِّرَة.

١٧٨٣ ـ وقد رأيتُ معنى ما حرَّرْتُه منسوباً إلى مالك بنِ أَنَس رحمه الله ولهذا قال عليه السلام: «**لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يقْتُلُ أصحابه**».

١٧٨٤ ـ وقال: «**أولئك الذين نهاني اللَّهُ عن قتلهم**».

وهذا بخلافِ إجراءِ الأحكام الظاهرةِ عليهم من حدُودِ الزِّنا والقَتْلِ وشِبْهِه، لظهورها واستواءِ الناسِ في علمها.

وقد قال محمد بن المَوّاز: لو أظهر المنافقون نِفاقَهم لقتلهم النبيُّ ﷺ، وقاله القاضي أبو الحسن بن القَصّار.

وقال قتادةُ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٠ـ ٦٢].

قال: معناه إذا أظهروا النِّفاقَ.

وحكى محمد بن مسلمةَ في «المبسوط» عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. أنَّها نَسَخَتْ ما كان قَبْلَها.

وقال بعضُ مشايخنا: لعلَّ القائلَ: هذه قسمةٌ ما أُريدَ بها وَجْهُ اللَّهِ. وقولَه: ـ اعدِل ـ لم يَفهَم النبيُّ ﷺ منْهُ الطَّعْنَ عليه، والتهمةَ له، وإنما رآها مِنْ وَجْهِ الغَلَط في الرّأي، وأمور الدنيا، والاجتهادِ في مصالح أهلها، فلم يرَ ذلك سبّاً، ورأى من الأذى الذي له العَفْو عنه، والصّبْرُ عليه، فلذلك لم يعاقِبْه.

وكذلك يُقال في اليهود قالوا: السَّامُ عليكَ. ليس فيه صريحُ سَبٍّ ولا دعاء إلا بما لا بُدَّ مِنْهُ من الموتِ الذي لا بُدّ من لحاقِه جميعَ البَشَر.

وقيل: بل المرادُ: تَسْأَمون دينكم. والسأم والسآمةُ: المَلال.

وهذا دعاءٌ على سآمةِ الدِّين ليس بِصَريح سَبٍّ، ولهذا تَرْجَم البخاري على هذا الحديث: «بابٌ: إذا عَرَّض الذِّمِّيُّ أو غَيْرُه بسبِّ النبيّ ﷺ».

قال بعضُ علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسبِّ، وإنما هو تعريضٌ بالأذى.

قال القاضي أبو الفضل: قَدْ قَدَّمْنا أنَّ الأذى والسبَّ في حقه ـ عليه السلام ـ سواءٌ.

وقال القاضي أبو محمد بن نَصْر مُجيباً عن هذا الحديث ببعضِ ما تقدَّم، ثم قال: ولم يذكرْ في هذا الحديث: هل كان هذا اليهوديُّ من أهلِ العَهْد والذمّة أو الحرب؟

ولا يُتْرَكُ مُوجَبُ الأدلّة للأمر المُحْتَمل.

والأَوْلى في ذلك كله والأَظهرُ مِنْ هذه الوجوه مَقْصِدُ الاستئلافِ والمداراة على الدين لعلهم يؤمنون.

ولهذا تَرْجَم البخاري على حديثِ القِسْمَة والخوارج: «باب: مَنْ تركَ قِتالَ

الخوارج للتألُف ولئلا يَنفِرَ الناسُ عنه»، ولِمَا ذكَرْنا معناهُ عن مالك بنِ أنس، وقرَرناهُ قَبْلُ.

وقد صبر لهم عليه السلام على سِخرِه وسَمّه، وهو أعظمُ مِنْ سبِّه إلى أنْ نَصَرَهُ اللَّهُ تعالى عليهم، وأَذِنَ له في قَتْلِ مَنْ حَيَّنَهُ منهم، وإنزالهم من صَيَاصِيهم، وقذفَ في قلوبهم الرُّعْبَ، وكتب على مَنْ شاء منهم الجَلاءَ، وأخرجهم من ديارِهم، وخرَّب بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

١٧٨٥ ـ وكاشفَهم بالسَّبِّ، فقال: **«يا إخوةَ القِرَدةِ والخَنَازير»**.

وحَكَّم فيهم سيوفَ المسلمين، وأجلاهم مِنْ جِوَارِهم وأورثهم أرضَهُم ودِيارَهم وأموالَهم، لِتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العليا وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى.

١٧٨٦ ـ فإن قلتَ: فقد جاء في الحديث الصحيح، عن عائشة رضي الله عنها أنه ـ عليه السلام ـ ما انْتَقَم لنَفْسه في شَيءٍ قط يُؤْتَى إليه، إلا أَنْ تُنْتَهكَ حُرْمَةُ الله، فينتقم لها.

فاعلَمْ أَنَّ هذا لا يَقْتَضِي أنه لم يَنْتَقِمْ ممَّنْ سبَّه، أو آذاه، أو كَذَّبه، فإنَّ هذه من حُرماتِ الله التي انتقم لها، وإنما يكونُ ما لاَ يَنْتَقِمُ له فيما تعلَّق بسوءِ أدبٍ، أو معاملةٍ، من القول، والفعل، بالنّفس والمال، مما لم يَقْصِدْ فاعِلُه به أذاهُ، لكن مما جُبِلَتْ عليه الأعرابُ من الجفاء، والجهل، أو جُبِل عليه البَشَر من الغفلة.

١٧٨٧ ـ كجَبْذِ الأعرابي بإزاره [البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧)] حتى أَثَّرَ في عُنُقِه.

١٧٨٨ ـ وكرَفْع صَوْتِ الآخر عنده.

١٧٨٩ ـ وكجَحْدِ الأعرابي شراءه منه فَرَسَه التي شَهِد فيها خُزيمة.

١٧٩٠ ـ ولما كان مِنْ تظاهُر زَوْجَيْه عَليه [البخاري (٤٩١٤)، مسلم (١٤٧٩)]، وأشباه هذا مما يَحْسُنُ الصَّفْحُ عنه.

وقد قال بعض علمائنا: إن أذى النبي ﷺ حرام، لا يجوز بفعل مباح ولا غيره. وأما غيره من الناس فيجوز بفعل مباح مِمَّا يجوز للإنسان فعله، وإن تأذى به غيره. واحتج بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

١٧٩١ ـ وبقوله ـ عليه السلام ـ في حديث فاطمة: **«إنها بَضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإني لا أُحرم ما أحلَّ الله، ولكن لا تجتمع ابنةُ رسول الله ﷺ**

وابنة عدو الله عند رجل أبداً» أو يكون هذا مما آذاه به كافِرٌ وَجَاء بعد ذلك إسْلامُهُ، كعَفْوِه عن اليهوديِّ الذي سَحَره، وعن الأعرابي الذي أراد قَتْلَهُ، وعن اليهودية التي سَمَّتْهُ، وقد قيل: قتلها.

ومِثْلُ هذا مِمَّا يبلغُه مِنْ أذى أَهْلِ الكتاب والمنافقين، فصفح عنهم رَجاءَ استئلافهم واستِئْلافِ غيرهم بهم كما قرّرْنَاه قبلُ، وبالله التوفيق.

فصل
فِي حُكمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيّ ﷺ
غَيْرَ قَاصِدٍ للسَّبِّ والإِزْراءِ ولا مُعْتَقِدٍ لَهُ

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: تقدّم الكلامُ في قَتْلِ القاصدِ لسبِّه والإزراء به، وغَمْصِه بأي وَجْهٍ كان من مُمْكِنٍ أو محالٍ، فهذا وَجْهٌ بَيِّنٌ لا إشكال فيه.

والوجه الثاني: لاحِقٌ به في البَيان والجَلاء، وهو أَنْ يكونَ القائلُ لما قال في جِهَته - عليه السلام - غَيْرَ قاصدٍ للسَّبِّ والإزراء، ولا معتقدٍ له ولكنه تكلَّم في جهتِه - عليه السلام - بكلمة الكُفْرِ: مِنْ لَعْنِه، أو سبِّه، أو تكذيبه، أو إضافةِ ما لا يجوزُ عليه إليه، أو نَفْي ما يجبُ له، مما هو في حقِّه عليه السلام نقيصة، مِثْلُ أَنْ يَنْسُبَ إليه إتْيانَ كبيرةٍ، أو مداهنة في تبليغ الرسالةِ، أو في حُكْم بين الناسِ، أو يَغُضَّ من مَرْتَبته، أو شرفِ نسبِه، أو وُفور عِلْمه أو زُهْده، أو يُكذِّبَ بما اشتهر من أمورٍ أَخبر بها - عليه السلام - وتواترَ الخَبَرُ بها عنه، عن قَصْدٍ لردِّ خَبره، أو يأتي بسفَهٍ من القولِ، وقبيح من الكلام، ونوع من السبِّ في جهته، وإنْ ظهر بدليل حالِه أنه لم يعتمدْ ذَمَّهُ، ولم يَقْصِدْ سبَّه، إمَّا لجهالةٍ حملَتْهُ على ما قاله، أو لضَجَر أو سُكْرٍ اضطرّه إليه، أو قلةِ مُرَاقبة، وَضَبْطٍ للسانه، وَعَجْرَفةٍ، وَتَهوُّر في كلامِه، فحُكْمُ هذا الوَجْهِ حُكْمُ الوجه الأول: القَتْلُ دون تَلَعْثُم، إذ لا يُعذَرُ أحدٌ في الكُفرِ بالجَهالَة، ولا بدَعْوى زَلَل اللسان، ولا بشيءٍ مما ذكرناه، إذ كان عقلهُ في فِطْرته سليماً، إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان.

وبهذا أفتى الأندلسيّون على ابْنِ حاتمٍ في نَفْيه الزُّهْدَ عن رسول الله ﷺ الذي قدمناه.

وقال محمد بن سُحْنون في المَأْسور يَسُبُّ النبيَّ ﷺ في أيدي العدو: يُقْتَل، إلاّ أَنْ يُعْلَمَ تنصُّرُه أَو إِكراههُ.

وعن أبي محمد بن أبي زيد: لا يُعْذَرُ بدَعْوى زَلَلِ اللسانِ في مِثْلِ هذا.

وَأَفْتَى أبو الحَسَن القابِسيّ فيمن شَتَم النبيَّ ﷺ في سُكْره: يُقْتَل، لأنه يُظَنُّ به أنه يَعْتَقِدُ هذا ويَفْعَله في صَحْوِه.

وأيضاً فإنَّه حَدٌّ لا يُسْقِطُهُ السُّكْرُ، كالقَذْفِ، والقَتْلِ، وسائر الحدودِ، لأنه أدخله على نَفْسِه، لأنَّ مَنْ شرِبَ الخَمْر على عِلْمٍ مِنْ زَوالِ عَقْلِه بها، وإِتْيان ما يُنْكَر منه، فهو كالعامِدِ لما يكونُ بِسببه.

وعلى هذا أَلْزَمْناهُ الطَّلاق والعِتَاقَ، والقِصَاصَ والحدودَ.

١٧٩٢ ـ ولا يُعْترض على هذا بحديث حمزة، وقوله للنبيِّ ﷺ: وهل أنتم إلا عَبِيدٌ لأبي؟ [البخاري (٢٣٧٥)، مسلم (١٩٧٩)].

قال: فعرف النبيُّ ﷺ أنه ثَمِلٌ فانصرف وتركه، لأن الخَمْرَ كانت حينئذٍ غَيْرَ محرَّمة، فلم يكُنْ في جناياتها إِثْمٌ، وكان حُكْمُ ما يحدثُ عنها مَعْفُوّاً عنه كما يحدثُ من النوم، وشرب الدواءِ المأمون.

فصل

في حُكْمِ مَنْ تَنقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِداً لِذلِكَ

الوجه الثالث: أَنْ يَقْصِد إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به، أَو يَنْفِي نبوَّته، أو رسالته، أو وُجوده، أو يكفُرَ به، انتقل بقوله ذلكَ إلى دين آخرَ غَيْر مِلَّتِه أم لا، فهذا كافرٌ بإجماعٍ، يجبُ قتْلُه، ثم يُنْظَرُ، فَإن كان مُصَرِّحاً بذلك كان حكْمُه أَشْبَه بِحُكم المرتدِّ، وقَوِيَ الخلاف في استتابتِهِ.

وعلى القولِ الآخر: لا يَسقطُ القتلُ عند توبته لِحَقِّ النبي ﷺ، إنْ كان ذكره بنقيصةٍ فيما قاله مِنْ كَذِب أو غيره، وإن كان مُسْتَتِراً بذلك فحُكمهُ حكمُ الزنديق لا تُسقِطُ قَتْلَه التوبةُ عندنا كما سنبيِّنه.

قال أبو حنيفة وأصحابُه: مَنْ بَرِىء من محمد، أو كذَّبَ به، فهو مُرْتَدٌّ حلالُ الدَّمِ إلاَّ إنْ رَجع.

وقالَ ابنُ القاسم في المسلم إذا قال: إنَّ محمداً ليس بنبيّ، أو لم يُرسَل، أو لم يُنْزَلْ عليه قرآن، وإنما هو شيء تقوَّلَهُ: يُقْتَلُ.

قال: ومَنْ كفَر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين، فهو بمنزلة المرتدّ، وكذلك مَنْ أَعلن بتكذيبِه، إنه كَالمرتدّ يُسْتتابُ.

وكذلك قال، فيمن تنبأَ وزعم أنه يُوحى إليه. وقاله سُحنون.

قال ابن القاسم: دعا إلى ذلك سِرّاً كان أو جَهْراً.

قال أَصْبَغُ: وهو كالمُرْتَدّ، لأنه قد كفر بكتاب الله مع الفِرْيَة على الله.

قال أَشْهَبُ في يهوديّ تنبّأَ أو زعم أنه أُرسِلَ إلى الناس أو قال: بعد نبيّكم نبيٌ: إنه يُسْتَتَاب إن كان مُعْلِناً بذلك، فإن تاب وإلاَّ قُتِل.

١٧٩٣ ـ وذلك لأنه مكذِّبٌ للنبيّ ﷺ في قوله: **«لا نبيّ بعدي»** [البخاري (٤٤١٦)، مسلم (٢٤٠٤)] مُفْتَرٍ على اللَّهِ تعالى في دَعْواهُ عليه للرسالةِ والنبوّة.

وقال محمد بن سُحْنُون: مَنْ شَكَّ في حَرْفٍ مما جاء به محمد ﷺ عن الله فهو كافرٌ جاحدٌ.

وقال: مَنْ كذّبَ النبيَّ ﷺ كان حُكْمُه عند الأئمةِ القَتْلَ.

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحبُ سُحْنُون، مَنْ قال: إنَّ النبيَّ ﷺ أسودُ قُتِل، فإنه لم يكن ـ عليه السلام ـ بأَسْوَد.

وقال نحوه أبو عثمان الحدّاد، قال: لو قال: إنه مات قَبْلَ أن يَلْتَحِي، أو إنه كان بِتَاهَرْتَ ولم يكن بتِهَامة قُتِل، لأَنَّ هذا نَفْيٌ.

قال حبيب بن ربيع: تبديلُ صِفَته ومَوَاضِعه كفر، والمظهِرُ له كافر، وفيه الاستتابة، والمُسِرُّ له زِنْدِيق، يُقْتَلُ دُونَ استتابته.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ قَالَ كَلاماً يَحْتَمِلُ السَّبَّ وَغَيْرَهُ

الوَجه الرابع: أن يأتِيَ من الكلام بمُجْمَلٍ، ويلفِظَ من القولِ بمُشْكِلٍ يمكنُ حَمْلُه على النبيّ ﷺ أو غيرِهِ، أو يترددُ في المرادِ به مِنْ سلامته من المكروه أو شرِّه، فها هنا مُتَردَّدُ النظر وحَيْرَةُ العِبَر، ومَظِنَّة اختلافِ المجتهدين، ووَقْفَةُ استبْراءِ المقلّدين ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] فمنهم مَنْ غلَّب حُرْمَةَ النبيِّ ﷺ، وحَمىٰ حِمَىٰ عِرْضِه، فَجسر على القَتْلِ، ومنهم مَنْ عظَّمَ حُرْمَةَ القتلِ والدَّم، ودَرَأَ الحدَّ بالشُّبْهَةِ لاحتمالِ القَوْلِ.

وقد اختلف أئمتُنا في رجُل أَغضَبهُ غَرِيمُه، فقال له: صَلِّ على النبي محمد، فقال له الطالبُ: لا صَلَّى الله على مَنْ صلَّى عليه، فقيل لسُحْنُون: هل هو كمَنْ شتَم النبيَّ ﷺ أو شتَمَ الملائكةَ الذين يُصلُّون عليه؟ قال: لا، إذا كانَ علىٰ ما وصَفْتَ من الغضَبِ، لأنه لم يكن مُضمِراً الشَّتْم.

وقال أبو إسحاق البَرْقي، وأَصْبَغُ بن الفَرَجِ: لا يُقْتَلُ، لأنه إنما شتَم

الناس، وهذا نَحوُ قولِ سُحْنُون، لأنه لم يَعْذِرْهُ بالغَضَبِ في شَتْم النبيِّ ﷺ، ولكنه لمّا احتملَ الكلامُ عنده، ولم تكُنْ معه قرينةٌ تدل على شَتْم النبيّ ﷺ، أو شَتْم الملائكةِ صلواتُ الله عليهم، ولا مُقدّمةٌ يُحمَلُ عليها كلامُه، بل القرينةُ تدلُّ على أنَّ مرادهُ الناسُ غَيْرُ هؤلاء، لأجْلِ قولِ الآخر له: صَلِّ على النبيِّ محمد، فحمل قولَه وسبَّه لمن يُصَلِّي عليه الآنَ لأجْل أمرِ الآخَر له بهذا عند غَضَبه.

هذا معنىٰ قولِ سُحْنُون، وهو مُطَابِقٌ لعلّةِ صاحبيه.

وذهب الحارثُ بن مِسكين القاضي وغَيْرُه في مِثْلِ هذا إلى القَتْل.

وتوقَّف أبو الحسن القابسيُّ في قَتْلِ رَجُلٍ قال: كلُّ صاحبِ فُنْدُقٍ قَرْنانٌ، ولو كان نَبِياً مُرْسَلاً، فَأمر بشدِّه بالقيودِ والتضييق عليه حتى تُستَفْهم البيّنة عن جملةِ ألفاظه، وما يدلُّ على مَقْصِده، هل أراد أصحَابَ الفنادِق الآن؟ فمعلومٌ أنه ليس فيهم نبيٌّ مرسَلٌ، فيكون أَمْرُه أخفَّ.

قال: ولكِنْ ظاهِرُ لفْظِه العمومُ لكل صاحب فُنْدُقٍ من المتقدمين والمتأخّرين. وقد كان فيمن تقدَّم من الأنبياء والرُّسلِ من اكتسبَ المال.

قال: ودمُ المسلمِ لا يُقْدَمُ عليه إلا بأمر بَيِّنٍ. وما تُرَدُّ إليه التأويلاتُ لا بُدّ مِنْ إمعان النظر فيه. هذا معنىٰ كلامه.

وحُكي عن أبي محمد بن أبي زَيْد رحمه الله ـ فيمن قال: لَعَنَ الله العربَ، ولعنَ اللّهُ بني إسرائيل، ولعنَ الله بني آدمَ، وذكر أنّهُ لم يُرِدِ الأنبياءَ، وإنما أردْتُ الظالمين منهم، أنَّ عليه الأدَبَ بقَدْرِ اجتهادِ السلطان.

وكذلكَ أفتى، فيمن قال: لعن اللّهُ مَنْ حَرَّمَ المُسْكِر، وقال: لم أعلَمْ مَنْ حَرَّمَه.

١٧٩٤ ـ وفيمن لَعنَ حديثَ: «**لا يبيعُ حاضِرٌ لبادٍ**» ولعن مَنْ جاء به، أنه إن كان يُعذَرُ بالجهل وعَدَمِ معرفةِ السُّنَن فعليه الأدبُ الوَجيع، وذلك أنَّ هذا لم يَقْصِدْ بظاهر حالِه سبَّ اللّهِ ولا سبَّ رَسُولِهِ، وإنما لعن مَنْ حَرَّمَهُ مِنَ الناس على نَحْوِ فَتْوَى سُحْنُون وأصحابه في المسألة المتقدمة.

ومِثْلُ هذا ما يَجْري في كلامِ سُفَهاءِ الناس من قول بعضِهم لبعض: يَابْنَ أَلْفِ خِنزِير! وابنَ مئة كلب! وشِبْهه من فُحْشِ القول.

ولا شكَّ أنه يدخلُ في مِثْلِ هذا العدد من آبائه وأجدادِهِ جماعةٌ من الأنبياء، ولعلّ بعض هذا العدد مُنقطِعٌ إلى آدمَ عليه السلام، فينبغي الزجْرُ عنه، وتَبيِينُ ما جهل قائلُه منه، وشدّةُ الأدب فيه.

ولو عُلِمَ أنَّهُ قَصد سَبَّ مَنْ في آبائه من الأنبياء على علمٍ لقُتِل.

وقد يضيقُ القولُ في نحو هذا لو قال لرجُل هاشميٍّ: لعنَ اللّهُ بني هاشم وقال: أردتُ الظالمين منهم، أو قال لرجُل من ذُرِّية النبيِّ عليه السلام قولاً قبيحاً في آبائه، أو مِنْ نَسْلِهِ، أو وَلدِه على عِلْم منه أنه مِنْ ذُرِّيَّةِ النبيّ عليه السلام، ولم يكن قرينةٌ في المسألتين تَقْتَضِي تخصيصَ بَعْضِ آبائه، وإخراجَ النبيّ عليه السلام مِمَّنْ سبَّهُ منهم.

وقد رأيتُ لأبي موسى: - عيسى بن مَنَاس - فيمن قال لرجلٍ: لعنكَ اللّهُ إلى آدم عليه السلام... أنه إنْ ثبتَ ذلك عليه قُتِلَ.

وقد كان اختلف شيوخُنا فيمن قال لشاهد شهِدَ عليه بشيءٍ ثم قال له: أَتتّهِمُنِي؟ فقال له الآخَر: الأنبياءُ يُتَّهَمون، فكيف أنتَ؟! فكان شيخُنَا أبو إسحاق بن جعفر يَرَى قَتْلَه، لِبَشَاعَةِ ظاهِر اللَّفظِ.

وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقَّفُ عن القَتْلِ لاِحْتِمَالِ اللفظ عنده أَنْ يكون خَبراً عمّن اتَّهمهم من الكفّار.

وأَفْتَى فيها قاضي قُرْطُبة أبو عبداللّه بن الحاجّ بنحو هذا.

وشدَّدَ القاضي أبو محمد تَضْفِيدَهُ، وأطال سِجْنَه، ثم استَحْلَفه بَعْدُ على تكذيبِ ما شُهِدَ به عليه، إذ دخَل في شهادةِ بَعْضِ مَنْ شهد عليه وَهنٌ، ثم أطلقه.

وشاهدتُ شيخَنا القاضي أبا عبداللّه: محمد بن عيسى أيامَ قَضَائه أُتِيَ برجُل هاتَرَ رجلاً اسمه محمد ثم قَصَد إلى كَلْب، فضربَهُ برِجْلِه، وقال له: قُمْ يا محمدُ! فأنكر الرجلُ أن يكونَ قال ذلك، وشَهِدَ عليه لفيفٌ من الناس، فأَمر به إلى السِّجْنِ، وتقصَّى عن حالِه، وهل يصحبُ مَنْ يُسْتَرابُ بدينه من الناس، أم لا؟ فلما لم يَجِدْ ما يُقَوِّي الرِّيبَة باعتقادِه ضربه بالسَّوْط وأطلقه.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ لَمْ يَقْصِدْ نَقْصاً، وَلَمْ يَذْكُرْ عَيباً وَلاَ سَبّاً. بَلْ قَالَ قولاً عَلى مَقْصِدِ التَّرفِيعِ لنفسهِ، أوْ لغيرِهِ، أو على سبيلِ التَّمْثِيلِ وَعَدَمِ التَّوقِيرِ لِنَبِيِّهِ، أَوْ على قَصْدِ الهَزْلِ والتَّنْذِيرِ

الوَجه الخامس: أَلاَّ يَقْصِدَ نَقْصاً، ولا يَذْكر عَيباً ولا سبّاً، لكنه يَنْزِعُ بذِكْرِ بعضِ أوصافِهِ، أو يَسْتَشْهِدُ ببعضِ أحوالِهِ ﷺ الجائزةِ عليه في الدنيا على طريق ضَرْب المَثَلِ، والحُجَّة لنفسه أو لغيره، أو على التشبّه به، أو عند

هَضِيمَةٍ نالَتْه، أو غَضَاضةٍ لحِقَتْهُ، ليس على طريق التأسّي وطريق التحقيق، بل على مَقْصِد الترفيع لنفسه أو لغيره، أو على سبيل التمثيل وعَدَم التَّوْقير لنبيّه عليه السلام، أو على قَصْد الهَزْل والتَّنذير بقوله، كقولِ القائل: إنْ قيل فِيَّ السّوءُ فقد قيل في النبي، وإن كُذِّبْتُ فقد كُذِّب الأنبياءُ، أو إن أَذْنَبْتُ فقد أَذْنبوا، أو أنا أَسْلَمُ من ألسنةِ الناسِ ولم يَسْلَمْ منهم أنبياءُ اللَّهِ ورُسُله، أو قد صبرْتُ كما صَبر أُولُوا العَزْم، أو كَصَبْرِ أيوب، أو قد صبر نَبيُّ اللَّهِ عن عِدَاهُ، وحَلُم على أكثَرَ مما صبرت، وكقول المتنبي:

أَنَا فِيْ أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـ ... ـهُ غَرِيْبٌ كَصَالِحٍ فِيْ ثَمُود

ونحوه من أشعار المتعجرفين في القولِ، المتساهلين في الكلام، كقول المَعَرّي:

كُنْتَ موسى وافَتْهُ بنتُ شُعَيْبٍ ... غَيْرَ أَنْ ليس فيكما مِنْ فَقِيْرِ

على أَنَّ آخِرَ البيت شديد عند تدبره، وداخلٌ في باب الإزراء والتحقير بالنبي عليه السلام وتفضيل حال غيره عليه.

وكذلك قوله أيضاً:

لولا انقطاعُ الوَحْي بعد مُحَمَّدٍ ... قُلْنا: محمدُ من أَبيه بَدِيْلُ

هو مِثْلُه في الفَضْلِ إلا أنَّهُ ... لَمْ يَأْتِه بِرِسَالَةٍ جِبْرِيْلُ

فصَدْرُ البيت الثاني مِنْ هذا الفصلِ شديدٌ لتشبيهه غَيْرَ النبيّ عليه السلام في فَضْله بالنبيّ، والعَجُزُ محتملٌ لوجهين: أَحَدهما أَنَّ هذه الفضيلة نَقَّصت الممدوح، والآخر: استغناؤُه عنها. وهذا أشدُّ.

ونحوٌ منه قولُ الآخر:

وإذا ما رُفِعَتْ راياتُهُ ... صَفَّقَتْ بين جَنَاحَيْ جِبْرِيْنْ

وقول الآخر من أهل العصر:

فَرَّ مِنَ الخُلْدِ وَاستجار بِنَا ... فصبَّر اللَّهُ قَلْبَ رَضْوَانِ

وكقول حسّان المَصِّيصي ـ من شعراء الأندلس ـ في محمد بن عبَّاد المعروف بالمُعْتمِد، وَوزيره أبي بكر بن زيدون:

كأَنَّ أبا بَكْرٍ أبو بَكْرٍ الرِّضا ... وَحَسّانَ حَسّانٌ وَأنتَ مُحَمَّدُ

إلى أمثال هذا وإنما كثَّرنا بشاهدها مع استثقالنا حكايتَها لتعريف أمثِلتها، ولتساهلِ كثيرٍ من الناسِ في وُلوجِ هذا الباب الضَّنْك، واستخفافِهم فادحَ هذا العِبْء، وقلةِ عِلْمهم بعظيم ما فيه من الوزرِ، وكلامهم منه بما ليس لهم به عِلْمٌ ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. لا سيما الشعراء. وَأشدُّهم فيه تصريحاً، وللسانه تسريحاً ابْنُ هانىء الأندلسي، وَابن سليمان المَعَرِّيُّ، بل قد خرج كثيرٌ مِنْ كلامِهما إلى حَدِّ الاستخفاف والنَّقْصِ وَصَرِيح الكُفْرِ.

وقد أَجبْنا عنه أوَّلاً، وغَرَضُنا الآن الكلامُ في هذا الفَصْل الذي سُقْنا أمثلته، فإنَّ هذه كلّها وإنْ لم تَتَضَمَّنْ سبّاً، ولا أضافتْ إلى الملائكة والأنبياء نَقْصاً ولا عيباً، ولست أعني عَجُزَي بَيْتَيْ المَعَرِّيِّ، ولا قصد قائلُها إزراءً وغَضّاً، فما وقَّر النبوّة، ولا عظَّم الرسالة، ولا عَزَّرَ حُرمة الاصطفاء، ولا عزَّزَ حُظْوَة الكرامةِ، حتى شبَّه مَنْ شبَّهَ في كرامةٍ نالها، أو مَعَرَّةٍ قَصَد الانتفاءَ منها، أو ضَرْب مثل لتطييب مجلسه، أو إغلاءٍ في وصفٍ لتحسين كلامهِ بمن عظَّم اللّهُ خَطَره، وشرَّف قَدْره، وألزم تَوْقيرهُ وبِرَّه، ونَهَى عن جَهْرِ القولِ له، ورَفْع الصوتِ عنده.

فحقُّ هذا ـ إنْ دُرِىء عنه القَتْلُ ـ الأَدَبُ والسِّجْنُ وقوةُ تَعْزِيره بحَسَب شُنْعَةِ مَقاله، ومقتضى قُبْحِ ما نَطق به، ومألوف عادَتِه لمِثْلِه، أو نُدورِه، وقرينةِ كلامِه، أو نَدمِه على ما سبق منه، ولم يَزَل المتقدِّمون يُنكرون مِثْلَ هذا ممّن جاءَ به، وقد أنكر الرشيدُ على أبي نُوَاس قوله:

فإنْ يكُ باقِي سِحْرِ فرعونَ فيكُمُ   فإنَّ عَصَا مُوسىٰ بِكَفِّ خَصِيْبِ

وقال له: يا بْنَ اللَّخْناء، أنت المستهزىءُ بعصا موسى عليه السلام! وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته.

وذكر القُتَبِيُّ أَنَّ مما أُخِذَ عليه أيضاً، وكُفِّر فيه، أو قارَبَ، قوله في محمد الأَمينِ وتشبيهه إياهُ بالنبي ﷺ حيث قال:

تنازَعَ الأَحْمَدَانِ الشِّبْهَ فاشْتَبَها   خَلْقاً وخُلْقاً كَما قُدَّ الشِّرَاكانِ

وقد أنكروا عليه أيضاً قولَه:

كَيْفَ لا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ   مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفَرِه

لأَنَّ حقَّ الرسول عليه السلام وموجبَ تعظيمه وإنَافة منزِلته أَنْ يُضَاف إليه، ولا يُضاف.

فالحكمُ في أمثالِ هذا ما بَسطْناه في طريق الفُتْيا على هذا المنهج جاءت فُتْيا إمامِ مذهبِنا مالكِ بن أنس رحمه الله وأصحابه.

ففي «النوادرِ» ـ من رِوَاية ابن أبي مريم عنه ـ في رجُلٍ عَيَّرَ رَجُلاً بالفقْر، فقال: تُعَيِّرني بالفقْرِ وقد رَعَى النبيُّ ﷺ الغنَم؟ فقال مالكٌ: قد عَرَّض بذِكْر النبيِّ ﷺ في غير مَوْضِعه، أرى أنْ يؤدّب، قال: ولا ينبغي لأهْل الذنوبِ إذا عُوتبوا أنْ يقولوا: قد أخطأتِ الأنبياء قَبْلنا.

وقال عمر بن عبدالعزيز لرجُلٍ: انظُرْ لنا كاتباً يكون أبوهُ عَربياً. فقال كاتبٌ له: قد كان أَبو النبيّ كافراً، فقال: جعلْتَ هذا مثلاً! فعزله، وقال: لا يكتُبُ لي أبداً.

وقد كَرِه سُحْنُون أنْ يصلَّى عَلَى النبيّ ﷺ عند التعجبِ إلا على طريق الثوابِ والاحتسابِ، توقيراً له وتعظيماً، كما أمرنا اللَّهُ سبحانه.

وسُئل ـ القابِسيُّ ـ عن رجلٍ قال لرجل قَبيح: كأنه وَجْهُ نَكِير، ولرجُلٍ عَبُوس: كأنه وَجْهُ مالك الغَضبان، فقال: أيّ شيء أراد بهذا؟ ونَكيرٌ أَحدُ فتَّانَيْ القَبْرِ، وهما مَلَكَانِ، فما الذي أرادَ؟ أَرَوْعٌ دخل عليه حين رآه من وَجْهه، أم عافَ النظَر إليه لدمامةِ خَلْقِه؟ فإنْ كان هذا فهو شَدِيد، لأنه جرَى مَجْرَى التحقير والتَّهْوِين، فهو أشدُّ عقوبةً، وليس فيه تصريحٌ بالسبِّ لِلْمَلَكِ، وإنما السب وَاقِعٌ على المخاطَب. وفي الأدبِ بالسَّوْط والسجن نَكَالٌ للسفهاءِ، قال: وأَمَّا ذاكِرُ مَالكٍ خازِنِ النارِ فقد جَفَا الذي ذكره عندما أنكر حاله من عبوس الآخَرِ إلاَّ أن يكونَ المُعَبِّسُ له يَدٌ فيُرْهِبُ بعَبْسَتهِ، فيشبّهه القائل بمالك خازن النار على طريقِ الذمّ لهذا في فِعْله، ولزومهِ في ظُلْمه صفَةَ مالكٍ، المَلَكِ المُطِيع لربِّه في فِعْله، فيقول: كأنه لِلَّهِ يَغْضَبُ غضبَ مالكٍ، فيكون أَخفَّ، وما كان يَنْبغي له التعرُّضُ لمِثْلِ هذا، ولو كان أَثْنَى على العَبُوسِ بعبستِه، واحتجّ بصفةِ مالكٍ كان أشدّ، فيعاقَبُ المعاقبةَ الشديدةَ، وليس في هذا ذَمٌّ لِلْمَلَكِ، ولو قصد ذَمَّه لقُتِل.

وقال ـ أبو الحسن أيضاً ـ في شابٍّ معروفٍ بالخير قال لرجل شيئاً، فقال له الرجلُ: اسكُتْ، فإنك أُمّيٌّ. فقال الشاب: أَليس قد كان النبيُّ ﷺ أُمّيًا! فشنع عليه مَقَالَه، وَكفَّره الناسُ، وأَشفَق الشابُّ ممَّا قال، وأظهر الندمَ عليه، فقال أبو الحسن: أمّا إطلاقُ الكُفر عليه فخطأٌ لكنه مخطىء في استشهادِهِ بصفةِ النبيِّ ﷺ، وكون النبي أُمّيًا آيةٌ له، وكونُ هذا أُميّاً نَقِيصةٌ فيه وجَهالة.

ومن جهالته احتجاجُه بصفةِ النبيِّ ﷺ، لكنه إذا استغفر وتاب، واعترف

ولجأ إلى الله فيُترك، لأنَّ قولَه لا ينتهي إلى حدّ القَتْل، وما طريقهُ الأدَبُ فطوْعُ فاعِله بالندمِ عليه يوجِبُ الكفَّ عنه.

ونزلَت أيضاً مسألةٌ استفتى فيها بعضُ قضاةِ الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور رحمه الله في رجُل تنقَّصَهُ آخَرُ بشيء، فقال له: إنما تُريدُ نَقْصِي بقولك، وأنا بَشَرٌ، وجميعُ البَشَرِ يَلْحقُهم النَّقْصُ حتى النبي ﷺ، فأفْتَاهُ بإطالةِ سِجْنِه، وإيجاعِ أدبِه، إذ لم يقصد السَّبَّ، وكان بعضُ فقهاءِ الأندلس أَفْتى بقَتْله.

فصل

فِي حُكْمِ القَائِل والحَاكي لهٰذا الكَلامِ عَنْ غَيرِه

الوَجه السادس: أن يقولَ القائلُ ذلك حاكياً عن غيره، وآثِراً له عن سِوَاه، فهذا يُنْظَر في صورة حكايتِهِ وقرينةِ مَقالتِه، ويختلفُ الحُكْمُ باختلافِ ذلك على أربعة وجوه: الوجوبِ، والندبِ، والكراهةِ، والتحريمِ، فإن كان أخبر به على وَجْه الشهادةِ والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام بقولِه، والتنفير منه، والتجريح له، فهذا مما يَنْبَغي امتثالُه، ويُحمد فاعلُه، وكذلك إن حكاهُ في كتابٍ أو في مجلسٍ على طريقِ الردّ له والنَّقض على قائله، والفُتْيا بما يلزمُه.

وهذا منه ما يجبُ، ومنه ما يستحبّ بحسب حالاتِ الحاكي لذلك والمحكيِّ عنه، فإن كان القائل لذلك ممّن تصدّى لأنْ يُؤخَذَ عنه العِلْمُ، أو رِوَايَةُ الحديثِ، أو يُقْطَع بحُكْمِه أو بشهادته، أو فُتْيَاهُ في الحقوق، وجب على سامعِه الإشادةُ بما سمع منه والتنفِيرُ للناس عنه، والشهادةُ عليه بما قاله، ووجب على مَنْ بلَغَهُ ذلك من أئمة المسلمين إنكارُه، وبيانُ كُفرِه، وفسادُ قَوْله، لقَطْع ضَرَرِه عن المسلمين، وقياماً بحقّ سيِّدِ المرسلين، وكذلك إنْ كان ممَّنْ يَعِظُ العامَّةَ، أو يؤدبُ الصبيان، فإنَّ مَنْ هذه سريرتُه لا يُؤْمَنُ على إلقاءِ ذلك في قلوبهم، فيتأكد في هؤلاء الإيجابُ لحقّ النبيِّ ﷺ، ولحقّ شريعته.

وإن لم يكن القائلُ بهذه السبيل فالقيامُ بحقّ النبيِّ ﷺ وَاجبٌ، وحمايةُ عِرْضِه مُتَعيّن، ونُصْرَتُه عن الأذى، حيّاً وميتاً، مستحقٌّ على كل مؤمن، لكنه إذا قام بهذا مَنْ ظهر به الحقُّ، وفُصلت به القضيةُ، وبانَ به الأمرُ، سقط عن الباقي الفَرْضُ، وبَقِي الاستحبابُ في تكثير الشهادة عليه وعَضْدِ التحذير منه.

وقد أجمع السَّلَف على بيان حال المتَّهم في الحديثِ، فكيف بمثْلِ هذا؟

وقد سُئل أبو محمد بن أبي زَيْد عن الشاهِد يَسْمَعُ مِثْلَ هذا في حقِّ الله تعالى يَسَعُه ألاَّ يؤدِّيَ شهادتَه؟ قال: إنْ رَجا نفاذ الحُكمْ بشهادته فليَشْهَدْ.

وكذلك إنْ عَلِمَ أَنَّ الحاكِمَ لا يَرَى القَتْلَ بما شَهِدَ به، ويَرَى الاستتابةَ والأَدبَ فلْيَشْهَدْ، ويلزمُه ذلك.

وأمّا الإباحةُ لحكاية قوله لغير هذَيْنِ المقصدين، فلا أرى لها مَدْخلاً في هذا الباب، فليس التفكّه بِعرْض النبيّ ﷺ، والتَّمَضْمُض بسوءِ ذِكْرِه لأَحَدٍ لا ذاكِراً ولا آثِراً لغير غَرَضٍ شَرْعي بِمُبَاح.

وأمّا للأغراضِ المتقدمة فمتردِّدٌ بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكى اللَّهُ تعالى مقالاتِ المُفترِين عليه، وعلى رُسُلِهِ، في كتابه على وَجْهِ الإنكار لقولهم، والتحذير من كُفرهم، والوعيد عليه، والردِّ عليهم بما تلاهُ اللَّهُ علينا في مُحكَم كتابِه.

وكذلك وَقَعَ مِنْ أمثالِهِ في أحاديث النبيّ ﷺ الصحيحةِ على الوجوهِ المتقدّمةِ، وأجمع السَّلَف والخَلَفُ من أئمةِ الهُدَى على حكايات مقالات الكَفَرةِ والمُلْحِدين في كتُبهم ومجالسهم ليُبيِّنوها للناس، وينقُضُوا شُبَهَهَا عليهم. وإنْ كان وَرَدَ لأحمد بن حَنبل إنكارٌ لبعض هذا على الحارث بن أَسَدٍ، فقد صنع أحمدُ مِثْلَه في رَدِّهِ على الجَهْمِيّة والقائلين بالمخلوق.

هذه الوجوهُ السائغة الحكايةُ عنها، فأما مَنْ ذَكَرَها على غير هذا: من حكاية سبِّه والإزراءِ بمَنْصِبه على وَجْه الحكاياتِ، والأَسمارِ، والطُّرَف، وأحاديث الناس، ومقالاتهم في الغَثِّ والسَّمِين، ومضاحك المُجّان، ونوادرِ السُّفهاءِ، والخوض في قيل وقال، ـ وما لا يَعْني ـ فكل هذا ممنوع، وبَعْضُه أَشَدُّ في المَنْعِ والعقوبة من بعضٍ، فما كان مِنْ قائله الحاكي له على غير قَصْدٍ أو معرفةٍ بمقدار ما حكاهُ، أو لم يكن ذلك عادتُه، أو لم يكنِ الكلامُ من البَشَاعةِ حيثُ هُوَ، ولم يَظْهرْ على حَاكِيه استحسانُه واستِصْوابهُ، زُجِرَ عن ذلكَ، ونُهِيَ عن العودة إليه، وإن قُوِّم ببعضِ الأَدَب فهو مستوجبٌ له، وإنْ كان لفظُه من البَشَاعة حيثُ هو كان الأدبُ أَشَدَّ.

وقد حُكي أَنَّ رجلاً سأل مالكاً عمّن يقولُ: القرآنُ مخلوقٌ. فقال مالك: كافر فاقتلوه. فقال: إنما حكيتُه عن غيري. فقال مالك: إنما سمعناهُ مِنْكَ.

وهذا مِنْ مالك على طريقِ الزَّجْرِ والتغليظ، بدليل أنه لم ينفِّذْ قَتْلَه.

وإن اتُّهِم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقَهُ، ونسبَه إلى غيره، أو كانت

تلك عادة له، أو ظهر استحْسانُه لذلك، أو كان مُولعاً بمثلِه، والاستِخْفَاف له، أو التحفظ لمثله، وطلبه، وروايةِ أشعار هَجْوِه عليه السلام، وسبُه، فحُكْمُ هذا حُكْمُ السابِّ نَفْسِه، يؤاخذُ بقوله، ولا ينفعُه نِسْبَتُهُ إلى غيره، فيُبَادَرُ بقَتْلِهِ، ويعجَّل إلى الهاوية أُمُّه.

وقد قال أبو عُبيدٍ: القاسمُ بن سَلاَّمٍ ـ فيمن حفِظَ شَطْرَ بَيْتٍ مِمَّا هُجِيَ به النبيُّ ﷺ: فهو كُفْر.

وقد ذكر بعضُ مَنْ أَلَّف في الإجماع إجْمَاعَ المسلمين على تحريم رِوَاية ما هُجِيَ به النبيُّ عليه السلام، وكتابتِه وقراءته، وتَرْكِه متَى وُجِد دونَ مَحْوِ. ورَحِم اللَّهُ أسلافَنا المتَّقين المتحرّزين لدِينهم، فقد أسقطوا مِنْ أحاديث المَغَازي والسِّيَر ما كان هذا سبيلَه، وتركوا روايته إلاّ أشياء ذكروها يَسيرةً وغيرَ مُسْتَبْشَعَةٍ، على نحو الوجوه الأُوَل، ليُرُوْا نقمةَ الله من قائلها، وأخْذَه المُفْتَرِي عليه بذَنْبِه.

وهذا أبو عُبَيدٍ: القاسمَ بن سَلاّم ـ رحمه الله ـ قد تحرَّى مِمَّا اضطُرَّ إلى الاستشهاد به من أَهَاجي أشعار العَرَب في كُتبه، فكنَّى عن اسْم المَهْجوّ بوَزْن اسْمِه، اسْتِبْراءً لدِينه، وتحفُّظاً من المشاركة في ذَمِّ أَحَدٍ بروايته أو نَشْرِه، فكيف بمن يتطرَّقُ إلى عِرْضِ سيدِ البَشَر والمرسلين ﷺ؟!

فصل
في حُكمِ ذِكرِ ما يجوزُ على النبيّ ﷺ، أو يُختَلَفُ في جَوَازِهِ عليه، على طريقِ المُذَاكَرَةِ والتَّعْلِيمِ

الوجه السابع: أَنْ يَذْكُرَ ما يجوزُ على النبيّ ﷺ، أو يُخْتَلفُ في جوازِه عليه، وما يطرأُ من الأمور البَشريّة به ويُمكِنُ إضافتُها إليه، أو يَذْكر بعض ما امْتُحِنَ به، وصبر في ذاتِ اللَّهِ عليه وعلى شدّته من مُقَاساةِ أعدائه، وأذاهم له، ومعرفة ابتداءِ حالهِ وسيرته، وما لَقِيَهُ من بُؤسِ زَمَنِه، ومَرَّ عليه من مُعاناة عَيْشَتِه، كلُّ ذلك على طريق الرواية، ومُذَاكرةِ العِلْم، ومَعْرِفَة ما صحَّتْ منه العصمةُ للأنبياء، ـ وما يجوز عليهم ـ فهذا فنٌّ خارجٌ عن هذه الفنون الستّة، إذ ليس فيه غَمْصٌ ولا نَقْص، ولا إزراءٌ ولا استخْفَافٌ، لا في ظاهرِ اللّفظ، ولا في مَقْصِد اللاَّفِظ، لكن يجب أن يكونَ الكلام فيه مع أهل العلم وفُهماءِ طلبةِ الدِّين مِمَّنْ يفهم مَقَاصِدَهُ. ويحققون فَوائده، ويجنَّبُ ذلك مَنْ عَسَاهُ لا يَفْقَه، أو يُخْشَى به فِتْنتُه، فقد كَرِهَ بعضُ السلَفِ تعليمَ النساءِ سورة يوسف ـ عليه السلام ـ لِمَا

انطَوَتْ عليه من تلك القِصَصِ لضَعْفِ معرفتهنَّ، ونَقْصِ عقولهنّ وإدراكهن.

١٧٩٥ ـ فقد قال ـ عليه السلام ـ مُخبراً عن نَفْسه باستئجاره لرعايةِ الغَنم في ابتداء حالِه، وقال: **«ما مِنْ نبيّ إلاّ وقد رعَى الغَنَمَ»** [البخاري (٢٢٦٢، ٣٤٠٦)، مسلم (٢٠٥٠)].

وأخبرنا الله تعالى بذلك عَنْ مُوسى عليه السلام، وهذا لا غَضَاضةَ فيه جملةً واحدةً لِمَنْ ذَكَرَهُ على وَجهه، بخلافِ مَنْ قَصَد به الغَضَاضةَ والتحقير، بل كانت عادةَ جميع العرب.

نعم، في ذلك للأنبياء حكمةٌ بالغةٌ، وتَدْريجٌ لله تعالى لهم إلى كرامتِه، وتدريبٌ برعايتها لسياسة أُممهم من خَلِيقته بما سبق لهم من الكرامةِ في الأزَلِ، ومتقدَّم العلم.

وكذلك قَد ذكر اللَّهُ يُتْمَه ـ عليه السلام ـ وعَيْلتَهُ على طريقِ المِنَّة عليه، والتعريف بكرامتِه له، فذِكْرُ الذاكِر لها على وَجْهِ تَعْريفِ حالِه، والخبر عن مُبْتدئه، والتعجُّب مِن مِنَحِ اللَّهِ قِبَله، وعظيم مِنَّتِه عنده ليس فيه غَضَاضةٌ، بل فيه دَلالةٌ على نبوَّته وصحةِ دعوتِه، إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديدِ العرب، ومَنْ نَاوأَهُ من أشرافهم، شيئاً فشيئاً، وتَمَّمَ أَمْرَه حتى قهرهم، وتمكّن من مِلْكِ مَقَاليدهم، واستباحةِ ممالك كثيرٍ من الأُمم غيرِهم، بإظهار اللَّهِ تعالى له، وتأييده بنَصْرِه وبالمؤمنين، وألَّف بين قلوبهم، وإمدادِه بالملائكة المسوِّمين، ولو كان ـ عليه السلام ـ ابْنَ مَلِكٍ أو ذَا أشياعٍ متقدّمين لحَسِبَ كثير من الجهَّال أنَّ ذلِكَ مُوجِب ظهورِه، ومُقْتَضى عُلُوِّه.

١٧٩٦ ـ ولهذا قال هِرَقْلُ ـ حين سألَ أبا سُفْيان عنه ـ:

هل في آبائه مِنْ مَلِك؟ فقالَ: لا ثم قال: فلو كان في آبائه مَلِك لقُلنا: رجلٌ يطلبُ مُلْكَ أبيه، وإذِ اليُتْمُ من صِفَتِه وإحدىٰ علاماته في الكُتب المتقدمة وأخبار الأمم السالفةِ.

وكذا وقع ذِكْره ـ عليه السلام ـ في كتاب أَرْمِيَا، وبهذا وصفَه ابنُ ذِي يَزَن لعبدالمطلب، وبَحِيرا لأبي طالب.

وكذلك إذا وُصِفَ بأنه أُميٌّ كما ـ وصَفَهُ اللَّهُ تعالىٰ به ـ فهي مِدْحةٌ له وفضيلةٌ ثابتةٌ فيه، وقاعدةُ مُعْجِزتِه، إذ مُعْجزتُه العظمى من القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم، مع ما مُنِحَ به ﷺ، وفُضِّل به من ذلك، كما قدَّمناهُ في القسم الأول.

ووجودُ مِثلِ ذلك في رَجُلٍ، لم يقرَأْ، ولم يكتُبْ، ولم يُدَارِسْ، ولا لُقِّنَ، مُقتضى العَجَبِ، ومُنْتهى العِبَرِ، ومعجزةُ البَشَرِ.

وليس في ذلك نَقِيصةٌ، إذ المطلوبُ من الكتابة والقراءة المعرفةُ، وإنما هي آلةٌ لها، وواسطةٌ موصِّلةٌ إليها، غَيْرُ مُرادةٍ في نفسها فإذا حصلتِ الثمرةُ والمطلوبُ استُغْنِي عنِ الواسطة والسَّبَب.

والأُمِّيَّة في غيره نَقِيصةٌ، لأَنها سببُ الجهالة، وعُنْوَانُ الغَبَاوةِ، فسبحانَ مَنْ بايَنَ أَمْرَهُ من أمرِ غيره، وجعل شرفَه فيما فيه مَحطّة مَنْ سِوَاهُ، وجَعَلَ حياته فيما فيه هلاكُ مَنْ عَدَاهُ، هذا شَقُّ قَلْبِه، وإخراجُ حُشْوَتِه، كان تمامَ حياته، وغايةَ قوةِ نَفْسِه، وثباتَ رُوْعِهِ، وهو فيمن سِوَاهُ مُنْتَهى هَلاَكِه، وحَتمُ مَوْتِه وفَنَائه، وهلُمَّ جَرّاً، إلى سائر ما رُوِيَ له من أخباره وسِيَرِهِ، وتقلُّلِه من الدنيا، ومن المَلْبس، والمَطْعَم، والمَرْكَب، وتواضُعه ومَهْنته نَفْسَه في أمورِه، وخِدْمة بَيْته زُهْداً، ورغبةً عنِ الدنيا، وتسويةً بين حَقِيرها وخَطِيرها، لسرعةِ فناءِ أمورِها، وتقلُّبِ أحوالها، كلُّ هذا من فضائله ومآثِرِه وشَرفِه كما ذكرنا، فمن أورد شيئاً منها مَوْرِدَه، أو قَصَد بها مَقْصِدَه كان حسناً، ومَنْ أورد ذلك على غير وَجهِه، وعُلِم منه بذلك سوءُ قَصْدِهِ لَحِقَ بالفصولِ التي قدمناها.

وكذلك ما وردَ من أخبارِهِ وأخبارِ سائر الأنبياء ـ عليهم السلامُ ـ في الأحاديث مما في ظاهِرِه إشكالٌ يقتضي أموراً لا تَلِيقُ بهم بحالٍ، وتحتاج إلى تأويلٍ، وتَرَدُّدِ احتمالٍ، فلا يجبُ أنْ يُتحدَّثَ منها إلا بالصحيح، ولا يُرْوَى منها إلا المعلومُ الثابت.

فرَحِمَ اللَّهُ مالكاً، فلقد كرِهَ التحدُّثَ بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلةِ المعنى، وقال: ما يَدْعُو الناسَ إلى التحدُّثِ بمِثْلِ هذا؟ فقيل له: إنَّ ابْنَ عَجْلان يحدّثُ بها، فقال: لم يكن من الفُقَهاءِ، وليت الناس وافقُوه على تَرْكِ الحديثِ بها، وساعدوه على طَيِّها، فإنَّ أكْثَرَها ليس تحته عَمَل.

وقد حُكِيَ عن جماعةٍ من السَّلَف، بل عنهم على الجملة، أنهم كانوا يكرهونَ الكلامَ فيما ليس تحته عَمَلٌ، ـ والنبيُّ ﷺ ـ أوْردها على قوم عَرَب يفهمون كلامَ العَرَب على وَجْهِه، وتصرُّفاتِهم في حقيقته ومَجَازِه، واستعارتِه وبلِيغه وإيجازِه، فلم تكُنْ في حَقِّهم مشكلةً، ثم جاء مَنْ غلبَتْ عليه العُجْمة، وداخَلَتْهُ الأُمية، فلا يكادُ يفهَمُ مِنْ مقاصدِ العرب إلاّ نَصَّها وصَرِيحَها، ولا يتحقَّق بإشاراتِها إلى غَرَض الإيجازِ، ووَحْيِها وتبليغها، وتلويحها دون تصريحها، فتفرقوا

في تأويلها أو حَمْلِها على ظاهِرها شَذَرَ مَذَرَ، فمنهم مَنْ آمَنَ به، ومنهم مَنْ كفر.

فأمَّا ما لا يصحُّ مِنْ هذه الأحاديث، فواجبٌ ألاَّ يُذْكَر منها شيء في حقّ الله سبحانه ولا في حقِّ أنبيائه، ولا يُتحدَّثُ بها، ولا يُتكلَّفُ الكلامُ على معانيها. والصوابُ ـ والله أعلم ـ طرْحُها، وتَرْكُ الاشتغال بها إلاّ أن تُذْكَرَ على وَجْهِ التعريف بأنها ضعيفةُ المَقَادِ، واهيةُ الإسنادِ.

وقد أنكر الأشياخ ـ رحمهم الله ـ على أبي بكر بن فُورك تكلُّفَهُ في «مُشْكَلِه» الكلامَ على أحاديثَ ضعيفةٍ موضوعةٍ لا أصْلَ لها، أو منقولة عن أهل الكتاب الذين يُلَبِّسونَ الحقَّ بالباطل كان يَكفيه طَرْحُها، ويُغْنيه عن الكلام عليها التنبيهُ على ضَعْفِها، إذ المقصودُ بالكلام على مُشْكِلِ ما فيه إزالةُ اللَّبْس بها.

واجتثَاثُها من أصلها، وطَرْحُها، أكشفُ لِلَبْسِ وأشفى لِلنفس.

فصل

في الأَدَبِ اللاَّزِمِ عِنْدَ ذِكرِ أَخْبارِهِ ﷺ

ومما يجبُ على المتكلم فيما يجوزُ على النبي ـ عليه السلام ـ وما لا يجوزُ، والذَّاكِرُ من حالاته ما قدّمناه في الفصل قَبْلَ هذا على طريق المذاكرة والتعليم أنْ يلتزِمَ في كلامِه عند ذِكرِه عليه السلام، وذِكْرِ تلك الأَحوالِ الواجبَ من تَوْقيره وتعظيمِه، ويراقبَ حالَ لسانِه، ولا يُهْمِله، وتَظْهَر عليه علاماتُ الأَدَب عند ذِكْرِه، فإذا ذَكَر ما قاساهُ من الشدائد ظهر عليه الإشفاقُ والارتماضُ، والغَيْظُ على عدوِّه، ومودَّةُ الفِدَاءِ للنبي ﷺ لو قَدَر عليه، والنُّصْرَةُ له لو أَمكنَتْه.

وإذا أخذ في أبواب العصمة، وتكلَّم على مجاري أعماله وأقواله ـ عليه السلام ـ تحرَّى أَحْسَنَ اللَّفظِ، وأَدَبَ العبارةِ علىٰ ما أمكنه، واجْتنَبَ بَشِيعَ ذلك، وهَجَرَ من العبارةِ ما يَقْبُح، كلَفْظَةِ الجَهْل والكَذِب والمعصية، فإذا تكلَّم في الأقوال قال: هل يجوزُ عليه الخُلْفُ في القَوْلِ والإخبارِ بخلاف ما وَقَع سَهْواً أو غَلَطاً؟! أو نَحْوَه من العبارة، ويتجنّب لَفْظَة الكذِب جُمْلَةً واحدةً.

وإذا تكلَّم على العلم قال: هل يجوزُ ألاَّ يَعْلَمَ إلا ما عُلِّمَ؟ وهل يمكن ألاَّ يكونَ عنده عِلْمٌ من بعض الأشياءِ حتى يُوحَى إليه؟ ولا يقول: يَجْهَل، لقُبْحِ اللفظِ وبَشَاعتِه.

وإذا تكلَّم في الأفعال قال: هل تجوزُ منه المخالفةُ في بعض الأَوامِرِ والنواهي ومواقعةُ بعض الصغائر؟ فهو أَوْلَى وآدبُ من قوله: هل يجوزُ أَنْ

يَعْصِيَ، أو يُذْنِبَ أو يفعلَ كذا وكذا، من أنواعِ المعاصي؟ فهذا من حق توقيره عليه السلام، وما يجبُ له من تَعْزِير وإعظام.

وقد رأيتُ بعضَ العلماءِ لم يتحفَّظْ من هذا، فَقُبِّح منه، ولم أَستَصْوِبْ عبارته فيه.

ووجدتُ بعضَ الحائرين قَوَّلَه لأَجْلِ تَرْكِ تحفُّظِه في العبارة، ما لم يَقُلْه، وشنَّع عليه بما يَأْباهُ، ويُكفِّرُ قائلَه.

وإذا كان مِثْلُ هذا بين الناسِ مستَعْملاً في آدابِهم، وحُسْنِ مُعاشرتِهم، وخِطَابِهم، فاستعمالُه في حقِّه ـ عليهم السلام ـ أَوْجبُ، والتزامُه آكد.

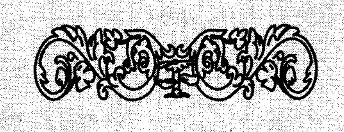
فجودةُ العبارةِ تُقَبِّحُ الشَّيْءَ أَو تُحَسِّنه، وتحريرُها وتهذيبُها تُعظِّم الأمْرَ أَو تهوِّنُه.

١٧٩٧ ـ ولهذا قال عليه السلام: **«إنَّ من البيانِ لَسِحراً»** [البخاري (٥٧٦٧)، مسلم (٨٦٩)].

فأمَّا ما أَوْرده على جهةِ النَّفي عنه والتنزيه له، فلا حَرَجَ في تسريح العبارة، وتصريحها فيه، كقوله: لا يجوز عليه الكذِبُ جُمْلةً، ولا إتيَان الكبائر بوَجْهٍ، ولا الجَوْر في الحُكْم على حال، ولكن مع هذا يجبُ ظهورُ توقيرِهِ وتعظيمِه وتعزيره عند ذِكره مجرّداً، فكيف عند ذِكْرِ مثْلِ هذا؟!.

وقد كان السلَفُ تظهرُ عليهم حالاتٌ شديدةٌ عند مجرَّدِ ذِكْرِه، كما قدّمناه في القسم الثاني.

وقد كان بعضُهم يلتزمُ مِثْلَ ذلك عند تلاوةِ آيٍ من القرآن، حكى اللَّهُ تعالى فيها مَقَالَ عِدَاهُ، ومَنْ كفَر بآياته، وافترى عليه الكذِبَ، فكان يخفِضُ بها صوتَه إعظاماً لربِّه، وإجلالاً له، وإشفاقاً من التشبُّه بمَنْ كفر به.





الباب الثاني

في حُكْم سَابِّهِ وَشَانِئِهِ وَمُتَنَقِّصِهِ وَمُؤْذِيْهِ وعُقُوبَتِهِ وَذِكْرِ اسْتِتَابَتِهِ وَوِرَاثَتِهِ

قال القاضي ـ رحمه الله ـ: قد قدّمنا ما هُوَ سبٌّ وأذى في حقّه عليه السلام، وذكَرنا إجماعَ العلماء على قَتْلِ فاعلِ ذلك وقائلِه، أو تخيير الإمام في قَتْلِه أو صَلْبه على ما ذكرناهُ، وقرّرنا الحُجَجَ عليه.

وبعد: فاعلم أنَّ مشهورَ مَذْهَبِ مالك وأصحابه، وقولِ السَّلَف وجمهورِ العلماء قَتْلُه حدّاً لا كُفراً إنْ أظهرَ التوبةَ منه، ولهذا لا تُقبَل عندهم تَوْبَتُه، ولا تَنْفَعُهُ استقالتُه، ولا فَيْئَتُهُ كما قدّمناهُ قَبْلُ، وحُكمهُ حُكْمُ الزِّنْديق، ومُسِرُّ الكفرِ في هذا القول، وسواءٌ كانت توبتُه على هذا بعد القُدْرةِ عليه والشهادةِ على قوله، أو جاء تائباً مِنْ قِبَل نَفْسه، لأنه حَدٌّ وجب، لا تُسْقِطهُ التوبةُ كسائر الحدود.

قال الشيخ أبو الحسن القابسيُّ رحمه الله: إذا أَقَرَّ بالسبّ، وتاب مِنْهُ، وأظهرَ التوبة قُتِل بالسَّبِّ، لأنه هو حَدُّه.

وقال أبو محمدِ بن أبي زَيْدٍ في مِثْله: وأما ما بَيْنه وبَيْنَ اللّهِ فتوبتُه تَنْفَعُهُ.

وقال ابنُ سَحْنُون: مَنْ شتَم النبيَّ ﷺ من الموحِّدين، ثمّ تاب عن ذلك لم تُزِلْ توبَتُهُ عنه القَتْلَ.

وكذلكَ قد اختُلف في الزنديق إذا جاء تائباً، فحكى القاضي أبو الحَسَن بن القصّار في ذلك قولين:

قال: من شيوخنا من قال: أَقْتُلُه بإقْرَارِه، لأنَّهُ كان يَقْدِرُ على سَتْرِ نَفْسه، فلما اعترف خِفْنَا أنه خَشِيَ الظهورَ عليه فبادرَ لذلك.

ومنهم من قال: أَقبلُ توبتَه، لأني أَستدِلُّ على صِحَّتِها بمجيئه، فكأننا وقَفْنا على باطنه، بخلاف مَنْ أَسرَتْهُ البيِّنَةُ.

قال القاضي أبو الفضل ـ رحمه الله ـ: وهذا قولُ أَصْبَغَ، ومسألةُ سابِّ النبيِّ ﷺ أقوى، لأنه لا يُتَصوَّرُ فيها الخلافُ على الأصل المتقدم، لأنه حقٌّ متعلِّقٌ للنبيِّ ﷺ ولأمتِهِ بسَبَبِهِ، لا تسقِطُه التوبةُ كسائر حقوقِ الآدميين.

والزِّنْدِيقُ إذا تاب بعد القُدْرةِ عليه فعند مالك، واللَّيثِ، وإسحاقَ، وأحمدَ، لا تُقْبل توبتُه.

وعند الشافعي تُقْبَلُ.

واختُلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسُفَ.

وحكى ابنُ المنذر، عن علي بن أبي طالب رضي اللَّهُ عنه: يُسْتَتَاب.

قال محمد بن سَحنون: ولم يَزُلِ القَتْلُ عن المسلم بالتَّوبة مِنْ سبِّه عليه السلام، لأنه لم ينتقِلْ مِنْ دينٍ إلى دينِ غيره، وإنما فعل شيئاً حَدُّه عندنا القَتْلُ، لا عَفْوَ فيه لأحدٍ، كالزِّنديق، لأنه لم ينتَقِلْ من ظاهرٍ إلى ظاهرٍ.

وقال القاضي ـ أبو محمد بن نصر ـ مُحْتجاً لسقوطِ اعتبار تَوْبته: والفَرْقُ بينه وبين مَنْ سبَّ اللَّهَ تعالى على مشهور القول باستتابته أنَّ النبي ـ عليه السلام ـ بشرٌ، والبَشَر جنسٌ تلحقُهم المَعَرَّةُ إلاَّ مَنْ أكرمَ اللَّهُ بنبوّته تعالى، والبارىءُ جل جلاله مُنَزَّهٌ عن جميع المعايب قطعاً، وليس من جنسِ مَنْ تلحقُ المعرَّةُ بجنْسِه، وليس سَبُّهُ ـ عليه السلام ـ كالارتداد المقبولِ فيه التوبة، لأَنَّ الارتدادَ معنًى ينفرد به المرتدُّ لا حقَّ فيه لغيره من الآدميين، فقُبلت توبتُه. ومن سبَّ النبيّ ﷺ تعلَّق فيه وبه حقُّ الآدمي، فكان كالمُرْتَدِّ يَقْتُل حين ارتداده أو يَقْذِفُ، فإنَّ توبتَه لا تُسْقِطُ عنه حَدَّ القَتْلِ والقَذْف.

وأيضاً فإنَّ تَوْبَةَ المرتدِّ إذا قُبِلَتْ لا تُسْقِطُ ذنوبَه من زِناً، وشربٍ، وسرقةٍ، وغيرِ ذلك، ولم يُقْتَلْ سَابُّ النبي ﷺ لكُفرِه، لكن لمعنًى يرجِعُ إلى تعظيم حُرْمتِه، وزوالِ المَعَرَّةِ به وذلك لا تُسْقِطه التَوْبَةُ.

قال القاضي أبو الفضل: يريدُ ـ واللَّهُ أعلم ـ لأنَّ سبَّهُ لم يكن بكلمةٍ تقتضي الكفر، ولكن بمعنى الإزراء والاستخفاف، أو لأنَّ بتوبته وإظهار إنابته له ارتفع عنه اسم الكُفرِ ظاهراً، واللَّهُ أعلم بسريرته، وبَقِيَ حُكْمُ السبِّ عليه.

وقال أبو عِمْران الفاسيّ: مَنْ سبَّ النبيَّ ﷺ، ثم ارتدَّ عن الإسلام قُتِلَ، ولم يُسْتَتَبْ، لأن السبَّ من حُقُوقِ الآدميين التي لا تسقطُ عن المرتدّ.

وكلامُ شيوخنا هؤلاء مبنيٌّ على القول بقَتْلِه، حدّاً لا كُفراً، وهو يحتاج إلى تفصيل.

وأمّا على رواية الوليد بن مسلم، عن مالك، ومَنْ وافقه على ذلك ممَّنْ ذكرناه وقال به مِن أهل العلم، فقد صرَّحُوا أنه رِدَّةٌ، قالوا: ويُسْتَتَابُ منها، فإنْ تاب ترك ونُكِّل، وإن أبى قُتِلَ، فحكم له بحكْم المرتدّ مطلقاً في هذا الوَجْه.

والوجهُ الأوّل أشهر وأظهر لما قدمناهُ، ونحن نَبْسُطُ الكلامَ فيه، فنقول: مَنْ لم يَرَهُ رِدَّةً فهو يُوجِبُ القَتْلَ فيه حدّاً، وإنما نقُولُ ذلك مع فَصْلين: إمّا مع إنكاره ما شُهِدَ عليه به وإظهارِهِ الإقلاعَ والتوبةَ عنه، فَنَقْتُلُه حدّاً لثَبَاتِ كلمةِ الكُفر عليه في حق النبي ﷺ، وتَحْقِيره ما عظَّمَ اللّهُ مِنْ حقِّه، وأَجْرَينا حُكْمَه في ميراثِه، وغَيْرِ ذلك ـ حُكْم الزِّنْديق ـ، إذا ظهرَ عليه وأنكر، أو تاب.

فإن قيل: فكيف تُثْبتونَ عليه الكُفرَ، ويُشْهَدُ عليه بكلمة الكُفر ولا تحكمُون عليه بحُكْمِه من الاسْتِتابةِ وتوابعها؟!.

قلنا: نحن وإنْ أثْبَتْنَا لهُ حُكْمَ الكافرِ في القتل، فلا نَقْطَع عليه بذلك، لإقرارِهِ بالتوحيد والنبوّة، وإنكارِه ما شُهِد عليه به، أو زَعْمِه أنَّ ذلكَ كان منه وَهَلاً ومعصيةً، وأنه مُقْلِعٌ عن ذلك، نادِمٌ عليه، ولا يَمْتَنِعُ إثباتُ بَعْضِ أحكام الكُفْرِ على بعض الأشخاصِ وإنْ لم تَثْبُتْ له خصائصه، كقَتْل تارِكِ الصلاة.

وأمّا مَنْ عُلِمَ أنه سَبَّهُ ـ عليه السلام ـ مُعْتَقداً لاستِحْلاله، فلا شَكَّ في كُفْرِه بذلك.

وكذلك إنْ كان سَبُّهُ في نفسه كَفر، كتكذيبِه أو تكفيره أو نحوه، فهذا ما لا إشكال فيه، ويُقْتَلُ ـ وإنْ تاب منه ـ لأنَّا لا نقبَلُ توبَتَه، ونقتلُه بعد التوبة حدّاً، لقولِهِ، ومتقدّم كُفْره، وأمْرُه بَعْدُ إلى اللّهِ المطَّلِع على صحةِ إقلاعِه، العالمِ بسرِّه.

وكذلك مَنْ لم يُظْهِرِ التوبةَ، واعترفَ بما شُهِدَ به عليه، وصمَّم عليه فهذا كافرٌ بقوله، واستِحلالَهِ هَتْكَ حُرْمةِ اللّهِ وحُرْمةِ رسوله ﷺ يُقْتَل كافراً بلا خلاف.

فعلى هذه التفْصيلات خُذْ كلامَ العلماءِ، ونَزِّلْ مختلفَ عبارتهم في الاحتجاج عليها، وأَجْرِ اختلافهم في الموارثةِ وغيرها على ترتيبها يتَّضِحُ لكَ مقاصِدُهم إن شاء الله تعالى.

فصل
في اسْتِتَابَةِ المُرْتَدّ

إذا قُلْنا بالاستتابةِ حيثُ تَصِحُّ، فالاختلاف فيها على الاختلاف في تَوْبة المرتدّ، إذ لا فَرْقَ.

وقد اختلف السَّلف في وجوبها وصورتها ومُدّتها، فذهب جمهورُ أهلِ العلم إلى أنَّ المرتدّ يُسْتَتَابُ.

وحكى ابن القَصَّار أنه إجماعٌ من الصحابةِ على تصويبِ قولِ عمر في الاسْتِتابةِ، ولم ينكِرْهُ واحدٌ منهم، وهو قَوْلُ عثمان، وعليّ، وابن مسعودٍ، وبه قال عطاء بن أبي رَبَاح، والنَّخَعِيُّ، والثَّوْري، والأوزاعي، ومالك، وأصحابُه، والشافعيُّ، وأحمدُ، وإسحاقُ، وأصحابُ الرأي.

وذهب طاوُوس ومحمد بن الحسن وعُبيد بن عُمير، والحَسَن في ـ إحدى الروايتين عنه ـ أنه لا يُسْتَتَابُ، وقاله عبدالعزيز بن أبي سَلمة، وذكره عن مُعاذ، وأنكره سُحْنُون عن مُعاذ، وحكاه الطحاوي عن أبي يوسف، وهو قولُ أهْل الظاهِر، قالوا: وتَنْفعُه توبتُه عند الله.

١٧٩٨ ـ ولكن لا يُدْرَأُ القَتْلُ عنه، لقوله ﷺ: **«مَنْ بدَّلَ دِينَهُ فاقْتُلوهُ»** [البخاري (٣٠١٧)].

وحكيَ أيْضاً عن عطاء قال: إنْ كان مِمَّن وُلِدَ في الإسلام لم يُسْتَتَبْ، ويُستتابُ الإسلاميّ.

وجمهورُ العلماءِ على أَنَّ المرتدَّ والمرتدَّةَ في ذلك سواء.

ورُوِي عن عليّ رضِيَ الله عنه: لا تُقْتَلُ المرتدَّةُ، وتسترقّ، وقاله عطاء، وقَتَادة.

ورُوِي عن ابن عَبَّاس: لا تُقتَلُ النساء بالردة، وبه قال أبو حنيفة.

قال مالك: والحرُّ، والعَبْدُ، والذَّكَرُ، والأنثى في ذلك سواء.

وأما مُدّتُها: فمذهبُ الجمهور، ورُوِيَ عن عُمر، أنه يُستتابُ ثلاثةَ أيامٍ يُحْبَس فيها، وقد اختلفَ فيه عن عُمَر، وهو أَحَدُ قَوْلي الشافعيّ، وقولُ أحمد، وإسحاق، واستَحْسَنَهُ مالكٌ، وقال: لا يأتي الاستظهارُ إلاّ بخير، وليس عليه جماعةُ الناس.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زَيْد: يريد في الاستِيْناء ثلاثاً.

وقال مالك أيضاً: الذي آخُذُ به في المرتدِّ قولُ عُمر: يُحْبَسُ ثلاثةَ أيام، ويُعْرَضُ عليه كلَّ يوم، فإن تاب وإلاّ قُتِل.

وقال أبو الحسن بن القصَّار: في تأخيره ثلاثاً رِوايَتان عن مالك: هل ذلك واجب أو مستحبٌ؟ واستَحْسَنَ الاسْتِتابةَ والاستِيْناء ثلاثاً أصحابُ الرَّأي.

ورُوِيَ عن أبي بكر الصدّيق أنه استتابَ في خلافته امرأةً فلم تَتُبْ فقتلها، وقاله الشافعيّ مرةً، فقال: إنْ لم يتُبْ قُتِلَ مَكَانَهُ، واستحسنه المُزَني.

وقال الزّهري: يُدْعَى إلى الإسلام ثلاث مراتٍ، فإنْ أبى قُتِل.

ورُوِيَ عَنْ عليٍّ رضِيَ اللَّهُ عنه: يُستتابُ شَهْرَين.

وقال النَّخعي: يُستتاب أبداً، وبه أخذ الثوريّ ما رُجِيَتْ تَوْبَتُهُ.

وحكى ابن القصَّار عن أبي حنيفة: أنه يُستتاب ثلاث مراتٍ في ثلاثة أيام، أو ثلاث جُمَع، كلَّ يوم أو كل جمعة مرة.

وفي كتاب محمد، عن ابن القاسم: يُدْعَى المُرْتَدُّ إلى الإسلام ثلاث مرَّاتٍ، فإنْ أَبى ضُرِبَتْ عنُقُه.

واختُلِفَ على هذا، هل يُهدَّدُ، أو يُشدَّد عليه أيامَ الاستِتابة ليتوبَ أم لا؟ فقال مالك: ما علمْتُ في الاستتابة تجويعاً ولا تَعْطيشاً، ويُؤتَى من الطعام بما لا يضرّه.

وقال أَصْبَغُ: يخوَّفُ أيامَ الاستِتَابة بالقَتْلِ، ويُعْرَضُ عليه الإسلامُ.

وفي كتاب أبي الحسن الطابثي: يوعَظُ في تلك الأيام، ويذكَّرُ بالجنة، ويخوَّف بالنار.

قال أَصْبَغُ: وأَيُّ المواضِع حُبِس فيها من السجون مع الناس أو وَحْده إذا استوثِق منه سواءٌ، ويُوقَفُ مالُه إذا خِيفَ أنْ يُتْلِفَه على المسلمين، ويُطْعَم منه، ويُسْقَى.

وكذلك يُسْتَتابُ أبداً كلما رجع وارتدّ.

١٧٩٩ ـ وقد استتابَ النبيُّ ﷺ نَبْهانَ الذي ارتدَّ أربع مراتٍ أو خمساً.

وقال ابْنُ وَهْب، عن مالك: يُسْتَتابُ أَبداً كلما رَجَع، وهو قولُ الشافعي، وأحمد، وقاله ابن القاسم.

وقال إسْحاق: يُقتلُ في الرابعة.

وقال أَصْحَابُ الرأي: إنْ لم يَتُبْ في الرابعة قُتِلَ دون استتابته وإنْ تابَ ضُرِبَ ضَرْباً وَجِيعاً، ولا يخرج من السجن حتى يَظْهَر عليه خشوعُ التوبةِ.

قال ابن المنذر: ولا نَعْلَمُ أحداً أَوْجَب على المرتدّ في المرة الأولى أَدباً إذا رجع. وهو على مَذهب مالكٍ والشافعيّ والكوفيّ.

فصل
في حُكمِ المُرتَدِّ إذا اشْتُبِهَ ارْتِدَادُهُ

قال القاضي رحمه الله: هذا حُكمُ مَنْ ثبتَ عليه ذلك بما يجبُ ثبوته من إقرار، أو عُدولٍ لم يُدْفَعْ فيهم، فأمّا مَنْ لم تَتِمَّ الشهادةُ عليه إنّما شَهِدَ عليه الواحِدُ، أو اللَّفيفُ من الناس، أو ثبتَ قولُه لكن احتُمِلَ ولم يكن صَريحاً، وكذلكَ إنْ تابَ ـ على القَوْلِ بقَبُولِ توبتِه ـ فهذا يَدْرَأُ عنه القَتْلَ، ويتسلّط عليه

اجتهادُ الإمام بقَدْر شُهْرَةِ حالِه، وقوةِ الشهادةِ عليه، وضَعْفِها، وكثرةِ السّمَاع عنه، وصورةِ حاله من التهمة في الدِّين، والنَّبْز بالسَّفَهِ والمجُون، فمَنْ قَوِي أَمْرُهُ أذاقَه من شديد النَّكَال ومن الضيق في السِّجْن، والشدّ في القيود إلى الغاية التي هي مُنْتَهى طاقتِه بما لا يمنعه القيام لضرورته، ولا يُقْعِدهُ عن صلاته، وهو حُكْمُ كُلِّ مَنْ وَجب عليه القَتْلُ، ولكن وُقِفَ عن قَتْلِه لمعنىً أَوْجَبَه، وتُرُبِّصَ به لإشكالِ وعائقِ اقتضاهُ أمرُه، وحالاتُ الشدةِ في نَكالِه تختلف بحسب اختلافِ حاله.

وقد رَوَى الوَليدُ، عن مالك، والأوزاعيّ أنها رِدَّةٌ، فإذا تاب نُكِّل.

ولمالكٍ في «العُتْبِيَّة» وكتابِ محمدٍ، من رواية أَشْهب: إذا تاب المرتدُّ فلا عقوبةَ عليه. وقاله سُحْنون.

وأفتى أبو عبدالله بن عتَّاب فيمن سبَّ النبي ﷺ ـ فشهِدَ عليه شاهِدَان عُدِّلَ أَحَدُهما ـ بالأَدبِ المُوجِع، والتَّنْكِيل، والسِّجْنِ الطويل حتى تظهرَ توبتُه.

وقال القابسيُّ في مثل هذا: ومَنْ كان أَقْصَى أَمْرِه القَتْل فعاقَ عائقٌ عن ذلك أَشْكَلَ في القتل، لم يَنْبَغِ أَنْ يُطْلَقَ مِنَ السجن، ولكن يُسْتَطالُ سجْنُه، ولو كان فيه من المدةِ ما عسى أن يُقيمَ، ويُحْمَل عليه من القَيْد ما يُطيق.

وقال في مثله مِمَّنْ أَشْكَلَ أمرُه: يُشَدُّ في القيود شدّاً، ويُضيَّق عليه في السجْنِ حتى يُنْظَر فيما يجب عليه.

وقال في مسألة أُخرى مِثْلِها: ولا تُهْرَاقُ الدماءُ إلا بالأَمْرِ الواضِح، وفي الأدب بالسَّوْط والسّجْن نَكَالٌ للسفهاء، ويعاقَبُ عقوبة شديدةً، فأمّا إن لم يشْهَدْ عليه سِوَى شاهدين، فَأَثبتَ من عَدَاوَتهما أَوْ جَرْحَتِهما ما أَسْقَطهما عنه، ولم يُسْمَعْ ذلك من غيرهما فأمْرُه أخف لسقوطِ الحُكْم عنه، وكأنه لم يُشْهَدْ عليه، إلاّ أَنْ يكون مِمَّنْ يليقُ به ذلك، ويكون الشاهدان من أهل التَّبْرِيز، فأسْقَطهما بعداوة، فهو ـ وإن لم يَنْفُذ الحُكْم عليه بشهادتهما ـ فلا يَدْفَعُ الظنُّ صِدْقَهما، وللحاكم هنا في تَنْكِيله موضِعُ اجتهادٍ. واللّهُ أعلم.

فصل

في حُكم الذِّمّيّ إذا صرّح بسَبّه ﷺ، أو عَرّض، أو استخَفّ بقَدْرِه، أو وَصَفَهُ بغَيرِ الوَجهِ الّذي كَفَرَ بِهِ

قال القاضي أبو الفضل: هذا حُكْمُ المُسْلِم، فأمّا الذِّمِّيُّ إذا صَرَّحَ بسبِّه، أو عَرَّض، أو اسْتَخَفَّ بقَدْرِه، أو وصَفَه بغير الوَجْه الذي كفر به فلا خلافَ عندنا

في قَتْلِه إنْ لم يُسْلِم، لأنّا لم نُعْطِه الذمّةَ والعهدَ على هذا، وهو قولُ عامّةِ العلماء، إلا أبا حنيفةَ والثوريّ وأتباعَهما من أهل الكوفة، فإنهم قالوا: لا يُقْتَل، ما هو عليه من الشِّركِ أعظمُ، ولكن يُؤَدَّب ويعزَّرُ.

واستدلّ بعضُ شيوخِنا على قَتْلِه بقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾ [التوبة: ١٢].

ويُستدلُّ أيضا عليه بِقَتْلِ النبيّ ﷺ لابنِ الأشرفِ، وأشباهِه، ولأنّا لم نعاهِدْهم، ولم نُعْطِهم الذّمّةَ على هذا، ولا يجوز لنا أنْ نفعلَ ذلك معهم فإذا أتَوْا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمّة، فقد نقضُوا ذِمّتَهم، وصاروا كُفّاراً أهلَ حرب يُقتَلُون لكُفْرِهم.

وأيضاً فإنّ ذِمّتَهم لا تُسْقِطُ حدودَ الإسلام عنهم، من القَطْع في سَرِقةِ أموالِهم، والقتْلِ لمن قتلوه منهم، وإنْ كان ذلك حَلالاً عندهم فكذلك سبُّهم للنبيّ ﷺ يُقتَلُون به.

ووردَتْ لأصحابنا ظواهرُ تقْتَضي الخِلافَ إذا ذكره الذميّ بالوَجْه الذي كفر به، ستَقِفُ عليها من كلام ابنِ القاسِم وابنِ سَحْنون بعدُ.

وحكى أبو المُصْعَب الخلافَ فيها عن أصحابه المَدَنيين.

واختلفوا إذا سبّهُ ثم أسْلم، فقيل: يُسْقِطُ إسلامُه قَتْلَه، لأن الإسلامَ يَجُبُّ ما قبلَه، بخلاف المسلم إذا سبّه ثم تاب، لأنّا نعلمُ باطِنَهُ الكافِرِ في بُغْضِه له، وتنقُّصِه بقلْبِه، لكنّا منعناهُ من إظهارِه، فلم يَزِدْنا ما أظهرَهُ إلا مخالفةً للأمْر، ونَقْضاً للعهد، فإذا رجع عن دينِه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله، بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٨].

والمسلمُ بخِلافه، إذْ كان ظنُّنا بباطِنه حكم ظاهره، وخلافَ ما بَدا منه الآنَ، فلم نَقْبَل بَعْدُ رُجوعَه، ولا استَنَمْنا إلى باطِنه، إذ قد بَدَتْ سرائرُهُ، وما ثبتَ عليه من الأحكام باقيةٌ عليه لم يُسْقِطْها شيء.

وقيل: لا يُسقِطُ إسلامُ الذميّ السابِّ قَتْلَهُ، لأنه حقٌّ للنبيّ ﷺ وَجَب عليه القتل لانْتِهاكِ حُرْمَتِه، وقَصْدِه إلْحاقَ النَّقيصةِ والمَعَرّةِ به، فلم يكُنْ رجوعُه إلى الإسلام بالذي يُسْقِطُه، كما وَجَب عليه من حقوقِ المسلمين من قَبْل إسلامِه: من قَتْلٍ، أو قَذْفٍ، أو سرقة. وإذا كنّا لا نَقْبل توبةَ المسلم فأنْ لا نَقْبَلَ توبةَ الكافِر أولى.

وقال مالك في كتاب ابن حَبِيب، و «المبسوط»، وابن القاسم، وابن الماجِشُون، وابن عبدالحكم، وأَصْبَغ ـ فيمَنْ شتَم نبيَّنا عليه السلام ـ من أهلِ الذِّمَّةِ، أو أحداً من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قُتِل إلاَّ أن يُسلم، وقاله ابنُ القاسم في «العُتْبِيَّةِ»، وعند محمد، وابْنِ سَحنون.

وقال سَحْنون وأَصْبَغُ: لا يُقال له: أَسْلِمْ، ولا: لا تُسْلِم، ولكِنْ إِنْ أَسلم فذلك له تَوْبَةٌ.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أَصحابُ مالكٍ أنه قال: مَنْ سبَّ رسول الله ﷺ أو غَيْرَه من الأَنبياء، مِنْ مسلم أو كافر قُتِل ولم يُستَتَبْ.

ورُوِي لنا عن مالك: إِلاَّ أَنْ يُسلم الكافِرُ.

وقد رَوَى ابْنُ وَهْب، عن ابن عُمَرَ، أَنَّ راهباً تناوَل النبيَّ ﷺ! فقال ابْنُ عُمر: فهلاً قتلتموه!.

ورَوى عيسى، ـ عن ابْن القاسم ـ في ذِمِّيٍّ قال: إِنَّ محمداً لم يُرْسَلْ إلينا، إنما أُرْسِلَ إليكم، وإنما نبيّنا مُوسى أو عيسى، أو نحو هذا: لا شيء عليهم، لأنَّ الله تعالى أقَرَّهم على مِثْله.

وأَمَّا إِنْ سبَّه، فقال: ليس بنَبيّ، أو لم يُرْسَلْ، أَوْ لم ينزَّل عليه قرآن، وإنما هو شيءٌ تَقَوَّلَه أو نحوُ هذا فيُقْتَل.

وقال ابن القاسم: وإذا قال النصْرانيّ: دِينُنَا خيرٌ مِنْ دِينكم، إنما دِينُكم دِينُ الْحَمِير، ونحو هذا من الكلام القَبِيح، أو سَمِعَ المؤذِّنَ يقول: أَشْهَد أَنَّ محمداً رسول الله، فقال: كذلك يُعْطيكم الله، ففي هذا الأدبُ المُوجِع، والسجْن الطَّوِيل.

قال: وأَمَّا إنْ شتَم النبيَّ ﷺ شتْماً يُعْرَف فإنه يُقْتَلُ إلا أَن يُسْلِم، قاله مالكٌ غيرَ مَرَّةٍ، ولم يقُلْ: يُستتاب.

قال ابنُ القاسم: ومَحْمَلُ قولِه عندي إنْ أَسلم طائعاً.

وقال ابن سَحنون في سؤالاتِ سليمان بن سالم ـ في اليهوديّ يقول للمؤذِّن، إذا تشهَّد: كَذَبْتَ ـ يُعاقَب أيضاً العقوبةَ الموجعةَ مع السِّجْن الطويل.

وفي «النوادر» من رواية سَحْنون عنه: مَنْ شَتَمَ الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوَجْه الذي به كفروا ضُرِبَتْ عنُقه إلاَّ أَنْ يُسْلِم.

قال محمد بن سَحْنون: فإنْ قيل: لِمَ قتلْتَه في سبِّ النبيّ ـ عليه السلام ـ ومِنْ دينِه سبُّه وتكذيبُه؟! قيل: لأنَا لم نُعْطِهِم العَهْدَ على ذلك، ولا على قَتْلِنا،

وأَخْذِ أموالنا، فإذا قَتل واحداً منا قَتَلْنَاه، وإنْ كان من دِينِهِ استحلالُه فكذلك إظهارهُ لسبِّ نبيِّنا عليه السلام.

قال سَحْنون: كما لو بذلَ لنا أهلُ الحَرْبِ الْجِزْيَةَ على إقرارهم على سبِّه لم يَجُزْ لنا ذلك في قول قائل من المسلمين.

كذلك ينتقِضُ عَهْدُ مَنْ سبَّ منهم، ويحلّ لنا دمُه، وكما لم يُحصِّن الإسلامُ مَنْ سبَّه من القَتْل، كذلك لا تُحصِّنه الذمَّةُ.

قال القاضي أبو الفضل: ما ذكره ابن سَحْنون عن نَفْسه، وعن أبيه، مخالفٌ لقول ابنِ القاسم فيما خفَّفَ عقُوبتَهم فيه بما به كَفَرُوا، فتأمَّلْه.

ويدلُّ على أنه خلافُ ما رُوِيَ عن المدنيين في ذلك، فحكى أبو المُصْعب الزهري، قال: أُتِيتُ بنصْرَانِيّ قال: والذي اصطفى عيسىٰ على محمّد! فاخْتُلف عليّ فيه، فضربتُه حتى قتلتُه، أو عاش يوماً وليلةً، وأمرتُ من جَرّ بِرِجْلِه، وطُرِحَ على مَزْبلةٍ، فأكلته الكِلابُ.

وسُئل أبو المصعَب عن نصراني قال: عيسىٰ خلَق محمداً؟ فقال: يُقْتَل.

وقال ابنُ القاسم: سَأَلْنَا مالكاً عن نَصْرَانيّ بمصر شُهِد عليه أنه قال: مسكين محمد! يخبركم أنه في الجنة، ما له لم ينْفَعْ نَفْسه إذ كانت الكلابُ تأكل ساقَيْه! لو قتلوه استراح منه الناس.

قال مالك: أرَى أنْ تُضْرَبَ عنقه.

قال: ولقد كِدْتُ ألاَّ أتكلَّم فيها بشيء، ثم رأيتُ أنه لا يسعني الصَّمْتُ.

قال ابن كِنانة في «المبسوطة»: مَنْ شتَم النبيّ ﷺ من اليهود والنصارى فأرى للإمام أنْ يُحرِّقَه بالنار، وإن شاء قتله ثم حَرّقَ جُثَّته، وإنْ شاءَ أحرقه بالنار حيّاً إذا تهافتُوا في سَبِّه عليه السلام.

وقد كُتِبَ إلى مالكٍ من مِصْرَ ـ وذكر مسألَة ابْنِ القاسم المتقدمة، قال: فأمرنِي مَالِكٌ، فكتَبْتُ بأَن يُقتَلَ، وَأنْ تُضرَب عنُقُه، فكتبتُ، ثم قلت: يا أبا عَبْداللَّه! وأَكْتُب: ثم يُحرّق بالنار؟ فقال: إنه لَحقِيقٌ بذلك، وما أَولاه به!

فكتبتُه بيدي بين يَدَيهِ، فما أنكره ولا عابَهُ، ونُفِّذَت الصحيفةُ بذلك فقُتِل وحُرِّق.

وأفتى عُبيداللَّه بن يحيىٰ، وابْنُ لُبَابة في جماعةِ سلَفِ أصحابنا الأَندلسيين بقَتْلِ نصرانيةٍ استهلّت بِنَفْي الربوبية، وبُنُوّة عيسىٰ لله وتكذيب محمد في النبوة، وبِقَبُول إسلامِها ودَرْءِ القَتْل عنها به.

وبه قال غَيْرُ واحدٍ من المتأخرين منهم القابسيّ، وابن الكاتب، وقال أبو القاسم بن الجلاّب في كتابه: مَنْ سبَّ اللَّهَ ورسُولَه مِنْ مُسْلِم أو كافر، قُتِل ولا يُستتاب.

وحكى ـ القاضي أبو محمد ـ في الذميّ يَسُبُّ رِوَايتين في دَرْءِ القَتْلِ عنه بإسلامه.

وقال ابن سَحْنون: وحَدُّ القَذْفِ وشِبْهه من حقوقِ العبادِ لا يُسْقِطُه عن الذمّيّ إسلامُه، وإنما يسقُط عنه بإسلامه حدودُ الله.

فأمَّا حدُّ القَذْفِ فحقٌّ للعبادِ هو سواءٌ كان ذلك لنبيٍّ أو غيره، فأوجب على الذميّ إذا قذفَ النبيَّ ﷺ ثم أسلم حدَّ القَذْف.

ولكن انظر ماذا يجبُ عليه؟ هل حَدّ القَذْف في حقّ النبي ﷺ وهو القَتْلُ لزيادة حُرمةِ النبي ـ عليه السلام ـ على غيره؟ أم هل يَسقُطُ القَتْلُ بإسلامه، ويُحدّ ثمانين؟ فتأمَّلْهُ.

فصل
في مِيرَاثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيّ ﷺ وغَسْلِهِ وَالصَّلاةِ عَلَيهِ

اختلف العلماءُ في ميراثِ مَنْ قُتِلَ بسَبِّ النبيّ ﷺ، فذهب سَحْنون إلى أنه لجماعةِ المسلمين من قبلُ: أنَّ شَتْمَ النبي ـ عليه السلام ـ كُفرٌ شِبهُ كُفر الزَّنْدَقة.

قال أَصْبَغُ: ميراثُه لورثتِه من المسلمين إنْ كان مُسْتَسِراً بذلك، وإن كان مُظهراً له، مُسْتَهِلاً به، فميراثُه لِلْمُسلمين، ويُقْتَل على كل حالٍ ولا يُسْتَتَابُ.

وقال أبو الحسنِ القابسيّ: إنْ قُتِل وهو مُنكِرٌ للشهادةِ عليه فالحُكم في ميراثِه على ما أَظْهر من إقراره ـ يعني لورثته ـ، والقَتْلُ حَدٌّ ثبت عليه ليس من الميراث في شيء.

وكذلك لو أقرَّ بالسبِّ وأظهر التوبةَ لَقُتِلَ، إذ هو حَدُّه. وحكمُه في ميراثه، وسائر أحكامه، حُكْمُ الإسلام.

ولو أَقرّ بالسبِّ، وتمادَى عليه، وأَبى التوبةَ منه، فقُتِلَ على ذلك كان كافراً، وميراثُه للمسلمين، ولا يغسّلُ ولا يكفن ولا يصلَّى عليه وتُسترُ عَوْرَتُه، ويُوارَىٰ كما يُفْعَلُ بالكفّار.

وقولُ الشيخ أبي الحَسن في المُجَاهر المتمادِي على ذلك، بيِّنٌ لا يمكنُ الخلافُ فيه، لأنه كافرٌ مرتدٌّ غَيْرُ تائبٍ ولا مُقْلِع.

وهو مِثْلُ قولِ أَصْبَغ، وكذلك قال: ابن سَحْنون في الزِّنْديق يتمادَى على قَوْله.

ومِثْلُه لابن القاسم في «العُتْبِيَّة».

ولجماعةٍ من أصحاب مالكٍ في كتاب ابن حبيبٍ فيمن أعلن كُفْرَه مثله.

قال ابنُ القاسم: وحكْمه حُكْمُ المرتدّ لا يرثهُ وَرثَتُه من المسلمين، ولا من أهل الدين الذي ارتدَّ إليه، ولا تجوزُ وَصَاياهُ ولا عِتْقُه، وقال ذلك أيضاً أَصْبَغُ: قُتِل على ذلك، أو مات عليه.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: وإنما يُخْتَلف في ميراث الزِّنْدِيق الذي يستهلُّ بالتوبة، فلا تُقْبَل منه، فأمّا المُتمادِي على الكفر والارتداد فلا خِلاف أنه لا يورث.

وقال ـ أبو محمد ـ فيمن سبَّ اللَّهَ تعالى ثم مات ولم تُعَدَّل عليه بينةٌ، أو لم تُقْبَل: إنه يصلّى عليه.

وروَى أَصْبَغُ، عن ابن القاسم، في كتاب ابن حبيب فيمن كذَّبَ برسول الله ﷺ أو أعلنَ ديناً مما يُفارقُ به الإسلام، أنَّ ميراثَه للمسلمين.

وقال ـ بقول مالك ـ: إنَّ ميراثَ المرتدّ لِلْمُسلمين، ولا تَرِثهُ وَرَثَتُهُ: رَبيعةُ، والشافعيُّ، وأبو ثَوْرٍ، وابنُ أبي ليلى، واختُلِفَ فيه عن أحمدَ.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي اللَّهُ عنه، وابنُ مسعود، وابن المسيِّب، والحَسَنُ، والشعبيّ، وعُمر بن عبدالعزيز، والحكَم، والأوزاعيّ، والليثُ، وإسحاق، وأبو حَنيفة: يَرِثُه ورثَتُه من المسلمين.

وقيل: ذلك فيما كسبه قبل ارْتدادِه، وما يكسبُه في الارتدادِ فلِلْمُسلمين.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وتفصِيلُ أبي الحَسن في باقي جَوَابه حسَنٌ بَيِّن، وهو على رَأْيِ أَصْبَغ، وخلافِ قولِ سَحْنون، واختلافُهما على قولَيْ مالك في ميراثِ الزِّنديق، فمرَّةً ورَّثَهُ ورثَتَهُ من المسلمين، سواء قامت عليه بذلك بينةٌ فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة.

وقاله أَصْبَغُ، ومحمد بن مَسْلَمة، وغَيْرُ واحدٍ من أصحابه، لأنه أَظْهَرَ الإسلام بإنكارِه أو توبتِه، وحكْمُه حكمُ المنافقين الذين كانوا على عَهْدِ رسول الله ﷺ.

ورَوَى ـ ابْنُ نافع عنه في «العُتْبِيّة» وكتابِ محمدٍ ـ أن ميراثه لجماعةِ المسلمين، لأنَّ مالَه تَبَعٌ لدمه.

وقال به أيضاً جماعةٌ من أصحابه، وقاله أَشهب، والمغيرةُ، وعبدالملك، ومحمد، وسُحْنون.

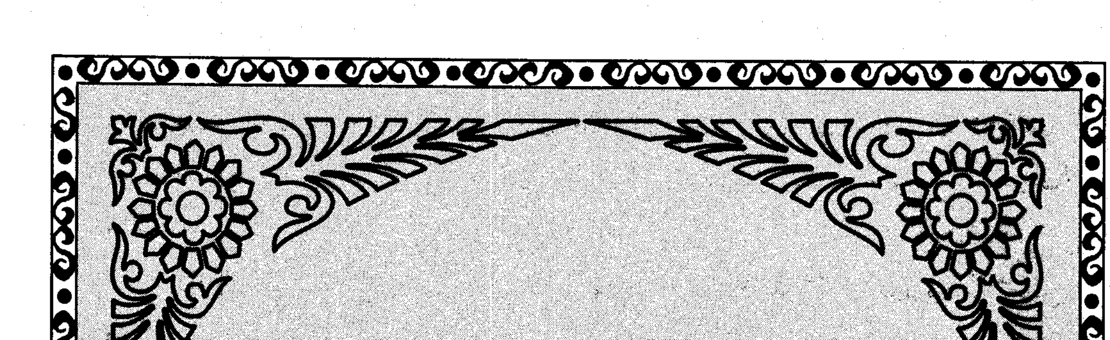
وذهب ابنُ القاسم في «العُتْبِيّةِ» إلى أنه إن اعترفَ بما شُهِد عليه به وتاب فقُتِل فلا يُورَث. وإنْ لم يُقِرّ حتى قُتِلَ أو مات وُرِّث.

قال: وكذلك كُلُّ مَنْ أَسَرَّ كُفْراً فإنهم يتوارثُونَ بوراثة الإسلام.

وسئل أبو القاسم بنُ الكاتب عن النَّصْرانيّ يَسُبُّ النبيَّ ﷺ فيقتل، هَلْ يرثُه أهلُ دِينه أم المسلمون؟

فأجاب: إنه للمسلمين ليس على جِهَةِ الميراثِ، لأنه لا توارثَ بين أهل مِلَّتَيْن، ولكن لأنه مِنْ فَيْئِهِم، لنَقْضه العَهْد، وهذا معنى قولِه واختصارُه.





الباب الثالث

في حُكْمِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تعالىٰ وملائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ وَكُتُبَهُ وآلَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ وَصَحْبَهُ

قال القاضي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ:

لا خلافَ أنَّ سابَّ اللَّهِ تعالى من المسلمين كافرٌ حلالُ الدم. واختُلِفَ في استتابته، فقال ابن القاسم في «المبسوط» وفي كتاب ابنِ سَحْنون، ومحمد، ورواهُ ابْنُ القاسِمِ عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيىٰ: مَنْ سبَّ اللَّهَ تعالى من المسلمين قُتِل ولم يُسْتَتَبْ، إلاَّ أَنْ يكونَ افتراءً على اللَّهِ بارتدادِهِ إلى دينٍ دانَ به، وأظهرهُ، فيستتابُ، وإنْ لم يُظهِرْهُ لم يُسْتَتَبْ.

وقال ـ في «المبسوطة» ـ مُطرِّفٌ، وعبدالملك مثلَه.

وقال المخزومي، ومحمد بن مَسْلَمَةَ، وابنُ أبي حازم: لا يُقْتَل المسلمُ بالسبِّ حتى يُستتاب.

وكذلك اليهوديُّ والنَّصْرانيّ، فإنْ تابوا قُبِلَ منهم توبتهم، وإنْ لم يتوبوا قُتِلوا، ولا بُدّ من الاسْتِتابة، وذلك كلُّه كالردّةِ، وهو الذي حكاه القاضي ابن نصر عن المذهب.

وأَفتَى أبو محمد بن أبي زَيْد ـ فيما حُكِيَ عنه ـ في رجل لعن رجُلاً ولَعَنَ اللَّهَ، فقال: إنما أَرَدْتُ أن أَلعن الشيطانَ فزلَّ لساني، فقال: يُقْتَلُ بظاهرِ كُفرِه، ولا يُقبلُ عُذره.

وأمَّا فيما بيْنَه وبين اللَّهِ تعالى فمعذور.

واختلف فقهاءُ قُرطبة في مسألة هارون بن حبيب أخي عبدالملك الفقيه،

وكان ضَيِّقَ الصَّدْر، كثِيرَ التبرُّم، وكان قد شُهِد عليه بشهاداتٍ، منها أنه قال عند استقلاله مِنْ مَرَضٍ: لقيتُ في مَرَضي هذا ما لو قتلتُ أبا بكر وعُمر لم أستَوْجِبْ هذا كلّه.

فَأَفتَى إبراهيمُ بنُ حُسين بن خالد بقتله، وأنَّ مُضمَّنَ قولِهِ تجويرٌ لله تعالى وتظلُّم منه، والتعريض فيه كالتصريح.

وأفتى أخوه عبدالملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، وسَعيد بن سليمان القاضي بطَرْحِ القَتْلِ عنه، إلاَّ أنَّ القاضي رأى عليه التثقيل في الحَبْس، والشدّة في الأدب، لاحتمال كلامِهِ، وصَرْفِه إلى التشكي.

فَوَجْهُ مَنْ قال في سابِّ اللَّهِ تعالىٰ بالاستتابةِ: إنه كفرٌ ورِدَّةٌ مَحْضَةٌ لم يتعلّق بها حقٌّ لغير اللَّهِ، فأَشْبَه قَصْدَ الكُفرِ بغير سبِّ الله، وإظهارَ الانتقال من دين إلى دينٍ آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

وَوَجْهُ تَرْكِ اسْتِتَابتِه: أنه لمَّا ظهر مِنْهُ ذلك بعد إظهارِ الإسلام قبْلُ اتهَمْناهُ وظننَّا أنَّ لسانَه لم يَنْطِق به إلاَّ هو مُعْتَقِدٌ له، إذ لا يتساهَلُ في هذا أحَدٌ، فحُكِمَ له بِحُكْم الزِّنديق، ولم تُقْبَلْ توبتُه، وإذا انتقل من دين إلى آخَرَ، وأظهر السبَّ بمعنى الارتدادِ فهذا قد أَعلَم أنه خَلَعَ رِبقَةَ الإسلامِ من عُنقه، بخلاف الأوّل المتمسِّك به، وحُكْمُ هذا حُكْمُ المرتدِّ: يُسْتَتَابُ على مشهورِ مذاهب أكثرِ العلماء وهو مذهبُ مالك، وأصحابه، على ما بيّناهُ قبلُ، وذكَرْنا الخلافَ في فُصوله.

فصل
فِي حُكْمِ مَنْ أَضَافَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا لاَ يَلِيقُ بِهِ عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالاجْتِهَادِ وَالْخَطَأ الْمُفْضِي إِلَىٰ الْهَوَىٰ وَالْبِدْعَةِ

وأمّا مَنْ أضاف إلى اللَّهِ تعالى ما لاَ يَلِيقُ به ليس على طَرِيقِ السبِّ ولا الرِّدَّةِ وقَصْدِ الكُفر، ولكن على طريق التَّأْويل، والاجتهادِ، والخَطَأ المُفضِي إلى الهَوَى والبِدْعة، من تشبيهٍ، أو نَعْتٍ بجارحةٍ، أو نَفْيِ صِفَةِ كمالٍ، فهذا مما اختلفَ السَّلَفُ والخَلَفُ في تكفير قائله ومعتقِدِه.

واختلف قولُ مالك وأصحابه في ذلك، ولم يختلفوا في قِتالهم إذا تحيّزوا فئة، وأنهم يُسْتتابون، فإنْ تابُوا وإلاّ قُتِلوا، وإنما اختلفوا في المنفردِ منهم، فأكثرُ

قولِ مالك وأصحابه تَرْكُ القولِ بتكفيرهم، وتَرْكُ قَتْلهم، والمبالغةُ في عقوبتهم، وإطالة سِجنِهم، حتى يَظْهَر إقلاعُهم، وتَسْتَبِينَ توبتُهم، كما فعل عُمر رضي الله عنه بِصَبِيغ.

وهذا قولُ محمد بن المَوَّاز في الخَوَارج، وعبدالملك بن الماجشون، وقولُ سَحْنون في جميع أهل الأهواء، وبه فُسِّر قول مالك في الموطّأ، وما رَوَاه عن عُمر بن عبدالعزيز، وجَدِّه، وعَمِّه، من قولهم في القَدَرِيَّة: يُسْتَتابون، فإن تابُوا وإلاَّ قُتِلوا.

وقال عيسىٰ، عن ابن القاسم في أهل الأهواء من الإبَاضيَّة، والقَدَرية، وشِبْهِهِمْ ممّن خالف الجماعةَ من أهل البِدَع والتحريف، لتَأْوِيلِ كتابِ الله عز وجل: يُستتابون أظهروا ذلك أو أَسَرُّوه. فإنْ تابوا وإلاَّ قُتِلوا، وميراثهم لورثتهم.

وقال مِثْلَه أيضاً ابنُ القاسم في «كتاب محمد» في أهل القَدَر وغيرهم، قال: واسْتِتَابتُهم أن يُقال لهم: اتركوا ما أنتم عليه.

ومِثْلُه له في «المبسوط» في الإباضيَّة والقَدَرية وسائرِ أهل البدع، قال: وهم مسلمون، وإنما قُتِلوا لرأيهم السُّوء، وبهذا عمِلَ عُمر بن عبدالعزيز.

قال ابن القاسم: مَنْ قال: إنَّ اللَّهَ لم يكلِّمْ موسىٰ تكليماً استُتِيب، فإنْ تاب وإلاّ قُتل.

وابنُ حبيب وغَيْرُهُ من أصحابنا يرى تكفيرَهم وتكفيرَ أمثالِهم من الخوارج والقدَريَّة والمرجئة.

وقد رُوِي أيضاً عن سَحْنون مثلُه فيمن قال: ليس للّهِ كَلامٌ، إنه كافرٌ.

واختلفت الرِّوَاياتُ عن مالك، فأطلق في رواية الشاميين: أبي مُسْهِرٍ، ومروانَ بن محمد الطَّاطَري الكُفرَ عليهم، وقد شُووِرَ في زَوَاج القَدَريّ، فقال: لا تزوِّجْهُ، قال الله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وروي عنه أيضاً أنه قال: أهل الأهواء كلهم كفار.

وقال: مَنْ وصفَ شيئاً مِنْ ذاتِ اللَّهِ تعالى، وأشار إلى شيءٍ من جَسَدِه: يَدٍ، أو سَمْعٍ، أو بَصَرٍ، قُطِع ذلِكَ مِنْهُ، لأنه شبَّه اللَّهَ بنفسه.

وقال ـ فيمن قال: القرآن مخلوق ـ: كافرٌ فاقْتُلوه.

وقال أيضاً ـ في رواية ابن نافع ـ: يُجْلَد، ويُوجَع ضَرْباً، ويُحْبَس حتى يَتُوبَ.

وفي رواية بِشْر بن بكر التِّنِّيسي عنه: يُقْتَل ولا تُقْبَل توبتُه.

قال القاضي أبو عبدالله البَرْنكاني، والقاضي أبو عبدالله التُسْتَري من أئمة العراقيين من أصحابنا: جوابه مُختَلف، يُقتَل المستَبْصِرُ الداعية.

وعلى هذا الخلاف اختلف قولهُ في إعادة الصَّلاةِ خَلْفهم.

وحكى ابنُ المُنْذِر، عن الشافعي: لا يستتابُ القَدَرِيُّ.

وأكْثَرُ أقوالِ السَّلَفِ تكفيرُهم، وممن قال به: الليثُ بن سعد، وابن عُيَيْنَة، وابن لَهِيْعَة، ورُوي عنهم ذلك فيمن قال بخَلْقِ القُرآنِ، وقاله أيضاً ابنُ المبارَك، والأَوْدِي، ووَكيع، وحفص بن غِيَاث، وأبو إسحاق الفزاري، وهُشَيم، وعليّ بن عاصم في آخرين، وهو من قول أكثر المُحدِّثين، والفُقَهاء، والمتكلمين فيهم، وفي الخوارج، والقَدَرِيّة، وأهل الأهواء المضلّة، وأصحاب البِدَع المتأوّلين، وهو قولُ أحمد بن حنبل، وكذلك قالوا في الواقفة والشاكّة في هذه الأصول.

ومِمَّنْ رُوِي عنه معنى القَوْلِ الآخرِ بتَرْكِ تكفيرهم: عليُّ بن أبي طالب، وابن عُمر، والحسن البصري، وهو رأيُ جماعةٍ من الفقهاء، والنُّظار، والمتكلمين، واحتجُّوا بتوريث الصحابة والتابعين ورثةَ أهلِ حَرُوراء، ومن عُرف بالقَدَرِ مِمَّن مات منهم، ودفْنِهم في مقابِر المسلمين، وجَرْي أحكام الإسلام عليهم.

قال إسماعيل القاضي: وإنما قال مالكٌ في القَدَرية وسائر أهل البِدَع: «يُسْتَتَابون، فإنْ تابُوا وإلاَّ قُتلوا» لأنه من الفساد في الأرض، كما قال في المُحَارِبِ: إنْ رأى الإمامُ قَتْلَه، وإنْ لم يَقْتُل، قَتَله، وفسادُ المُحارِب إنما هو في الأموال ومصالح الدنيا، وإنْ كان قد يدخلُ أيضاً في أمرِ الدّين مِنْ سبيل الحجّ والجهادِ. وفسادُ أهلِ البِدَع مُعظَمُه على الدين، وقد يدخلُ في أمرِ الدنيا بما يُلْقُون بين المسلمين من العَدَاوَةِ، والله الموفق للصواب.

فصل
في تَحقيقِ القَولِ في إكفارِ المُتأوِّلِين

قد ذكَرْنا مذاهبَ السَّلَف في إكْفار أصحاب البِدَع والأهواءِ المُتأَوِّلين، ممن قال قولاً، يُؤَدِّيه مَسَاقُهُ إلى كفرٍ، وهو إذا وُقِفَ عليه لا يقول بما يُؤَدِّيه قوله إليه.

وعلى اختلافهم، اختلف الفقهاءُ والمتكلِّمُونَ في ذلك، فمنهم مَنْ صَوَّب التكفيرَ الذي قال به الجمهورُ من السَّلَف، ومنهم مَنْ أَبَاهُ ولم يَرَ إخراجَهم من سَوَاد المؤمنين، وهو قولُ أكثر الفقهاء والمتكلمين، وقالوا: هم فُسَّاقٌ عُصاةٌ ضُلاَّلٌ، ونُوارِثُهم من المسلمين، ونحكم لهم بأحكامهم، ولهذا قال سَحنون: لا

إعادة على مَنْ صَلَّى خَلْفهم في وقت، ولا غيرِهِ قال: وهو قولُ جميع أصحابِ مالكٍ مثل: المغيرة، وابن كنانة، وأَشهب، قال: لأنه مُسْلم، وذَنْبُه لم يخرجْه من الإسلام.

واضطرب آخرون في ذلك، ووقفوا عن القول بالتكفير أو ضِدِّه واختلاف قَوْلَيْ مالك في ذلك، وتوقّفه عن إعادة الصلاة خَلْفهم منه وإلى نحو من هذا ذهب القاضي أبو بكر إمام أهل التحقيق والحق، وقال: إنها من المُعْوِصاتِ، إذ القومُ لم يُصَرِّحُوا باسم الكفر، وإنما قالوا قولاً يُؤَدِّي إليه.

واضطرب قولُه في المسألة على نحوِ اضطرابِ قولِ إمامه مالك بن أَنَس حتى قال في بعض كلامِهِ: إنهم على رَأْيِ مَنْ كفّرهم بالتأويل لا تَحِلُّ مُنَاكَحَتُهُمْ، ولا أَكْلُ ذَبَائحهم، ولا الصلاةُ على مَيِّتِهم.

ويُخْتَلَفُ في مواريثهم على الخِلاف في ميراث المُرْتَدِّ.

وقال أيضاً: نورِّثُ مَيِّتهم وَرَثَتهم من المسلمين، ولا نورِّثهم هم من المسلمين، وأكثرُ مَيْلِه إلى تَرْك التكفير بالمآل، وكذلكَ اضطرب فيه قولُ شَيْخه أبي الحسن الأشعري، وأكثرُ قوله تَرْكُ التكفير، وأَنَّ الكُفْرَ خَصلةٌ وَاحِدةٌ، وهو الجهل بوجودِ الباري عزَّ وجلَّ.

وقال مرةً: مَن اعتقد أَنَّ الله جِسْمٌ، أو المسيحُ، أو بعضُ مَنْ يلقاهُ في الطّرقِ، فليس بعارفٍ به، وهو كافِرٌ.

ولمثْلِ هذا ذهب أبو المعالي رحمه الله في أجوبته لأبي محمدٍ: عبدِ الحقِّ، وكان سأله عن المسألة، فاعتذر له بأَنَّ الغلطَ فيها يَصْعُب، لأَنَّ إدخالَ كافرٍ في المِلَّةِ، أو إخراجَ مسلمٍ منها، عظيمٌ في الدين.

وقال غيرهما من المحقّقين: الذي يجبُ الاحترازُ من التكفير في أهل التأويل، فإن استباحة دماء المصلين الموحِّدين خطر، والخطأ في تَرْكِ أَلْفِ كافرٍ أهونُ من الخَطَأ في سَفْكِ مِحْجَمَةٍ، من دم مسلم واحد.

١٨٠٠ ـ وقد قال عليه السلام: «**فإذا قالوها ـ يعني الشهادة ـ فقد عصَمُوا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله**».

فالعصمةُ مقطوعٌ بها مع الشهادة، ولا ترتَفِعُ ويُسْتَبَاحُ خِلافُها إلا بقاطع، ولا قاطِعَ من شَرْعٍ، ولا قياسٍ عليه.

١٨٠١ ـ وألفاظُ الأحاديث الواردةِ في الباب مُعرَّضةٌ للتأويل، فما جاء منها في التصريح بكُفرِ القَدَرِيَّة، وقولُه: «**لا سَهْمَ لهم في الإسلام**».

١٨٠٢ ـ وتسميته الرافضةَ بالشِّرْك، وإطلاقُ اللَّعْنةِ عليهم، وكذلكَ في الخوارجِ وغيرهم من أهلِ الأهواءِ والبدع، فقد يَحْتَجُّ بها مَنْ يقول بالتكفير، وقد يجيبُ الآخرُ عنها بأنه قد وردَ مِثلُ هذه الألفاظِ في الحديث في غير الكَفَرةِ على طريقِ التغليظ، وكفرٌ دون كُفرٍ، وإشراكٌ دونَ إشراكٍ.

وقد ورد مِثْلُه: في الرِّيَاء، وعقوقِ الوالدين، والزَّوج، والزُّورِ، وغَيْرِ معصيةٍ.

وإذا كان محتَملاً للأَمْرَيْن فلا يُقْطَعُ على أحدهما إلا بدليلٍ قاطِع. ولا دليلَ.

١٨٠٣ ـ وقولُه في الخوارج: **«هم من شَرِّ البريَّة»** [مسلم (١٨٠٣)] وهذهِ صِفَةُ الكُفَّار.

١٨٠٤ ـ وقال: **«شَرُّ قَبيل تَحْتَ أَدِيم السماء، طُوبَى لِمَنْ قتلهم، أو قتلوه»**.

١٨٠٥ ـ وقال: **«فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قَتْلَ عادٍ»** [مسلم (١٠٦٤)، (١٠٦٦)، البخاري (٥٠٥٧)].

وظاهِرُ هذا الكُفر، لا سيّما مع تشبيههمْ بعادٍ، فيَحْتَجُّ به مَنْ يَرَى تكفيرهم، فيقول له الآخرُ: إنما ذلك مِنْ قَتْلِهم لخروجهم على المسلمين وبَغيهم عليهم.

١٨٠٦ ـ بدليله من الحديثِ نَفْسِه: **«يقْتُلون أهلَ الإسلامِ»** [مسلم (١٠٦٤)] فقَتْلُهم ها هنا حَدٌّ لا كُفر.

وذِكْرُ عادٍ تشبيهٌ للقَتْلِ وحِلِّه، لا للمقتول، وليس كلُّ مَنْ حُكِمَ بقَتْلِه يُحْكَمُ بكُفْرِه.

١٨٠٧ ـ ويعارِضُه بقول خالدٍ في الحديث: دَعْني أَضْرِبْ عُنقَه يا رسول الله! قال: **«لعلّه يُصلّي»** [البخاري (٤٣٥١)، مسلم (١٤٤/١٠٦٤)].

١٨٠٨ ـ فإن احتجُّوا بقوله عليه السلام: **«يَقْرؤُونَ القرآن لا يجاوزُ حناجِرَهم»** [البخاري (٥٠٥٨)، مسلم (١٤٣/١٠٦٤)]، فأَخبر أَنَّ الإيمانَ لم يَدخُلْ قلوبهم.

١٨٠٩ ـ وكذلك قولُه: **«يَمْرقُون من الدِّين مُرُوقَ السَّهم من الرَّمِيَّة، ثم لا يَعُودون إليه حتى يعودَ السَّهمُ على فُوقِه»** [البخاري (٧٥٦٢)، مسلم (١٤٨/١٠٦٤)].

١٨١٠ ـ وبقوله: **«سبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ»** [البخاري (٣٦١٠)، مسلم (١٤٨/١٠٦٤)] يدلُّ على أنه لم يتعَلَّقْ من الإسلام بِشَيء.

أجابه الآخرون: إنَّ معنى **«لا يجاوزُ حَنَاجِرَهم»** أي لا يفهمون مَعَانيه

بقلوبهم، ولا تَنْشَرِحُ له صدورُهم، ولا تعملُ به جَوَارِحُهم.

١٨١١ ـ وعارَضوهم بقوله: **«ويتمَارَى في الفُوق»** [البخاري (٦٩٣١)، مسلم (١٠٦٤/١٤٧)].

وهذا يقتضي التشكّك في حَالِه.

١٨١٢ ـ وإنْ احتجُّوا بِقَوْلِ أَبي سعِيد الخُدْريِّ في هذا الحديث: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«يخرجُ في هذه الأُمَّةِ»** [البخاري (٦٩٣١)، مسلم (١٠٦٤/١٤٧)] ولم يقل: من هذه الأمة، وتحْرِيرُ أبي سَعِيد الروايةَ، وإتقانُه اللفظَ.

١٨١٣ ـ أَجابهم الآخرون: بأنَّ العبارة: بـ «في» لا تَقْتَضِي تَصْرِيحاً بكونهم من غير الأُمَّة، بخلاف لَفْظَة «مِنْ» التي هي للتَّبعيض وكونهم من الأُمَّة مع أنه قد رُوِيَ عن عليّ، وأبي ذرّ، وأبي أُمامةَ وغيرهم في هذا الحديث: **«يَخْرُجُ مِنْ أمّتِي»** [مسلم (١٠٦٦/١٥٦)].

١٨١٤ ـ و **«سيكونُ مِنْ أُمّتِي»** [مسلم (١٠٦٧)]، وحروفُ المعاني مُشْتركةٌ، فلا تعويل على إخراجِهم من الأمة بـ «في»، ولا على إدخالهم فيها بـ «مِنْ»، لكنّ أَبا سَعِيد ـ رضي اللَّهُ عنه ـ أَجادَ ما شاء في التنبيه الذي نبّه عليه. وهذا مما يدلُّ على سعَةِ فِقْهِ الصحابةِ، وتحقيقهم للمعاني، واستنباطِها من الألفاظ، وتحريرهم لها، وتوقّيهم في الرواية.

هذه المذاهبُ المعروفة لأهل السنّةِ. ولغيرهم منَ الفِرَق فيها مقالاتٌ كثيرةٌ مُضْطَّرِبَةٌ سَخِيفةٌ، أقربُها قولُ جَهْمٍ ومحمد بن شَبيب: إن الكُفْرَ بالله الجهلُ به، لا يكفرُ أحدٌ بغير ذلك.

وقال أبو الهُذَيْلِ: إنَّ كلَّ متأوِّلٍ كان تأويلُه تَشْبيهاً لله بخَلْقِه، وتجويراً له في فِعْله، وتكذيباً لخَبرِه فهو كافرٌ، وكلُّ مَنْ أثبتَ شيئاً قديماً لا يُقَالُ له: الله، فهو كافر.

وقال بعضُ المتكلمين: إن كان ممَّنْ عرف الأَصْلَ، وبنى عليه، وكان فيما هو من أَوصافِ الله فهو كافر، وإن لم يكنْ من هذا الباب ففاسِقٌ، إلا أنْ يَكُوْنَ ممَّن لم يَعْرِفْ الأَصْلَ فهو مخطىءٌ غَيْرُ كافر.

وذهب عُبيداللّه بن الْحَسَن العَنْبَرِي إلى تصويب أَقوال المجتهدين في أُصولِ الدِّين فيما كان عُرْضَةً للتأويل، وفارقَ في ذلك فِرَقَ الأمة، إذ أجمعوا سِوَاهُ على أنَّ الحقَّ في أصولِ الدين في وَاحدٍ، والمخطىءُ فيهِ آثِمٌ عاصٍ فاسقٌ. وإنما الخلاف في تكفيره.

وقد حكى القاضي أبو بكر الباقِلاني مِثْلَ قول عُبيدالله عن دَاود الأصبهاني، قال: وحَكى قومٌ عنهما أنهما قالا ذلك في كلِّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ سبحانه من حاله استفراغَ الوُسْعِ في طلب الحقِّ من أَهل مِلَّتِنا أو من غيرهم.

وقال نَحْوَ هذا القول: الجاحظُ، وثُمَامَةُ، في أنَّ كثيراً من العامَّة والنساء والبُلْهِ ومقلّدة النَّصارىٰ واليهود وغيرهم لا حُجَّة للَّهِ عليهم، إذ لم تكُنْ لهم طِبَاعٌ يمكنُ معها الاستدلالُ.

وقد نحا الغَزَاليُّ قريباً من هذا المَنْحَى في كتاب «التفرقة».

وقائلُ هذا كلِّه كافرٌ بالإجماعِ على كُفرِ مَنْ لَمْ يكفِّر أحداً من النصارى واليهودِ، وكُلَّ مَنْ فارقَ دينَ المسلمين، أو وقف في تكفيرهم، أو شكَّ.

قال القاضي أبو بكر: لأنَّ التوقيف والإجماع على كُفرِهم، فمَنْ وقف في ذلك فقد كذَّب النصّ، والتوقيفَ، أو شكّ فيه. والتكذيب أو الشكُّ فيه لا يَقَعُ إلاَّ من كافر.

فصل
في بَيَانِ ما هُوَ مِنَ المَقَالاتِ كُفرٌ، وما يُتَوَقَّفُ أَوْ يُخْتَلَفُ فيه، وَمَا لَيسَ بِكُفرٍ

اعلَمْ أَنَّ تحقيق هذا الفَصْل، وكَشْفَ اللَّبْس فيه، مَوْرِدُهُ الشَّرْعُ، ولا مجالَ للعَقْل فيه، والفَصْلُ البيِّنُ في هذا أنَّ كلَّ مقالةٍ صَرَّحَتْ بنَفْي الرُّبوبيَّة، أو الوَحْدَانية، أو عبادةِ أَحَدٍ غير الله، أو مع اللَّهِ ـ فهي كُفرٌ ـ، كمقالةِ الدَّهْرِية، وسائرِ فرقِ أصحاب الاثْنَيْنِ من الدِّيصانية، وَالمَانَوِيَّة، وأشباهِهم من الصابئين، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان، أو الملائكة، أو الشياطين، أو الشمسِ، أو القمر، أو النجوم، أو النار، أو أحدٍ غَيْرِ اللَّهِ، مِنْ مُشْرِكي العرب، وأهلِ الهِنْد، والصِّين، والسُّودان، وغَيْرِهم مِمَّنْ لا يَرْجِعُ إلى كتاب.

وكذلك القرامِطَةُ، وأصحابُ الحلُول، والتناسُخ من الباطنيّة، والطَّيَّارة من الروافض، والجناحية والبيانية والغُرابية.

وكذلك من اعترفَ بإلهيَّة الله ووحدانيته، ولكنه اعتقد أنه غير حَيٍّ، أو غَيْرُ قديم، وأنه مُحْدَثٌ أو مصوَّر، أو ادَّعىٰ له وَلداً، أو صاحبةً، أو والداً، أَوْ أنه متولِّدٌ مِن شيءٍ، أو كائنٌ عنه، أو أَنَّ معه في الأَزَل شيئاً قديماً غَيْرَهُ، أو أَنَّ ثَمَّ صانِعاً للعالَم سِوَاه، أو مُدَبِّراً غيره، فذلك كلُّه كُفرٌ بإجماع المسلمين، كقول

الإلهيِّين من الفلاسفة، والمنجّمين، والطبائعيِّين، وكذلك من ادَّعَى مجالسةَ اللَّهِ، والعُروجَ إليه، ومكالمته، أو حلُولَه في أحدِ الأشخاص، كقول بَعْضِ المتصوّفةِ، والباطنيةِ، والنصارى، والقرامطة.

وكذلك يُقطَعُ على كُفرِ مَنْ قال بِقِدَم العالم، أو بَقَائه، أو شَكَّ في ذلك على مذهب بعض الفلاسفة، والدَّهرية، أو قال بتَنَاسخ الأرْوَاح، وانتقالها أَبَدَ الآبادِ في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعيمها فيها بِحَسَب زكائِها وخُبْثِها. وكذلك من اعترف بالإلهيَّة والوَحْدَانية، ولكنه جَحدَ النبوّة من أَصلها عموماً، أو نبوّة نبيّنا - عليه السلام - خصوصاً، أو أحداً من الأنبياء الذين نصَّ اللَّهُ عليهم بعد عِلْمِه بذلك، فهو كافر بلا رَيْبٍ: كالبراهمةِ، ومُعْظَم اليهودِ، والأَرُوسيَّة من النصارى، والغُرَابية من الرَّوافض الزَّاعمين أنَّ عليًا رضي الله عنه كان المبعوث إليه جبريلُ، وكالمعطِّلة، والقرامطةِ، والإسماعيلية والعَنْبَريَّةِ من الرافضةِ، وإن كان بعضُ هؤلاء قد أشركوا في كُفرٍ آخر مع مَنْ قبْلَهم.

وكذلك مَنْ دَانَ بالوَحْدَانيَّة، وصِحَّةِ النبوّة، ونُبوَّةِ نبيِّنا عليه السلام، ولكن جوّز على الأنبياء الكذِبَ فيما أَتَوْا به، ادَّعى في ذلك المصلحةَ بِزَعْمِه أو لم يَدَّعها فهو كافِرٌ بإجماع، كالمتفلسفين، وبعض الباطنية والرَّوافض وغُلاةِ المُتَصَوِّفةِ، وأصحاب الإباحةِ فإنَّ هؤلاء زَعَمُوا أنَّ ظواهرَ الشَّرْع، وأكثرَ ما جاءت به الرسُلُ من الأخبار عما كان، ويكون، مِنْ أُمورِ الآخرةِ، والحَشْرِ، والقيامة والبعث والنشور والجَنَّةِ والنار، ليس منها شيء على مُقْتَضى لَفْظِها، ومفهوم خطابها، وإنما خاطبُوا بها الخَلْقَ على جِهَةِ المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم التصريحُ لِقُصُور أفهامِهم، فَمَضْمُونُ مَقَالاتهم إبطالُ الشرائع، وتعطيل الأوَامر والنواهي، وتكذيبُ الرُّسُلِ، والارتيابُ فيما أَتَوْا به.

وكذلك مَنْ أَضَافَ إلى نَبيِّنَا ﷺ تَعَمُّدَ الكذِب فيما بلَّغه أو أخبر به، أو شكَّ في صِدْقِهِ، أو سبَّه، أو قال: إنَّهُ لم يبلِّغْ، أو اسْتَخَفَّ به، أو بأحدٍ من الأنبياء، أو أَزْرى عليهم، أو آذاهُمْ، أو قَتَل نبيّاً، أو حاربه، فهو كافِرٌ بإجماعٍ.

وكذلك نُكفِّر مَنْ ذهب مَذْهَبَ بعض القُدَماءِ في أنَّ في كلِّ جِنْسٍ من الحيوانِ نذيراً، أو نبيّاً من القِرَدة والخنازير والشياطين والدواب والدّود ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. إذ ذلك يُؤَدِّي إلى أنْ يوصفَ أنبياءُ هذه الأجناسِ بصفاتهم المذمومة. وفيه من الإزْرَاءِ على هذا المَنْصِب المُنيف ما فيه، مع إجماع المسلمين على خلافِهِ وتكذيب قائله.

وكذلك نُكفِّرُ من اعترف من الأُصول الصحيحة بِمَا تقدم، وبنبوّةِ نبينا عليه السلام، ولكن قال: كان أسودَ، أو مات قبل أن يَلْتحي، أو ليس الذي كان بمكة والحجازِ، أو ليس بقُرشيّ، لأنَّ وَصْفَهُ بغير صفاته المعلومة ﷺ نَفيٌ له، وتكذيبٌ به.

وكذلكَ مَنْ ادَّعى نُبوّة أحدٍ مع نبيِّنا ـ عليه السلام ـ أو بعده، كالعِيسَويَّة من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العَرَب، وكالخُرَّمِيَّة القائلين بتواتُر الرُّسُل، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة عليٍّ للنبي ﷺ في الرسالة وبَعْدَه، وكذلك كلُّ إمامٍ عند هؤلاء يقوم مقامَه في النبوّة والحجّة، وكالبَزِيغِيَّة والبَيَانيَّة منهم القائلين بنبوّة بَزِيغ وبَيَانَ وأشباه هؤلاء. أو من ادَّعى النبوةَ لنفسه، أو جوّزَ اكتسابَها والبلوغَ بصَفَاءِ القَلْب إلى مَرْتَبَتِها، كالفلاسفة وغُلاة المتصوّفة.

وكذلك من ادَّعى منهم أنه يُوحَى إليه وإنْ لم يدَّعِ النبوّة، أو أنه يَصْعَدُ إلى السماء ويدخل الجنة، ويأكلُ من ثمارها، ويعانِقُ الحورَ العين، فهؤلاء كلُّهم كفّارٌ مكذِّبون للنبي ﷺ، لأنه أخبر ـ عليه السلام ـ أنه خاتَمُ النبيين، لا نبيَّ بعده، وأخبر أيضاً عن الله تعالى أنه خاتمُ النبيين، وأنه أُرسل إلى كافَّةِ النَّاسِ.

وأجمعت الأمةُ على حَمْل هذا الكلام على ظاهِره، وأنَّ مفهومَه المراد منه دونَ تأويل ولا تخصيص، فلا شكّ في كُفرِ هؤلاء الطوائف كلِّها قَطْعاً، إجماعاً وسَمْعاً.

وكذلك وقع الإجماعُ على تكفير كلِّ مَنْ دافَعَ نَصَّ الكتاب، أو خصَّ حديثاً مُجْمعاً على نَقْله، مقطوعاً به، مُجْمَعاً على حَمْله على ظاهرِهِ، كتكْفِير الخوارج بإبطال الرَّجْم، ولهذا نكفِّر مَنْ دانَ بغير مِلَّةِ المسلمين من المِلَل، أو وقف فيهم، أو شكَّ، أو صَحّح مَذْهبَهم، وإنْ أَظْهرَ مع ذلك الإسلامَ، واعتقده، واعتقد إبطالَ كلِّ مذهبٍ سِوَاه، فهو كافرٌ بإظهارِ ما أظهره من خلاف ذلك.

وكذلك نَقْطَعُ بتكفير كلِّ قائل قال قولاً يُتَوَصَّلُ به إلى تَضْليل الأمة، وتكفير جميع الصحابةِ، كقول الكُمَيْلِيَّةِ من الرافضة بتكفير جميع الأُمة بعد النبيِّ ﷺ، إذ لم تُقَدِّمْ عليّاً، وكَفَّرتْ عليّاً، إذ لم يتقدّمْ ويطلب حقَّه في التقديم، فهؤلاء قد كفروا من وجوهٍ، لأنهم أبطلوا الشريعةَ بأسرها، إذ قد انقطع نَقْلُها ونَقْلُ القرآن، إذ نَاقِلُوه كفَرَةٌ على زَعْمِهم، وإلى هذا ـ والله أعلم ـ أشار مالكٌ في أحَدِ قَوْلَيْهِ بقَتْلِ مَنْ كفَّر الصحابةَ.

ثم كفروا مِنْ وَجْهٍ آخر بِسَبِّهم النبيَّ ﷺ على مُقْتضى قولهم وَزَعْمِهم أنه

عَهِدَ إلى عليّ رضِيَ اللَّهُ عنه وهو يَعلَمُ أنه يكفُر بعده - على قولهم - لَعْنَةُ اللَّهِ عليهم، وصلى اللَّهُ على رسولِهِ محمدٍ وآله.

وكذلك نُكَفِّر بكل فِعْلٍ أجْمَعَ المسلمون أنه لا يَصْدُرُ إلا مِنْ كافر، وإنْ كانَ صاحبُهُ مُصَرِّحاً بالإسلامِ مع فِعْله ذلك الفِعْل، كالسجودِ للصَّنَم، أو للشَّمْس، والقمر، والصليب، والنارِ، والسَّعْي إلى الكنائس والبِيَع مع أهلِها والتَّزَيِّيْ بزيِّهِم: من شَدِّ الزَّنانير، وفَحْص الرؤوس، فقد أجمع المسلمون أنَّ هذا الفعل لا يوجدُ إلاّ من كافر، وأنَّ هذه الأفعالَ علامةٌ على الكُفر، وإنْ صَرَّحَ فاعِلُها بالإسلام.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كلِّ من استحلَّ القَتْلَ، أو شُرْبَ الخمر أو الزِّنا مما حرّم الله تعالى بعد عِلْمِه بتحريمه، كأصحاب الإباحةِ من القرامطةِ، وبعض غُلاةِ المتصوِّفة.

وكذلك نَقْطَعُ بتكفير كلِّ مَنْ كذَّب وأنكر قاعدةً مِنْ قواعدِ الشَّرْعِ، وما عُرِفَ يقيناً بالنَّقْل المُتَواترِ من فِعْل الرَّسُول ﷺ، وَوَقَع الإجماعُ المتَّصِلُ عليه، كمن أنكر وجوبَ الْخَمْس الصلوات، أو عدَدَ رَكعاتِها وسجداتها، ويقول: إنما أَوجب اللَّهُ علينا في كتابه الصلاةَ على الجملة، وكونها خمساً، وعلى هذه الصفاتِ والشروطِ لا أَعْلَمُه، إذْ لم يَرِدْ فيه في القرآن نَصٌّ جَليٌّ، والْخَبَرُ به عن الرسولِ ﷺ خَبَرُ وَاحِدٍ.

وكذلك أجمعَ المسلمون على تكفير مَنْ قال من الخوارج: إن الصلاة طَرَفي النهار، وعلى تكفير الباطنية في قولهم: إن الفرائضَ أسماءُ رجالٍ أُمِرُوا بِوِلايتهم، والخبائثُ والمحارِمُ أسماء رجالٍ أُمروا بالبراءة منهم.

وقولُ بعضِ المتصوِّفة: إنّ العبادةَ وطولَ المُجَاهدةِ إذا صفَّتْ نُفُوسَهم أفضتْ بهم إلى إسقاطِها، وإباحة كل شيء لهم، ورَفْعِ عُهَدِ الشرائع عنهم.

وكذلك إنْ أنكر مُنْكِرٌ مكةَ، أو البيتَ، أو المسجد الحرام، أو صفة الحج، أو قال: الحجُّ وَاجبٌ في القُرآن، واستقبال القِبْلةِ كذلك، ولكن كونُه على هذه الهيئة المتعارَفَة، وأنَّ تلكَ البُقْعة هي مكةُ، والبيتُ، والمسجدُ الحرام، لا أدري هل هي تِلْكَ أو غيرها؟ ولعل الناقلين عن النبي ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ فسّرها بهذه التفاسير غَلطوا أوْ وهِمُوا، فهذا وَمِثْلُه لا مِرْيَةَ في تكفيره إنْ كان ممّنْ يُظَنُّ به عِلْمُ ذلك، ومِمَّن خالط المسلمين، وامتدّت صحبتُه لهم، إلاّ أن يكونَ حَدِيثَ عَهْدٍ بالإسلام، فيُقالُ له: سَبِيلُك أَنْ تسألَ عن هذا الذي لم تَعْلَمْه بَعْدُ كافَّةَ المسلمين، فلا تجد بينهم خلافاً، كافَّةً عَنْ كافَّةٍ، إلى معاصري الرَّسُولِ ﷺ - أنَّ

هذه الأمورَ كما قيل لَكَ، وأنَّ تلكَ البقعةَ هي مكةُ، وَالبيتُ الذي فيها هو الكعبةُ، والقبلةُ التي صلَّى لها الرسول ﷺ والمسلمون، وَحَجُوا إليها، وَطافُوا بها، وأَن تلكَ الأَفعالَ هي صفات عبادة الحجّ، والمرادُ به، وهي التي فعلها النبيّ ﷺ وَالمسلمون، وأَنَّ صفاتِ الصلوات المذكورة هي التي فعل النبيُّ ﷺ، وشرحَ مُرَادَ اللّهِ بذلك، وأبانَ حدودَها، فيقَع لكَ العِلْمُ كما وَقع لهم، ولا ترتابُ بذلك بعدُ، والمُرْتابُ في ذلك، أو المُنْكِرُ ـ بعد البحثِ وصُحْبةِ المسلمين ـ كافِرٌ باتِّفَاقِ، لا يُعذَر بقوله: لا أدري، ولا يُصَدّق فيه، بل ظاهِرهُ التستُّر عن التكذيب، إذ لا يمكِنُ أنه لا يَدْري.

وأيضاً فإنه إذا جَوَّزَ على جميع الأُمةِ الوَهْمَ والْغَلَط فيما نقلوه من ذلك، وَأجْمعوا أنه قولُ الرسول ـ عليه السلام ـ وفِعْلُه وتَفْسيرُ مُرادِ اللّهِ به ـ أدخل الاستِرابة في جميع الشريعة ـ، إذ هم الناقلونَ لها وَللقُرْآن، وانحلَّتْ عُرى الإسلام كرّةً، ومن قال هذا فهو كافر.

وكذلك مَنْ أنكر القرآنَ، أو حَرْفاً منه، أو غيَّر شيئاً منه، أو زاد فيه، كفِعْل الباطنيّة والإسماعيلية، أو مَنْ زعم أنه ليس بحجّة للنبيِّ ﷺ، أو ليس فيه حجةٌ ولا مُعْجزةٌ، كقول هِشام الفُوَطيّ، ومُعَمَّر البصري: إنه لا يدلُّ على اللّهِ، ولا حجةَ فيه لرَسُوله، ولا يَدُلّ على ثوابٍ ولا عِقَاب، ولا حُكم، ولا محالةَ في كفرهما بهذا القول، أو من قال بقولهما.

وكذلك تكفيرهما بإنكارهما أَن يكونَ في سائر معجزاتِ النبيّ ﷺ حُجَّةٌ له، أَو في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ دَلِيلٌ على اللّهِ، لمخالفتهم الإجماعَ والنّقْلَ المتواتر عن النبيّ ﷺ باحتجاجِه بهذا كلِّه، وتصريح القرآن به.

وكذلك مَنْ أنكر شيئاً ممَّا نصَّ فيه القرآنُ ـ بعد عِلمِه ـ أنه من القرآنِ الذي في أيدي الناس، ومصاحفِ المسلمين، ولم يكن جاهلاً به، ولا قريبَ عَهْدٍ بالإسلام، واحتجّ لإنكاره إمَّا بأنه لم يصحّ النقْلُ عنده، ولا بلغه العلمُ به، أو لتجويز الوَهْم على ناقِليه، فنكفّره بالطريقين المتقدمين، لأنه مكذِّبٌ للقرآن، مُكذِّبٌ للنبيّ ﷺ، لكنه تَسَتَّر بدَعْوَاه.

وكذلك مَنْ أنكر الجنَّةَ، أو النارَ، أو البَعْثَ أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماعٍ، للنصّ عليه، وإجماع الأمة على صحةِ نَقْلِه متواتراً، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إنَّ المراد بالجنَّة والنار، والحَشر والنَّشر، والثواب والعقاب ـ معنى غَيْر ظاهرِه ـ، وإنها لذَّاتٌ رُوحانية، ومَعَانٍ باطنةٌ، كقول النصارى،

والفلاسفة، والباطنيةِ، وبعض المتصوفة، وزعمِهم أنَّ معنى القيامةِ الموتُ أو فناءٌ مَحْضٌ، وانتقاضُ هيئة الأفلاك، وتحليلُ العالم، كقول بعض الفلاسفة.

وكذلك نقطَعُ بتكفيرِ غُلاةِ الرافضة في قولهم: إنَّ الأئمة أفضلُ من الأنبياء عليهم السلام. فأمّا مَنْ أنكر ما عُرِف بالتواتُر من الأخبار، والسِّيَر، والبلاد التي لا ترجِع إلى إبطال شريعةٍ، ولا تُفضِي إلى إنكارِ قاعدةٍ من الدِّين، كإنكار غَزْوَة تَبوك، أو مُؤتة، أو وجود أبي بكر، وعُمر، أو قَتْلِ عثمان أو خِلافةِ عليٍّ، مِمَّا عُلِمَ بالنَّقْل ضرورةً، وليس في إنكاره جَحْدُ شريعةٍ، فلا سبيل إلى تكفيره بجَحْدِ ذلك، وإنكارِه وقوعَ العلم له، إذ ليس في ذلك أكثَرُ من المباهتة، كإنكارِ هشامٍ وعَبّاد وَقْعَة الْجَمَلِ، ومحارَبَةَ عليٍّ مَنْ خالَفَه.

فأمَّا إنْ ضَعَّفَ ذلِكَ من أَجْلِ تهمَةِ الناقلينِ، وَوَهَّمَ المسلمين أجمع، فنُكفِّره بذلك لِسَرَيانِهِ إلى إبطالِ الشريعة.

فأما مَنْ أنكر الإجماعَ المجرَّد، الذي ليس طريقه النَّقْل المتواتر عن الشارع، فأَكثَرُ المتكلّمين من الفقهاء والنُّظّار في هذا الباب قالوا بتكفير كلِّ مَنْ خالفَ الإجماعَ، أعني: الإجماعَ الصحيحَ الجامعَ لشروط الإجماع المتَّفق عليه عموماً.

وحُجَّتُهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

١٨١٥ ـ وقوله عليه السلام: «**مَنْ خالف الجماعةَ قِيدَ شِبْرٍ فقد خَلَعَ رِبقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ**».

وحكَوْا الإجماعَ على تكفير مَنْ خالف الإجماع.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القَطْع بتكفير مَنْ خالفَ الإجماعَ الذي يختصُّ بنقلِهِ العلماءُ، وذهبَ آخرون إلى التَّوَقُّفِ في تكفيرِ مَنْ خالفَ الإجماعَ الكَائنَ عن نَظرٍ، كتكفِير النَّظام بإنكاره الإجماع، لأنه بِقَوْلِه هذا مخالِفٌ إجماعَ السلفِ على احتجاجهم به، خارقٌ للإجماع.

قال القاضي أبو بكر: القولُ عندي أن الكُفرَ باللّهِ هو الجَهْلُ بوجُوده، والإيمان بالله هو العلمُ بوجودِه، وأنه لا يكفُرُ أحدٌ بقولٍ ولا رَأيٍ إلا أنْ يكون هو الجَهْلُ بالله، فإن عصى بقَوْلٍ أو فِعْلٍ نصَّ الله ورَسُولُه عليه أو أجمع المسلمون، أنه لا يُوجَد إلا مِنْ كافر، أو يقوم دَليلٌ على ذلك، فقد كفر، ليس لأَجْلِ قَوْلِه أو فِعْله، لكن لما يُقارِنُه من الكُفر، فالكُفْرُ باللّهِ لا يكونُ إلاّ بأحدِ ثلاثة أمور: أحدُها: الجَهْلُ بالله تعالى. والثاني: أنْ يأتِيَ فِعلاً أو يقولَ قولاً

يُخبِرُ اللَّهُ وَرَسُولُه، أو يُجْمِعُ المسلمون، أنَّ ذلكَ لا يكون إلا مِنْ كافر، كالسجودِ للصَّنم، والمشْي إلى الكنائس بالتزام الزُّنَّار مع أصحابها في أعيادهم، أو أن يكون ذلكَ القول أو الفِعْلُ لا يمكنُ معه العِلْمُ بالله تعالى.

قال: فهذانِ الضَّرْبان، وإن لم يكونا جَهْلاً بالله، فهُمَا عَلَمٌ أنّ فاعلَهما كافرٌ مُنسلخٌ من الإيمان، فأما مَنْ نَفى صفَةً من صِفَاتِ اللَّهِ تعالى الذاتيَّة، أو جَحَدها مُسْتَبْصراً في ذلك، كقوله: ليس بعالم، ولا قادرٍ، ولا مريدٍ، ولا مُتكلِّم، وشِبْه ذلك مِنْ صفاتِ الكمال الواجبة له تعالى، فقد نصَّ أئمتُنا على الإجماعِ على كُفر مَنْ نَفَى عنه تعالى الوصْفَ بها، وأعراه عنها.

وعلى هذا حُمِلَ قَوْلُ سَحْنُون: مَنْ قال: «ليس للَّهِ كلامٌ، فهو كافرٌ» وهو لا يُكفِّر المتأوِّلين كما قدمناه.

فأمَّا مَنْ جَهِلَ صِفَةً من هذه الصفات فاختلف العلماءُ ها هنا، فكفَّرهُ بعضُهم، وحُكِيَ ذلك عن أبي جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ وغيرِه، وقال به أبو الحسن الأشْعَري مرةً، وتوقف فيه مرة.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّ هذا لا يخرجُه عن حَدِّ الإيمانِ، ولا عن اسمه، وإليه رَجع الأشعريّ، قال: لأنه لم يَعْتَقد ذلك اعتقاداً يقطعُ بصوابِه، ويراه ديناً وشَرْعاً، وإنما نكَفِّرُ مَنِ اعتقد أنَّ مَقالَه حقٌّ.

١٨١٦ ـ واحتجَّ هؤلاء بحديث السَّوْدَاءِ [مسلم (٥٣٧)]، وأنَّ النبيّ ﷺ إنما طلب منها التوحيدَ لا غَيْر.

١٨١٧ ـ وبحديث القائل: **«لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عليّ»** [البخاري (٧٥٠٦)، مسلم (٢٧٥٦)].

١٨١٨ ـ وفي رواية فيه: **«لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ»** [أحمد (٥/٥)] ثم قال: **«فغَفَرَ اللَّهُ لهُ»**.

قالوا: ولو بُوحِثَ أكثرُ الناس عن الصفاتِ، وكوشِفُوا عنها، لمَا وُجِدَ مَنْ يَعْلَمُها إلا الأقلّ.

وقد أجابَ الآخَرُ عن هذا الحديث بوجوه، منها: أنَّ «قَدَرَ» بمعنى قَدَّرَ، ولا يكونُ شَكُّهُ في القُدْرَةِ على إحيائه، بل في نَفْس البَعْثِ الذي لا يُعْلَمُ إلا بشَرْعٍ، ولعلّه لم يكن ورد عندهم به شَرْعٌ يَقْطَعُ عليه، فيكون الشكُّ فيه حينئذٍ كفراً.

فأمَّا ما لم يَرِدْ به شَرْعٌ فهو مِنْ مُجَوَّزاتِ العقولِ، أو يكونُ «قَدَرَ» بمعنى

ضَيِّق، ويكون ما فعله بنفسه إزراءً عليها، وغَضباً لعِصْيانها.

وقيلَ: إنَّما قالَهُ وهو غَيْرُ عاقلٍ لكلامِه، ولا ضابطٍ لِلَفْظِه مما استولى عليه من الجزَع، والخَشْيَةِ التي أذهبَتْ لُبّه، فلم يؤاخَذْ به.

وقيل: كان هذا في زَمَنِ الفَتْرةِ، وحيث ينفَعُ مُجرَّد التوحيد.

وقيل: بل هذا من مَجَازِ كلام العَرَبِ الذي صورتُه الشكُّ، ومعناه التحقيق، وهو يسمَّى تجاهُلَ العارفِ، وله أمثلةٌ في كلامهم، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فأمَّا مَنْ أثبتَ الوَصْفَ، ونَفَى الصِّفَة، فقال: أقولُ: عالمٌ، ولكِنْ لا عِلْمَ له، ومتكلِّمٌ ولكن لا كلامَ له. وهكذا في سائر الصفاتِ على مَذْهب المعتزلة. فمَنْ قال بالمآل لِمَا يؤدِّيه إليه قَوْلُه، ويسوقُه إليه مَذْهَبُه ـ كفَّره ـ لأنه إذا نَفَى العِلْم انتفى وَصْفُ عالمٍ، إذ لا يوصَفُ بعالمٍ إلا مَنْ له عِلْمٌ، فكأنهم صَرَّحُوا عنده بما أدَّى إليه قولُهم.

وهكذا عند هذا سائِر فِرَقِ أَهْلِ التأويل من المُشَبِّهة والقَدَريَّة وغيرهم.

ومَنْ لم يَرَ أَخْذَهم بمآلِ قَوْلهم، ولا ألزمهم مُوجِبَ مذهبهم، لم يَرَ إكْفَارَهُمْ، قال: لأنهم إذا وُقِفُوا على هذا قالوا: لا نقولُ ليس بعالم، ونحن نَنْتَفِي من القَوْلِ بالمآل الذي ألزمتموه لنا، ونعتَقِدُ نحن وأنتم أنه كفْرٌ، بل نقول: إنَّ قولَنا لا يَؤُول إليه على ما أَصَّلْناهُ.

فعلى هذين المَأْخَذيْن اختلف الناسُ في إكفار أهلِ التأويل، وإذا فهِمْتَه اتَّضح لكَ الموجبُ لاختلافِ الناس في ذلك.

والصوابُ تَرْكُ إكفَارِهم، والإعراضُ عن الحَتْم عليهم بالخُسْران، وإجراءُ حُكْمِ الإسلام عليهم في قِصَاصِهم ووراثاتِهم، ومُنَاكحاتهم، ودِيَاتهم، والصلاةِ عليهم، ودَفْنِهم في مقابر المسلمين، وسائر مُعَاملاتهم، لكنهم يُغَلَّظُ عليهم بوَجِيع الأدَبِ، وشدِيدِ الزَّجْرِ والهَجْر، حتى يَرْجِعُوا عن بِدْعتهم.

وهذه كانت سيرةُ الصَّدْرِ من السلف الأوّل فيهم، فقد كان نشأ على زمن الصحابةِ وبَعْدَهم في التابعين مَنْ قال بهذه الأقوال مِنَ القَدَر، ورأيِ الخوارج، والاعتزال، فما أزاحوا لهم قَبْراً، ولا قطعوا لأحدٍ منهم ميراثاً، لكنهم هجروهم وأَدَّبُوهم بالضَّرْب، والنَّفْي، والقَتْل على قَدْر أحوالهم، لأنهم فُسّاقٌ، ضُلاّل، عُصاةٌ، أصحابُ كبائر عند المحققين وأهل السنّة ممَّنْ لم يقُلْ بكُفْرِهم منهم،

خلافاً لِمَنْ رأى غَيْرَ ذلك، واللَّهُ الموفقُ للصواب.

قال القاضي أبو بكرٍ: وأما مسائلُ الوَعْد والوَعِيد، والرُّؤيةِ، والمخلوقِ، وخَلْق الأفعال، وبَقَاءِ الأعراضِ، والتولُّد، وشِبْهها من الدقائق، فالمَنْعُ في إكْفارِ المتأوِّلين فيها أَوْضحُ، إذ ليس في الجهل بشيء منها جَهْلٌ باللَّهِ سبحانه، ولا أَجمع المسلمون على إكْفار مَنْ جَهل شيئاً منها.

وقد قدَّمْنَا في الفَصْل قبله من الكلام وصورةِ الخلافِ في هذا ما أَغْنى عن إعادته - ها هنا - بِحَول الله تعالى، والله أعلم بالصواب.

فصل
فِي حُكْمِ الذِّمِّيِّ السَّابِّ للَّهِ تَعَالَىٰ

هذا حُكْمُ المسلم السابِّ للَّهِ تعالى وأما الذميُّ فَرُوِيَ عن عبداللَّه بن عُمر في ذِمِّيٍّ تناول مِنْ حُرْمَةِ اللَّهِ تعالى علىٰ غَيْرِ ما هو عليه مِنْ دِينه، وحاجَّ فيه، فخرج ابْنُ عُمر عليه بالسيف فطلبه فهرَب.

وقال مالك، في كتاب ابن حبيب و «المبسوطة» وابن القاسم في «المبسوط» وكتاب محمد، وابن سَحْنُون: مَنْ شَتَم اللَّهَ مِنَ اليهودِ والنَّصارى بغير الوَجْه الذي به كفروا قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ.

قال ابن القاسم: إلا أَنْ يُسْلِم. قال في «المبسوطة»: طَوْعاً.

قال أَصْبَغُ: لأنَّ الوَجْهَ الذي به كفَرُوا هو دينُهم، وعليه عُوهِدُوا مِنْ دَعْوَى الصاحبةِ والشَّريك والولدِ.

وأمَّا غَيْرُ هذا من الفِرْيةِ والشَّتْم فلم يُعاهَدوا عليه، فهو نَقْضٌ للعهد.

قال ابن القاسم في كتاب محمد: ومَنْ شتم الله تعالىٰ من غير أَهْلِ الأديانِ بغير الوَجْه الذي ذُكِر في كتابه قُتِل، إلاَّ أَنْ يُسْلِم.

وقال المخزومي في «المبسوطة» ومحمد بن مسلمة، وابنُ أبي حازمٍ: لا يُقْتلُ، حتى يُسْتَتابَ، مسلماً كانَ أو كافراً، فإنْ تاب وإلاَّ قُتِلَ.

وقال مُطَرِّفٌ وعَبْدالملك مِثْلَ قَوْلِ مالكٍ.

وقال أبو محمد بن أبي زَيْدٍ: مَنْ سبَّ اللَّهَ تعالى - بغَيْرِ الوَجْهِ الذي به كفر - قُتِل إلا أَنْ يُسْلم.

وقد ذكرنا قَوْلَ ابن الجلاَّب قَبْلُ، وذكَرْنا قَوْلَ عُبيداللَّه، وابن لُبَابة، وشيوخ

الأندلسيين في النَّصْرانية، وفُتْيَاهم بقَتْلِها لسبِّها ـ بالوَجْهِ الذي كَفرتَ به ـ لله تعالى، وللنبيّ ﷺ.

وإجماعهم على ذلك، وهو نَحْو القولِ الآخر فيمن سبَّ النبيّ ﷺ منهم بالوَجْه الذي كفر به، ولا فَرْقَ في ذلك بين سَبِّ اللَّهِ وسبِّ نَبِيِّه ـ عليه السلام ـ لأنّا عاهدناهم على ألاّ يُظْهِروا لنا شيئاً مِنْ كُفْرهم، وألاّ يسمعونا شيئاً من ذلك، فمتى فعلوا شيئاً منه فهو نَقْضٌ لعَهْدِهم.

واختلف العلماءُ في الذِّمّيِّ إذا تَزَنْدَق، فقال مالك، ومُطَرِّف، وابن عبدالحكم، وأصبغ: لا يُقْتل، لأنه خرج من كفرٍ إلى كفر.

وقال عَبْدالملك بن الماجِشون: يُقتل لأنه دِينٌ لا يُقَرُّ عليه أَحدٌ، ولا تؤخذ عليه جزيةٌ. قال ابن حبيب: ولا أعلم مَنْ قاله من العلماء غيره.

فصل

فِي حُكْمِ المُفْتَرِي الكَذِبَ على اللَّهِ تَعَالَىٰ بِادِّعَاءِ الإِلٰهيَّةِ أو الرِّسالةِ، أو النَّافِي أَنْ يَكونَ اللَّهُ رَبَّهُ أو خَالِقَهُ

هذا حكمُ مَنْ صَرَّحَ بسبِّه وإضافةِ له ما لا يليق بجلالهِ وإلٰهِيَّتِه، فأما مُفْتري الكذب عليه ـ تبارَكَ وتعالى ـ بادِّعاءِ الإلٰهية، أو الرسالة، أو النافي أَنْ يكون اللَّهُ ـ عز وجل ـ خالقَه، أو رَبَّه، أو قال: ليس لي رَبٌّ، أو المتكلّم بما لا يُعْقَل من ذلك في سُكْرِه، أو غَمْرَةِ جنُونه، فلا خلاف في كُفْرِ قائلِ ذلك ومُدّعِيه مع سلامةِ عَقْله كما قدمنا، لكنه تُقْبَل توبتُه على المشهور، وتنفعه إنابتُه، وتُنَجِّيه من القَتْل فَيْئَتُهُ، لكنه لا يَسْلَم من عَظِيم النَّكال، ولا يُرَفَّه عن شَدِيدِ العِقَاب، ليكون ذلك زجْراً لمثله عن قَوْله، وله عن العودةِ لكُفْره أو جَهْله، إلاّ مَنْ تكرَّرَ منه ذلك، وعُرِف استهانتُه بما أَتى به، فهو دليلٌ على سُوءِ طَوِيَّتِهِ، وكَذِب تَوْبَتِه، وصار كالزِّنْدِيق الذي لا نَأْمَنُ باطنَه، ولا نَقْبَلُ رُجوعَه، وحُكْمُ السَّكْرانِ في ذلك حكمُ الصَّاحِي.

وأمّا المجنونُ والمَعْتُوه فما عُلِمَ أنه قاله مِنْ ذلك في حالِ غَمْرته، وذَهاب مَيْزه بالكلية فلا نَظَر فيه، وما فعله من ذلك في حال مَيْزِهِ وإنْ لم يكُنْ معه عَقْلُه وسقط تكليفه أُدِّبَ على ذلك لينْزجِرَ عنه، كما يُؤَدَّبُ على قبائحِ الأفعال، ويُوَالَى أَدَبُه على ذلك حتى يَنْكَفَّ عنه، كما تُؤدَّبُ البهيمة على سوءِ الخُلق حتى تُراضَ.

وقدْ حَرَّق عليّ بن أَبي طالب رضِيَ الله عنه من ادَّعَى له الإلٰهية، وقد قَتَل

عَبْدالملك بنُ مَرْوانَ الحارثَ المُتَنَبِّئ وصلبه، وفعل ذلك غَيْرُ واحدٍ من الخلفاء والملوك بأشباههم.

وأجمعَ علماءُ وقتِهم على صَوَاب فِعْلِهم، والمخالفُ في ذلك مِنْ كُفرهم كافِرٌ.

وأجمع فقهاءُ بَغْداد ـ أيام المقتدر ـ من المالكية، وقَاضي قُضَاتها أَبو عُمَرَ المالكي على قَتْل الحَلاَّج وصَلْبِهِ، لِدَعْواهُ الإلهية، والقولِ بالحُلولِ، وقولِه: أنا الحقُّ، مع تَمسُّكِه في الظَاهرِ بالشريعة، ولم يقبلوا توبتَه.

وكذلك حكموا فِي ابْنِ أبي العَزَاقِرِ ـ وكان على نحو من مذهب الحلاَّج ـ بعد هذا أَيام الراضي بالله، وقاضي قُضَاة بغداد يومئذٍ أبو الحُسين بن أبي عمر المالكي.

وقال ابنُ عبدالحكم في «المبسوط»: مَنْ تَنَبَّأَ قُتِل.

وقال أبو حنيفة وأصحابُه: مَنْ جَحَد أَنَّ الله تعالى خالقُه أَو رَبُّه، أو قال: ليس لي رَبٌّ، فهو مُرْتَدٌّ.

وقال ابنُ القاسم في كتاب محمد، وابْن حَبيب في «العُتْبِيَّةِ» ـ فيمن تَنَبَّأَ ـ يُسْتَتَابُ، أَسَرَّ ذلكَ، أَو أَعلنه، وهو كالمُرْتَدِّ.

وبه قال سَحْنون وَغَيْرُه، وقاله أَشْهب في يَهُودِيّ تنبَّأ، وادَّعَى أنه رسولٌ إلينا: إن كان مُعْلِناً بذلك اسْتُتِيب، فإنْ تاب، وإلاَّ قُتِل.

وقال أبو محمد بن أبي زَيْد ـ فيمن لعن بارئَه، وادَّعَى أَنَّ لسانَه زلَّ، وإنما أَرادَ لَعْنَ الشيطانِ ـ: يُقتَل بكُفرِه، ولا يُقْبَل عُذْرُه.

وهذا على القولِ الآخر من أنه لا تُقْبَل توبتُه.

وقال أبو الحسن القَابِسِيُ ـ في سَكْران، قال: أنا الله، أنا الله ـ: إنْ تاب أُدِّبَ، فإن عادَ إلى مِثْلِ قولِه طُولِبَ مطالبةَ الزِّنْدِيق، لأنَّ هذا كُفْرُ المُتلاعبين.

فصل
فِي حُكْمِ مَنْ تَكلَّمَ مِنْ سَقَطِ القَولِ، وَسُخْفِ اللَّفظِ، مِمَّنْ لَمْ يَضْبِطْ كَلامَهُ، وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِما يَقْتَضِي الاستِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجلالَةِ مَوْلاهُ

وأمَّا مَنْ تكلّم مِنْ سَقَطِ القَوْل وسُخْفِ اللفظِ ممَّنْ لم يَضْبِط كلامَه وأَهمل لسانه بما يقتضي الاستخفافَ بعظمةِ رَبِّه، وجلالةِ مَوْلاَهُ، أو تمثَّل في بعض

الأشياء ببعض ما عظم اللَّهُ من مَلَكُوته، أو نَزَع من الكلام لمخلوق بما لا يَليقُ إلا في حق خالقه غَيْرَ قاصدٍ للكُفرِ والاستخفاف، ولا عامدٍ للإلحاد به، فإنْ تكرَّر هذا منه، وعُرف به، دَلَّ على تَلاعُبِه بدِينه، وَاستِخْفَافِه بحُرْمةِ رَبِّه، وجَهْله بعظيم عِزَّته وكِبْريائه، وهذا كفرٌ لا مِرْيَةَ فيه.

وكذلك إن كان ما أوردَه يوجبُ الاستخفافَ والتنقُّصَ لربِّه.

وَقد أَفتى ابنُ حبيب، وأصبغ بن خليل من فُقَهاء قُرْطُبَة بقَتْلِ المعروفِ: بابْنِ أخي عَجَبَ، وكان خرج يوماً، فأخذَهُ المَطر، فقال بَدأَ الخرّازُ يرش جلودَه.

وكان بعضُ الفقهاء بها: أبو زَيد صاحبُ «الثَّمانِيَةِ»، وعَبْدالأَعْلى بن وَهْب، وأبَان بن عيسىٰ، قد توَقَّفُوا عن سَفْكِ دَمِه، وأشاروا إلى أنه عَبَثٌ من القولِ يكفي فيه الأدبُ.

وأفتى بمثله القاضي حينئذٍ موسىٰ بن زِياد، فقال ابنُ حبيب: دَمُه في عُنقي، أيُشتَمُ رَبٌّ عَبدْناه، ثم لا نَنتَصِر له؟! إنَّا إذاً لَعبيدُ سَوْءٍ، وما نحن له بعابدين، وبكى، ورفع المجلس إلى الأمير بها: عَبْدِ الرحمن بن الحَكَمَ الأُمَوِي.

وكانت عجَبُ ـ عمَّةُ هذا المطلوب ـ مِنْ حظاياه، وأُعْلِم بِاختلاف الفقهاءِ، فخرج الإذْنُ من عنده بالأَخْذِ بقَوْلِ ابن حبيب وصاحِبه، وأمر بقَتْلِ المذكور فقُتِل، وصُلب بحضرة الفَقِيهَيْنِ، وعُزِلَ القاضي لتُهْمتِه بالمداهنةِ في هذه القصة، ووبَّخ بقيةَ الفقهاءِ وسَبَّهم.

وأما مَنْ صدرَتْ عنه مِنْ ذلك الهَنَةُ الواحدةُ والفَلْتَةُ الشارِدَة ـ ما لم يكُنْ تنقُّصاً وإزراءً ـ فيُعاقَبُ عليها ويُؤَدَّب بِقَدْرِ مقتضاها، وشُنْعَةِ معناها، وصورةِ حال قائلها، وشَرْحِ سبَبِها ومُقارنها.

وقد سُئل ابنُ القاسم رحِمَه الله عن رَجُل نادى رجلاً باسْمِه، فأجابه: لبَّيْك، اللهمَّ! لَبَّيْك.

فقال: إنْ كان جاهلاً، أو قاله على وَجْهِ سَفَهٍ فلا شَيء عليه.

قال القاضي أبو الفضل: وشَرْحُ قَوْلِه أنه لا قَتْلَ عليه، والجاهلُ يُزْجَر ويُعَلَّم، والسفيهُ يؤدَّبُ، ولو قالها على اعتقادِ إنزالِهِ مَنْزِلةَ رَبِّه لكفر. هذا مُقْتَضَى قَوْلِه.

وقد أسرفَ كثيرٌ من سُخفاءِ الشُّعراء ومُتَّهميهم في هذا الباب، واستخفُّوا عظيمَ هذه الحرمة، فأتَوْا من ذلك بما نُنَزِّهُ كِتابَنا ولسانَنا وأقلامنا عن ذِكْرِه، ولولا أنَّا قصَدْنا نصَّ مسائل حكيناها لَما ذكرنا شيئاً مما يثقل ذكره علينا مما حكيناه في هذه الفصول.

وأمّا ما ورد في هذا من أهلِ الجهالة وأغاليطِ اللسان، كقول بعض الأعراب:

رَبَّ العِبَادِ ما لَنَا وَمَا لَكا   قَدْ كُنْتَ تَسْقِيْنَا فَمَا بَدَا لَكا
أَنْزِلْ علينا الغيثَ لا أبا لكا

في أشباهٍ لهذا مِنْ كلام الجُهَّال.

ومَنْ لم يقوِّمْه ثِقَافُ تأديب الشريعةِ والعِلْم في هذا الباب، فقلَّما يصدُرُ إلاَّ مِنْ جاهلٍ، يجبُ تعليمُه، وزَجْرُه، والإغلاظُ له عن العودةِ إلى مثلِه.

قال أبو سليمانَ الخَطَّابي: وهذا تهوُّر من القول، واللَّهُ ـ عز وجل ـ مُنَزَّهٌ عن هذه الأمور كلها.

وقد رَوَينا عن عَوْنِ بن عَبْدِاللَّه أَنَّهُ قال: لِيُعَظِّمْ أحدُكم رَبَّه أَنْ يذكرَ اسْمَه في كلِّ شيءٍ، حتى يقول: أَخْزَى اللَّهُ الكَلْبَ، وفَعل به كذا وكذا.

قال: وكان بَعْضُ مَنْ أدرَكْنا من مشايخنا قَلَّما يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ تعالى إلاَّ فيما يتَّصل بطاعته. وكان يقول للإنسان: جُزيتَ خيراً. وقلما يقول: جزاك اللَّهُ خيراً، إعظاماً لاِسْمِه تعالى أنْ يُمتَهنَ في غَيْر قُرْبَةٍ.

وحدثنا الثِّقَةُ أنَّ الإمامَ أبا بكر الشاشي كان يَعِيبُ على أهل الكلامِ كثرةَ خوضِهم فيه تعالى، وفي ذِكرِ صِفَاته، إجلالاً لاسمِهِ تعالى، ويقول: هؤلاء يَتَمَنْدَلون بالله عز وجلّ.

وينزَّلُ الكلامُ في هذا الباب تنزيله في باب سَابِّ النبيّ ﷺ على الوجوه التي فَصَّلْناها. والله الموفقُ.

فصل
فِي حُكْمِ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وملائكتَهُ وَاسْتَخَفَّ بِهِمْ

وحُكْمُ مَنْ سبَّ سائِرَ أنبياءِ اللَّهِ تعالى وملائكته ـ عليهم السلام ـ واستخفَّ بهم، أو كذَّبهم فيما أتَوا به، أو أنكرهم أو جَحَدهم، حُكْمُ نَبِيِّنا ـ عليه السلام ـ على مَسَاقِ ما قدمناه، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال مالك في كتاب ابن حبيب، ومحمد، وقاله ابن القاسم، وابن الماجشُونَ، وابن عبدالحكم، وأَصْبَغُ، وسَحنون ـ فيمن شَتَم الأنبياءَ أو أحداً منهم أو تنقَّصه ـ: قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ. ومَنْ سبَّهم من أهلِ الذمَّةِ قُتِل إلا أَنْ يُسْلم.

وروَى سَحْنون، عن ابن القاسم: مَنْ سبَّ الأنبياءَ من اليهود والنَّصارى بغير الوَجهِ الذي به كَفر ضُرب عُنُقُه إلا أَنْ يُسْلِمَ.

وقد تقدَّم الخلافُ في هذا الأصل.

وقال القاضي بقُرْطُبةَ سَعيد بن سُليمان في بعض أجوبته: مَنْ سَبَّ الله تعالىٰ، وملائكته قُتِل.

وقال سَحنون: مَنْ شتم مَلَكاً من الملائكة فعليه القَتْل.

وفي «النَّوادر» عن مالك فيمن قال: إنَّ جبريلَ أَخطأَ بالوَحْي، وإنما كان النبيُّ عليَّ بن أبي طالب: اسْتُتِيبَ، فإنْ تابَ وإلاَّ قُتل.

ونحوه عن سَحنون وهذا قولُ الغُرابيَّةِ من الروافض، سُمُّوا بذلك لقولهم: كان النبيُّ ﷺ أَشْبَه بعليّ ـ رضي الله عنه ـ من الغُرابِ بالغُراب.

وقال أبو حنيفة وأصحابُه على أَصْلِهم: مَنْ كذَّبَ بأَحدٍ من الأنبياء، أو تنقَّص أحداً منهم، أو بريءَ منه فهو مُرْتَدٌّ.

وقال أبو الحسن الْقَابِسيُّ ـ في الذي قال لآخر ـ: كأنه وَجْهُ مالكٍ الغَضْبان: لو عُرِفَ أنه قصد ذمَّ الملَكِ قُتِل.

قال القاضي أبو الفَضل رحمه الله: وهذا كلُّه فيمن تكلَّم فيهم بما قُلْناه على جُمْلة الملائكة والنبيين، أو على مُعيَّنٍ مِمَّنْ حققْنا كونَه من الملائكة والنبيِّين ممَّنْ نَصَّ اللَّهُ تعالىٰ عليه في كتابه، أو حقَّقْنَا عِلْمَه بالخبر المُتواتر، والمشتهرِ المتفقِ عليه بالإجماع القاطع، كجبريل، وميكائيل، ومالك، وخَزنة الجنة، وجهنَّم، والزَّبانية، وحملةِ العَرْشِ المذكورين في القرآن من الملائكة، ومَنْ سُمِّيَ فيه من

الأنبياء، وكعزرائيل، وإسرافيل والحَفَظةِ، ورضوانَ، ومُنْكرٍ، ونَكير من الملائكة المتَّفَقِ على قَبولِ الخبرِ بهما، فأمَّا مَنْ لم تَثْبُت الأخبارُ بِتعْيينه ولا وقع الإجماعُ على كونِه من الملائكة أو الأنبياء، كهارُوتَ ومَارُوتَ في الملائكة، والخَضِر، ولُقمان، وذي القَرْنَين، ومريم، وآسية، وخالد بن سنان المذكور أنه نبيُّ أَهْلِ الرَّسّ، وزرَادَشْت الذي تَدَّعي المجوسُ والمُؤرخون نبوَّتَهُ، فليس الحُكْمُ في سابِّهم، والكافر بهم، كالحُكْم فيمن قَدَّمْنا، إذ لم تَثْبُتْ لهم تلك الحُرْمة، ولكنْ يُزْجرُ مَنْ تنقَّصَهم وآذاهم، ويؤدَّبُ بقَدْرِ حال المَقُول فيه، لا سِيَّما مَنْ عُرِفَتْ صِدِّيقِيَّتُه، وفَضْلُه منهم، وإنْ لم تثبت نُبُوَّتُهُ.

وأمَّا إنكار نبوتهم، أو كون الآخَر من الملائكة، فإن كان المتكلمُ في ذلك مِنْ أهلِ العِلْم فلا حَرَجَ عليه لاختلاف العلماء في ذلك، وإنْ كان مِنْ عَوَامِّ الناسِ زُجِرَ عَنِ الخَوْضِ في مِثْلِ هذا، فإن عاد أُدِّبَ، إذ ليس لهم الكلامُ في مِثْلِ هذا.

وقد كَرِهَ السلَفُ الكلامَ في مِثْلِ هذا مما ليس تَحْتَه عَمَلٌ لأهْلِ العِلْمِ، فكيف للعامة!؟

فصل
فِي حُكمِ مَنِ استَخَفَّ بالقُرآنِ، أو المُصْحَفِ، أو بشيءٍ مِنهُ، أو سَبَّهُمَا

واعلَمْ أنَ مَن استَخَفَّ بالقرآن، أو المُصحَف، أو بشيء منه، أو سبَّهُما، أو جَحَدهُ، أو حرفاً منه، أو آيةً، أو كذَّب بهِ، أو بشيءٍ منه، أو كذَّب بشيءٍ مِمَّا صُرِّحَ به فيه مِنْ حُكمٍ، أو خَبَرٍ، أو أثبتَ ما نَفاهُ، أو نَفى ما أَثْبَتَه، على عِلْم منه بذلك أو شكَّ في شَيْءٍ من ذلك فهو كافرٌ عند أهل العِلم بإجماع، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

١٨١٩ ـ حدثنا الفَقِيهُ أبو الوليد: هشام بن أحمد رحمه الله قال: حدثنا أبو علي، حدثنا ابْنُ عبدالبَرِّ، حدثنا ابنُ عبدالمؤمن، حدثنا ابنُ دَاسَةَ، حدثنا أبو داود، حدثنا أَحمد بن حنبل، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عَمْرو، عن أَبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيّ ﷺ، قال: «**المِرَاءُ في القرآنِ كُفْرٌ**» [أبو داود (٤٦٠٣)، أحمد (٤٢٤/٢)]، تُؤُوِّلَ بمعنى الشكِّ، وبمعنى الجدال.

١٨٢٠ ـ وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «**مَنْ جَحَدَ آيةً من كتاب الله، من المسلمين، فقد حلَّ ضَرْبُ عُنُقِه**» [ابن ماجه (٢٥٣٩)]، وكذلك إنْ جَحَد التَّوْرَاةَ، والإنجيلَ، وكتُبَ اللَّهِ المنزَلَة، أو كفر بها، أو لعنها، أو سبَّها، أو استخفَّ بها فهو كافِرٌ.

وقد أَجمع المسلمون أنَّ القرآنَ المَتْلُوَّ في جميع أقطار الأرض، المكتوبَ في المصحف الذي بأيْدِي المسلمين، مما جمعه الدَّفَّتَانِ من أول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]. أنه كلام الله، وَوَحْيُه المنزَّلُ على نبيّه محمدٍ ﷺ، وأن جميعَ ما فيه حقٌّ، وأنَّ مَنْ نَقَص منه حرفاً قاصِداً لذلك، أو بدَّله بحرفٍ آخر مكانَه، أو زاد فيه حرفاً مما لم يشتمل عليه المُصْحَفُ الذي وقع الإجماعُ عليه، وَأُجْمِعُ على أنه ليس من القرآن، عامداً لكل هذا، أنه كافر.

ولهذا رأى مالك قَتْلَ مَنْ سَبَّ عائشةَ رضي الله عنها بالفِرْيَةِ، لأنه خالف القرآنَ، ومَنْ خالفَ القرآنَ قُتِل، أي لأنه كذَّب بما فيه.

وقال ابنُ القاسم: مَنْ قال إنَّ الله تعالى لم يكلِّمْ مُوسىٰ تكليماً يُقتل، وقاله عبدالرحمن بن مَهْدِيّ.

وقال محمد بن سَحْنُون ـ فيمن قال: المعوَّذَتان ليستا من كتاب الله عز وجل ـ: يُضرَبُ عُنقه إلا أن يتوبَ.

وكذلك كلُّ مَنْ كذَّبَ بحرف منه. قال: وكذلك إنْ شَهِد شاهدٌ على مَنْ قال: إنَّ اللَّهَ لم يُكلِّمْ مُوسى تكليماً، وشهد آخرُ عليه أنه قال: إنَّ اللَّهَ ما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً، لأنهما اجتمعا علىٰ أنهُ كذّبَ النبيَّ ﷺ.

وقال أبو عثمان بن الحدّاد: جميعُ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّوْحيدَ متَّفِقُون أنَّ الجَحْدَ لحرفٍ من التنزيل كُفْرٌ.

وكان أبو العالية إذا قرأ عنده رجلٌ لم يَقُلْ له: ليس كما قرأْتَ، ويقول: أَمَّا أنا فأقرأ كذا، فبلغ ذلك إبراهيم، فقال: أراه سَمِعَ أنه مَنْ كفر بِحَرْفٍ منه فقد كفَر به كلّه.

١٨٢٠م ـ وقال عبداللّه بن مسعود: من كفر بآية من القرآن فقد كفر به كُلِّهِ.

وقال أَصْبَغُ بن الفَرَج: مَنْ كذَّب ببَعْض القرآنِ فقد كذَّبَ به كلّه. ومن كذَّب به فقد كفر به، ومَنْ كفَر به فقد كفر بالله.

وقد ـ سئل القابسيُّ ـ عمَّن خاصم يَهُودياً، فحلف له بالتَّوْرَاة، فقال له الآخرُ: لَعَنَ اللَّهُ التوراة، فشَهِد عليه بذلك شَاهدٌ، ثمّ شهدَ آخَرُ أنه سأله عن القضيَّة فقال: إنما لعنتُ تَوْرَاةَ اليَهُودِ، فقال أبو الحسن: الشاهدُ الواحِدُ لا يُوجِبُ القَتْل، والثاني علَّقَ الأمْرَ بصفةٍ تحتمِلُ التأويل، إذ لعله لا يَرَى اليهودَ متمسِّكين بشيءٍ من عند الله لتبديلهم وتَحْرِيفهم.

ولو اتفق الشَّاهِدَانِ عَلى لَعْنِ التَّوْرَاةِ مجرَّداً لضاقَ التأويل.

وقد اتَّفَقَ فقهاءُ بغداد على استتابة ابن شَنَبُوذ المُقْرِىء ـ أَحَدِ أئمةِ المقرئين المتصدِّرين بها مع ابن مجاهد رضي الله عنهما ـ لقراءته وإقرائه بِشَواذِّ من الحروف مما ليس في المُصحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه، والتوبة منه سِجلاً، أشْهَد فيه بذلك على نَفْسه في مجلس الوزير أبي عليٍّ بن مُقْلَةَ سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاث مئة وكان فيمن أفْتَى عليه بذلك أبو بكر الأَبْهَريّ وغَيْرُه.

وأفتى ـ أبو محمد بن أبي زَيْد بِالأَدَبِ ـ فيمن قال لصبيّ: لعن اللَّهُ مُعَلِّمَك وما علّمك. وقال: أردتُ سوءَ الأَدب، ولم أُرِدِ القرآن.

قال أبو محمد: وأمَّا مَنْ لعن المصحفَ فإنَّه يُقْتَلُ.

فصل

وَسَبُّ آلِ بَيْتِه وأَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ ـ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ـ وتنقُّصُهُمْ حَرَامٌ مَلعُونٌ فَاعِلُهُ

١٨٢١ ـ حدثنا القاضي الشهيدُ أبو عليّ رحمه الله، حدثنا أبو الْحُسَيْن الصَّيْرفيّ، وأبو الفَضْل العدل قالا: حدثنا أبو يَعْلَى، حدثنا أبو عليّ السِّنْجِيّ، حدثنا ابنُ مَحبوبٍ، حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن يحيىٰ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا عَبِيْدَةُ بن أبي رايطة، عن عبدالرحمن بن زياد، عن عبداللَّه بن مُغَفَّل، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي، اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي، لا تتخِذُوهم غرَضاً بعدي، فمَنْ أحبَّهم فبِحُبِّي أحبَّهم، ومَنْ أبغضَهم فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللَّهَ، ومَنْ آذى اللَّهَ يوشِكُ أنْ يَأْخُذَهُ**» [الترمذي (٣٨٦٢)].

١٨٢٢ ـ وقال عليه السلام: «**لا تسبُّوا أصحابي، فمَنْ سبَّهم فعليه لعنةُ اللَّهِ، والملائكة، والناسِ أجمعين، لا يقبلُ الله منه صَرْفاً، ولا عَدْلاً**».

١٨٢٣ ـ وقال عليه السلام: «**لا تسبُّوا أصحابي، فإنه يجيء قَوْمٌ في آخرِ**

الزمان يسبُّونَ أصحابي فلا تُصَلُّوا عليهم، ولا تُصَلُّوا معهم، ولا تناكحوهم، ولا تجالسوهم، وإنْ مَرِضوا فلا تَعُودُوهم».

١٨٢٤ ـ وعنه عليه السلام: «**مَنْ سبَّ أصحابي فاضْرِبوه**».

١٨٢٥ ـ وقد أَعْلَمَ النبيُّ ـ عليه السلام ـ أنَّ سبَّهم وأذاهم يُؤْذِيه، وأذى النبيِّ ﷺ حَرامٌ، فقال: «**لا تُؤْذوني في أصحابي، ومن آذاهم فقد آذاني**».

١٨٢٦ ـ وقال لبعض نسائه: «**لا تُؤْذيني في عائشة**» [البخاري (٢٥٨١)].

١٨٢٧ ـ وقال في فاطمة: «**بِضْعَةٌ مني، يُؤْذِيني ما آذاها، ومن أغضبها فقد أغضبني**».

وقد اختلف العلماءُ في هذا، فمشهورُ مَذْهب مالك في ذلك: الاجتهادُ والأدبُ الموْجِع: قال مالك رحمهُ الله: مَنْ شَتَم النبيَّ قُتِل، ومَنْ شتَم أصحابَه أُدِّب.

وقال أيضاً: مَنْ شَتَم أَحداً من أصحاب النبيِّ ﷺ: أبا بكر، أو عُمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عَمْرو بن العاص، فإنْ قالَ: كانوا على ضَلالٍ وكُفرٍ قُتِل، وإن شتَمهم بغير هذا من مُشاتَمة الناس نُكّل نكالاً شَدِيداً.

وقال ابنُ حبيب: من غَلاَ من الشيعة إلى بُغْض عثمان والبراءة منه أُدِّبَ أدباً شديداً، ومَنْ زاد إلى بُغْض أبي بكر وعُمر فالعقوبةُ عليه أشدُّ، ويكرَّر ضَرْبُه، ويُطَالُ سِجْنُه حتى يموت ولا يُبْلَغُ به القَتْلُ إلا في سَبِّ النبيِّ ﷺ.

وقال سَحنون: مَنْ كَفَّر أحداً من أصحاب النبيِّ ﷺ عليّاً، أو عثمان، أو غَيْرَهما، يُوجَعُ ضَرْباً.

وحكى أبو محمد بن أبي زَيْد، عن سَحنون: مَنْ قال في أبي بكر وعُمر وعُثمان وعليّ رضي الله عنهم: إنهم كانوا على ضَلالَةٍ وكُفر قُتِل. ومَنْ شَتَم غَيْرَهم من الصحابة بمثل هذا نُكِّلَ النَّكالَ الشديد.

ورُوِيَ عن مالك: مَنْ سبَّ أبا بكر جُلِدَ، ومَنْ سبَّ عائشةَ قُتِل، قيل له: لِمَ؟ قال: مَنْ رَماها فقد خالف القرآنَ.

وقال ابنُ شعبان عنه: لأَنَّ اللَّهَ تعالىٰ يقول: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ [النور: ١٧]، فمن عاد لمِثْلِه فقد كفر.

وحكى أبو الحَسَن الصَّقَلّي: أَنَّ القاضي أبا بكر بن الطيِّب قال: إنَّ اللَّهَ تعالىٰ إذا ذكَر في القرآنِ ما نسبه إليه المشركون سبَّح نَفْسَه لنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥ...﴾ [الأنبياء: ٢٦] في آيٍ كثيرة.

وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٦] سبَّح نَفْسه في تنزيهها من السّوء، كما سبَّحَ نَفْسَه في تَبرئته ـ عز وجل ـ من السّوءِ.

وهذا يشهَدُ لقولِ مالكٍ في قَتْلِ مَنْ سبَّ عائشةَ.

ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أنَّ الله تعالىٰ لَمَّا عظَّمَ سبَّها كما عظَّم سبَّه، وكان سَبُّها سَبّاً لِنَبيِّه عليه السلام وقَرَن سبَّ نبيِّه عليه السلام وأذاهُ بأذاهُ تعالى، وكان حُكْمُ مُؤذِيه تَعالى ـ القَتْلَ ـ، وكان مُؤْذِي نَبِيّه كذلك، كما قدمناه.

وشَتَمَ رجلٌ عائشةَ بالكوفة، فقُدِّم إلى موسىٰ بن عيسىٰ العباسيّ الهاشمي فقال: من حضَر هذا؟ فقال ابنُ أَبي ليلى: أنا، فَجَلَدهُ ثمانين، وحلقَ رَأسه، وأسْلمه للحجَّامين.

١٨٢٨ ـ ورُوِيَ عن عمر بن الخطّاب أنه نَذَرَ قَطْعَ لسانِ عُبَيدالله بن عُمر، إذْ شتَم المِقْدادَ بن الأسود الكندي فكُلِّم في ذلك، فقال: دَعُوني أَقطع لسانَه حتى لا يَشْتُمَ أَحَدٌ بَعْدُ أصحابَ محمد ﷺ.

١٨٢٩ ـ ورَوَى أبو ذَرٍّ الهرَوِي أنَّ عُمَر بن الخطاب أُتِي بأعرابيّ يَهْجُو الأنصار، فقال: لولا أنَّ له صحبةً لكَفَيْتُكُمُوْهُ.

قال مالك: مَن انتقص أحداً من أصحاب النبيّ ﷺ فليس له في هذا الفَيْءِ حقٌّ، قد قسم اللّهُ الفَيْءَ في ثلاثة أصناف فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وهؤلاء هم الأنصارُ.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

فمن تَنَقَّصَهُمْ فلا حقَّ لَهُ في فَيْءِ المسلمين.

وفي كتاب ابن شَعْبان: مَنْ قال في واحدٍ منهم: إنه ابْنُ زانيةٍ، وأُمُّه مُسلمةٌ، حُدَّ عند بعضِ أَصحابنا حَدَّين: حدّاً له، وحَدّاً لأُمّه، ولا أَجعلُه كقاذِفِ الجماعةِ في كلمةٍ لفَضْلِ هذا على غيره.

١٨٣٠ ـ ولقوله عليه السلام: «مَنْ سبَّ أصحابي فاجلدوه».

قال: وَمَن قذفَ أُمَّ أَحدِهم، وهي كافرةٌ، حُدَّ حَدَّ الفِرْيةِ، لأَنه سبٌّ له، فإِنْ كان أَحَدٌ من وَلَدِ هذا الصحابي حيّاً قام بما يجبُ له، وإلاَّ فمَنْ قام به من المسلمين كان على الإمام قَبولُ قيامِه، قال: وليس هذا كحقوقِ غَيْرِ الصحابةِ لحُرْمةِ هؤلاء بِنَبيِّهِمْ عليه السلام، ولو سمِعَه الإمامُ، وأَشْهَد عليه، كانَ وَلِيَّ القِيَامِ به، قال: ومَنْ سبَّ غَيْرَ عائشة من أزواج النبيِّ ﷺ ففيها قولان:

أحدهما: يُقتَل، لأنه سبَّ النبيَّ ﷺ بِسَبِّ حَلِيلَته.

والآخر: أنها كسائر الصحابة، يُجْلَد حدَّ المُفْتَري، قال: وبالأول أقول.

وروى أبو مُصْعَب، عن مالك: مَنْ انتسب إلى بيتِ النبيِّ ﷺ: يُضْرَبُ ضَرْباً وَجِيعاً، ويُشْهَرُ، ويُحْبَسُ طويلاً حتى تظهر توبتُه، لأنه استخفافٌ بحقِّ الرسول عليه السلام.

وأفتى أبو المُطرِّف الشعبي ـ فقيهُ مالَقَة ـ في رَجُلٍ أَنكر تحليفَ امرأةٍ بالليلِ، وقال: لو كانت بِنتَ أبي بَكر الصدِّيق ما حُلِفَتْ إلاَّ بالنَّهار، وصوَّب قولَه بعض المتَّسِمين بالفِقْه، فقال أبو المطرِّف: ذِكْرُ هذا لابْنةِ أبي بكر في مِثْلِ هذا يُوجِبُ عليه الضَّرْبَ الشديدَ، والسجنَ الطويل، والفقيهُ الذي صوَّبَ قوله هو أَحقُّ باسم الفِسْقِ من اسْم الفِقْه، فيُتَقَدَّم له في ذلك، ويُزْجَر، ولا تُقْبَل فَتواهُ، ولا شهادتُه، وهي جُرْحةٌ ثابتةٌ فيه، ويُبْغَضُ في الله.

وقال أبو عِمْران ـ في رجل قال: لو شَهِد عليَّ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيق ـ: إنه إنْ كان أراد أن شهادته في مِثْلِ هذا، لا يَجُوزُ فيه الشاهد الواحِد، فلا شيءَ عليه، وإنْ كان أرادَ غَيْرَ هذا، فيُضْرَبُ ضَرْباً يُبْلَغُ به حدُّ الموت. وذكروها رواية.

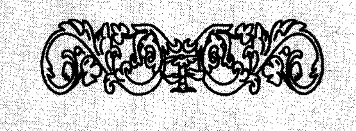
قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: هنا انتهىٰ القولُ بنا فيما حرَّرْناهُ، وانتجز الغرضُ الذي انتحيناه واستُوفِي الشَّرْطُ الذي شَرَطْنَاهُ، مما أرجو أنْ يكون في كل قسمٍ منه لِلمُريد مَقْنَع، وفي كلِّ بابٍ مَنْهَجٌ إلى بُغْيته ومَنْزَعٌ.

وقد سفَرْتُ فيه عن نُكَتٍ تُسْتَغْرَبُ وتُسْتَبْدع، وكَرَعْتُ في مَشَارِبَ من التحقيق لم يورَدْ لها قَبْلُ في أكثر التصانيف مَشْرَع، وأودعْتُه غَيْرَ ما فَصْل، ووِدْتُ لو وَجدتُ مَنْ بَسَط قَبْلي الكلامَ فيه، أو مُقْتَدىً يفِيدُنيه عن كتابه أو فيه، لأكتفِي بما أَرْوِيه عمّا أُرَوِّيه.

وإلى الله تعالى جزيلُ الضَّراعة في المِنّة بقَبولِ ما مِنه لوجْهِه، والعَفْوِ عما تَخلَّله مِنْ تزيُّن وتَصَنّع لغيره، وأنْ يهبَ لنا ذلك بجميل كرمِه وعَفْوه، لما أودعناه

من شَرَفِ مُصْطَفاه، وأمين وَحْيِه، وأَسْهَرْنا به جفونَنا لتَتَبُّع فضائله، وأَعْمَلْنا فيه خواطِرَنا من إبرازِ خصائصه ووسائله، ويحْمِي أعراضَنا عن نارِه المُوقَدةِ لحمايتنا كريمَ عِرْضه، ويجعلَنا مِمَّنْ لا يُذَادُ إذا ذِيدَ المُبَدِّلُ عن حَوْضِه، ويجعله لنا ولِمَنْ تَهَمَّمَ باكْتِتابه، واكتسابه سبباً يَصِلُنا بأَسبابه، وذَخيرةً نجدُها ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] نَحُوزُ بها رِضاهُ، وجزيلَ ثَوابه، ويخصّنا بخِصِّيصَىٰ زُمْرَةِ نبيّنا عليه السلام وجماعته، ويحشرنا في الرَّعيل الأول، وأهلِ البابِ الأيمن، من أهل شفاعته، ونحمده تعالى على ما هَدَى إليه من جَمْعِه وأَلْهَم، وفتح البصيرة لِدَرْك حقائقِ ما أودعناهُ وفَهَّمَ، ونستعيذه ـ جلَّ اسمُه ـ مِنْ دعاءٍ لا يُسْمَعُ، وَعِلْمٍ لا ينْفَعُ، وعملٍ لا يُرْفَعُ، فهو الجَوادُ الذي لا يَخيبُ مَنْ أَمَّلَه، ولا يَنتَصر مَنْ خَذَلَهُ، ولا يَرُدُّ دعوةَ القاصدين، ولا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين، وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، وصلىٰ الله على سيدنا محمدٍ، وآله وصَحْبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

ووقع الفراغ منه آخر النهار، يوم الاثنين، الثاني عشر من رجب الفرد سنة (٧٤٤) في المدرسة القَيْمازيَّة رحم الله واقفها، علىٰ يدي أضعف خلق الله جِرماً، وأكثرهم جُرماً، محمد بن أحمد بن عبدالملك بن رمضان بن محمود الحاج الحنفي الرومي المليفدوني، عفا الله عنهم، وجعل الجنة مثواهم، ولجميع المسلمين والمسلمات، برحمتك يا أرحم الراحمين!



فهرس الأحاديث والآثار[1]

(مرتب على رقم الحديث)

---

(١) رمزنا للأثر بالحرف (ث).

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأشعار

أ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة